

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

إنقاذ البرهان
في علوم القرآن

الجزء الأول

الأستاذ الدكتور
فصل حسن عباس
الجامعة الأردنية

دار الفرقان

رَفَعَ

عبد الرحمن المحمدي
أسكنه الله الفردوس

إنقاذ البرهاني

في علو الفرقان

الجزء الأول

الأستاذ الدكتور

فصل حسن عباس

الجامعة الأردنية

دار الفرقان

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٩٧م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(١٩٩٧/١٠/١٤٩٨)

رقم التصنيف: ٢٢٠

المؤلف ومن في حكمه: فضل حسن عباس

عنوان الكتاب: اتقان البرهان في علوم القرآن

الموضوع الرئيسي: ١- الديانات

٢- القرآن الكريم

بيانات النشر:

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

دار الفرقان

الإدارة والمكتبة - العبدلي - عمارة جوهرة القدس مقابل وزارة التربية والتعليم
تلفون: ٦٤٠٩٣٧ - ٦٤٥٩٣٧ / فاكس: ٦٢٨٣٦٢ ص. ب: ٩٢١٥٢٦ - عمان - الأردن
مكتبة دار الفرقان - اربد - مقابل جامعة اليرموك تلفون: ٢٧٦٥٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد لله رب العالمين

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده.

يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، والصلاة والسلام التامان الدائم المتلازمان، على سيدنا محمد النبي الأمي خاتم الرسل والنبيين صفوة الله من خلقه وخيرته من عباده وعلى آل سيدنا محمد وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

أما بعد:-

فإن رحمة الله التي وسعت كل شيء تظهر آثارها في حياتنا كلها مادةً وروحاً وفي آفاقنا الفكرية والنفسية، ولكن أعظم هذه الآثار، وأجلها قدراً، وأبقاها ذكراً، وأرفعها منارةً، وأنفعها ثماراً وأرقها نسيماً وأدقها تكريماً وأعمها فائدةً، وأزكاها مائدةً، هذا القرآن الكريم؛ وبرهان ذلك ودليله قول ربنا تبارك وتعالى «بسم الله الرحمن الرحيم، الرحمن علّم القرآن خلق الإنسان علمه البيان» حيث ابتدأت هذه السورة الكريمة بالاسم الجليل الرحمن الذي هو كثير الرحمة، وقد ذكر آثاراً ثلاثة من رحمته:- كان أولها تعليم القرآن حيث ذكرت هذه النعمة قبل خلق الإنسان، وتعليمه البيان وفي هذا خير دلالة على أن هذا القرآن الكريم سرُّ الحياة الفاضلة وروحها وأساس الخير، ولقد كانت منه الله عظمة أن خصَّ به خاتم الأنبياء سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم. فأنزله عليه بين البراهين ظاهر الحجج قرآناً عربياً غير ذي عوج وأكرم به هذه الأمة فكان شرفها ومجدها وسرِّ

بقائها وجوهر نقائها ولقد أدركت هذه الأمة مُمثلةً بجيلها الأول ما لهذا القرآن من سيادةٍ وقيادةٍ تتبوأ به من علوٍ منزلةٍ ورفعةٍ ذكر فتفاعلت مع آياته وأسراره، فكانت خير أمةٍ صفاء قلب، ونقاء لب وهداية درب، ولم تذق طعم الوحدة إلا بعد أن أوت إلى كنفه ولم تتسريل سربال العزة إلا بعد أن استطلت بظل شرفه من أجل ذلك وجهت إليه جميع طاقاتها ومنحته من الرعاية والعناية ما لم يُعرف لكتاب غيره.

وقبل أن يشرف القرن الثاني على الرحيل وإذ بآثر هذا القرآن ينتشر عبقه وأريجُه في مكتبات الدنيا كُلِّها، ولم يكن أولئك الكاتبون ولم تكن هذه المكتبات تقتصر على صنفٍ واحدٍ من المعارف، بل كانت متعددة الألوان، لكل لون رائحته الطيبة، فهناك الكتب التي تتحدث عن كيفية النطق بألفاظه وحروفه، وهناك الكتب التي تتحدث عن إعرابه وأساليبه، وهناك التي تتحدث عن علومه ولا تسلم عن نوع هذه العلوم أو عددها فهي كل ما يسمو به الإنسان من معارف ويرقى به من علوم.

ومن هذه العلوم ذلكم العلم الجليل المُسمى علوم القرآن، الذي ينتظم موضوعات ذات شأنٍ وشأورٍ وشرفٍ -منها ما يتصل بالقرآن الكريم من حيث جوهره، ومنها ما يتصل بالقرآن الكريم من حيث عوارضه ومقدماته-.

ولقد شاء الله -راجياً أن يُتم الله عليَّ فضله إن شاء الله- أن يكون لي شرف الإسهام المتواضع لكتابة هذا العلم العظيم وإنِّي إذ أقدم للقراء هذا الكتاب راجياً أن ينفع الله به، لأرجو أن يجد فيه القراء بغيتهم؛ حُسن عرضٍ وسهولةٍ أسلوبٍ وقُربَ مأخذٍ، ولقد توخيتُ في هذا الكتاب

الجدة-والجدية؛ أما الجدة فإنني أوقنُ أن هذا العلم يجب أن يكون علماً متحركاً دائماً مع الزمن في سيره لا يجمد عند زمان معين أو مكانٍ خاص، بل من الأمانة أن يرصد الكاتبون في هذا العلم كل التحركات مشبوهةً كانت أو نظيفة الحركات التي تعني هذا القرآن وتخصه بالبحث والتعليق.

ولكننا وجدنا أن مباحث هذا العلم وقفت على حُقبَةٍ من حقب الماضي فنجد الدارسين لهذا العلم بعيدين عما في عصرهم من شوائب وشبهات، لم تصل إليهم أنباء هذه المعارك التي خاضها جند الحق ليبددوا ظلمات الباطل، هذا هو فهمي لطبيعة هذا العلم، لقد كتب من قبلنا مشكورين عن أدلة الوحي وردَّ الشبهات التي أثارها الماديون، كما نافحوا عن أسلوب القرآن الكريم ولكن الزمان لا يقف إلا حينما يشاء الله، وفي أيامنا هذه دخلت هذه الشبهات مُنعطفاً جديداً وهناك من يُروِّج هذه الشبهات على أنها هي العلم، فكيف يجوز أن نوليها الأدبار وهي تفعل في عقول شبابنا ومتقفينا ما لا يقل عما تفعله المخدرات، لهذا فإنني أرجو أن يجد القاريء في هذا الكتاب جديداً من حيث المادة والموضوع، هذا من حيث الجدة.

أما الجدية فأرجو أن يكون أثرها ظاهراً كذلك، فمع إجلالي علماغا الذين كانت لهم كتابات مشكورة فإنني لم أنقل كل ما كتبوه على أنه مسلمات لا ينبغي الخروج عنها، ولكنني قبلتُ ورفضتُ وناقشتُ ورجعتُ فوافقتُ وخالفتُ، وأرجو أن يجد القاريء الكريم أثر هذا، ولا أدعي السلامة في كل ما قررت والصحة لكل ما رجحت، فأنا بشرٌ يصيبُ ويخطئُ، ورحم الله امرأً أهدى إليَّ عيوب نفسي، هذا ما روي عن سيدنا عمر رضي الله عنه

وإني أولى بهذا منه ولقد كنت أملُ أن يظهر هذا الكتاب قبل عامٍ ولكن شاء الله غير هذا. فبينما كنت أعدة لإرساله إلى الطباعة ابتلانا الله تبارك وتعالى وله الحمد بوقاةٍ ابنتي أمانة بعد مرضي عضال عن ثلاثة عشرة سنة فإننا لله وإنا إليه راجعون وأرجو الله أن يتغمدنا وأمواتنا وأموات المسلمين بالرحمة.

وأخيراً أرجوا أن يكون هذا العمل خالصاً لوجه الله تبارك وتعالى وأن ينفع به وأن يكون في ميزان حسناتي ووالدي.

على أنني أشكر كل من أسهم في إخراج هذا الكتاب سائلاً الله أن يكرمهم المثوبة، وسَمِيَتْهُ [إِتْقَانُ الْبِرْهَانِ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ] تَيْمَنًا واعترافاً لمؤلفي هذين الكتابين البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي، والإِتْقَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ لجلال الدين السيوطي رحمهما الله تعالى، وأسأل الله أن يَمُنَّ علينا باللطف والهداية والتوفيق وأن يغفر لنا ولوالدينا ووالديهم ومشايخنا وذوي الحقوق علينا وأن يصلح لي في ذريتي إنه سبحانه نعم المولى ونعم النصير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

الراجي عفو ربه

فضل حسن عباس

جهود العلماء في علوم القرآن

إن كثيراً من موضوعات علوم القرآن، كان الحديث عنها مبكراً منذ عهد الصحابة-رضوان الله عليهم- وذلك مثل المكي والمدني، وأسباب النزول، والنسخ، والمحكم والمتشابه، وغير ذلك من موضوعات وجدنا الصحابة رضوان الله عليهم لهم فيها حديث قد يقل وقد يكثر... ولكن هذا الحديث كان حديثاً خاصاً ببعض الآيات القرآنية الكريمة... السيدة عائشة رضي الله عنها تبين لنا أن قول الله تعالى: «بل الساعة موعدهم»^(١) نزلت في مكة وهي طفلة صغيرة، وأن سورة النساء نزلت وهي في بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، وعبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- يبين لنا أن قوله تعالى «أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب»^(٢) ضربت مثلاً. وأن قوله «إذا جاء نصر الله والفتح» نعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم نفسه، وعبد الله بن الزبير-رضي الله عنه- وهو يسأل عثمان عن ترتيب الآيات، إن قوله «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول»^(٣) منسوخة بقول الله «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً»^(٤) وكثير من الصحابة -رضوان الله عليهم- تحدثوا عن أول القرآن وآخره نزولاً وكثير مثل هذا نجده في كتب السنة.

(١) القمر: آية (٤٦).

(٢) البقرة: آية (٢٦٦).

(٣) البقرة: آية (٢٤٠).

(٤) البقرة: آية (٢٣٤).

ولكن هذا العلم كغيره من العلوم من حيث التدرج في التدوين، ولما كانت كتب التفسير بدأ تدوينها في القرن الثاني والثالث الهجريين، وقد كانت مسائل هذا العلم جزءاً من علم التفسير أقول لما كانت كتب التفسير قد دونت مبكراً، اقتضى هذا الأمر تدوين بعض قضايا علوم القرآن مبكرة كذلك. وفي القرن الثاني الهجري بدأ التدوين لموضوعات هذا العلم، فكتب علي ابن المديني شيخ البخاري -رضي الله عنهما- في أسباب النزول.. ثم توالى الكتابات في موضوعات هذا العلم، فكتب بعضهم في النسخ، وآخرون في مبهمات القرآن، والمكي والمدني، وفضائل القرآن، وغير ذلك من موضوعات هذا العلم، ولكن أول كتاب اشتمل على موضوعات هذا العلم كان كتاب فنون الأفتان في علوم القرآن للعلامة أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى (٥٩٧هـ)، فقد تحدث في كتابه عن فضائل القرآن، وكونه غير مخلوق، ونزول القرآن على سبعة أحرف، وكتابة المصحف وهجائه، والمحكم والمتشابه، وقد طبع الكتاب لأول مرة عام (١٤٠٨هـ) بتحقيق الدكتور حسن ضياء الدين عتر، شقيق العالم الفاضل أخينا وحبيبنا الدكتور نور الدين عتر. ويعد ابن الجوزي كتبت موضوعات في القراءات، والمكي والمدني، ومتشابه القرآن... ولكن أكثر الكتب جمعاً وسعة بعد كتاب ابن الجوزي كان كتاب البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي المتوفى (٧٩٤هـ) ثم جاء الحافظ السيوطي، فكتب كتابه الجامع: "الإتقان في علوم القرآن". ونستمع إلى السيوطي -رحمه الله- وهو يحدثنا عن الكتب التي سبقت كتابه، فيقول: "ولقد كنت في زمان الطلب أتعجب من المتقدمين إذ لم يدونوا كتاباً في أنواع

علوم القرآن، كما وضعوا ذلك بالنسبة إلى علم الحديث، فسمعتُ شيخنا أستاذ الأستاذين..... أبا عبد الله محي الدين الكافجي يقول: قد دونتُ في علوم التفسير كتاباً لم أُسبق إليه فكتبته عنه فإذا هو صغير الحجم جداً وحاصل ما فيه بابان:

الأول: في ذكر معنى التفسير والتأويل والقرآن والسورة والآية.

الثاني: في شروط القول فيه بالرأي.

وبعدهما خاتمة في آداب العالم والمتعلم، فلم يشف لي ذلك غليلاً ولم يهديني إلى المقصود سبيلاً.

ثم أوقفني شيخنا.... عَمُّ الدين البلقيني رحمه الله تعالى على كتاب في ذلك لأخيه قاضي القضاة جلال الدين سماه [مواقع العلوم من مواقع النجوم] فرأيتُه تأليفاً لطيفاً ومجموعاً ظريفاً ذا ترتيب وتقدير وتنويع وتحبير.... ثم تكلم في كل نوع منها بكلام مختصر يحتاج إلى تحديد وتتمات وزوائد مهمات. فصنفت في ذلك كتاباً سميتُه [التحبير في علوم التفسير] ضمنته ما ذكر البلقيني من الأنواع مع زيادة مثلها وأضفت إليه فوائد سمحت القريحة بنقلها..... ثم خطر لي بعد ذلك أن أُؤلف كتاباً مبسوطاً ومجموعاً مضبوطاً أسلك فيه طريق الإحصاء وأمشي فيه على منهاج الاستقصاء. هذا كُلُّه وأنا أظنُّ أنني متفردٌ غير مسبوق بالخوض في هذه المسالك، فبينما أنا أجيلُ في ذلك فكراً، أقدم رجلاً وأؤخر أخرى إذ بلغني أن الشيخ الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي أحد متأخري أصحابنا الشافعيين، أَلَّفَ كتاباً في ذلك حافلاً يُسمى [البرهان في علوم القرآن]

فتطلّبتَه حتى وقفتُ عليه.

مماً تقدّم ندرك أنّ بدر الدين الزركشي والحافظ السيوطي لم يطلّعا على كتاب [فنون الأفتان] لابن الجوزي رحمهم الله جميعاً وندرك كذلك أنّ الكتب في علوم القرآن الكريم لم تكن كلها سواءً فكان منها المختصرٌ وغيره، وأنّ أوسع هذه الكتب كتابا [البرهان والإتقان] وإذا أردنا أن نوازن بين الكتابين فإننا نجد أن كتاب السيوطي رحمه الله كان أكثر جمعاً من سابقه "البرهان"، فقد عوّل عليه السيوطي كثيراً، ولكن مع ذلك فإن كتاب الإتقان تضمّن أموراً كان حرياً أن يخلو منها ويتنزه عنها، سواءً أكانت رواياتٍ ضعيفةً أم أقولاً باطلةً حتى إن الشيخ الغماري رحمه الله كتب جزءاً صغيراً نبّه فيه على بعض المواطن الخطيرة التي اتكأ عليها المستشرقون وغيرهم من خصوم الإسلام فيما وجهوه من سهام الحقد إلى كتاب الله بخاصة وإلى الإسلام بعامة.

وكتاب البرهان يشتمل على سبعة وأربعين نوعاً بينما يشتمل كتاب الإتقان على ثمانين نوعاً، وإذا نظرنا إلى هذه الأنواع وجدنا كثيراً منها متداخلاً بعضه ببعض، ومماً امتاز به كتاب البرهان إطالته النفس في القضايا اللغوية وأساليب القرآن الكريم.

لقد طبّع الكتاب في أربعة أجزاء، فكان نصيب النوعين الأخيرين

* كتبت رسالة لنيل درجة الدكتوراة في الموازنة بين الكتابين في الجامعة الإسلامية لكنني لم أطلع عليها.

السادس والأربعين والسابع والأربعين وهما في الأساليب والأدوات اللغوية يزيد على نصف الكتاب حيث تحدثَّ عنهما في جزأين الثالث والرابع وشيء من الجزء الثاني، وهذه المادة اللغوية التي لم يطلع عليها كثير من طلاب العلم حرية بالاهتمام جديرة بأن تكون مادة لطلاب الدراسات العليا، ثم إن علوم القرآن اشتملت قضايا كثيرةً تتصل بعلوم متعددة منها علم أصول الفقه: الخاص والعام، المطلق والمقيد، والنسخ، كما تجد فيها من علمي النحو والصرف كإعراب القرآن وصيغ كلماته واشتقاقها، ومن المعاني كالقصد والاستفهام والتمني والالتفات والتقديم والتأخير، ومن علم البيان كتشبيهات القرآن ومجازاته واستعاراته وكنياته، ومن علم البديع كالجناس والسجع، ومن علوم القراءات والتجويد كإقسام القراءات وأحكام المدود والإخفاء والإقلاب... الخ

هذه المباحث الكثيرة التي ضمنها العلماء كتبهم في علوم القرآن أخذت حيزاً كبيراً منه، على أننا ينبغي أن نُسجَلَ هنا أن بعض هذه الموضوعات كانت غزيرة الفوائد، ثم إن هذه الكتب وبخاصة كتابي البرهان والإتقان لا بُدَّ من دراستهما وتحققهما تحقيقاً علمياً ومناقشة كثيرٍ مما جاء فيهما وخاصة الإتقان وقد طُبِعَ هذا الكتاب طبعات مختلفة أشرف عليها بعض العلماء لكنَّ ما فعلوه- مشكورين- لا يشفي عِلَّةً ولا يُذهب ظمأً -وأسأل الله تبارك وتعالى أن يُعيننا على إخراج هذا الكتاب مع ماله من منزلة عند العلماء، وكنت أسمع من خالي رحمه الله الشيخ يوسف عبد الرزاق الذي كان أستاذاً في جامعة الأزهر: أن كتاب الإتقان بحرٌ لا ساحلَ له، وقد عوَّل العلماء على

كتاب الإيتقان رديحاً طويلاً من الزمن فبقي الكتاب الذي لا ينازعه كتاب آخر من بداية القرن العاشر إلى منتصف القرن الثالث عشر الهجري حتى إن كتاب البرهان لم يعرفه الناس إلا منذ أربعين سنة حين طُبِع لأول مرة سنة ألف وتسعمئة وسبع وخمسين، وبعد النهضة العلمية في هذا العصر توجه العلماء -مشكورين- إلى الكتابة في هذا العلم ونظن أن أول كتاب ظهر في هذا العصر كان كتاب [التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الإيتقان] للعلامة المجاهد الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله تعالى وقد طُبِع في عام ألف وثلاثمائة وخمسة وثلاثين للهجرة قبل ثلاثة وثمانين عاماً وثلاً كان النظام الجديد للأزهر سنة ألف وتسعمئة وأربع وثلاثين كتب الشيخ محمد سلامة كتابه [الفرقان في علوم القرآن] لطلاب كلية أصول الدين وفق المنهج المقرر لطلاب الكلية، ثم كتب الشيخ الفاضل العلامة محمد عبد العظيم الزرقاني كتابه [مناهل العرفان في علوم القرآن] بأسلوب شيق وكان أوسع وأشمل من الكتابين السابقين عام ١٩٤٣، ولقد أصبح هذا الكتاب مرجعاً لطلاب العلم يردون حوضه فينهلون منه ويصدرون عنه.

وهذه الكتب الثلاثة سارت على منهج السيوطي رحمه الله في كتاب الإيتقان فتبنت آراءه وكادت تلتزم كثيراً مما جاء فيه إلا أنها خالفت في شيء واحد وهو أمر جوهري حيث اقتصررت هذه الكتب على ماله صلة مباشرة في هذا العلم فلم تذكر كثيراً من المباحث والأصول التي ذكرها السيوطي في الإيتقان، ثم بعد هذه الحقبة كتب بعض الأساتذة الفضلاء ما يتفق مع المنهج الجامعي، ومن هؤلاء الشيخ عبد المجيد غزلان رحمه الله وكتابه [البيان في

مباحث من علوم القرآن] وهو كتاب دقيق فيما عَرَضَ له من مسائل، مُحَكَّمُ العبارة وقد أهدت منه في مواضع كثيرة من هذا الكتاب لكنه كان وفق المنهج المقرر لطلاب كلية أصول الدين في الأزهر فخلا عن كثير من الموضوعات، ومن هؤلاء كذلك الشيخ أحمد الكومي -رحمه الله- فقد كتب كتاباً موجزاً في علوم القرآن وآخر سماه [فصل الخطاب في سلامة القرآن الكريم]، ولا ننسى كتاب [مباحث في علوم القرآن] لأخيها الدكتور صبحي الصالح رحمه الله، فلقد اشتهر كثيراً في بلاد الشام وبلاد الرافدين وامتاز بذكر كثير من قضايا المستشرقين وأرائهم.

ولا يقوتني أن أنبئه على أن هناك رسائل قدمت لنيل درجات علمية في مباحث من علوم القرآن وهي رسائل كثيرة، إلا أن هذا العلم كما قلت من قبل يجب أن ينبض بالحركة دائماً وأن يرصد كل التحركات التي تعرض للقرآن الكريم ليبارك جيدها ويدفع غثها، تلكم عجالة موجزة لجهود العلماء في الكتابة في هذا العلم.

جزى الله كل من أسهم في خدمة هذا الكتاب الكريم والسنة النبوية والدين الحنيف خير الجزاء.

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الأول

واجبنا نحو كتاب الله تعالى :

ونتحدث فيه عن :

كيف تكون التلاوة .

التدبر .

الفصل الأول

واجبنا نحو كتاب الله تعالى

إن من أعظم نعم الله تعالى هذا القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه ولا ينطفئ نوره ولا يخلق على كثرة الرد بل يظل جديداً يزيد التكرار حلاوة ولا يزيده مرور الزمن إلا سطوعاً وثباتاً وخيراً ما يدلنا على عظمة هذا الكتاب: القرآن الكريم نفسه والنبى الذي نزل عليه الكتاب صلى الله عليه وسلم.

يقول الله تبارك وتعالى: «الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله...»^(١).

ويقول الله تبارك وتعالى: « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلمهم يتقون»^(٢).
ويقول سبحانه: «وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً تهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور»^(٣).

ويقول سبحانه: «يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً»^(٤).

(١) الزمر: آية (٢٣).

(٢) الزمر: آية (٢٧).

(٣) الشورى: آية (٥٢-٥٣).

(٤) النساء: آية (١٧٤).

ويقول سبحانه: «فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا»^(١) ويقول سبحانه: «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم»^(٢).

ويقول سبحانه وتعالى: «الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين»^(٣) ويقول سبحانه: «وإنه لذكر لك ولقومك»^(٤)، «إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون»^(٥).

ويقول سبحانه: «وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها»^(٦) ويقول العزيز العليم: «وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون»^(٧).

ويقول سبحانه: «وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون»^(٨) ويقول سبحانه: «ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا...»^(٩) وحديث القرآن عن القرآن يحتاج إلى كتاب لمن أراد أن يستوعبه.

أما سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نزل عليه الكتاب فهو خير من يبينه ويبين فضله، وخير من يتحدث عنه، وما أكثر الأحاديث التي

(١) التغابن: آية (٨). (٢) المائد: آية (١٥). (٣) البقرة: آية (٢-١).

(٤) الزخرف: آية (٤٤). (٥) الواقعة: آية (٧٧-٧٩).

(٦) الأنعام: آية (٩٢). (٧) الأنعام: آية (١٥٥).

(٨) الأنبياء: آية (٥٠). (٩) طه: آية (١٢٤).

وردت في فضل القرآن وفضل قارئيه فهو حبل الله المتين من حكم به عدل
ومن تمسك به رَشَد ومن اعتصم به فقد هُدي إلى صراط مستقيم.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" ^(١).

ويقول عليه الصلاة والسلام: "الماهر بالقرآن مع السفرة البررة، والذي يقرأه
ويتتبع فيه وهو عليه شاق فله اجران" ^(٢).

"مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة طعمها طيب وريحها
طيب، ومثل المؤمن الذي يعمل بالقرآن ولا يقرأه كالتمرّة طعمها طيب وليس
لها ریح، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مرّ،
ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مرّ ولا ریح لها" ^(٣). وفيما
يرويه عن ربه تبارك وتعالى: "وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه نائماً
ويقظاناً" ^(٤).

وفي الحديث الشريف "أهل القرآن هم أهل الله وخاصته" ^(٥) ومن أراد

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن باب "خيركم من تعلم القرآن" (٧٤/٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، سورة عبس (٦٩١/٨) ومسلم، كتاب صلاة المسافرين باب
فضل الماهر بالقرآن (٥٤٩/١).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام (٥٥٥/٩) ومسلم، كتاب صلاة المسافرين،
باب فضيلة حافظ القرآن (٥٤٩/١).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا (١٩٨/١٧)
بشرح النووي.

(٥) أخرجه أحمد (١٢٨/٣ و ٢٤٢) والنسائي وابن ماجه وصححه الحاكم (ترغيب ٣٥٤/٢).

المزيد ففي كتب السنة المطهرة وكتب فضائل القرآن ما يُثجُّ الصدر ويطمئن القلب.

وإذا كان هذا شأن القرآن الكريم فإن من نافلة القول أن نتعامل معه التعامل الذي يليق بجلاله فالقرآن كائن حي يُقبل عليك بقدر ما تُقبل عليه. وقد أودع الله في هذا القرآن جميع أسس الخير وقواعد النجاة وأسباب النجاح وأصول الرفعة فهو كتاب الحياة والأحياء فيه نبأ من قبلكم، وخير من بعدكم، وحكم ما بينكم تضمن أصول العقائد التي تحمي الانسان من الخرافات وترتفع به ارتفاعاً يُزكي نفسه ويُطهر قلبه وفيه من أصول العبادات ما يستطيع به الانسان أن يضبط أموره وتصرفاته. بحيث يكون عنصر خير في هذه الحياة، وفيه من أصول المعاملات ما ينشر الخير بين الناس، حرّ العقول والقلوب بما شرّعه من نُظم الخير «وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»^(١).

وليس هناك كتاب في الدنيا سما بالانسان مثل هذا الكتاب واشتمل على ما اشتمل عليه هذا الكتاب من قواعد التشريع وأسس الهداية. وتمتاز هداية هذا القرآن الكريم الذي يهدي للتي هي أقوم بمزايا فذة، فهي أولاً هداية تامة ومعنى تمامها أنها لم تترك جانباً من الجوانب التي يحتاج إليها الانسان أو تشريعاً من التشريعات التي تسمو به إلا بينها القرآن خير بيان.

(١) فصلت: آية (٤١-٤٢).

ثم هي بعد ذلك هداية عامة ومعنى عمومها: أنها لم تأت لعصرٍ خاص أو مكان خاص بل هي للخلق جميعاً على اختلاف اعصارهم وأمصارهم هدفها تربية نوع الانسان. ثم هي بعد ذلك هداية دائمة ومعنى دوامها: أنها باقية ما بقي الانسان.

والمتدبر لأحكام القرآن وموضوعاته يجد ما يثلج الصدر ويطمئن القلب ويوجب الشكر لله رب العالمين وإليك مسرداً لبعض هذه الأحكام، وقد جاء هذا المسرد في الجزء الرابع من أحكام القرآن لابن العربي أثرت أن أنقله هنا ليطلع القارئ الكريم على الثروة العلمية في هذا القرآن، على أن هناك أكثر من كتاب أفرد لبيان موضوعات القرآن الكريم ولعل أشهرها [تفصيل موضوعات القرآن للعالم الفرنسي الذي ترجمه محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله] وإليك بيان هذا المسرد.... لتطلعوا من خلاله على عظمة هذا الكتاب الخالد لتستشعر الواجب الملقى على عاتقنا نحو هذا الكتاب الكريم. "الإجارة، الاجتهاد، الإرث، الاستئذان، الأسرى، الإيلاء، الإيمان، البيع، البيعة، التجارة، التحية، الجار، الجزية، الجهاد، الحج، الحسد، الحرم، الحضانة، الحكم والخلافة والولاية، الحمل، الحيض، الخمر، الدية، الزكاة، الرضاع، الدين، الربا، الرق، الرهن، الزكاة، الزنا، السرقة، الشعر، الشهادة والإقرار، الشهيد، الصدقة، الصيد، الصلاة والمساجد، الصلح، الصيام، الضمان، الطلاق، الطهارة، الظن، الظهار، الاعتكاف، العدة، الحمل والقصا، العلم، العهد والعقد، العين، الغنائم، القرعة، القصاص، القضاء، قطع السبيل، الكذب، الكفالة، كنز المال، اللواط، ما حرم الله، المراهنة، المشاورة، الكره،

المهر، النكاح، النذر، النسب، النسيء، النفقة، الهبة، الوصية، الوضوء،
الوقف، الوكالة، اليتيم، اليمين، أحكام متفرقة، من عادات الجاهلية، النظر
إلى ما لا يحل شرعاً، الهجرة.

وتحت كل حكم من هذه الأحكام فروع كثيرة، ومسائل وقضايا متعددة،
أخذت من كتاب أحكام القرآن ما يقرب من عشرين صفحة، يرجع إليها من
شاء، وإنما اثرت نقل هذه الأحكام:

أولاً: ليدرك القارئ غناء هذا الكتاب الكريم وثروته العلمية وما فيه من
مقومات الإصلاح والصلاح وتشعب موضوعاته بما يقوم جوانب هذا الانسان
جميعها، أعني الجانب المادي والجانب الروحي، والجانب النفسي، والجانب
الفكري، فلكل جانب من هذه الجوانب نصيب في هذا القرآن، لا يظلم فيه
جانب على حساب جانب آخر كما فعلت الفلسفات التي تحدثت عن الطبيعة
وعما وراء الطبيعة وكما وجدنا في كثير من الديانات سماويها وأراضيها.

ففي الجانب النفسي: يحول بين الانسان وبين ما يعتري كثيرين من قلق
واضطراب وانفصام وكآبة، حتى لقد صارت المشافي النفسية تزاخم المشافي
الجسمية، وربما صار المرضى نفسياً يزيدون على كثير من المصابين
بالأمراض الجسمية، فهذا القرآن يركز الطمأنينة في النفس وتنزل به السكينة
على القلب. وأعد هذا الانسان إعداداً تاماً في الجانب المادي، حيث أباح له
الطيبات وحرّم عليه الخبائث وشرع له ما يزيده قوة وصلابة، فهو متألق في
مظهره، نظيف في ثوبه ويدنه قوي الشكيمة، ولا نجد عناية شاملة كعناية
القرآن بهذا الجانب المادي.

وفي الجانب الفكري: منحه القدرة على الاستنتاج وذلك فيما شرعه من مناهج تسمو بالفكر ليكون فكراً بناءً يعلمه المسلم فيما يعود بالخير على الانسانية وفي الحياة وفي الكون.

أما الجانب الروحي: فلقد كان هذا القرآن فيه سر عجيب يظهر ذلك في تلاوته والاستماع إليه، فهو يصل القارئ والمستمع بالملأ الأعلى، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم «ألا بذكر الله تطمئن القلوب»^(١).

وهذه الجوانب المتعددة ما عرفنا أن كتاباً واحداً كان له السبق في إصلاحها مثل هذا القرآن.

ثانياً: لتكون برهان إقناع ورداً مهذباً لأولئك الذين رموا القرآن الكريم بما يجل عنه ظلماً وزوراً، فادّعوا أن ليس في القرآن شيء يركن إليه من المعارف والعلوم، وألوان الفكر وأسس المنطق، وسيأتيك نبأ أولئك مفصلاً حينما أحدثك عن أنواع الشبهات وبعض الفئات التي حاولت على ما بينها من تباين أن تلتقي وتجتمع لتضرب المسلمين في دينهم عن قوس واحدة.

ثالثاً: لعل ما ذكرته يكون حافزاً لك على أن تتطلع لتتصلع من بلسم

هذا القرآن الشافي وزاده الثر فتتقي أسباب الضعف والهوان والشر.
«يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور
وهدى ورحمة للمؤمنين، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون»^(٢) وإذا كان هذا شأن القرآن الكريم فكيف يجب أن نتعامل معه؟

(١) المرعد: آية (٢٨).

(٢) يونس: آية (٥٧-٥٨).

إن في كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام
وأقوال الصحابة وسلوك العلماء خير ما يوجهنا لكيفية التعامل مع هذا
الكتاب.

الترتيل: لقول الله تبارك وتعالى «ورتل القرآن ترتيلاً»^(١) ولقوله في
سورة الفرقان: «كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً»^(٢) ولقوله سبحانه:
«كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته، وليتذكر أولوا الألباب»^(٣) ويقول جل
وعلا: «أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً
كثيراً»^(٤) وقال: «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها»^(٥) ويقول: «إن
الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية
يرجون تجارة لن تبور»^(٦).

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام: "ما اجتمع قوم في بيت من بيوت
الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة
ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده"^(٧).

ويقول عليه السلام "إقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً

(١) المزمّل: آية (٤). (٢) الفرقان: آية (٣٢).

(٣) ص: آية (٢٩). (٤) النساء: آية (٨٢).

(٥) محمد: آية (٢٤). (٦) فاطر: آية (٢٩).

(٧) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة باب ثواب قراءة القرآن (٧١/٢) وأصله في مسلم. بآتم من

هذا رقم: (٢٧٠) في كتاب الذكر، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن.

لأصحابه، أقرأوا الزهراوين: البقرة وآل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان....»^(١) الحديث وفي الحديث القدسي "من شغله قراءة القرآن عن مسألتني أعطيته أفضل ما أعطي السائلين"^(٢).

ويقول عليه السلام "زينوا القرآن بأصواتكم"^(٣) وفي رواية: "زينوا أصواتكم بالقرآن ويقول عليه الصلاة والسلام "ليس منا من لم يتغن بالقرآن"^(٤).

ويقول عليه الصلاة والسلام "لا حَسَدَ إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار...."^(٥).

وروى الترمذي من حديث ابن مسعود "من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها"^(٦).

(١) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة القرآن (٥٥٣/١)، رقم (٨٠٤).

(٢) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن رقم (٢٩٢٧) والدارمي (٤٤١/٢) وإسناده ضعيف وقال الترمذي حسن غريب.

(٣) أخرجه أبو داود كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القرآن (٧٤/٢) والنسائي (١٧٩/٢) والدارمي (٤٧٤/٢).

(٤) أخرجه البخاري كتاب التوحيد رقم (٧٥٢٥) وأحمد (١٧٢/١) وأبو داود (٧٤/٢).

(٥) أخرجه البخاري / فضائل القرآن، باب اغتباط صاحب القرآن (٦٥/٩) ومسلم رقم ٨١٥.

(٦) أخرجه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرء حرفاً (١٧٥/٥) وقال: حسن صحيح غريب.

ويقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وهو الذي جاء فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم "من أراد أن يقرأ القرآن غصاً طرياً فليقرأه على قراءة ابن أم عبد"^(١).

ففي الصحيحين عن ابن مسعود، أن رجلاً قال له: إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة، فقال هذا كهذا الشعر إن قوماً يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع^(٢).

وأخرج الأجرى في [حملة القرآن] عن ابن مسعود قال: لا تنتروه نثر الدقل ولا تهذوه هذا الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة^(٣).

ويقول رضي الله عنه للحارث بن قيس "إنك في زمان تُحفظ فيه حدود القرآن ولا يبالون حفظ كثير من حروفه وسيكون قوم بعدكم بزمان تُحفظ فيه حروف القرآن وتضيع فيه حدوده"^(٤).

من هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والآثار الطيبة يدرك المسلم واجبه نحو القرآن الكريم.

أولاً: يجب على المسلم أن يُكثر من قراءة القرآن الكريم لأن تلاوته

(١) أخرجه أحمد (٤٤٥/١) والحاكم (٢١٧/٢) وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين، باب ترتيل القرآن (١٠٤/٦) وأخرج البخاري أوله برقم ٧٧٥.

(٣) الإتيان ١٠٨/١.

(٤) فضائل القرآن لابن الضريس ص ٢٦ تحقيق غزوة بدير.

عبادة تجلو صدأ القلب وتُذهبُ ظُلْمَةُ العقل وتسمو بالروح وتفرجُ بها
الكربُ ويستشعر المسلمُ بها أنسَ القرب من الله تبارك وتعالى فإن خير ما
يُقَرَّبُ الإنسان من ربه المناجاة، مناجاة الله لعبده ومناجاة العبد لربه.

أما مناجاة الله لعبده فتلاوته كتابه وأما مناجاة العبد لربه فإن يصلي
على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثمَّ إن لتلاوة القرآن أشياء
أُخِرُ ففيها الأجر العظيم والثواب الكبير في كل حرف عشر حسنات "لا أقول
الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف"^(١) وفي فضل التلاوة آيات
كثيرة وأحاديثٌ متعددة، تجارة لن تبور، ودرجات في الآخرة، يقال لصاحب
القرآن إقرأ فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها^(٢).

لذلك كان البيت الذي يقرأ فيه القرآن كثيراً نوره عظيماً، يترأى نوره
لأهل السماء كما تترأى النجوم لأهل الأرض، ثمَّ إن هذه التلاوة التي تُهذبُ
النفس ليس أثرها للتالي وحده بل ينتشر عبقُّها وينتشر أريجها الطيب
وعرفها الزكي ليعمَّ كثيرين ممن لهم صلة بقارئ القرآن فهو يشفع لنبيه
وأهل بيته ويكرمُ بتلاوته والداه وذريته كما روي في بعض الآثار: يحشر
والدا قارئ القرآن وعليهما حُلٌّ يُقال هذا ببركة قراءة ولدكم القرآن^(٣).

ورحم الله الشاطبي ورضي الله عنه حيث يقول في قصيدته [الشاطبية

(١) رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن رقم (٢٩١٠).

(٢) أخرجه أحمد (٤٠/٣) وأبو داود (٧٣/٢) والترمذي (١٧٧/٥).

(٣) أنظر الترغيب والترهيب (٢٤٩/٢).

في القراءات السبع] التي سماها حرز الأمانى ووجه التهاني:

وإن كتاب الله أوثق شافع	وأغنى غناءً واهباً متفضلاً
وخير جليس لا يمل حديثه	وترداده يزداد فيه تجملاً
وحيث الفتى يرتاع في ظلماته	من القبر يلقاه سنأ متهللاً
هنيئاً مريئاً والداك عليهما	ملابس أنوار من التاج والحلي
فما ظنكم بالنجل عند جزائه	أولئك أهل الله والصفوة الملا

فما أسعدَ وارشدَ من يكرمه الله بدوام قراءة هذا القرآن.

فاحرص أيها المسلم وأيتها المسلمة على تلاوة هذا الكتاب، تفاعلوا معه ليتفاعل في نفوسكم وحذار حذار من أن يشملك قول الله على لسان رسوله: «وقال الرسول يا رب إني قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً»^(١) فالجوف الذي ليست فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب والمكان القفر والأرض السبخة التي لا تحفظ ماءً ولا تنبت كلاً، وكلما كنت أكثر مهارة في تلاوة القرآن وأحسن أداء كنت أكثر أجراً، وماذا تريد أكثر من أن تكون مع خيار الملائكة السفرة الكرام البررة.

أما إذا وجدت مشقة في تلاوته فاستعن بالله ولا تعجز، فسيكون لك في هذه التلاوة أجران.

(١) الفرقان: آية (٢٠).

كيف تكون التلاوة:

وينبغي أن تعلم أن تلاوة القرآن يجب أن تختلف عن غيرها من قراءة الصحف والكتب فهي تلاوة خاصة، لذلك يقول الله تبارك وتعالى «يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً» فما هو الترتيل وكيف يُرتّل القرآن؟

لكي نعرف لبّ هذه الكلمة نتأمّل ورودها في القرآن فقد جاءت في سورة المزمّل وجاءت في سورة الفرقان «ورتّلناه ترتيلاً» فكلمة الترتيل في سورة المزمّل جاءت في سياق صلاة الليل وكلمة الترتيل في سورة الفرقان جاءت في سياق الرد على الكفرة وفي الحديث عن تثبيت الفؤاد. ويفهم من هاتين الآيتين أن الترتيل هو التؤدة والتأني في قراءة القرآن، وهذه التؤدة وهذا التأني يجعل للقرآن مذاقاً خاصاً في نفس التالي. قال الراغب رحمه الله:

الرَّتْلُ: اتساق الشيء وانتظامه على استقامة

يُقَالُ: رَجُلٌ رَتْلٌ لِأَسْنَانٍ

والترتيل: إرسال الكلمة من الفم بسهولة واستقامة، قال تعالى: «ورتّل القرآن ترتيلاً»، «ورتّلناه ترتيلاً».

وإذا اردنا أن نفهم معنى الترتيل فهماً جيداً، لا بُدّ من أن نستذكر الأحاديث النبوية التي جاءت في وصف قراءته عليه الصلاة والسلام بأنها كانت مدأً وفي رواية عدأً ومن أجل هذا كُرّهت السرعة في القراءة وهي التي تسمى هذا، ومما سبق ندرك أننا لا بُدّ أن من ندأوم على قراءة القرآن

الكريم ونرتله ترتيلاً، نقرأه على تَوْدَةٍ وتأنٍ وترسل وأن لا نهجره ونتركه، فإن القرآن أشدَّ تفلتاً من الابل كما قال عليه الصلاة والسلام.

أخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنما مثلُ صاحب القرآن كمثل صاحب الابل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت"^(١).

ولكي يؤدي الترتيل ثماره فإننا أمرنا بتحسين الصوت في قراءة القرآن الكريم.

وتحسين الصوت ينتج عنه التفاعل والرغبة في القراءة والتأثر والتأثير فصاحب الصوت الحسن يتأثر ويؤثر في غيره.

يدلُّك على هذا "حسنوا أصواتكم بالقرآن"^(٢) "ما أذن الله لشيء ما أذن لنبيٍّ يتغنَّى بالقرآن"^(٣)، "من لم يتغن بالقرآن فليس منا"^(٤).

وقد اختلف العلماء في معنى التغني فذهب بعضهم إلى أنه الاكتفاء به عن غيره.

وقال آخرون: الاستغناء به عن متاع الدنيا. وذهب الشافعي والأكثرون: إلى أن التغني: أن تُجملَ صوتك بالقرآن وتجهر به، فهذا التغني يزيد القارئ

(١) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن (٧٩/٩) ومسلم (٥٤٣/١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن (٦٨/٩) ومسلم (٥٤٥/١).

(٤) سبق تخريجه.

والمستمع تعلقاً بالقرآن الكريم، ويمكن أن يحمل الحديث على هذه المعاني جميعها كما نقله القسطلاني عن ابن حجر، ويُستدل لهذا بما جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، سمع أبا موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ وقد سرُّ بقراءته فقال: "لقد أعطيتُ مزماراً من مزامير آل داود" ^(١) فقال أبو موسى: "لو علمتُ بك لحبرته لك تحبيراً" ^(٢) أي جمل به صوته وحسنه أكثر من ذي قبل، ولكن تجميل الصوت لا ينبغي أن نخرج به عن قواعد التلاوة التي بينها العلماء، ولذلك اختلفوا في القراءة بالألحان وروي عن الشافعي رحمه الله استحبابها تارة وكراهتها تارة أخرى.

قال الأصحاب: ليس هذا قولين للشافعي بل هو قول واحد فهي جائزة مستحبة إن روعيت فيها قواعد التجويد وأحكامه أما ألا تراعي فهي غير جائزة، وقد عاب كثير من العلماء على بعض القراء الذين يأسرهم اللحن فيلتزمون به حتى إن خولفت قواعد التلاوة، وقد روي حديث رفع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. أخرجه الطبراني والبيهقي عن حذيفة رضي الله عنه "إقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الكتاب وأهل الفسق، فإنه سيجيُّ بعدي قوم يُرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنَّوح لا يُجاوز حناجرهم مفتونةً قلوبُهُم وقلوبُ من يُعجبُهُم شأنهم".

(١) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة (٨١/٩) ومسلم في كتاب

المسافرين رقم (٧٩٣)

(٢) أخرج هذه الزيادة ابن حبان في صحيحه برقم (٧١٩٧) كتاب المناقب.

قال المناوي رحمه الله في شرحه:

"اقرأوا القرآن بلحون العرب" أي تطريبها "وأصواتها" أي ترنماتها الحسنة التي لا يختل منعها شيء من الحروف عن مخرجه لأن القرآن لما اشتمل عليه من حسن النظم والتأليف والأسلوب البليغ اللطيف يورث نشاطاً للقارئ، فإنه إذا قرئ بالأسلوب الذي لا يخرج عن وضعه تضاعف فيه النشاط وزاد به الانبساط وحنّت إليه القلوب القاسية وكشف عن البصائر فحشاوة الغاشية "وإياكم ولحون أهل الكتابين" أي احذروا لحون اليهود والنصارى "وأهل الفسق" من المسلمين الذين يخرجون القرآن عن موضعه بالتمطيط بحيث يزداد حرف أو ينقص حرف فإنه حرام إجماعاً، كما ذكر النووي في التبيان^(١).

وإنما نقلت هذا الحديث وشيئاً من شرحه لسبيين اثنين:

أولاً: لأبين أن هذا الحديث كما قال العلماء مُنْكَرٌ لا يصح وقد اغتر كثير من طلاب العلم به فظنوه صحيحاً.

ثانياً: لأن في شرح المناوي [فيض القدير] خطأ قد يكون حصل من الناسخ أو الطابع وقد صححته هنا.

التدبير:

ونتساءل هنا ما الهدف من قراءة القرآن وما الغاية من الترتيل وما الهدف من تحسين الصوت؟ إن الهدف الأعظم من هذا كله إنما هو التدبير؛ فالتدبير هو المقصود الأول والأخير من قراءة القرآن الكريم، ولكن ما هو التدبير؟

(١) فيض القدير ٦٥/٢.

الدُّبْرُ: دُبِرَ الشيء ما هو وراءه قال تعالى: «يا أيها الذي آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار»^(١).

فتدبر القراءة: أن لا يقف القارئ عند ظاهر الكلمات بل لا بُدَّ أن يبحث عما وراء هذه الألفاظ من معانٍ ومقاصد وغايات فإن معاني القرآن الكريم لا تنقضي لذلك استتبط العلماء المتدبرون هذه الثروة العلمية العظيمة من أي القرآن الكريم، وما هذه العلوم التي نفاخر بها الدنيا إلا قطرة من هذا البحر الزاخر. «قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً»^(٢).

وإذا تأملنا كلام ابن مسعود رضي الله عنه وجدنا فيه خيراً كثيراً، فهذا الذي قال له إني اقرأ المفصل في ركعة قال له ابن مسعود: هذا كهذا الشعر، إن قوماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع.

تراقيهم: جمع ترقوة وهي الضلع التي تكون أعلى الصدر والمراد: إنه يمرُّ على ألسنتهم ولا أثر له في قلوبهم وإنما يقع في القلب إذا كان هناك تدبر، ولا بُدَّ أن نقف بك أيها القارئ الكريم عند كلمة ابن مسعود التي أخرجها الأجرى رحمه الله "لا تنتروه نثر الدقل، ولا تهذوه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة".

(١) الأنفال: آية (١٥).

(٢) الكهف: آية (١٠٩).

وهذا الأثر عن ابن مسعود رضي الله عنه فيه علمٌ وخيرٌ وهدي، وهذا الأثر فيه خمس نصائح أولاً: لا تنتثروه نثر الدقل والدقل هو التمر الرديء ولرداعته كانوا يهزون النخلة هزاً فيتساقط عنها وينتثر ولم يكن هذا تعاملهم مع الثمر الجيد فمعنى هذه أنكم يجب أن تتعاملوا مع القرآن الكريم بعناية ورعاية وأن توجهوا له همكم وأن تتعاملوا معه على أنه أنقى شيء في حياتكم وأعلى عندكم من كل شيء، وإياكم أن تتعاملوا مع هذا القرآن كما تتعاملون مع ما تبخسون من أشياء، هذا معنى قول ابن مسعود لا تنتثروه نثر الدقل.

أما النصيحة الثانية: فلقد كانوا يقرعون الشعر عجلين مسرعين فيذهبون كثيراً من حروفه ولا يظهر كثيراً من كلماته وقد تقدم هذا من قبل. الثالثة: وهي قوله وقفوا عند عجائبه: فإنها ذات مغزى سامٍ وحرص بعيد، إن عجائب القرآن الكريم كثيرة يجدها بعض القارئ في روعة أسلوبه وإحكام نظمه، ويجدها بعضهم في يسره وسهولة حفظه، ويجدها بعضهم في صحة معانيه وصدق أخباره، ويجدها في أمثاله وقصصه وللناس مشاربٌ متعددة، والخلاصة أننا نجد عجائب القرآن فيما ذكر وفي غيره كذلك، أما النصيحة الرابعة وحركوا به القلوب، والقلب هو أساس السعادة أو الشقاء.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"^(١) ولذلك

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب الإيمان (١٢٦/١) ومسلم في كتاب المساقاة

ولحكمةٍ ما قال الله تعالى: «وإنه لتنزِيل ربِّ العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكونَ من المنذرين بلسانٍ عربي مبين»^(١) فاختار الله تبارك وتعالى القلب الشريف قلب حبيبه صلى الله عليه وسلم ليكون محلاً لنزول القرآن الكريم ذلكم لأن القلب هو الأساس، والأصل في التأثير بهذا القرآن، قال تعالى: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي تَقْشَعْرُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ»^(٢) وقال تعالى: «ومنهم من يستمعُ إليك وجعلنا على قلوبهم أكنةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا»^(٣) فانظروا أرشدكم الله كيف بدأ الله بالقلب، القلب إذاً هو الركيزة الأولى في التأثير بهذا القرآن أو الإعراض عنه، وهذه القلوب سريعة التقلب لذا يقول ابن مسعود رضي الله عنه: لا بد أن تحرك هذه القلوب بالقرآن فإنها إن لم تحرك بالقرآن الكريم يُخشى عليها أن تحركها الشهوات والملذات والمعاصي، ولذلك كان خير ما تحيا به القلوب تلاوة القرآن في تدبر.

وهنا دقيقةٌ من الدقائق ولطيفةٌ من اللطائف لا بد من الإشارة إليها والتنبية عليها لقد قرأنا من قبل "زينوا القرآن بأصواتكم" أما هنا فحركوا به القلوب، إن هناك جانبين ظاهراً وباطناً فلما كان الحديث عن الجانب الظاهري قال: حسنوا القرآن بأصواتكم، لأن القرآن الكريم يمكن أن يقرأه نوا الصوت الحسن وغيره فينبغي أن نحسن القرآن بهذا الصوت، فالقرآن محسنٌ

(١) الشعراء: آية (١٩٢-١٩٥).

(٢) الزمر: آية (٢٣).

(٣) الأنعام: آية (٢٥).

بالصوت لأن من شأنه أن يُسمع فيتأثر الناس به قال تعالى: «إذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون»^(١).

وأداة الاستماع الأولى هي القلب، فحين ما كان الهدف من القرآن التلاوة أمرنا أن نُحسنَ به الصوت، فإذا أُريدَ الجانب الباطني كان القرآن الكريم هو المحرك لذلك قالوا وحركوا به القلوب. إن فعل القرآن في النفوس روي فيه أخبار كثيرة عن السلف والخلف، فمنهم من كان يقضي الليل كله متلذذاً في تلاوة القرآن وقد يكون المتلو آيةً واحدة يكررها حتى يُصبح. «تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون»^(٢).

أما النصيحة الخامسة فقولهُ: "لا يكن هم أحدكم آخر السورة، إن كثيراً من الناس لا يخطر بباله وهو يتلو القرآن الكريم إلا قضية الكم، يفاخرُ بأنه قرأ في هذا اليوم ختمةً كاملة، وكل همهِ أن ينهي السورة ليبدأ بغيرها، هذا الفريق من الناس نوجه لهم أن يتذكروا نصيحة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إن قراءة القرآن الكريم لا تحسبُ بالكم بل بمقدار ما تُحدثُ من أثر في النفوس وحركة في القلوب وهذا أمرٌ لا خلافَ فيه بين العلماء، فمن قرأ عشر آيات متدبراً خيراً من أن يقرأ مئة آية هذا، قالوا ومن قرأ جزءاً أو سورة في ساعةٍ خيراً من الذي يقرأ جزأين في الساعة نفسها. اللهم امنحنا حسن تدبر كتابك واجعلنا من الذين يتلونه غير جافين ولا

(١) الأعراف: آية (٢٠٤).

(٢) السجدة: آية (١٦).

غالين، اللهم اجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، وشفاءً صدورنا وجزاء حزننا
وذهاباً همنا، وسائقنا وقائدنا إليك وإلى جناتك جنات النعيم، مع الذين أنعمت
عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً وصلى
الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الثاني

معنى علوم القرآن الكريم

ونتحدث فيه عن:

تعريف القرآن شرعاً

أسماء القرآن الكريم

الفصل الثاني

معنى علوم القرآن الكريم

معنى علوم القرآن:

لعلّ من المفيد -بعد تلك المقدمات التي ذكرناها- أن نعرض إلى معنى علوم القرآن، وقد عرفتم أنه صار علماً على علمٍ معيّنٍ ينتظم مسائل مخصوصة تتصل بالقرآن الكريم، و (علوم القرآن) مركّبٌ إضافيٌّ يتكوّن من مضافٍ (علوم) ومضافٍ إليه (القرآن) كما يُقال (علم النحو) و (علم البلاغة) و (علم الفقه). وقد يتساءل المتسائلون: لمّ جاء بصيغة الجمع (علوم) ولم يأت بصيغة الإفراد (علم) كعلم النحو وعلم الفقه؟ وهو تساؤلٌ وجيه للإجابة عنه نقول:

أولاً: قبل أن يدوّن هذا العلم بمعناه الاصطلاحي الذي استقرّ عليه لأمر، كان الأئمة -رحمهم الله- يؤلّف كلّ منهم في موضوع من موضوعات هذا العلم، فكتب بعضهم في أسباب النزول وكتب آخر في النسخ وثالث في المبهمات ورابع في أمثال القرآن وخامس في إعجاز القرآن إلى آخر ما هناك من موضوعات، ثمّ اختصرت هذه الموضوعات وضمّ بعضها إلى بعضٍ وسمّيت هذا الاسم (علوم القرآن).

ثانياً: وهذا يتفرّع عن سابقه -تدلّ هذه التسمية على فخامة هذا العلم وعلوّ شأنه وعظيم خطره، فكلّ موضوع منه ينتظم فوائد متعدّدة. ولا نبعد كثيراً فهناك موضوع آخر شبيه بما نحن بصددده وهو علوم الحديث الذي اشتمل على كثير من الأنواع والمباحث التي يتعلق بعضها بمتن الحديث وبعضها بسنده وغير ذلك ممّا هو معروف لذوي الشأن.

وقبل أن أبدأ بتعريف هذا العلم أراني مضطراً إلى التفرقة بين علوم القرآن بعد ظهور هذا المصطلح أي بعد أن أصبح علماً له شخصيته وموضوعه ومسائله وهو ما يعبر عنه بالمعنى اللقبي وبين هذا المركب أعني علوم القرآن قبل أن يكون كذلك، وهو ما يعبر عنه بالمعنى الإضافي. فعلوم القرآن قبل هذا المصطلح أي بالمعنى الإضافي تشمل كل ما يتصل بالقرآن الكريم فالتفسير-مثلاً- يصدق عليه أنه من علوم القرآن، وكذلك علم القراءات وعلم رسم المصحف، وإعراب القرآن كلها يصدق عليها أنها من علوم القرآن. أما بعد أن أصبح هذا العلم ذا موضوع خاص كما هو الآن وهو المعبر عنه بالمعنى اللقبي فإنه أصبح أضيق نطاقاً وأكثر تخصيصاً فلم يعد يشمل التفسير والإعراب ومسائل القراءات، بل إن هذه الأمور إن بحثت فيه فإنها تُبحث موجزة من حيثيات خاصة فيُبحث في التفسير-مثلاً- عن تاريخه وتطوره ومن اشتهر من المفسرين في الأعصر المختلفة، ويُبحث في القراءات عن القراء المشتهرين وأقسام القراءات وما يتعلق بالأحرف السبعة، ويُبحث في الإعراب عن أشهر الكتب في هذا الموضوع، وهكذا صار موضوع هذا العلم أكثر تحديداً وأقل شمولاً مما كان عليه قبل أن يصبح علماً مستقلاً. وكما نعرف هذا العلم تعريفاً دقيقاً لا يد من الوقوف عند هذا المركب (علوم) و (قرآن):

أما العلوم فهي جمع علم، ويختلف تعريف العلم عند أهل الاختصاص: فالحكام (أي الفلاسفة) يعرفونه بأنه حصول صورة الشيء في الذهن، والمتكلمون يعرفونه بأنه صفة تُوجب لحلّها تمييزاً لا يحتمل النقيض. وهذان تعريفان متقاربان من حيث النتائج، فإذا انطبع في ذهنك أن القرآن الكريم

منه ما هو مكّي ومنه ما هو مدنيّ فهذه الصورة الحاصلة في ذهنك تسمّى علماً وكذلك إذا علمت أن القرآن نزل في ثلاث وعشرين سنة فإنّ حصول هذه المعلومة في ذهنك يسمّى علماً وهذا معنى قولهم إن العلم هو حصول صورة الشيء في الذهن، ثمّ إنّ هاتين القضيتين أعني كون القرآن الكريم مكياً ومدنيّاً ونزوله في ثلاث وعشرين سنة أصبحتا متميّزتين في نفسك غير مختلطتين بغيرهما من المسائل، وهذا التمييز ثابت مجزومٌ به لا يحتمل نقيضاً على معنى أنّه لا يُقال مثلاً إنّ القرآن نزل في أربعين سنة.

وهناك إطلاق ثالث للعلم عند غير الفلاسفة والمتكلمين يعنون به المسائل المتحدّث عنها، فمسائل علم النّحو كقولنا الفاعل مرفوع والمضاف إليه مجرور، ومسائل علم الفقه كقولنا الصلاة فرض وبيع الغرر غير جائز، وهذا هو التعريف المقصود في علوم القرآن، هو المسائل التي يُبحثُ عنها في علوم القرآن كقولنا أوّل ما نزل من القرآن الآيات الأولى من سورة العلق والنسخ رفعُ الحكم بدليل شرعيّ، والقرآنُ الكريم متواتر، والترجمة الحرفية للقرآن غير جائزة. هذا ما يتصل بمعنى "علوم" من قولنا "علوم القرآن".

أمّا القرآن فمع إجماعهم على أنه كلام الله الذي نزل به الروح الأمين لفظاً ومعنى على قلب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم منجماً فإنّ بحثنا في لفظه (قرآن) له حيثيات متعدّدة:

أولاً: من حيث الهمز والتخفيف.

ثانياً: من حيث الاشتقاق وعدمه.

ثالثاً: من حيث المصدرية والوصفية.

رابعاً: من حيث التعريف والتكثير.

وقبل أن أفصلّ هذه الحثيات أرى لزماً عليّ أن أبين أن الذي ارتأى

رأياً من الأئمة لم ينكر على مخالفيه ما ذهبوا إليه.

أولاً: ذهب أكثر الأئمة إلى أن لفظ (قُرْآن) مهموز على (فُعْلان) وذهب الشافعي -رضي الله عنه- والفرّاء والأشعريّ رحمهم الله تعالى إلى أنّه غير مهموز فهو يُنْطَقُ (قُرّان) بقاف مضمومة وراء مفتوحة بعدها ألف^(١).

(١) أما كلام الشافعي - رضي الله عنه - فقد نقله الخطيب في تاريخ بغداد: ٢/ص ٦٢، وذكره البيهقي في كتاب مناقب الامام الشافعي بقوله: وقرأت على اسماعيل بن قسطنطين وكان يقول: القرآن اسم وليس بهموز، ولم يؤخذ من قرأت، ولو أخذ من قرأت لكان كل ما قرئ قرأناً. ولكنه اسم للقرآن مثل التوراة والإنجيل، يهمز قرأت ولا يهمز القرآن، كأن يقول: وإذا قرأت القرآن الآية تهمز قرأت ولا يهمز القرآن [مناقب الشافعي (١/٢٧٧)]. وهذه هي قراءة ابن كثير المكي، فلا عجب أن تروى عن الشافعي الذي نشأ في مكة المكرمة، ويشهد له ما ذكره الامام الشافعي في رسالته. قال الشيخ أحمد محمد شاكر -رحمه الله ورحم أخاه الأستاذ محمود شاكر الذي توفي قبل أيام- لفظ قرآن ضبطناه هنا وفي كل موضع ورد فيه في الرسالة بضم القاف وفتح الراء مخففة وتسهيل الهمزة. وذلك اتباعاً للامام الشافعي -مؤلف الرسالة- في رأيه وقراءته... وهذا النقل من الشافعي نقل رواية للقراء واللغة، ونقل رأي ودراية أيضاً، فإن قراءة ابن كثير -قارئ مكة- معروفة انه يقرأ لفظ (قران) بدون همز. والشافعي ينقل توجيه ذلك من جهة اللغة والمعنى، ولا يرده، فهو يعتبر رأياً له حين أقره. وهو حجة في اللغة دراية ورواية. قال ابن هشام -صاحب السيرة المشهورة-: جالست الشافعي زماناً فما سمعته تكلم بكلمة إلا إذا اعتبرها المعبر لا يجد كلمة في العربية أحسن منها، وقال أيضاً الشافعي كلامه لغة يحتج بها [الرسالة ص ١٤-١٥]. وأما الأشعريّ فقد نقله عنه ابن فورك في كتابه (تجريد المقالات): ص ٦٣ =

ثانياً: ذهب جلّ العلماء إلى أن لفظ القرآن مشتقّ، فالذين ينطقون به مهموزاً قال بعضهم إنه مشتقّ من (قرأ)، بمعنى (جمّع).
وذلك لأن القرآن الكريم جمّعت آياته وسوره بعضها إلى بعض، وبعضهم يرى أنه مشتقّ من (قرأ) بمعنى (تلا).

أما الذين ينطقون به غير مهموز (قُرآن) فقد ذهب بعضهم ^(١)، إلى أنه مشتقّ من القرائن لأن القرآن الكريم يصدّق بعضه بعضاً من حيث الأحكام والبلاغة والتواتر وذهب بعضهم ^(٢) إلى أنه، مشتقّ من (القِران) لأن آياته وسوره مقترن بعضها ببعض، والفرق بين هذين القولين أن الأوّل نظر إلى أن القرآن الكريم يصدّق بعضه بعضاً ليس فيه اختلاف ولا تناقض فأحكامه وقصصه وعقائده وأمثاله يكمل بعضها بعضاً ليس فيها تعارض واختلاف، وأما الآخرون فنظّروا إلى أن القرآن الكريم متصل بعضه ببعض اتصالاً وثيقاً، وذلك لما بين آياته وسوره من جمال الاتساق وحسن التناسب؛ هؤلاء الأئمة -رحمهم الله- من همز ومن لم يهمز ذهبوا إلى أن لفظ القرآن مشتقّ على خلاف بينهم في أصل الاشتقاق كما عرفت، إلا الشافعي -رحمه الله- فقد ذهب إلى أن لفظ (القُرآن) المعروف غير مشتقّ وأنه علم مرّتلّ على هذا الكتاب المبارك المنزل على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. والشافعي -رحمه الله تعالى- الذي يرى القرآن غير مهموز وأنه

حوّلناه نقلً عنه قولاً آخر وهو أن القرآن مهموز. قال: وإنما يُسمّى قرآناً لأجل أن العبارة عنه قُرْن بعضها إلى بعض، وأن الجمع والتفرقة في القراءة لا في الكلام وقال في موضع آخر إن كلام الله سُمّي قرآناً لأنه يقرأ بالعربية، ص ٦٢.

(٢) هو الأشعري

(١) هو الفراء .

معرفاً غير مشتق لم ينكر على غيره. كيف وهو مَنْ هو في حنق العربيّة والإلمام بها؟

ثالثاً: من حيث المصدرية والوصفية:

الذين قالوا إن لفظ القرآن مشتق ذهب أكثرهم إلى أنّه مصدر مثل غُفْران وتُكْلان. يُقال (غفر غُفْراناً) كذلك (قرأ قُرْآنًا). ومن هؤلاء اللحياني^(١) قالوا إن القرآن مصدر بمعنى اسم المفعول لأنه (مقروء) وهذا كثير في العربية أن يُطلق المصدر ويُراد منه اسم المفعول وذهب الزجاج إلى أنّه وصف وقد رجّح المصدر على الوصف لأنه أكثر شيوعاً في العربيّة إذ الصفة على وزن (فُعْلان) غير شائعة ولا مشتهرة.

رابعاً: من حيث التعريف والتنكير: فرّق كثير من العلماء بين (القرآن) معرفاً و (قرآن) دون تعريف.

أولاً: بأن اللفظ المعروف بال لا يصدق إلّا على هذا الكتاب المبارك. أمّا (غير المعروف بال) فقد يُراد به القرآن الكريم كقوله سبحانه: «وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً»^(٢) وقد يُراد به غيره كقوله سبحانه: «إنّ علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه»^(٣) فكلّمة قرآن في هاتين الآيتين هنا لا يُقصد بها القرآن الكريم بل معناه القراءة.

(١) اللحياني هو أبو الحسن علي بن مبارك وقيل علي بن حازم لغوي عاصر الفراء أخذ عن

الكسائي توفي بعد سنة ٢٠٧ للهجرة.

(٢) القيامة: آية (١٧-١٨)

(٣) الإسراء: آية (١٠٦).

ثانياً: ذهب بعض العلماء إلى أن لفظ القرآن معرّفاً إذا أطلق أريد به القرآن الكريم كله كقوله سبحانه «إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم»^(١) وقوله سبحانه «وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به»^(٢). ولا يطلق على بعضه إلا مقيداً لقول النبي عليه الصلاة والسلام "زوجتكها بما معك من القرآن"^(٣) وقولنا (يحرم على الجنب والحائض قراءة القرآن). (وحين أوي إلى الفراش اقرأ القرآن) فالقرآن هنا يصدق على أبعاض مخصوصة. أما لفظ القرآن مُنكراً فيصدق على الكل والأبعاض على السواء، بمعنى أنه إذا أطلق لا يقصد به مجموع القرآن كله إلا إذا دلت القرائن على ذلك.

الخلاصة أن لفظ القرآن معرّفاً يراد به مجموع القرآن ويطلق على الأبعاض بقرائن فإن لم يكن معرّفاً كان إطلاقه على الكل وعلى الأبعاض سواءً، واعلموا أرشدكم الله أننا إذا استقرأنا الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة وجدنا أن لفظ القرآن يطلق فيها حيناً على المجموع وحيناً على الأبعاض كما أسلفنا. قال تعالى «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن»^(٤) وقال تعالى «إنا أنزلناه في ليلة مباركة»^(٥)، وقال تعالى «إنا أنزلناه في ليلة القدر»^(٦)، «وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن»^(٧) ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"^(٨).

(١) الإسراء: آية (٩). (٢) الأنعام: آية (١٩).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن باب "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" حديث رقم (٥٠٢٩).

(٤) البقرة: آية (١٨٥). (٥) الدخان: آية (٣). (٦) القدر: آية (١). (٧) يونس آية (٦١).

(٨) صحيح البخاري ١٠٨/٦ كتاب فضائل القرآن طبعة دار الفكر سنة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

ونخلص من هذا كله الى أن القرآن من حيث اللغة للعلماء فيه آراء من حيثيات مختلفة ولكل وجهة هو موليها. ولكن أرجح هذه الأقوال التي ذهب إليها جمهور العلماء، هو أن القرآن الكريم مصدر في الأصل كالغفران والشكران علمٌ على هذا الكتاب المبارك من باب اطلاق المصدر على اسم المفعول.

قال الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في مناهل العرفان "أما لفظ القرآن فهو في اللغة مصدر مرادف للقراءة ومنه قوله تعالى «إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه» ثم نقل من هذا المعنى المصدري وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم من باب إطلاق المصدر على مفعوله ذلك ما نختاره استناداً الى موارد اللغة، وقوانين الاشتقاق، وإليه ذهب اللحياني وجماعة^(١).

وقال الشيخ عبد الوهاب غزلان رحمه الله "المختار في لفظ القرآن من حيث اللغة إنه مصدر لقرأ على زنة الغفران والرجحان فهو بمعنى القراءة وهمزته أصلية ونونه زائدة فإذا حذفتم همزته كما في قراءة ابن كثير فإنما ذلك من باب التخفيف وهذا الوجه من التخفيف مألوف في اللغة ثم نقل في عرف الشارع من هذا المعنى وجعل علماً على مقروء معين وهو الكتاب الكريم تسمية للمفعول بالمصدر وهذا القول هو الجدير بالقبول لخلوه من التكلف وجريانه على أسلوب مألوف في اللغة وهو إطلاق المصدر مراداً به اسم المفعول^(٢).

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٧/١.

(٢) البيان في مباحث من علوم القرآن/ عبد الوهاب غزلان ص ٢١.

هذا هو القرآن في اللغة ولعل من المفيد هنا بعد هذا التطواف الإشارة إلى أن (أل) في القرآن ليست للتعريف وإنما هي للمح الأصل كما يقول علماء النحو أي دخلت لتبين أن القرآن أصله مصدر كما نقول الفضل والعباس فإن أل فيهما ليست للتعريف لأنهما علمان دخلت أل أم لم تدخل. بيان ذلك أن (أل) قد تكون للتعريف كما نقول: "الرجل والبيت والمرأة والكتاب، ويمكن أن لا تفيد صاحبها التعريف لأنه معرفة قبل دخولها ويَعْدُه، وكذلك لفظ القرآن فهو علم قبل دخول (أل)^(١).

ويعد أن تحدثنا عن معنى القرآن لغة لتحدث عن معناه شرعاً "

(١) وهو رأي استاذنا الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله، وبه أقول وإليه أميل .

تعريف القرآن شرعاً:

القرآن الكريم مصدر العلوم وأصل الحقائق الثابتة ومرجع العلماء، ومن هنا يهرع العلماء جميعاً للإفادة من هذا القرآن كل يأخذ منه حسب حاجته وتخصصه. فالفقهاء والأصوليون هدفهم معرفة الأحكام الشرعية إجمالاً أو تفصيلاً واللغويون على اختلاف تخصصاتهم هدفهم بيان إعجازه والإفادة من رائق أسلوبه والوقوف أمام صورته البيانية الخلابة ومعاني كلماته أفراداً وتركيباً.

أما علماء القراءات فهدفهم معرفة كيفية النطق بألفاظه الكريمة، وهؤلاء العلماء جميعاً غايتهم الوقوف أمام ألفاظه الكريمة لاستنتاج الأحكام وبيان الإعجاز وكيفية النطق، لذا عرفوا القرآن بخصائصه التي تعنيهم، فقالوا هو كلام الله المنزل على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم المعجز المتعبد بتلاوته المنقول إلينا بالتواتر، وبعضهم اقتصر على بعض هذه الخصائص. فقولنا "كلام الله" يخرج غيره من الكلام وقولنا "المنزل" يخرج كلام الله الذي استأثر بعلمه أو الذي أوحاه إلى ملائكته، وقولنا "على سيدنا رسول الله" يخرج الكلام المنزل على رسل الله من قبل، وقولنا "المتعبد بتلاوته" أي تلاوته عبادة ولا يصح غيره في الصلاة يخرج الأحاديث القدسية عند من يرى أنها منزلة بلفظها من الله.

وهي قضية اختلف فيها الأئمة فالأكثر على أنها كذلك "أي منزلة بلفظها ومعناها من الله" وذهب بعض المحققين "إلى أنها منزلة بمعانيها والقرآن الكريم وحده هو الذي أنزل بلفظه ومعناه" وعلى هذا فيكون قولنا

المتعبد بتلاوته والمعجز بالتواتر ليست قيوداً بل هي خصائص امتاز بها القرآن الكريم وحده.

وقد يسأل سائل، ذكرت تعريف علماء الفقه والأصول واللغة للقرآن، فلم لم تذكر تعريف علماء الكلام (التوحيد)، وأقول إن علماء الكلام كان لهم جهتان وهم يعرضون إلى معنى القرآن الكريم: الجهة الأولى: من حيث بحثهم في النبوات، فقد عرضوا إلى المعجزات وبينوا أن القرآن هو معجزة الرسول عليه الصلاة والسلام فهم من هذه الجهة متفوقون مع غيرهم من العلماء في تعريف القرآن الكريم أما الجهة الأخرى: فعند بحثهم في صفات الله تعالى. ومنها صفة الكلام، والقرآن كلام الله.

وهذا أمر يحتاج إلى بيان:

أولاً: كلنا يعلم أن الكلام يطلق على هذه الألفاظ التي تتحدث بها ألسنتنا، ومن هنا قالوا: خير الكلام ما قلّ ودلّ، وهذا إطلاق لا يناع فيه أحد، وهناك إطلاق آخر للكلام، يطلق على ما يحدث به الإنسان نفسه، وإن لم يتكلمه بلسانه. قال تعالى «قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم، قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون»^(١)، فالتى أسرها الصديق عليه الصلاة والسلام في نفسه هي هذه الجملة «أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون» ولم ينطق بها لسانه، ولكن الله تبارك وتعالى سماها قولاً.

(١) يوسف: آية (٧٧).

ومن ذلك ما جاء في الأحاديث الصحيحة، من سؤال الصحابة رضوان الله عليهم، سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به..."^(١).
ويقول الشاعر:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً.
ثانياً: مما سبق ندرك أن الكلام كما يطلق على المتكلم به -كما مر- فإن له إطلاقاً ثانٍ، هو التكلم وهو ما يسمى بالإطلاق المصدري، والفرق بين المعنيين، أرجو أن يكون واضحاً إن شاء الله؛ فالإطلاق الأول، أعني المتكلم به، يشمل الألفاظ التي تخرج من الفم، ولذلك يستحب التأني والتفكير قبل أن ينطق اللسان حتى لا يزل، وقد روي عن سيدنا عمر رضي الله عنه - أنه يتمنى أن يكون له عنق كعنق البعير طويل حتى لا تخرج الكلمة منه إلا بعد روي. أما الإطلاق الثاني وهو المصدري -وهو التكلم- فقد يكون بغير نطق.

إذا عرفت هذا فاعلم أن علماء الكلام وبخاصة الأشاعرة، ومن وافقهم ذهبوا إلى أن الكلام الذي هو صفة من صفات الله تبارك وتعالى يشمل ما أنزل الله على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، ومنه ما نزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو القرآن، والقرآن غير مخلوق عندهم، ولكن الحروف التي كتبت بها كلمات القرآن، والأصوات التي تنطق به، أمور حادثة، وجدت بعد أن لم تكن، فكيف يوفقون بين كون القرآن الكريم قديماً غير مخلوق، وبين حدوث الحروف والأصوات؟

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الوسوسة في الإيمان أنظر: شرح النووي على مسلم ١٥٣/٢.

قالوا: إن الكلام يطلق على النفسي واللفظي، والكلام النفسي هو الصفة القديمة، وصفات الله كلها قديمة، ولما كان القرآن كلام الله، ولما كان الكلام يطلق على المتكلم به، وعلى المتكلم -كما عرفت من قبل- فإن لهم تعريفين للقرآن الكريم:

أحدهما: بالاعتبار المصدري، وهو التكلم.

والثاني: بالإطلاق الآخر وهو المتكلم به.

فعرفوه بالإطلاق الأول: "إنه الصفة القديمة المتعلقة بالكلمات الحكيمة، من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس".

وبالاعتبار الثاني -أعني المتكلم به- عرفوه بأنه، "تلك الكلمات الحكيمة الأزلية المترتبة في غير تعاقب، المجردة عن الحروف اللفظية والذهنية والروحية"^(١).

والذي يعنيها هو ما ذهب إليه جمهرة العلماء من أن القرآن الكريم كلام الله المنزل على نبيه عليه الصلاة والسلام، المعجز المتعبد بتلاوته. وأرى لزماً قبل أن أجاوز هذا المبحث إلى بحث آخر أن أبين للأخوة القراء أن بعض الكاتبين ذكر^(٢) حديثاً رفعوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (القرآن كلام الله غير مخلوق) وهذا لا يصح رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فهو يحمل دليل وضعه معه لأن هذا المصطلح "وهو كون القرآن مخلوقاً أو غير مخلوق" ظهر فيما بعد وإنما هذا من كلام أبي داود عند قول الرسول صلى الله عليه وسلم "أعوذ بكلمات الله التامات"^(٣)، قال

(١) وما كنت أود أن أعرض لهذه القضية، لولا ذكر بعض الفضلاء من الكاتبين لها فموضوعها في علم الكلام. انظر مناهل العرفان (١٠/١).

(٢) البيان في مباحث من علوم القرآن/ عبد الوهاب غزلان ص ٢٨. (٣) سنن أبي داود حديث رقم (٤٧٣٧).

أبو داود "هذا دليل على أن القرآن ليس بمخلوق، فظن بعض الناس أن هذا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم.

أسماء القرآن الكريم:

إن صح أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمّى، فلقد ذكر الزركشي للقرآن خمسة وخمسين اسماً^(١) وقد أوصلها غيره إلى نيف وتسعين اسماً ولكن عند التحقيق يظهر أن ما عدّوه اسماً هو في حقيقة الأمر صفات كالحكيم والمجيد والكريم والعزیز، وذي الذكر والبيان والتبيان والرحمة والشفاء والهدى.

أما الأسماء فهي القرآن وهو أشهرها ويليهِ الفرقان في الشهرة كما يذكر بعض الكاتبين وذلك لأنه فرق بين الحق والباطل والكفر والإيمان والظلمة والنور ولكن الذي يظهر لي أن الذي يلي القرآن في الشهرة الكتاب حيث ذكر أكثر مما ذكر الفرقان ففي أول سورة البقرة قول الله «ذلك الكتاب لاريب فيه»^(٢)، «وهذا كتاب أنزلناه مبارك»^(٣)، «ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء»^(٤)، «وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه»^(٥)، فهذان الاسمان أعني القرآن والكتاب هما أشهر الأسماء، وقد ذكرا معاً في أكثر من آية «الم تلك آيات الكتاب وقرآن مبين»^(٦)، «طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين»^(٧). وهذان الاسمان يرجعان إلى أصل واحد من حيث

(١) البرهان: [(٢٧٣/١)]. (٢) البقرة آية (٢). (٣) الأنعام: آية (٩٢). (٤) النحل: آية (٨٩).

(٥) المائدة: آية (٤٨). (٦) الحجر: آية (١). (٧) النحل: آية (١).

المعنى فالكتابة هي ضم الحروف بعضها إلى بعض، والقراءة ضم الألفاظ بعضها إلى بعض ولأستاذنا الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله كلام جيد حرّى بالتأمل جدير أن يُفاد منه. قال رحمه الله "روعي في تسميته قرأناً كونه متلوّاً بالألسن، كما روعي في تسميته كتاباً كونه مدوناً بالأقلام فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه. وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً،.... وهذا بيان لوجه الصلة فإذا رجعنا إلى أصلهما الأصيل في اللغة وجدنا مادتي "ك ت ب" و "ق ر أ " تدوران على معنى الجمع والضم مطلقاً^(١).

ومن هنا ندرك الخطأ والخلل الذي ذهب إليه شحورور في كتابه الذي سماه "الكتاب والقرآن" الذي خرج فيه عن مدلولات المنطق واللغة، والشرع والعقل، كما ستعرفه فيما بعد إن شاء الله.

ومن أسماء القرآن كذلك الفرقان كما مرّ، قال تعالى «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً»^(٢) وذكروا أن من أسمائه الذكر «وإنه لذكر لك ولقومك»^(٣)، ومنها التنزيل والذي يبدو أن أشهر هذه الأسماء: القرآن والكتاب والفرقان.

وبالجملة فإن خير ما يعرفنا بأسماء هذا الكتاب وصفاته الطيبة القرآن

(١) النبأ العظيم ١٢، ١٣.

(٢) الفرقان: آية (١).

(٣) الزخرف: آية (٤٤).

الكريم نفسه والسنة النبوية حيث ورد فيها بعض الأوصاف الجوهرية لهذا القرآن مثل قوله صلى الله عليه وسلم في خطبته الشهيرة التي أخرجها الامام مسلم رضي الله عنه فيما يرويه عن ربه "وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظاناً" ^(١) وقوله صلى الله عليه وسلم "القرآن جبل الله المتين" ^(٢).

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة حديث رقم ٢٨٦٥، أنظر: شرح النووي على مسلم ١٩٦/١٧ طبعة

المقدمة المصرية سنة ١٣٤٩ هـ .

(٢) رواه الدارمي في فضائل القرآن ١.

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الثالث

الوحي

ونتحدث فيه عن :

تعريف الوحي لغة وشرعاً

أنواع الوحي

مصدر القرآن الكريم

الافتراض الأول : اكتسابه من غيره

١ - في مكة

الاحتمال الأول

الاحتمال الثاني

الاحتمال الثالث

الاحتمال الرابع

الاحتمال الخامس

٢ - في المدينة

الافتراض الثاني

هل يمكن أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم أكثر من أسلوب في

الكلام ؟

الفصل الثالث

الوحي

جرت عادة الكاتبين في علوم القرآن أن يتحدثوا عن الوحي، ويعرفونه لغة واصطلاحاً، ويقيموا عليه الأدلة والحجج، التي كانوا يستدلون بها... ولقد كان هذا ضرورياً يوم أن كانت المادة متغلغلة في عقول المثقفين، وكان الإلحاد العلامة التي يحاول أولئك المثقفون التباهي بها، وكان ذلك سمة الشيوعيين وغيرهم. لكننا -والحمد لله- في هذه الأيام شهدنا انهيار دولة الإلحاد، وأصبحت الثقافة قريبة من الدين، أو أقل ما يقال لا تحمل العداء للدين في أكثر الحالات وأغلبها، ثم إن التقدم العلمي الهائل وبخاصة في مجال الفضاء الذي هدى الله تعالى إليه، وما يحتويه من اكتشاف عوالم جديدة، جعل هذا الإنسان يعترف بضعفه وجهله، فكلما ظن أنه قد قارب معرفة كل شيء يرى نفسه أنه قد ازداد بعداً، هذا التقدم العلمي جعل كثيراً من الناس وبخاصة العلماء يدركون أن هذا الكون العظيم الشاسع، وما فيه من دقة حركة وعظيم اتساق، وروعة نظام، لن يكون وليد المصادفة والطفرة، بل إن له خالقاً سبحانه «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين، ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير»^(١).

(١) الملك: آية (٤، ٣).

ومع ظهور الشمس ووضوح الرؤية، فلن تعدم الحياة من يجادل في الله بغير علم، ويتبع كل شيطان مريد، ولن تعدم الحياة من يجادل في الله بغير علم، ولا هدى ولا كتاب منير.

لذا لن نطيل الحديث عما يتصل بهذا الموضوع، وإنما سنذكر بدل بسط القول في أدلة الوحي شيئاً آخر، أو بعبارة أخرى سنتناول الوحي من زاوية غير التي كان يتحدث عنها الآخرون فسنحدث عن مصدر القرآن، ويجب أن نعترف بالحق لأهله، وهو أن هذا الموضوع كان الفضل في تجليته وتحليله وإيضاحه، وإنارة مصباحه، لأستاذنا -الذي أعزّ بالتلمذ له الدكتور محمد عبد الله دراز في أكثر من كتاب من كتبه: النبأ العظيم، والمدخل إلى القرآن الكريم-.

تعريف الوحي لغة وشرعاً:

قال الإمام الزمخشري في الأساس. أوحى إليه وأومى إليه بمعنى، ووحيت إليه وأوحيت إذا كلمته بما تخفيه عن غيره. وأوحى الله إلى أنبيائه «وأوحى ربك إلى النحل»^(١).

وقال الراغب الأصفهاني: أصل الوحي الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل "أمرٌ وحيٌ" وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح؛ وبالكتاب، وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا: «فخرج على قومه من المحراب فأوحى

(١) النحل: آية (٦٨).

إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا»^(١)، أي أشار إليهم ولم يتكلم.
والوحيُّ بتشديد الياء السريع. ومن وحي الإيماء بالجوارح قول الشاعر:
نظرت إليها نظرة فتحيرت دقائق فكري في بديع صفاتها
فأوحى إليها الطرف أنني أحبها فأنثر ذاك الوحي في وجناتها
فالقول الجامع في معنى الوحي اللغوي: إنه الإعلام الخفي السريع
الخاص بمن يوجه إليه، بحيث يخفى على غيره، ومنه الإلهام الغريزي كالوحي
إلى النحل وإلهام الخواطر بما يلقيه الله في روع الإنسان السليم الفطرة
الظاهر الروح، كالوحي إلى أم موسى، ومنه ضده وهو وسوسة الشيطان.
قال تعالى: «وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم» (٢)، وقال
«وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض
زخرف القول غروراً»^(٣).

ووحي الله تعالى إلى أنبيائه قد روعي فيه المعنيان الأصلان لهذه المادة
وهما الخفاء والسرعة، فهذا معنى المصدر، ويطلق على متعلقه وهو ما وقع به
الوحي أي اسم المفعول، وهو ما أنزله تعالى على أنبيائه وعرفهم به من أنباء
الغيب والشرائع والحكم، فمنهم من أعطاه كتاباً أي تشريعاً يكتب ومنهم من
لم يعطه.

(٢) مريم: آية (١١).

(٢) الانعام: آية (١٢١).

(٣) الانعام: آية (١١٢).

والله تعالى يُوحى إلى ملائكته ما يأمرهم بفعله كقوله «إِذْ يُوحَى رَبِّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا»^(١)، ويوحى إلى ملك الوحي بما يوحىه الملك إلى الرسول كقوله «فَأُوحِيَ إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى»^(٢)، أي أوحى إلى عبده جبريل عليه السلام ما أوحى جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم. أما تعريف الوحي شرعاً فقد عرفوه:

- ١- انه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه.
- ٢- عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بوساطة أو بغير وساطة، والأول -أي بوساطة- بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت^(٣).

انواع الوحي:

قال تعالى «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم»^(٤)، هذه الآية الكريمة بينت لنا انواع الوحي الذي يكرم الله به انبياءه عليهم الصلاة والسلام:

النوع الأول: في قوله «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً».

وهذا النوع، هو ما يقذفه الله في قلب النبي والرسول، فيوقن الرسول

(١) الانفال: آية (١٢).

(٢) النجم: آية (٥٣).

(٣) انظر الوحي المحمدي (ص ٣٤-٣٥).

(٤) الشورى: آية (٥١).

والنبي أن هذا من الله تبارك وتعالى، وهذا هو الفرق بينه وبين الإلهام، فالإلهام هو "وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور" (١).

النوع الثاني: أن يسمع النبي كلام الله، من غير أن يدرك مصدر هذا الكلام؛ وذلك مثل تكليم الله تعالى سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم، وهذا المشار إليه بقوله سبحانه «أو من وراء حجاب».

النوع الثالث: وهو ما يكون بوساطة الملك جبريل عليه السلام وهو المشار إليه بقوله «أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء»

هذه طرق الوحي للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن الطريق الأول ما جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب" (٢).

لكن أكثر أنواع الوحي وقوعاً هو النوع الثالث، وهو إرسال الملك إلى النبي يبلغه شرع الله، ولقد كان نزول القرآن الكريم بوساطة هذا الملك، "ولقد جاء في صحيح البخاري -رحمه الله- كما روت السيدة عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله

(١) الوحي الحمدي (ص ٣٥).

(٢) أخرجه البيهقي في شرح السنة ٣٠٤/١٤ وأبو نعيم في الحلية ٢٧/١٠ وانظر (جامع الأصول:

١١٧/١).

عليه وسلم: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة رضي الله عنها. ولقد رأيتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً" (١).

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم لا تخفى عليهم هذه الحال للرسول الكريم صلوات الله عليه وسلم، فكانوا يعرفون مجيء الوحي بما يحدث للنبي عليه وآله الصلاة والسلام، قال الدكتور محمد عبدالله دراز:

"وكلنا نعرف تلك الظاهرة العجيبة التي كانت تبدو على وجهه الكريم في كل مرة حين ينزل عليه القرآن، وكان أمرها لا يخفى على أحد ممن ينظر إليه، فكانوا يرونه قد احمرَّ وجهه فجأة وأخذته البرحاء، حتى يتفصد عرقاً، وثقل جسمه حتى يكاد يرضّ فخذه فخذ الجالس إلى جانبه، حتى ولو كان راكباً لبركت به راحلته، وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه أصواتاً مختلطة تشبه دويّ النحل... ثم لا يلبث أن تُسرّى عنه تلك الشدة، فإذا هو يتلو قرآناً جديداً وذكرًا محدثاً" (٢).

ذلكم هو الوحي بصورته المشرقة الوضاعة، لم يكن لأحد فيه دخل ولا له عليه سبيل، حتى رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام كان لا يملك شيئاً

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢٠٢/١٠) وأحمد (٢٥٧/٦) والبخاري في بدء الوحي رقم (٢) باب كيف

كان الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم رقم (٢١)، (٢/١).

(٢) النبأ العظيم ص ٧٠.

من أمر الوحي، فقد يكون في أمس الحاجة إليه، وأكثر الحالات اشتياقاً له. وصدق الله "وما نتنزل إلا بأمر ربك، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك"^(١).

ولقد كان نزول القرآن الكريم بوساطة هذا الوحي «وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين»^(٢). هذا القرآن الذي أكرم الله به نبيه والامة والدنيا كلها ما كان أحد من الناس يملك شيئاً من التصرف فيه «قل لو شاء الله ما تلوته عليكم، ولا أدراكم به، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون»^(٣)، ذلكم ما يحتمه المنطق ويؤيده الواقع، ويشهد له العقل، ومع هذا نجد أناساً يكابرون في ضوء الشمس حتى في أبرز حالات سطوعها، ويكابرون في حركة الحياة الدؤوب، فهم يريدون أن تجمد الحياة معهم ويأبى الله إلا أن تنبض الحياة بالحركة.

هذا وإن قرآنية القرآن الكريم، وكونه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من الأمور التي لا يزيدها مرور الأيام وكر الغداة ومر العشي إلا تثبيتاً في النفوس، فكلما تقدم العلم ومرت السنون، وهىء للإنسان اكتشاف كثير من المجاهيل في هذه الحياة، والتوصل إلى حلول كثير من الأمور المستعصية. وجد أولو الفكر وذوو العلم ما يزيدهم طمأنينة ويبدد غيوم الشكوك من أنفسهم بصدق هذا الكتاب أخباراً، وعدله حكماً،

(١) مريم: آية (٦٤).

(٢) يونس: آية (١٦).

(٣) الشعراء: آية (١٩٢-١٩٥).

وعمقه في النفوس أثراً، واستعصائه على كل الشبه والشواهد وسيظل كذلك ما دامت الحياة والأحياء، وصدق الله «ولتعلمن نبأه بعد حين»^(١) وسيأتيك مزيد تفصيل في المبحث الآتي إن شاء الله.

مصدر القرآن الكريم

جاء في الموسوعة البريطانية: (إلا أن المسلمين تختلف نظرتهم عن ذلك، فهم يعتقدون أن محمداً استلم كل كلمة في القرآن مباشرة من ربه، فالقرآن يرفض بعنف الاتهامات التي تشير إلى أن النبي حصل على القرآن من مصادر أخرى غير الخالق).

إن المستشرقين الذين قاموا بتحليل محتويات القرآن استخلصوا بأن كثيراً من المادة القصصية والمذكور فيها أشخاص وحوادث في التوراة، هي غير مشتقة من التوراة بل من مصادر نصرانية ويهودية متأخرة. كما أن أوصاف يوم القيامة والجنة هي موضوعات تتفق مع تعاليم الكنيسة السريانية المعاصرة. وأن الاعتماد على نقل هذه المعلومات لم يكن اعتماداً حرفياً، بل أخذ من آثار شفوية).

على الرغم مما في هذا الكلام من إثارة، ويعد عن الصواب، وطمس للحقيقة، وتجنّب على الأحداث، أقول على الرغم من كل هذا إلا أننا سنظل ملتزمين بمنهجيتنا الهادئة الهادفة، والتي كان ينبغي أن تكون هادئة، ولكن إذا كانت الحقيقة هادمة للباطيل سواء كانت هادئة أم هادئة، فلا علينا.

(١) من: آية (٨٨).

إن هذه القضية إذا أُريد لها بحث يتسم بالعمق، ويتصف بالشمول،
ويلم بالقضية من جميع أطرافها، فإنه بحاجة إلى كتاب خاص لا إلى قضية
في فصل، ولكننا سنحاول، مع اعترافنا بصعوبة المحاولة -وهذه الصعوبة
ليست ناشئة عن صعوبة الردّ ومنهجية النقد، بل هي ناشئة عن احتواء هذا
الموضوع المتشعب في صفحات قليلة تمليها طبيعة البحث، ويحتملها ظرفه.
فنحن نعالج قضايا كثيرة كان لزاماً علينا أن لا نخرج عن الإطار الذي
وضعناه من قبل، وهو أن لا نسترسل فكراً وقلماً. فنقول وبالله التوفيق: -
دراسة مصدر القرآن تحتّم على كل باحث غايته الإنصاف، أن يلمّ
بجميع الاحتمالات التي يمكن أن تكون مصدراً لهذا القرآن، هذا القرآن إما
أن يكون من عند الله وحياً أوحاه الله بوساطة الروح الأمين جبريل، حيث
نزل به على قلب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وإما أن لا يكون
كذلك. وهنا لا بد من افتراض أمرين: فإما أن يكون النبي اكتسبه من غيره،
وإما أن يكون ناتجاً عن تأملاته الشخصية، وخواطره الفكرية، وسبحاته
الروحية".

الافتراض الأول: اكتسابه من غيره:-

وحري أن نبحت هذين الافتراضين الأخيرين. فالافتراض الأول أن يكون
القرآن اكتسبه النبي من آخرين، واكتسبه من غيره من الناس، وهذا الافتراض
سيحملنا على التطواف في مناطق كثيرة جغرافية وثقافية ودينية، تُرى من
أين اكتسب هذا القرآن؟ من أي بيئة من هذه البيئات الثلاث التي أشرنا
إليها؟ ولعل أول ما يقع في النفس ويخطر في البال أن يكون المجتمع الذي
عاش فيه النبي هو المصدر لهذا القرآن، فإن لم يكن فهناك احتمال آخر وهو

أن يكون هذا القرآن مكتسباً من بعض اليهود والنصارى الذين هيئت لهم فرص العمل في المجتمع المكي. وهناك احتمال ثالث يقول: لِمَ لَمْ تكن التوراة والإنجيل الأساس لهذا القرآن؟ فإذا خرجنا من هذه البيئة جغرافياً، وجدنا احتمالاً رابعاً يدّعي أن الرسول أقاد هذا القرآن في كثير من نصوصه وقضاياه من تلك الرحلات التي كان يقوم بها تجارياً إلى الشام مرة وإلى اليمن مرة أخرى، وقد كان هناك نصارى في هذين البلدين. وهناك احتمال خامس يدّعي أن هذا القرآن تأثر ببيئة ثقافية أخرى، وهي البيئة الشرقية، قأخذ من الزرادشتية أو الصابئة كثيراً من قضايا وأحكامه. وهذه الافتراضات كلها في مكة بالطبع.

أما في المدينة فلماذا لا يكون القرآن قد تأثر في كثير من تشريعاته بما أخذ من اليهود هناك، وهذا الاحتمال يبرهن عليه مدّعه بأن هناك قضايا كثيرة سواء منها ما يتصل بالأحكام والتشريعات، أم بشخصية الرسول وقد طرأ عليها تغير ملموس محسوس في المدينة.

تلك هي الاحتمالات الناشئة عن هذا الفرض وهو أن القرآن اكتتبه النبي واكتسبه من غيره وسنجد أن العرب في جاهليتهم يلتقون مع المستشرقين، وربما كان العكس أكثر صحة، وهو أن هؤلاء المستشرقين على الرغم من ثقافتهم يلتقون مع العرب الذين ناصبوا العداء، إلا أنه والحق يقال على الرغم من أن هؤلاء المستشرقين أكثر ثقافة، فإن هؤلاء العرب في جاهليتهم كانوا أكثر دقة وإنصافاً.

وعلى سبيل المثال، فلقد كان العرب وهم الذين يعايشون النبي الكريم،

يعرفون عنه أكثر مما يعرفه المستشرقون والمبشرون، ولقد نقل القرآن لنا بأمانة ما قالوه، «وقالوا أساطير الأولين اكتبها فهي تملأ عليه بكرة وأصيلاً، قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض، إنه كان غفوراً رحيماً»^(١)، هكذا قالوا "اكتبها" ولم يقولوا "كتبها" وما أعظم الفرق بين الكلمتين، فاكتبها تعني أنه طلب من غيره أن يكتبها له، وكتبها ليست كذلك. هذا ما قاله العرب في جاهليتهم.

أما ما قاله كثير من المستشرقين فكان بعيداً عن الواقع، فلقد قالوا إن النبي هو الذي كان يكتب هذه القضايا، وحاولوا أن يثبتوا ذلك، فزعموا أن النبي كان يكتب، واستدلوا لذلك بما كان في مرضه عليه الصلاة والسلام حينما طلب أن يكتب للمسلمين كتاباً، وهذا منطوق غريب إن جاز أن نسميه منطقاً، فنحن نعلم أن الرؤساء ومن ماثلهم لا يتولون الكتابة بأنفسهم، فضلاً عن أن النبي كان في مرض يعيقه في كثير من الأحيان حتى عن أن يؤدي الصلاة إماماً في المسلمين. ولكن المستشرقين يأتون إلا أن يذكروا كل ما يجول في خواطرهم، ويوحي به بعضهم إلى بعض، ولنرجع إلى هذه الاحتمالات التي تحدثنا عنها من قبل.

١- في مكة:

الاحتمال الأول:

أن يكون المجتمع الذي عاش فيه النبي عليه وآله الصلاة والسلام هو مصدر القرآن، وهذا يتطلب منا دراسة لهذا المجتمع من حيث العقائد

(١) الفرقان: آية (٦-٥).

والأخلاق والاهتمامات والمشاكل والظروف. وهذه الدراسة ينبغي أن تكون دراسة متأنية ممتدة من حقائق الواقع والتاريخ، ليست مبنية على رأي فطير خالٍ عن الموضوعية، فكيف كان هذا المجتمع؟

قبل أن نجيب نحن، نحب أن نعرض لرأي مستشرق فرنسي، عرف في الأوساط الثقافية والعلمية بعقليته، ومنهجيته، ولكن هذه العقلية والمنهجية، يظهر أنها تهيمن على صاحبها حينما يكون الأمر بعيداً عن الإسلام والمسلمين، فإذا كان الأمر يتصل بالإسلام والمسلمين، وجدنا كل ذلك يزول ويذهب، ذلكم العالم هو إرنست رنان. حيث يصور المجتمع العربي، بصورة يتمناها أبناء العصر الحديث، فالمجتمع العربي كما يصوره رنان لم يعرف الخرافات كما عرفت المجتمعات الأخرى، بل كان مجتمعاً موحداً يعبد الله الواحد، ثم إنه كان يصدر عن عقيدة التوحيد في كل تصرفاته وأخلاقه، فلقد كان الدين شغله الشاغل، ولقد كان هذا المجتمع ممتليء حماسة لقضايا الدين، ولا عجب في ذلك، فهو مجتمع التقت فيه الحضارات والديانات جميعها، وعلى هذا فإن النبي الكريم لم يأت بجديد لهذا المجتمع، بل كان كل ما جاء به منتزعا من هذا المجتمع، ومنبثقا من مقرراته. وهذا ما يريد أن يصل إليه رنان، ولكن هل هذه الصورة التي ذكرها رنان، هي الصورة الحقيقية لهذا المجتمع؟.

ولماذا نبعد كثيراً، والقرآن يحدثنا نفسه عن سمات هذا المجتمع الدينية والخلقية، ثم أليس أهل المجتمع أنفسهم أعرف وأصدق من رنان؟، ثم أليس الذين كانوا يعاصرون هؤلاء العرب كانوا أصدق وأعرف من رنان كذلك؟

القرآن إذن والمجتمع نفسه، ومن يعاصرون هذا المجتمع، كل أولئك يقولون غير ما يقوله رنان.

أ- أما القرآن ففي آيات كثيرة ومواضع متعددة يبين أحوال هذا المجتمع ناعياً عليهم، معنفأً لهم، مندداً بهم. لنستمع إليه في القضايا الدينية أولاً: «أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون»^(١)، «إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيدٍ يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم أذان يسمعون بها»^(٢)، «إله مع الله بل هم قوم يعدلون»^(٣)، «إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون»^(٤)، «إله مع الله قليلاً ما تذكرون»^(٥)، «إله مع الله تعالى الله عما يشركون»^(٦)، «إله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين»^(٧)، «والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون أموات غير أحياء»^(٨)، «أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب»^(٩).

ونحن لا نود أن نستقصي الآيات، فليس هذا من غرضنا هنا، ولكن هذه الآيات وغيرها تثبت بما لا مجال فيه لريب، بأن دعوى رنان من أن هذا

(١) النحل: آية (١٧). (٢) الأعراف: آية (١٩٤-١٩٥).

(٣) النمل: آية (٦٠). (٤) النمل: آية (٦١).

(٥) النمل: آية (٦٢). (٦) النمل: آية (٦٣).

(٧) النمل: آية (٦٤). (٨) الأعراف: آية (١٩١).

(٩) ص: آية (٥).

المجتمع كان موحداً إنما هي خيال المريض.

أما في المجال الخلقي فنقرأ قول الله: «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به، أيَمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ»^(١).

- ونقرأ في أمر تحرير الرقيق «وما أدراك ما العقبة فك رقبة»^(٢)
«فتحرير رقبة مؤمنة»^(٣).

- ونقرأ في قضية أخرى «وإذا الموعودة سئلت بأي ذنب قتلت»^(٤)، كما نقرأ «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق»^(٥) «ولا تقربوا الزنا»^(٦) «والذين لا يشهدون الزور»^(٧) «ولا تبذر تبذيراً»^(٨).

حتى في العهد المدني نجد صورة لأخلاق المجتمع العربي «يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً»^(٩) «ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء»^(١٠) «للنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون»^(١١) إلى غير ذلك

(٢) البلد: آية (١٣-١٤) .

(١) النحل: آية (٥٨ - ٥٩) .

(٤) التكويد: آية (٩) .

(٣) النساء: آية (٩٢) .

(٦) الإسراء: آية (٣٢) .

(٥) الإسراء: آية (٣١) .

(٨) الإسراء: آية (٢٦) .

(٧) الفرقان: آية (٧٢) .

(٩) النساء: آية (١٩) .

(١٠) النساء: آية (٢٢) .

(١١) النساء: آية (٧) .

من الآيات الكثيرة التي تبين لنا بوضوح وجلاء، أن القضية الخلقية لم تكن في هذا المجتمع أحسن حظاً من القضية الدينية.

ب- أما عن اهتمامات هذا المجتمع فنرجح أن الدين كان أقل تلك الاهتمامات وبرهان ذلك ما نجده في أشعار هؤلاء وقد كان الشعر أقدس شيء عندهم، وبخاصة الشعراء الملقين المفلحين، فإننا لن نجد في أشعارهم أثراً للحياة والاهتمامات الدينية، بل هذه الأسواق كانت بلا شك تعكس الصورة الصادقة عنهم، ولم نر هذه الأسواق تحفل من قريب أو بعيد بالقضايا الدينية، اللهم إلا في بعض التصرفات الخاصة.

وإذا تركنا هذه الأسواق، وهي مجتمعاتهم الكبيرة إلى مجتمعاتهم الصغيرة وجدنا أن هذه المجتمعات لم تكن تحفل بالقضايا الدينية ومسائل العقيدة، يذكر التاريخ بأن النضر بن الحارث، وقد كان من الألداء في الجاهلية للإسلام، كان يريد أن يصد الناس عن سماع القرآن، بما يقرؤه لهم، وكان من المفترض أن يتحلقوا حوله ليقروا لهم من بعض الكتب الدينية المعروفة عند الأمم، ولكنه كان لا يفعل لهم شيئاً من هذا بل كان يقص عليهم أخبار الفرس وحكايات أبطالهم، ويعبر القرآن عن هذا بقوله: «ومن الناس من يشترى لهو الحديث»^(١) لقد كان المجتمع العربي تسوده روح القبيلة، لذلك كان فخرهم بهذه القبيلة وما هو ضروري لها من مال وولد، حتى كانت القبيلة تهيمن عليهم في كل شيء، يقول قائلهم:

(١) لقمان: آية (٦) .

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد
وكان دستورهم هذا القول المشهور "أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً"،
وبقي كذلك حتى جاء الإسلام فعدّله بما يتفق مع العدالة الجديدة والروح
الجديدة للدين الجديد، حيث بين الرسول عليه وآله الصلاة والسلام وقد سئل
"تنصره مظلوماً فكيف تنصره ظالماً" فقال: "تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن
ذلك نصره"^(١). ويحكي لنا القرآن فخرهم هذا «وقالوا نحن أكثر أموالاً
وأولاداً وما نحن بمعذبين»^(٢) وفي آية أخرى «وقالوا لولا نزل هذا القرآن على
رجل من القريتين عظيم»^(٣).

وهكذا ندرك أن المجتمع الذي عاش فيه النبي عليه وآله الصلاة والسلام
كان في غفلة عن التصورات القرآنية الجديدة، فضلاً عن أن يعطيها ويمنحها،
وها هو وقف في طريقها يصدّ الناس عنها «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه
لعلكم تغلبون»^(٤) وكثيراً ما يقولون «إنا وجدنا آبائنا على أمة»^(٥) فلو كانت
معطيات القرآن مكتسبة منهم لقالوا (هذه بضاعتنا ردت إلينا).

(١) رواه البخاري كتاب الإكراه باب يمين الرجل لصاحبه: إن أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه

(٧/ ٦٥٥١).

(٢) سبأ: آية (٣٥).

(٣) الزخرف: آية (٢١).

(٤) فصلت: آية (٢٦).

(٥) الزخرف: آية (٢٢).

ج- وأما معاصرو هذا المجتمع فلم تكن نظرتهم بأدق من نظرة العرب إلى أنفسهم، فلقد كانوا يصفونهم بالأميين، وليس هذا فحسب بل يستبيحون حقوقهم، والقرآن يحدثنا عن اليهود حينما قالوا: «ليس علينا في الأميين سبيل»^(١)، ولم تكن نظرة الفرس والروم إلى العرب بأحسن من نظرة اليهود كذلك، وها هم يستعدون بعضهم على بعض، ويضربون بعضهم ببعض، ولذلك كانوا يسخرون منهم وهم يدعون أنهم سينتصرون عليهم بعد أن جاء الإسلام لأنهم كانوا يعرفون العرب قبل الإسلام.

إن شهادة القرآن وشهادة المجتمع العربي، وشهادة أولئك الذين يجاورون هذا المجتمع، كلها ترد بحزم منطق ودعوى رينان.

وهنا يمكن أن يطرح سؤال خلاصته: صحيح أن المجتمع بحالته العامة وبأغلبية كان كذلك، ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر أنه كان هناك من يسمون الحنفاء يعيشون في هذا المجتمع، وكانوا يترددون على عبادة الأصنام، وبعض الأعراف الجاهلية ولقد اشتهرت لهم أشعار كانوا يتحدثون فيها عن قضايا الدين واليوم الآخر والجنة والنار، فلم لا يكون أولئك مصدراً للقرآن أخذ عنهم وتأثر بهم وقبس منهم، ورجع إليهم؟

وللإجابة عن هذا التساؤل نقول: نعم كان هناك من يسمون حنفاء يدعون أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام، ولكن من حقنا أن نتساءل ماذا كان تأثير هؤلاء في المجتمع الجاهلي؟ وهل سجل التاريخ والواقع معركة

(١) آل عمران: آية (٧٥) .

كلامية فضلاً عن معركة حربية كانت بين هؤلاء الحنفاء وبين غيرهم من أبناء المجتمع الجاهلي؟ لا ريب ذلك كله لم يكن منه شيء. ثم إن واحداً من هؤلاء الحنفاء لم يدع الإلهام فضلاً عن الوحي.

أما أشعارهم التي كانت تتحدث عن بعض العقائد فإن ذلك كله لا يحمل شبهة، فضلاً عن دليل، بأن القرآن قد أفاد من هؤلاء.

أما أولاً: فليس القرآن كله إخباراً عن اليوم الآخر، أو بعض قضايا الألوهية، وإنما فيه الأحكام والتشريعات التي لا نجد لها أثراً في أشعار هؤلاء.

وأما ثانياً: فلأن هذه الأشعار إذا خضعت للنقد فسيظهر أن كثيراً منها سيتطرق إليه الشك، بل سنجد أن هذه الأشعار هي التي تأثرت بالقرآن، كما تأثرت به العصور التالية فيما بعد.

وأما ثالثاً: وهو ما يعول عليه كثيرون من شعر أمية بن أبي الصلت، فإن أمية مع أنه لم يدع النبوة فإن شعره كان مزيجاً مما أخذ من القرآن وغيره، وهذا ما لاحظته (هوارت)؛ فقد لاحظ أن أمية عندما يتكلم عن وصف النار يقلد أسلوب التوراة، وعندما يشرع في وصف الجنة يستخدم عبارات القرآن، وعندما يقص التاريخ الديني يلجأ أحياناً إلى الأسطورة الشعبية، وإلى ما يشبه الأساطير الميثولوجية (أو أساطير الآلهة اليونانية) حيث يتمثل الشخص أحياناً في صورة إنسان، وأحياناً في صورة حيوان أو نبات^(١).

(١) مدخل إلى القرآن الكريم/د. محمد عبد الله دراز (ص ١٤٤) .

وأما رابعاً: فلقد كان العرب يرصدون النبي في كل كلمة وموقف وكانوا سيجدون خير فرصة سانحة لهم للتشهير لو وجدوا جزئية واحدة تدل على هذا التأثير.

فإذا تركنا الحنفاء جانباً وجدنا أن من الممكن أن ينشأ سؤال آخر. لقد كان هناك من يسمون الصابئة في المجتمع الجاهلي، ولقد أشار إليهم القرآن في أكثر من آية، فلم لا يكون القرآن قد أفاد من هؤلاء؟ والجواب عن هذا التساؤل أيسر من سابقه، فالصابئة كانوا يحجون إلى حران في العراق بدل الكعبة، وكانوا يعبدون النجوم والكواكب وكانت طقوسهم الدينية عند طلوع الشمس وعند زوالها وغروبها، وهي الأوقات التي حرم الإسلام العبادة فيها، وكانوا يبيحون الزواج من بعض المحارم، ومن هذه عقائدهم وعباداتهم يبعد كل البعد أن يقبس القرآن منهم شيئاً. وبعد فالمجتمع بكل عناصره وفئاته لا يصلح أن يكون مصدراً لهذا القرآن الذي جاء يصحح له قواعده وعقائده، ولا بد أن نبحث عن احتمال آخر.

الاحتمال الثاني:

أن يكون هذا القرآن مكتسباً من اليهود والنصارى الذين هيئت لهم فرص العمل في المجتمع المكي. وهذا الاحتمال رده القرآن، فهؤلاء الذين اضطرتهم ظروف الحياة للعمل في مكة ليقوموا ببعض الحرف، أيعقل أن يكونوا هم مصدر القرآن؟ إن أبسط قواعد المنطق تجيب بالسلب فهل ثبت أن الرسول الكريم كان كثير التردد إلى هؤلاء، وأوقاته كلها كانت بين رحلة لتجارة، أو رعي لغنم، أو جلوس مع قومه لما تتطلبه الأمور الحياتية واليومية؟

وكان في مدته الأخيرة قبل النبوة يخلو بنفسه، وكثيراً ما يتردد على غار حراء يقضي فيه الليالي نوات العدد، وعلى هذا فلم يكن يملك من الوقت ليكثر التردد على هؤلاء الحرفيين وهم قلة. ثم إن قريشاً كان يمكن أن تأخذ من هؤلاء ما ترد به على النبي صلى الله عليه وسلم، لو كان عند هؤلاء شيء يؤخذ. والقرآن -كما قلت- يحسم الأمر في هذا الاحتمال، فالقرآن الذي أدهش العرب أسلوباً، وأعجزهم نظاماً، يستحيل بداهة أن يوحى به هؤلاء الذين لا يحسنون النطق بالعربية، فضلاً عن أن يجيدوا التعبير فيها. يقول القرآن «ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحنون إليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين»^(١).

وعلى هذا فهذا احتمال لا يثبت أمام أبسط القواعد العقلية، وأيسر مسلمات المنطق.

الاحتمال الثالث:

لم تكن التوراة والإنجيل الأساس لهذا القرآن؟ وهذا الاحتمال حينما ننظر فيه نظرة عاجلة نجده لا يقوى على الثبات، فهذان الكتابان من المعلوم أنهما لم يترجما إلى العربية، إلا بعد قرون من بعثة النبي الكريم عليه وآله الصلاة والسلام. هذا أولاً. وأما ثانياً: فلقد جاء هذا القرآن يختلف في كثير من مسأله وقضاياه ومقرراته، وأحكامه وتصوراته عما قرر في هذين الكتابين، صحيح أنه كانت

(١). النحل آية (١٠٣).

هناك قضايا مشتركة، وهذا أمر بدهي لا بد منه، فالقرآن كتاب سماوي جاء لإرساء كثير من المقررات الدينية وترسيخها في النفوس، ولا بد أن تكون هناك جوانب مشتركة بينه وبين هذه الكتب. ونحن نرى أن كتب الأدب على اختلاف لغاتها وأعصارها وأمصارها نجد بينها سمات مشتركة، وكذلك كتب الاقتصاد، على الرغم من اختلاف أصحابها وتعدد مذاهبهم بين اقتصاد حر وغير حر، ولكن هناك سمات مشتركة بين هذه المباحث.

والناظر في القرآن الكريم يجد اختلافات جوهرية في قضايا كثيرة: في قضية الخلق. وفي القصص وما يتفرع منها كالطوفان، وفي قضايا التشريع ففي قضايا الخلق مثلاً نجد أن الأصول التي اتفقت عليها التوراة والقرآن أقل من القضايا المختلف فيها. يقول موريس بوكاي:

(يدعي كثير من المؤلفين الأوروبيين أن رواية القرآن عن الخلق قريبة إلى حد كبير من رواية التوراة، وينشرون لتقديم الروايتين بالتوازي. إنني أعتقد أن هذا مفهوم خاطيء فهناك اختلافات جلية، ففيما يتعلق بمسائل ليست ثانوية مطلقاً من وجهة النظر العلمية نكتشف في القرآن دعاوى لا يجد البحث عن معادل لها في التوراة. كما أن التوراة من ناحية أخرى، تحتوي على معالجات تفصيلية لا معادل لها في القرآن)^(١).

وفي مسألة الطوفان نجد ما يذكره القرآن مختلفاً اختلافاً تاماً عما ذكرته التوراة (فعلى حين نتحدث التوراة عن طوفان عالمي لعقاب كل

(١) دراسة في الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة (ص ١٥٧).

البشرية الكافرة، يشير القرآن على العكس إلى عقوبات عديدة نزلت على جماعات محددة... فالقرآن يقدم كارثة الطوفان باعتبارها عقاباً نزل بشكل خاص على شعب نوح، وهذا يشكل الفرق الأول أما الفرق الثاني فهو أن القرآن على عكس التوراة لا يحدد زمن الطوفان، ولا يعطي أية إشارة عن مدة الكارثة نفسها... والقرآن يحدد بشكل صريح محتوى سفينة نوح فقد أعطى الله أمراً لنوح بأن يضع في السفينة كل ما سيعيش بعد الطوفان، بالإضافة إلى الأسرة التي قطع منها الابن الملعون، ولا تشير التوراة إلى هؤلاء من بين ركاب السفينة وإنما تقدم ثلاث روايات عن محتوى السفينة^(١).

بل في قضية غرق فرعون نجد القرآن يذكر جديداً لم تعرض له التوراة ألبتة، وهذا (فيما نراه من مشاهد عبور إسرائيل البحر الأحمر حيث غرق فرعون وجنوده - كما روى سفر الهجرة، ولكن رواية القرآن تكمل هذا العرض بتفصيل غير متوقع، وهو أيضاً غير عادي أعني النجاة البدنية لفرعون الذي أفلت بأعجوبة من الغرق - أي جسده - «فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية»^(٢)).

أما في قضايا التشريع والمسؤولية الأخلاقية، فما أعظم الفرق، والحق إن البون شاسع تماماً بين مبادئ القرآن وبين غيره.

(١) الكتب المقدسة / موريس بوكاي (ص ٢٤٦).

(٢) الظاهرة القرآنية (ص ٢٠٣). والآية: ٩٢ من سورة يونس

الاحتمال الرابع:

أن يكون اكتسبه من رحلاته إلى الشام واليمن.

وهذا ما ذهب إليه جولد زيهر، ولا شك أن هؤلاء الذين كان يلاقيهم النبي في أسفاره لم يكونوا إلا من العرب المنتصرين فمن الثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يذهب أبعد من سوق حباشا في تهامة، وسوق غراش في اليمن. أما بصرى الشام فقد ذهب لها بادئ بدء في صغر سنه، وكان أكثر الذين يلاقيهم في الطريق من العرب وهؤلاء العرب كانوا بين عابدي وثن، وبين معتنقي النصرانية، وعباد الأوثان ليس عندهم ما يزيد على مجتمع مكة، وعلى هذا فمعرفة عن الدين والأنبياء معرفة محدودة وساذجة، وقد أشرنا في بعض قضايا هذا الكتاب من قبل، بأن القصص القرآني، لم يكن للعرب معرفة به، اللهم إلا معرفة إجمالية لبعض هذا القصص، وذكرنا هناك شواهد من القرآن نفسه؛ ولو كان في صحة هذه الشواهد أدنى ارتياب لوجدنا من ينكر هذا على القرآن، نجد هذا في مثل قوله سبحانه: «ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم»^(١)، «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين»^(٢).

أما العرب الذين اعتنقوا النصرانية، فلم يكن عندهم على الأرجح

(١) آل عمران: آية (٤٤).

(٢) هود: آية (٤٩).

شيء أكثر من إخوانهم الوثنيين ، ولهذا يقول سيدنا عليّ عن نصارى تغلب: "لم يأخذوا من النصرانية إلا شرب الخمر"، ولو ذهبنا إلى أبعد الاحتمالات وافترضنا أصعب الفروض وابعدها فإننا لن نجد عند هؤلاء ما يعطونه مهما كان قدره وقيمته.

لقد كان هؤلاء لا يلوون على شيء، اللهم إلا حكايات وخرافات وأباطيل وأساطير جاء القرآن يندد بها ويعنف عليها.

يقول ج/سال (إذا قرأنا التاريخ الكنسي بعناية، فسندري أن العالم المسيحي قد تعرض منذ القرن الثالث لمسخ صورته، بسبب أطماع رجال الدين، والانشقاق بينهم، والخلافات على أتفه المسائل، والمشاجرات التي لا تنتهي، والتي كان الانقسام يتزايد بشأتها، وكان المسيحيون في تحفزهم لإرضاء شهواتهم واستخدام كل أنواع الخبيث والحقد والقسوة.. قد انتهوا تقريباً إلى طرد المسيحية ذاتها من الوجود، بفعل جدالهم المستمر حول طريقة فهمها. وفي هذه العصور المظلمة بالذات ظهرت، بل وثبتت أغلب أنواع الخرافات والفساد.. ولقد وجدت الكنيسة الشرقية نفسها بعد مجمع "نيقية" ممزقة بسبب الخلافات بين أنصار أريوس وسابليوس ونسطور، وبيوتيكسوس، ولقد رأى رجال الدين أن يمنح ضباط الجيش بعض الحماية، وبهذه الحجة كان العدل يباع علناً مما شجع كل نوع من أنواع الفساد والرشوة. أما بالنسبة للكنيسة الغربية فقد بلغ الخلاف بين دماز (Damase) وأريزيان (Uricien) على كرسي الأسقفية بروما في شدته حد اللجوء إلى العنف والقتل. لقد قامت هذه الانشقاقات أساساً نتيجة أخطاء الأباطرة ولا سيما

الإمبراطور قسطنس، وزادت حدة في ظل حكم جستنيان، الذي اعتقد أنه ليس هناك أي جرم في قتل أي رجل يخالفه في فهم العقيدة، هذا الفساد في الأخلاق وفي العقيدة الذي ساد بين الأمراء وبين رجال الدين، استتبع بالضرورة فساد الشعب عامة. حتى أصبح شغل الناس الشاغل على اختلافهم هو جمع المال بأية وسيلة مهما كانت لإنفاقه بعد ذلك في الترف والرزيلة).

ولقد كتب تاييلور في كتابه (المسيحية القديمة) المجلد الأول (ص ٢٦٦) يقول، (إن ما قابله محمد وأتباعه في كل اتجاه.. لم يكن إلا خرافات منفرة، ووثنية منحطة ومخجلة، ومذاهب كنسية مغرورة، وطقوساً دينية منحلة وصيبانية، بحيث شعر العرب ذوو العقول النيرة بأنهم رسل من قبل الله، مكلفين بإصلاح ما أُلِمَ بالعالم من فساد...).

وعندما وصف راهب مؤرخ الآلام والعذاب الذي أوقعه الفرس بشعب فلسطين في زمن محمد لم يتردد في أن يقرر أن الله لم يصفَ المسيحيين هناك بقسوة الزنادقة الظلمة إلا بسبب ظلمهم وشرورهم. وعندما أراد موشايم (Mosheim) وصف هذا العصر، رسم صورة للمقارنة أبرز فيها التعارض بين المسيحيين الأوائل والأواخر، وخرج بأن الديانة الحقيقية في القرن السابع كانت مدفونة تحت أكوام من الخرافات والأوهام السخيفة، حتى إنه لم يكن في مقدورها أن ترفع رأسها.

(وكان هذه الصفحات قد كتبت لتفسر الآية القرآنية الوجيزة من سورة المائدة «ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم، فنسوا حظاً مما ذكروا

به، فأغرينا بينهم العداوة، والبغضاء إلى يوم القيامة، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون»^(١)، فهذه الآية الكريمة تشير مجرد إشارة إلى البعد المادي الذي كان بين المسيحية والمسيحيين في عصر الرسول ، وتعلن أن الانشقاق الناتج من هذا البعد سيextend إلى يوم القيامة^(٢).

الاحتمال الخامس:

أن يكون متأثراً بالبيئة الشرقية: الزرادشتية أو الصابئة:

أما الصابئة فقد تحدثنا عنهم من قبل -عند الحديث عن الاحتمال الأول- وأما الزرادشتية فإنه مجرد تحمل وتكلف وشطط أن يدعى أن القرآن اكتسب منها شيئاً لمجرد اتفاق في جزئية أو جزئيتين. يقول أستاذنا محمد عبد الله دراز رحمه الله.

(لقد ذهب الدكتور سنكلير تسدال(Sinclair Tisdal) إلى حد الادعاء بأن بعض المبادئ الإسلامية مستقاة من الزرادشتية.

وخصص فصلاً كاملاً لعناصر هذا المذهب الذي يرى أنها موجودة في القرآن والسنة.

ومن غير مناقشة مصدر أو حتى تشابه الأفكار التي أوردها تحت هذا العنوان نلاحظ فيما عدا فكرة النور أنها لا تنسب إلى القرآن وإنما إلى بعض الأثر المشكوك فيه. إنها فكرة النور "نور محمد"، وفكرة "عزرائيل" ملك

(١) المائدة: آية (١٤).

(٢) مدخل إلى القرآن الكريم/د.محمد عبد الله دراز (ص١٣٦-١٣٨).

الموت وفكرة "السرّاط" جسر جهنم..الخ^(١).

٢- في المدينة:

تلك هي الفروض المحتملة، أن يكون أحدها مصدراً للقرآن في العهد المكي، ولكنها لم تقو على الوقوف أمام حقائق الواقع وحوادث التاريخ، وأحكام العقل، أفنجد شيئاً من ذلك في العهد المدني يا ترى؟.

وبإدبيء بدء نقرر أن القرآن كان قد نزل أكثره في مكة، ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كان كل القصص القرآني الذي يوجد بينه وبين التوراة شبه ما، قد نزل في مكة، فلا يمكن أن يقال إذن إن القصص القرآني الذي نجد شبيهاً له في التوراة قد اقتبس الرسول من اليهود في المدينة، إذ هناك إجماع لا يقبل الشك على أن ذلك كان في مكة، ولم يكن منه شيء في المدينة إلا ما يتفق مع ظرف المسلمين في موطنهم الجديد.

أما غير القصص من أحكام وأخلاقيات، فلقد جاء القرآن يعنف صراحة أولئك الذين اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، فهم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، وهم سمّاعون للكذب أكّالون للسحت «يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله»^(٢).

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة «قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين»^(٣).

(١) مدخل إلى القرآن الكريم/هامش (ص١٣٩).

(٢) آل عمران: آية (٩٣).

(٣) التوبة آية (٣٤).

أما من ادعى أن هناك تغييراً في الأحكام وفي بعض العبادات كالصلاة، فهو كلام أقل شأناً من أن يرد عليه.

الافتراض الثاني: أن يكون القرآن منه صلى الله عليه وسلم، وقبل أن نناقش هذه القضية، لا بد أن نعرض لشبهة أثارها المستشرقون حول أمية الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: «هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين»^(١).

اختلف المسلمون في أمية الرسول صلى الله عليه وسلم على أقوال:

١- الأول: أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكتب قط ولم يقرأ من

كتاب.

٢- أنه لم يمت حتى كتب وقرأ.

٣- أنه كتب بيده بعد البعثة.

وأكثر المسلمين على القول الأول. جاء في البحر المحيط لأبي حيان:

"وأكثر المسلمين على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكتب قط ولم يقرأ بالنظر في كتاب، وروى عن الشعبي أنه قال: ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كتب، وأسند النقاش حديث أبي كبشة السلولي أنه صلى الله عليه وسلم قرأ صحيفة لعبيدة بن حصن وأخبر بمعناها. وفي صحيح مسلم ما ظاهره أنه كتب مباشرة، وقد ذهب إلى ذلك جماعة منهم:

(٢) الجمعة آية (٢).

أبوذر عبد الله بن أحمد الهروي، والقاضي أبو الوليد الباجي، حتى كان بعضهم يسبه ويطن فيه على المنبر، وتؤل أكثر العلماء ما ورد عنه أنه كتب على أن معناه أمر بالكتابة كما نقول: كتب السلطان لفلان بكذا أي أمر بالكتب" ^(١).

وقد عاد المستشرقون لإثارة مسألة أمية الرسول صلى الله عليه وسلم لخدمة أهدافهم الخاصة، فهذا هو المستشرق جيس بلاشير يقول: ^(٢).

"هل كان محمد يعرف القراءة والكتابة؟ سؤال مهم جداً بالنسبة إلى موضوعنا، وقد جاءت عنه إجابات مختلة، فالرأي الثابت اليوم لدى المسلمين هو أن محمداً لم يكن يملك هذه المعرفة، وهو يعتمد على خبر قديم سابق في علم التفسير، يجعل الاشتقاق (أمي)، لا سيما في التعبير: (النبي الأمي) بمعنى (جاهل- لا يعرف القراءة والكتابة)، وقد أخذ بهذا التفسير عدد من المستشرقين مثل: أمري Ameri، وكازيميرسكي Kasimirski، ومونتيه Montet، ومع ذلك فلنعد إلى السورة ٢/٩٦: «هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين» فكلمة (أمي) في هذه الآية، وفي كثير غيرها يقصد بها (العرب المشركون)، الذين لم يتلقوا وحيا، كما هي حال اليهود

(١) البحر المحيط (١٥٥/٧).

(٢) ما ورد حول قضية أمية الرسول صلى الله عليه وسلم، نقل من كتاب تاريخ القرآن/ عبد الصبور شاهين (ص ٤٨-٥٣).

والنصارى، وهم لذلك يعيشون جاهلين بشرع الله. وفي تفسير الطبري أخبار كثيرة مرفوعة إلى ابن عباس تؤيد المعنى وتزكيه.

فالنبي الأمي - لا يعني إذن (النبي الجاهل)، وإنما يعني (نبي الوثنيين)، واشتقاق الكلمة العربية (أمة) يرجع بالتأكيد إلى العبرية (ummot haolam) أي (أمم العالم)، أي الوثنيون الذين كان اليهود والنصارى يعرفونهم. ولو أننا تأملنا من قريب الفكرة السائدة في العالم الإسلامي فسنلاحظ أنها ناشئة عن نزعة إلى المديح: فالذي يدل على الأصل الإلهي للقرآن هو أن ذلك الكتاب قد أوحى إلى أمي (جاهل)، حالت أميته بينه وبين أن يستقى معلوماته من أي تعلم مباشر للكتب اليهودية - النصرانية، وهكذا يروعنا التناقض بين صورة محمد، في تواضعها كإنسان، وفي عظمتها كرسول.

لذلك انتهى بعض المستشرقين إلى أقصاء القول بأمية محمد جانباً، وهؤلاء أيضاً لم يستطيعوا بداهة أن يفهموا استعمال الأمر: (اقرأ) في أول سورة العلق، وهي كلمة لا تعنى في الواقع الأمر بالقراءة، وإنما معناها "أُنذِرْ" أو "ادع".

وتحير آخرون بعكس هؤلاء - أمام نصوص متعارضة، بعضها يثبت "أمية محمد"، وبعضها ينفيها.

ولم تستطع دراسة المستشرق (فايل Veil) أن تحسم الموقف، فهو قد اعتقد حين نظر في الآية ٤٨/٤٧: «وما كنت تتلو من قبله من كتاب، ولا تخطه يمينك» أن الأصل (ت ل و) يعني العرض والاتصال والتقرير الشفوي، ومعنى

هذا لدى (فايل) أن محمداً كان يعرف القراءة والكتابة، وأن هذه الآية تشير ببساطة إلى أن محمداً لم يقرأ كتاب اليهود والنصارى السابقة على بعثته. ومع ذلك فإن استدلال (فايل) ليس مقنعاً؛ أولاً: لأن معنى الأصل (ت ل و) ليس هنا: العرض، بل القراءة بصوت عال والإسماع، وثانياً: لأن (فايل) لم يلتفت لعبارة «ولا تخطه يمينك» الواضحة الدلالة، وعليه؛ فالآية تدل -دون زيادة - على أن محمداً لم يقرأ ولم ينسخ الكتب اليهودية، ولا النصرانية، وهي لا تسمح بأن تدخل مسألة قدرته أو عجزه عن إتيانها.

وربما يجب علينا أن نلجأ في ثقة إلى بعض السطور المتناثرة في كتب السنة، ففي خبر الحديبية (عام ست من الهجرة/ ٦٢٧م) أن محمداً، ورسول مكة سهيلاً قررا عقد معاهدة، فدعا محمد كاتبه وبدأ يملئ البسملة، ولكن سهيلاً أوقف النبي لساعته قائلاً: (اكتب كما كنت تكتب من قبل: باسمك اللهم)، فمن الواضح أن سهيلاً يشير إلى بعض كتابات بيد محمد قبل رحيله من مكة، وربما قبل بعثته.

وأكّد من ذلك أيضاً مجموعة الأخبار التي تشير إلى أن النبي في مرض موته طلب كتفاً، أو قطعة من جلد، ودواة، كيما يحرر وصيته السياسية، ولم يدهش أحد من طلبه.

وإذا كان الذي حدث أنهم لم يجيبوه إلى ما طلب، فلأن جانب أبي بكر وعائشة قد عارض في ذلك جانب عليّ.

وجملة القول: أننا نرى وجود قرائن على أن محمداً كان يعرف القراءة والكتابة، وفضلاً عن ذلك فلدينا من الأسباب ما يحملنا على الظن بأن رجالاً

آخرين من أسرته: مثل عمه أبي طالب، وابن عمه علي -كانت لديهم أيضاً هذه المعرفة^(١).

هذان الخبران اللذان رجحا في نظر بلاشير معرفة النبي للكتابة لا يحتويان سوى إشارات محتملة، فقصة الحديبية نقضها هو بنفسه في هامش (ص ١) حين ذكر أن (اكتب) هنا تعني أيضاً: (استكتب -أي أمل)، وقد كان هذا الإملاء دأب رسول الله طيلة حياته، بل إنه الطريقة التي وجه الله سبحانه المسلمين إليها عند المداينة^(٢). وخبر الوفاة أضعف من ذلك دلالة على مراد المؤلف، لأمر في نظرنا، نتلخص في:

١- أن المؤلف يجعل سبب عدم إجابة شهود النبي في وفاته لمطلبه أن جانب أبي بكر وعائشة قد عارض في ذلك جانب علي، وقد اعتمد في ذلك على (ابن سعد^(٣))، وأخبار ابن سعد في (الطبقات الكبرى)^(٤) لم يرد فيها ذكر أبي بكر أو عائشة، فذكره لهما بهذه الصورة يدل على هدف استشراقي كان له مصدر آخر لم يذكره.

٢- أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في أحواله العادية يدعو بالقرطاس والدواة ليكتب كتاب الوحي ما يريد من آية أو رسالة، فكيف

(١) بلاشير -المدخل إلى القرآن ص ٦- ١١ .

(٢) دلالة الألفاظ / ١٨٥ .

(٣) أنظر هامش ص ١١ من المدخل .

(٤) الطبقات الكبرى ٢/ ٢٤٢ - ٢٤٥ - ط بيروت .

يتصور أنه يريد عكس ذلك -أن يكتب بنفسه - في هذه اللحظات الرهيبة، وشبح الموت ماثل، وأعضاء الجسم مثقلة بالآلام.

٣- وإتماماً لهذه النقطة يلاحظ أن بعض من عملوا معه كتاباً للوحي كانوا من شهود الوفاة، مثل علي، وعمر^(١)، والطبيعي أن يقوم أحدهما بمهمة الكتابة عن مريض يعاني سكرات الموت، إن لم يكن بحسب العادة.

ومع ذلك فقد وجدنا أحد تلاميذ بلاشير^(٢) يؤيده فيما ذهب إليه من تقرير معرفة النبي صلى الله عليه وسلم الكتابة والقراءة، قال: "انظر العرض الرائع للأستاذ رجيس بلاشير، ويمكن أن نؤيد فكرة معرفته لهذا الفن بملاحظة أخرى فالسور الأولى الموحاة إلى محمد تمتدح القلم، والقراءة وهو أمر لا يتوقعه أُمي (أي جاهل في نظر الدكتور مندور)، دون أن يلتفت إلى أنه ينقض كلام استاذه من طرف آخر، فكأنه لم يقرأ تفسير أستاذه للأمر (اقرأ) بمعنى (أنذر أو ادع) حتى احتج له بما ترك الاحتجاج به، وكأن الوحي -من ناحية أخرى كان مشروطاً بتوقع الرسول، حتى يلتزم حدود معرفته، لا يتجاوزها. أما الذي نطمئن إليه في هذه القضية فيعتمد على حقيقتين:

١- أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يعرفون أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفاته، وقد ذكروا من ذلك ما امتلأت به مجلدات

(١). المدخل ص ١٢ .

(٢) الدكتور مصطفى مندور في رسالته للدكتوراة عن القراءات الشاذة ص ١٢ .

ضخام في كتب السيرة، فكيف يعرضون لتفاصيل حياته اليومية حتى البسيطة، ولا يذكرون أنه كان يعرف القراءة والكتابة؟. أليس ذلك دليلاً على أن النبي لم يكن يعرفهما؟.

٢- أن النبي صلى الله عليه وسلم كان شديد الاهتمام بكتابة الوحي، وإثباته عموماً، مسجلاً أو محفوظاً كلما نزل، وقد كانت عملية إثبات النص تتم بالوسيلتين معاً، أو بإحدهما مع غيبة الأخرى، وقد كان يلقن حفاظ القرآن بنفسه، ويدع الكتابة لمن يقومون بمهمتها ممن يتقنون فنّها، فلو أنه كان يحسن ذلك لما تردد مرة أو مرات عند غيبة الكاتب، وبخاصة في جوف الليل، أن يكتب بنفسه، لكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعتمد في هذه الحالة -بخاصة، وفي سائر الأحوال بعامة، على الحفظ وعلى التحفيظ، وقد وردت في ذلك أخبار كثيرة منها:

أنه كان يستذكر القرآن فيقرأ لنفسه، قال عبد الله بن مغفل: "رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة، وهو يقرأ على راحلته سورة الفتح"، ويقرأ على أصحابه: "قال أنس: قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبيّ ابن كعب: إن الله أمّرني أن أقرأ عليك القرآن"، ويقرأ على أصحابه: ^(١) "قال ابن مسعود: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: اقرأ عليّ، قلت: يا رسول الله، اقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: نعم. فقرأت سورة النساء" ^(٢).

(١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الصحابة/ باب مناقب أبيّ بن كعب، رقم ٤٧، وقم الحديث

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، تفسير سورة النساء حديث رقم (٤٥٨٢).

وقبل ذلك كله، وبعده -كان يقرأ على جبريل، ويقرأ عليه جبريل: قال ابن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل^(١)، وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه النبي صلى الله عليه وسلم القرآن^(٢)، وفي حديث فاطمة قالت: "أَسْرَّ إِلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ جَبْرِيلَ كَانَ يِعَارِضُنِي بِالْقُرْآنِ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَأَنَّهُ عَارِضُنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أَرَاهُ إِلَّا حُضُورَ أَجْلِي"^(٣).

فإذا نحن قررنا أنَّ حديث القرآن عن (النبي الأمي) وعن الأميين لا يعني في التفسير الأرجح سوى (الوثنيين غير أهل الكتاب)، فلن يمنع ذلك من أن نقرر أن الأمية، بمعنى الجهل بالقراءة والكتابة، كانت سمة المجتمع العربي الغالبة في تلك الفترة الحضارية^(٤).

ولم تكن أمية النبي صلى الله عليه وسلم بمعنى عدم معرفته القراءة والكتابة أمراً يحرص النبي على استدامته، ولكنه كان حكم البيئة التي تربى فيها فحين كبرت سنه، وفاتته فرصة تعلمهما لم يحاول تدارك ذلك، وقد أغناه الله بالوحي وبالرسالة، ولكنه حاول أن يثبت هذا الوعي بقيمة القراءة

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب/ باب خاتم النبوة. حديث ٣٣٦١

(٢) صحيح البخاري ١/ ٢٨٧ طبعة الطبعة البهية ١٢٩٩هـ .

(٣) البرهان في علوم القرآن - للزركشي ١/ ٢٣٢- نقلًا عن البخاري .

(٤) دلالة الألفاظ / ١٨٣ - ١٨٨ .

والكتابة في نفوس أصحابه، فاهتم بتعليم أبناء المسلمين بالمدينة، وبخاصة عقب غزوة بدر حين جعل فداء الأسير تعليم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة. لكن ذلك لا يمنع أن يكون النبي -بحكم ما عاصر من أحداث، وما باشر من مهمات تتصل بالكتابة والقراءة - قد أَلَمَّ بعضَ إلمامٍ في آخر حياته بهما، لا من طريق القصد إليهما، أو إلى إتقانهما، بل جاءت معرفته عفواً واتفاقاً، وهو ما أشار إليه الشعبي في قوله المتقدم: "ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كتب" أي بعض كتابة، سنحت له معرفتها في آخر حياته، وهذا هو الاحتمال الثاني الذي نميل إلى ترجيحه في هذا المقام".

ونأتي الآن إلى ما نحن بصدده، وهو ما ذكروه من أن القرآن من عند محمد صلى الله عليه وسلم. ونقول:

لقد علم جميع البشر أن هذا القرآن الكريم قد جاء بلسان عربي مبين على رجل اختاره الله لحمل هذه الرسالة، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك بقي بعضهم في شكٍ من هذه القضية، ونقول لهؤلاء إن أكبر دليل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم إقراره أن هذا القرآن ليس من عنده، بل هو من عند الله، إذ أي مصلحة للعاقل الذي يدعي لنفسه حق الزعامة ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة، أي مصلحة له في نسب بضاعته لغيره مع أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن؟! ولو قلت إنه نسب القرآن إلى الوحي الإلهي؛ لأن في ذلك ما يعينه على دعوة الناس ليستجيبوا له ويطيعوه، فنقول إن هذا قياس فاسد في ذاته وفي أساسه.

أما كونه فاسداً في ذاته فلأن محمداً صلى الله عليه وسلم قد صدر عنه كلام نسبته إلى نفسه، وجاء بكلام نسبته إلى ربه، وما نسبته إلى نفسه أو إلى ربه استوجب على الناس طاعته فيهما على السواء، فكانت حرمتها في النفوس وكانت طاعته من طاعة الله ومعصيته من معصية الله .

وأما فسادها من أساسه؛ فلأنه مبني على افتراض باطل، وهو تجويز أن يكون هذا الزعيم من أولئك الذين يصلون إلى غاياتهم الاصلاحية عن طريق الكذب والتمويه، وهذا الافتراض باطل لأن سيرته عليه السلام تشهد على أنه كان أبعد الناس عن الكذب. ومن الأدلة على صدقه صلى الله عليه وسلم:

١- أنه كانت تنزل به نوازل، وكانت حاجته ملحة لأن يتكلم فيها، ومع ذلك يبقى أياماً وليالي ينتظر أن ينزل في شأنها قرآن، خذ أكبر مثال على ذلك حديث الإفك في شأن السيدة عائشة فلو كان أمر القرآن إليه ما الذي كان يمنعه أن يقول بشيء يحمي به عرضه ويذب عنه، ولكن ما كان لينذر الكذب على الناس ويكذب على الله، ومن ذلك قصة المجادلة، جاءت خولة بنت حكيم، وقد ظاهر منها زوجها، وكان الظهار في الجاهلية طلاقاً محرماً تحريماً باتاً، فيقول لها النبي صلى الله عليه وسلم: ما أظنك إلا وقد حرمت عليه. وتجادل النبي صلى الله عليه وسلم، تقول: إن لي ضبية إن ضممتهم إليّ جاعوا، وإن ضممتهم إليه ضاعوا، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: ما أظنك إلا وقد حرمت عليه.. ويعد هذه المجادلة ينتزل الوحي بقول الله سبحانه «قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله، والله يسمع تحاوركما...»^(١) وتنزل الايات تبين كفارة الظهار، أفيمكن بعد هذا، بعد

(١) المجادلة: آية (١).

أن يبين النبي صلى الله عليه وسلم لخولة أنها قد حرمت عليه أن يتنزل الوحي بغير ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم، أي عقل وأي ضمير يمكن أن يقبل أن هذا القرآن من عند محمد صلى الله عليه وسلم.

٢- هناك آيات كثيرة كانت تخطيء الرسول الكريم، فتجدها تعاتبه «يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك»^(١)، «وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه»^(٢)، «أما من استغنى فإنت له تصدى وما عليك ألا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهي»^(٣)، فلو كان هذا صادراً عنه، أكان يعلنه بهذا التهويل عن نفسه؟ أليس من الأفضل أن يسكت ويستتر نفسه؟

٣- كانت آيات تنزل عليه مجملة، وقد تشكل عليه فلا يتبين هو وأصحابه تأويلها حتى ينزل عليه بيان من الله، فهل يعقل أن توحى إليه نفسه كلاماً لا يفهم معناه...مثال ذلك لما نزل قوله تعالى «وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله»^(٤) أزعج ذلك الصحابة إزعاجاً شديداً؛ لأنهم فهموا منها أنهم سيحاسبون على كل شيء حتى حركات القلوب وخطراتها، فقالوا: يا رسول الله أنزلت علينا هذه الآية ولا تطيقها فقال لهم "أتريدون أن

(١) التحريم: آية (١) .

(٢) الأحزاب: آية (٣٧) .

(٣) عبس: آية (٥ - ١٠) .

(٤) البقرة: آية (٢٨٤) .

تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات، حتى أنزل الله بيانها، «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها»^(١) إلخ السورة وعندها علموا أنهم إنما يحاسبون على ما يطيقون من شأن القلوب، وهو ما كان من النيات المكسوبة، والعزائم المستقره لا من الخواطر والأمانى الجارية على النفس بغير اختيار.

٤- وكان حين ينزل عليه القرآن يتلقفه متعجلاً خشية أن يفوت منه شيء، ولم يكن معروفاً من عاداته تحضير كلامه لا قبل النبوة ولا بعدها، ولا كان ذلك من عادة العرب، فلو كان القرآن من معين نفسه لما كانت له حاجة إلى التعجيل وتحريك لسانه طلباً لحفظه، وخشية ضياعه من صدره.

٥- سيرته صلى الله عليه وسلم سيرة متميزة بالأخلاق العظيمة، من تواضع وصراحة وثبّت قلماً نجده عند العلماء والزعماء.

جلست جوهريات يضربن بالدف في صبيحة عرس الربيع بنت معوذ الأنصارية، وجعلن يذكرن آباءهن من شهداء بدر، حتى قالت جارية: وفيما نبي يعلم ما في غد. فقال صلى الله عليه وسلم: لا تقولي هكذا وقولي كما كنت تقولين...^(٢)

ولما توفي عثمان بن مظعون رضي الله عنه قالت أم العلاء - امرأة من الأنصار - رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال

(٢) البقرة آية (٢٨٦) . (٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي حديث رقم (٤٠٠١).

صلى الله عليه وآله وسلم: وما يدريك أن الله أكرمهم؟! فقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟ قال: أما هو فقد جاءه اليقين، والله إنني لأرجوا له الخير، قال والله لا أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي، قالت: فوالله لا أزكي بعده أبداً^(١) .

فلو كان كاذباً ما الذي يمنعه من ادعاء علم الغيب، ولو كان يخشى أن يكشف الغيب قريباً أو بعيداً خلاف ما يقول، فما الذي كان يمنعه أن يتقول أشياء عما بعد الموت وينسبها لنفسه مثل عذاب القبر والجنة والنار وهو يعلم أنه لن يكشف أحد كذبه؟! ثم إنه عليه الصلاة والسلام ذكر للناس بأنه خاتم الأنبياء، وها هي القرون تمر وتمر، ولم يأت من يدعي أنه خاتم الأنبياء ويثبت الواقع دعواه، وهذا لا شك دليل على صدقه صلى الله عليه وسلم.

٦- وقد يدعي مدع أن محمداً -صلى الله عليه وسلم- كان له من الذكاء الفطري والبصيرة النافذة ما يؤهله لإدراك الحق والباطل من الآراء والحسن والقبيح من الأخلاق، والخير والشر من الأفعال... فكل ما جاء به من قرآن مما أدركه محمد بوجوده وشعوره.

فنقول لهؤلاء هل كل ما في القرآن الكريم مما يمكن أن يستنبطه عقله وتفكيره وما يمكن أن يدركه محمد صلى الله عليه وسلم بوجوده وشعوره؟ اللهم كلا، ففي القرآن الكريم كثير من المعاني التي لا مجال فيها للذكاء والاستنباط، ولا سبيل إلى علمها إلا بالدراسة والتلقي.

إليك مثلاً القصص التاريخي، فهل يمكن استنباطها بإعمال الفكر ودقة

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز حديث رقم (١٢٤٣).

الفراسة؟ أم تقولون إنه ورث كتب الأولين وعكف على دراستها حتى أصبح من الراسخين في العلم...؟

إنكم لا يسعكم أن تدعوا هذا ولا ذاك، وأنتم معترفون مع العالم كله بأنه لم يكن من هؤلاء ولا هؤلاء، قال تعالى «وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم»^(١) وقال «وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون»^(٢).

وهل يمكن استنباط أسماء بعض الأنبياء والأمم الماضية، وما جرى من حوادث التدمير في ديار عاد وثمود وطوفان نوح وغيرها... وبعض الأرقام المذكورة في القرآن، منها أن نوحاً عليه الصلاة والسلام لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وأن أهل الكهف لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً؟ اللهم لا؟

إن العقل البشري له في ادراك الأشياء طريق معين وحد محدود لا يتعداه، وما لم يكن مركزاً في غريزة النفس إنما يكون إدراك العقول له عن طريق مقدمات معلومة توصل إلى ذلك المجهول، وما ليس له تلك المقدمات فإنما سبيله الإلهام أو النقل مثلاً، ولتضرب مثلاً من العقائد الدينية، وآخر من الأمور الغيبية.

فأما أمور العقائد الدينية: فكل ما يمكن أن يصل إليه العقل أن لهذا العالم إلهاً مدبراً لم يخلقه عبثاً، بل على مقتضى الحكمة والعدالة.. ولكن

(٢) يوسف: آية (١٠٢) .

(١) آل عمران: آية (٤٤) .

القرآن لا يقف عند هذا ، بل نجده يشرح حدود الإيمان مفصلة، فيصف بدء الخلق ونهايته والجنة ونعيمها، والنار وألوان عذابها.

وأما النبوءات الغيبية: فلا يمكن للعقل البشري أن يصل إليها أو يستنبطها، والغيبيات في القرآن الكريم كثيرة: منها ما يتعلق بمستقبل الإسلام في نفسه أو كتابه ومنها ما يتعلق بمستقبل الحزبين حزب الله وحزب الشيطان.

فمن النوع الأول قوله «كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض»^(١)، وقال «ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها»^(٢)، وقال «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»^(٣).

إن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يكن ممن تستخفه الآمال فيجري مع الخيال؟ إنه ما كان قبل نبوته يطمع أن يكون نبياً يوحى إليه «وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك»^(٤) ولا كان بعد نبوته يضمن لنفسه أن يبقى هذا الوحي محفوظاً لديه، «ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً، إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيراً»^(٥).

(١) الرعد آية (١٧) .

(٢) إبراهيم آية (٢٤) .

(٣) الحجر آية (٩) .

(٤) القصص آية (٨٦) .

(٥) الإسراء آية (٨٦، ٨٧) .

وخذ من النوع الثاني قوله «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون»^(١) حديثاً عن حزب الله .. أما عن حزب الشيطان فخذ قوله تعالى «لن يضرركم إلا أذى وإن يقاتلكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون»^(٢) ثم يقول «ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس» فقد زينت لهم أحلامهم أن يتخذوا الأرض المقدسة وطناً قومياً لهم، تأوي إليه الجاليات اليهودية من أقطار الأرض.. ولكن هل استطاعوا أن يتقدموا هذه الخطوة مستنديين إلى قوتهم الثابتة؟ كلا والله ولكن مستنديين إلى «حبل من الناس» قل: صدق الله، ومن أصدق من الله حديثاً .

٧- وإن قلتم إن محمداً عليه الصلاة والسلام تعلم القرآن من معلم علمه إياه؟ فنقول إنه لم يكن له معلم، وذلك ما لا شبهة لأحد فيه ولا نحسب أحداً في حاجة إلى الاستدلال عليه بأكثر من اسم. الأمية، واسم الجاهلية الذي أطلق على العرب قبل الإسلام... وقد حدثناك عن هذه القضية من قبل.. ولكننا نقول لو كانت نسبة هذه العلوم القرآنية إلى تعليم البشر، لو كانت من الدعاوى التي تعبر عن فكرة أو شبهة قائمة بنفس صاحبها، لوقف عندها الطاعنون ولم يجاوزوها ذلك لأن العقل إذا خُلّي ونفسه في تحليل تلك المفارقة الكلية بين ماضي الحياة المحمدية وحاضرها -أعني قبل النبوة وما

(١) الصفات (١٧١) .

(٢) آل عمران آية (١١١) .

بعدها- لم يسعه إلا الحكم بأن هذا العلم الجديد وليد تعليم وإن لا عهد للناس بمعلمين في الأرض من غير البشر كان أول ما يخطر بالبال أن هنالك إنساناً تولى هذا التعليم، فلو وجد الطاعن أدنى تكأة من عوامل واقعية أو ممكنة تجعل له شيئاً من الاقتناع بهذا التعليل فيما بينه وبين نفسه لما رضي به بديلاً، ولما عدل عنه إلى تعليل آخر أياً كان. لكن هؤلاء الطاعنين ما فتئوا منذ نزل القرآن إلى يومنا هذا حائرين في نسب هذا القرآن، لا يدرون أينسبونه إلى تعليم البشر، أم يرجعون به إلى نفس صاحبه، أم يجمعون له بين النسبتين فيقولون لصاحبه إنه معلم مجنون كما جاء في سورة الدخان.

ومن تتبع أنواع المجادلات التي حكاها القرآن عن الطاعنين فيه رأى أن نسبتهم القرآن إلى تعليم البشر كانت هي أقل الكلمات دوراناً على ألسنتهم، وأن أكثرها وروداً في جدلهم هي نسبته إلى نفس صاحبه على اضطراب في تحديد تلك الحال النفسية التي صدر عنها القرآن: أشعر هي، أم أضغاث أحلام..

فانظر: كم قلبوا من وجوه الرأي في هذه المسألة؟ حتى إنهم لم يقفوا عند الحدود التي يمكن افتراضها في كلام رصين كالقرآن وفي عقل رصين كعقل صاحبه، بل ذهبوا إلى أبعد الأحوال النفسية التي يمكن أن يصدر عنها كلام العقلاء والمجانين... إن ذلك عن أوضح الأدلة على أنهم لم يكونوا يشيرون بهذا الوجه أو ذاك إلى تهمة محققة لها مثار في الخارج أو في اعتقادهم، وإنما أرادوا أن يدلوا بكل الفروض والتقاير مغمضين على ما فيها من محال وثابٍ وثافر، ليثيروا بها غباراً من الأوهام في عيون المتطالعين

إلى ضوء الحقيقة، وليلقوا بها أشواكاً من الشك في طريق السائرين إلى
روض اليقين^(١).

هل يمكن أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم أكثر من أسلوب في الكلام؟.

يرى بعض المستشرقين أن القرآن الكريم قد يكون من كلامه صلى الله
عليه وسلم، فهم يقولون إن الرجل البليغ قد يكون له ضرباً من الأسلوب
أولهما الكلام الذي يقوله على سجيته دون عناية بتهذيب القول وإمعان الفكر،
والثاني الكلام الذي يعنى بتهذيبه ويمعن الفكر فيه، وعلى هذا قد يكون ما
بين الحديث والقرآن هو ما بين هذين الأسلوبين، ويكون كلاهما لمتكلم واحد هو
الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد ردّ الدكتور دراز هذه الشبهة بما يلي:-

١- كان أكثر الوحي القرآني يجيء النبي صلى الله عليه وسلم في
شأن لم يسبق له عهد به أو تفكير فيه، فيأتي الوحي جواباً لسؤال سائل أو
فتياً في حادثة نزلت أو قصصاً عن أمة مضت.

٢- كثيراً ما كان الوحي يأتيه بعد تشوّق وانتظار كما في مسألة الألفك

وتحويل القبلة .

٣- إن أسلوب القرآن كان ذا نسق واحد على الرغم أنه أحياناً كان
يأتي بعد تشوّق وانتظار من الرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك أسلوب

(١) راجع كتاب الأستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز /النبي العظيم (٢٠ - ٦٩) بتصرف

الرسول صلى الله عليه وسلم كان نسقاً واحداً حتى في المواطن التي ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم شاور فيها وتردد في حديثه في مسألة الإفك وحديثه بعد التشاور في شؤون الحرب والصلح ونحوها، وكذلك أحاديثه مع أهله وأصحابه استوى أسلوبه مع أسلوب أحاديثه أمام الجموع الحاشدة.

٤- لو افترضنا جدلاً صحّة ما قيل من تقسيم أسلوب المرء إلى مستويين لما صحّ بالنسبة إلى العرب في ذلك الوقت لسلامة سلائقهم اللغوية، إذ لم تكن نجد كبير تفاوت بين أسلوب بلغاء العرب في أحوالهم المختلفة بحيث يُظنّ القول لقائلين اثنين، وإنما ظهر هذا التفاوت من أيام المولدين واحتدّ بعدها، أما العربي القحّ فإن التفكّر يزيده إحاطة بالموضوع ولكن لا يخرج عن أسلوبه وطريقته .

بل إن المرء لو حاول أن يخرج على سجيته ويتعمّل فإن هذا لا يخرج عن حدود مذهبه الأسلوبية في الجملة، ثم إن هذا لا يزيد كلامه خصاصةً وحسنًا، بل إنه لينزل بأسلوبه وهو يحسب أنه يصعد فيه.

٥- ومن المعلوم أن العرب كانوا يمتدحون الكلام الفصيح المطوع ويكوهون المتكلف المصنوع، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أشد الناس كراهية للتكلف في الكلام وغيره.

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الرابع

إعجاز القرآن

ونتحدث فيه عن :

المعجزة لغة

المعجزة اصطلاحاً

إعجاز القرآن

وجوه الإعجاز

مراحل التحدي

دراسة هذه المراحل

الإعجاز البياني

الأسلوب القرآني

الإعجاز العلمي

الفصل الرابع إعجاز القرآن

من نعم الله تبارك وتعالى أنه لم يخلق الناس ويدعهم وشؤونهم، إنما تكفل لهم سبحانه بما يصلح شؤونهم ويكفل لهم السعادة في دنياهم آخرتهم، ذلكم لأن الإنسان مهما أوتي من علم، وأودع الله فيه من عقل؛ فإن ذلك لا يغنيه عن الهداية الربانية؛ لذا كان من رحمة الله وحكمته أن يرسل الرسل مبشرين ومنذرين، يدعون الناس إلى الإيمان بالله الواحد ويبينون لهم ما يصلحهم.

ولما كان كثير من الناس يمكن أن يكذبوا الرسل في دعواهم، كان من رحمة الله أن يؤيد هؤلاء الرسل بالمعجزات تصدقهم في دعواهم النبوة، حتى لا تبقى شبهة تحيك في النفس.

وحديثنا في هذا الفصل يتناول تعريف المعجزة لغة واصطلاحاً، ووجوه إعجاز القرآن البياني والعلمي والتشريعي.

المعجزة لغة:-

أصل مادة معجزة العجز، يقول الراغب الأصفهاني: عجز، عجز الإنسان مؤخره، وبه شبه مؤخر غيره، قال «كأنهم أعجاز نخل خاوية»^(١). والعجز أصله التأخر عن الشيء وحصوله عند عجز الأمر، أي مؤخره، كما ذكر في اللبر، وصار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة،

(١) القمر: آية (٢٠).

قال «أعجزت أن أكون»^(١)، وأعجزت فلاناً وعجزته وعاجزته جعلته عاجزاً
وذكر ابن فارس أن العين والجيم والزاي تدل على أصلين: أحد
الضعف والآخر مؤخر الشيء^(٢).

وأمام هذه الآراء، نرى أن أولاهما قول الراغب الأصفهاني "فأصل
في اللغة مؤخر الانسان، واستعير لغيره، وهناك صلة وثيقة بين هذا
وبين القصور عن الشيء، فإن التأخر والقصور متلازمان، لأن من تأخر
غيره إنما يرجع ذلك إلى تقصيره".

المعجزة اصطلاحاً:-

هي أمر خارق للعادة يدل على تصديق الله تعالى للمدعي في
الرسالة، أو هي تأييد الله تعالى مدعي النبوة بما يؤيد دعواه إلى
المرسل إليهم.

ومن هنا نعلم أن المعجزة لا بد لها من شروط حتى تتحقق،
الشروط أن تكون فعلاً لله تبارك وتعالى، فلا تكون من فعل البشر،
تكون خارقة للعادة ليست مما ألفه الناس واعتادوه، ومنها
معارضتها غير ممكنة، فلا يمكن للناس أن يأتوا بمثلها، ومنها أن
ظهرت على يد مدعي النبوة وليس على يد غيره من الناس، وأن تكون
لما يدعيه النبي، وتكون كذلك بعد ادعائه النبوة.

(١) المائدة: آية (٢١).

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني ٢٢٢. (٣) معجم مقاييس اللغة (٤/٢٢٢).

ومن حكمة الله سبحانه وتعالى أن هذه المعجزة تكون منسجمة مع
أحوال الناس الذين ظهرت عليهم، لأن الناس يختلفون باختلاف أزمنتهم
وأمكناتهم، فالمعجزة لا بد أن تكون جارية مع تفكيرهم، ومع طبيعة بيئتهم.
فمعجزة موسى عليه الصلاة والسلام العصا الجافة التي ألقاها باسم
الله فإذا هي حية تسعى من حيث الظاهر فقط، والأمة التي تحداها تفوقت
في السحر وحذقته.

وكذلك معجزة عيسى عليه الصلاة والسلام منسجمة مع البيئة؛ ذلك لأن
العهد الذي أرسل عليه الصلاة والسلام فيه كان عهداً قد طغت عليه المادة،
وبخاصة على بني إسرائيل، حيث قطعوا كل صلة بينهم وبين شريعة موسى،
فكانت معجزته تقويضاً للمادة رأساً على عقب، وصفعة للماديين، وليس
صحيحاً ما يقال من أن معجزته كانت كذلك لاشتتار قومه بالطب.

أما معجزة النبي محمد عليه الصلاة والسلام فكانت القرآن الكريم
الذي كان على أعلى درجة من الفصاحة والبلاغة، لأن القوم كانت البلاغة
فصاحتهم.

ومعجزة النبي صلى الله عليه وسلم معجزة عقلية، وسبب كونها عقلية
أنها معجزة عامة باقية خالدة على مر الأزمنة والعصور، فعموم الرسالة
وبقاؤها ودوامها يتطلب أن تكون معجزة عقلية تامة الهداية لا تقتصر على
مجال دون مجال، أو مكان دون مكان أو شعب دون شعب.

إعجاز القرآن:

معنى إعجاز القرآن عجز الناس عن الإتيان بمثله، فكلمة إعجاز مصدر، وإضافتها إلى القرآن من إضافة المصدر إلى فاعله، فكأن التقدير أعجز القرآن الناس أن يأتوا بمثله.

وجوه الإعجاز:

القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للنبي صلى الله عليه وسلم، وقد اتفق العلماء على أن أعظم وجوه إعجاز القرآن ببيانه وبلغته ونظمه، ولكنهم اختلفوا فيما وراء ذلك:

فرأى بعضهم أن القرآن معجز ببيانه فحسب، وذهب أكثرهم إلى أن وجوه الإعجاز كثيرة ومتعددة منها الإعجاز البياني، والعلمي، والتشريعي، ولكي نرجح أحد هذين الرأيين، لا بد أن نتحدث عن التحدي ومراحلته في القرآن الكريم.

امتاز العرب بسلاسة السليقة، وسرعة البديهة، وعرفوا كثيراً من أصول النقل الأدبي، ولذلك لما سمعوا القرآن الكريم استولى على مسامعهم، وسار حديث نواديهم، واهتزت له ألبابهم، ولذا كان حرياً بهم أن يؤمنوا به، ولكنهم كانوا أشدّ عناداً، فتحداهم القرآن، وأرعى لهم العنان في التحدي، ولكنهم وقفوا منه موقف العاجز فلم يستطيعوا معارضته، مع أن الأسباب متوفرة لديهم، وهي فصاحتهم وبلاغتهم، واستثارة القرآن الكريم لهم فقد رماهم بسفاهة العقل، وسب آلهتهم ... ومع هذا فقد عجزوا عن معارضته، فاتجهوا إلى اتهام الرسول صلى الله عليه وسلم بالكهانة والسحر والجنون.

مراحل التحدي:-

تحدى القرآن العرب في أكثر من آية على مراحل متعددة، وهذه

المراحل:

أولاً: تحدوا أن يأتوا بمثل القرآن من غير تعيين قدر. قال تعالى

«فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين»^(١)

ثانياً: لما عجزوا عن الإتيان بمثله أرخى لهم القرآن العنان فقال «أم

يقولون افتراه، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات»^(٢).

ثالثاً: فلما عجزوا ولم يستطيعوا خفف عنهم القرآن فقال «أم يقولون

افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم

صادقين»^(٣).

رابعاً: ولكن القوم عجزوا كذلك، فتحداهم القرآن للمرة الأخيرة فقال

«وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا من

استطعتم من دون الله إن كنم صادقين»^(٤).

دراسة هذه المراحل:-

أولاً: إن هذه المراحل الثلاث الأولى كلها مكية التنزل، فالطور وهو

ويونس سور مكية باتفاق، أما الآية الرابعة فهي مدنية باتفاق.

ثانياً: إن المراحل الثلاث الأولى خوطب بها العرب، لأنهم هم المتحدون

(١) الطور: آية (٢٤).

(٢) هود: آية (١٣).

(٣) يونس: آية (٢٨).

(٤) البقرة: آية (٢٣).

في هذه السور الثلاث، أما المرحلة الرابعة فقد خوطب بها الناس جميعاً، يدل
لذلك سياق الآيات «يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم
لعلكم تتقون، الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء
ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون وإن
كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله»^(١).

ثالثاً: إن المراحل الثلاث الأولى مختلفة من حيث الأسلوب عن المرحلة
الرابعة، وإليك بيان ذلك:

المرحلة الأولى: «فليأتوا بحديث مثله» والثانية «قل فأتوا بعشر سور
مثله» والثالثة «فأتوا بسورة مثله» أما المرحلة الرابعة فجاء الأسلوب فيها
«فأتوا بسورة من مثله» فكلمة (من) لم تذكر إلا في المرحلة الرابعة.
هناك اختلاف -إذن- بين المراحل الثلاث والمرحلة الرابعة من حيث
التنزل، ومن حيث السياق ومن حيث الأسلوب، ولهذه الفروق دلالاتها في تعيين
أو ترجيح أحد القولين السابقين في بيان وجوه الإعجاز.

فإذا كان التحدي في المراحل الثلاث المخاطب به العرب، والعرب كان
البيان بضاعتهم والبلاغة سجيته، فإن المرحلة الرابعة المخاطب بها الناس
جميعاً عربهم وعجمهم، وإذا كانت المراحل الثلاث الأولى خالية من كلمة (من)
فلقد جاءت المرحلة الرابعة مشتملة على هذا الحرف الدال على التبعية،
ومعنى هذا أن المرحلة الأخيرة كان التحدي فيها للناس جميعاً، ولا يعقل أن

(١) البقرة: آية (٢١-٢٢).

يتحدى الناس جميعاً بالبيان وحده، إنما هو تحد عام عموم المخاطبين به.
وبعد هذه الدراسة نقرر أن وجوه الإعجاز متعددة، وأن القرآن الكريم
معجز من حيث بيانه، ومن حيث تشريعه، ومن حيث ما فيه من حقائق علمية
وكونية، ومن حيث ما فيه من أخبار غيبية إلى ما هنالك من وجوه أخر،
وستحدث هنا عن أهم هذه الوجوه وهي البياني والعلمي والتشريعي.

الإعجاز البياني:

إن أعظم وجوه إعجاز القرآن الإعجاز البياني، لأنه ينظم القرآن الكريم
كله، سورته على اختلافها طولاً وقصراً، أما الوجوه الأخرى من وجوه
الإعجاز فليس الأمر فيها كذلك، فأنباء الغيب مثلاً ليست موجودة في كل آية
من القرآن، وكذلك الإعجاز العلمي والتشريعي، ومن هنا كان الإعجاز البياني
أهم هذه الوجوه، وأعمها، بل أتمها، لأنه عام في القرآن كله لا تخلو منه
سورة على قصرها، بل هو في كل آية من الآيات القرآنية.

والإعجاز البياني يرجع في لبه وجوهره إلى النظم، وهذا النظم ليس
خاصاً بالعرب وحدهم، والنظم هو ذلكم الترتيب الذي كان لكلمات القرآن في
جملها من جهة، واختيار هذه الكلمات من جهة أخرى، ثم ترتيب الجمل
والآيات في السورة، وتلك قضية كان يدركها العربي عند نزول القرآن بنوّه
وسليقته، أما العرب اليوم فإنما يدركونها بالفكرة لا بالفطرة بعد أن تفسر
لهم وتبين لهم دقائقها.

والكلمة القرآنية هي أساس النظم، إذ إن مفردات القرآن مختارة
منتقاة وهي كما قال الراغب: "هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته،

وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة" (١).

الكلمة القرآنية مقدرة خير تقدير، معبرة أصح تعبير وأصدق، فاختيار الكلمة في موضع دون آخر واختيار الكلمة دون غيرها من إعجاز القرآن، ولذا فإن كتاب الله تعالى لا ترادف في كلماته، فكل كلمة تحمل معنى خاص بها، لا تسد غيرها مسدها.

فمن ذلك كلمتا الحمد والشكر، فقد ذكرت كلمة الحمد في كتاب الله تعالى مرات عديدة فاتحة لسورة عديدة، لكن كلمة الشكر ذكرت أكثر من كلمة الحمد. قال تعالى «فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون» (٢)، وقال «وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ» (٣).

ولقد ذكر بعض المفسرين أن الكلمتين نواتا معنى واحد، والمحققون ذهبوا غير هذا المذهب، وإذا كان من فرق بين الحمد والشكر، فإن الحمد يكون باللسان، أما الشكر فلا يختص به اللسان وحده، وإنما يكون بالقلب والجوارح.

(١) المفردات ص ٦.

(٢) البقرة: آية (١٥٢).

(٣) إبراهيم: آية (٧).

وهناك فرق آخر، وهو أن الشكر لا يكون إلا مقابل نعمة، أما الحمد فإنما يكون لأي شيء ومن أجل هذا اختيرت كلمة (الحمد) في فاتحة الكتاب. ومن ذلك كلمتا الفعل والعمل، فإن بينهما فروقاً، أما أولاً: فإن لفظ (عمل) يستعمل لما يمتد زmannه. ولفظة (الفعل) على العكس من ذلك، فهو لما يكون دفعة واحدة. قال تعالى «وعملوا الصالحات» وهذا يكون في فترات طويلة، وقال تعالى «ألم تر كيف فعل ربك بعاد»^(١)، وقد كان هذا دفعة واحدة. وأما ثانياً: فإن العمل، كل فعل يكون من الحيوان بقصد، فهو أخص من الفعل؛ لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد، وقد ينسب إلى الجمادات^(٢)، قال تعالى «وعملوا الصالحات» ولا شك أن هذا يكون بقصد من الإنسان، وقال تعالى «قال بل فعله كبيرهم هذا»^(٣)، وفعل الجماد بلا قصد منه.

وإذا كانت هذه مكانة الكلمة القرآنية، فإن الحرف لا يقل عنها إذ إن له نصيبه الأوفى وحظه الأوفر في البيان القرآني وهل الحرف إلا كلمة؟ أليست الكلمة إلا اسماً وفِعْلاً وحرفاً؟ سواء أكان من حيث حذفه وذكره، أم كان من حيث وضع حرف مكان آخر، ولا بد من الإشارة إلى أن ما ذهب إليه كثير من العلماء من تناوب الحروف بعضها مكان بعض، أمر غير مسلم أو مستساغ

(١) الفجر: آية (٦).

(٢) المفردات ص ٣٤٨.

(٣) الأنبياء: آية (٦٣).

في كتاب الله، فكل حرف له مدلوله الخاص به ففي قوله تعالى «ولأصلبكم في جنوع النخل»^(١)، لا يمكن أن يقال إن معنى (في) هنا على.

فإن حرف الجر (في) جيء به قصداً ولا يسد غيره مسده؛ ذلك لأن الحرف يصور لنا ما في نفس فرعون من حقد وغيظ على أولئك السحرة المؤمنين، فهو لا يريد فقط تصليبهم على الجنوع، بل يود أن يدخلهم في جذوع النخل ويحشرهم فيها.

ومن دقة القرآن في استعمال الأحرف قوله تعالى «قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا»^(٢)، وقوله «قل آمنا بالله وما أنزل علينا»^(٣)، فقد عبر بـ (إلى) حينما كان الخطاب للأمة لأن القرآن إنما أنزل إليهم، وجاءت (على) حينما كان الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأن القرآن إنما أنزل عليه وحده.

وإذا تجاوزنا الكلمة والحرف القرآني إلى الجملة القرآنية، فإننا نجد أن في هذه الجملة مظاهر من مظاهر الإعجاز، ومن هذه المظاهر الحذف والذكر، فقد نجد جملاً ذكرت فيها بعض الكلمات، على حين نجد جملاً أخرى مشابهة لها قد حذفت منها هذه الكلمات، ومنها التقديم والتأخير فقد نجد بعض الجمل قُدمت فيها بعض الكلمات، ولكن هذه الكلمات نفسها أُخرت في جمل أخرى.

(١) طه: آية (٧١).

(٢) البقرة: آية (١٣٦).

(٣) آل عمران: آية (٨٤).

فمن الحذف والذكر قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً»^(١)، مع أن أكثر المنهيات كانت تلي حرف النهي مباشرة «ولا تقتلوا أولادكم»^(٢)، «ولا تقربوا الزنا»^(٣)، «لا يسخر قوم من قوم»^(٤)، ولكن أية النساء جاء نسقها غير هذا كله فلم يقل فيها «لا ترثوا النساء كرها».

وإذا رجعنا إلى الآيات القرآنية، وصنفنا الآيات التي تشبه هذه الآية بعضها إلى بعض مثل قوله تعالى «ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً»^(٥)، يظهر لنا أن هذه الكلمة إنما تجيء بجانب الأمور، أو بجانب القضايا التي كان الناس يزاولونها دون أن يروا بها بأساً أو حرجاً، أما غيرها من المنهيات فهي أمور تنفر منها الطباع، أو ينكرها العرف، فالقتل والزنا، وأكل مال اليتيم لا يقرها عقل، ولا يحلها شرع. أما التحكم في النساء ووراثتهن كرهاً فإنها تختلف عن الأمور السابقة، حيث رأينا أن بعض التشريعات عند الأمم المتمدينة كانت تجيز هذا إلى عهد قريب، وهنا تبرز دقة التعبير. في كتاب الله في مخاطبة النفس الانسانية، فالأمور المتفق على تحريمها تلي حرف النهي «لا تقربوا»، «لا تأكلوا»، «ولا تقتلوا النفس»، أما ما

(١) النساء: أية (١٩).

(٢) الإسراء: أية (٣١).

(٣) الإسراء: أية (٣٢).

(٤) الحجرات: أية (١١).

(٥) البقرة: أية (٢٢٩).

يظنه بعض الناس حقاً لا مزية فيه ولا غبار عليه، فإننا نجد القرآن يعبر عنه بأسلوب آخر حيث يلي حرف النهي هذه الجملة «يحل».

ومن التقديم والتأخير «إذ يغشيكم النعاس أمانة منه»^(١)، وفي آية أخرى «ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانةً نعاساً»^(٢)، فقد قدم النعاس في الآية الأولى على الأمانة، وآخر في الآية الثانية ويقيناً لا بد من حكمة بيانية لهذا النظم البديع.

فإذا عرفنا أن آية الأنفال كانت في بدر، وأن آية آل عمران في أحد، وعرفنا أن حاجة المسلمين في بدر كانت إلى الراحة والنوم، لأن الله قد تكفل لهم بالنصر، حيث وعدهم إحدى الطائفتين، أما في أحد فلقد كانت حاجتهم بعد أن أصابهم ما أصابهم إلى الأمن والطمأنينة؛ إذا عرفنا ذلك أدركنا سر التقديم والتأخير في الآيتين الكريمتين، فقدم في كل آية ما يتلاءم مع ظروف الجماعة المسلمة.

ومن ذلك الجن والانس، فقد تقدم كلمة الجن تارة، وكلمة الانس أخرى، وهذا ما يستدعيه السياق، وتوجيه الحكمة البيانية، ففي سياق التحدي بالقرآن الكريم يقدم الانس على الجن؛ لأن الانس هم المقصودون بالتحدي أولاً وقبل كل شيء. قال تعالى «قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتون بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً»^(٣).

(١) الأنفال: آية (١١).

(٢) الاسراء: آية (٨٨).

(٣) آل عمران: آية (١٥٤).

أما في سياق التحدي بالنفوذ من أقطار السماوات والأرض، فلقد قدم الجن، لأنهم أقدر على الحركة من الإنس، قال تعالى «يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان»^(١). أما قوله سبحانه «وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون»^(٢)، فلقد قدم الجن على الإنس؛ لأنه روعي السبق الزمني، فإن الجن مخلوقون قبل الإنس.

ومن الإعجاز البياني في القرآن الكريم دقة الفاصلة القرآنية، والفاصلة هي ذلك اللفظ الذي ختمت به الآية القرآنية؛ فالفاصلة القرآنية لم تأت لغرض لفظي فحسب، وهو اتفاق رؤوس الآي بعضها مع بعض، وهو ما يعبرون عنه بمراعاة الفاصلة، إنما جاءت الفاصلة في كتاب الله لغرض معنوي يحتمه السياق، وتقتضيه الحكمة، ولا ضير أن يجتمع مع هذا الغرض المعنوي ما يتصل بجمال اللفظ وبديع الإيقاع.

وبعض هذه الفواصل يمكن أن يدركها القاريء بأدنى تأمل فهو لا يحتاج إلى كثير فكر، وكبير عناء، من ذلك قوله تعالى «كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون»^(٣). فهذه الفاصلة متصلة بما قبلها، ولا يمكن أن تصلح بدلها أي فاصلة،

(١) الرحمن: آية (٣٣).

(٢) البقرة: آية (٢١٦).

(٣) الذاريات: آية (٥٦).

يخاطب الله المؤمنين، وقد كتب عليهم الجهاد والقتال، ويبين أن أمر المستقبل لا يدركونه هم، فربما يكرهون شيئاً يكون فيه خيرهم، وربما يحبون شيئاً تكون في نهايته شراً لهم، ووبالاً عليهم، إن الله وحده هو الذي يعلم ذلك، فأني فاصلة تصلح لهذه الآية غير التي ختمت بها «والله يعلم وأنتم لا تعلمون».

وبعض هذه الفواصل لا يحتاج إلى تدبر وتأمل، ومن ذلك قوله تعالى: «أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون»^(١)

فقد ختمت الآية الأولى بـ (يسمعون)، والثانية بـ (يبصرون) فما سر ذلك؟ لن يحتاج الأمر منك إلى كثير تأمل، فقد تحدثت الآية الأولى عن القرون المهلكة من قبل هؤلاء، فهو حديث التاريخ -إذن- وتحدثت الآية الثانية عما يشاهدونه على هذه الأرض، كيف ينزل عليها الماء فتنبت الزرع متاعاً لهم ولأنعامهم، وأمر التاريخ -لا ريب- يسمع سماعاً؛ ولذا ختمت بـ (يسمعون)، ولكن ما يشاهدونه يبصرونه إبصاراً، ولذا ختمت بـ (يبصرون).

الأسلوب القرآني:

أسلوب القرآن الكريم أسلوب متميز فريد، يختلف عن غيره من أساليب العرب، وقد ذكر الدكتور محمد عبد الله دراز -رحمه الله- خصائص لهذا الأسلوب وهي:

(١) السجدة: آية (٢٦- ٢٧).

١- القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى، وهاتان نهايتان لا يستطيع أحد من الكتاب الجمع بينهما، فالذي يعمد إلى ادّخار لفظه والقصد فيه، وعدم الانفاق منه إلا على حدّ الضرورة لا بد أن يحيف على المعنى، ولا يوفيه حقه، والذي يعمد إلى الوفاء بحق المعنى، وتحليله إلى عناصره وإبراز دقائقه لا بد أن يطيل الكلام ويمد فيه.

"لكن القرآن الكريم استطاع أن يجمع بين هاتين الخصيصتين: فإنك إذا نظرت إليه تجد بياناً قد قدّر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف، ولا بمخمصة التقطير، يؤدي لك من كل معنى صورة نقية وافية، نقية لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها، وافية لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية، كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه^(١).

٢- خطاب العامة وخطاب الخاصة: وهاتان كذلك غايتان متباعدتان عند الناس، فإن الكاتب إذا أراد مخاطبة العامة لا بد أن ينزل إلى مستواهم فيوضح ويبين، ولو خاطب بهذا الأسلوب الخاصة لعدّ كلامه معيباً؛ لأن الخاصة تكفيهم اللمحة والإشارة، وهكذا نجد أن هناك أسلوباً للخاصة وآخر للعامة، ولا يمكن أن تخاطبهما بجملة واحدة، ولكنك واجد هذا في القرآن الكريم، فإن الجملة الواحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء والأذكياء والأغنياء.

٣- اقناع العقل وإمتاع العاطفة: النفس الإنسانية قوتان قوة تفكير وقوة وجدان وكل منهما تحتاج إلى ما لا تحتاجه الأخرى، والحكماء والعلماء لا يخاطبون إلا العقل والفكر، والأدباء والشعراء لا يخاطبون غالباً إلا الوجدان، فإنك لا تجد فيلسوفاً يخاطب عاطفتك، أو شاعراً يخاطب عقلك، فالحكماء هم الذين يقنعون العقل، والشعراء والأدباء هم الذين يمتعون العاطفة ولا نجد من يجمع بينهما في الخطاب إلا ما نجده في كتاب الله تعالى.

(١) النبا العظيم / د. محمد عبد الله دراز ص ١٠٦ .

٤- البيان والإجمال: وهذه كذلك عجيبة لا نجدها عند الكتاب، فمن أراد

أن يجمال لا بد أن يذهب إلى الإبهام والإلباس، ومن أراد تحديد غرضه وتوضيحه لم تتسع تلك لتأويل، فهذان الطرفان لا يجتمعان إلا في كتاب الله فإنك إذا قرأت القطعة من القرآن وجدت الأحكام والدقة والخلو من الغريب، ويخيل إليك أنك أحطت بها وبمعانيها، ولكنك لو رجعت إليها كرة أخرى لاستخرجت منها معنى آخر جديداً غير الذي فهمته من قبل، وهكذا تجد للكلمة الواحدة والجملة الواحدة وجوهاً عدة، كلها صحيحة ^(١).

الإعجاز العلمي:

القرآن الكريم كتاب الله ووثيقة السماء الخالدة، أنزله الله ليكون موعظة وشفاء وهدى ورحمة وبرهاناً ونوراً «يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به، فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً» ^(٢)، «يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين» ^(٣).

فالقرآن كتاب الانسانية كلها، ونوره سيبقى يشع ما دامت الحياة، لتُهدي به قلوب غلف وتُبصر به عيون عمي، وتُفتح به أذان صم، وكما جاء القرآن دعوة صريحة للإيمان الصحيح ومكارم الأخلاق، فإنه جاء كذلك دعوة صريحة للعلم والنظر والتفكر، ويكفي أن أول ما تلا من آياته كان الأمر

(١) النبا العظيم ص ١١٢.

(٢) النساء: آية (١٧٥).

(٣) يونس: آية (٥٧).

بالقراءة بسم الرب الذي خلق، الرب الاكرم الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم، ولا نجد كتاباً سماوياً أو أرضياً كَرَّمَ العلم والعلماء، ودعا في مواضع كثيرة منه للتزود من منهل العلم كهذا القرآن «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين»^(١)، «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون»^(٢)، «إنما يخشى الله من عباده العلماء»^(٣)، «وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات»^(٤).

وشرفَّ الله العلماء بمعنيته «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وألوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم»^(٥).

ومن عظيم شأن هذا القرآن وعجيب أمره أنه جعل دعوته للعلم مفتوحة للبشر جميعاً، ولم يفرق بين غني وفقير، ورجل وامرأة احراراً كانوا أو مملوكين. ولقد ظهر أثر ذلك في وقت مبكر في ظل حكومة القرآن. وإذ بهذه الأمة المنطوية على نفسها المنحصرة في مضاربها تفجر طاقات الكون، وهي تجوب آفاق الأرض التي جعلها الله لها ذلولاً، لتمشي في مناكبها غير معتدية أو سالبة، وإنما هي فاتحة للعقول قبل البلاد، لقد نمت دعوة القرآن للعلم، فأحييت أمة من أجداتها، وإذ بهذه الأمة الأمية، والتي منَّ الله عليها

(١) الروم: آية (٢٢).

(٢) الزمر: آية (٩).

(٣) فاطر: آية (٢٨).

(٤) المجادلة: آية (١١).

(٥) آل عمران: آية (١٨).

بالهداية ليصبح كل بيت من بيوتها، ومسجد من مساجدها مؤئلاً للعلم، يأتيه الناس على اختلاف لغاتهم وأديانهم من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم. هذه حقيقة لا يختلف فيها اثنان ولا يشك فيها عدو.

وهناك بدهية أخرى وهي أن هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ورغم اكتشاف كثير من المجاهيل، رغم تقدم الانسان في مضمار العلم، وآفاق الكون الفسيحة، لا يتعارض مع المسلمات الصحيحة التي وصل إليها الانسان فضلاً عن أن يناقضها. وهذه البدهية التي لا يختلف فيها اثنان كذلك، نجد مع كل أسف بعضاً ممن ينتسبون لهذه الأمة بأسمائهم فحسب، ممن رانت نخالات الأفكار الغربية على عقولهم، يمارون فيها؛ لأنهم حُجبوا بالهوى وأسروا بالتقليد.

والخلاصة أن القرآن بدعوته المفتوحة للعلم، بنى حضارة شامخة سعدت بها الانسانية حيناً من الزمان، وإن هذا القرآن لن يناقضه علم كوتي صحيح ولكن هل يمكن أن تفسر آيات القرآن تفسيراً علمياً؟، وهل هناك إعجاز علمي؟.

اختلفت كلمة العلماء قديماً وحديثاً في هذه القضية، فذهب بعضهم إلى أن القرآن ليس معجزة علمية، ولكنه معجزة بيانية فحسب، ومن هؤلاء الإمام الشاطبي من الأقدمين^(١) والشيخ محمد حسين الذهبي والشيخ محمود شلتوت^(٢) والأستاذ محمود شاكر من المحدثين^(٣).

(١) الموافقات (٢/ ٧٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم ص ١١ .

(٣) مقدمة الظاهرة القرآنية /مالك بن نبي ص ٢٤ .

وذهب أكثر العلماء إلى أن القرآن معجزة علمية، وإلى أنه لا مانع من تفسير آياته تفسيراً علمياً، إذ إن آياته فيها من دقائق العلوم ما لا يحصى، ومن هؤلاء الإمام الغزالي^(١) والإمام الرازي^(٢) والسيوطي من الأقدمين، والشيخ محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا والأستاذ مصطفى صادق الرافعي والدكتور محمد عبد الله دراز، والأستاذ عبد الوهاب حمودة والأستاذ محمد أحمد الغمراوي من المحدثين.

والذي نراه أن التفسير العلمي ضرورة تتطلبها هذه الفترة الزمنية التي نعيشها، شريطة أن يتهياً لذلك نوو الاختصاص، إذ إن القرآن ليس ديوان شعر، كما أن سوره وآياته ليست قصائد وأبياتاً يقولها الشاعر في ظرف معين، وإنما القرآن كتاب الله ما دامت الإنسانية، وإذن فلا بد من أن تكون فيه الجدة دائماً، وهو الذي لا تنقضي عجائبه.

التفسير العلمي إذا توفر له مناخه الصالح، واستجمع الشروط فلا مانع منه أبداً، وهذه الشروط كما أرتأيتها:-

- ١- موافقة اللغة موافقة تامة بحيث يطابق المعنى المفسر المعنى اللغوي.
- ٢- عدم مخالفة صحيح المأثور عن الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، أو ماله حكم المرفوع.
- ٣- موافقة سياق الآيات بحيث لا يكون التفسير نافراً عن السياق.

(١) أحياء علوم الدين (١/ ٢٥٨).

(٢) تفسير الرازي (١٤/ ١٢١-١٢٢).

- ٤- التحذير من أن يتعرض التفسير العلمي لأخبار وشؤون المعجزات.
- ٥- أن لا يكون التفسير حسب نظريات وهمية متداعية، بل لا بد أن يكون حسب الحقائق العلمية الثابتة.

ونحن نرى أن الخروج عن هذه الشروط، يعرض المفسر لخطر وخطأ لا تحمد عقباها، فمن مخالفة اللغة مثلاً ما رأيناه لبعضهم من تفسير الطير بالحجارة في قوله «وأرسل عليهم طيراً أبابيل»^(١).

ومن مخالفة صحيح المأثور ما رأيناه في تفسير قوله تعالى «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين»^(٢)، حيث فسروه بما يدل على نهاية الأرض.

وأما تعرض التفسير العلمي لأخبار الغيب، فكما رأينا لبعضهم من تفسير قوله تعالى «ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون»^(٣)، بأن هذا يقصد به ما بين نفختي الصور، وأن المدة ألف سنة.

وأما التفسير حسب النظريات المتداعية الواهية فكما نراه عند بعضهم من تفسير "الخلق" حسب نظرية دارون في التطور، كما ذهب إليه الطبيب مصطفى محمود.

يقول الأستاذ محمد صادق عرجون " فالبحث عن حقائق الموجودات سماوية أو أرضية هو في نظر القرآن مهمة الانسان ما دام على ظهر هذه الأرض، لأنه وسيلة إلى استخلاص أكبر قسط من المنافع المادية والروحية،

(١) الفيل: آية (٣).

(٢) الدخان: آية (١٠). (٣) السجدة: آية (٥).

التي يحيا بها حياة طيبة ويعمره فيها الايمان بجلال الخلاق العظيم. إن الجانب الكوني في آيات القرآن الحكيم -وهو جانب مهم جداً، لأنه عماد الدلائل الإلهية على وجود الله تعالى، وتوحيده، وباهر قدرته وواسع علمه ولطيف حكمته وسائر ما يجب له تعالى من الكمال- في حاجة ماسة إلى إعادة النظر فيه، للتفسير والبيان بأسلوب علمي، يبرز عن طريق ملاحظة الظواهر الكونية، حجة الله في خلقه، ويكشف عما في الآيات من أسرار وحقائق، ناط الله بها كثيراً من منافعنا ومصالحنا في الدين والدنيا، وقد أشار إليها القرآن، وبدأ العلم يكشف عنها الحجب، ولكن على شرط أن نحذر، فلا نخضع القرآن لنظريات لا تزال في مهب التجارب، وقد تعصف بها فتصبح من قبيل الأساطير، فنقول إنها تفسير لآيات القرآن، كما صنع ذلك بعض المتحمسين، وبعض المخدوعين ببريق العلم التجريبي، والقرآن كتاب الله الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، فهو لا يخضع لأسلوب حديث ولا أسلوب قديم، وإنما تفسره الحقائق والبراهين، التي يحققها البحث العلمي المستند إلى الأصول الإسلامية، وقضايا العقول السليمة^(١).

وإن لنا أن نذكر بعض النماذج من التفسير العلمي..

١- قال تعالى «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون»^(٢)، فقد تقدم في الآية السمع على البصر وأفرد السمع وجمع البصر، وذكر المفسرون القدامى أن ذلك

(١) القرآن العظيم هدايته وإعجازه ص ٢٦٦ / ٢٧٤ . (٢) النحل: آية (٧٨).

لأفضلية السمع، وأنه أفرد لأنه مصدر، ولكن العلم الحديث جاء يبين أن حاسة السمع يمنحها الله للطفل قبل حاسة الإبصار، وأن السمع إنما يدرك به شيء واحد، وهو الأصوات، بينما يدرك بالبصر أكثر من شيء كالألوان والأشكال، ولذلك تقدم السمع وأفرد.

٢- قال تعالى «وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً، فكلي واشربي وقري عيناً»^(١). فقد خص الرطب بالذكر في الآية الكريمة، وقد أثبت العلم أخيراً أن البلح له تأثير على خفض ضغط الدم عند الحوامل، وبذلك تقل كمية الدم النازلة منها، وهو يحتوي على نسبة عالية من السكاكر البسيطة السهلة الهضم والامتصاص، والسكاكر هو الغذاء المفضل للعضلات، وعضلة الرحم من أضخم عضلات الجسم، وتقوم بعمل جبار أثناء الولادة التي تتطلب سكاكر بسيطة بكميات جيدة، ونوعية خاصة سهلة الهضم والامتصاص كتلك التي في الرطب.

وأثبت العلم أن ثمر النخيل الناضج يحتوي على مادة مقبضة للرحم تقوي عضلات الرحم في الأشهر الأخيرة من الحمل وتساعد على الولادة.

٣- قال تعالى «يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث»^(٢)، والمفسرون القدامى يعدون هذه الظلمات الثلاث ظلمة البطن والرحم والمشيمة، ويأتي علم التشريح الحديث ليثبت بما لا يقبل الريبة أن

(١) مريم: آية (٢٥).

(٢) الزمر: آية (٦).

هذه الظلمات إنما هي أغشية ثلاثة، تحيط بالطفل غشاء فوق غشاء، وهذه الأغشية لا تظهر بالعين المجردة، وهي: المنباري، الخربوتي، اللفائفي، أو كما يقول توماس ايدن هي الكوريون وهو الغشاء الخارجي، يليه الميزودرم".

٤- يقول الله تعالى «ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله»^(١).

يقول الاستاذ رشيد رشدي العابري رحمه الله "لحصول المطر عوامل ثلاثة لا غيرها إذا توافرت لا بد من نزول المطر وإن نقص عامل واحد منها فلا إمكان لحصوله، وتلك العوامل هي:-

أولاً: التبخير حتى يؤدي إلى تكوين سحاب.

ثانياً: وصول الهواء إلى درجة الإشباع بكمية البخار .

ثالثاً: التكاثف، وهذا الترتيب على التعاقب لا مفر منه لتكوين المطر... ولكن الآية قد جاءت بوصف موجز مدهش للألباب، إذ عبرت بكلمة «يزجي سحاباً» عن عملية التبخر ثم عبرت عن تشبع الهواء ببخار الماء بقولها على سبيل التعاقب (ثم يؤلف بينه) إذ إن درجة الإشباع كما ذكرنا أنها تتوقف على تساوي تبادل الجزيئات بين الماء والهواء، وما هذه الظاهرة إلا التآلف بين تلك الجزيئات، ومن ناحية أخرى أنه لا يحصل التشبع إلا بالتعادل والتآلف، بين ضغطي بخار الماء وبخار الهواء، أو الاتحاد بين نوعي الكهربائية واكتلافها كما قد سبق بيانه، وعلى ذلك فإن أصدق وأصح وأبلغ تعبير لهذه الظواهر، هو التأليف الذي وصفه العلم بالتشبع وليس لها تفسير آخر.

ثم جاءت بقوله « ثم يجعله ركاماً » على سبيل التعاقب أيضاً فأبلغ

(١) النور: آية (٤٢).

تعبير للتكاثف هو الركام. ولا نفسر كلمة "الركام" بغير التكاثف فجاء في معجمات اللغة في تفسير كلمة الركام بأنها (سحاب كثيف) ويقصد بالسحاب الكثيف البخار والذي قد تشبع الهواء منه فتكاثف.

ثم تقول الآية... «فترى الودق»، أي المطر «يخرج من خلاله». فعندما بينت الآية العوامل الثلاثة لحصول المطر، فصلت بينها بكلمة (ثم) للترتيب والتراخي لأن كلاً من عوامل التبخر والتشبع والتكاثف التي ذكرناها انفاً يستغرق وقتاً مهماً كان ضئيلاً. وي بعدها بكلمة «فترى الودق» بحرف الفاء السببية والتعقبية أي أنها تقول بعدما تتوافر العوامل الثلاثة فلا بد أن يحصل المطر فوراً. فهذا الترتيب الطبيعي الثلاثي لحصول المطر، لم يحققه العلم، ولم يطلع عليه العلماء على الوجه العلمي الأنف الذكر إلا من مدة قصيرة ولكن القرآن عرفه قبل أن ينوف على ثلاثة عشر قرناً^(١).
الإعجاز التشريعي:

القرآن كتاب الله تبارك وتعالى الذي أنزله على نبيه عليه وآله الصلاة والسلام، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ليهديهم صراطاً مستقيماً، وصدق الله، إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، ومعنى هذه الآية الكريمة أن هداية القرآن هي أعظم الهدايات، وهذا يفهم من قوله «للتّي هي أقوم» وتظهر هذه الهداية في أحكام القرآن وقيمه الخلقية، وقواعده التربوية، ونظمه التشريعية.

(١) بصائر جغرافية ٢١١.

والحق أن بيان القرآن وتشريعاته لا ينفصل بعضها عن بعض، وإذا عرفنا أن القرآن معجزة بيانية، فيجب أن نعلم أنه معجزة تشريعية كذلك.

وقد اقتضت حكمة الله ومشيبته -وقد أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله- أن ينزل هذا القرآن الكريم، وقد بلغت اللغة العربية غاية في نموها وتهذيبها، سعة وإحكاماً ودقة وضع، وبلغ العرب الناطقون بها مبلغاً في المهارات اللغوية فطنة ورقة طبع، وذلك من أجل أن يكون القرآن الكريم معجزة لغوية فيتحدى فحول العلماء وجهابذة البلغاء.

واقترضت مشيئة الله وحكمته كذلك أن ينزل القرآن الكريم، وقد مر على القانون الروماني، الذي كان مرجع البلاد المتمدنية وقد بلغ من الاصلاح والتهذيب، فكان نيجة إصلاحات لكبار الفلاسفة ورجال العلم والقانون والاجتماع مدة ثلاثة عشر قوفاً، ابتداء من سنة سبعمائة وأربعة وأربعين قبل الميلاد إلى سنة خمسمائة وثلاث وثلاثين ميلادية في عهد (جوستنيان)، فكان القرآن كذلك معجزة تشريعية ليتحدى القوانين والمقننين، والفلاسفة والفلاسفة كما تحدى اللغويين.

والمحدث عن الإعجاز التشريعي جدير أن يقف أولاً على تشريعات القرآن الكريم في شتى مناحي الحياة ومختلف جهاتها، وقد يجد نفسه مضطراً إلى الإلمام بما جاء في السنة المطهرة من تشريعات، فإن القرآن الكريم كثيراً ما تذكر فيه الأحكام مجملة، فتأتي السنة لتشرح هذه القواعد وتفصل ذلك الإجمال، والسنة -إن- ليست أجنبية عن القرآن، بل هي شارحة مبينة.

وجدير به ثانياً أن يدرس ما وصل إليه العقل البشري من قوانين
وانظمة في مناحي الحياة المختلفة وجوانبها المتعددة.

وسيجد أي باحث منصف الفرق الشاسع بين تشريعات القرآن الكريم
من حيث سموها وشمولها، وما فيها من نظرة انسانية، وخلو من السلبيات
والثغرات والمآخذ، أقول سيجد فرقاً بين تشريعات القرآن الكريم وبين غيره
من القوانين التي بذلت في تنقيحها طاقات، وعملت أفكار وعقول. ولسنا نحيف
على هذه القوانين، فنجردها من كل خير، ولكننا -ونحن- لا نبخس الناس
أشياءهم، سنجردها غير بالغة من حيث قراراتها ومضامينها ما بلغه كتاب
الله، ولا هي قريبة منه في كثير من الشؤون.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة:-

ومن أجل أن نبين قيمة ذلك الشرع في ذاته ونظر الناس يجدر بنا أن
نرجع إلى الماضي السحيق ونطلع إلى المستقبل البعيد.

أما في الماضي فنجد أن الشرع الذي اقترن بظهور محمد الرسول
الأمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، هو قانون الرومان، فقد كان الشرع
المسيطر في التطبيقات العملية والقضائية في الشام ومصر وغيرها من
البلدان التي تعاقبت البلاد العربية، وتحيط بها من الغرب والشمال، ويقول
علماء القانون اليوم إنه من أكمل الشرائع التي تفتق عنها العقل البشري، ولا
زال يعتبر أصلاً لكثير من الشرائع القائمة انفرعت وقامت على دعائمه.

وإن من يريد أن يعرف منزلة الشريعة الإسلامية، وأنها في درجة فوق
مستوى العقل البشري فليوازن بينها وبين ذلك القانون الروماني، لأن قانون

الرومان استوى على سوقه، وبلغ نهاية كماله في عهد جوستنيان سنة (٥٣٣) بعد ميلاد المسيح عليه الصلاة والسلام، وهو في هذا الوقت كان صفوة القوانين السابقة ، وفيه علاج لعيوبها، وسد لخللها من يوم أنشئت روما سنة (٧٤٤) قبل الميلاد إلى سنة (٥٣٣) بعده، إي إنه ثمرة تجارب قانونية لنحو ثلاثة عشر قرناً ظهرت منها الفلسفة اليونانية، وبلغت أوجها، وقد استعانوا في تلك التجارب القانونية بقوانين (سولون) لأثينا، وقوانين (ليكورغ) لأسبارطة، والنظم اليونانية عامة، والمناهج النظامية والفلسفية التي فكر فيها الفلاسفة اليونان لبيان أمثل النظم التي يقوم عليه المجتمع الفاضل، كالذي جاء في كتاب القانون، وكتاب الجمهورية لأفلاطون، وكتاب السياسة لأرسطو وغيرها من ثمرات عقول الفلاسفة والعلماء في عهد اليونان والرومان.

وإن شئت فقل إن القانون الروماني هو خلاصة ما وصل إليه العقل البشري في مدى ثلاثة عشر قرناً في تنظيم الحقوق والواجبات، فإذا أوزنا بينه وبين ما جاء على لسان محمد النبي الأمي وأنتجت الموازنة أن العدل فيما قاله محمد، وما استنبط الفقهاء من بعده، يكون من الحق علينا أن نقول إن أساس شريعة الإسلام ليس من صنع بشر، بل من صنع العليم الحكيم اللطيف الخبير سبحانه^(١).

" إن ما اشتمل عليه القرآن من أحكام تتعلق بتنظيم المجتمع وإقامة العلاقات بين آحاده على دعائم من المودة والرحمة والعدالة، لم يسبق به في

(١) (شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله). مجلة المسلمون العدد الأول السنة الأولى ص ٣٢.

شريعة من الشرائع الأرضية، وإذا وزننا بين ما جاء في القرآن وبين ما جاءت به قوانين اليونان والرومان وما قام به الاصلاحيون للقوانين والنظم بما جاء في القرآن وجدنا أن الموازنة فيها خروج عن التقدير المنطقي للأمور.. فجاء محمد صلى الله عليه وسلم ومعه القرآن الذي ينطق عن الله سبحانه وتعالى، من غير درس درسه، وكان في بلد أمي ليس فيه معهد ولا جامعة ولا مكان للتدريس، وأتى بنظام للعلاقات الاجتماعية والتنظيم الانساني، ولم يسبقه سابق" (١).

ذلكم أن أول ما نلاحظه ونلمحه في التشريعات البشرية أنها تشريعات محددة يلائم كل منها البيئة التي وضع فيها، والمجتمع الذي وضع له مع كثير من الثغرات والسلبيات، ولكن القرآن الكريم أراد الله للناس جميعاً. وصندوق الله «قل أي شيء أكبر شهادة، قل الله شهيد بيني وبينكم، وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ» (٢).

إن تعاليم القرآن موجهة للعالم بأسره، فهي للناس في شتى أرجاء العالم كافة، بغض النظر عن أصلهم، أنزلت إليهم لتدخل السرور والبهجة إلى قلوبهم، وتطهر نفوسهم وتهذب أخلاقهم، وتوجه مجتمعاتهم، وتستبدل سطوة القوي بالعدل والأخوة، وقد أكد الله عز وجل أن في القرآن حلواً

(١) المعجزة الكبرى / الشيخ محمد أبو زهرة ص ٢٨٥ .

(٢) الأنعام: آية (١٩).

لجميع قضايا البشر. «وأنزلنا عليك الكتاب تبلياً لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين»^(١).

والتشريعات القرآنية متعددة الجوانب: منها ما اصطلح على تسميته بالعبادات وهي الطهارة والصلاة والزكاة والحج، ومنها المعاملات: كالبيع والإجارة وهي ما تعرف بالقانون المدني، ومنها الأحوال الشخصية، ومنها التشريعات التي تتصل بالعقوبات وهي ما تعرف بالقانون الجنائي، ومنها ما يعرف بالسير وهي التي تسمى في لغة القانون بالعلاقات الدولية... إلى غير ذلك من تشريعات.

ولقد كان للقرآن السبق في تلك التشريعات، والمتأمل في أي جانب من هذه الجوانب وهو يقارن ويوازن بينها وبين شبيهاها من القوانين، فسيذكر دون صعوبة أحقية التشريعات القرآنية وجدارتها بتبوء المكانة العليا، وصدق الله «وبالحق أنزلناه وبالحق نزل»^(٢)، ومعنى قوله «وبالحق أنزلناه» أي أن القرآن هو حقاً من عند الله، «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً»^(٣)، ومعنى قوله «وبالحق نزل» أي أن كل ما في القرآن من حقائق وتشريعات وأخبار حق لا يتطرق إليه باطل، وهو في أعلى رتب الحق، لا يتجارى في قضاياها، ولا يدانيه كتاب آخر في أحكامه «وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد»^(٤).

(٢) الإسراء: آية (١٠٥).

(١) النحل: آية (٨٩).

(٤) فصلت: آية (٤٢).

(٣) النساء: آية (٨٢).

وخذ أي قاعدة من القواعد التشريعية، وأي باب من أبواب الفقه
القرآني لتجد مصداقية أسبقية القرآن وسمو تشريعاته.

من ذلك مثلاً قضية الطلاق، فقد وقف الناس من الطلاق موقفاً
متناقضاً، فمنهم الذي يبيحه ويفتح الباب فيه على مصراعيه من غير أن يكون
له قواعد وضوابط، وفي هذا من المساويء والسلبيات ما لا يحصى، ومنهم من
تشدد فيه وجعله أمراً ممنوعاً محرماً، مهما كان في ذلك من شقاء وضنك
وضيق يعيشه الزوجان وفي ذلك من الشر العضال والنتائج السيئة، والخروج
من حصن الفضيلة، وغير ذلك من السلبيات ما لا يحصى كذلك، فما هو
موقف الإسلام من هذه القضية الخطيرة؟.

لم يتورع بعض الناس من خصوم هذا الدين مستشرقين أو مستغربين
من أن يرموا الإسلام بسهام الحقد، وهم يعدون الطلاق من مساويء
الإسلام، وهم يزعمون أن فيه ظلماً للمرأة وهو استبداد من الرجل، ولا
نتعجل الرد عليهم، ولنضع بين يدي القاريء بعض قواعد التشريع في هذه
القضية.

أولاً: الطلاق في الإسلام بدون سبب صحيح حرام لما فيه من قطع
الزوجية، التي هي من النعم العظمى، ولما فيه من ضياع الأولاد، أما إذا وجد
التباغض والتقاطع، ولم يمكن الصلح بينهما، وغلب علي الظن عدم إقامة
حدود الله في الزوجية فالدواء الأخير هو الفراق فيكون حينئذ مباحاً.

ثانياً: جعل الشارع أمر الطلاق بيد الرجل، لأنه أحرص على بقاء
الزوجية، وذلك لما أنفق في سبيله من المال، يصعب عليه أن ينفق مثله كلما

أراد أن يتزوج هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإنه أشد صبراً فلا يسارع إلى الطلاق، ومن هنا ندرك السبب الذي من أجله لم يجعل الإسلام الطلاق بيد المرأة، لأن الطلاق لم يكلفها من جهة، ولأنها ذات عاطفة جموحة من ناحية أخرى.

ومع ذلك فقد جعل لها الشارع حق طلب الفسخ إذا امتنع زوجها عن الإنفاق، أو عجز، أو غاب غيبة منقطعة، أو كان به علة تمنعه من تأدية وظيفة الزوجية، كذلك أباح للزوج أن يجعل للمرأة حق التطليق، ومع كل هذا الإصلاح والمحافظة على حقوق المرأة، فقد أوجب الشارع على الزوج إذا طلق أن يدفع مؤخر صداقها إليها، وأن يقوم بالإنفاق عليها مدة العدة ولو طالت، وبإسكانها وكسوتها كما طلب منه أن يفرق الطلاق، وأن يقف عند حد محدود لا يتعداه وهو الثلاث خشية أن تكون المرأة ألعوبة في يد الرجل.

ثالثاً: لقد فرق القرآن الكريم بين حالتين: الأولى: المرأة التي طلقها زوجها قبل الدخول بها، والثانية: المطلقة بعد الدخول. أما في الحالة الأولى فقد أوجب القرآن الفسخ بين الزوجين، قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات -أي عقدتم عليهن- ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدّة تعتدّونها فمتعهن وسرحوهن سراحاً جميلاً»^(١)، وإنما اتخذ القرآن الكريم هذا القرار الحاسم، لأن هذه الفترة التي يعيشها الزوجان بعد العقد وقبل الدخول فترة يسودها الحب والمودة والاحترام

(١) الأحزاب: آية (٤٩).

المتبادل، فكل واحد من الزوجين يظهر أمام الآخر بمظهر جذاب فيه العطف والحنان، إن كلاً منهما يود أن يُرى صاحبه الصورة المشرقة فإذا لم يستطيعا التفاهم في هذه الفترة الزمنية وكان الطلاق فمن الخير أن تنتهي هذه الصلة بينهما، ليسير كل في طريق، «وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيماً»^(١).

والتشريع القرآني في منتهى الحكمة، وغاية السمو، فالطلاق في هذه الفترة لن يفقد كل من الزوجين شيئاً كثيراً، فالمرأة لم تفقد حصن البكارة، والرجل لا يكف إلا نصف المهر، إلا إذا تنازلت المرأة عن شيء، أو طلبت هي الطلاق، وقد حث القرآن على العفو، فقال «وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح، وأن تعفو أقرب للتقوى، ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير»^(٢).

أما إذا كان الطلاق بعد الدخول، فلقد جعل الإسلام ضوابط كثيرة متعددة، واحتاط له احتياطات من شأنها أن تقلل من حوادث الطلاق في المجتمع المسلم، وأذكر أننا كنا نقجأ حينما كنا نسمع بحادثة طلاق، وما أوسع الشقة بين المجتمعات المسلمة والمجتمعات الغربية والشرقية التي كان الطلاق فيها محرماً، وأباحه فيما بعد، فما هي الضوابط والاحتياطات:

(١) النساء: أيج (١٣٠).

(٢) البقرة: آية (٢٣٧).

١- كان من حكمة التشريع أن يكون الطلاق مفرقاً وأن لا يقع دفعة واحدة، يقول الله سبحانه «الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان»^(١). وهاتان المرتان لا تقعان مرة واحدة، بل تكون التطليقة الأولى أولاً وهي طلقة رجعية يجوز للزوج أن يراجع زوجته في أثناء العدة وهي ثلاثة قروء، أو ثلاثة أشهر، فإن راجعها ولكنهما لم يستطيعا المسيرة الهنيئة الهادئة وطلقها مرة ثانية فإنه يمكن له أن يراجعها بعد هذه التطليقة كذلك في أثناء العدة، فإن راجعها، ولكنهما لم يستطيعا إتمام المسيرة معاً وطلقها مرة ثالثة، فإنها حينئذ تحرم عليه ولا يجوز له أن يراجعها حتى تنكح زوجاً غيره نكاحاً ليس فيه تحايل، وفي ذلك خير للزوجين معاً ما دام كل منهما لا يسع صاحبه.

٢- إن هذا الطلاق يجب أن يقع في حالة طهر، ومعنى هذا أن الزوج لا ينبغي أن يطلق زوجته في حالة الحيض، لأنها حالة يمكن أن يكون فيها نفرة بين الزوجين، ويجب أن يطلقها في حالة طهر لا وطء فيه، قال تعالى «يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة»^(٢).

٣- أوجب على المرأة أن تقضي العدة في بيت الزوج، وحرّم على زوجها أن يخرجها من بيته، وفي هذا محاولة لكي يفكر كل من الزوجين ملياً قبل أن يقرر فمصم عرى الزوجية فقد يكون وجودها في بيته سبباً لمراجعة نفسه،

(١) البقرة: آية (٢٢٩).

(٢) الطلاق: آية (١٠).

ويترتب على ذلك الإقلاع عن إنفاذ الطلاق قال تعالى «واتقوا الله ريكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، وتلك حدود الله، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً»^(١).

٤- ازدياداً في الحيطه طلب القرآن الإشهاد على الطلاق، قال تعالى «وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله، ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً»^(٢).

ونلاحظ أنه قد كثر في سورة الطلاق وهي التي تسمى سورة النساء الصغرى تمييزاً لها عن سورة النساء - كثر فيها الحث على التقوى، وبيان ما أعد الله للمتقين من خير في الدنيا والاخرة، وذلك كله من أجل تذكير الأزواج بما يجب عليهم، نقرأ الآيات في السورة الكريمة «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً»^(٣)، «ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً»^(٤)، «ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً»^(٥)، «سيجعل الله بعد عسر يسراً»^(٦)، فقد حرم الله على الأزواج والأولياء الإضرار بالنساء، فقال سبحانه «إذا طلقتم النساء

(١) الطلاق: آية (١٠). (٢) الطلاق: آية (٢/٣).

(٣) الطلاق: آية (٢). (٤) الطلاق: آية (٤).

(٥) الطلاق: آية (٥). (٦) الطلاق: آية (٧).

فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن
ضراً لتعتدوا»^(١)، وهذا خطاب للأزواج، وقال تعالى «وإذا طلقتم النساء
فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن»^(٢)، وهذا خطاب للأولياء.

ذاك هو تشريع الطلاق في كتاب الله تبارك وتعالى، وهناك تفصيلات
كثيرة في السنة المطهرة، فقولوا لي بربكم: أي تشريع من تشريعات البشر،
يمكن أن يصل سموً وعدالة إلى هذا التشريع، إنه والله الإعجاز التشريعي،
والتشريع المعجز، وصدق الله «إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم»^(٣).

وأكتفي بهذه الموضوعات التي ذكرتها، على أن الإعجاز في القرآن
الكريم يظهر في كل مجال من مجالات التشريع، يظهر فيما حرمه القرآن
الكريم، سواء أكانت هذه المحرمات في المطاعم والمشارب كالميتة والدم ولحم
الخنزير وشرب الخمر أم كان ذلك الإعجاز في المعاملات، وإن من يتدبر آية
الدين وغيرها من الآيات التي نظمت الشؤون المالية، يجد حقيقة الإعجاز في
كل قضية من هذه القضايا، كذلك من يتأمل الآيات التي نظمت شؤون الجهاد
وعلاقة المسلمين بغيرهم، يجد العدالة المعجزة، وصدق الله العظيم «أولم
يكفهم إنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم
يؤمنون»^(٤).

(١) البقرة: آية (٢٣١).

(٢) البقرة: آية (٢٣٢).

(٣) العنكبوت: آية (٥١).

(٤) الإسراء: آية (٩).

وصدق الله «ونزلنا عليك القرآن تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى
للمسلمين»^(١).

ثم إن مباحث الإعجاز أصبحت مستقلة، فهناك كتب كثيرة ألفت لبيان
إعجاز القرآن من أشهرها: اعجاز القرآن للباقلاني قديماً، واعجاز القرآن
لرافعي، والاعجاز البياني لبنت الشاطيء، واعجاز القرآن الكريم للدكتور
فضل عباس، وقريباً إن شاء الله سيظهر اعجاز القرآن المجيد عرض ونقد
وتجديد وهو موسوعة في هذا الموضوع العظيم.

(١) النحل: آية (٨٩).

(٢) راجع كتاب اعجاز القرآن الكريم، فضل حسن عباس، سناء فضل عباس (٢٣٠-٢٣١).

رَفَعُ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ النَّجْدِيُّ
أُسَلِّمُ إِلَيْهِ الْفَرْدُوسَ

الفصل الخامس

نزول القرآن الكريم

ونتحدث فيه عن :

١- معنى نزول القرآن

٢- تنزلات القرآن

الموازنة بين هذه الأقوال

٣- فرية القول بنزول القرآن بالمعنى نزول القرآن الكريم

منجماً

الفصل الخامس

نزل القرآن الكريم

هذا العنوان ينتظم عدة مباحث:

أولاً: معنى نزول القرآن الكريم.

ثانياً: تنزلات القرآن.

ثالثاً: فرية القول بنزل القرآن بالمعنى.

رابعاً: نزول القرآن منجماً.

خامساً: أول ما نزل وآخر ما نزل.

أولاً: معنى نزول القرآن.

كثيرة تلك الآيات التي بُيِّنَ فيها نزول القرآن على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وقد مر كثير معنا من قبل مثل قوله سبحانه «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ»^(١) وقال تعالى «نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ»^(٢) وقال سبحانه «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ»^(٣) وقال تعالى «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»^(٤) وقال سبحانه «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ»^(٥) وقد اختلف العلماء في صيغتي الإنزال والتنزيل، فذهب بعضهم إلى أنهما سواء. وفرق بعضهم

(١) النساء: آية (١٠٥). (٢) آل عمران: آية (٣).

(٣) الزمر: آية (٢). (٤) محمد: آية (٢).

(٥) الشعراء: آية (١٩٣-١٩٥).

بينهما بأن الإنزال ما كان دفعة واحدة وبأن التنزيل ما كان مفرقاً واستدلوا بمثل قوله سبحانه «نزل عليك الكتاب بالحق مصداقاً لما بين يديه، وانزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس»^(١) وليس هنا تفصيل القول في هذه القضية. وقد نتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله، وإنما غرضنا هنا أن نبين معنى الإنزال من حيث اللغة، ومعنى إنزال القرآن بخاصة.

يطلق الإنزال على معنيين أحدهما: الهبوط من علو والثاني الإيواء الى المكان والحلول فيه، وهذان المعنيان مستعملان استعمالاً حقيقياً، والمعنى الأول هو المتبادر، يقال نزل من شاهق الجبل، ونزل من علٍ. ويقال نزل في المكان إذا أوى إليه. قال تعالى «وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين»^(٢) وقال سبحانه «فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين»^(٣) وقال سبحانه «وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً»^(٤) فالآيتان الأولىان جاء الإنزال فيهما بمعنى الإيواء والحلول والآية الثالثة جاء الإنزال بمعنى الانحدار من الأعلى. ولكن يمكن أن نحمل إنزال القرآن على هذين المعنيين؟؟، الظاهر أن الإجابة بالنفي؛ ذلك لأن القرآن ليس شيئاً مادياً يصدق عليه أحد معنيي الإنزال. لذا ذهب العلماء إلى أن إنزال القرآن لا يمكن حمله على الحقيقة بل هو أمر مجازي ولهم فيه توجيهان اثنان:

(١) المؤمنون: آية (٢٩).

(٢) ال عمران: آية (٤-٣).

(٣) الفرقان: آية (٤٨).

(٤) الصافات: آية (١٧٧).

أولاً: أن يقصد من إنزال القرآن إنزال حامله وهو الروح الأمين جبريل عليه السلام.

ثانياً: أن يقصد من الإنزال لازمه وهو الإعلام وكلا المعنيين مجازي. أما الأول فظاهر وأما الثاني فلأن إنزال شيء ما يلزم منه إعلام المنزل إليه بهذا الشيء وإيصاله له، فمعنى إنزال القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم إيصاله إليه وإعلامه به. وما دام القرآن الكريم قد كثر فيه هذا اللفظ (أعني لفظ الإنزال) فإنما ذلك لحكمة عظيمة وهي بيان شرف هذا القرآن وعلو منزلته. وأنه من العالم العلوي. من هنا اختيرت كلمة الإنزال على كلمة الإعلام والإيصال. هذا هو معنى إنزال القرآن كما ذكره العلماء، ولا ينبغي أن نتجاوز هذا الحد بل نقف عند ما أخبر به الله تبارك وتعالى قال سبحانه «وبالحق أنزلناه وبحق نزل»^(١)، ومعنى قوله «وبالحق أنزلناه» أن هذا القرآن منزل عليك من الله تبارك وتعالى ومعنى «وبالحق نزل» أي إن ما في هذا القرآن حق كله «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»^(٢).

ثانياً: تنزلات القرآن.

هل للقرآن الكريم أكثر من تنزّل؟؟

لكي يتبين لنا هذا الأمر تبيناً تاماً ينبغي أن نقف أمام هذه الآيات الكريمة:
٦- قال تعالى «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان»^(٣).

(١) الإسراء: آية (١٠٥). (٢) فصلت: آية (٤٢). (٣) البقرة: آية (١٨٥).

٢- قال سبحانه «حم والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين...»^(١).

٣- قال سبحانه «إنا أنزلناه في ليلة القدر»^(٢).

هذه الآيات الكريمة تبين أن القرآن الكريم أنزل في رمضان، وأنه أنزل في ليلة مباركة، وأن هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر. ولكن ما معنى نزول القرآن في ليلة القدر؟ اختلف العلماء في ذلك على أقوال:

القول الأول: ذهب بعض العلماء إلى أن القرآن الكريم نزل كله دفعة واحدة في ليلة القدر، من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ثم نزل من سماء الدنيا على قلب النبي صلى الله عليه وسلم منجماً في بضعة وعشرين سنة. وقد استدلوا على ما ذهبوا إليه بآثار موقوفة عن ابن عباس رضي الله عنهما وبعض الأحاديث المرفوعة التي لم تصح.

القول الثاني: إن هناك تنزلاً واحداً للقرآن الكريم، وهو نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة القدر، في شهر رمضان، ولكن الذي نزل على النبي صلى الله عليه وسلم إنما هي الآيات الأولى من سورة اقرأ، فكيف تفسر قوله؟ قالوا إن الأمور العظيمة والشؤون الخطيرة يؤرخ دائماً ببديئها فمعنى قوله سبحانه «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن» أي الذي ابتدئ فيه نزول القرآن عليك أيها النبي.

(٢) القدر: آية (١).

(١) الدخان: آية (١-٣).

وكذلك يقال في قوله سبحانه «إنا أنزلناه في ليلة القدر»، و«إنا أنزلناه في ليلة مباركة» أي ابتدأنا إنزاله.

القول الثالث: يجمع العلماء على أن القرآن الكريم كما يطلق على القرآن كله فإنه يطلق على الآية والآيتين، وعلى هذا فمعنى قوله سبحانه «إنا أنزلناه في ليلة القدر» أي أنزلنا الآيات الأولى وهي الآيات الخمس من سورة العلق.

الموازنة بين هذه الأقوال:

وتحن إذ نوازن بين هذه الأقوال يبدو لنا والله أعلم بالصواب أننا نختار القولين الأخيرين فهما متقاربان بل يكادان يكونان قولاً واحداً. فإن ابتداء الإنزال في الشهر الكريم واللييلة المباركة معناه أنزل بعض الآيات وإنما اخترت هذا القول لما يلي:

أولاً: لأن القول بأن القرآن الكريم أنزل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في ليلة القدر في رمضان، لم يصل إلينا من كتاب أو سنة صحيحة وإنما وردت آثار موقوفة عن ابن عباس رضي الله عنهما وهي تحتاج إلى تمحيص من حيث أسانيدھا. والقول بأن مثل هذا لا يمكن أن يكون رأياً لابن عباس غير مسلم، فقد يكون ابن عباس فهم الآية هذا الفهم إن صحت هذه الأقوال عنه.

ثانياً: يلزم على القول الأول وهو أن القرآن الكريم أنزل في شهر رمضان دفعة واحدة إلى السماء الدنيا، عدم نزوله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، في رمضان لأنهم يرون أن الذي ذكرته الآيات في حديثها عن نزول القرآن في رمضان هو نزوله دفعة واحدة إلى السماء الدنيا.

وهذا غير مُسلم به فإن الذي أجمعت عليه الأمة إجماعاً مستنداً إلى السنة الصحيحة وإلى الكتاب الكريم هو أن القرآن نزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في رمضان.

ثالثاً: إن المتدبر للإية الكريمة يجزم بما لا يحتمل شكاً بأنها تتحدث عن نزول القرآن على النبي عليه وآله الصلاة والسلام، فلنتدبر هذه الآية الكريمة: «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان» فلو كان المقصود نزوله إلى سماء الدنيا لم يكن هناك كبير فائدة في قوله تعالى «هدى للناس» إنما الأمر الذي يطمئن إليه القلب وتستريح إليه النفس هو أن القرآن نزل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هدى للناس.

رابعاً: إن الله تبارك وتعالى يَمَنّ علينا بالهداية بأن كرمنا بهذا القرآن الكريم «بل الله يَمَنّ عليكم أن هداكم للإيمان». وهذه المنّة إنما تتحقق بإنزال القرآن لنتعظ منه ونعتبر وهذا أمر غير متحقق بنزوله إلى سماء الدنيا. يقول السيد محمد رشيد رضا رحمه الله:

«وأما معنى إنزال القرآن في رمضان مع أن المعروف باليقين أن القرآن نزل منجماً متفرقاً في مدة البعثة كلها فهو أن ابتداء نزوله كان في رمضان وذلك في ليلة منه سميت ليلة القدر، أي الشرف، واللييلة المباركة، كما في آيات أخرى، وهذا المعنى ظاهر لا إشكال فيه، على أن لفظ القرآن يطلق على هذا الكتاب كله. ويطلق على بعضه. وقد ظن الذين تصدوا للتفسير منذ عصر الرواية أن الآية مشكلة ورأوا في حل الاشكال أن القرآن نزل ليلة القدر من

رمضان إلى سماء الدنيا، وكان في اللوح المحفوظ فوق سبع سموات ثم نزل على النبي صلى الله عليه وسلم منجماً بالتدريج وظاهر قولهم هذا أنه لم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان منه شيء خلافاً لظاهر الآيات، ولا تظهر المنة علينا ولا الحكمة في جعل رمضان شهر الصوم على قولهم هذا لأن وجود القرآن في سماء الدنيا كوجوده في غيرها من السموات أو اللوح المحفوظ من حيث إنه لم يكن هداية لنا، ولا تظهر لنا فائدة في هذا الإنزال ولا في الإخبار به، وقد زادوا على هذا روايات في كون جميع الكتب السماوية أنزلت في رمضان. كما قالوا إن الأمم السابقة كلفت صيام رمضان^(١).

وأياً ما كان الأمر فإنه لا يتعلق بهذه القضية أمرٌ نو بال فلا يضير المسلم أي المسلكين سلوكه وإنما أحببت أن أنبه على هذا لأن كثيراً من المسلمين يحسبون أن كون القرآن الكريم له عدة تنزلات أمر لا يجوز مخالفته.

ثالثاً: حرية القول بتزول القرآن بالمعنى:

سامح الله بعض العلماء الذين يذكرون في كتبهم عن حسن نية ما غثَ وسمُنَ، وما علم هؤلاء رحمهم الله أن هناك أناساً يتصيّدون كل ما يروونه محققاً لمصالحهم مما يكيدون به هذا الدين، وسنرى كثيراً من هذا في موضوعات علوم القرآن. والقضية التي نحن بصدها من أخطر القضايا التي لو قدر لها أن تحيا لعصفت لا سمح الله بقواعد هذا الدين وأحكامه، ولكن هيهات هيهات.

(١) تفسير المنار ج ٢ ص ١٦١ .

فلقد تكفل الله بحفظ هذا الكتاب ونصرة هذا الدين، ذكر الزركشي في البرهان^(١)، وتبعه السيوطي في الإتيان^(٢)، رحمهما الله وعفا عنهما، وهما يتحدثان عن نزول القرآن الكريم أقوالاً منها: نزول القرآن بالمعنى، أما لفظ القرآن فذهب بعضهم إلى أن جبريل هو الذي صاغ هذه الألفاظ، وذهب آخرون إلى أن الذي صاغ ألفاظ القرآن هو النبي صلى الله عليه وسلم وشبهتهم في هذا القول فهمم الخاطيء لقول الله تبارك وتعالى: «وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين»^(٣).

وتفصيل هذه الشبهة أن الله سبحانه وتعالى بيّن للنبي صلى الله عليه وسلم أن الروح الأمين جبريل عليه السلام نزل بالقرآن على قلب النبي، قالوا والذي يناسب النزول على القلب هو المعنى، أما اللفظ فإنما يخص به السمع، ثم قال سبحانه «لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين» أي تنذر الناس بلسان عربي. فقوله سبحانه «بلسان عربي» متعلق بقوله «من المنذرين» أي من المنذرين بلسان عربي وهذا الفهم للآية الكريمة مردود من جوانب كثيرة. أولاً: لا مانع أن ينزل اللفظ والمعنى على القلب ونحن نرى في عصر العلم اليوم ما يبهز العقول فهذه الإشارات التي ترسلها مركبات الفضاء من

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٣٠).

(٢) الإتيان في علوم القرآن (١/ ١٥٩).

(٣) الشعراء: آية (١٩٣).

كواكب بيننا وبينها ألوف الأميال ومئات الألوف ترسلها إشارات تتحول إلى ألفاظ هذا شأن البشر والله المثل الأعلى.

ثانياً: أن تعلق قوله سبحانه وتعالى «بلسان عربي مبين» بقوله «لتكون من المنذرين» ليس له كبير فائدة، فليس النبي وحده الذي ينذر بلسان عربي مبين بل إن غيره من الأنبياء العرب كهود وصالح وشعيب وإسماعيل ومن بعده كذلك من العرب كانوا ينذرون بلسان عربي ثم إن الإنذار بهذا القرآن ليس للعرب وحدهم «وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ»^(١)، وعلى هذا فإن المعنى الصحيح للآيات الكريمات «نزل به الروح الأمين على قلبك بلسان عربي مبين لتكون من المنذرين»، فقوله سبحانه «بلسان عربي» متعلق بقوله سبحانه «نزل به الروح الأمين» أي نزل به الروح الأمين بلسان عربي» وإنما أخرجت هذه الآية «بلسان عربي» عن قوله «لتكون من المنذرين» ليبين ما للإنذار من أهمية قصوى.

قال الزمخشري رحمه الله

«بلسان عربي» إما أن يتعلق بالمنذرين فيكون المعنى لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم خمسة هود وصالح وشعيب وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وإما أن يتعلق بنزل فكون المعنى «نزل باللسان العربي لتتذرع به لأنه لو نزل باللسان الأعجمي لتجافوا عنه أصلاً ولقالوا ما نصنع به لا نفهمه فيتعذر الإنذار به، وفي هذا الوجه أن تنزيله بالعربية التي هي

(١) الأنعام: آية (١٩).

لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك لأنك تفهمه وتفهمه قومك، ولو كان أعجماً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها" ^(١).

والله درّ الزمخشري على هذا الفهم الرائق وعلى هذا الغوص على درر المعاني، ثم إن فرية القول بنزول القرآن بالمعنى تتناقض مع بدهيات الدين ومع ما علم من الدين بالضرورة، إذ نحن نعلم بدهاة أن القرآن معجز لأنه كلام الله، فلو كان لفظه من عند غير الله لم يكن معجزاً، ونحن نفرق بدهاة كذلك بين كلام الله تبارك وتعالى وبين كلام النبي عليه وآله الصلاة والسلام، وهذه هي الأحاديث النبوية مع ما تبوأته من سدة الفصاحة فإن الفرق بينها وبين القرآن الكريم يبقى بعيد الشأو ^(٢) ثم إن هذه الفرية تتعارض مع كثير من الآيات الكريمة مثل قوله تبارك وتعالى «لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه» ^(٣).

فلو كان لفظ القرآن الكريم من عند النبي صلى الله عليه وسلم فلم العجلة إذن، ثم هل يحتاج إلى بيان، ثم إن هذا متعارض مع قوله سبحانه وتعالى «إنا أنزلناه قرآناً عربياً» ^(٤) وقوله «قرآناً عربياً غير ذي عوج» ^(٥) وقوله

(١) الزمخشري (١٢٨/٣) طبع دار الفكر.

(٢) وسيأتي لهذا مزيد من التفصيل -إن شاء الله- في مبحث الوحي.

(٣) القيامة: آية (١٦-١٩).

(٤) يوسف: آية (٢). (٥) الزمر: آية (٢٨).

«أفلا يتدبرون ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً»^(١) وقوله
«قل لو شاء الله ما تلوثه عليكم ولا أدراككم به»^(٢).

وقوله «إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً»^(٣)، فكيف يمكن أن نوفق بين نزول
القرآن بالمعنى، وبين كونه قولاً ثقیلاً؟ والآيات التي ترد هذه الفرية لا يمكن
أن نذكرها جميعها لكثرتها، وكذلك ما جاء في الأحاديث الصحيحة يرد هذه
الفرية مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه "وأنزلت عليك
كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظاناً"^(٤) وقوله "ما من نبي إلا وأعطى من
الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أعطيته وحياً يوحى فأرجو
أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة"^(٥).

رحم الله السمرقندي الذي نقل عنه الزركشي والسيوطي رحمهما الله
هذا القول الذي ما كانوا يؤمنون به وما كان أغنانا عن مثل هذه الأقوال
التي ينبغي أن يتنزه عنها وأن يخلو منها تأليف العلماء ولكن يشاء الله أن
يهيئ لهذا الدين من يردُّ عنه زيغ المنحرفين وانحراف الضالين وصدق الله
«إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»^(٦).

(١) النساء: آية (٨٢).

(٢) يونس: آية (١٦).

(٣) المزمل: آية (٥).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) الحجر: آية (٩).

(٦) أخرجه البخاري في فضائل القرآن حديث رقم (٤٩٨١).

نزل القرآن الكريم منجماً وحِكْمه

مما لا ريب فيه أن القرآن الكريم نزل على قلب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في نيف وعشرين سنة، وذلك منذ بعثته إلى قبيل انتقاله إلى الرفيق الأعلى. وقد سجّل القرآن الكريم اعتراض الكافرين على هذا التنجيم وتمنيهم أن يكون القرآن الكريم نُزِّل جملة واحدة، فردّ عليهم سبحانه أبلغ ردّ وأحكمه.

أمّا الكتب السماويّة فقد اشتهر أنها نزلت جملة واحدة، وليس لدينا دليل صحيح قطعي نركن إليه في هذه القضية، بل هي أدلة احتمالية منها أدلة استنبطها بعض العلماء من القرآن الكريم نفسه ومنها آثار لا يمكننا التعميل عليها أو الركون إليها. فمن النوع الأوّل أي ما استنبطه العلماء أولاً: قوله سبحانه «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لثبتّ به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ولا يأتونك بمثل إلّا جئنّاك بالحقّ وأحسن تفسيراً»^(١) قالوا: لو لم تكن الكتب السماوية نُزِلت جملة واحدة - أي إنّها لو نزلت مفرقة لردّ الله عليهم ردّاً آخر بيّن فيه أنّ هذه سنّته في إنزال الكتب على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام أي أنّه ينزلها عليهم مفرقة. ولما لم يكن هذا الردّ القرآني علمنا أنّ الكتب السماوية نزلت جملة واحدة ذلكم أنّ القرآن الكريم كان يردّ الشبهات بما يناسبها قلماً أنكروا أنّ يكون النبي بشراً قال «وما أرسلنا من قبلك إلّا رجالاً نوحى إليهم»^(٢) ولما

(١) الفرقان: آية (٣٢-٣٣).

(٢) الأنبياء: آية (٧).

أُتُكِرُوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكَلَهُ وَمَشِيهِ فِي الْأَسْوَاقِ قَالَ تَعَالَى «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ»^(١)، وَلَمَّا أُتُكِرُوا عَلَى النَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ زَوْجاً وَأَباً رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِسَالاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً»^(٢)، وَقَدْ رَدَّ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ قَوْلَهُمْ «إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيْنَا أَنْ لَا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ»^(٣)، فَقَالَ سَبْحَانَهُ: «قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلَمَّ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»^(٤) فَلَوْ أَنَّ الْكُتُبَ نُزِلَتْ مِنْجَمَةً عَلَى الْأَنْبِيَاءِ لَبَيَّنَّ اللَّهُ ذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بِدَعَاً مِنَ الرُّسُلِ. وَهَذَا الِاسْتِدْلَالُ - كَمَا عَلِمْتَ مِنْ قَبْلِ - اِحْتِمَالِيٌّ، فَقَدْ يُرَدُّ عَلَيْهِ بِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَيَّنَّ الْحِكْمَةَ الْعَظْمَى مِنَ التَّنْجِيمِ وَهِيَ «لِيُثَبَّتَ بِهِ قُودَاكُ» وَهَذَا لَا يَنْفِي أَنْ تَكُونَ الْكُتُبُ قَدْ نَزَلَتْ مِنْجَمَةً بَلْ هَذِهِ السَّنَةُ الْإِلَهِيَّةُ وَهِيَ التَّدْرَجُ فِي الْأَحْكَامِ وَالتَّكَالِيفِ.

ثَانِياً: وَمَا اسْتَدَلُّوا بِهِ كَذَلِكَ قَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: « وَكُتُبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَا حِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا»^(٥) وَالِاسْتِدْلَالُ بِالْآيَةِ الْكَرِيمَةِ يُمْكِنُ أَنْ يُنَاقَشَ كَذَلِكَ فَهَلِ الْأَلْوَا حِ هِيَ التَّوْرَةُ كُلُّهَا؟ أَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَلْوَا حِ هِيَ التَّوْرَةُ أَوْ بَعْضُهَا؟ فَالْحَقُّ أَنَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ لَيْسَتْ دَلِيلاً عَلَى الْمَدَّعَى.

(١) الْفَرْقَانُ: آيَةُ (٢٠). (٢) الرَّعْدُ: آيَةُ (٢٨). (٣) آلُ عِمْرَانَ: آيَةُ (١٨٣).

(٤) آلُ عِمْرَانَ: آيَةُ (١٨٣). (٥) الْأَعْرَافُ: آيَةُ (١٤٥).

ثالثاً: ما جاء في بعض الروايات عن اليهود وغيرهم أيضاً أن التوراة نزلت جملة واحدة وهذه روايات لا تثبت، لذا لم أرَ إثباتها هنا.

خلاصة القول أننا لا نملك الدليل القاطع على ما اشتهر من أن هذه الكتب نزلت جملة واحدة، وهي قضية لا تعنينا كثيراً أو قليلاً، والله أعلم بالصواب. أما نزول القرآن منجماً فقد جاءت فيه آيتان كريمتان إحداهما قوله سبحانه: «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة. كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً»^(١) والثانية قوله سبحانه: «وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً»^(٢).

ومن عظيم حكمة الله تعالى أننا لو تدبرنا كلتا الآيتين الكريمتين وجدنا أن كلا منهما استقلت بحكمة خاصة بها، فأية الفرقان كانت الحكمة فيها تثبت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم، أما الحكمة من آية الإسراء فهي تثبيت أفئدة المؤمنين ليستوعبوا ويتدبروا ويحفظوا. ومن هاتين الحكمتين الكلّيتين تتشعب حكم كثيرة ذكرها العلماء رحمهم الله تعالى وسأعرض هنا بعض ما ذكره ليستيقن الذين يريدون وجه الله ويزداد الذين آمنوا إيماناً.

١- التدرج في هدم ما بقي في نفوس المسلمين من آثار عقائدهم وعاداتهم قبل الإسلام، والتدرج في غرس العقيدة الإسلامية ومكارم الأخلاق والتكاليف الشرعية والعبادات في نفوس المسلمين، فقد تدرج القرآن الكريم

(١) الفرقان: آية (٣٢).

(٢) الإسراء: آية (١٠٦).

في القضاء على ما وقر في نفوس المسلمين قبل الإسلام من عقائد زائفة ومن عادات اجتماعية سيئة كعبادة الأصنام وشرب الخمر وأكل الربا وغير ذلك، فإنَّ من الصعب على الإنسان ترك ما ألفه دفعةً واحدة، كما تدرِّج القرآن الكريم في إكساب المؤمنين الفضائل الخلقية العالية كالطم والإيثار، وتدرِّج كذلك في التشريع وتكليف المسلمين بالواجبات والعبادات كالصلاة والصوم وغيرهما.

٢- تثبیت القرآن الكريم في نفوس المسلمين حفظاً وفهماً وتدبّراً، وما كان ذلك ممكناً لو نزل جملةً واحدة وبخاصة في ظلِّ الظروف الصعبة التي عاشها المسلمون قبل الهجرة وبعدها.

٣- كان القرآن الكريم يُنزل بحسب الدواعي، فقد كان بعض القرآن يتنزل جواباً لسؤال في حينه كقوله تعالى «يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربِّي»^(١) كما أن انتظار الرسول صلى الله عليه وسلم نزول الوحي للإجابة عن هذا السؤال وسواه يدلّ على أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يشرّع من عنده، بل كان يُوحى إليه.

وكان بعضه يتنزل لمعالجة الحوادث في وقت وقوعها، فكثير من أي الكتاب نزل بسبب حادثةٍ مبيّنةٍ ما يتصل بها من أحكام حال حدوثها مثل الآيات الأولى من سورة المجادلة التي نزلت في شأن خولة بن ثعلبة وزوجها أوس ابن الصامت، وآيات سورة النور المتعلقة بحادثة الإفك، وكان بعضه

(١) الإسراء: آية (٨٥).

يتنزل لمعالجة بعض القضايا والأخطاء التي تقع للجماعة المسلمة في حينها
كعتاب الله تعالى لفريقي الأنصار حينما نجح اليهود في الإيقاع بينهما.

وكان بعضه يتنزل لكشف خبايا المنافقين وأحوالهم فأولئك كانوا
يتظاهرون بالإيمان ويبطنون الكفر والكيد للإسلام والمسلمين، فكانوا كلما
أضمرُوا للإسلام كيداً كشف الله كيدهم في حينه.

ولا شك في أن نزول الآيات بحسب الدواعي وفي وقت الحاجة تماماً
يجعل التشريع مواكباً للحياة وهذا هو شأن التشريع الإسلامي دائماً، كما
يجعل تعلم الدروس والأحكام والعبر الصق وأوقع.

٤- تثبتت أفئدة المؤمنين وتصبيرهم على الأذى والمعاناة من حين لآخر
فقد جاء في القرآن الكريم كثير من قصص الأنبياء وأخبار الأمم السالفة
التي تبين فيها عاقبة المؤمنين والكافرين.

قال العلامة الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: "وفي إنزاله مفرقاً وجوه من
الحكمة: منها تسهيل حفظه؛ لأنه لو نزل جملة واحدة على أمة أمية لا يقرأ
غالبهم ولا يكتب لشق عليهم حفظه، وأشار سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله
رداً على الكفار: «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك
لنثبت به فؤادك»^(١).

أي أنزلناه مفرقاً لنثبت به فؤادك وبقوله تعالى «وقرآنًا فرقناه لتقرأه
على الناس على مكث»^(٢). ومنها ما يستلزمه من الشرف له والعناية به لكثرة

(٢) الإسراء: آية (١٠٦).

(١) الفرقان: آية (٣٢).

تردد رسول ربه إليه يعلمه بأحكام ما يقع له وأجوبة ما يسأل عنه من الأحكام والحوادث.

ومنها أن الله قدّر أن يفسخ من أحكامه ما شاء فكان مفترقاً لينفصل الناسخ من المنسوخ وذلك أولى من إنزالهما معاً^(١).

ومن أعظم الحكم التربوية في نزول القرآن منجماً؛ أول ما نزل منه الآيات التي تثبت العقيدة في القلوب، وآيات الترغيب والترهيب وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام «وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك»^(٢)، «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب»^(٣) ثم نزل بعد ذلك ما يتصل بالحلال والحرام.

جاء في صحيح البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها قولها، إنما نزل أول ما نزل منه سورة المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر-لقالوا لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم، وإني لجارية ألعب، «بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر»^(٤) وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده^(٥).

(١) فتح الباري (٢٨٢/١٠). (٢) هود: آية (١٢).

(٣) يوسف: آية (١١١). (٤) القمر: آية (٤٦).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن باب تأليف القرآن باب رقم (٦) حديث رقم (٤٧٠٧) {١٩١٠/٤}.

وقد استشكل بعضهم قول السيدة عائشة رضي الله عنها "أول ما نزل منه سورة من المفصل. فقالوا: إن أول ما نزل الآيات الأولى من سورة اقرأ، وليس فيها ذكر الجنة والنار، ولكن ليس هناك ما يدعو إلى الاشكال في هذا الحديث، قال ابن حجر:

"لعل "من" مقدرة أي من أول ما نزل، أو المراد سورة المدثر فإنها أول ما نزل بعد فترة الوحي، وفي آخرها ذكر الجنة والنار، فلعل آخرها نزل قبل نزول بقية سورة اقرأ، فإن الذي نزل أولاً من اقرأ كما تقدم خمس آيات فقط"^(١) وقد ترجح الجواب الأول من جوابي ابن حجر؛ لأن الجواب الثاني فيه نظر، فإن سورة المدثر لم تنزل كلها دفعة واحدة، ويبدو لي جواب آخر، وهي حمل السورة على الجنس، وتكون (من) ببيان، والمعنى أن سور المفصل نزلت أولاً، والآية التي ذكرتها السيدة عائشة، هي من سورة القمر، وهي من المفصل باتفاق.

ثم قال ابن حجر في شرح هذا الحديث: وأشارت -السيدة عائشة- إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد والتبشير للمؤمن المطيع بالجنة، وللكاfer والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام، ولهذا قالت: ولو نزل أول شيء "لا تشربوا الخمر" لقالوا لا ندعها، وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف"^(٢).

(٢) السابق نفس المكان.

(١) فتح الباري (١٠/٤١٥).

وأرجو أن يكون ما ذكر في موضوع التنجيم فيه الغنية والكفاية،
ولنتقل إلى موضوع آخر: أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن الكريم.
والعلماء وهم يتحدثون عن أول ما نزل وآخر ما نزل قد يعنون بحديثهم
أوائل وأواخر مخصوصة وقد يعنون أول ما نزل على الإطلاق، وكلا
الموضوعين له فوائد وثمراته.

أما القسم الأول، أعني أول ما نزل وآخر ما نزل في موضوع خاص،
فلا يمكن الإحاطة به هنا، لكننا نمثل له بما يبسر الله سبحانه. فيقال: أول
ما نزل في الربا قوله «وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا
عند الله»^(١) وآخر ما نزل فيه «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي
يتخبطه الشيطان من المس»^(٢)، فيكون قوله سبحانه «يا أيها الذين آمنوا لا
تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة»^(٣)، وقوله ناعياً على اليهود «وأخذهم الربا وقد
نهوا عنه»^(٤) كانتا وسطاً بين أول ما نزل وآخر ما نزل.

ويقال أول ما نزل في ذم الخمر قوله «ومن ثمرات النخيل والأعناب
تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا»^(٥) حيث وصف الرزق بالحسن، وخلا السكر
عن هذا الوصف، وآخر ما نزل آيتا المائدة «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر
والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون»^(٦)

(١) الروم آية (٢٩) .

(٢) البقرة آية (٢٧٥) .

(٣) آل عمران آية (١٣٠) .

(٤) النساء: آية (١٦٦).

(٥) النحل: آية (٦٧).

(٦) المائدة: آية (٩٠).

وعليه فقله «يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير»^(١)، وقوله «لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى»^(٢) جاءتا وسطاً بين أول ما نزل وآخر ما نزل. وأول ما نزل من قصة آدم، ما جاء في سورة (ص) وآخر ما نزل ما جاء في سورة البقرة وأول ما نزل من آيات الجهاد «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا»^(٣).

وأخر ما نزل ما جاء في سورة براءة.... إلى غير ذلك وهو كثير ليته يقيض الله له من يتتبعه، فإن في ذلك خيراً كثيراً وعلماً جماً، وفوائد تربوية وتشريعية. ولكن علماء هذا الفن يبحثون أول ما نزل وآخر ما نزل على الإطلاق.

(١) البقرة: آية (٢١٩).

(٢) النساء: آية (٤٢).

(٣) الحج: آية (٣٩).

رَفْعُ
عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

الفصل السادس

أول ما نزل وآخر ما نزل

ونتحدث فيه عن :

أول ما نزل

آخر ما نزل من الآيات

مناقشة هذه الروايات

أواخر السور نزولاً

الفصل السادس

أول ما نزل وآخر ما نزل

لقد كان هذا القرآن الكريم روح هذا الكون ونور الحياة، وبخاصة لهذه الأمة، وكان أساس عزتها، ومبعث نهضتها؛ لذا أدرك أولو الشأن ما لهذا القرآن الكريم من حق في أعناقهم فهرعوا يستنبطون منه عناصر الهداية في مجالات الحياة المتعددة، ويقفون أمام كل آية من آياته، وكلمة من كلماته، ويبحثوا كل ما يتصل به ألفاظاً ومعاني، وما يستلزم ذلك من مقدمات، فمن البدهي -إذن- أن يبحثوا عن أول ما نزل وآخر ما نزل، وغير ذلك مما سنعرفه في هذا الكتاب إن شاء الله.

على أن كل بحث من هذه المباحث، كان له فوائده الجمة الغزيرة التي تعين على فهم آياته، هذا الفهم الذي ستكون إحدى نتائجه معرفة أصول التشريع وحكمه، مما يعين على التكيف الجاد في كل أمر يعرض للمسلمين في هذه الحياة من تعامل مع الله ومع الناس.

ولقد اختلفوا في أول ما نزل وآخر ما نزل، على أن هذا الخلاف عند التحقيق، نجد أنه ليس ذا أثر كبير، بل سيظهر لنا أن من اليسير الجمع بين هذه الأقوال، ورد بعضها الآخر.

أول ما نزل

ذكر السيوطي -رحمه الله- في الإتيان أقوالاً أربع في أول ما نزل:-
القول الأول: الآيات الأولى من سورة (اقرأ) ودليله (حديث عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من

الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبيب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه -وهو التعبد- الليالي نوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، قال: اقرأ قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: «اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم»^(١) فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرأً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على

(١) وتنتمة ما نزل «الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم».

موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزراً، ثم لم ينتشِب ورقة أن توفي وفتر الوحي^(١).

القول الثاني: «يا أيها المدثر»، وقد ورد في ذلك روايتان:

الأولى: عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاغي بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت - منه رعباً فرجعت فقلت: زملوني فأنزل الله تعالى «يا أيها المدثر قم فأنذر» إلى قوله «والرجز فاهجر» فحمى الوحي^(٢).

الثانية: عن يحيى بن أبي كثير: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال - يا أيها المدثر - قلت: يقولون: «اقرأ باسم ربك الذي خلق» فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن ذلك وقلت له الذي قلت، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي/ باب كيف كان بدء الوحي على رسول الله صلى الله

عليه وسلم.

(٢) فتح الباري (٣١/١).

فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً
فنظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً. فرفعت رأسي قرأيت
شيئاً، فأتيت خديجة فقلت: دثروني صبوا عليّ ماءً بارداً. قال: فدثروني
وصبوا عليّ ماءً بارداً. قال: فنزلت «يا أيها المدثر قم فأنذر»^(١).

القول الثالث: فاتحة الكتاب، واستدل القائلون به بما أخرجه الواحدي
عن أبي اسحاق عن أبي ميسرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان
إذا سمع منادياً يناديه «يا محمد» فإذا سمع الصوت انطلق هارباً فقال له
ورقة بن نوفل: إذا سمعت النداء فاثبت حتى تسمع ما يقول لك: قال فلما برز
النداء «يا محمد» فقال: لبيك، قال: قل أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن
محمداً رسول الله ثم قال: قل: «الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك
يوم الدين.... حتى بلغ ولا الضالين»^(٢) وهو حديث مرسل.

القول الرابع: «بسم الله الرحمن الرحيم».

والذي ذكره السيوطي، هو الذي ذكره فيما بعد جميع الكاتبين في علوم
القرآن -رحمهم الله-. على أن هنا أمراً لا بد من تسجيله، وهو أن بعض
هذه الأقوال من الضعيف، بحيث لا يستحق أن يذكر؛ فالقول بأن «بسم الله
الرحمن الرحيم» هي أول ما نزل ضعيف رواية ودراية؛ ولم يذكره الزركشي
-رحمه الله- في البرهان، وهو من أمهات مراجع السيوطي في الإتيان.

(١) فتح الباري (١٠/ ٢٠٤، ٢٠٢).

(٢) أسباب النزول / الواحدي ص ١٩ وهو حديث مرسل

أما ضعفه رواية فلأنه ليس فيه رواية متصلة يعول عليها، وأما ضعفه دراية، فإنه لا يعقل أن تكون هذه الآية وحدها أول ما ينزل على النبي عليه وآله الصلاة والسلام، حتى إن السيوطي الذي ذكر هذا القول، قال: القول الرابع: (بسم الله الرحمن الرحيم) حكاه ابن النقيب في مقدمة تفسيره قولاً زائداً. وأخرج الواحدي بإسناده عن عكرمة والحسن: قالوا أول ما نزل من القرآن "بسم الله الرحمن الرحيم" ثم قال: وعندي أن هذا لا يعد قولاً برأسه، فإنه من ضرورة نزول السورة نزول البسملة معها، فهي أول آية نزلت على الإطلاق" (١).

وقد يصح ما قاله السيوطي في غير سورة إقرأ؛ لأن الثابت في الأحاديث الصحيحة أن سورة (اقرأ) لم ينزل في صدرها (بسم الله الرحمن الرحيم).

٢- أما القول الثالث: وهو أن أول ما نزل سورة الفاتحة، فمع أن الحديث الذي رواه الواحدي وغيره، حديث لا يصح، لكن بعض العلماء ذهبوا إلى الجمع بينه وبين الحديث الصحيح، أعني الذي روي عن السيدة عائشة، بأن الفاتحة أول ما نزل من القرآن الكريم سورة كاملة، ومع تسليمنا بأن أول سورة تامة نزلت من القرآن الكريم هي الفاتحة، لكن الذي نراه أن هذا الجمع متكلف، ذلك لأن المعول عليه صحة الرواية.

على أن بعض العلماء أقدمين ومحدثين رجحوا هذا القول، فمن الأقدمين

(١) الإتيان (٩٥/١).

الإمام الزمخشري^(١)، حيث قال في الكشاف وأكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل، وليس الأمر كما قال رحمه الله، بل الجمهور على أن أول ما نزل الآيات الخمس من سورة العلق.

وأما من المحدثين، فالإمام محمد عبده -رحمه الله- حيث قال: "إنَّ السنة الإلهية في هذا الكون -سواء كان كون إيجاد أو كون تشريع- أن يظهر سبحانه وتعالى الشيء مجملًا ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجيًا وما مثل الهدايات الإلهية إلّا مثل البذرة والشجرة العظيمة، فهي في بدايتها مادة حياة تحتوي على جميع أصولها ثم تنمو بالتدريج حتى تبسق فروعها بعد أن تعظم دوحها ثم تجود بثمرها. والفاتحة مشتملة على مجمل ما في القرآن فتبين من مجموع ما تقدّم أن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً على الأصول التي يفصلها القرآن تفصيلاً، فكان إنزالها موافقاً لسنة الله تعالى في الإبداع"^(٢).

ولكن مع وجاهة ما ذهب إليه هذا الإمام من حيث الدليل العقلي، فإن ذلك يمكن أن يقبل إذا لم يتعارض مع النص الصريح، وحديث السيدة عائشة في صحيح البخاري، لا ينبغي أن يقدم عليه قول.

بقي القول بأن سورة المدثر هي أول ما نزل، وإذا كان القولان السابقان غير صحيحين، فإن هذا القول، قد روي في صحيح الإمام البخاري

(١) الكشاف/٤/٢٢٢.

(٢) المنار ١/ ٣٥، ٣٨.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، فهو من حيث الصحة يشبه ما روي عن السيدة عائشة، إذ كلاهما في صحيح البخاري؛ لذا حاول الأئمة الجمع بينهما، فقال بعضهم: إن المدثر أول سورة نزلت بتمامها.

وقال بعضهم: إنها أول سورة نزلت بسبب، كما سنعرف هذا من الروايات التي سنذكرها فيما بعد.

وقال قوم: إنها أول سورة نزلت تأمر بالإنذار، فسورة (اقرأ) جاءت لإثبات نبوته عليه الصلاة والسلام وسورة المدثر كانت في إثبات رسالته عليه وآله الصلاة والسلام؛ لأن فيها (قم فأنذر). وقال آخرون: إنها أول سورة نزلت بعد فترة الوحي.

وكل هذه الأقوال حري بها أن تناقش، فمنها ما لا يصح، ومنها ما هو متكلف. فالقول بأنها أول سورة نزلت بتمامها قول غير صحيح نقلاً وعقلاً، أما من حيث النقل؛ فالثابت في صحيح الإمام البخاري أن الذي نزل من المدثر إلى قوله سبحانه «والرجز فاهجر» .

وأما من حيث العقل؛ فلئن السورة الكريمة تحدثنا عن تلك المرحلة التي احتدم فيها الجدل بين الحق والباطل، وتلك المعارضة الشرسة التي حمل لواءها أولئك الكفار الخصمون الألداء، وما كان من وعيد وتهديد، وسوء عاقبة ينتظرهم، نقرأ هذا في قوله سبحانه «ذرني ومن خلقت وحيداً، وجعلت له مآلاً ممدوداً، وبينين شهوداً.... إنه فكر وقدر... فقتل كيف قدر... سأصليه سقر... وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة» «كل نفس بما كسبت رهينة»، كل هذا لا يعقل أن تكون نزلت في أول الدعوة، قبل أن يدعوهم النبي صلى الله

عليه وسلم إلى دين الله، القول -إذن- بأنها أول سورة تامة نزلت قول غير صحيح.

أما بقية الأقوال، فتلمح فيها التكلف، على أننا لا نجد أي سبب يضطرنا إلى مثل هذه الأقوال، فنحن إذا تدبرنا الأحاديث المروية سهل علينا أن نجتمع بين الروایتين جمعاً يزيل التعارض والتناقض ففي صحيح البخاري روايتان:

"عن يحيى بن أبي كثير: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال: «يا أيها المدثر» قلت: يقولون «اقرأ باسم ربك الذي خلق» فقال أبو سلمة: سألت جابراً بن عبد الله رضي الله عنهما عن ذلك وقلت له مثل الذي قلت، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فتوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، فنظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً. فرفعت رأسي فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة فقلت: دثروني وصبوا عليّ ماءً بارداً. قال: فدثروني وصبوا عليّ ماءً بارداً، قال: فنزلت «يا أيها المدثر قم فأنذر»^(١).

أما الرواية الثانية:-

أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابراً بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً

(١) فتح الباري ١٠ / ٢٠٢، ٢٠٤.

من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جااني بحراء جالسٌ علي كرسِيّ
بين السّماء والأرض، فرُعبت منه رعباً فرجعتُ فقلت: زملوني، فأنزل الله
تعالى «يا أيها المدثر قم فأنذر، إلى قوله «والرّجز فاهجر» فحمى الوحي.
والمتدبر لهاتين الروايتين يحمل إحداهما على الأخرى، فالرواية الثانية،
تبين لنا صراحة أن جابراً بن عبد الله -رضي الله عنهما- كان يتحدث عن
فترة الوحي، ومعنى هذا أن سورة (اقرأ) هي أول سورة نزلت، ثم فتر
الوحي بعدها، وبعد الفترة نزلت أوائل سورة المدثر، فلا إشكال. وعلى هذا فلا
تعارض بين الروايتين، رواية جابر وعائشة، والقول بأن جابراً قال اجتهداً
قول مردود .

علماً أن ما قاله الحافظ ابن حجر -رحمه الله- يزيل هذا الاشكال: قال
رحمه الله "إمّا إن يكون سقط على يحيى بن أبي كثير وشيخه من القصّة
مجيء جبريل بحراء باقراً باسم ربك وسائر ما ذكرته عائشة، وإمّا أن يكون
جاور صلّى الله عليه وسلم بحراء شهراً آخر، فقد تقدّم أن في مرسل عبيد
ابن عمير عند البيهقي أنّه كان يجاور في كل سنة شهراً وهو في رمضان
وكان ذلك في مدة فترة الوحي، فعاد إليه جبريل بعد إنقضاء جواره".

وقبل أن أغادر هذا الموضوع أود أن أنبه على أن هناك أقوالاً في أول
ما نزل لم يذكرها العلماء لعدم ذكر السيوطي لها، ومن هذه الأقوال:

(١) الفتح ١/ ٣١ .

(٢) الفتح ١٠/ ٣٠٥ .

أن أول ما نزل سورة المزمل، فهي وسورة المدثر متشابهتان في مطلعيهما، حتى إن القارئ لكتاب الظلال للاستاذ سيد قطب -رحمه الله تعالى- يفهم من كلامه التردد في أي السورتين نزلت أولاً، لولا الروايات الصحيحة التي تثبت أسبقية نزول سورة المدثر.

وهناك قول لمجاهد أن أول ما نزل سورة "ن". قال ابن حجر-رحمه الله- "وفي أول سورة نزلت قول آخر عن عطاء الخراساني قال: المزمل نزلت قبل المدثر، وعطاء متكلم فيه، وروايته معضلة لأنه لم يثبت لقاؤه لصحابي معين.

وظاهر الأحاديث الصحيحة تأخر المزمل، لأن فيها ذكر قيام الليل، وغير ذلك مما تراخى عن ابتداء نزول الوحي بخلاف المدثر فإن فيها "قم فأنذر"، وعن مجاهد: أول سورة نزلت « ن والقلم » وأول سورة نزلت بعد الهجرة «ويل للمطففين»^(١).

وعلى هذا نخلص من هذا كله، إلى أن أول ما نزل على الإطلاق هو الآيات الأولى من سورة اقرأ.

آخر ما نزل من الآيات

بعد أن تحدثنا عن أول ما نزل من القرآن الكريم، وعرضنا الأقوال ورجحنا ما يستحق الترجيح نعرض -إن شاء الله- لآخر ما نزل. وينبغي أن أنبه القارئ الكريم أولاً، على أن الكلام في أول ما نزل يختلف عن الكلام في آخر ما نزل؛ من حيث إن الأول حديث عن أول لقاء

(١) فتح الباري (٢٠٥/١٠).

جبريل عليه السلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر يحتاج إلى أحاديث صحيحة مرفوعة إلى الرسول الكريم عليه وآله أفضل الصلاة والتسليم، وليس آخر ما نزل كذلك؛ لذا كثرت فيه الروايات والأقوال، ومع هذه الكثرة لا نجد رواية مرفوعة إلى الرسول الكريم بخلاف أول ما نزل، فالروايات المعتبرة التي نوقشت وهي رواية السيدة عائشة ورواية جابر بن عبدالله رضي الله عنهما جميعاً، وكلاهما مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم. أما آخر ما نزل، فمن الطبيعي أن لا تكون فيه رواية عن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيها: آخر ما نزل عليّ كذا، أو ما في معناها. وقبل أن نستعرض الأقوال يجدر بنا أن نشير إلى ما اشتهر من أن آخر ما نزل هو قوله «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً»^(١) حيث ظن كثير من الناس بأن هذا كان آخر عهد النبي بوحى السماء، ومن المقطوع به أن هذا الجزء من الآية الكريمة نزل في حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة، وعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزولها مدة ثلاثة أشهر، ومن المقطوع به كذلك أن هناك آيات نزلت بعدها؛ لذا ذهب بعض العلماء إلى أنها آخر آية نزلت في الأحكام ولا ينافي أن ينزل بعدها آيات في الوعظ والتذكير، وهذا القول وإن كان مقبولاً باديء بدء، فإنه عند التأمل حري بالمناقشة، فالتأثير أنه قد نزل بعد هذه الآية الكريمة آيات في الأحكام، كما ستعرف نبأه قريباً إن شاء الله.

(١) المائدة آية (٣).

ولقد أجاب شيخ المفسرين ابن جرير الطبري في تفسيره الفذ إجابة شافية كافية، قال رحمه الله: «اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم: يعني جل ثناؤه بقوله «اليوم أكملت لكم دينكم» اليوم أكملت لكم أيها المؤمنون فرائضي عليكم وحدودي وأمري إياكم ونهيي، وحلالي وحرامي وتنزيلني من ذلك ما أنزلت منه في كتابي وتبيانني ما بينت لكم منه بوحىي على لسان رسولي والأدلة التي نصبتها لكم على جميع ما بكم الحاجة إليه من أمر دينكم، فأتممت لكم جميع ذلك فلا زيادة فيه بعد هذا اليوم، قالوا وكان ذلك في يوم عرفة عام حج النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع، وقالوا لم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية شيء من الفرائض ولا تحليل شيء ولا تحريمه، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعش بعد نزول هذه الآية إلا إحدى وثمانين ليلة... وقال آخرون معنى ذلك اليوم: اليوم أكملت لكم دينكم: حجكم فأفردتم بالبلد الحرام تحجونه أنتم أيها المؤمنون دون المشركين لا يخالطكم في حجكم مشرك... وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال إن الله عز وجل أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به أنه أكمل لهم يوم أنزل هذه الآية على نبيه دينهم بإفرادهم بالبلد الحرام واجلاته عنه المشركين حتى حجه المسلمون دونهم، لا يخالطهم المشركون، فأما الفرائض والأحكام فإنه قد اختلف فيها، هل كانت أكملت ذلك اليوم أم لا... وروي عن البراء بن عازب أن آخر آية نزلت من القرآن «يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة»^(١).

ولا يدفع نو علم أن الوحي لم ينقطع عن رسول الله صلى الله عليه

(١) النساء: آية (١٧٦). أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب «يستفتونك قل الله يفتيكم

في الكلالة» رقم الباب (١٠٧)، حديث رقم ٤٣٢٩.

وسلم إلى أن قبض، بل كان الوحي قبل وفاته أكثر ما كان تتابعاً؛ فإذا كان ذلك كذلك، وكان قوله « يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة » آخرها نزولاً، وكان ذلك من الأحكام والفرائض، كان معلوماً أن معنى قوله « اليوم أكملت لكم دينكم » على خلاف الوجه الذي تأوله من تأوله، أعني كمال العبادات والأحكام والفرائض، فإن قال قائل: فما جعل قول من قال قد نزل بعد ذلك فرض، أولى من قول من قال لم ينزل، قيل: لأن الذي قال لم ينزل نجد أنه لا يعلم نزول فرض، والنفي لا يكون شهادة، والشهادة قول من قال نزل، وغير جائز دفع خبر الصادق فيما أمكن أن يكون فيه صادقاً^(١).

وما قاله الإمام الطبري رحمه الله جدير بالرضى حرّياً بالقبول، وسنتحدث الآن إن شاء الله عن الروايات التي وردت في آخر ما نزل من حيث الآيات أولاً ومن حيث السور ثانياً. وهذه الروايات كما قلت من قبل ليس فيها رواية مرفوعة إلى رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بل كلها موقوفة على الصحابة رضي الله عنهم.

أولاً: آخر آية نزلت آية الربا وقوله سبحانه «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله» :

اعلموا أرشدكم الله وإياي أن آيات الربا في آخر سورة البقرة ابتدأت بقوله سبحانه «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس»^(٢).

(١) تفسير الطبري (٥٢ / ٦).

(٢) البقرة: آية (٢٧٥).

واختتمت بقوله سبحانه «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ»^(١) وبعد هذه الآية قوله سبحانه «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ» فالآية الأخيرة «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ»^(٢) متصلة اتصالاً تاماً بآية الربا. لذا جعلهما بعض العلماء قولين وكلاهما مروى عن الخبر رضي الله عنهما (ابن عباس)، والأولى أن يكونا قولاً واحداً وهذا ما ذهب إليه الإمام العظيم البخاري رضي الله عنه، حيث قال مترجماً في صحيحه باب «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ». وذكر بالإسناد إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: «آخر آية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم آية الربا»^(٣).

فذكر في الترجمة آية وفي الإسناد آية أخرى، وهذا إنما يدل على فقهه وعلمه رضي الله عنه. قال الحافظ ابن حجر: "ولعله أراد أن يجمع بين قولي ابن عباس، فإنه جاء عنه ذلك في هذا الوجه، وجاء عنه من وجه آخر آخر آية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ» أخرجه الطبري من طرق عنه.

ومن هنا يتبين لنا أن هذين القولين المرويين عن ابن عباس رضي الله عنهما حري أن يكونا قولاً واحداً لأن الآية الأخيرة متصلة بآيات الربا، وهي

(١) البقرة: آية (٢٧٩).

(٢) البقرة: آية (٢٨١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير (سورة البقرة) باب «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ».

رقم ٥٥، رقم الحديث (٤٢٧٠).

تذكر بالرجوع الى الله وتوفية كل نفس ما كسبت وهذا مناسب أن يختم به الوحي.

ثانياً: آخر آية نزلت: «يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة» وقد روي

هذا عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال البخاري رضي الله عنه باب

«يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة...» إلى آخر الآية.

وذكر بسنده الى البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «آخر سورة نزلت

براءة، وآخر آية نزلت: «يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة».

ثالثاً: آخر آية نزلت قوله سبحانه: «ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه

جهنم خالداً فيها»^(١).

وهذا مروى عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو في صحيح الإمام

البخاري كذلك "قال في إسناده عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: آية

اختلف فيها أهل الكوفة فرجعت فيها الى ابن عباس فسألته عنها فقال: نزلت

هذه الآية «ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم» هي آخر ما نزل وما

نسختها شيء" وهذه الروايات الثلاث كما نرى كلها في صحيح البخاري.

رابعاً: آخر آية نزلت «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم

حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم»^(٢).

(١) النساء: آية (٩٣).

أخرجه البخاري في كتاب التفسير (سورة النساء) باب «ومن يقتل مؤمناً متعمداً

فجزاؤه جهنم» رقم الباب ٩٦ / رقم الحديث ٤٣١٤.

(٢) التوبة: آية (١٢٨).

وهذه الرواية عن ابن عباس عن أبي بن كعب رضي الله عنه، وهي في المستدرک للحاکم^(١).

خامساً: آخر آية نزلت «فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض»^(٢) وهذه الرواية جاءت عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها وقد عزاها السيوطي الى ابن مردويه.

مناقشة هذه الروايات

باديء بدء نبين أن أضعف هذه الروايات وأولها بالرد هي الرواية الأخيرة وذلك للأمور التالية:

١- إن هذه الآية الكريمة جاءت في ضمن العشر آيات من أواخر سورة آل عمران، والثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأها عند قيامه من نومه قبل أن يبتدئ صلاة الليل كما جاء في الأحاديث الصحيحة، فلا يعقل أن تكون هذه آخر آية نزلت لأنها من ضمن الآيات العشر.

٢- إن الرواية عن أم سلمة رضي الله عنها تذكر فيها أكثر من آية حيث جاء في الحديث أنها قالت: يا رسول الله إني أرى الله يذكر الرجال ولا يذكر النساء فنزلت هذه الآية «فاستجاب لهم ربهم...» وفي رواية «إن المسلمين والمسلمات»^(٣) وفي رواية من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى^(٤) وستحدث

(١) المستدرک (٢/ ٣٢٨) وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) آل عمران: آية (١٩٥). (٣) الأحزاب: آية (٣٥).

(٤) النحل: آية (٩٧).

عن هذه الرواية إن شاء الله بشيء من البسط عند حديثنا عن أسباب النزول.

٣- إن سورة آل عمران نزلت مبكرة كما نعلم حيث تحدثت في آيات كثيرة منها عن غزوة أحد.

٤- إن المصدر الذي ذكر فيه هذه الرواية من المصادر التي يكثر أصحابها رحمهم الله ذكر الأحاديث الضعيفة.

٥- إنها تعارض الروايات الصحيحة، من أجل ذلك كله كانت هذه الرواية حرة بالرد.

أما الرواية التي قبلها وهي رواية المستدرک عن ابن عباس عن أبي رضي الله عنهم «لقد جاعكم رسول»، فهي مخالفة لما جاء عن ابن عباس في صحيح البخاري وقد أخذ بها جمهور العلماء.

ثم إن هاتين الآيتين آخر سورة التوبة - كما جاء عن زيد رضي الله عنه وهو يجمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر وقد وجدهما مع أبي حزيمة، وقد كان زيد رضي الله عنه يحفظهما ويقول إنه كان يسمعها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم إن رواية المستدرک إذا تعارضت مع ما جاء في صحيح البخاري تقدم عليها رواية البخاري.

وإذا كانت هاتان الروايتان -الرابعة والخامسة- ليستا في صحيح البخاري فكيف الحال مع الروايات الثلاث الباقية وكلها في صحيح الإمام البخاري؛ فنقول وبالله التوفيق.

أما الرواية الثالثة التي وردت عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس رضي الله عنهم وهي أن آخر آية نزلت قوله سبحانه «ومن يقتل مؤمناً متعمداً

فجزاؤه جهنم» فالأمر فيها سهل إن شاء الله، وذلك أن الذي يتدبر الرواية يدرك قصد ابن عباس رضي الله عنهما. حيث جاء عن ابن عباس "وهي آخر ما نزل وما نسخها شيء" فقول الحبر رضي الله عنهما نفهم منه أنها ثابتة الحكم لم تتسخ ولا يفهم منه أنها آخر آية في القرآن الكريم لأن سياق الحديث يوجب هذا الفهم. هذا الذي نفهمه من كلام ابن عباس رضي الله عنهما.

وبدل لهذا ما ورد عنه في الرواية الأولى، أن آخر الآيات نزولاً آية الربا وهذا القول عن ابن عباس كان قولاً عاماً ليس له سياق معين كما هو الشأن في سياق آية النساء «ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم...» .

أما حديث البراء بن عازب عن آخر ما نزل فقد كان ذا شقين عن آخر سورة وعن آخر آية وستترك الحديث عن الشق الأول إلى حين.

فأقول وبالله التوفيق: لقد روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أكثر من رواية تدل على أنه كان هو السبب في نزول هذه الآية، فبعض هذه الروايات جاء فيها أن ذلك السؤال كان في مرضه رضي الله عنهما وبعضها الآخر جاء فيها إن ذلك كان في طريقه صلى الله عليه وسلم إلى مكة في حجة الوداع وأياً ما كان الأمر فإن آية الكلاله قد تكون من آخر ما نزل وليس آخر ما نزل، ونستأنس بل نستدل لهذا بما جاء عن سيدنا عمر رضي الله عنه. وقد كان يكثر من سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن الكلاله.. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول له تكفيك آية الصيف.

وبعد هذا التطواف الطيب الذي انتشر عبقه وأضاء أفقه مع تلك

الأحاديث الطيبة لا يسعنا إلا أن نقرر (والله أعلم بما ينزل) أصبح الأقوال في آخر آية نزلت هو الذي فيه آية الربا وما بعدها من قوله سبحانه «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون» .

أواخر السور نزولاً

قد جاء عن البراء رضي الله عنه في صحيح الإمام البخاري أنها سورة براء^(١) وروى عن السيدة عائشة أنها سورة المائدة وفي رواية رواية ثالثة أنها سورة النصر^(٢).

وأولى هذه الأقوال بالقبول أن آخر سورة نزلت تامة هي سورة النصر كما جاء في الأحاديث عن عمر وابن عباس رضي الله عنهم أنها نعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم -بأبي هو وأمي- نفسه وعلى هذا فالقول بأن آخر سورة نزلت سورة براء أو سورة المائدة لا يؤخذ على إطلاقه البتة. أما سورة براء فقد نزل أكثرها في غزوة تبوك وكانت في السنة التاسعة من الهجرة وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم انتقل إلى الرفيق الأعلى في السنة الحادية عشرة.

وأما سورة المائدة فيظهر أنها نزلت في أزمئة متباعدة ففيها: «لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام»، وفيها: تحاكم اليهود إلى النبي عليه وآله

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، سورة براء رقم الحديث (٤٦٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير (سورة النصر) باب قوله «ورأيت الناس يدخلون في

دين الله أفواجا» رقم الباب (٤٦٤)، رقم الحديث (٤٦٨٥).

الصلاة والسلام وفيها تحريم الخمر، وفيها: ما حدث مع تميم الداري وصاحبه
في قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا شهداء بينكم إذا حضر أحدكم الموت
حين الوصية اثتان نوا عدل منكم أو آخران من غيركم»^(١) وفيها بيان عصمة
الله نبيه صلى الله عليه وسلم من الناس «والله يعصمك من الناس»^(٢).

وغير هذا من موضوعات كثيرة في السورة الكريمة وهذه بالطبع لم
تنزل كلها دفعة واحدة.

أما سورة النصر فهي سورة قصيرة والتحقيق أنه ليس في السور
المدنية من قصار السور إلا هذه السورة. وسورة الكوثر على الأرجح
جلّ الله منزل هذا الكتاب

بعد كل هذا لا بد من كلمة تبين فيها عظمة هذا الكتاب الخالد الذي
اصطفى الله له نبيه عليه وآله الصلاة والسلام. فما أعظم المنزل وما أعظم
المنزل عليه: «الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً
قيماً»^(٣)، «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً»^(٤)، «قل
أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً»^(٥).

(١) المائدة: آية (١٠٦).

(٢) المائدة: آية (٦٧).

(٣) الكهف: آية (١).

(٤) الفرقان: آية (١).

(٥) الفرقان: آية (٦).

عرفت مما سبق أن أول آية نزلت «اقرأ باسم ربك الذي خلق إلى قوله يعلم» وأن آخر آية نزلت «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى نفس ما كسبت وهم لا يظلمون».

فتدبر أول آية تلك التي تأمر بالقراءة وتتحدث عن العلم، القراءة باسم الرب الخالق والعلم الذي هو منحة الرب الأكرم الذي علمكم ما لم تكونوا تعلمون، ثم نسير مع الآيات الكريمة إلى آخر آية التي تبين أن خاتمة المطاف لهذا الإنسان الرجوع إلى ربه ليوفيه ما عمل فما أجمل وما أعظم الصلة بين البداية والنهاية، البداية التي تتحدث عن القراءة والعلم والتعلم تذكر بالرب الذي خلق، الرب الأكرم الذي علم الإنسان ما لم يعلم، وبين النهاية وما بينهما حيث إن هذا العلم وهذه القراءة حري أن تكون نتيجهما غملاً خيراً من أجل أن يسعد الإنسان في دنياه وأن يسعد في آخرته «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون».

أما من حيث السور فقد ترجع لدينا من قبل -كما علمتم- أن أول سورة نزلت بتمامها هي سورة الفاتحة، وأن آخر سورة نزلت هي سورة النصر.

سورة الفاتحة جاءت تعلمنا كيف نحمد الله ونعظمه وندعوه ونعبده ونستعينه ونسأله الهداية، وجاءت سورة النصر تمن على النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بنصر الله والفتح ودخول الناس في دين الله أفواجاً، والله الذي أكرمنا بالهداية هو الذي أكرمنا بالفتح والنصر فانظر إلى هذه الصلة بين السورتين الكريمتين حيث نزلت كل منها بتمامها تشكلان المقدمة والنتيجة.

المقدمة التي هي الحمد على نعمة الهداية والنتيجة التي هي الفتح والنصر
والتسبيح، والاستغفار «فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد
في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون»^(١).

(١) الروم: آية (١٧- ١٨).

الفصل السابع

رَفَعُ

جمع القرآن الكريم

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

ونتحدث فيه عن :

معنى الجمع .

جمع القرآن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

جمعه بمعنى حفظه في الصدور

جمع القرآن بمعنى كتابته في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

لماذا لم يجمع القرآن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

ما أثير حول جمع القرآن وحفظه من الشبهات

جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق (رضي الله عنه)

المرحلة الثالثة :

جمع القرآن في عهد عثمان (رضي الله عنه)

عدة المصاحف العثمانية

رسم المصحف العثماني

الموازنة بين جمع القرآن الكريم في العهود الثلاثة

شبهات المستشرقين حول عثمان رضي الله عنه

الفصل السابع

جمع القرآن الكريم

قال تعالى «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»^(١).

تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظ القرآن الكريم، وهياً لذلك الوسائل الكفيلة بحفظه، وقيض الله لهذه الأمة من يقوم بحفظ هذا الكتاب الخالد. ولقد مر جمع القرآن الكريم وحفظه بمراحل تجلت فيها العناية التامة بحفظه نصاً، وضبطه لفظاً وأداءً، وسنحدثك في هذا الفصل عما يلي:

أولاً: معنى الجمع.

ثانياً: جمع القرآن الكريم في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً: جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

رابعاً: جمع الناس على مصحف واحد في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

أولاً: معنى الجمع:-

الجمع في اللغة: الاستقصاء والإحاطة بالشيء، نقول جمع فلان علم كذا إذا استوعبه وأحاط بمسائله، ويكون هذا بطريقتين هما الحفظ والكتابة. فمن الأول قول عبدالله بن عمرو: "جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة" أي حفظت القرآن، ومن الثاني قول أبي بكر لزيد بن ثابت رضي الله عنهما "تتبع القرآن فاجمعه، أي اكتبه كله".

(١) الحجر آية (٩).

جمع القرآن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله وسلم منجماً في ثلاث وعشرين سنة، وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يعجل بالقرآن حين يتلوه عليه جبريل عليه السلام خشية أن يفوته شيء، فأنزل الله تعالى «لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه»^(١)، فكان في ذلك طمأنينة للنبي صلى الله عليه وسلم أن لن يفوته شيء من القرآن. والجمع في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تضمن الطريقين السابقين وهما الحفظ في الصدور، والكتابة في السطور.

جمعه بمعنى حفظه في الصدور

لقد كان في هذا العهد عوامل كثيرة ساعدت على تلاوة القرآن الكريم وحفظه وتعليمه للآخرين ومن هذه العوامل ما يرجع إلى العرب أنفسهم، ومنها ما يرجع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة، ومنها ما يرجع إلى الصحابة رضوان الله عليهم، ومنها ما يشترك فيه الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة معاً، فمن العوامل التي ترجع إلى ظروف العرب:

١- بيئتهم الطبيعية وما فيها من سماء صافية، وشمس مشرقة، فقد أدى هذا إلى نشاط أذهانهم وصفاء قرائحهم، فكان تهيوهم للحفظ أقوى واستعدادهم له أكمل.

٢- بعدهم عن الترف، واقتناعهم بضروريات الحياة فقط، وبعدهم عن مشاغل الدنيا.

(١) القيامة: آية (١٦-١٩).

٣- الخصائص البلاغية والمزايا البيانية المتوافرة في كتاب الله تعالى والتي بلغت حداً لم يستطعه العرب، فهذا جعلهم يقبلون على القرآن ويكثر من قراءته.

ومن العوامل الخاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم: تلقيه الوحي عن جبريل عليه السلام، مع أن الله تعالى ضمن له جمع القرآن في صدره، ومنها إملأه القرآن على كتاب الوحي، فإن في حفظ الشيء ثم إملأه على الآخرين تثبيت له في الصدر، ومنها معارضة جبريل عليه السلام له بالقرآن في شهر رمضان من كل عام مرة وفي العام الأخير عارضه إياه مرتين. وهناك عوامل أخرى كثيرة منها

١- أُمِّية الصحابة، حيث لم يكن لهم وسيلة للمعرفة سوى الرجوع إلى القرآن الكريم عن طريق الرسول صلى الله عليه وسلم ومن ثم حفظه،

٢- ما أعدده الله من أجر لقاريء القرآن في الدنيا كما قال صلى الله عليه وسلم "اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه" (١).

٣- مفاضلة الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم بالقرآن الكريم، فيقدم دائماً الأحفظ للقرآن في أمور كثيرة: كالإمامة وغيرها، حتى في اللحد كما ثبت في خبر شهداء أحد، كما قال: يوم القوم أقرؤهم لكتاب الله (٢).

٤- ما في تلاوته من طمأنينة للقلوب، وتزكية للنفوس، وسمو للأرواح،

(١) أخرجه مسلم رقم (٨٠٤).

(٢) أخرجه مسلم (٤٦٥/١) كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب رقم ٥٢.

كيف لا؟ وتالي القرآن الكريم يتلوه موقناً أن الله تبارك وتعالى يناجيهِ،
ولأن هذه الآيات القرآنية ما هي إلا رسائل ربانية يتلقاها التالون لكتاب الله.
هـ- ما أودعه الله في هذا القرآن ومازّه به من غيره من خصيصة
التيسير لقارئه، ولمن أراد حفظه، وهذه ميزة للقرآن لا تفارقه ولا تنزل عنه
إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وخير دليل التاريخ والواقع، فقد حدث
التاريخ وشهد الواقع أنه لا ينقطع عصر، ولا يخلو مصر من الجم الغفير
والجموع الكثيرة التي تحفظ كتاب الله، حتى أولئك الذين لم يبلغوا الحلم،
وصدق الله «ولقد يسرنا القرآن للذكر»^(١).

٦- ما روي من الوعيد الشديد لمن حفظ شيئاً من القرآن ثم نسيه^(٢)،
ومن هنا وجدنا الصحابة رضوان الله عليهم يقبلون على حفظ القرآن الكريم،
ولقد اشتهر من الحفاظ: الخلفاء الأربعة، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ
ابن جبل، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة، وسالم مولى أبي حذيفة، وابن
عباس وغيرهم.

روى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خذوا القرآن من
أربعة: من عبد الله بن مسعود وسالم ومعاذ وأبي بن كعب"^(٣).

(١) القمر: آية (١٧).

(٢) البيان في مباحث من علوم القرآن / عبد الوهاب عبد الجيد غزلان (ص ١٤٦).

(٣) صحيح البخاري (٤/ ١٩١٢)، وانظر فتح الباري لان حجر العسقلاني (١٠/ ٤٢٢)، وقد وردت

روايات أخرى ذكرت أسماء صحابة آخرين.

جمع القرآن بمعنى كتابته في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

كان القرآن الكريم ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم شيئاً فشيئاً، وكان كلما نزل منه شيء أمر الرسول صلى الله عليه وسلم كتاب الوحي بكتابته، روي عن عثمان بن عفان قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتي عليه الزمان ينزل عليه من السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا" ^(١).

وقد عنى الصحابة رضوان الله عليهم بكتابة القرآن، فقد وجه النبي صلى الله عليه وسلم همهم نحو كتابة القرآن، ونهاهم أن يكتبوا شيئاً غيره حتى السنة قال: "لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه" ^(٢).

وقد علل كثير من العلماء نهى النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة أن يكتبوا شيئاً من الحديث بأن مبعثه خشية اختلاط الحديث بالقرآن، وهذا التعليل غير مسلم، لأن أسلوب القرآن الكريم أسلوب فريد يمتاز عن أسلوب البشر، والصحابة كانوا من العرب الخالص الذين يستطيعون تمييز كلام الله من كلام غيره، لذا فإننا نرى أن هذا النهي إنما كان من أجل أن يخص القرآن الكريم بالعناية من الصحابة، ولا يشغلهم أي شيء عنه.

وقد كانت عناية الصحابة كذلك بكتابة القرآن الكريم مرتب الآيات، وهذا

(١) سنن الترمذي (٢٤٠/٨)، تحفة الأحوزي (٤٧٨/٨).

(٢) صحيح مسلم (٢٢٩٨/٤-٢٢٩٩).

بتوقيف من الرسول صلى الله عليه وسلم كما ورد في الحديث السابق، وهذا الترتيب لم يكن حسب نزول الآيات.

وسبب كتابة القرآن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم هو المحافظة على النص القرآني من أن يطرأ عليه شيء من التغيير، إذ إنه لا تحل روايته بالمعنى، لأن القرآن الكريم معجز بنظمه متعبد بتلاوته، فكان لا بد من الاحتياط في ضبط ألفاظه وصيانيته، وهذا لا يتحقق بالحفظ وحده، بل لا بد من الكتابة كذلك.

وقد اشتهر من كتاب الوحي في عهده صلى الله عليه وسلم: الخلفاء الأربعة، معاوية بن أبي سفيان، أبي بن كعب، زيد بن ثابت وغيرهم.

ولا يظن ظان أن هذه الكتابة كانت في المدينة المنورة وحدها، بل إنها بدأت في العهد المكي، وإنما اشتهرت الكتابة في المدينة لأنها كانت موطن استقرار المسلمين ولأن الذين كانوا يحسنون الكتابة في المدينة كانوا أكثر منهم في مكة.

ولم تقتصر الكتابة في المدينة على ما نزل فيها، بل كان يكتب ما نزل في العهد المكي مثل سورة المؤمنون.

ومن هنا نستطيع أن نقرر مطمئنين أن القرآن كله من فاتحة الكتاب إلى سورة الناس كتب في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ونستدل لما ذهبنا إليه من أن سورة المؤمنين المكية كتبت في المدينة المنورة، وأن كاتبها عبد الله بن أبي السرح ارتد بعدها ثم أسلم.

أما الأدوات التي كان يكتب عليها الوحي في ذلك الوقت فهي:

- ١- العسب: جمع عسيب وهي الجريدة من النخل، كانوا يكشفون الخوص ويكتبون في الطرف العريض^(١).
- ٢- اللخاف: مفرد لها لخرة وهي الحجرة الدقاق، صفائح الحجرة^(٢).
- ٣- الأكتاف: جمع كتف، وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان من الناس والدواب^(٣)، قال السيوطي: هو العظم الذي للبعير أو الشاة^(٤).
- ٤- الجريد: هي التي يجرد عنها الخوص ولا يسمى جريداً ما دام عليه الخوص وإنما يسمى سعفاً، والجريد سعفة طويلة رطبة أو يابسة أو التي تقشر من خوصها^(٥).
- ٥- الأقتاب: الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليتركب عليه^(٦).
- ٦- الرقاع: جمع رقعة وقد تكون من ورق أو غيره^(٧).
- ٧- الصحف: جمع صحيفة وهي قطعة من جلد أو قرطاس يكتب فيه.
- ٨- الألواح: مفرد لوح وهو الكتف وكل عريض، واللوح الذي يكتب فيه،

(١) الصياح للجوهري (١٨١/١).

(٢) الصياح للجوهري (١٤٢٦/٤).

(٣) النهاية في غريب الحديث / ابن الأثير (١٥٠/٤).

(٤) الإتيقان (٥٨/١).

(٥) النهاية في غريب الحديث / ابن الأثير (١٠/٤).

(٦) الصياح (١٤٥٥/٢)، القاموس المحيط (٢٨٢/١).

(٧) الإتيقان (٥٨/١).

هو كل صفيحة عريضة خشبياً أو عظماً^(١).

٩- الظر: حجر له حدّ كحدّ السكين والجمع ظرار^(٢).

١٠- الخزف: والخزف الفخار وهو الطين المشوي^(٣).

١١- الكرانيف: الكرناف أصول الكرب، التي تبقى في جذع النخلة بعد

قطع السعف، وما قطع من السعف فهو الكرب الواحدة كرنافة^(٤).

لماذا لم يجمع القرآن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

مع أن القرآن الكريم كتب كله في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم،

إلا أنه لم يجمع في مصحف واحد، ولعل سبب ذلك:

١- أن القرآن الكريم كان ينزل شيئاً فشيئاً، وهذا يجعل كتابته في

مصحف واحد أمراً غير متيسر.

٢- أن الآيات القرآنية كانت تنزل من السور الكثيرة المختلفة على

حسب الدواعي بلا ترتيب ثم يعلم ترتيبها، فلو كتب كل شيء عقب نزوله في

المصحف، لكان لا بد من إعادة كتابته مرة أخرى كلما نزلت آية وفي هذا ما

فيه من المشقة*.

(١) الصحاح (٤٠٢/١)، القاموس المحيط (٢٤٧/١). (٢) الصحاح (٧٢٩/٢).

(٣) لسان العرب (٦٦/٩).

(٤) الصحاح (١٤٢٠/٤).

× وقد ادعي أن من أسباب عدم جمعه في عهده عليه الصلاة والسلام. نسخ تلاوة بعض الآيات،

لكنني لا أتفق مع هذا القائل، وسيأتيك هذا مفصلاً إن شاء الله في مبحث النسخ.

وقد اتخذت الكتابة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم نمطين اثنين، الأول: الكتابة الرسمية، وهي التي كان يكتبها كتاب الوحي بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي كانوا يكتبونه كان يوضع في حجرات النبي صلى الله عليه وسلم عند أزواجه، وقد تكون من بعض كتبة الوحي، والثاني: الكتابة الخاصة التي كان يكتبها بعض الصحابة لأنفسهم.

وقد كان جبريل يأتي الرسول صلى الله عليه وسلم فيعرض عليه القرآن مرة في شهر رمضان من كل عام، وفي العام الأخير من حياته صلى الله عليه وسلم عرضه جبريل عليه عرضتين^(١).

روى البخاري بسنده عن فاطمة رضي الله عنها "أسرَّ إليَّ النبي صلى الله عليه وسلم أن جبريل يعارضني بالقرآن كل سنة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي"^(٢)، وهذا العرض لم يكن في المدينة المنورة فحسب بل في مكة كذلك.

ولم ينتقل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى إلا وقد كان القرآن كله محفوظاً في الصدور مكتوباً في السطور.

ما أثير حول جمع القرآن وحفظه من الشبهات:

مما أثير من الشبهات حول جمع القرآن، أن القرآن الكريم لم يحفظه إلا أربعاً من الصحابة رضوان الله عليهم، وقد أثار هذه الشبهة بعض

(١) البيان في مباحث من علوم القرآن (ص. ١٩٠-١٩١).

(٢) صحيح البخاري (٤/١٩١١).

المستشرقين وغيرهم من المستغربين وممن أثارها ممن نحسن بهم الظن الدكتور عبد المنعم نمر وكيل الأزهر الأسبق وزير الأوقاف المصري الأسبق حيث قال: "أن من الحقائق التي يجب أن نضعها أمام أعيننا أن الصحابة لم يحفظ منهم القرآن كله إلا يسير قليل أربعة وقيل أكثر من ذلك بقليل"^(١)، وحصر بعضهم الحفاظ بسبعة، وما علم الشيخ -رحمه الله- أن هذا القول وأمثاله سيلتقطه الحاقدون على الاسلام شرقاً وغرباً وهذا الذي كان، نحن لا نسيء الظن بالشيخ، لكن كان لما قرره آثار سلبية ونتائج خطيرة والحقيقة أن هذه قضية خطيرة، حيث إن الهدف من هذا الكلام إثبات عدم تواتر القرآن الكريم، حيث لم يحفظه إلا أربعة من الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن الأستاذ أراد أن يستدل على كلامه بما أخرجه الامام البخاري عن أنس -رضي الله عنه- وقد سئل عن جمع القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إنهم أربعة كلهم من الانصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد وفي رواية أبو الدرداء بدل أبي بن كعب.

ولقد تصدى العلماء قديماً للإجابة عما أثاره الملاحدة حول هذا الحديث، فهذا الحافظ ابن حجر^(٢) رحمه الله في فتح الباري يذكر وجوهاً كثيرة يغزو بعضها للمازري وبعضها للباقلاني وبعضها لم يعزه لأحد، وقبل أن نذكر هذه الوجوه أحب أن أشير الى قضية مهمة حبذا أن يتنبه .

(١) مجلة العربي/العدد (١٢١) كانون أول ١٩٦٨م.

(٢) فتح الباري (٤٢٩/١٠).

لها وهي أننا إذا أردنا أن نفهم الحديث الشريف فهماً صحيحاً، فينبغي أن يكون تعاملنا مع الحديث مثل تعاملنا مع القرآن الكريم، فنحن إذا أردنا فهم الآية فهماً صحيحاً فلن نقف عندها وحدها بل ندرس سياقها وظروف نزولها، وما يتصل بها من آيات. كذلك الحديث النبوي الشريف حريٌّ أن تكون له هذه الخصائص كذلك.

وأظننا إن أدركنا سبب هذا الحديث، بأن لنا الأمر ووضح المعلم فقد أخرج الطبراني من طريق سعيد بن أبي عروبة قال: افتخر أعيان الأوس والخزرج فقال الأوس: منا أربعة من اهتز له العرش سعد بن معاذ، ومن عدلت شهادته شهادة رجلين خزيمة بن ثابت، ومن غسلته الملائكة حنظلة بن أبي عامر ومن حمته الدبر عاصم بن ثابت فقال الخزرج: منا أربعة جمعوا القرآن لم يجمعه غيرهم فذكرهم^(١) هذا إذاً سبب ورود الحديث، والحديث كما نعلم موقوف على أنس رضي الله عنه - وقد جاء كما رأينا في مجال التنافس في الأعمال الخيرة والتسابق في خدمة الدين، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، اللهم ارحم الأنصار.

فلا مانع إذا من أن يكون قد جمعه غيرهم من المهاجرين ومن غير المهاجرين، ويعد أن يذكر الحافظ رحمه الله أجوبة متعددة لا يرضيه بعضها ينقل عن المازري أن هذا ما علمه أنس ولا يلزم منه أن يكون الواقع كذلك لأن الصحابة قد تفرقوا في البلاد، ولكي يكون الحصر حقيقياً لا بد أن يكون أنس رضي الله عنه - قد لقي كل واحد من الصحابة كل على حدة وأخبره عن نفسه وهذا غاية في البعد، وبعد ذلك نجد الحافظ يذكر كثيراً ممن حفظوا

(١) ذكره البيهقي في كتاب جميع الزوائد (٤١/١٠) وقال: رواه أبو يعلى والبيهقي والطبراني ورجالهم رجال الصحيح.

القرآن وجمعه في عهد الرسول عليه وآله الصلاة والسلام ثم ينقل ما قاله القرطبي وهو أن عدة مئات من الصحابة من حملة القرآن وحفظته قد استشهدوا يوم اليمامة. بعد ذلك كله يقول الحافظ "وقد تمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة ولا متمسك لهم فيه فإننا لا نسلم حملة على ظاهره، سلمناه، ولكن من أين لهم أن الواقع في نفس الأمر كذلك؟ سلمناه لكن ألا يلزم من كون كل واحد من الجم الغفير لم يحفظه كله أن لا يكون حفظ مجموعهم الغفير، وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه، بل إذا حفظ الكل الكل ولو على التوزيع كفى" (١).

وقبل أن نتحدث عن المرحلة الثانية، وهي جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر، يجدر أن أنبه على بعض المحفوظات وأشير إلى بعض القضايا، ومن هذه القضايا:-

أولاً: حاول بعض المستشرقين، ومن نسج نسجهم أن يضعوا بعض ما يثير الزببة في النفوس، فادعوا أن كتابة القرآن الكريم في عهد النبي عليه وآله الصلاة والسلام، أمر لا يُطمأن إليه كثيراً؛ ذلك لأن نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن في وقت معين، بل كان ينتظم أوقاتاً كثيرة في الليل والنهار، والسفر، والحضر، وفي بعض الأوقات التي كان ينزل فيها القرآن الكريم، لم يكن من الممكن أن يستدعى كتاب الوحي، فهل كان الرسول نفسه يحسن الكتابة ؟

(١) فتح الباري (٤٢٨/١٠) .

ونحن لن نبعد كثيراً في ردّ هذه الشبهة، قامية الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، أمر ثابت في كتاب الله تبارك وتعالى، وفي السنة المطهرة، وهذه الأمية ليست جهلاً - كما يزعم بعض الزاعمين .

فالنبي عليه وآله الصلاة والسلام لم يكن يكتب الوحي المنزل عليه، لكن الذي كان ينزل في ليلٍ أو سفر، تكفل الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بحفظه «لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه». وحينما كانت تتوافر ظروف الكتابة، كان يملي النبي عليه وآله الصلاة والسلام هذا الذي نزل على كتّابه، بل كان الصحابة رضوان الله عليهم في كثير من الأحيان يحفظون هذا الذي نُزِّل على النبي عليه وآله الصلاة والسلام قبل كتابته، يدلنا على ذلك ما جاء في أحاديث كثيرة منها:

- أن الصحابة سمعوا سورة الفتح وحفظوها، من تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم لها، وهو راجع من الحديبية^(١).

- ما جاء عن ابن مسعود^(٢) من أنه حفظ سورة المرسلات من النبي صلى

(١) أخرج البخاري في كتاب المغازي باب أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح رقم ٤٦ حديث (٤٠٣١) عن عبد الله بن مغفل قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح يرجع، وقال: لولا أن يجتمع الناس حولي لرجعت كما رجعت. وروى ذلك عن معاوية كذلك في كتاب التفسير - سورة الفتح - باب قوله: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً» حديث ٤٥٥٥.

(٢) أخرج البخاري في كتاب التفسير - سورة المرسلات - باب قوله: «هذا يوم لا ينطقون» رقم الحديث ٤٦٥٠، عن عبد الله قال: بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غار إذ نزلت عليه والمرسلات، فإنه يتلوها، وإني لأتلوها من فيه وإن شاء لرطب بها...

الله عليه وسلم وقد تلاها ليلة لقائه الجن التي أُشير إليها بقوله «وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن»، وقوله «قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن...».

والحادثة الأولى كانت بعد الهجرة، والثانية قبلها.

إن حرص النبي عليه وآله الصلاة والسلام على تثبيت القرآن الكريم في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم، كان كافياً بأن يعي أولئك المكرمون أي القرآن الكريم جميعها.

ثانياً: إن ما كان يمليه النبي عليه وآله الصلاة والسلام على كتاب الوحي كان حرفاً واحداً، وهو نزول القرآن بلغة قريش، أما بقية الأحرف، فلقد كان يشافه بها النبي عليه وآله الصلاة والسلام الصحابة رضوان الله عليهم مشافهة من غير أن تكتب، وإن كتب شيء منها، فإنما هو لبعض الصحابة الذين كانوا يحبون أن يكتبوا لأنفسهم ما شافهم به النبي عليه وآله الصلاة والسلام.

ثالثاً: لقد جاءت روايات كثيرة وأقوال عن العرضة الأخيرة، وهي العرضة الثانية من شهر رمضان الذي كان في السنة العاشرة من الهجرة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم عرض القرآن على جبريل مرتين، وقد قيل إن هذه العرضة الأخيرة كانت خالية من الآيات التي نسخت تلاوتها وإن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، شهد هذه العرضة الأخيرة، وكانت قراءته موافقة لها، وقد روى في ذلك بعض الأحاديث عن ابن عباس رضي الله عنهما والذي أطمئن له، وأدين به، وألقى الله عليه أن العرضة الأخيرة كان الهدف منها زيادة تثبيت للقرآن الكريم، وزيادة التثبيت للرسول عليه وآله الصلاة

والسلام، وقد شرفت الحياة بالنبى عليه وآله الصلاة والسلام بعد هذه العرضة بما يزيد على ستة أشهر، كانت كافية أن يعلم كثير من الصحابة رضوان الله عليهم ويتعلموا الوضع الأخير للقرآن الكريم، كما هو عليه الآن في المصحف، وأن نسخ التلاوة لم يرد فيه قول يطمأن إليه، وأن ما ورد من ابن عباس رضي الله عنهما من أن ابن مسعود كان يقرأ على العرضة الأخيرة لا يصح وقصارى ما في الأمر أن النبى عليه وآله الصلاة والسلام، كان يقرأ ابن مسعود مثل غيره أحرفاً، وكان ابن مسعود يكتب ما أقرأه النبى. وقصارى ما في الأمر كذلك أن القرآن الكريم كان محفوظاً ومكتوباً في عهده عليه وآله الصلاة والسلام.

أما ما ادعوه من أن بعض كتاب الوحي لم يكونوا موضع ثقة وأنهم كانوا يغيرون ما يمليه عليهم النبى صلى الله عليه وسلم فيكتبون «غفوراً رحيماً»، بدل قوله «عزيزاً حكيماً»^(١)، فهو ادعاء باطل لا يقوم على أساس من المنطق، فهي حادثة واحدة -إن صحت- عن ابن ابي السرح، وليسوا كتاباً كثيرين كما ادعى بلا شير، ثم إن النبى عليه وآله الصلاة والسلام كما عرفنا كان يحفظ القرآن الكريم، ليلقنه غيره ويحفظوه. وأي تحريف يمكن أن يبقى في كتاب الله تعالى، ما دام القرآن الكريم محفوظاً عند النبى عليه الصلاة والسلام وعند كثير من الصحابة وما دام يعارض به جبريل في كل عام؟ ثم إن هذا القول يحمل بطلانه في ثناياه؛ نحن نعلم أن العرب جميعاً

(١) انظر كتاب تاريخ القرآن الكريم/عبد الصبور شاهين ص ٥٤.

الذين نزل القرآن فيهم كانوا على جانب كبير من التدقيق الأدبي، حتى أولئك المشركين الذين لم يؤمنوا بالقرآن الكريم كتاباً وبسيدنا محمد رسولاً، فكيف تصح مثل هذه الفرية؛ فتبدل بعض الكلمات مكان بعضها الآخر، وهذا مما لا يجوز أن نقبله ممن هم أقل من أولئك الصحابة من حيث الفطرة اللغوية، والفكرة البليانية.

وقد نقلت لنا الكتب أن كثيراً ممن جاء بعد عهد الصحابة كانوا يسمعون القاريء يخطيء في كتاب الله فيدركون هذا الخطأ، وما ذكره الجاحظ^(١) وغيره عن هذا الذي سمع القاريء يتلو «فإن زلتم من بعدما جاعتكم البيئات فاعلموا أن الله غفور رحيم» فقال ذلكم الأعرابي: والله ما هذا بكلام الله؛ كيف يذكر المغفرة والرحمة بعد الزلل؟ فقلت عليه الآية كما أنزلها الله «فاعلموا أن الله عزيز حكيم» فقال: الآن. فسكن واطمأن، فكيف يمكن أن تصدق مثل هذه الفرية في عهد كان القرآن فيه هو أعز شيء، على الصحابة رضوان الله عليهم.

(١) البيان والتبيين (٢/٢٦٩).

جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه

بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، تولى أبو بكر الصديق الخلافة، وكان مما حدث في زمانه حروب طاحنة قامت بينه وبين المرتدين، ومن هذه الحروب وقعة اليمامة، التي استشهد فيها أكثر من سبعين من قراء القرآن الكريم من الصحابة^(١) فأراح ذلك عمر بن الخطاب وأشار على أبي بكر بجمع القرآن الكريم خشية ضياعه.

أخرج البخاري عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: "أرسل إليّ أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه، إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإنني أخشى إن استمر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإنني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يقطه رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر، قال زيد، قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه.

فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن.

(١) ذكر القرطبي أنه استشهد أكثر من سبعمائة من القراء في هذه الواقعة [تفسير القرطبي

قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب والخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم» حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر رضي الله عنه حياته، ثم عند حفصة رضي الله عنها»^(١).

وجاء في رواية أخرى عند البخاري، أن الآية التي فقدت من سورة الأحزاب، فعن زيد بن ثابت قال: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف، قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه»، فألحقناها في سورتها في المصحف^(٢).

وهذان الحديثان عند الإمام البخاري أساس في جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر، وفيهما علم جم.

أولاً: علمنا من قبل أن القرآن كان مكتوباً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، لكنه لم يكن مجموعاً في مصحف واحد، أو في مكان واحد.

(١) صحيح البخاري (١٩٠٧/٤).

(٢) صحيح البخاري (١٩٠٨/٤)، ومسنَد الإمام أحمد (١٨٨/٥).

وهذه حقيقة لا يماري فيها أحد، وعجباً للمستشرقين ومن على شاكلتهم الذين يشكون في هذه القضية، وأنقل هنا كلمة للمستشرق جفري في مقدمته الكتاب (المصاحف) لأبي داود.

لما قبض النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن في أيدي قومه كتاب، قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم كان كلما نزلت عليه آيات أمر بكتابتها، وكان يعرض على جبريل مرة في كل سنة ما كتب من الوحي في تلك السنة وعرض عليه مرتين سنة موته، وهكذا جمع القرآن كله في حياة النبي صلى الله عليه وسلم في صحف وأوراق، وكان مرتباً كما هو الآن في سورة وآياته، إلا أنه كان في صحف لا مصحف، وهذا الرأي لا يقبله المستشرقون لأنه يخالف ما جاء في أحاديث أخرى من أنه قبض صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن في شيء، وهذا يطابق ما روي من خوف عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق لما استحر القتل بالقراء يوم اليمامة، وقالوا إن القتل استحر في القراء ونخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن كلها فيذهب قرآن كثير، ويتبين من هذا أن سبب الخوف هو قتل القراء الذين كانوا قد حفظوا القرآن، ولو كان القرآن قد جُمع وكتب لما كانت هناك علة لخوفهما، وفضلاً عن ذلك فإن علماء الغرب لا يوافقون على أن ترتب نص القرآن كما هو اليوم بين أيدينا من عمل النبي صلى الله عليه وسلم^(١).

وفي هذا القول قضيتان: إحداهما: أن القرآن لم يكن مكتوباً في عهد

(١) مقدمة كتاب المصاحف/ ١ جفري ص ٥

النبي صلى الله عليه وسلم.

والثانية: أنه لم يكن مرتباً كما هو الآن في المصحف وسنترك مناقشة هذه القضية، لنحدث عنها في الفصل الخاص بترتيب آيات القرآن وسوره. أما القضية الأولى فيكفي في ردها ما جاء عن زيد رضي الله عنه الحديث السابق "فتبعت القرآن أجمعه من العصب واللخاف وصدور الرجال وهذه العصب واللخاف ليست إلا ما كان يمليه النبي عليه وآله الصلاة والسلام على كتاب الوحي، ونظرية جفري ومن معه من المستشرقين تعصف بكل ما ثبت من أخبار صحيحة ليس من اليسير التشكيك فيها.

إن من الثابت أن هناك كتاباً للوحي، وإن من الثابت كذلك أن هناك صحفاً كثيرة كانت في عهد النبي عليه وآله الصلاة والسلام، وكان زيد رضي الله عنه يعتمد عليها وهو يجمع القرآن.

وما اعجب شأن المستشرقين، إذ ليس لهم قاعدة ثابتة، يصدرون عنهم وينطلقون منها، ذلكم أنه إذا ذكرت بعض المصاحف التي كان يكتبها بعض الصحابة، تجدهم لا يمارون فيها، بل يحاولون إثباتها والتمسك بها، ليصلون إلى ما يريدون من مقررات. أما جمع القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وإملاؤه على كتبة الوحي، فذلك أمر يحاولون التشكيك فيه.

إن استنادهم إلى ما قاله عمر ووافقه عليه أبو بكر وزيد - رضي الله عنهم - لا ينهص لهم دليلاً، فلقد تبين لنا من قبل أن الهدف من عمل أبي بكر بعد أن اقتنع بما رآه عمر - رضي الله عنهما - كان جمع القرآن الكريم بين دفتين في مصحف واحد، ولا بد لهذا الجمع من تتبع لما في المصحف من

سطور ولما هو محفوظ في الصدور، وهذا يبين لنا حيطة الصحابة في أمر القرآن الكريم، هذه الحيطة التي ستظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فقول جفري -إذن- "ولو كان القرآن قد جمع وكتب لما كانت هناك علة لخوفهما وهذه ملازمة غير صحيحة -كما يقول المناطقة- أما جمع القرآن فهو أمر لا ينبغي أن يرتاب فيه -كما قلنا من قبل- أما الخوف على ضياع شيء من القرآن، فإنما الدافع له الحيطة وحرص المسلمين على هذا الكتاب الذي هو أعز شيء في حياتهم؛ وليكون عملهم أنموذجاً يقتدي به المسلمون فيما بعد.

إن الصحابة -رضوان الله عليهم- وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر وزيد -رضي الله عنهم- لا يغيب عنهم قول الله تبارك وتعالى «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»، ولكنهم مع ذلك -جزأهم الله خيراً- أبوا إلا أن يعطوا من أنفسهم المثل الأعلى للعناية بهذا القرآن الكريم، وسيظهر لنا أن المنهج الذي اتبعوه كان من أدق وأحكم وأرقى وأفضل ما عرفه العلم من منهجية.

ثانياً: لقد كان عمر- رضي الله عنه- ذا حصافة وإحساس مرهف بعيد النظرة صائب الفكر عند مجيئه أبا بكر-رضي الله عنه- .

ثالثاً: لقد كان أبو بكر-رضي الله عنه- شديد التمسك بسنة رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام، يدل على ذلك هذه المحاورة التي كانت بينه وبين عمر، كيف يفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إن ما كان من هذين الصحابين، يدل على التربية التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعهد بها أصحابه، فحرية التفكير والجرأة بالرأي من أسس هذه

التربية. لقد خشي أبو بكر رضي الله عنه أن يفعل ما لم يفعله النبي الكريم ولكنَّ عمر رضي الله عنه رأى أن ذلك العمل، فضلاً على أنه لا يتعارض مع سنة النبي الكريم فإن الرسول صلى الله عليه وسلم، كان يملي على كتّاب الوحي ما ينزل عليه، وكان يعلم أن بعض الصحابة كانوا يكتبون لأنفسهم كذلك. أقول إن عمل عمر رضي الله عنه، فضلاً على أنه لا يتعارض مع سنة الرسول الكريم فإنه مع ذلك من أعظم أعمال الخير، وأفضل القربات والمنافع. قال ابن حجر-رحمه الله- "قال الخطابي وغيره: يحتمل أن يكون صلى الله عليه وسلم إنما لم يجمع القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته فلما انقضى نزوله بوفاته صلى الله عليه وسلم ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك، وفاء لوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة المحمدية زأدها الله شرفاً، فكان ابتداء ذلك على يد الصديق رضي الله عنه بمشورة عمر....

قال ابن حجر: وإذا تأمل المنصف ما فعله أبو بكر من ذلك جزم بأنه يعد في فضائله، وبنوه بعظيم منقبته لثبوت قوله صلى الله عليه وسلم "من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها" فما جمع القرآن أحد بعده إلا وكان له مثل أجره إلى يوم القيامة، وقد كان لأبي بكر من الاعتناء بقراءة القرآن ما اختار معه أن يرد على ابن الدغنة جواره ويمضي بجوار الله..... ثم قال: قال ابن بطال: إنما نفر أبو بكر أولاً ثم زيد بن ثابت؛ لأنهما لم يجدا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعله فكرها أن يحلا أنفسهما محل من يزيد احتياطه للدين على احتياط الرسول، فلما نبههما على فائدة

ذلك، وأنه خشية أن يتغير الحال في المستقبل إذا لم يجمع القرآن فيصير إلى حالة الخفاء بعد الشهرة رجعا إليه، قال: يدل ذلك على أن فعل الرسول^(١) إذا تجرد عن القرائن، وكذا تركه لا يدل على وجوب ولا تحريم^(٢).

رابعاً: إن اختيار زيد رضي الله عنه كانت نتيجة حكمة وحصافة، ودليل ذلك هذه الأوصاف التي ذكرها أبو بكر الصديق رضي الله عنه "إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم": الشباب والقوة حتى لا تفتر عزيمته في أثناء عمله؛ لأنه يحتاج إلى صبر، والعقل والفطنة والأمانة والتقوى حتى لا يقع أي نقص في عمله ، ولأنه حضر العرضة الأخيرة.

خامساً: لقد شعر زيد- رضي الله عنه- بعظم المسؤولية، ولذلك قال كلمته "لو كفوني نقل جبل...". ولذلك وجدنا زيدا رضي الله عنه لا يقوم وحده بهذه المهمة الشاقة والمسؤولية الصعبة، بل وجدناه يستعين بغيره من الصحابة رضوان الله عليهم. ورد من طريق أبي العالية: أنهم لما جمعوا القرآن في خلافة أبي بكر كان الذي يملئ عليهم أبي بن كعب، فلما انتهوا من براءة إلى قوله لا يفقهون، ظنوا أن هذا آخر ما نزل منها، فقال أبي بن

(١) هذا فهم يشكر صاحبه جزاءه الله خيراً، لو أن المسلمين استقر عندهم هذا الفهم، لأراحوا أنفسهم من كثير من الخلافات التي فرقت كلمتهم، وعمقت العداوة والبغضاء، وصرفتهم من الأولويات التي ينبغي أن يجتمعوا عليها.

(٢) فتح الباري (ج ١٠ ص ٢٨٦، ٢٨٧).

كعب: أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم آيتين بعدهن «لقد جاءكم رسول من أنفسكم» إلى آخر السورة»^(١).

سادساً: في هذه المرحلة مرحلة جمع أبي بكر رضي الله عنه وردت أحاديث متعددة، منها ما تقدم لنا عند البخاري رضي الله عنه، ومنها:

١- ما جاء في كتاب المصاحف لابن أبي داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال قام عمر فقال: من تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من القرآن فليأت به، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعصب، قال: وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان.

٢- وعنده أيضاً من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر ولزيد: اقعدا على باب المسجد فممن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه»^(٢).

٣- وعنده أن عمر رضي الله عنه قال عندما جاء أبو خزيمة بالآيتين من آخر سورة براءة، لو كان معهما آية ثالثة لجعلتهن سورة على حدة.

ولا بد أن نقف مع هذه الأحاديث، حيث تسرب بعض المستشرقين وتلاميذهم من خلال هذه الأحاديث إلى طرح شوائب الريية وشبهات الطعن، لينالوا من هذا القرآن، فالحديثان الأولان جاء فيهما قبول القرآن الكريم بشهادة شاهدين، وهذا يتعارض مع التواتر الذي لا بد منه في ثبوت

(١) فتح الباري (٣٩٠/١٠).

(٢) الفتح (٣٨٨/١٠) ورجاله ثقات مع انقطاع.

كتاب الله تبارك وتعالى.

أما الحديث الثالث ففيه ما لا يقل خطورة عن سابقه، وهي كلمة عمر رضي الله عنه، لو كان معهما آية ثالثة لجعلتهن سورة مستقلة.

ولكن لا عليك أيها القاريء فاطمئن نفساً، ولتكن على ثقة من قول الله تبارك وتعالى «فأما الزيد فيذهب جفاءاً».

ونبادرك القول بأن هذه الأحاديث لا تصح سنداً عند العلماء وعلى فرض صحة بعضها، فإنها لا تتعارض مع تواتر القرآن الكريم، فنحن نعلم أن القرآن منذ عهد النبي عليه وآله الصلاة والسلام كان مكتوباً ولكن في أدوات متفرقة، ومحفوظاً من قبل جماهير كثيرة من الصحابة، فتوافر له الجمع بمعنييه الكتابة والحفظ.

ثم إن العلماء اختلفوا في ماهية الشاهدين من جهة، وعلام يشهدان من جهة أخرى مع إجماعهم على عدم صحة الأحاديث التي ذكرت الشاهدين، فذهب بعضهم إلى أنهما الكتابة والحفظ، ولكن الظاهر من هذا القول أن الشاهدين صحابيان، هذا من حيث الاختلاف في ماهية الشاهدين.

أما علام يشهدان؟ فرأى بعضهم أنهما يشهدان على قرآنية ما يجيء به بعض الصحابة مما هو معهم، أو مما هو عندهم، ونعني بقولنا مما هو معهم أي ما كان محفوظاً في صدورهم، وقولنا أو عندهم ما كان مكتوباً، ورد هذا القول بأن القرآنية لا تحتاج إلى شهادة إذ كان جل الصحابة فيه سواءً، والقول الذي ارتضاه المحققون أن شهادة الشاهدين ليست على القرآنية كما قلت، بل على الكتابة عند النبي صلى الله عليه وسلم، أي أن هذه الآية أو

الآيات كتبت عند النبي عليه وآله الصلاة والسلام، وهذا غاية ما وصل إليه التحقيق العلمي.

ثم إن العلماء يكادون يجمعون على أن الآيتين من سورة براءة التي جاء بهما أبو خزيمة، ولم يجدهما زيد عند غيره رضي الله عنهم، إنما جاء بهما مكتوبتين، لا أنه كان يحفظهما دون غيره من الصحابة، فهذا أمر لا يتفق مع المنطق السوي والعقل السليم، بل ولا مع واقع الصحابة رضوان الله عليهم، وهل سيكون أبو خزيمة أكثر حفظاً من زيد، وعبد الله بن مسعود، وأبي ومعاذ، وغيرهم رضي الله عنهم جميعاً وعلى هذا فإن مثل هذه الأحاديث لا تشكل أي شبهة للنيل من تواتر القرآن، قال الإمام الخطابي: "وقوله حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره، هذا مما يشكل أمره ويخفى معناه على كثير من الناس، فيتوهمون أن بعض القرآن إنما أخذ من الأفراد والأحاد من الناس، ولم يستوثق له بالإجماع ولم يقدم في بابه الاحتياط الذي يؤمن معه الغلط، ويرتفع به الاختلاف، وذلك أن هذا الحديث لم يستوف فيه قصة جمع القرآن وكيفيته ولم يستوعب ذكره وصفته، وقد كان كتب إلي بعض إخواني بلغ في هذا الباب فاخرجت لهم مسألة مستوفاة تشتمل على ذكر أكثر ما يلزم معرفته فيه.. والقدر الذي يحتاج إلى ذكره ههنا هو أن يُعلم أن القرآن كان مجموعاً كله في صدور الرجال أيام حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومؤلفا هذا التأليف الذي نشاهده ونقرؤه فلم يقع فيه تقديم ولا تأخير ولا زياده ولا نقصان إلا سورة براءة كانت آخر ما نزل من القرآن لم يبين لهم

رسول الله صلى الله عليه وسلم موضعها من التأليف حتى خرج من الدنيا فقرنها الصحابة بالأنفال^(١). قلت: هذا يدل على أن الجمع كان حاصلاً والتأليف أيام حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان موجوداً، ومما يؤكد ذلك ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ في صلاته سورة الأعراف، وقرأ سورة البقرة في صلاة الكسوف، ومعلوم أن نزولهما لم يكن جملة، وقوله صلى الله عليه وسلم شيبتي هود وأخواتها^(٢) وهي متفرقة الآي في النزول فدلّ على أن الجمع قد سبق وفاته صلى الله عليه وسلم وهو جمع النظم والتلاوة، وقد ثبت أن أربعة من الصحابة كانوا جمعوا القرآن كله في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد ذكر أبو عبد الله قال: حدثنا حفص بن عمر: قال حدثنا همام قال: حدثنا قتادة، عن أنس، قال: يعني جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار، أبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد^(٣).

قلت: وقد كان لهم في ذلك شركاء من الصحابة وإن كان هؤلاء أشد

(١) لسانا مع الإمام في هذا، وسيأتيك نبأ هذا في مبحث ترتيب سور القرآن الكريم.

(٢) أخرجه الترمذي/ أبواب تفسير القرآن - سورة الواقعة وقال حديث حسن غريب [السنن

(٣/٧٦)] .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن/ باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه

وسلم رقم (٥٠٣) . وقد تقدم مناقشة هذه القضية من قبل .

اشتهاراً به وأكثر تجريداً للعناية بقراءته، ومما يبين ذلك أن أصحاب القراءات من أهل الحجاز والشام والعراق وكل منهم قد عزا قراءته التي اختارها إلى رجل من الصحابة قرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يستثن من حملة القرآن شيئاً، فأُسند عاصم قراءته إلى علي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما وأُسند عبدالله بن كثير قراءته إلى أبي بن كعب وكذلك أبو عمرو بن العلاء يسند قراءته إلى أبي.

وأما عبدالله بن عامر فإنه أُسند قراءته إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكل هؤلاء يقولون قرأنا على النبي صلى الله عليه وسلم، وأسانيد هذه القراءات متصلة ورجالها ثقات وهذا مما يبين لك أن جمع القرآن كان متقدماً لزمان أبي بكر رضي الله عنه، وإنما جمع أبو بكر القرآن في الصحف والقراطيس وحوّله إلى ما بين الدفتين شهراً له وإذاعةً في زمانه وتخليداً لرسمه مستأنف الزمان، وكان قبل في الأكتاف ورقاع الأدم والعسب وصفائح الحجارة ونحوها مما كانت تكتب العرب فيه من الظروف، ويشبه أن تكون العلة في ترك النبي صلى الله عليه وسلم جمع القرآن في مصحف واحد، كما فعله من بعده من الصحابة أن النسخ كان قد يرد على المنزل منه، فيرفع الشيء بعد الشيء من تلاوته كما يرفع من بعض أحكامه...^(١)

(١) وقد ناقشنا هذا الأمر من قبل، والفرق بين الصحف والمصحف أن الصحف الأوراق المجردة

التي جمع فيها القرآن في عهد أبي بكر وكانت سوراً مفردة كل سورة مرتبة بآياتها، لكن لم يرتب بعضها إثر بعض، فلما نسخت ورتب بعضها اثر بعض صارت مصحفاً. [فتح الباري (١٠/٢٩٣)].

... فلو كان قد جمع بين الدفتين كله، وسارت به الركبان وتناقلته الأيدي في البقاع والبلدان، ثم قد نسخ بعضه ورفعت تلاوته لأدى ذلك إلى اختلاف أمر الدين ووجود الزيادة والنقصان فيه وأوشك أن تنتقض به الدعوة وتتفرق فيه الكلمة وأن يجد الملحدون السبيل إلى الطعن عليه والتشكيك فيه، فأبقاه الله عز وجل على الجملة التي أنزل عليها من التفرق في ظروفه وحفظه من التبديل والتغيير إلى أن ختم الدين بوفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قيض لخلفائه الراشدين عند الحاجة إليه جمعه بين الدفتين ويسرّ لهم حصره كله باتفاق من إماء الصحابة وإجماع من آرائهم حيث لم يكن بقي نسخ منه مرتقب ولا لشيء من أحكامه متعقب.

فإن قيل: إذا كان القرآن محفوظاً في الصدور كما قلتموه فما كان حاجتهم إلى استخراجهم من الأكتاف والعسب والخفاف التي لا وثيقة في أعيانها ولا أمان من وقوع الغلط والتبديل فيها؟ قيل: إنما فعلوا ذلك استظهاراً وأخذاً بالوثيقة في معارضة المكتوب منه في تلك النسخ بالمحفوظ في الصدور من حملته ولم يقنعوا بأن يقتصروا في ذلك على أحد الأمرين منهما دون الاستظهار بالآخر.

وقد يحتمل أن يكون ذلك من أجل أنه صلى الله عليه وسلم لما أرخص في القراءة بالأحرف السبعة وقال: "كلها شاف كاف".

وقد اختلفت القراءات منهم على حسب اختلاف لغاتهم فأشفقوا أن يخالف شيء منها في الخط والهجاء شيئاً من المكتوب في النسخ الأول، فأحبوا أن يوفقوا بين الأمرين لئلا يخرج شيء من ذلك عن لغة قريش التي

نزل بها القرآن لأنها هي الأصل والعمدة في التنزيل ولم يكن ذلك منهم أول مقدمة العلم بكونه قرآنًا، فتكون المعرفة به مستفادة من جهة تلك النسخ فقط.

فإن قيل: فكيف تصنعون بقول زيد في هذه الرواية حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره؟.

قيل: إن سورة براءة من آخر ما نزل من القرآن علي ما روينا عن عثمان، وحفاظ القرآن من الصحابة إنما كانوا يحفظون منه ما كان منزلاً وما كانت تلاوته ظاهرة، دون ما لم يكن استفاض العلم بنزوله منه، فقد يحتمل أن تكون هاتان الآيتان لم تكونا محفوظتين فيما بلغ زيداً إلا من قبل خزيمة ابن ثابت في ذلك لقرب العهد بنزولهما فألحقهما زيد بآخر السورة، إذ وافق ذلك المكتوب في الظروف المدون فيها المنزل من القرآن، فصدق أحدهما الآخر، وقد روى أبو عبد الله فيما يشبه هذا خبراً آخر عن زيد^(١).

أما ما روي عن عمر رضي الله عنه: لو كان ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة. فانظروا سورة من القرآن فضعوها فيها، فوضعتها في آخر براءة^(٢). فهذا الحديث لا يثبت دراية ولا رواية، أما دراية: فلأن القرآن الكريم كان مؤلفاً مرتباً سوراً وآيات في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يملك

(١) اعلام الحديث في شرح صحيح البخاري/ للإمام أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي

-تحقيق د. محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود (١٨٥١/٣ - ١٨٥٩) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٤٠/٣) .

أحد أن يصنع فيه ما يشاء، وإنا نجل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن هذه القولة النكرة، وأما رواية: فلأن فيه أكثر من علة ذكرها المحدثون. قال الشيخ أحمد شاكر:

" فيه عباد بن عبد الله بن الزبير ثقة ولكنه لم يدرك قصة جمع القرآن، بل ما أظنه أدرك الحارث بن خزيمة، ولئن أدركه لما كان ذلك مصححاً للحديث، إذ لم يروه، بل أرسل القصة رسالاً، وأخرجه ابن أبي داود في المصاحف (ص ٣٨) من طريق محمد بن سلمة بهذا الإسناد، وهو في مجمع الزوائد (٣٥/٧) وقال: رواه أحمد وفيه إسحاق وهو مدلس وباقي رجاله ثقات، ولم يتفطن الهيتمي لتعليقه بالإرسال وأورده ابن كثير في تفسيره (١٨٠/٤) عن المسند ولم يتكلم في تعليقه بشيء وقال ابن الأثير في أسد الغابة (٣٩٠/١)، في ترجمة الحارث هذا: وقد ذكر ابن مندة أن الحارث بن خزيمة هو الذي جاء إلى عمر بن الخطاب بالآيتين خاتمة سورة براءة «لقد جاءكم رسول من أنفسكم...» إلخ السورة وهذا عندي فيه نظر، ثم روى بإسناده من طريق الترمذي حديث زيد بن ثابت "بعث إليّ أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة وذكر حديث جمع القرآن، وقال: فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت، ثم قال: وهذا حديث صحيح وهو في جامع الترمذي (٣١٠٣). قلنا وأخرجه البخاري (٤٩٨٦) أيضاً، قال الشيخ أحمد شاكر: فهذا هو الثابت، وأما حديث عباد بن عبد الله بن الزبير الذي هنا فإنه حديث منكر شاذ، مخالف للمتواتر المعلوم من الدين بالضرورة أن القرآن بلغه رسول الله لأُمَّته سوراً معروفة مفصلة، يفصل بين كل سورتين منها بالبسملة إلا

في براءة ليس لعمر ولا لغيره أن يرتب فيها شيئاً، ولا أن يضع آية مكان آية، ولا أن يجمع آيات وحدها فيجعلها سورة، ومعاذ الله أن يجول شيء في خاطر عمر، ثم من هذا الذي يقول في هذه الرواية هنا "فوضعها في آخر براءة" وفي رواية أبي داود "فألحقها في آخر براءة؟ أهو الحارث بن خزيمة؟ لا، فإنه لم يكن ممن عهد إليه بجمع القرآن في المصحف، أهو عمر؟ لا، فالسياق ينفيه، لأن هذه الرواية تزعم أنه أمر بوضعها في براءة، فهو غير الذي نفذ الأمر، أم هو الراوي عباد بن عبدالله بن الزبير؟ لا، إنه متأخر جداً عن أن يدرك ذلك، حتى لقد قال العجلي: وأما روايته عن عمر بن الخطاب فمرسلة بلا تردد. وأما نصّ تفسير ابن كثير في هذه الكلمة "فوضعها في آخر براءة"، فإنه غير صحيح ومخالف لنص المسند الذي يروي عنه، ولعلها تحريف أو تغيير من أحد الناسخين، فهذا الحديث ضعيف الإسناد منكر المتن، وهو أحد الأحاديث التي يلعب بها المستشرقون وعبيدهم عندنا، يزعمون أنها تطعن في ثبوت القرآن، ويفترون على أصحاب رسول الله ما يفترون"^(١).

وبعدما عرفت من أمر هذه الأحاديث فإنه يجمّل ويجدر بك أن تعلم أن لجمع أبي بكر رضي الله عنه فوائد متعددة، حيث جمع القرآن في مصحف واحد، بعد أن كان متفرقاً، وفي مكان واحد بعد أن كان في أمكنة كثيرة، وقد تهيا لهذا الجمع كل عوامل التثبيت، وهكذا شاء الله أن يحفظ كتابه، وصدق الله «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»^(٢).

(١) مسند أحمد بن حنبل/تحقيق شعيب أرنؤوط وآخرون (٢/ ٢٤٠-٢٤١).

(٢) الحجر آية (٩).

وأحب أن أنبه هنا على أن المصحف الذي كتب في عهد أبي بكر، ونقل من الصحف التي كانت مكتوبة في عهد النبي عليه وآله الصلاة والسلام، ليس فيها -أي التي كانت في عهده عليه الصلاة والسلام- ما هو منسوخ التلاوة كما توهم عبارات بعض الكاتبين، وذلك لأن أمر نسخ التلاوة من الأمور التي تحتاج إلى بحث أولاً، وسيأتيك خبر هذا في مبحث النسخ إن شاء الله، وأما ثانياً: فلا يعقل ولا يقبل أن يكون هناك شيء منسوخ قد كتب في عهد النبي عليه وآله الصلاة والسلام، ولم ينبه النبي صلى الله عليه وسلم.

بقي شيء واحد في هذا المبحث: تذكر بعض الروايات أن أبا خزيمة، هو الذي جاء بالآيتين من آخر سورة براءة، وبعض الروايات تذكر أنه خزيمة بن ثابت، كما أن هذه الروايات تذكر أنه جاء بآية الأحزاب، وهي قوله سبحانه: «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً»^(١) والحق أنهما حادثتان مختلفتان من صحابييين مختلفين في عهدين مختلفين، فالذي جاء بالآيتين من آخر سورة براءة هو أبو خزيمة الحارث بن خزيمة، وكان ذلك في عهد أبي بكر رضي الله عنه، أما الذي جاء بآية الأحزاب فهو خزيمة بن ثابت رضي الله عنه الذي تعدل شهادته شهادتين.

لكن ذلك لم يكن في عهد أبي بكر رضي الله عنه، وإنما كان في عهد عثمان رضي الله عنه حينما جمع الناس على مصحف واحد يدلنا على ذلك ما

(١) الأحزاب: آية (٢٣).

أخرجه الإمام البخاري عن زيد بن ثابت أنه قال: لما نسخنا الصحف في المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصاري الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته شهادة رجلين «من المؤمنين صدقوا ما عاهدوا الله عليه»^(١).

فقوله نسخنا الصحف من المصاحف يدل على ما ذهبنا إليه، إذ من المعلوم أن النسخ في المصاحف كان على عهد عثمان بن عفان ولم يكن على عهد أبي بكر الصديق.

ومع هذا الحرص من أبي بكر وعمر وزيد والصحابة جميعاً، ومع هذا التحقيق، ومع هذا الإتقان، مع هذا كله فإن بعض المستشرقين ومن رضع لبانهم أبوا إلا أن تكون لهم بعض النفثات من السموم.

يقول الاستاذ عبد الصبور شاهين:

وملاحظة انتقالها من أبي بكر إلى حفصة تدلنا على أن هذه الصحف، منذ كتبت، كانت معدودة من الملكية العامة، إذ لو كانت ملكاً خاصاً لأبي بكر لما ورثها غير أبنائه من بعده، وأغلب الظن أنها لم توضع لدى حفصة إلا لتكون رهن تصرف الخليفة الثالث، حين يطلبها، وبخاصة إذا كانت حفصة من أمهات المؤمنين. وهو ما حدث فعلاً.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة الأحزاب / باب «فمنهم من قضى نحبه ومنهم من

ينتظر».

نقول هذا رداً على المستشرق بلاشير الذي حاول أن يزرع الشكوك حول عملية جمع القرآن، على عهد أبي بكر، حين رجح أولاً أن نسخ المصحف الذي بدأ في حياته لم ينته إلا في عهد عمر، إذ كان قد بدأ قبل موت أبي بكر بخمسة عشر شهراً، ثم تساءل: هل كان عمل هذا المصحف حلاً للموقف الذي خشيته عمر؟... وأجاب قائلاً: لقد كان المجتمع -منطقياً- بحاجة إلى مجموعة مكتوبة من الوحي، معترف بها من الجميع، ليطبقها الجميع، فهل كانت هذه هي صحف أبي بكر؟... كلا؛ إذ أن هذه الصحف كانت ملكاً خاصاً لأبي بكر وعمر بصفتها الشخصية، لا للخليفة رئيس الجماعة، ولقد دل كل شيء -إجمالاً- على أن الخليفة الأول وصاحبه حين أحسا مغبة ألا يكون لديهما نص كامل للوحي، كلفا أحد كتاب الوحي ممن سبق أن استخدم محمد في هذه الوظيفة -بأن يهيئه لهما. ولنا أن نتساءل عن إمكان أن تصدر محاولة عمر- مؤيدة أو معارضة بسلطة أبي بكر- عن سبب آخر: هو الرغبة في تملك نسخة شخصية من الوحي، كما كان يملكها صحابة آخرون للنبي، فإن الأمر لم يكن في ذهن أبي بكر وعمر أمر فرض مصحف إمام على جماعة المؤمنين، وإنما يبدو أنه من المستحسن ألا يكون رئيس الجماعة في وضع أقل من بعض الصحابة ممن هم أحسن حالاً^(١).

وهذا الحديث من بلاشير يقوم على عدة دعاوى هي:

١- أن جمع القرآن كان عملاً شخصياً قصد به تحقيق رغبة أبي بكر وعمر

(١) المدخل إلى القرآن (٣٢-٣٤).

٢- وأن هذه الرغبة كانت منبعثة من غيرة شخصية، وإحساس لديهما
بالنقص بالنسبة إلى بعض الصحابة.

٣- وأن عملهما هذا كان مسبقاً بأعمال أخرى مشابهة لدى كثير من
الصحابة^(١).

وقد شايعه في هذه الادعاءات تلميذه الدكتور مصطفى مندور، بل زاد
أحياناً كلمات خلال التعبيرات التي قبسها عنه، فإذا قال بلاشير: إنها كانت
ملكية شخصية (Proporiete) (Personnelie)، قال مندور حفصة
ورثتها على أنها ذمة مالية شخصية (Patrimoine Personnel) ونقول: ماذا
عن انتقالها إلى عمر بعد أبي بكر؟... ثم... ما القيمة الحقيقية
لنسخة من القرآن، لدى رجل جمعه حفظاً على عهد رسول الله^(٢)، وفي عصر
كان المحفوظ فيه أوثق ثبوتاً، وأعظم حياة في وجدانه، وعلى لسانه، إن لم
يكن ذلك من أجل الأمة بأسرها!!!...

ولعل موقفنا من هذه الادعاءات واضح بعد ما قدمنا، لكننا نشير إلى
مغالطة وقع فيها بلاشير، هي القول بأن جمع أبي بكر للقرآن كان مسبقاً
أو مصحوباً بمحاولات أخرى فردية، وهو يشير إلى أسماء عدد من الصحابة،
منهم معاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو الدرداء، وأبو زيد
ابن السكن، وغيرهم، كما يستدل على ذلك بخبر أبي السابق ذكره في جمع

(١) المدخل (٣٥-٣٦).

(٢) الإتيان (٧١/١)، وانظر أيضاً تاريخ القرآن للزنجاني (١٨).

القرآن^(١)، ونحن لا ننكر أن محاولات فردية سبقت وحجبت جمع أبي بكر للقرآن ولكنها لم تكن لجمع القرآن، بل لتقييد محفوظ كل منهم، كان ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك بعده، مخافة النسيان أو الخطأ وسوف يكون لنا في ذلك حديث.

فلما كان أمر أبي بكر لزيد، وفد الصحابة سراعاً بما لديهم، يضعونه بين يدي زيد، ويوثقونه بشهادة العدول. هذا كل ما في الأمر، لكن أهداف الاستشراق تريد أن تخلع عن عمل أبي بكر ميزة الجدية، وأن تجرده من كونه عملاً تضافرت عليه جهود، وتوفرت له صفة التواتر، أي قطعية الثبوت، ليصبح في نظر الناس عملاً فردياً، لم تدفع إليه مصلحة عامة، وليس هو بأولى من غيره بالالتزام والمتابعة.

وعودة إلى حال هذا المصحف في عهد عمر رضي الله عنه، حين أصبح أميراً للمؤمنين، لنؤكد أنه استمر على ما كان عليه أيام أبي بكر، مع مزيد من النشاط في تعليم الناس القرآن، وتجنبيهم أن يخطئوا في قراءته على الوجه الذي ينبغي أن يقرأ به، في حدود الأحرف السبعة. وقد عثرنا على خبر يدل دلالة واضحة على ما نقول، فقد روى محمد بن سعد في طبقاته عن محمد بن كعب القرظي، بإسناده قال: جمع القرآن في زمان النبي صلى الله عليه وسلم، خمسة من الأنصار - معاذ بن جبل، وعبد الله بن الصامت، وأبي بن كعب، وأبو أيوب، وأبو الدرداء، فلما كان زمن عمر بن الخطاب كتب إليه يزيد

(١) المدخل إلى القرآن: (١٢-٣٥-٤٥).

ابن أبي سفيان: إن أهل الشام قد كثروا وَرَبَلُوا ^(١)، وملأوا المدائن، واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم، فَأَعْنِي يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم. فدعا عمر أولئك الخمسة، فقال لهم: إن إخوانكم من أهل الشام قد استعانوني بمن يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين، فأعينوني، رحمكم الله، بثلاثة منكم إن أحببتهم، فَاسْتَهُمُوا، وَإِنْ انتدب ثلاثة منكم فليخرجوا، فقالوا: ما كنا لِنَتَّسَاهُمْ، هذا شيخ كبير، لأبي أيوب، وأما هذا فسقيم، لأبي بن كعب، فخرج معاذ؛ وعبادة، وأبو الدرداء، فقال عمر: ابدعوا بحمص فإنكم ستجدون الناس على وجوه مختلفة، منهم من يَلْقَن، فإذا رأيتم ذلك فوجهوا إليه طائفة من الناس، فإذا رضيتم منهم فليُقِم بها واحد، وليخرج واحد إلى دمشق، والآخر إلى فلسطين، وقدموا حمص فكانوا بها، حتى إذا رضوا من الناس أقام بها عبادة، وخرج أبو الدرداء إلى دمشق، ومعاذ إلى فلسطين فمات بها، وأما أبو الدرداء فلم يزل بدمشق حتى مات ^(٢).

واستمرت الحال هكذا، تتسع شيئاً فشيئاً، باتساع الفتوح وانسياح المسلمين في أقطار الأرض، وفي ممالك الفرس والروم آنئذ، وكلما انبسطت الرقعة انتشر القرآن، كما ضعفت الرقابة على كيفية أداء المسلمين الجدد لحروفه ووجوهه لكن ما كانوا يطبقون قراءته كان مرخصاً به في حدود الأحرف السبعة، التي نزل بها القرآن، إلى أن كان زمن الخليفة الثالث، عثمان بن عفان ^(٣).

(١) يريد: كثر عددهم ونموا.

(٢) الطبقات الكبرى (٢/ ٢٥٦).

(٣) تاريخ القرآن، عبد الصبور شاهين (١٠٨-١٨١).

المرحلة الثالثة

جمع القرآن الكريم في عهد خلافة عثمان رضي الله عنه

اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه بعد توالي الفتوحات، وكثر الداخلون في الإسلام من العرب وغير العرب، فانتشرت قراءات الصحابة في الأمصار الإسلامية المتعددة، فكان من أهل الأمصار من يقرأ بقراءة ابن مسعود، أو بقراءة أبي بن كعب أو غيرهما من كبار قراء الصحابة^(١).

ومن الواضح أن كثرة الاختلافات تؤدي إلى اضطراب وفتن، ولهذا قام عثمان (رضي الله عنه) بتوحيد المسلمين على مصحف واحد قطعاً لدابر الفتنة التي بدأت تطلّ برأسها.

روى البخاري في صحيحه عن أنس: "أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأقزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردّها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت، وعبدالله ابن الزبير وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن

(١) مناهل العرفان : (١ / ٢٤٨) .

ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، ردّ عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أن يحرق" (١).

في ضوء هذا النص يتّضح لنا أن حركة عثمان في المصاحف امتداداً لحركة أبي بكر، غير أن الجديد في حركة عثمان أنه وحد المسلمين على هذا المصحف الذي قام بكتابته، وجمع مصاحف الصحابة فأحرقها أو محاها على اختلاف في الرواية على حين أن هذه المصاحف لم تمسّ في عهد أبي بكر.

قد يتسأل متسائل: لم لم يوحّد أبو بكر أو عمر المسلمين على مصحف واحد كما فعل عثمان؟ والجواب على هذا واضح يسير، إذ كانت القراءات المرخص بها تروى في عهد الخيفتين ويُقرأ بها دون أن يحدث ذلك تناقضاً أو اختلافاً، أمّا في عهد عثمان فلقد وصل الأمر بالمسلمين إلى تخطئة بعضهم بعضاً، فكان توحيد عثمان للمسلمين على مصحف واحد حسماً لذلك الخلاف وقضاءً على تلك الفتنة.

ولقد امتدح علي بن أبي طالب (كرمّ الله وجهه) موقف عثمان في كتابة المصحف، فقال: "يا معشر الناس، اتقوا الله عزّ وجلّ، وإياكم والغلو في عثمان، وقولكم: حرق المصاحف، فوالله ما حرقها إلا عن ملامنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.... ووالله لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في

(١) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن (١٩٠٨/٤).

المصاحف مثل الذي فعل عثمان^(١).

كما أن عثمان -رضي الله عنه- لم يكتفِ بأمرِ الرهط القرشيين بجمع القرآن، وإنما أشرفَ على عملهم، ومن الشواهد الدالة على معاونته لهم وإشرافه عليهم في مهمتهم الجليلة:

١- ما رواه البخاري عن عبد الله بن الزبير حيث سألَ عثمان بشأن آية البقرة «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً....» الآية. أكتبها في المصحف أم لا إذ هي منسوخة الحكم فقال له عثمان: «دعها يا بن أخي لا أُغَيِّر شيئاً من مكانه»^(٢).

٢- ما أخرجه الإمام أحمد وأصحاب السنن وصححه ابن حبان والحاكم من حديث ابن عباس قال: «قلتُ لعثمان ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المثني فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتوها في السبع الطوال.... الحديث^(٣) وتوجيه ابن عباس الخطاب لعثمان دليل على مشاركته في تلك المهمة الجليلة.

٣- حينما اختلف الرهط القرشيون في كلمة (التابوت) أكتبونها (التابوت) بآلاء أم (التابوه) بالهاء رفعوا خلافهم إلى عثمان فقال أكتبوه (التابوت) فإنه نزل بلسان قريش^(٤).

(١) مقدمتان في علوم القرآن -مقدمة كتاب المباني: (٤٦) وانظر تفسير القرطبي: (٥٤/١) .

(٢) فتح الباري: (١٣٩/٨) .

(٣) نفسه: (٣٥/٩) . وسيأتي الكلام وافيأ على هذا الحديث إن شاء الله

(٤) فتح الباري: (٤٩٤/١٠).

عدّة المصاحف العثمانية:-

اختلف في عدد المصاحف التي نسخها عثمان رضي^(١) الله عنه على أقوال:

١- ذكر الإمام الزركشي أنها أربعة مصاحف بعث بها إلى الكوفة والبصرة والشام وترك واحداً عنده^(٢).

٢- وذكر أبو حاتم السجستاني أنها سبعة بعث بها إلى مكة، والشام، واليمن، والبحرين، والبصرة، والكوفة، وحبس واحداً في المدينة^(٣).

٣- وذكر ابن الجزري أنها ثمانية قال: "فكتب منها عدّة مصاحف -أي من مصحف حفصة- فوجّه بمصحف إلى البصرة، ومصحف إلى الكوفة، ومصحف إلى الشام، وترك مصحفاً بالمدينة، وأمسك لنفسه مصحفاً الذي يقال له الإمام، ووجه بمصحف إلى مكة، وبمصحف إلى اليمن، ومصحف إلى البحرين"^(٤).

والذي نراه أن الذي كتبه عثمان أكثر من أربعة يدلّ لذلك أولاً رواية البخاري عن أنس المذكورة^(٥) حيث جاء فيها أن عثمان أرسل إلى كل أفق بمصحف، وثانياً أن الهدف من نسخ المصاحف هو القضاء على الفتنة

(١) فتح الباري. (٣٩٥/١٠). (٢) البرهان للزركشي (٢٤٠/١).

(٣) البيان في مباحث في علوم القرآن -عبد المجيد غزلان- ٢٠٩.

(٤) النشر (٧/١).

(٥) صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن (١٩٠٨/٤).

والاختلاف وهذا لا يتأتى إلا ببعث مصحف إلى كل مصر من الأمصار التي كانت مفتوحة في ذلك الوقت.

وقد أرسل عثمان مع كل مصحف قارئاً يقرئ الناس؛ وذلك لأن المصاحف كانت خالية من النقط والشكل فقد تحتمل الكلمة أكثر من وجه، ولكي لا يقرأ كل كما يريد أرسل قارئاً مع كل مصحف يعلمهم كيفية قراءة القرآن.

رسم المصحف العثماني:

كُتِبَ المصحفُ العثمانيّ الذي أجمعت عليه الأمة بهجاء خاصّ وقواعد معينة سمّيت "بالرسم العثماني" نسبة إلى الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وقد ظلّ هذا الرسم سنّة متبّعة حتّى يومنا هذا، وقد ورد تحريم تغيير شيء من هجائه عن علماء كثيرين^(١).

والشيء الوحيد الذي تغيّر في المصاحف هو إحداث النقط وهو الإعجام. قال الداني: "قأول ما أحدثوا فيه النقط على الياء والتاء، وقالوا لا بأس به، هو نور له، ثم أحدثوا فيه نقطاً عند منتهى الآي، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم"^(٢). أمّا أول من نقط القرآن الكريم من التابعين فقد اختلف في تسميته، وقد ذُكر أنه أبو الأسود الدؤلي، وأنه فعل ذلك بعد اختلاط

(١) معجم القراءة: (٣٩/١)، وانظر: القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية للدكتور عبد

العال سالم مكرم: (ص ١٧ وما بعدها) .

(٢) المحكم في نقط المصاحف: (٢) .

العرب بالأعاجم خوفاً من فشوّ اللحن في تلاوة القرآن الكريم^(١). وسيأتي مبحث خاص نتحدّث فيه عن رسم المصحف إن شاء الله.

الموازنة بين جمع القرآن الكريم في العهود الثلاثة

من خلال عرضنا للمراحل التي مرّ بها توثيق نصّ القرآن الكريم، في العهود الثلاثة: عهد النبيّ (صلى الله عليه وسلم)، وعهد خلافة أبي بكر، وعهد خلافة عثمان (رضي الله عنهما) نخلص إلى المقارنة والموازنة بين جمع القرآن في تلك العهود، ونجملها بالأمور التالية^(٢).

- ١- تجرّد الكتابة من النقط والشكل مشترك بين العهود الثلاثة.
- ٢- جمع القرآن في مصحف واحد مشترك بين عهد أبي بكر وعهد عثمان (رضي الله عنهما).
- ٣- ترتيب الآيات في سورها مشترك بين العهود الثلاثة.
- ٤- ترتيب السور مشترك بين العهود الثلاثة.
- ٥- حمل الناس في كتابة القرآن الكريم وقراءته على حرف واحد مختص بعهد عثمان
- ٦- البحث عن الأشياء التي كتب فيها القرآن بين يدي النبي (صلى الله عليه وسلم) ومقابلتها بالمحفوظ عند الصحابة كان في جمع أبي بكر.
- ٧- تفرّق الأشياء المكتوبة وعدم اجتماعها في موضع واحد كان في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم).

(١) المصدر نفسه: (٤-٣).

(٢) انظر كتاب البيان في مباحث من علوم القرآن: (٢١١ وما بعدها).

٨- الدّاعي إلى جمع القرآن الكريم في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بمعنى تدوينه وكتابته -مع كونه محفوظاً- كمالُ العناية بالقرآن واتخاذ كل وسيلة ممكنة لحفظه وصيانتته من أن يضيع منه شيء أو يغيّر منه لفظ، والدّاعي إلى جمعه في وعهد أبي بكر جمع الأشياء المتفرقة التي كتب عليها القرآن في مصحف واحد، أمّا الداعي إلى جمعه في عهد عثمان فالقضاء على الفتنة التي اشتعلت بين المسلمين بسبب قراءة القرآن الكريم على أوجه مختلفة وصيانة القرآن من المراء فيه والكفر به.

شبهات المستشرقين حول عثمان رضي الله عنه:

أثار المستشرق بلاشير شبهتين على كتابة المصحف في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه:

١- ما وصف به إحراق المصاحف بأنّه "تدبير كاد يكون هتْكاً للقدسيّات" ^(١) ونكتفي للردّ عليه بقول عليّ بن أبي طالب الذي ذكرناه سابقاً: "يا معشر الناس، اتقوا الله عزّ وجلّ، وإياكم والغلوّ في عثمان، وقولكم حرّق المصاحف، فوالله ما حرّقها إلّا عن ملامنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم" ^(٢).

٢- التشكيك في نيّة عثمان في جمع القرآن، إذ عزا بلاشير جمعه للقرآن إلى نزعه الأرستقراطية وأيدّ فكرته باختيار عثمان لجنة قرشيّة لجمع

(١) القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته، وتأثيره لبلاشير (٢٠١).

(٢) مقدمتان في علوم القرآن -مقدمة كتاب المباني (٤٦).

المصحف مكوّنة من عبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، إضافةً إلى صحابي واحد فقط من الأنصار هو زيد بن ثابت. وقد وصف بلاشير أعضاء اللجنة الثلاثة القرشيين بالأرستقراطية أيضاً، وزعم أن مصالِح مشتركة جمعت بينهم وبين عثمان، حيث إن هذه النزعة الأرستقراطية جعلتهم لا يتقبّلون أن يجمع القرآن وينسخ في غير مكّة، وادّعى بلاشير أن زيد بن ثابت كان يوافق القرشيين الثلاثة ويتملّقهم^(١). يردّ الدكتور صبحي الصالح على دعوى بلاشير بقوله: "وهذا الكلام -لتهافته وتناقضه- يكذب آخره أوله. فحسبنا هذا التكلف في إشراك زيد المدني في خطة المكيين الثلاثة دليلاً على فساد هذا الاستنتاج الذي لا يستند إلى عقل ولا نقل"^(٢).

ثم إن رواية البخاري التي سقناها عن مقدم حذيفة بن اليمان وإخباره عثمان بمخاوفه لكثرة اختلاف المسلمين في القراءة -تدلّ بوضوح على الباعث الحقيقي لكتابة القرآن الكريم في عهد عثمان (رضي الله عنه). بقيت قضية لا بدّ من الإشارة إليها نختم بها هذا المبحث: قد يتساءل بعض الناس: لماذا لم يشرك عثمانُ عبدَ الله بن مسعود رضي الله عنهما في كتابة القرآن الكريم؟ فلقد أثارها بعض الحاقدين من المحدثين ومن قبلهم بعض أصحاب الأهواء حيث ادّعوا أن ابن مسعود رضي

(١) مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح: (ص ٧٩، هامش ٧٩-٨٠).

(٢) المرجع نفسه: (ص ٨٠).

الله عنه اضطهد من قبل عثمان واعتُدي عليه وهي فريئة يكذبها التاريخ والواقع.

والإجابة عن التساؤل السابق هي أن عبدالله بن مسعود حين كتب عثمان المصاحف لم يكن في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام بل كان في الكوفة. وقد يُقال: فلم لم يشركه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في جمع القرآن في عهد أبي بكر؟

ونجيب عن ذلك أولاً: لقد عرفنا من قبل سبب اختيار زيد رضي الله عنه لهذه المهمة فهو شاب جلد كان يكتب الوحي للنبي عليه وآله الصلاة والسلام، لكن ابن مسعود رضي الله عنه لم يكن كذلك، بل كان ضعيف البنية رقيق الجسم وهذا أمر ثابت فحين سُئل رضي الله عنه عن قلة صومه تنفلاً قال إن الصوم يضعفه عن تلاوة القرآن الكريم، وحين رآه الصحابة وهو يتسلق شجرة وضحكوا من دقة ساقيه قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أتضحكون من دقة ساقيه؟ والله لهما أثقل عند الله من جبل أحد"^(١). وقد علمنا أن كثيراً من الصحابة رضوان الله عليهم كان له شرف الإسهام في هذا الجمع في عهد أبي بكر، وما إخال ابن مسعود رضي الله عنه إلا كان واحداً من أولئك.

إن جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه وقى الله به المسلمين فتنة لو قدر الله لها -لا سمح الله- أن تكون لعصفت بهذه الأمة عصفاً لم يدع لها ما تركز إليه وتعتمد عليه في شؤون دنياها وآخرتها، وسيظل الإسلام والمسلمون يعترفون بالفضل والتقدير العظيمين لعثمان رضي الله عنه. جزى الله سيدنا عثمان على ما قدم للمسلمين أفضل الجزاء.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤٢٠/١).

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الثامن

أسباب النزول

ونتحدث فيه عن :

أسباب النزول

تنبيهات

تعريف سبب النزول

ما يؤخذ به التعريف

قوائد معرفة أسباب النزول

ايتعدد السبب و يتعدد النازل ؟

طريقة معرفة سبب النزول

روايات أسباب النزول

القول بتعدد النزول

دراسة للآيات التي قيل إنها نزلت مرتين

دعائم القبول لأسباب النزول

٢ - مخالفة السياق

هل يمكن سبب نزول لبعض آية؟

العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب

أسباب الخلاف

الحداثة وأسباب النزول

الفصل الثامن

أسباب النزول

إذا كانت مباحث علوم القرآن ذات شأن خطير فإن أسباب النزول من أهم هذه المباحث، بل هي أهمها على الإطلاق؛ ذلك لأن هذا المبحث قد حف بكثير من الشبهات والشوائب التي حاول كثير من خصوم الإسلام قديماً وحديثاً أن يصوبوا منها إلى نحر الشريعة سموم سهامهم، وأهم الثغرات التي حاول المستغلون الدخول منها:-

أولاً: عدم توثيق الأسانيد؛ أي عدم تمحيص الروايات الواردة.

ثانياً: إنعدام الدراسة النقدية لهذه الروايات غالباً، فدراسة سبب

النزول بحاجة ماسة إلى التحقيق رواية ودراية.

ثالثاً: إهمال سياق الآيات عند ذكر سبب النزول

رابعاً: المبالغة في البحث عن أسباب نزول آيات لا تحتاج إلى سبب،

لأنها من الأمور العامة؛ وهذه القضية يجدها القاريء في كثير من كتب التفسير، أو كتب أسباب النزول، عند الحديث عن المؤمنين أو الكافرين أو اليوم الآخر.

لهذه الأمور وغيرها كان المبحث بحاجة ماسة إلى دراسة هادئة، هادفة متأنية، وأذكر أنني درّست هذه المادة لطلاب الدراسات العليا في صيف عام سبعة وثمانين وتسعمائة وألف، وقد كنت أنبه على كثير من قضايا مباحث علوم القرآن، وبخاصة أسباب النزول، حيث لقي هذا المبحث عناية خاصة، وأذكر أننا قمنا بدراسة نقدية لكثير مما كتب في هذا المبحث، ورغبت إلى

الطلاب أن يُسجل هذا الموضوع رسالة ماجستير، وجاعني أحد الطلاب -عبد الرحيم أبو علبة- رغباً تسجيل هذا الموضوع لينال به رسالة الماجستير، شريطة أن أشرف عليه، ووافقت على ذلك، ووضعنا الخطة، وطلبت منه أن يصوغها صياغة جيدة، واتفقنا أن نلتقي في الغد^(١)، ولكنني في الغد فوجئت بأمر غريب، فقد قيل لي: إن الطالب طلب تغيير المشرف، وسألت: تغيير المشرف وتغيير الموضوع؟، فقلت: لا، تغيير المشرف فقط. وكان ممكناً أن أصر على تغيير الموضوع كذلك، لكنني لم أفعل، ولم أدرك السر الذي من أجله فعل هذا الطالب ما فعل.

وفي سنة ١٩٨٩م درست المادة نفسها فكان الطلاب يقولون: إن ما تدرسه لنا نجده كله في رسالة عبد الرحيم أبي علبة الموجودة في مكتبة الجامعة العامة وهنا أدركت السر الذي من أجله طلب الطالب تغيير المشرف، ومضت الأيام؛ وذات يوم قرأت في إحدى الصحف المحلية مقالاً للدكتور جمال أبي حسان، وكان ممن حضروا تدريس المادة مع عبد الرحيم أبي علبة، تحدث فيه عن السرقات العلمية، وعرض فيه للجريمة الشنعاء التي اقترفها ذلك الطالب العاق، الذي لم يرع حقاً للأمانة العلمية، وعدى واعتدى.

هذا وقد اشتملت مقالة الدكتور أبي حسان على كثير من الفوائد اقتطف منها ما يتصل بموضوعنا. يقول....

قد يقرأ المرء فيما يقرأ نماذج من التجني ربما لم يقصد أصحابها أن تكون كذلك، ولكن ورودها على هيئة معينة جعل المطلع عليها يصنفها في ذلك الصنف من المواقف.

(١) لا يقصد بالغد اليوم الذي بعد اليوم.

وقد تمر بالمرء أحياناً بعض المواقف، أو قد يعاصر ويعايش بعض الناس، بعضاً من المواقف فيراها أمام ما وضعت له في غاية التجنّي... وهذه بعض الصور وبعض المواقف التي تحزّ الفؤاد وتؤلّم النفس، وتمزّق السكون، قصدت بها اطلاع القراء عليها ليعلموا أن الانصاف خير وسيلة للنهوض الفكري والثقافي...

".... وتمضي بنا الأيام إلى صيف عام ١٩٨٧م، حيث كنا على مقاعد الدراسة نستمع إلى محاضرات مولانا الأستاذ فضل عباس في إحدى مواد التخصص، فأخذت هذه المحاضرات بمجامعنا جميعاً، لكون ما كان يطرح فيها يكاد يكون جديداً كل الجدة، مما حفّز أحد الطلبة أن يكتب موضوعه رسالته العلمية في بعض مما أفاد من استاذنا، فماذا فعل؟ اجتث تلك الأفكار من تلك المحاضرات وأقام عليها بحثه العلمي من أوله إلى آخره ولم يذكر استاذنا الفاضل فضل عباس بكلمة فضل واحدة، بل أهمل حتى أن يشير إلى إشارة ولو من طرف خفي أنه أفاد من الأستاذ.

ثم ماذا؟ ودارت الأيام فإذا بصاحبي ينشر كتابه على الملأ، ويكتب في طالعته ما نصه: "إن كتابي هذا لا يغني عنه كتاب، ويغني عن كل ما سبقه في موضوعه! ودارت رأسي ألماً وأسفاً وحسرة على هذا الكلام ومنه، وأخذت أسأل نفسي: ماذا لو كانت الأفكار والآراء التي كتبها صاحبي في كتابه هي من نتاج تفكيره وحده؟ ربما كتب أن هذا أندلس الأفكار، وفلسطين المعاني، وجماع العروبة!!

فإلى متى نتعامى عن حقوق الآخرين ونسرق أفكارهم، ونقيم بها

قصوراً، ومصانع من الأفكار إلى متى؟ لا أدري، والجواب عند القاري^(١). وهذا شأنه في الرسالة كلها، فهو يسرق أقوال العلماء وينسبها إليه فيها هو عند قوله سبحانه «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا» وقد ذكر السيوطي أنها نزلت في شأن عثمان بن مظعون -رضي الله عنه- يقول هذا الطالب: "بعد التحقيق ثبت أنه قدامة بن مظعون وليس عثمان". وأعجب كيف تناسى وتجاهل قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، المتشيع بما لم يعط كلابس ثوبي زور^(٢). وهذه قضية أشار إليها الشيخ أبو شهبه في كتابه علوم القرآن فيبين أن عثمان بن مظعون كان من أول الذين انتقلوا إلى رحمة الله من المهاجرين، حيث توفي بعد غزوة بدر، ولكن الشيخ أبا شهبه - رحمه الله - كان أميناً كل الأمانة، حيث نسب هذه الفائدة إلى شيخه الشنقيطي - رحمه الله - فلينظر طلاب العلم إلى هذه المفارقات.... عبد الرحيم أبو علبة يجعل هذه القضية من تحقيقه، وكان الأجدر بطالب العلم أن يرجع الفضل إلى نويه.

وما كنا نظن أن مثل هذا سوء، وهذا الجحود، وهذه الخيانة، وهذا النكران الجميل يصدر من طالب ينتسب إلى الشريعة والإسلام، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) جريدة السبيل الأردنية - العدد الرابع والثمانون، السنة الثانية - الثلاثاء ٢٠-٢٦ حزيران

١٩٩٥م ص ٢٣.

(٢) هذا الحديث أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب المتشيع بما لم ينل رقم ١٠٦ حديث رقم ٥٢١٩.

وفضلاً على ما في الرسالة من غرور وعجب وادعاء مثل قوله: إن هذا الكتاب -يعني رسالته- يغني عن كل كتاب ولا يغني عنه كتاب، وهذه العبارة لا يقولها من يحترم نفسه، ويحترم غيره، ويقدر العلم والعلماء، وها هم أئمتنا على ما لهم من فضل ما كانوا ومعاذ الله، أن يصدر عنهم ما هو دون هذا القول. أقول فضلاً على ما في الرسالة من هذا الغرور الذي لا يرضي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم- ولا يرضي ذوي العلم والعقل والحق- فإن فيها من الأخطاء العلمية الفاحشة والافتراءات والجرأة على تبني قول لا يصلح أو نفي قول يكاد يكون مجمعاً عليه، أقول: إن فيها ما لا يجب السكوت عليه بل يجب التنبيه عليه حتى لا يخدع طلاب العلم وغيرهم بهذه الأقوال، ظناً منهم أنها رسالة علمية، وكل ما فيها ينبغي أن يكون صواباً، وسأنبه على كثير من الأمور الخطيرة المفتراة:

فعند حديثه عن فوائد أسباب النزول يخلط خلطاً عجيباً حين يدعي أن بيان حكمة التشريع لا يصلح أن يكون فائدةً من فوائد أسباب النزول وإن العلماء الذين ذكروا هذه الفائدة لم يمثلوا لها أي مثال. (ص ٦٥) ويعلم الله أن هذا تجنٌ سيء، فالمسلمون يجمعون على أن بيان حكمة التشريع من فوائد أسباب النزول، وقد ذكروا لذلك أمثلة كثيرة^(١)، ولعل عذر الذين لم يذكروا أمثلة كون القضية بديهية.

ويدعي أن ما نقله العلماء عن الشافعي- رضي الله عنه- أن من الفوائد دفع توهم الحصر غير صحيح، ويشكك في ثبوت هذا عن الشافعي،

(١) يراجع كتاب الشيخ عبد الوهاب غزوان رحمه الله.

ويقول: إن ثبت فلقد عارضه كثير من العلماء، وإن مثلاً واحداً لا يصلح لأن يكون سبب نزول، ورن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة، وهذه كلها أخطاء متراكمة، فهذا القول ثابت عن الشافعي في رسالته، لم يعارضه أحد من العلماء، والمثال الواحد يكفي أن يكون سبب نزول، وسورة الأنعام لم يثبت أنها نزلت جملة واحدة.

وكثيراً ما يخلط ويخطئ، حينما يعجز عن فهم أقوال العلماء، فيدعي أن هذه الأقوال لا صلة لها بمبحث أسباب النزول، بل من أصول الفقه وغيره من العلوم والأئمة من هذا تجنياته وافترائه على أئمتنا الذين أجمعت الدنيا على جلالته، ووصفهم أوصافاً يخجل المستشرقون والمستغربون من ذكرها.

بل أقول بما لا يجوز، فهو يصف الإمام الواحدي المفسر بالجهل صراحة، والإمام الطبري بالكذب، ولم يسلم منه الحافظ ابن حجر، ولا السيوطي، رحم الله أئمتنا جميعاً.

وأخطاء الرسالة كثيرة لا يمكننا استقصاؤها، ولعلي أبين؟ فيما بعد- إن شاء الله- بعضها مما تدعو الحاجة إليه.

وبعد هذه الملاحظات الكثيرة التي سجلتها على هذه الرسالة اطلعت على رسالة الدكتور عبد الحكيم الأنيس- جزاه الله خيراً- وهي تحقيق لكتاب الحافظ ابن حجر رحمه الله في أسباب النزول نال بها الطالب شهادة الدكتوراه، ووجدت أنه قد اطلع على رسالة أبي علبه وعلق عليها في مواضع متعددة، ووجدت أننا اتفقنا على كثير منها وسأذكر لك أيها القارئ الكريم بعض هذه المآخذ التي ذكرها الدكتور عبد الحكيم الأنيس.

ففي أول تعليقاته على الرسالة قال:

٢٦- عبد الرحيم فارس أبو علبة في كتابه أسباب نزول القرآن: دراسة وتحليل.... وعلى هذا الكتاب مؤاخذات كثيرة سأعرض لبعض منها في مناسباتها ولكن يتأكد عليّ هنا أن أذكر أمراً خطيراً جداً وقع فيه المؤلف وهو تكذيب الإمام شيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري وهو شيء لا يسكت عليه وإن لم تكن له مناسبة ظاهرة- ذلك أن الطبري يروي في تفسيره عن محمد بن سعد ونصه "حدثني محمد بن سعد، قال: حدثني أبي قال: حدثني عمي قال: حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس" وهذا السند كثير الدوران في التفسير والمقصود بالأب الأعلى، عطية العوفي، وقد صرح ابن حجر باسمه في جميع المواضع التي نقل فيها روايته وعلى هذا فمحمد بن سعد شيخ الطبري من ذريته -عطية العوفي- وقد ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال، وقال: محمد بن سعد بن محمد بن حسن بن عطية العوفي، قال الخطيب "كان ليناً في الحديث وروى الحاكم عن الدار قطني أنه لا بأس به توفي سنة ٢٧٦". ولكن الباحث أبا علبة جعل محمد بن سعد هذا هو صاحب الطبقات كاتب الواقدي وقال عنه وهو يناقش روايته توفي سنة ٢٣٠هـ وولد الطبري سنة ٢٢٤ "أي أن عمر الطبري كان ست سنوات ولم يكن قد وعى وخرج من بلده أمل بطبرستان حتى يتم لقاء بينهما فيحدثه ولذلك ترد هذه الرواية، وأعاد هذا في موضع آخر^(١)، وقال إن الطبري لم يأخذ عن محمد بن

(١) أسباب النزول لأبي علبة ص ١٥٢.

سعد وهو صاحب كتاب الطبقات... الخ.

وهذا أمر في غاية الإستغراب ولا أدري كيف فات اللجنة التي ناقشته وكان على الباحث أن يتأني كثيراً قبل أن يصدر حكمه القاضي بتكذيب هذا الإمام الذي ينص على السماع من محمد بن سعد هذا بصيغة خاصة وهي (حدثني) وهو بهذا يهدم الثقة بالتفسير كله، لاحتمال أن يكون الطبري قد استعمل هذه الصيغة في شيوخ آخرين لم يدركهم ولم يحدثوه^(١).

وأقول: أي خطر بل أي ضرر سيحل بالعلم والعلماء حينما يقرأ هذه الرسالة، جاهل أو حاقّد، وما أكثر هذين الصنفين، إنه سيطير بمثل هذا القول في الأفاق، فرحاً بطراً بما ذكره صاحب الرسالة من أن أئمة المسلمين كذابون، وبخاصة حينما يكون هذا في رسالة علمية أجيّزت. فليتنبه المشرفون على الرسائل في كلية الشريعة لمثل هذه المخاطر.

٢- ينكر الكاتب ما كاد يجمع عليه العلماء من أن قوله سبحانه « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله » نزلت في صهيب رضي الله عنه، مدعياً أن صهيباً هاجر قبل النبي صلى الله عليه وسلم، ولم تكن سورة البقرة قد نزلت^(٢)، يقول الدكتور عبد الحكيم جزاه الله خيراً: وقد رجعت إلى ترجمته في الإصابة وإذا فيه^(٣) هاجر إلى المدينة مع علي بن أبي طالب في

(١) الدكتور عبد الحكيم الأنيس ص ٦١-٦٢.

(٢) أبو علبه ص ١٢١-٢٢١.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة (١٩٥/٢).

آخر من هاجر في تلك السنة، فقدا في نصف ربيع الأول "وهذا يرد قول أبي علبه" (١).

٣- عند قول الله "لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا" ينكر أن يكون لها سبب نزول، مع أن السبب ثابت في الصحيحين (٢).

إن أمر هذا الكاتب لعجيب، إنه يجد لذته وسروره بتخطئة الأئمة، ولا أدري لم ؟.

إن المستشرقين والمستغربين يحاولون أن يلبسوا أقوالهم ثوباً علمياً، وأن يضعوا عليه بعض الجدة، ولعلّ لهم العذر في هذا، فهم ليسوا من جلدتنا.

أمّا الكاتبُ صاحبُ رسالة أسباب النزول " فإنه يلقي ما يليه دون أن يرجع مرة واحدة. استمع إليه وهو يحاول تخطئة الإمامين الجليلين الزركشي والسيوطي -رحمهما الله- .

ففي "بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز" يقول الكاتب: إن صاحب البرهان نسبها لابن دقيق العيد، ولكن صاحب الإتيان نسبها لأبي الفتح القشيري، وكأنما يستنكر كيف نسب كل من هذين الإمامين هذه العبارة لرجل أو لإمام وليته تأنى ويحث من قبل أن ينال من الأئمة. يقول الدكتور عبد الحكيم أنيس:-(٣).

(١) ص ٢٨.

(٢) كتاب أبي علبه ص ١٩٨-٢٠٤ . (٣) رسالة الدكتور عبد الحكيم ص ٥٨٦.

نقل الباحث أبو علبة في كتابه اسباب النزول^(١) "هذا القول ثم علق بأن الزركشي نسبته إلى أبي الفتح القشيري وأن السيوطي نسبته إلى ابن دقيق العيد، ولم يعرف أنهما واحد فابن دقيق العيد يكتن بأبي الفتح".
ومثل هذا كثير في الرسالة يصعب أن نكتبه كله. ولعل ما كتب يكفي للتحذير من هذه الرسالة التي لا تخلو صفحاتها من مثالب ومصائب بعيدة عن روح الأمانة العلمية. والخلق العلمي. فإننا لله وإننا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد طبعت الرسالة فيما بعد، ووجدت أن محاضراتي كلها التي نسبها الطالب زوراً إلى نفسه مبنوثة في ثنايا الرسالة، اللهم إلا ما لم يفهمه، فقد أغرب فيه وأساء، وإنما قلت هذا لأحذر طلاب العلم من أن يسلكوا هذا المسلك، ومن أن يقرأوا هذه الرسالة التي لم يسيء صاحبها إليّ فحسب، في سرقة واعتدائه، بل أساء إلى كثير من أئمتنا، فهو يتهم الإمام الواحدي المفسر الذي يرجع إليه أكثر المفسرين فيقبسون منه، يتهم بالجهل ويتهم الطبري بالكذب، ولم يسلم من أذاه كثير من العلماء والأئمة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أسباب النزول:

إن مبحث أسباب النزول ذو خطر حقاً، وخطره ليس فيما كتبه الأقدمون فحسب، بل فيما عرض إليه المحدثون من العلمانيين، ودعاة الحداثة مما ستعرفه فيما بعد.

وفي هذا المبحث نتحدث -إن شاء الله - عما يلي:-

١- تعريف أسباب النزول.

٢- فوائد سبب النزول.

٣- روايات سبب النزول.

٤- صور السبب والنازل.

٥- دراسة تطبيقية لبعض الروايات وبعض السور.

٦- العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب ؟

٧- أسباب النزول والحداثيون

ولا يفوتنا قبل أن نحدثك عن سبب النزول، أن نبين لك أن كثيراً من الأئمة -يرحمهم الله- افردوا هذا الموضوع لأهميته بالتأليف. قال السيوطي-رحمه الله-: أفردته بالتصنيف جماعة، أقدمهم علي بن المديني شيخ البخاري، ومن أشهرها كتاب الواحدي على ما فيه من إعران، وقد اختصره الجعبري فحذف أسانيده، ولم يزد عليه شيئاً، وألف فيه شيخ الإسلام أبو الفضل ابن حجر كتاباً مات عنه مسوياً، فلم نقف عليه كاملاً، وقد ألفت فيه كتاباً حافلاً موجزاً محرراً لم يؤلف مثله في هذا النوع سميته لباب النقول في أسباب النزول^(١).

وإن هذه الكتب الثلاث، أعني كتاب الواحدي، وابن حجر -كتاب العجائب-، والسيوطي هي لب ما كتب في هذا الموضوع، لكن كتاب ابن حجر،

(١) الإتيان في علوم القرآن (١٠٧/١).

لم يتمه صاحبه -رحمه الله- وقد حقق في رسالة دكتوراة حققه الدكتور عبد الحكيم الأنيس من جامعة بغداد.

أما كتاب السيوطي؛ فإنه وإن كان أكثر جمعاً من كتاب الواحدي، فإنه اقتصر فيه المؤلف على ذكر الروايات بلا أسانيد، بينما كتاب الواحدي ذكر الروايات بأسانيدها، والعلماء يعتمدون كتاب الواحدي ويرون أنه خير الكتب وأشهرها في هذا المعنى.

فإن الواحدي جمع ما لا يقل عن (٨٥٨) آية ما بين مصرح بها ومشار إليها؛ (٣٤,٩٧٪) منها مكية = (٣٠٠ آية)، مقابل (٦٥,٠٣٪) منها مدنية (٥٥٨) آية، وذلك في (٨٢) سورة ٣٠٪ منها مدنية، أي (٢٥) سورة، مقابل (٦٩٪) أي (٥٧ سورة).

أما السيوطي فقد أورد في كتابه ما لا يقل عن (٩٥٤) آية تصريحاً أو إشارة، بنسبة (٤١,٩٣٪) أي (٤٠٠) آية مكية مقابل (٥٨,٠٧٪) منها مدنية (٥٥٤) آية وذلك في (١٠٢) من السور القرآنية (٨٩,٤٧٪)، (٧٣,٥٣٪) منها مكية أي (٧٥) سورة مقابل (٢٦,٤٧٪) منها مدنية أي (٢٧) آية.

تنبيهات:

وبعد استعراض هذه الكتب نجد الحقائق التالية:-
أولاً: إن عبارة سبب النزول "لم تكن معلومة في عهد الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم، فلم نجد رواية من الروايات عن الصحابة، قال فيها سبب نزول هذه الآية كذا. كما تشعر عبارات بعض الكاتبين رحمهم الله^(١).

(١) راجع البيان في مباحث من علوم القرآن / الشيخ عبد المجيد غزلان ص ٩٣.

ثانياً: إن أسباب النزول للصور والآيات المدنية، كان أكثر مما جاء للآيات والصور المكية.

ثالثاً: إن جُلَّ روايات أسباب النزول منقولة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

رابعاً: إن بعض هذه الأحاديث غير ثابتة رواية، أي غير صحيحة سنداً.
خامساً: إن كثيراً من هذه الروايات لا يصح دراية؛ إما لأنه مخالف لبعض أصول الدين وقواعده، وإما لأنه يتعارض مع السياق تعارضاً تاماً.
سادساً: إن هناك روايات مشتهرة لا تصح، فيجب ردها وعدم التسامح في روايتها، والتنبية عليها.

سابعاً: إن هناك روايات صحيحة نازع فيها بعض العلماء مع أنها لا تختلف مع الأصول ولا مع السياق. وهذا إجمال، وأرجو أن يأتيك تفصيله إن شاء الله.

تعريف سبب النزول:

فإذا تأقت نفسك بعد هذا فاعلم نفعتني الله وإياك بأن سبب النزول: - ما نزلت الآية أو الآيات أيام وقوعه متضمنة له أو مبينة لحكمه.

ما يؤخذ به التعريف:

ويحسن أن نقف معاً عند هذا التعريف: فقولنا ما نزلت الآية أو الآيات أيام وقوعه نفهم منه أن أحداث أسباب النزول هي ما كانت في عهد سيدنا رسول الله، عليه وآله الصلاة والسلام، أما الأحداث التي كانت قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو تلك التي ستكون بعد عهد النبوة فلا تعد

من أسباب النزول، فلقد حدثنا القرآن الكريم عن أصحاب الفيل، وأصحاب الكهف، وعن أصحاب مدين، وعن أصحاب القرية التي جاءها المرسلون «واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية..»^(١) فهذه الأحداث وغيرها التي نزلت فيها أي القرآن الكريم، لا نستطيع أن نسميها أسباب نزول لأنها كانت قبل عهد النبوة، وعلى هذا لا يمكن أن يقال: إن سبب نزول قوله تعالى «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل»^(٢)، كان غزو أبرهة للكعبة، كما لا يمكن أن يقال: إن قوله «واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان»^(٣) سببه ما افتراه اليهود واختلقوه على سليمان عليه الصلاة والسلام في شأن ملكه. كما لا يقال بأن سبب نزول قوله «أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم»^(٤) هو ما كان من هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى، وأن سبب نزول «وهل أتاك نبأ الخصم...»^(٥) ما كان من الملكين اللذين دخلا على سيدنا داود ففزع منهم .

سبب النزول -إن- ما كان الحدث فيه نابعاً من البيئة والزمان اللذين وقع فيهما الحدث.

بيان ذلك:- اختلف المسلمون في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، في موقفهم من المنافقين فنزل قول الله تبارك وتعالى «فما لكم في المنافقين فئتين...»^(٦).

(١) يس: آية (١٣). (٢) الفيل: آية (١). (٣) البقرة: آية (١٠٢).

(٤) الكهف: آية (٩). (٥) ص: آية (٢١).

(٦) النساء: آية (٨٨) والحديث أخرجه البخاري (٤٥٨٩) كتاب التفسير، سورة النساء .

وأساء بعض المسلمين في صلاته قبل أن يحرم الخمر، فنزل قول الله سبحانه «يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى»^(١). وسأل بعض الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الهلال، ما باله يبدو صغيراً ثم يكبر ثم يصغر كما بدأ، فنزل قوله تعالى «يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج»^(٢). وكان بعض المؤمنين يستغفرون لموتاهم من المشركين فنزل قوله تعالى «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم من أصحاب الجحيم»^(٣). «وما كان استغفار إبراهيم لأبيه»^(٤). «إن إبراهيم لأواه حليم»^(٥).

وحدث أن بعض المسلمين وقد كانوا في سرية قتلوا بعض المشركين في أول شهر رجب، وهو من الأشهر الحرم، ولم يكونوا يعرفون دخول هذا الشهر فعاب المشركون هذا العمل لأنه كان في الشهر الحرام فنزل قول الله «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه»^(٦) وتحرج المسلمون عن مخالطة

(١) النساء: آية (٤٣). والحديث أخرجه الترمذي (٢٣٨/٥) كتاب تفسير القرآن سورة النساء وأبو داود (٣٢٥/٣) كتاب الأشربة، وإسناده صحيح.

(٢) البقرة: آية (١٨٩). والحديث أخرجه ابن جرير (١٠٨/٢) عن قتادة مرسلاً، وسنده صحيح [محقق أسباب النزول للواحدي (٤٢٥٣)].

(٣) التوبة: آية (١١٣). والحديث أخرجه الترمذي (٢٨١/٧) كتاب تفسير القرآن وقال: حديث حسن والنسائي (٩١/٤).

(٤) التوبة: آية (١١٤). (٥) التوبة: آية (١١٤).

(٦) البقرة: آية (٢١٧) والحديث أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٢/٢) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٨/٦) رواه الطبراني ورجاله ثقات.

اليتامى فنزل قوله تعالى: «يسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم»^(١).

هذه الأحداث التي نزلت الآيات من أجلها هي التي تسمى أسباب النزول، وتلاحظ من الآيات الكريمة السابقة، أن سبب النزول ليس بالضرورة أن يكون سؤالاً مذكوراً في الآية الكريمة فقد يكون، ويمكن أن لا يكون، قد يكون في مثل قوله «يسألونك عن الأهله»^(٢)، «يسألونك عن الشهر الحرام»^(٣). «يسألونك عن اليتامى»^(٤)، ويمكن أن لا يكون كالأيات المتقدمة.

هذا معنى قولهم ما نزلت الآية أو الآيات أيام وقوعه، أما قولهم متضمنة له أو مبينة لحكمه فمعناه أن سبب النزول قد تكون الآية الكريمة متضمنة له، كالسؤال عن الأهله وذوي القرنين، أو عن أهل الكهف، أو مبينة لحكمه كالسؤال عن الشهر الحرام، والخمر والميسر، أو المحيض، فإن الآيات الكريمة متضمنة لهذه الأمور، ومعنى هذا أن سبب النزول قد يكون حكماً معيناً، وقد يكون حادثة ما، أي قد يكون حكماً شرعياً، وقد يكون سؤالاً عن شخص معين، أو بياناً لحدث معين.

وندرك من تعريف سبب النزول، أن القرآن الكريم منه ما نزل ابتداءً

(٢) البقرة: آية (٢٢٠). والحديث أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره.

(٣) البقرة: آية (١٨٩).

(٤) البقرة: آية (٢١٧).

(٥) البقرة: آية (٢٢٠).

يبين للناس ما فيه خيرهم وسعادتهم، إما بالحث على عمل خير كالجهاد والإصلاح بين الناس، وإما لبيان حكم كالصيام والحج والزكاة، وإما للحث على فضيلة خلقية أو تقرير قاعدة عقدية، أو ترغيباً بخير يؤدي إلى الجنة، أو ترهيباً من شر يؤدي إلى النار، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه القرآن من أنواع الخير، وهذا هو الأكثر أي الذي نزل ابتداءً.

ومنه ما نزل لسبب معين، واجابة عن سؤال سواء أكان هذا السؤال مذكوراً في الآية الكريمة أم لم يكن.

فوائد معرفة أسباب النزول:-

إذا أردنا أن نعرف خطر هذا المبحث، وما له من قيمة، وما يرتبط به من أمور وفوائد، فإليك هذه الحادثة التي نرجو أن تكون لنا مدخلاً. قال الإمام الشاطبي:-

روى أبو عبيد عن إبراهيم التيمي، قال: خلا عمر ذات يوم فجعل يحدث نفسه: كيف تختلف هذه الأمة؛ ونبينا واحد، وقبيلتها واحدة؟ فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيما نزل؛ وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرأون القرآن ولا يدرون فيما نزل؛ فيكون لهم فيه رأي، فإن كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا. قال: فزجره عمر وانتهره، فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال فعرفه، فأرسل إليه، فقال: أعد علي ما قلت: فأعاده عليه فعرف عمر قوله وأعجبه^(١).

تلکم هي نظرة الأجلة من علماء الصحابة لأسباب النزول، لا عجب-إن- أن يفصل العلماء القول فيها، باحثين عن فوائدها، وسأحاول نقل الفوائد كما ذكرها الأئمة بإيجاز ميسر:-

الفائدة الأولى: تجلية حكمة التشريع وتوضيحها، فهي تتعمق في أنفس الناس، ذلکم أن حكمة التشريع وإن كانت تعرف من العمل بما في الآيات الكريمة من أحكام، لكن معرفة السبب تجلي هذه الحكمة مما يزيد النفوس طمأنينة والقلوب تثبيتاً وهذا كثير في كتاب الله تبارك وتعالى، ألم

(١) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن ص ٤٥، قال محققه الشيخ وهبي

غواجي الألباني ورواه البيهقي والخطيب، أنظر الجامع الكبير للسيوطي. دار الكتب العلمية -

بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٩١م.

تر إلى نزول قوله سبحانه وتعالى «يوصيكم الله في أولادكم»^(١). حيث كانت أول آية في كتاب الله تقرر قلوب المؤمنين لتبين لهم أن أحكامهم في الميراث جائزة ظالمة، وقد أن لهم أن يقلعوا عن هذا الجور، ويورثوا النساء والصغار. ولقد كان سبب نزول الآية أن امرأة الشهيد المؤمن سعد بن الربيع جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم، بابنتين لها، فقالت: يا رسول الله هاتان بنتا سعد بن الربيع، قتل معك يوم أحد، وقد استفتاء عمهما مالهما وميراثهما، فلم يدع لهما مالا إلا أخذه، فما ترى يا رسول الله؟ فوالله ما ينكحان أبداً إلا ولهما مال، فقال: يقضي الله في ذلك، فنزلت سورة النساء «يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين» فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: أدع لي المرأة وصاحبها فقال لعمهما: أعطهما الثلثين وأعط أمهما الثمن وما بقي فلك.^(٢)

كذلك قول الله تبارك وتعالى «بسم الله الرحمن الرحيم، يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن»^(٣). فإن نزولها كان سببه ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه طلق امرأته وهي حائض، فذكر عمر لرسول الله صلى الله

(١) النساء: آية (١١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد [الفتح الرباني (١٩٥/١٥)]، والحاكم في المستدرک (٢٣٤/٤) وصححه وأخرجه الترمذي (٢٠٩٣) وأبو داود في سننه (٣١٤/٣)، رقم الحديث: (٢٧٢٠). وإسناده قوي وحسنه الترمذي.

(٣) الطلاق: آية (١).

عليه وسلم، فتغيب فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: "ليراجعها ثم يمسخها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها طاهراً قبل أن يمسخها فتلك العدة كما أمره الله" (١).

وكذلك قوله سبحانه «إذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف» (٢). فإن سبب نزولها ما جاء عن معقل بن يسار رضي الله عنه أنها نزلت فيه، قال: كنت زوجت أختاً لي من رجل فطلقها، حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها، فقلت له: زوجتك وافرشتك وأكرمتك فطلقتها ثم جئت تخطبها لا والله لا تعود لها أبداً، قال كان رجلاً لا بأس به وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه فأنزل الله عز وجل هذه الآية، فقلت: الآن افعل يا رسول الله فزوجتها إياه (٣).

وكذلك قوله سبحانه «فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة» (٤). فقد جاء في السنة عن عبدالله بن معقل قال: قعدت إلى كعب بن عجرة في هذا المسجد- يعني مسجد الكوفة- فسألته عن (فدية من صيام) فقال: حُمِلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم والقمل يتناثر

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة الطلاق حديث رقم ٤٦٢٥ (٤/١٨٦٤).

(٢) البقرة: آية (٢٣٢).

(٣) أخرجه البخاري كتاب التفسير/ سورة البقرة، باب وإذا طلقتم النساء... الخ رقم ٤٢ حديث

٤٥٢٩.

(٤) البقرة: آية (١٩٦).

على وجهي فقال: ما كنت أرى أن الجهد قد بلغ بك هذا. أما تجد شاة؟ قلت: لا، قال صم ثلاث أيام، أو اطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام واحلق رأسك، فنزلت في خاصة وهي لكم عامة^(١).

كذلك قوله «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر»^(٢). فعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: أتيت على نفر من المهاجرين والأنصار، فقالوا: نطعمك ونسقيك خمراً، وذلك قبل أن يحرم الخمر، فأتيتهم في حش، والحش: البستان وإذا رأس جزور مشوي عندهم ودن من خمر، فاكلت وشربت معهم، وذكرت الأنصار والمهاجرين، فقلت: المهاجرون خير من الأنصار فأخذ رجل أحد لحبي الرأس فضرمني به، فجدع أنفي، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فأنزل الله في شأن الخمر^(٣). وهذا كثير في كتاب الله تعالى، وأرجو أن يكون ما ذكرته فيه الغنية والكفاية.

إن معرفة السبب لنزول هذه الآيات الكريمة وغيرها، فضلاً على أنه يطلعنا على كيفية التدرج في الأحكام، وتوخي العدالة في هذه الأحكام، وعلى الحيف والخطأ والاعوجاج الذي كان في المجتمعات الجاهلية قبل الإسلام، فإنه يثبت هذه القيم، فتزداد القلوب بها إيماناً والنفوس لها تقبلاً.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير/ البقرة/ باب «فمن كان منكم مريضاً» رقم ٢٤ حديث (٤٢٤٥).

(٢) المائدة: آية (٩٠).

(٣) أخرجه الإمام مسلم (١٨٧٨/٤) حديث رقم ١٤/١٧٤.

الفائدة الثانية: فهم الآية وإزالة ما يبدو من اشكالات ظاهراً عند بعض الناس، لذلك نص كثير من الأئمة الأعلام -رحمهم الله- على أن سبب النزول يعين كثيراً على فهم الآية فهماً صحيحاً، وعلى أن بعض الآيات لا يمكن فهمها إلا إذا علم السبب الذي نزلت من أجله، ولذا قال الواحدي "لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها" ^(١).

وقال ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن، وقال ابن تيمية ^(٢): معرفة سبب النزول معين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالسبب. من ذلك:

١- قوله سبحانه «إن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما، ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم» ^(٣).

لقد خفي معنى هذه الآية الكريمة على عالم من علماء التابعين، هو عروة بن الزبير رضي الله عنهما، حيث روت كتب السنة عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قلت لعائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وأنا يومئذ حديث السن: أرايت قول الله تبارك وتعالى «إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما» فما أرى على أحد شيئاً أن لا يطوف بهما؟ فقالت عائشة: كلا، لو كانت كما تقول، كانت: فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، إنما انزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا يهلون لمناة.

(٢) البقرة: آية (١٥٨).

(١) اسباب النزول -الواحدي- (ص ٨).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٣٩/١٣).

وكانت مناة حذو قُديد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فأنزل الله: «إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما»^(١).

فأنتم ترون أن معرفة السبب الذي ذكرته السيدة عائشة، قأبانت فيه عن فقه وفهم في لغة القرآن الكريم، أزال هذا الاشكال الذي وجده عروة رضي الله عنه في نفسه، حيث بينت له أن الآية الكريمة إنما جاءت لتطيب نفوس المسلمين الذين خشوا أن يكون في السعي بين الصفا والمروة ماثم فأرادوا أن يتورعوا عنه، لذا نجد الفقهاء اختلفوا في حكم السعي بين الصفا والمروة فذهب بعضهم إلى أنه ركن ومنهم الشافعية والحنابلة، وذهب آخرون إلى أنه واجب.... الخ .

والآية الكريمة ليست دليلاً لهؤلاء أو أولئك، لأنها جاءت على سبب خاص.

٢- ومن ذلك قوله سبحانه «والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله»^(٢) حيث بينت الآية الكريمة أن الجهات كلها سواء، فقد يشكل على بعض الناس فهم هذه الآية الكريمة، فيظن أن التوجه للقبلة غير واجب، ولا

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير/سورة البقرة، باب قوله «إن الصفا والمروة.... فإن الله

شاكر عليم، رقم الباب ٢٣، رقم الحديث ٤٢٢٥ (١٦٣٥/٤).

(٢) البقرة: آية (١١٥).

بد هنا من كلمة، وهي أن التوجه إلى القبلة قد نزلت فيه آيات بعد هذه الآية الكريمة، لذا اختلف العلماء في معنى الآية وذلك لاختلافهم في سبب النزول. فذهب بعضهم إلى أن الآية تتحدث عن صلاة النافلة في السفر، حيث يجوز للمتفل على راحلته أن يصلي إلى أي جهة، حتى لا يشق عليه التوجه إلى جهة معينة ورأى بعضهم أن الآية تتحدث عن الدعاء. والروايات التي وردت في هذه ضعيفة.

وقد ورد كلام عن الإمام الشافعي جدير بالتأمل، حريٌّ بالقبول، قال رحمه الله:-

أنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم فرض القبلة بمكة، فكان يصلي في ناحية تستقبل منها البيت الحرام وبيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة، استقبل بيت المقدس، مولياً عن البيت الحرام ستة عشر شهراً، وهو يحب لو قضى الله إليه باستقبال البيت الحرام، لأن فيه مقام أبيه إبراهيم وإسماعيل وهو المثابة للناس والأمن، وإليه الحج؛ وهو المأمور به أن يطهر للطائفين والعاكفين والركع السجود مع كراهية رسول الله صلى الله عليه وسلم لما وافق اليهود، فقال لجبريل عليه السلام "لوددت أن ربي صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها" فأنزل الله «ولله المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثم وجه الله»^(١).

يعني -والله أعلم- فثم الوجه الذي وجهكم الله إليه، فقال جبريل عليه

(١) البقرة: آية (١١٥).

السلام للنبي صلى الله عليه وسلم: يا محمد: أنا عبدٌ مأمورٌ مثلك، لا أملك شيئاً، فسل الله، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم ربه: أن يوجهه إلى البيت الحرام^(١).

٢- قال سبحانه «واللأني يؤسن من الحيض من نسائك إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر»^(٢) فقد أشكل فهم الآية الكريمة على بعضهم، وإنما دخل هذا الإشكال من قوله سبحانه «إن ارتبتم» فقالوا إن عدة اليائسة من الحيض هي ثلاثة أشهر في حال الارتياح، فمنطوق الآية عدة اليائسة من الحيض ثلاثة أشهر إن كان هناك ارتياح، فيكون مفهومها- إذن- إن لم يكن ارتياح فلا عدة لها، وهذه العدة عدة الطلاق بالطبع، وليست عدة الوفاة.

والمعلوم أن عدة الطلاق أمر لا بد منه إذا وجد الدخول، أما عدة الوفاة فلا بد منه وجد الدخول أم لم يوجد فمعرفة سبب نزول الآية يعيننا على فهمها الفهم الدقيق الذي لا معدل عنه.

عن أبي عثمان عمرو بن سالم قال: لما نزلت عدة النساء في سورة البقرة في المطلقة والمتوفى عنها زوجها، قال: أبي بن كعب يا رسول الله: إن نساء من أهل المدينة يقلن: قد بقي من النساء من لم يذكر فيها شيء، قال: وما هو؟ قال: الصغار والكبار وذوات الحمل فنزلت^(٣).

٤- قوله سبحانه «لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب»^(٤).

(١) أحكام القرآن/ الشافعي (٦٤/١).

(٢) الطلاق آية (٤).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٩٢/٢)- الواحدي في أسباب النزول ص ٤٣٧.

(٤) آل عمران آية (١٨٨).

جاء في صحيح البخاري أن مروان قال لبوابه: إذهب يا رافع إلى ابن عباس، فقل: لئن كان كل امرئ فرح بما أُوتى، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبين أجمعين، فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه، إنما دعا النبي صلى الله عليه وسلم يهود فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أُتوا من كلماتهم. ثم قرأ ابن عباس: «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أُوتوا الكتاب- كذلك، حتى قوله يفرحون بما أُتوا ويحبون أن يحموا بما لم يفعلوا»^(١).
ونقول هنا:-

أولاً: المتأمل في جواب ابن عباس رضي الله عنهما، يدرك اعتماده رضي الله عنه على السياق؛ إذ صحة الرواية مع فهم السياق دعامتان لا بد منهما لصحة سبب النزول، فقد ربط هذه الآية بما قبلها، وهي قوله سبحانه «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أُوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه، فنبدوه وراء ظهورهم...»^(٢).

وإن أكثر ما وقع الخطأ فيه في أسباب النزول إهمال السياق، ولخطر هذه القضية، سأخصها إن شاء الله بمبحث خاص بها.

ثانياً: فهم كثير من الناس من ظاهر قول ابن عباس رضي الله عنهما

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير/ آل عمران- باب «لا تحسبن الذين يفرحون بما أُتوا» رقم

٧٤ حديث ٤٢٩٢ (٤/١٦٦٥).

(٢) آل عمران آية (١٨٧) .

أن هذه الآية خاصة بيهود، وأنها لا تنطبق على غيرهم إن فرحوا بما أتوا، وأحبوا أن يحمدا بما لم يفعلوا، وهذا الفهم يفتح أبواباً خطيرة لا تتفق مع جوهر الإسلام صفاء ونقاء، فلقد ذم الله تبارك وتعالى كما ذم نبيه صلى الله عليه وسلم الرياء وما يتصل به، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم "المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور"^(١).

ثالثاً: فسر الزركشي والسيوطي-رحمهما الله تعالى- كلام ابن عباس بأنه عام أريد به الخصوص، ومثلوا له بتفسير النبي صلى الله عليه وسلم "الظلم بالشرك" قال صاحب الإتيقان:-

"فإن قلت: فهذا ابن عباس، لم يعتبر عموم «لا تحسبن الذين يفرحون...» الآية، بل قصرها على ما أنزلت عليه من قصة أهل الكتاب" قلت: أجيب عن ذلك بأنه لا يخفى عليه أن اللفظ أعم من السبب، لكنه بين أن المراد باللفظ خاص ونظيره تفسير النبي صلى الله عليه وسلم الظلم في قوله «ولم يلبسوا إيمانهم بظلم»^(٢). بالشرك من قوله «إن الشرك لظلم عظيم»^(٣) مع فهم الصحابة العموم في كل ظلم^(٤).

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح باب رقم ١٠٦ ومسلم، كتاب اللباس رقم ١٢٦ و١٢٧.

(٢) الأنعام آية (٨٢) .

(٣) لقمان: آية (١٣) . والحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير/ سورة الأنعام- باب «ولم

يلبسوا إيمانهم بظلم» رقم ١٢٦، حديث ٤٥٥٣

(٤) الإتيقان (١١١/١) .

وقول السيوطي -رحمه الله- ومن قبله الزركشي لا يحل الإشكال في هذه القضية، وليس فيه إجابة مقنعة، وقوله إنه عام أريد به الخصوص، وتمثيله ذلك بتفسير النبي صلى الله عليه وسلم الظلم بالشرك غير مسلم؛ ذلك لأن الظلم يصدق على الشرك وعلى غيره مما هو دونه، وهذا مفهوم قرآني، والنبي عليه وآله الصلاة والسلام، حينما خفي هذا الأمر على الصحابة رضوان الله عليهم "وقد سمعوا قوله تعالى «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم» فقالوا أينما لم يظلم نفسه، فأرشدهم إلى الآية الكريمة، «وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم»^(١) فتفسير النبي صلى الله عليه وسلم يرجع إلى القرآن الكريم نفسه، لكن ما نحن بصدده يختلف عن ذلك كثيراً؛ إذ المتحدث عنه في الآية جاء بصيغة الاسم الموصول -وهو كما نعلم- اسم مبهم تعيينه صلته، فإذا تحققت صلة الموصول كان حتماً علينا أن لا نعدل عن العموم؛ وخير ما نستدل به ونرشدك إليه ضريعات هذه الآية الكريمة وشببها في السورة الكريمة نفسها. قال تعالى «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء»^(٢)، وقال تعالى «ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم»^(٣)، وقال «ولا يحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله، هو خيراً لهم، بل هو شرٌّ لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة»^(٤).

(٢) آل عمران: آية (١٦٩) .

(١) لقمان: آية (١٣) .

(٤) آل عمران: آية (١٨٠) .

(٣) آل عمران: آية (١٧٨) .

هذه الآيات الكريمة وإن كان لكل منها سببه الخاص، لكننا لا يجوز أن نقول: إنه عام أريد به الخصوص، وعلى هذا، فهذه الآية الكريمة من العام الذي أريد به العموم، فهي وإن نزلت في يهود، فإنها تعم كذلك بوعيدها كل من كان على شاكلتهم، وهذا الذي ينبغي أن نفهم عليه كلام الحبر رضي الله عنه.

وعلى هذا يكون مروان قد جهل سبب النزول، فظن أن كل من فرح بما أتى، وأحب أن يحمد يعذب عذاباً أليماً، وفي هذا من المشقة ما فيه؛ لأن طبيعة الإنسان مجبولة على الفرح وحب الحمد، فبين له عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، أن معنى الآية ليس كما فهمه، إنما أنزلت في يهود حينما كتموا ما عندهم، وهذا يدينهم، وقد سألوا عنه النبي عليه وآله الصلاة والسلام.

خلاصة القول إن الآية الكريمة عامة في مفهومها ومعناها، قال الشيخ عبد/المجيد غزلان-رحمه الله-

"أقول كلام ابن عباس وإن كان ظاهراً في تخصيص الآية بمن نزلت فيهم من اليهود، حيث قال لرسول مروان: ما لكم ولهذه إنما دعا النبي صلى الله عليه وسلم يهوداً فسألهم عن شيء الخ.... إلا أنه يمكن تأويله بما يخرج عن هذا الظاهر بأن يكون مراده أنها نزلت في هؤلاء اليهود لارتكابهم هذا الكذب الشنيع وفرحهم به، فلا تتناول من يفرح بما أتى من خير كما فهمتم وإنما يتناول من يفرح بالشر كما وقع من اليهود، وبذلك تكون عامة في كل من وقع في مثل ما وقع فيه اليهود من فعل الشر، وإيهام فعل الخير والفرح بذلك" (١).

(١) البيان في مباحث من علوم القرآن ص ١٠٣ .

هـ - قوله سبحانه «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا»^(١).

قالوا سبب نزول هذه الآية ما جاء من أن بعض الصحابة رضوان الله عليهم سألوا بعد ما حرمت الخمر، عن مصير أولئك الذين كانوا يشربونها وماتوا قبل أن تحرّم، ونذكر هنا رواية البخاري. عن أنس قال: كنت ساقى القوم في منزل أبي طلحة، فنزل تحريم الخمر، فأمر منادياً فنادى، فقال أبو طلحة أخرج فانظر هذا الصوت؟ قال فخرجت: فقلت هذا منادياً ينادي: ألا أن الخمر قد حرمت فقال لي: اذهب فأهرقها، قال: فخرجت فأهرقتها في سكك المدينة، قال: وكان خمرهم يومئذ الفضيخ، فقال بعض القوم: قتل قوم وهي في بطونهم، قال: فأنزل الله: «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا»^(٢).

قال الزركشي في البرهان، ومن بعده السيوطي في الإتقان، ونقل عنهما جلّ المؤلفين في علوم القرآن إن سبب نزول هذه الآية خفي على عثمان ابن مظعون وعمرو بن معديكرب، فكانا يقولان: الخمر مباحة، ويحتجان بقوله «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا»^(٣)، ولو علما

(١) المائدة: آية (٩٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير/ سورة المائدة، باب «ليس على الذين آمنوا وعملوا

الصالحات جناح فيما طعموا»، رقم الحديث ٤٣٤٤، (١٣٦٨٩/٤).

(٣) المائدة: آية (٩٣).

سبب نزولها لم يقولوا ذلك، وهو أن ناساً قالوا لما حرمت الخمر: كيف بمن قتلوا في سبيل الله وماتوا وكانوا يشربون الخمر وهي رجس فنزلت^(١) ولا بد لنا من وقفات عند هذه الآية الكريمة:

أولاً: إن ما نقل عن هذين الصحابييين بحاجة إلى مناقشة، فعثمان بن مظعون رضي الله عنه، هو أول من توفي من المهاجرين في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم، حيث توفي بعد أن شهد بدرًا، ولم تكن الخمر قد حرمت، بل إن صاحب المنار - رحمه الله - نقل عن ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت في البقرة «يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس»^(٢). شربها قوم لقوله «منافع للناس»، وتركها قوم لقوله «إثم كبير» منهم عثمان بن مظعون^(٣).

والصحيح الذي لا عدول عنه أن المعني قدامة بن مظعون وليس عثمان، ولقد جاء في مصنف عبد الرزاق في حديث طويل، يبين أن قدامة بن مظعون شرب الخمر، وقامت عليه الشهادة، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إني حادك، فقال: لو شربت كما يقولون ما كان لكم أن تجلدوني، فقال عمر: لم؟ قال قدامة: قال تعالى «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناحٌ فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا» فقال عمر: أخطأت التأويل، إنك إذا اتقيت

(١) البرهان في علوم القرآن (٢٨/١)، الإتيان (١٠٨/١).

(٢) البقرة: آية (٢١٩).

(٣) المنار (٥١/٧).

اجتنبت ما حرم الله عليك^(١) وأما عمرو بن معدي كرب فلم يرد في ترجمته شيء مما ذكروه عنه.

ثانياً: إن ما ذكره أنس-رضي الله عنه- يحتمل أن يكون سبب نزول، وأن لا يكون كذلك، وسنزيد هذه القضية إيضاحاً-إن شاء الله- عند حديثنا عن قول الصحابي في صيغة سبب النزول.

ثالثاً: جاء في تفسير المنار، ذكر سبب آخر لنزول الآية الكريمة، وهو أن هذه الآية الكريمة نزلت فيمن كانوا يشددون على أنفسهم في المأكول والمشرب، ولكن الروايات الماثورة على السبب الأول^(٢).

وأقول: إن لسياق الآيات دوراً كبيراً، وشأناً مهماً في الحكم على سبب النزول، وهذه الآية الكريمة، «ليس على الذين آمنوا....» جاءت ضمن آيات سياقها واحد تبتدىء بقول الله تبارك وتعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون»^(٣).

وبعد الآية التي نتحدث عنها، جاء قول الله «يا أيها الذين آمنوا ليلبسونكم الله بشيء من الصيد»^(٤)، إلى قوله تعالى «أحل لكم صيد البحر» وقد جاءت آية تحريم الخمر^(٥) ضمن هذه الآيات الكريمة.

(١) مصنف عبد الرزاق (٢٤٢/٩).

(٢) تفسير المنار (٦٩/٧).

(٣) المائدة آية (٨٧، ٨٨).

(٤) المائدة آية (٩٤).

(٥) المائدة آية (٩٦).

وعلى هذا، فإن هناك احتمالاً قوياً أن تكون الآية الكريمة جاءت تبين أن المؤمن لا يأثم فيما طعم من الطيبات المباحة له، سواء أكانت من الصيد أم من غيره.

رابعاً: ومما يستأنس به لما قلنا أن الآية الكريمة جاءت عقب قوله «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا»^(١)، فطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فيما أمر به من أكل الطيبات، والتحذير من معصية الله ورسوله فيما نهى عنه من تحريم الخمر وما يتصل به.

خامساً: إن تدبر الآية الكريمة يؤكد في نفوس المتدبرين أنها بعيدة من أن يظن بها إباحة الخمر، فضلاً على أن تكون حجة في هذا والمقطوع به، من أن الصحابة رضوان الله عليهم، لما نزلت هاتان الآيتان تحرمان الخمر أهرقها الصحابة وسالت في شوارع المدينة المنورة، فالقول باستباحتها وبخاصة من بعض الصحابة يصعب تقبله.

٦- قال الله تعالى «قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس، أو فسقاً أهلّ لغير الله به»^(٢).

هذه الآية الكريمة تبين المحرمات من المطعومات، وهي هذه الأربعة: الميتة والدم ولحم الخنزير فهذه الثلاثة رجس، أما الرابع فهو ما أهلّ لغير الله،

(١) المائدة آية (٩٢) .

(٢) الأنعام آية (١٤٥) .

وهو ما كانوا يذبحونه لأصنامهم وقد سماه القرآن فسقاً، وهذا معنى قوله «فإنه رجس، أو فسقاً أهلٌ لغير الله به» فكلمة رجس جاءت مرفوعة خبر إن، أما كلمة (فسقاً) فجاءت منصوبة، فإن معنى الآية: إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإن هذه الثلاثة رجس، أو أن يكون فسقاً أهلٌ لغير الله به.

وقد ذهب بعض الأئمة إلى أن المحرمات محصورة في هذه الأربع، لكن هناك محرمات غيرها كالحمر الأهلية، وكل ذي مخلب من الطيور وكل ذي ناب من السباع، فكيف نجمع بين ما جاء في هذه الآية من حصر التحريم في هذه الأربعة. وبين ما ورد في نصوصٍ حديثيةٍ أخرى صحيحة.

إن معرفة سبب النزول تحل لنا هذا الإشكال، وهذا ما فطن إليه الإمام الشافعي؛ فقد قال عندما سئل عن معنى الآية: معناها: قل لأجد فيما أوحى إليّ محرماً مما كنتم تأكلون إلا أن يكون ميتة وما ذكر بعده، فأما ما تركتم أنكم لم تعدوه من الطيبات فلم يحرم عليكم مما كنتم تستحلّون إلا ما سمى الله، ودأت السنة على أنه حرم عليكم مما كنتم تحرّمون لقول الله «يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث»^(١) ^(٢).

وقال الإمام الجويني: قال رضي الله عنه: كان الكفار يحلّون الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به، وكانوا يتخرجون عن كثير من

(١) الأعراف: آية (١٥٧) .

(٢) الرسالة ص ٢٣١ .

المباحات في الشرع فكانت سجيتهم تخالف وضع الشرع وتحاده، فنزلت هذه الآية مسبقة الورود بذكر سجيتهم في البحيرة والسائبة والوصيلة والحام والموقوذة وأكيلة السبع، وكان الغرض منها استبانة كونهم على مضادة الحق، ومحادة الصدق، حتى كأنه قال: لا حرام إلا ما أحللتموه، والغرض الرد عليهم. ولولا سبق الشافعي إلى ذلك، وإلا لما كنا نستجيز مخالفة مالك في مصيره إلى حصر المحرمات في ما ذكر الله في هذه الآيات^(١).

الفائدة الثالثة: وهي وما بعدها متصلتان بمبحث هو في حقيقته من مباحث أصول الفقه، وقد عرض له بعض الكاتبين في علوم القرآن بإيجاز، وكان من الممكن أن يستغنى عنه، وهذا المبحث هو: العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟ وعموم اللفظ ما دلّ عليه النص، وخصوص السبب الحدث الذي نزل من أجله النص ومثال ذلك:-

آيات الظهار التي جاءت في أول سورة المجادلة، فلقد ذكرت الروايات أن هذه الآيات نزلت في خولة زوج أوس بن الصامت-رضي الله عنهما- أنأخذ بعموم اللفظ في قوله «الذين يظاهرون منكم من نسائهم»^(٢)، فتشمل الآية الكريمة المظاهرين في كل زمان ومكان، وفي كل عصر ومصر، أم نقول: الآية محصورة فيمن جاءت الآية من أجله!

ذهب جمهور العلماء إلى الأول، بأن العبرة بعموم اللفظ، وهذا اللفظ

(١) البرهان في أصول الفقه/ إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف (٢٧٣/١).

(٢) المجادلة: آية (٢) .

يشتمل من ظاهر ومن لم يظهر، وقال بعضهم إن العبرة بخصوص السبب،
فالحكم مقصور على من نزلت الآية في شأنه، أما غيره فإنما يدخل بالقياس،
فهو يدخل تبعاً لا أصالة، ولعلي -إن شاء الله- أعرض لهذا الموضوع فيما
بعد. أما ما يعيننا الآن فهو ذكر ما بقي من فوائد أسباب النزول.

الفائدة الثالثة عند من يرى أن العبرة بعموم اللفظ، والفائدة الرابعة
عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب وإليك بيان هذا بايجاز:

الفائدة الرابعة: امتناع خروج صورة السبب من النص العام
اجتهاداً، عند من يرون أن العبرة بعموم اللفظ، فقول الله تبارك وتعالى
«والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما»^(١)، نزل في شخص معين، فإذا عرفنا
هذا؛ فإنه يمتنع أن تخرج هذا السبب من الآية الكريمة بحجة أن اللفظ عام
وأن العام يدخله التخصيص، وهذا التخصيص قد يكون بالتقل وقد يكون
بالعقل، وإذا ثبت هذا وهو أن العام يمكن أن يخصص، وإن المخصص قد
يكون عقلياً أو غيره إذا ثبت هذا أمكن أن يقال: إن قوله «والسارق
والسارقة» لفظ عام يمكن أن يخصص، فلا يشمل هذا الحكم فلاناً من الناس،
لكن إذا عرفنا أن فلاناً هذا هو الذي نزلت من أجله الآية امتنع إخراجها من
هذا اللفظ العام.

كذلك قوله سبحانه «الذين يظاهرون منكم من نسائهم»^(٢). هذا لفظ عام
يمكن أن يدخله التخصيص، وعلى هذا يمكن أن يقال إن هذه الآية لا تشمل
خولة وزوجها^(٣) لكننا نقول: هذا غير ممكن لأن سبب نزول الآية خولة وزوجها.

(١) المائدة آية (٢٨) . (٢) المائدة آية (٢) .

(٣) حديث خولة أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٦/٦) والحاكم في المستدرک (٤٨١/٢) وقال

صحيح الإسناد وأقره الذهبي.

خلاصة هذه الفائدة أنه إذا كانت العبرة بعموم اللفظ، والعام يخصص، يمكن أن يكون التخصيص بأي حادثة ما، فإذا عرفنا سبب النزول امتنع أن نخرجه من هذا النص العام.

الفائدة الخامسة: وهي عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب وخلاصة هذه الفائدة، فإننا إذا عرفنا السبب الخاص الذي جاء من أجله اللفظ العام، إننا نخصص هذا العام، كي يقتصر على هذا السبب الخاص، وقوله تعالى «الذين يظاهرون منكم من نسائهم» لفظ عام، لكن السبب الذي ورد من أجله وهو خولة وزوجها، سبب خاص. وإذا علم هذا فإن قوله سبحانه «الذين يظاهرون» لا ينبغي أن يبقى على عمومته، بل ينبغي أن يخصص، فيصير هذا القول الكريم خاصاً بخولة وزوجها ولا يتعدى غيرهما إلا بالقياس.

معنى هذه الفائدة-إذن- أننا إذا عرفنا السبب، جعلناه مخصصاً باللفظ العام.

وهاتان الفائدتان ذكرهما علماء الأصول، وبسطوا القول فيهما، وتوسعوا في الشرح، ونقلهما عنهم الكاتبون في علوم القرآن الكريم، من غير أن يمثلوا لهما بشيء، أما علماء الأصول، فإنك تجد في كتبهم مباحث ناقشوا فيها هذه القضية، وكان نقاشهم لا يستند إلى القرآن الكريم بقدر ما يستند إلى السنة الشريفة، وإنك لتجد كتباً خاصة في هذا المبحث فعلماء أصول الفقه يستندون إلى السنة المطهرة ومواقف الأئمة المجتهدين في فهمها ومن هنا نرى أن هاتين الفائدتين في كتب علوم القرآن الكريم غير واضحتين، وكان حقهما أن تبينا أو أن لا تنقلا، ولعلي أستطيع أن أبين لك أيها القارئ

الكريم ما يُسهّل عليك بعض الفهم إن شاء الله. ولأتيك بمثالين كريمين أحدهما من الكتاب الكريم والآخر من السنة المطهرة.

١- جاء في سورة النور آيتان كريمتان في شأن رمي المحصنات، إحداهما قوله «والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء... فإن الله غفور رحيم»^(١)، والآية الثانية قوله «إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم»^(٢).

فالآية الأولى بينت قبول توبة القاذف في قوله «إلا الذين تابوا» أما الآية الثانية فليس فيها شيء من هذا، فهل سبب نزول الآيتين شيء واحد، وهو قذف المحصنات، سواء أكنّ من أمهات المؤمنين أم من غيرهن، وعلى هذا تقبل توبة القاذف أي كانت المقتوفة وإن كانت من أمهات المؤمنين؟ أم أن الآية الأولى التي ذكر فيها قبول التوبة كانت لغير أمهات المؤمنين؟ وأن الآية الثانية خاصة بهن؟ الذين فسروا الآية هذا التفسير، قالوا إن الآية الثانية «إن الذين يرمون المحصنات الغافلات...» نزلت في شأن السيدة عائشة رضي الله عنها، أو غيرها من أمهات المؤمنين... ذهبوا إلى أن هذا السبب لا يجوز إخراجه بحيث تقبل توبة من قذف إحدى أمهات المؤمنين رضي الله عنهن؛ لأن دخول السبب قطعي، وإخراجه لا يجوز بالاجتهاد.

قبول التوبة- إذن- الذي جاء في الآية الأولى، لا يشمل الذين نزلت في شأنهم الآية الثانية، وهذا المثال يتم لو أن هناك إجماعاً على أن الآية

(٢) النور: آية (٢٣) .

(١) النور: آية (٤٠٣) .

الثانية كانت فيمن قذف أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، لكن كثيراً من المفسرين لا يرى هذا الرأي.

ثانياً: من السنة: سئل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوضوء من بئر بضاعة، وهي بئر كانت تلقى فيها القاذورات فأجازه^(١).

فلو أن حديثاً آخر جاء يتحدث عن نجاسة الماء، فإن هذا الحديث الآخر لا يشمل بئر بضاعة، لأن الحديث عن بئر بضاعة كان لسبب، قطعي، فلا يجوز إخراجها لورود حديث آخر يبين نجاسة الماء إذا أُلقي فيه خبث، ولعلك من هذين المثالين تتضح لك الصورة والله ولي التوفيق.

أيتعدد السبب ويتعدد النازل؟

هذه قضية جديرة أن تتنبه لها لما يتصل بها من قضايا ذات شأن وخطر، وقد ذكروا صوراً.

الصورة الأولى: أن يتعدد السبب والنازل واحد.

الصورة الثانية: أن يتعدد النازل والسبب واحد.

أما الصورة الأولى، فمن أمثلتها:-

١- ما جاء في قوله « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب »^(٢).

أ- فعن أبي سعيد الخدري أن رجلاً من المنافقين على عهد رسول الله

(١) الحديث أخرجه الترمذي/كتاب الطهارة-باب ما جاء أن الماء لا ينجسه شيء رقم ٤٩ (٧٠/١) وقال حديث حسن

(٢) آل عمران: آية (١٨٨) .

صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه، فإذا قدم اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدا بما لم يفعلوا فنزلت ^(١).

ب- وجاء في صحيح البخاري: أن مروان قال لبوابه: إذهب يا رافع إلى ابن عباس، فقل: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمدا بما لم يفعل معذباً، لنعذبن أجمعين، فقال ابن عباس ما لكم ولهذه، إنما دعا النبي صلى الله عليه وسلم يهود فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم. ثم قرأ ابن عباس «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب» كذلك. حتى قوله «يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا» ^(٢).

٢- ومنه ما جاء في قوله «وإن خفتن أن لا تقسطوا في اليتامى» ^(٣).

أ- فعن عائشة قالت: إن رجلاً كان له يتيمة فنكحها، وكان لها عذق وكان يمسكها عليه، ولم يكن له من نفسه شيء، فنزلت فيه «وإن خفتن أن لا تقسطوا في اليتامى» احسبه قال: كانت شريكته في العذق وفي ماله ^(٤).

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير- آل عمران- باب «لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا».

رقم ٧٤ حديث ٤٢٩١ (١٦٦٥/٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير- آل عمران- باب «لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا»، رقم ٧٤ حديث ٤٢٩٢ (١٦٦٥/٤).

(٣) النساء آية (٢) .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة النساء، باب «وإن خفتن أن لا تقسطوا في

اليتامى» رقم الباب ١ وأخرجه مسلم (٢٣١٤/٤) حديث (١٨: ٧٣) .

ب- وقال سعيد بن جبير وقتادة والربيع والضحاك والسدي: كانوا يتخرجون عن أموال اليتامى ويترخصون في النساء، ويتزوجون ما شاءوا، فريماً عدلوا وربما لم يعدلوا، فلما سألوا عن اليتامى، ونزلت آية اليتامى «وَأَتُوا اليتامى أموالهم»^(١)، أنزل الله تعالى أيضاً: «وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى» الآية، يقول: وكما خفتم ألا تقسطوا في اليتامى، فكذلك فخافوا في النساء أن لا تعدلوا فيهن، فلا تتزوجوا أكثر مما يمكنكم القيام بحقهن، لأن النساء كاليتامى في الضعف والعجز.^(٢)

٣- ومنه ما جاء في قوله تعالى «يوصيكم الله في أولادكم»^(٣).

أ- فعن جابر قال: عاذني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر في بني سلمة يمشيان، فوجدني لا أعقل، فدعا بماء فتوضأ ثم رش عليّ منه، فأفقت فقلت: كيف أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: يوصيكم الله في أولادكم.^(٤)

ب- وعن جابر بن عبد الله قال: جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنتين لها، فقالت: يا رسول الله هاتان بنتا ثابت بن قيس، أو قالت سعد بن الربيع، قتل معك يوم أحد، وقد استقفا عمهما مالهما وميراثهما، فلم يدع لهما مالاً إلا أخذه، فما ترى يا رسول الله؟ فوالله ما

(١) النساء: آية (٢).

(٢) أسباب النزول/ الواحدى ص ١٤٣، وجامع الطبري (١٥٧/٤).

(٣) النساء: آية (١).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التفسير/ سورة النساء. وأخرجه مسلم (١٢٣٤/٣)، حديث (١٦١٦).

ينكحان أبداً إلا ولهما مال، فقال: يقضي الله في ذلك فنزلت سورة النساء وفيها «يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين» إلى آخر الآية، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ادع لي المرأة وصاحبها فقال لعمهما: أعطهما الثلثين وأعط أمهما الثمن وما بقي فلك؟^(١)

٤- ومن ذلك ما جاء في السنة المطهرة في سبب نزول آيات اللعان:-

أ- عن سهل بن سعد أن عويمراً أتى عاصماً بن عدي، وكان سيد بني عجلان، فقال: كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقضه فتقتلونه أم كيف يصنع؟ سل لي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فأتى عاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها، قال عويمر: والله لا أنتهي حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فجاء عويمر فقال: يا رسول الله:

رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقضه فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبك، فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملاعنة بما سمي الله في كتابه فلاعنها، ثم قال: يا رسول الله إن حبستها فقد ظلمتها، فطلقها فكانت سنة لمن كان

(١) أخرجه الإمام أحمد [الفتح الرباني (١٩٥/١٥)، ح: ١٦، والحاكم في المستدرک (٢٢٤/٤)]

ومصححه. أسباب النزول للواحدي ص ١٤٥.

دهما في المتلاعتين»^(١).

ب- عن ابن عباس: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم "البينة أو في ظهرك" فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً، ينطلق يلتمس البينة، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "البينة وإلا حدّ في ظهرك" فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، فليُنزلن الله ما يبريء ظهري من الحد، فنزل جبريل وأنزل عليه «والذين يرمون أزواجهم- فقرأ حتى بلغ- إن كان من الصادقين» فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل إليها فجاء هلال فشهد، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله يعلم أن احكما كاذب فهل منكما تائب" ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا إنها موجبة، قال ابن عباس: فتلكأت ونكعت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم ومضت^(٢).

وهذه الصورة نرى أنها صورة طبيعية لا اعتراض عليها ولا إشكال فيها؛ ذلك لأن من الطبيعي في أي مجتمع أن تكون هناك أحداث معينة متشابهة، ولا مانع من أن تكون هذه الأحداث قد وقعت في وقت واحد، أو

(١) أخرجه الإمام البخاري/ كتاب التفسير -سورة النور- باب «الذين يرمون أزواجهم.. لمن الصادقين» رقم ٢٣٩، حديث ٤٤٦٨ (١٧٧١/٤).

(٢) أخرجه البخاري/ كتاب التفسير/سورة النور/باب «ويدرء عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين»، رقم الباب ٢٤١، حديث ٤٤٧٠ (١٧٧٢/٤).

أوقات متقاربة، وهذه الأحداث المتشابهة سيكون علاجها واحداً، حتى تكون قواعد الأحكام منضبطة ثابتة.

أما الصورة الثانية أن يتعدد النازل والسبب واحد، ولقد ذكر المفسرون والمؤلفون في علوم القرآن-رحمهم الله- هذه الصورة ينقلها المتأخر عن المتقدم. ابتداء من الزركشي والسيوطي-رحمهم الله- إلى عصرنا، ومثلوا لهذه الصورة بما جاء عن أم سلمة رضي الله عنها.

وهذا هو المثال في هذه الصورة الذي نقلوه عن السيوطي، ولكن السيوطي-رحمه الله- ذكر أكثر من مثال واحد، واقتصار شيوخنا-رحمهم الله- مثل الشيخ محمد سلامة في كتابه منهج الفرقان في علوم القرآن والشيخ غزلان على هذا المثال قد يكون للاختصار، وقد يكون لعدم اقتناعهم بما جاء في هذه الأمثلة، لكنهم وافقوا السيوطي-رحمهم الله-.

الذي أراه وأؤمن به عن قناعة أن مثل هذه الصورة لا وجود لها، بل هي تتنافى مع طبيعة القرآن الكريم وواقع الأحداث، ونحن نعلم أن القرآن الكريم يمتاز بالإيجاز والإحكام، فإذا وقع حدث معين، ونزلت فيه آية كريمة، فإن هذه الآية لا بد أن تكون كافية تامة مبينة بياناً شافياً لهذا الأمر الحادث، وليس هناك حاجة تدعو إلى نزول آيات ثانية، نعم إن كان السبب متشعب الجهات، فنزلت آيات تبين كل منها جهة من هذه الجهات، فهذا أمر مقبول، ولكن ليس مما ذكره شيء من هذا، فالسبب الواحد لا يحتاج إلى أكثر من نازل واحد، لأن هذه الآية ذات بيان لا تترك في النفوس ما يدعو إلى التساؤل عن هذا السبب الذي حدث.

وقد نتسائل نحن: إذا حدث في أيامنا شيء يدعو إلى التساؤل وسئل أحدنا وأجاب، أيرضى هو أم يرضي غيره أن يجيب بعد شهرين اجابة ثانية، وبعد سنة اجابة ثالثة عن هذا التساؤل، والإجابة الأولى كافية، فلماذا تكون الثانية والثالثة، ذلك أمرٌ ينبغي أن نجلّ القرآن الكريم عنه.

ثم إننا إذا درسنا الأمثلة التي ذكروها، فسنجد أن ما ذكروه غير مقنع، ولنأخذ ما ذكروه من سؤال أم سلمة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ تقول: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم، ما لنا لا نُذكر في القرآن كما يُذكر الرجال؟^(١)، فالآيات التي قيل إنها كانت اجابة على هذا التساؤل إحداها في سورة الأحزاب وهي قوله: «إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات»^(٢) وهذه الآية الكريمة جاءت في أثناء ذكر خبر النبي صلى الله عليه وسلم مع أزواجه «يا أيها النبي قل لأزواجك.... الخ»^(٣).

وقد ذكر بعد الآية «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم»^(٤). إذن ذكر النساء منسجم مع سياق الآيات والموضوع انسجاماً تاماً. والآية الثانية آية آل عمران «فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكرٍ أو أنثى بعضهم من بعض»^(٥) وقد جاءت

(١) أخرجه الطبري (٨٠/٢٢) والنسائي في تفسيره (١٦٩/٢) وفي إسناده مقال.

(٢) الأحزاب: آية (٣٥).

(٣) الأحزاب: آية (٢٨).

(٤) الأحزاب: آية (٣٦). (٥) آل عمران: آية (١٩٥).

آيات كثيرة في مثل هذا السياق، مثل «من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى»^(١) في سورة النحل وفي سورة غافر، وهي آية مكية، فكيف تقول أم سلمة إن الله لم يذكر النساء وقد ذكركن قبل الهجرة؟

وأما قوله «ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض»^(٢) فهي منسجمة مع سياق السورة كذلك، حيث ذكرت السورة أحكاماً كثيرة تتعلق بالنساء. ثم إن هذه الآيات التي ذكروها متباعدة في النزول.

كذلك ما ذكره السيوطي -رحمه الله- من أن قول الله سبحانه «يحلِفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم»^(٣) وإن قوله «يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم»^(٤) نواتا سبب واحد، قول لا نستطيع قبوله والاعتناع به، فحلف المنافقين للمؤمنين ورد في آيات كثيرة وسور متعددة، فلا يمكننا أن نقول إن هذه الآيات كلها ذات سبب واحد، مع ما بينها من تباعد زمني، وخبر المنافقين مع المؤمنين غير خفي، ثم هو بقي مدة الهجرة تقريباً، وكانت أخبارهم وأبناؤهم متجددة، وقوله سبحانه «يحلِفون بالله ما قالوا....» كانت في غزوة تبوك.

وأما قوله «يوم يبعثهم الله جميعاً....» فقد جاءت في سورة المجادلة

(١) النحل: آية (٩٧).

(٢) النساء: آية (٩٥).

(٣) التوبة: آية (٧٤).

(٤) المجادلة: آية (١٨).

«ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم»^(١) وقد ذكر في هذه
السورة الكريمة قوله «اتخذوا أيمانهم جنة»^(٢) أكثر من مرة، فالحادثان
مختلفتان وفي زمانين مختلفين.

إن تعدد النازل والسبب واحد من القضايا التي تستدعي انتباهنا ونحن
نكتب في هذا العلم العظيم وتتطلب منا الحيطة والحذر، والقرآن الكريم كتاب
الفصل والإحكام والبيان. إذا أجاب فإجابته القاطعة الجامعة المانعة، والله
أعلم بما ينزل.

ولنحدثك الآن-أخي القارئ- عن روايات أسباب النزول، وموقف العلماء منها،
سائلين الله تبارك وتعالى أن ييسر لنا الأمر ويسهل لنا ما يجب.

(١) المجادلة: آية (١٤).

(٢) المجادلة: آية (١٦).

طريق معرفة سبب النزول:

إن ما ذكرته لك مما كان بين عمر وابن عباس رضي الله عنهما^(١)، يدل بوجه قاطع على أنَّ معرفة سبب النزول طريقها النقل وحده، وأن الصحابة رضوان الله عليهم يبينون لنا هذه القضية، ولكنَّ ما ورد عن الصحابة جاءنا بصور متعددة، لذلك تحدث الكاتبون في علوم القرآن الكريم عن كيفية معرفة أسباب النزول، فقد يقول الصحابي: حدث كذا، أو حصل كذا، أو كان كذا، فنزلت الآية، ومثله أن يقول الصحابي: في نزلت هذه الآية.

أما إذا قال الصحابي: معنى هذه الآية كذا، أو مراد الله من هذه الآية كذا، فإنَّ مثل هذه العبارات وما يشبهها لا تدل يقيناً على سبب النزول.

لكنَّ العبارة التي تحتل سبب النزول وغيره، قول الصحابي: نزلت هذه الآية في كذا، فقد يكون هذا دالاً على سبب النزول، وقد يكون تفسيراً وتوضيحاً للآية الكريمة، وسنذكر لك بعض الأمثلة من ذلك آخر هذا الموضوع، من هنا حصل اللبس في كثير من هذه الأقوال، حيث عدّها بعض العلماء من أسباب النزول، وقد يكون اللبس ناتجاً عن شيء آخر، وهو أن يكون هناك حدث تحدث عنه بعض الصحابة رضوان الله عليهم قائلًا:

شهدت كذا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كذا فنزلت هذه الآية، فيظن كثيرون أن هذه الآية نزلت بسبب ذلك الحدث، أو إجابة عن هذا السؤال وقد يكون معنى قولهم: نزلت هذه الآية في فلان، رثها تتناول فعلته كما نقله الشيخ رشيد في المنار

(١) ص ٢٢٨.

عن ابن تيمية ^(١) من هنا كان هناك كثير من الإشكالات في تعيين سبب النزول وسأفصل لك القول في هذا عند حديثنا عن روايات سبب النزول.

ولكن الذي أود أن أنبهك عليه هنا أنه إذا قال الصحابي حدث كذا فنزلت كذا، فإن ذلك يعد من قبيل المرفوع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أما إذا قال نزلت هذه الآية في كذا كقولهم: إن آية الظهار نزلت في امرأة أوس بن الصامت، وإن آية اللعان نزلت في عويمر العجلاني أو هلال بن أمية، وإن آية الكلاله نزلت في جابر بن عبدالله، وإن قوله: «ومن يولهم يومئذ دبره» ^(٢) نزلت في بدر، وإن قوله: «شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت» ^(٣) نزلت في قضية تميم الداري وعدي بن بداء، وقول أبي أيوب إن قوله «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» ^(٤) "نزلت فينا معشر الأنصار" الحديث، ونظائر هذا كثير مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين أو في قوم من أهل الكتاب اليهود والنصارى أو قوم من المؤمنين ^(٥) ، فقد اختلفوا فيه، فالبخاري رحمه الله يعده من قبيل المرفوع، وغيره لا يعده كذلك.

وهذا الاختلاف ناشئ—كما قلت لك—من أنهم لشدة حيطتهم لم يعدوا هذا القول سبب نزول؛ ويشترطون لسبب النزول أن يذكر صراحة ^(٦).

(١) تفسير المنار (٥٩٢/٩) . (٢) الأنفال آية (١٦) . (٣) المائدة آية (١٠٦) .

(٤) البقرة: آية (١٩٥).

(٥) مجموعة فتاوى ابن تيمية (٣٣٨/١٣) .

(٦) مجموعة فتاوى ابن تيمية (٢٤٠/١٣) .

وقد تنازع العلماء في قول الصحابي: نزلت هذه الآية في كذا، هل يجري مجرى المسند كما يذكر السبب الذي أنزلت لأجله، أو مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند، قالبخاري يدخله في المسند، وغيره لا يدخله في المسند، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره، بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه، فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند^(١).

وعلى هذا فلا بد من الحيلة والتثبت، والروية والتأني للحكم على قول ما بأنه سبب نزول فإن كثيراً مما عدوه من أسباب النزول لا يصلح أن يكون كذلك.

وإن الصحابة أنفسهم -رضي الله عنهم- كانوا يحتاطون لهذا الأمر، فهذا هو الزبير -رحمه الله تعالى- حين خصم رجلاً من الأنصار في شريح من الحرّة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم، اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك، فقال الأنصاري: يا رسول الله أن كان ابن عمك، فتلون وجهه ثم قال: اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك، واستوعى النبي صلى الله عليه وسلم للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة قال الزبير: فما أحسب هذه الآيات إلا نزلت في ذلك «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم»^{(٢)(٣)}.

(١) مجموعة فتاوى ابن تيمية (٢٤٠/١٣). (٢) النساء آية (٦٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير/ النساء/ باب فلا وربك لا يؤمنون.... رقم الباب ١٩، رقم الحديث ٤٣٠٩ (١٦٧٥/٤).

وقد يرد في الآية الكريمة قولان لصحابيين، فيحكم على أحدهما بأنه سبب نزول، ويحكم على الآخر بأنه ليس كذلك، فيكون الأول وحده من قبيل المرفوع. أخرج الإمام مسلم عن جابر، قال: كانت اليهود تقول: من أتى امرأته من دبرها في قُبُلها جاء الولد أحول، فأنزل الله «نساؤكم حرث لكم»^(١)،^(٢) فعادوا قول جابر سبب نزول، ولم يعدوا قول ابن عمر أنها أنزلت في إتيان النساء^(٣) في أدبارهن كذلك، ذلك أن جابراً رضي الله عنهما صرح بالنزول حيث قال: «كانت اليهود... فنزلت»، وليس كذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ومن أجل هذا قال الزركشي رحمه الله في البرهان:-

"قد عرف من عادة الصحابة والتابعين، أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا، فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم، لأن هذا كان السبب في نزولها، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع"^(٤).

(١) البقرة آية (٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير/ البقرة/ باب نساؤكم حرث لكم رقم ٤١، حديث ٤٢٥٣ (١٦٤٥/٤).

(٣) جاء عند البخاري في الموضوع السابق أن ابن عمر قال: فأتوا حرثكم أنى شئتم قال يأتيها

في. قال ابن حجر: قال أبو بكر بن العربي: أورد البخاري هذا الحديث في التفسير فقال يأتيها

في، وترك بياضاً والمسألة مشهورة، صنّف فيها محمد بن سحنون جزءاً وصنّف فيها محمد بن

شعبان كتاباً وبيّن أن حديث ابن عمر في إتيان المرأة في دبرها فتح الباري (٢٥٥/٩).

(٤) البرهان (٢٢/١).

ولذلك قال ابن حجر: إن اختلاف الصحابة في آيات الأحكام لا يعدّ من قبيل المرفوع، كما أن تفسيرهم للكلمات القرآنية تفسيراً لغوياً لا يعد كذلك. ولنذكر لك الآن بعض الآيات التي ذكروا لها أسباب نزول، وإنما هي من قبيل التفسير للآية القرآنية:

١- حدثنا سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه أن يجعل ملك الفرس والروم في أمته فأنزل الله تعالى «قل اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء»^(١).

٢- عن عبدالله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان" فقال الأشعث بن قيس فيّ والله نزلت كان بيني وبين رجل من اليهود أرض، فجددني، فقدمته إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: لك بيعة؟ قلت: لا، فقال لليهودي: اتحلف، قلت يارسول الله: إذن يحلف فيذهب مالي، فأنزل الله عز وجل «إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً»^(٢).

٣- قوله تعالى: «ما كان لبشر أن يُؤتية الله»^(٣) قال الضحاك ومقاتل: نزلت في نصارى نجران عبدوا عيسى، قوله «لبشر» يعني عيسى، «أن يؤتية

(١) آل عمران آية (٢٦) . والحديث أخرجه ابن جرير الطبري (١٤٨/٣) [الواحد في أسباب النزول وإسناده صحيح (ص ١٠٠)].

(٢) آل عمران آية (٧٧) . والحديث أخرجه البخاري ومسلم (١٢٢/١) حديث رقم ١٣٨.

(٣) آل عمران: آية (٧٩).

الله الكتاب» يعني الإنجيل وقال ابن عباس في رواية الكلبي وعطاء: إن أبا رافع اليهودي والرئيس من نصارى نجران قالوا: يا محمد أتريد أن نعبدك وتتخذك رباً؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "معاذ الله أن يعبد غير الله أو تأمر بعبادة غير الله، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني" فأنزل الله تعالى^(١).

قال الحسن: بلغني أن رجلاً قال: يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: "لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله" فأنزل الله تعالى^(٢).

٤- قوله تعالى «لَيْسُوا سَوَاءً»^(٣). قال ابن عباس ومقاتل. لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد ومن أسلم من اليهود، قالت أحبار اليهود، ما آمن لمحمد إلا شرارنا ولو كانوا من أختيارنا لما تركوا دين آبائهم وقالوا لهم "لقد خسرتم حين استبدلتكم بدينكم ديناً غيره فأنزل الله تعالى «لَيْسُوا سَوَاءً». وقال ابن مسعود: أنزلت الآية في صلاة العتمة يصلوها المسلمون ومن سواهم من أهل الكتاب لا يصلوها"^(٤).

(١) أخرجه ابن جرير (٣/٢٣٢) والواحدي في أسباب النزول ص ١١٢ قال المحقق وإسناده حسن.

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول وإسناده صحيح (١١٣).

(٣) آل عمران آية (١١٣).

(٤) أخرجه ابن جرير (٤/٣٥)، والبيهقي في الدلائل (٢/٣٤هـ) والواحدي في سبب النزول ص

١١٩ وسنده حسن.

٥- قوله تعالى «وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ»^(١) حدثنا محمد بن يعقوب قال: أخبرنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم قال: حدثنا ابن وهب قال: أخبرني يونس، عن ابن شهاب قال أخبرني عروة بن الزبير، عن عائشة قالت: ثم إن الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله تعالى هذه الآية «وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ»، قالت الذي يُتْلَى عليهم في الكتاب الآية الأولى التي قال فيها «وإن خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى»^(٢) قالت عائشة رضي الله عنها: وقال الله تعالى في الآية الأخرى «وترغبون أن تنكحوهن» رغبة أحلكم في يتيمته التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهن عنهن^(٣).

٦- قوله تعالى «وإن امرأة خافت»^(٤) عن عروة، عن عائشة في قول الله تعالى: «وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً» إلى آخر الآية- نزلت في المرأة تكون عند الرجل فلا يستكثر منها ويريد فراقها، ولعلها تكون لها صحبة

(١) النساء: آية (١٢٧).

(٢) النساء: آية (٣).

(٣) الحديث أخرجه البخاري/كتاب التفسير/ سورة النساء رقم الباب ١٠٣ رقم الحديث ٤٢٢٤

(٤) (١٦٧٩/٤) ومسلم (٢٣١٢/٤) حديث رقم ٣٠١٨.

(٤) النساء: آية (١٢٨).

ويكون لها ولد فيكره فراقها ويقول له: لا تطلقني وأمسكني وأنت في حلّ من شأني، فأنزلت هذه الآية ^(١).

٧- قوله تعالى «والذين يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» ^(٢) أخبرنا أبو إسحاق المقرئ قال: قال: حدثنا حصين عن زيد بن وهب قال: مررت بالريذة فإذا أنا بأبي ذر فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في هذه الآية: «والذين يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ». فقال: معاوية: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ، فقلت: نَزَلَتْ فِيْنَا وَفِيهِمْ، وَكَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ كَلَامٌ فِي ذَلِكَ، وَكُتِبَ إِلَى عَثْمَانَ يَشْكُو مِنِّي وَكُتِبَ إِلَيَّ عَثْمَانُ أَنْ أَقْدِمَ الْمَدِينَةَ فَقَدِمْتُهَا، وَكَثُرَ النَّاسُ عَلَيَّ حَتَّى كَانَهُمْ لَمْ يَرُونِي قَبْلَ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَثْمَانَ فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ تَنْحِيتُ وَكُنْتُ قَرِيباً، فَذَلِكَ الَّذِي أَنْزَلَنِي هَذَا الْمَنْزَلَ وَلَوْ أَمَرُوا عَلِيَّ حَبِشِيّاً لَسَمِعْتُ وَأَطَعْتُ ^(٣).

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير/ سورة النساء باب «وإن امرأة خافت من بعلها نشووزاً»

رقم ١٠٤ حديث رقم ٤٣٢٥.

(٢) التوبة: آية (٣٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير/ سورة التوبة باب «إن الذين يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ ..» رقم

الباب ١٥٤، رقم الحديث ٤٢٨٢.

روايات أسباب النزول:

هذه القضية هي لب موضوع أسباب النزول، وأعظمها شأنًا، وأكثرها خطراً، وأجلّها فائدة، ولن نعرض بالطبع في هذه القضية إلى الروايات كلها أو جلّها، فذلك أمرٌ غير ممكن في مثل هذا الكتاب، لأنه يحتاج إلى مؤلف خاص به، وارجو من الله العون.... لكننا سنقتصر على ما ييسره الله لنا من ذكر بعض الروايات، لننبه بما ذكر على ما لم يُذكر.

ذكر السيوطي-رحمه الله تعالى- قاعدة في تعدد الروايات لأسباب النزول. قال رحمه الله ما ملخصه. إذا ذكر سببان لنزول الآية، فإن كان إسناد أحدهما أصح من الآخر، قُدِّم الأصح^(١)، فإن استويا في الصحة، وكان أحدهما تصريحاً بذكر السبب، ولم يكن ذلك في الثاني قُدِّم الأول لما فيه من التصريح^(٢) أما إذا استويا في الصحة والتقديم بالسبب في كليهما ولم يكن الترجيح بينهما فإننا نلجأ في هذه الحالة إلى القول بتعدد النزول^(٣) وتكرره وذكر أمثلة لهذه الحالات جميعها.

ونحن-أرشدك الله- نستشعر خطورة هذه القضية، لذا نضرع إلى الله تبارك وتعالى أن يجنبنا الخطل، ويلهمنا السداد ولن أقف بك عندما ذكره الحافظ السيوطي-رحمه الله- فحسب، بل نحاول أن نقف مع بعض الروايات

(١) الإتيان (١١٧/١) .

(٢) (١٢٠/١) .

(٣) (١٢٢/١) .

التي ذكرها الأئمة أصحاب هذا الشأن-رحمهم الله- فنقول وبالله التوفيق:-

١- كون الآية ذكر لها سببان أحدهما أصبح من الآخر أمر مسلم به، والمتدبر لكتب التفسير يجد كثيراً من الأمثلة لهذه القضية وقد مثل له السيوطي بسبب نزول السورة الكريمة الطيبة، التي تبين ما أكرم الله به نبيه عليه الصلاة والسلام، أعني «والضحى والليل إذا سجى»^(١) حيث جاء في صحيح البخاري: عن جندب بن سفيان رضي الله عنه قال: اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قريبك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عز وجل «والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى»^(٢).

وأخرج الطبراني وابن أبي شيبه عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها وكانت خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن جروا دخل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، فدخل تحت السرير فمات، فمكث النبي صلى الله عليه وسلم أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة، ما حدث في بيتي؟ جبريل عليه السلام لا يأتيني. قالت خولة: فقلت: لو هيات البيت وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير فإذا شيء ثقيل فلم أزل حتى أخرجته، فإذا جرو ميت، فأخذته فألقيته خلف الجدار، فجاء نبي الله ترعد لحيته فأنزل

(١) الضحى آية (١، ٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير/ سورة الضحى/ باب تفسير سورة والضحى رقم ٤٤٠،

حديث رقم ٤٦٦٧ (١٨٩٢/٤).

الله «والمضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى»^(١)، إذا كان اعتماد ما في الصحيح أمراً لا مناص منه، وإذا كانت الرواية الثانية مردودة لعدم صحتها، فإن مما يجب أن ترد هذه الرواية دراية كذلك، ذلك أنه أمر لا يتفق مع واقع النبي عليه وآله الصلاة والسلام وسامح الله الحافظ ابن حجر وجزاه خيراً، حيث قال إن القصة مشهورة، وقد ردها من حيث السند.

لكن الرواية ينبغي أن ترد من حيث الدراية كذلك، فأصل وجود الجرو في بيت النبي عليه وآله الصلاة والسلام أمراً لا يتفق مع فطرة النبي ثم كونه يظل ميتاً أربعة أيام في البيت إخاله يابأه عقله، ثم هل كان مجيء الوحي إلى النبي يقتصر على بيته، والمعلوم -أنه كان يجيء في أمكنة متعددة- ؟!

٢- ذكروا عند قوله تعالى «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين»^(٢) أكثر من سبب، منها ما رواه البخاري -رحمه الله- أنها نزلت في شأن أبي طالب، ومنها ما أخرجه الحاكم عن ابن مسعود، وذكره الواحدي أنها نزلت في استغفار النبي صلى الله عليه وسلم لأمه، وذكر حديثاً طويلاً عن ابن مسعود قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر في المقابر وخرجنا معه، فأمرنا فجلسنا، ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى قبرٍ منها، ففناه طويلاً، ثم ارتفع نحيب رسول الله صلى الله عليه وسلم باكياً، فبكينا

(١) أخرجه الطبراني وابن أبي شيبة، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: في إسناده من لا يعرف

(١٣٨/٧)، وتبعه في ذلك الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٣٢٩/١٠)

(٢) التوبة آية (١١٣)

لبكاء الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم إنه أقبل إلينا وتلقاه عمر بن الخطاب: فقال: يا رسول الله ما الذي أبكاك؟ فقد أبكانا وأفزعنا! فجاء فجلس إلينا فقال: أفزعكم بكائي؟! فقلنا: نعم يا رسول الله فقال: "إن القبر الذي رأيتموني أناجي فيه قبر أمانة بنت وهب، وإنني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي فيه... الحديث"، وهذه رواية ضعيفة، ضعفها الإمام الذهبي^(١).

وقد ذكروا هذه الرواية كذلك عند قوله تعالى «ولا تسئل عن أصحاب الجحيم»^(٢)، وقضاً على ضعفها، فإنها ليست منسجمة مع سياق الآية الكريمة كما سيأتيك نبأه عند حديثنا عن أسباب النزول والسياق، فهذه رواية يجب أن ترد لضعفها في آية براءة، ولخالفها السياق كذلك في آية البقرة.

ثانياً: أن تكون الروايتان صحيحتان، لكن إحداهما فيها تصريح بسبب النزول، والأخرى ليست كذلك، ومثلوا لذلك بما سبق من حديث جابر- رضي الله عنهما- بسبب نزول قوله تعالى «نساؤكم حرث لكم»^(٣) وقد ذكرنا من قبل رواية ابن عمر رضي الله عنهما، وقلنا إن المعتمد قول جابر لأنه تصريح بالسبب.

وقد عدّ السيوطي^(٤) من هذا القبيل، ما جاء في سبب نزول قوله سبحانه

(١) المستدرک (٢٣٦/٢)، قال: عصام الحميدان محقق أسباب النزول قلت: وفيه أيضاً عنعنة .

(٢) البقرة: آية (١١٩) .

(٣) البقرة: آية (٢٢٣) .

(٤) الاتقان (١٢٢/١) .

«يسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً»^(١)، حيث ورد في سبب نزولها.

- ما رواه البخاري عن ابن مسعود قال: كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وهو يتوكأ على عسيب، فمرّ بنفر من اليهود، فقال بعضهم: لو سألتموه؟ فقالوا: حدثنا عن الروح، فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى إليه، حتى صعد الوحي ثم قال: «قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً»^(٢).

٢- ما أخرجه الترمذي عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود، أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل، فقالوا: اسألوه عن الروح، فسألوه فأنزل الله. «يسألونك عن الروح»^(٣). ورجح السيوطي رواية البخاري، لأنها أصح، ولأن ابن مسعود كان حاضراً القصة، وسنناقش هذا فيما بعد إن شاء الله.

ثالثاً: أن تكون الروايتان متساويتين من حيث الصحة، ومن حيث التصريح بسبب النزول، فلا يمكن الجمع بينهما وترجيح إحداهما على الأخرى، وهنا يلجأ إلى القول بتعدد النزول، كما يقول السيوطي في الإتيان ومثل ذلك قوله سبحانه «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين»

(١) الإسراء: آية (٨٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير/ سورة الإسراء، باب «ويسألونك عن الروح» رقم الباب

٢١١، حديث ٤٤٤٤.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، (٢٥٥/١) والترمذي (٣٠٤/٥).

فقد ذكر روايات في سبب نزولها، الأولى: وأخرجها البخاري أنها نزلت في شأن أبي طالب واستغفار النبي صلى الله عليه وسلم له.
والثانية: ما أخرجه الترمذي وحسنه عن علي قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: تستغفر لأبويك وهما مشركان فقال: استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت.

والرواية الثالثة: وهي ما نزل في شأن طلبه صلى الله عليه وسلم من ربه أن يستغفر لأمه فنزلت وقد ذكرنا لك الرواية.

ورحم الله شيخنا السيوطي^(١)، فكلامه لا بد من مناقشته، فعند حديثه عن آية الروح، رجح رواية البخاري على رواية الترمذي، لكنه هنا، سوى بين الروايات الثلاث، مع أننا عرفنا من قبل أن الرواية الأخيرة مردودة لا تصح، فكيف سوى بينها وبين غيرها، ليبنى على هذه التسمية أمراً خطيراً وهو القول بتعدد النزول، لذلك لا بد أن نفرّد لهذا القول عنواناً خاصاً، نناقش فيه هذه القضية.

القول بتعدد النزول:

الذي يترجح لديّ، أن القول بتعدد النزول لم يكن معلوماً في القرون الأولى، بل قاله المتأخرون، وهذا شيخ المفسرين ابن جرير في تفسيره جامع البيان لم نجد فيه أثراً لهذه القضية، والذين ذكروا هذه القضية في كتبهم، ونقلها من بعدهم عنهم، لم تتفق كلمتهم على الآيات التي قيل بأنها نزلت أكثر من مرة، بل اختلفت كلمتهم، كما سأبينه لك -إن شاء الله-.

(١) الإتيان (١٢٢/١).

فهذا الزركشي-رحمه الله- يذكر بعض آيات يرى أنها مكرّر نزولها، منها سورة الفاتحة، قيل إنها نزلت مرتين، مرة في مكة، ومرة في المدينة حين حولت القبلة، ومنها قوله «ويسألك عن الروح»^(١)، مع أن السيوطي كما عرفنا، يرى أنها نزلت في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم، لأنه رجح رواية ابن مسعود، التي وردت في البخاري-كما عرفت-. ومنها قوله تعالى «وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات»^(٢)، وسورة هود مكية باتفاق: لكنها-كما يقولون- نزلت في أبي اليسر وقد كان في المدينة المنورة ومنها «قل هو الله أحد» فإنها نزلت رداً على المشركين في مكة المكرمة، ورداً على أهل الكتاب في المدينة المنورة، ومنها آية براءة المتقدمة «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين»^(٣).

والعلة التي ذكرها الزركشي لتكرر النزول هي قوله. وقد ينزل الشيء مرتين تعظيماً لشأنه، وتذكيراً به عند حدوث سببه خوف نسيانه^(٤). فعلة التكرار عند الزركشي أحد أمرين:-

١- تعظيم شأن النازل.

٢- خوف نسيانه.

أما السيوطي رحمه الله تعالى، فقد عرض أقوال المثبتين والنافين لهذه القضية، وقد زاد على ما ذكره الزركشي مما نزل أكثر من مرة أواخر

(٢) هود: آية (١١٤).

(١) الإسراء: آية (٨٥).

(٤) البرهان (٢٩/١).

(٣) براءة: آية (١١٣).

سورة النحل «وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به»^(١) وأول سورة الروم، نقل ذلك عن ابن الحصار^(٢). كما نقل كلام الزركشي الذي ذكرناه من قبل، ونقل عن جمال القراء للسخاوي: أن قوله «إن قيل: فما فائدة نزولها مرة ثانية؟ قلت: يجوز أن يكون نزلت أول مرة على حرف واحد، ونزلت في الثانية ببقية وجوهها، نحو: ملك ومالك، السراط والصراط، ونحو ذلك.

ثم ذكر قول النافين، فنقل عن صاحب الكفيل بمعاني التنزيل إنكاره كون آية من القرآن نزلت أكثر من مرة لأن تحصيل ما هو حاصل لا فائدة منه، ورد السيوطي قول صاحب الكفيل بعد مناقشة لا نرى حاجة لذكرها.

ومن العلماء الذين استؤنس بأقوالهم بتعدد النزول شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: وإذا ذكر أحدهم لها سبباً نزلت لأجله وذكر الآخر سبباً، فقد يمكن صدقهما بأن تكون نزلت عقب تلك الأسباب، أو تكون نزلت مرتين، مرة لهذا السبب، ومرة لهذا السبب^(٣).

والإمام ابن حجر حيث قال: إن الجمع أولى من دعوى النزول مرتين، على أن قول هذين الإمامين يفهم منه أننا نقول بالتعدد إذا لم يمكن الجمع بين الروايات، بل إن ابن حجر يصرح بأن الأصل عدم التعدد^(٤).

(١) النحل: آية (١٢٦).

(٢) الاتقان (١/١٣٠).

(٣) مجموعة الفتاوى (١٣/٣٤٠).

(٤) رسالة العجاب في بيان الأسباب / الدكتور عبد الحكيم الانيس ص ٥٤٢.

وإذن ينبغي للباحث أن يدرس ما قيل من أنه نزل أكثر من مرة دراسة تمحيص وتحقيق كي يصل إلى قول حاسم. وقبل هذه الدراسة لا بد أن نعرض لتعليقات المثبتين وهي: تعظيم شأن النازل، وخوف النسيان-كما ذكره الزركشي- وكون الآية نزلت على حرفين-كما نقله السيوطي عن السخاوي-

أما تعظيم النازل فأمر لا نستطيع قبوله والتسليم به، فالقرآن كله عظيم، ثم إن كان الأمر كذلك كان حرياً بآية الكرسي أن تنزل مرات كثيرة، لأنها أعظم آية كما نعلم، وكذلك الآيات التي تحدثت عن أسماء الله وصفاته.

وأما خوف النسيان، فأمر غير وارد بعد قول الله تبارك وتعالى في سورة الحجر المكية: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»^(١)، وقوله «سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله»^(٢). وقد قال إن معنى المشيئة هنا تأكيد لعدم النسيان، وأما كون الآية نزلت على حرفين مختلفين فالإجماع على غير هذا إذ المعلوم عند المحققين أن كتابة القرآن الكريم كانت كلها على حرف واحد، ثم إن هذه الآيات التي قيل إنها نزلت مرتين لا نجد في كثير منها قراءات مختلفة، اللهم إلا في أمور قليلة، ولماذا خصت تلك الآيات التي ذكروا بالنزول مرتين؟ مع أن أكثر أي القرآن تقرأ بقراءات متعددة؟

الحق أن الحجج العقلية التي ذكرها أولئك المثبتون لا يمكن التسليم بها ألبتة. بقي أن ندرس هذه الآيات التي قيل إنها نزلت مرتين، ولا نتعجل الحكم، كي تكون منهجيتنا صحيحة قويمه، ومن الله التوفيق والعون.

(١) الحجر: آية (٩).

(٢) الأعلى: آية (٦).

* سيأتي تفصيل هذه المسألة إن شاء الله في مبحث الأحرف السبعة.

دراسة للآيات التي قيل إنها نزلت مرتين

٦- فاتحة الكتاب:

يجمع العلماء على أن فاتحة الكتاب نزلت في مكة، بل هي من أول ما نزل، ونكاد نجزم بأنها أول سورة تامة نزلت^(١)، حتى إن الحسين بن الفضل الأصفهاني علق على قول مجاهد رضي الله عنه بمدنيتهما، بأنها هفوة من مجاهد^(٢)، لكننا وجدنا قولاً آخر عند بعض المفسرين خلاصته أنها نزلت مرتين: مرة في مكة المكرمة، ومرة في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم، وتعليل ذلك عندهم: لشرفها أولاً، ولأنها لما حوّلت القبلة خشي المسلمون أن تكون الصلاة قد غيرت كذلك، فنزلت الفاتحة دليلاً على أن الصلاة لم يغير من جوهرها شيء، وهذا تعليل فيه أكثر من علة تحول بينه وبين أن يكون حقيقة من الحقائق. هذا من حيث الدراية.

أما من حيث الرواية فلا يملك أصحاب هذا القول أي رواية صحيحة، أو قريبة من الصحة.

٢- قوله تعالى «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين..... آية براءة»^(٣).

تقدم لنا بحث في هذه الآية الكريمة من قبل، فقلنا إن فيها ثلاث روايات.

(١) الاتقان (١٢/١).

(٢) راجع: أول ما نزل .

(٣) التوبة: آية (١١٢) .

أحدها: أنها نزلت في شأن استغفار النبي صلى الله عليه وسلم لأمة،
وقلنا إنها رواية ضعيفة.

الثانية: أنها نزلت في شأن استغفار النبي صلى الله عليه وسلم لأبي
طالب، وهي في صحيح البخاري رضي الله عنه.

الثالثة: أنها نزلت في استغفار المسلمين للمشركين.

ونحن نعلم أن رواية البخاري- رحمه الله- لا يقدم عليها من حيث
السند أي رواية، لكننا حينما نمعن النظر فيما ذكره البخاري نجد فيه الدقة
التامة والموضوعية العلمية، حيث قال البخاري^(١)، في حديث وفاة أبي طالب:
فأنزل الله «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين» وأنزل الله
في أبي طالب «إني لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء»^(٢)، فالذي
يفهم من هذا، وهذا ما فهمه ابن حجر^(٣): إن قوله «إني لا تهدي من أحببت»
كانت خاصة في أبي طالب، أما قوله «ما كان للنبي...» فكانت عامة فيه وفي
غيره.

ونحن لا نشك في رواية البخاري- رضي الله عنه- لكن الذي نناقشه هنا
قضية تكرار النزول، وهذا لا يفهم من كلام البخاري فنحن بين أمرين اثنين: فإما
أن الآية نزلت مرتين اثنتين، إحداهما بعد وفاة أبي طالب، أي قبل الهجرة
بسنة أو أكثر، ثم نزلت بعد ذلك، بعد غزوة تبوك، أي بعد ما يزيد على عشر
سنين، وهذا لا يخلو من إشكالات كثيرة:

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير. سورة التوبة رقم الباب ١٦٥ باب «ما كان للنبي والذين

آمنوا أن يستغفروا للمشركين» حديث ٤٣٩٨.

(٢) فتح الباري (٥٠٨/٨) (١٩٥/٧).

(٣) القصص: آية (٥٦).

أحدهما: أن الآية بقيت وحدها، ليس لها سورة توضع فيها، وهذا ليس له مثيل في كتاب الله تبارك وتعالى لذلك قال الحافظ ابن حجر في شرحه للصحيح عند تفسير هذه الآية بأن الأصل عدم التعدد، وقد مرت معك من قبل.

ثانيها: أنه ينبني على هذا القول أمور خطيرة باطلة وهي مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم ما أرشده إليه ربه وحاشاه بأبي هو وأمي، ويترتب عليه كذلك معصية المؤمنين ببيان ذلك، أنه إذا كانت هذه الآية نزلت في مكة، فكيف يجوز للرسول عليه وآله الصلاة والسلام أن يستغفر للمشركين بعد ذلك! وقد ثبت عنه الاستغفار، فقد صلى على ابن أبي، وأنزل الله عليه «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة....»^(١).

وكيف يمكن للمؤمنين أن يستغفروا لأقربائهم وهم يعلمون أن هناك آية تمنع من هذا على فرض أنها نزلت في أبي طالب، وإذن فاليقين الذي لا يجوز أن يرتاب فيه مراتب أن الآية نزلت مرة واحدة، وسواء أقلنا إن النبي صلى الله عليه وسلم استمر يستغفر لأبي طالب هذه المدة كلها حتى نزلت، أم أنها نزلت في شأن المشركين بعد غزوة تبوك.

تعدد نزول هذه الآية الكريمة أمر لا يتفق مع الواقع في شأن أي القرآن الكريم من جهة، ولا مع عصمة النبي صلى الله عليه وسلم من جهة ثانية، ولا مع طاعة الصحابة لله تعالى من جهة ثالثة.

(١) التوبة: آية (٨٠).

٣- قوله تعالى «واقم الصلاة طوافي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات»^(١).

الإشكال في هذه الآية ما ذكره من أنها نزلت في رجلٍ أصاب من امرأة قبله، فسأل النبي عليه الصلاة والسلام عن توبته فنزلت الآية، فقالوا إن هذه الحادثة كانت في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وجاءت هذه الرواية في أكثر كتب السنة، ومنها الصحيحان.

وإذا نظرنا إلى سياق هذه الآية مع ما بعدها وما قبلها نجزم بمكيته، فهي من سورة هود، وهي مكية إجماعاً، والسياق من الدعائم التي لا يجوز إهمالها في تصحيح سبب النزول؛ لذا ذهب كثير من المفسرين قديماً وحديثاً إلى أن الآية لم تنزل إلا في مكة^(٢).

أما ما ورد من أحاديث صحيحة في أن الرجل الذي تليت عليه هذه الآية كان في المدينة المنورة، فالأمر فيه سهل إن شاء الله، والشأن فيه يسير، ذلكم أن من الأمور البديهية التي نبه عليها كثير من العلماء مثل الحافظ ابن حجر، ونقله عنهم السيوطي-رحمهم الله تعالى- أن بعض رواة الحديث قد يقول: فنزلت الآية بدل قوله "قتلا عليه النبي صلى الله عليه وسلم الآية"، مع أن بعض الروايات الصحيحة جاء فيها "تلا عليه الآية وبعضها فقراً"^(٣).

(١) هود: آية (١١٤) .

(٢) تفسير البحر المحيط (٢٦٩/٥)، التحرير والتنوير (٣١٢/١١)، المنار (١٨٧/١٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢١١٦/٤) كتاب التوبة باب رقم ٧ والترمذي (٢٩١/٥)، كتاب تفسير القرآن، سورة هود.

وعلى هذا فالآية الكريمة مكية التنزل غير مكررة النزول، على أنني أحب أن أضيف هنا أن حديث القرآن الكريم عن تعيين بعض الأوقات كطرفي النهار، ودلوك الشمس، وغسق الليل، وقبل طلوع الشمس وقبل الغروب، وإدبار النجوم، كل هذا لم يأت إلا في القرآن المكي.

٤- قوله «وإن عاقبتكم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به»^(١).

قالوا: إن هذه الآيات نزلت مرات كثيرة: نزلت في مكة؛ لأن سورة النحل كذلك، ثم نزلت بعد غزوة أحد، ثم نزلت يوم فتح مكة، ولا بدّ هنا من أن نقف أمام سياق الآيات من جهة وأمام الروايات التي وردت في نزولها من جهة أخرى.

أما الروايات التي ذكر فيها أنها نزلت بعد استشهاد سيد الشهداء أسد الله وأسود رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا حمزة فهي روايات ضعيفة^(٢)، لا تخلو من مقال، وأما الروايات التي تذكر أنها نزلت يوم فتح

(١) النحل: آية (١٢٦).

(٢) رويت عن أبي هريرة. وقد أخرج هذه الرواية البزار والطبراني بإسناد فيه ضعف، قال البزار: لا نعلمه يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه، تفرد به سليمان التيمي صالح، ولا نعلم رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا أبو هريرة [كشف الاستار (٢/٢٢٦)، باب غزوة أحد، رقم الحديث (١٧٩٥)] وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٩/٦) رواه البزار والطبراني وفيه صالح بن بشير المري وهو ضعيف متروك. ووردت الرواية من طريق ابن إسحاق عن بريدة بن سفيان بن فروة الأسلمي عن كعب بن محمد القرظي [سيرة ابن هشام] (١٤٠/٣) وقد قال البخاري عن بريدة: فيه نظر، وقال النسائي ليس بالقوي [تهذيب التهذيب (١/٢٧٩)] ورواه الطبراني [المعجم الكبير (٦٢/١١)] حديث رقم (١١٠٥١) عن ابن عباس وفيه أحمد بن أيوب وهو ضعيف [كتاب الجرحين لابن حبان (١٤٠/٢)].

مكة فقد جاءت عند الحاكم^(١) بوعلى الرغم من تصحيح الذهبي لها، فإن الذي يترجح لدي أن هناك لبساً من الراوي، فبدلاً من أن يقول: فتلا النبي صلى الله عليه وسلم، قال: فنزلت، وهذا الذي ذكرناه عن السيوطي من قبل "قد يكون في إحدى القصتين" فتلاً فيهم الراوي فيقول: فنزل.

أما السياق فلا يعين على القول بأنها نزلت يوم أحد، أو يوم فتح مكة، ففتح مكة كان يوم نصر ومرحمة، فكيف يقول الله لنبيه عليه وآله الصلاة والسلام «ولا تك في ضيق مما يمكرون»، وكيف يقول له: «ولا تحزن عليهم». وأنقل هنا كلاماً للإمام الفخر الرازي رحمه الله، أراه مستحسنًا جيداً: فقد ذكر الرزائي أن الآية فيها ثلاثة أقوال: الأول أنها نزلت لما مثلوا بحمزة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم. لأمتلن بسبعين منهم مكانك، والثاني أن هذا كان قبل الأمر بالسيف والجهاد. قال: -

والقول الثالث: إن المقصود من هذه الآية نهى المظلوم عن استيفاء الزيادة من الظالم، وهذا قول مجاهد والنخعي وابن سيرين، قال ابن سيرين: إن أخذ منك رجل شيئاً فخذ منه مثله وأقول: إن حمل هذه الآية على قصة لا تعلق لها بما قبلها يوجب حصول سوء الترتيب في كلام الله تعالى، ولذلك يتطرق الطعن إليه وهو في غاية البعد، بل الأصوب عندي أن يقال: المراد أنه

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک، کتاب التفسیر (٣٥٩/٢)، والإمام أحمد في المسند، انظر:

الفتح الرباني (١٩٢/٨) والترمذي في أبواب التفسیر (٥٥٩/٩)، وقال حديث حسن، وابن

حبان انظر: [موار الظمان ص ٤١١، رقم الحديث (١٦٩٥)]. والبيهقي في دلائل النبوة (٢٨٩/٢).

تعالى أمر محمداً صلى الله عليه وسلم أن يدعو الخلق إلى الدين الحق بأحد الطرق الثلاثة وهي الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالطريق الأحسن، ثم إن تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم، وبالإعراض عنه والحكم عليه بالكفر والضلالة وذلك مما يشوش القلوب ويوحش الصدور، ويحمل أكثر المستمعين على قصد ذلك الداعي بالقتل تارة، وبالضرب ثانياً، وبالشتم ثالثاً، إن ذلك المحق إذا شاهد تلك السفاهات، وسمع تلك المشاغبات لا بد وأن يحمله طبعه على تأديب أولئك السفهاء تارة بالقتل وتارة بالضرب، فعند هذا أمر المحققين في هذا المقام برعاية العدل والإنصاف وترك الزيادة، فهذا هو الوجه الصحيح الذي يجب حمل الآية عليه ^(١).

هـ - قال تعالى «ويسألك عن الروح قل الروح من أمر ربي» ^(٢).

تقدم لنا بحث في هذه الآية الكريمة من قبل. وخلاصة الأمر أنهم قد ذكروا سببين لنزول الآية:

أحدهما: ورد في صحيح البخاري عن ابن مسعود، ويبين أن اليهود هم السائلون.

الأخر: أخرجه الترمذي عن ابن عباس، ويبين أن قريشاً هي التي سئلت. وقلنا أن السيوطي رجح الرواية الأولى لأنها وردت في صحيح البخاري، والذي أقوله: إننا مع جزمنا بما جاء في صحيح البخاري، فإننا نرجح السبب الآخر.

(٢) الإسراء آية (٨٥) .

(١) الفخر الرازي (١٤١/٢٠) .

أولاً: لأن سياق الآيات يستدعي ذلك الترجيح، وقد سمعت ما قال الفخر الرازي من قبل؛ ذلك أن الآيات التي قبل هذه الآية تتحدث عن الكفار وهي قوله «وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك»^(١)، «ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً»^(٢) «وإن كادوا ليستفزونك من الأرض»^(٣)، والآيات التي جاءت بعدها كذلك، تتحدث عن أهل مكة «قل لئن اجتمعت الإنس والجن....»^(٤)، «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً....»^(٥)، اقبل في غير القرآن الكريم أن يختل نظم السياق عما قبله وما بعده؟ إن ذلك كلام ممجوج، فما لنا بالقرآن الكريم، وأنعم به وأعظم !!

ثانياً: قد تقول: فكيف تفعل بالأحاديث الصحيحة، وترجح السيوطي كما مر من قبل، أقول: الأمر جد يسير إن شاء الله! فرواية ابن مسعود جاءت على أكثر من وجه، فاختلف الرواة في نقلها، وهذا أمر يحدث كثيراً وقد جاء في بعض هذه الروايات عن ابن مسعود فظننت أنه يوحى إليه^(٦)، وهذا الذي نجزم به فالآية مكية، ولما سئل النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة عن الروح: تريث ظناً منه أنه سيوحى إليه شيء جديد،

(١) الإسراء آية (٧٣) .

(٢) الإسراء آية (٧٤) .

(٣) الإسراء آية (٧٦) .

(٤) الإسراء آية (٨٨) .

(٥) الإسراء آية (٩٠) .

(٦) مسند أحمد الفتح الرباني- (١٩٧/٨٨) رقم الحديث ٣٣٣ .

لكن لما يوح إليه شيء، فعلم أن إجابته فيما أنزل الله عليه من قبل، فتلا عليهم الآية الكريمة، وهذا ما ذهب إليه الإمام البقاعي في نظم الدرر^(١).

٦- آية الروم «ألم غلبت الروم في أدنى الأرض»^(٢).

وهذه الآية مكية باتفاق، والقول بأنها نزلت بعد بدر، لا يلتفت إليه^(٣).

٧- سورة الكوثر «إنا أعطيناك الكوثر»^(٤).

لم يختلفوا في سورة من حيث مكيتها ومدنيتها كاختلافهم في سورة الكوثر، فلقد تعددت الروايات التي تثبت مكيتها حيناً ومدنيتها حيناً آخر.

وقد نقل صاحب روح المعاني عن الشهاب الخفاجي أن لبعضهم تأليفاً صحح فيه أنها نزلت مرتين، يقول الشهاب الألويسي -رحمه الله- وحين أذٍ فلا إشكال وهكذا نجدهم حينما تختلف عليهم الروايات يقولون بتعدد النزول. وسنعرض إن شاء الله في موضوع المكي والمدني وجه الحق محققاً ممحصاً عند حديثنا عن سورة الكوثر أمكية هي أم مدنية، وستدرك إن شاء الله أن القول بالتعدد غير مقبول.

٨- سورة الإخلاص «قل هو الله أحد»^(٥).

والجمهور على أنها مكية، وهناك روايات تقول بمدنيتها، ولكنها لا تثبت، والحق أن السورة أساس التوحيد، وهذا شأن القرآن المكي، لكن يظهر أن

(١) [نظم الدرر (٥٠٥/١١)]. (٢) الروم آية (٢٠١).

(٣) أخرج الرواية الواحدي في أسباب النزول ص ٣٤٤. وفي إسناده عطية العوفي وهو ضعيف

(٤) الكوثر: آية (١). (٥) الإخلاص آية (١).

سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحدث عن فضلها في المدينة المنورة. هذه هي المواضع التي ادعوا نزولها مرتين، ويظهر كثيراً من الآيات التي بدى لهم أنها مختلفة الأسباب كانوا يميلون إلى القول بنزولها مرتين، ولقد سمعت ما قاله الحافظ ابن حجر عند قوله «ليس لك من الأمر شيء» وقد ذكر أسباباً كثيرة^(١) والقول بالجمع أولى من القول بالتعدد.

على أن الذي يتأمل كلام الأئمة -رحمهم الله- يجد أنهم لا يؤيدون القول بالتكرر، لكن كراهيتهم مخالفة من سبقهم من الأئمة جعلتهم لا يقفون منه موقفاً حاسماً وعلى سبيل المثال: هذا ابن كثير رضي الله عنه يقول: ومنهم من يقول إن بعض السور نزل مرتين، مرة بالمدينة ومرة بمكة والله أعلم، ومنهم من يستثني من المكي آيات، يدعي أنها من المدني، كما في سورة الحج وغيرها، والحق في ذلك ما دل عليه الدليل الصحيح فإله أعلم^(٢).

ويقول الألوسي -رحمه الله- "إن النزول ظهور من عالم الغيب إلى الشهادة، والظهور بها لا يقبل التكرار فإن ظهور الظاهر ظاهر البطلان كتحصيل الحاصل"^(٣). ومع ذلك نجدهما رحمهما تعالى يذكران قضية تكرار النزول.

بقيت كلمة أخيرة، وهي أن هناك آيات في كتاب الله تبارك وتعالى متحدة في نظمها ولفظها، وذكرت أكثر من مرة، فكان لها في كل مرة موضع في كتاب الله، وذلك مثل قوله سبحانه «تلك أمة قد خلت»^(٤) فقد ذكرت مرتين

(١) فضائل القرآن - ابن كثير ص ٤ .

(٢) البقرة: آية (١٣٤، ١٤١).

(٣) روح المعاني (١/٣٤).

في سورة البقرة، وقوله سبحانه «ليس على الأعمى حرج»^(١)، فقد ذكرت مرتين في سورة النور وفي سورة الفتح، وقوله «إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله»^(٢)، وغيرها... فهذه الآيات كان لكل منها مكانها في المصحف ولم يدعي أحد أن هذه الآيات نزلت مرتين، فهذا هو سنن القرآن الكريم، والخروج عن هذا السنن المؤلف أمر غير مألوف..

وعلى كل حال فقد رأينا الذين قالوا بتكرر النزول قيدوا هذا القول بأن يكون إذا لم يمكن الجمع بين الروايات. وقد عرفنا مما سبق أن لا إشكال في الجمع، بل إن بعض الروايات لا تحتاج إلى أن يجمع بينها لضعفها، والله ورسوله أعلم، وارجو أن يكون ما ذكر في هذا المبحث مقبولاً لديك، وارجو أن يسدد الله ويوفقنا للخير.

دعائم القبول لأسباب النزول:

هذا مبحث ارجو أن يكون كثير الفوائد، جمّ المنافع، متعدد الثمرات، جيد التحقيق، فلا تعجبوا-أرشدكم الله- إن وجدتم فيه ما لا يوافق ما ألفتموه، ويتعارض مع ما عرفتموه.

ويادي بدء ارجو أن أبين لكم أنني لست من الذين تستهويهم مخالفة العلماء، فأنا أغترف من بحورهم، لكننا أخذنا من مشايخنا-رحمهم الله- أن من إجلال العلماء إحقاق الحق.

فأقول وبالله التوفيق ومنه العون:

(٢) النور: آية (٦٢) .

(١) النور: آية (٦١) الفتح آية (١٧) .

أول دعامة لا بد منها لقبول سبب النزول: الرواية الصحيحة، إذا عُدت هذه الدعامة، وجب أن يُرد هذا السبب، حتى وإن كان مشتهراً، سارت بذكره الركبان.

الدعامة الثانية: سلامة الدراية، ونعني بها أن لا يكون المتن مناقضاً لقواعد العقل والنقل.

الدعامة الثالثة: السياق: فللسياق أثر لا ينكر في ترجيح القبول، قبول السبب أو رده، فإذا اجتمعت هذه الدعائم تمسكنا بهذا السبب، وناقضنا عنه، وسأفصل لكم هذا فيما يلي إن شاء الله.

أولاً: فمما استكمل هذه الشرائط، واستوفى هذه الدعائم، كثير من الروايات التي وردت في كتب السنة، وسأذكر لكم بعض الأمثلة لتكون أنموذجاً يقاس عليها غيرها:

١- قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا»^(١).

قال ابن عباس في رواية عطاء: وذلك أن العرب كانوا يتكلمون بها، فلما سمعتهم اليهود يقولونها للنبي صلى الله عليه وسلم أعجبهم ذلك وكان (راعنا) في كلام اليهود سباً قبيحاً، فقالوا: إنا كنا نسب محمداً سراً، فالآن أعلنوا السب لمحمد لأنه من كلامهم.

فكانوا يأتون نبي الله صلى الله عليه وسلم فيقولون يا محمد (راعنا) ويضحكون، ففطن بها رجل من الأنصار وهو سعد بن عباد، وكان عارفاً بلغة اليهود، وقال: يا أعداء الله عليكم لعنة الله والذي نفس محمد بيده، لئن

(١) البقرة آية (١٠٤).

سمعتها من رجل منكم لأضربن عنقه، فقالوا: أَلَسْتُمْ تقولونها له؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا»^(١).

٢- قوله تعالى «ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله»^(٢).

قال سعيد بن المسيب: أقبل صهيب مهاجراً نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعه نفر من قريش من المشركين، فنزل عن راحلته، ونثر ما في كنانته وأخذ قوسه، ثم قال: يا معشر قريش لقد علمتم أنني من أركم رجلاً، وأيم الله لا تصلون إليّ حتى أرمي بما في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم قالوا: دلنا على بيتك ومالك بمكة ونخل عتك، وعاهدوه إن دلهم أن يدعوه، ففعل، فلما قدم إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: أبا يحيى ربح البيع ربح البيع، وأنزل الله الآية^(٣).

٣- قوله تعالى «وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا»^(٤).

قال الحسن والسدي: تواطأ إثنا عشر حبراً من يهود خيبر وقرى عريضة

(١) راعنا التي كان يقولها المؤمنون من الرعاية، أما اليهود فيقصدون بها الرعونة، وشتان شتان

بين المعنيين، وبين المقصدين . والحديث أخرجه ابن جرير (٣٧٤/١)، والواحدي في أسباب

النزول ص ٣٣ قال المحقق: قواه الحافظ ابن حجر في العجائب.

(٢) البقرة: آية (٢.٧).

(٣) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص ٦٥، والحاكم في مستدركه (٤٠/٣).

(٤) آل عمران: آية (٧٢).

وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد، واكفروا به في آخر النهار وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ليس بذلك وظهر لنا كذبه وبطلان دينه، فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينهم، وقالوا: إنهم أهل الكتاب وهم أعلم به منا فيرجعون عن دينهم إلى دينكم، فأنزل الله الآية، وأخبر به نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم والمؤمنين^(١).

٤- قوله تعالى «وأن احكم بينهم بما أنزل الله»^(٢).

قال ابن عباس: إن جماعة من اليهود منهم كعب بن أسد وعبدالله بن سوريا وشاس بن قيس قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نقتنه عن دينه فأتوه فقالوا: يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم، وأنا إن اتبعناك اتبعنا اليهود ولن يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك، أفقتضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى «واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك»^(٣).

(١) أخرجه ابن جرير الطبري (٢٢٠/٢)، والواحي في أسباب النزول ص ١٠٩ قال محققه

وإسناده حسن.

(٢) المائدة: آية (٤٩) .

(٣) المائدة: آية (٥١) . الحديث أخرجه ابن جرير (١٧٧/٦)، والواحي ص ١٩٨ وإسناده صحيح.

هـ - قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء»^(١).

قال عطية العوفي: جاء عبادة بن الصامت فقال: يا رسول الله إن لي موالي من اليهود كثير عددهم حاضر نصرهم، وإنني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية اليهود وأوي إلى الله ورسوله، فقال عبدالله بن أبي: إني رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية اليهود، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أبا الحباب ما بخلت به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه».

فقال: قل قبلت، فأنزل الله تعالى بينهما «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض» إلى قوله تعالى «فترى الذين في قلوبهم مرض» يعني عبدالله بن أبي «يسارعون فيهم» في ولايتهم "يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة" الآية^(٢).

هذه روايات توافرت لها دعائم القبول، صحة سند، وموافقة سياق، وحسن دراية.

(١) المائدة: آية (٥١).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٧٧/٦) والواحي ص ١٩٨ وإسناده صحيح.

ثانياً- مخالفة السياق:

كثيراً ما نجد في روايات أسباب النزول ما لا يتفق مع السياق، فما كان منه غير صحيح الرواية فالخطب فيه يسير، لكن الإشكال فيما ادعيت صحة روايته، وقضية السياق قضية جوهرية في قبول سبب النزول، ولعل ما ذكره الزركشي والسيوطي ونقل فيه قولاً عن السبكي-رحمهم الله تعالى- عند قوله «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها»^(١) أقول لعل ما ذكره هؤلاء الأئمة ليس إلا لبيان أهمية السياق^(٢).

قال السيوطي: وقد تنزل الآيات على الأسباب الخاصة وتوضع مع ما يناسبها من الآي العامة رعاية لنظم القرآن، وحسن السياق فيكون ذلك الخاص قريباً من صورة السبب في كونه قطعي الدخول في العام، كما اختار السبكي أنه رتبة متوسطة دون السبب وفوق المجرد، مثاله قوله تعالى «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجِبْتِ والطاغوت»^(٣)، إلى آخره فإنها إشارة إلى كعب بن الأشرف^(٤) ونحوه من علماء اليهود لما قدموا مكة وشاهدوا قتلى بدر حرّضوا المشركين على الأخذ بثأرهم ومحاربة النبي صلى الله عليه وسلم، فسألوهم من أهدى سبيلاً؟ محمد وأصحابه أم نحن؟ فقالوا:

(١) النساء: آية (٥٨).

(٢) الإتقان (١١٢/١).

(٣) النساء: آية (٥١).

(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول ١٥٦ وقال محققه صحيح.

أنتم، مع علمهم بما في كتابهم من نعت النبي صلى الله عليه وسلم المنطبق عليه، وأخذ الموثائق عليهم ألا يكتموه، فكان ذلك أمانة لازمة لهم، ولم يؤدوها حيث قالوا للكفار: أنتم أهدى سبيلاً، حسداً للنبي صلى الله عليه وسلم فقد تضمنت هذه الآية مع هذا القول التوعّد عليه المفيد للأمر بمقابله، المشتغل على أداء الأمانة التي هي بيان صفة النبي صلى الله عليه وسلم، بإفادة أنه الموصوف في كتابهم، وذلك مناسب لقوله «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها»^(١) فهذا عام في كل أمانة، وذلك خاص بأمانة، هي صفة النبي صلى الله عليه وسلم بالطريق السابق، والعام تالٍ للخاص، في النظم متراخٍ عنه في النزول، والمناسبة تقتضي دخول ما دلّ عليه الخاص في العام؛ ولذا قال ابن العربي في تفسيره: وجه النظم أنه أخبر عن كتمان أهل الكتاب صفة محمد صلى الله عليه وسلم، وقولهم: إن المشركين أهدى سبيلاً، فكان ذلك خيانة منهم فأنجرّ الكلام إلى ذكر جميع الأمانات.

قال بعضهم: ولا يرد تأخر نزول آية الأمانات التي نزلت بعدها بنحو ست سنين، لأن الزمان إنما يشترط في سبب النزول لا في المناسبة؛ لأن المقصود منها وضع آية في موضع يناسبها، والآيات كانت تنزل على أسبابها ويأمر النبي صلى الله عليه وسلم بوضعها في المواضع التي علم من الله أنها مواضعها^(٢).

(١) النساء: آية (٥٨).

(٢) الإتيان (١١٣/١ - ١١٤).

فالسبيوطي ومن قبله الزركشي-رحمهما الله تعالى- وكلام ابن السبكي-رحمه الله- كلامهم فيه بيان أهمية السياق؛ لأن قوله «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات» إن كانت نزلت في قضية مفتاح الكعبة، فلم وضعت إثر الآيات التي تحدثت عن اليهود؟ ويجب أولئك العلماء-رحمهم الله- بأن الآيات السابقة لهذه الآية، تحدثت عن تضييع اليهود للأمانة، فكان المناسب أن تذكر آية الأمانة بعد تلك الآيات؛ لأن مضمون هذه الآيات شيء واحد، وهو أداء الأمانة وعدم تضييعها، إلا أن الآيات السابقة تحدثت عن أمانة خاصة، وهي كتمان اليهود نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه تحدثت عن كل أمانة، فالسياق له شأنه، وعليه يعول في تصحيح سبب النزول.

ولهذا يقول ابن دقيق العيد-رحمه الله- مبيناً أهمية السياق "أما السياق والقرائن فإنها الدالة على مراد المتكلم من كلامه، وهي المرشدة إلى بيان المجملات، فاضبط هذه القاعدة فإنها مفيدة في مواضع لا تحصي^(١).

إذا عرفت هذا فاعلم أن هناك أسباب نزول لآيات كريمة، يصعب التوفيق بينها وبين السياق الذي نزلت فيه الآية.

١- « كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم »^(٢).

عن ابن عباس^(٣): أن رجلاً من الأنصار ارتد فلحق بالمشركين، فأنزل الله

(١) العدة على إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام (٢٧٢/٣).

(٢) آل عمران: آية (٨٦).

(٣) أخرجه الواحدي (١١٣) وإسناده حسن.

«كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم» إلى قوله «إلا الذين تابوا» فبعث بها قومه إليه، فلما قرأت عليه قال: والله ما كذبتني قومي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله عز وجل أصدق الثلاثة فرجع تائباً فقبل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركه^(١) والحق أن هذه الآية كما يشهد سياقها نزلت في أهل الكتاب، كما أخرجه عبد بن حميد وغيره عن الحسن ونقله عنه صاحب روح المعاني، وهذا ما رجحه ابن جرير-رحمه الله-^(٢)، وقد ذكر الروايات جميعاً الفخر الرازي^(٣)، قال صاحب المنار بعد نقله هذه الروايات:-

«إن الآيات متصلة بما قبلها، وذلك أنه لما بين حقيقة الإسلام، وأنه دين الله الذي بعث به جميع الأنبياء والذي لا يقبل غيره من أحد نكر حال الكافرين به، وجزاءهم وأحكامهم وقد رأها أصحاب أولئك الروايات في سبب نزولها صادقة على من قالوا إنها نزلت فيهم، فذهبوا إلى ذلك. وأظهر تلك الروايات وأشدّها التئاماً مع السياق رواية من يقول إنها نزلت في أهل الكتاب، وهو الذي اختاره ابن جرير والأستاذ الإمام. وقال إن الكلام من أول السورة معهم»^(٤).

(١) مسند الإمام أحمد [الفتح الرباني (١٨/١٠٤ ح: ١٢٦)، الحاكم في المستدرک (٣٦٦/٤)].

(٢) تفسير الطبري (٣/٢٤٢).

(٣) التفسير الكبير (٨/١٢٥).

(٤) تفسير المنار (٣/٣٦٢).

٢- مما اشتهر عند المفسرين أن قوله سبحانه «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها» نزلت في شأن عثمان بن أبي طلحة وقد أخذ منه النبي صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة يوم فتح مكة، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطى المفتاح وقال: «خذوها يا بني أبي طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم إلا ظالم»^(١).

والإشكال بين السياق وسبب النزول، أن الآية الكريمة في سورة النساء وأنها نزلت قبل فتح مكة ببضع سنين، والآية من حيث السياق منسجمة مع ما قبلها، وهو الحديث عن اليهود وما يتصفون به من بخل وحسد، وتضييع للأمانات، وهذا السياق لا يتفق من قريب أو بعيد مع كونها نزلت في عثمان ابن أبي طلحة، يوم فتح مكة، ثم إن هناك أمراً آخر غير السياق يتصل بالمعنى ذكره صاحب المنار-رحمه الله تعالى- فبعد أن شكك في صحة الروايات قال رحمه الله:

"وفي الروایتين بحث من جهة المعنى أيضاً، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أولى بمفتاح الكعبة من عثمان بن أبي طلحة، ومن كل أحد فلو أعطاه للعباس أو غيره لم يكن فاعلاً إلا ما له الحق فيه ومن أعطاه إياه يكون هو أهله وأحق به، وليس هذا من باب «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم» بل لأن الكعبة من المصالح العامة، وإنما كان يكون من هذا الباب لو كان المفتاح مفتاح بيت عثمان بن أبي طلحة نفسه ونزع ملكه منه وأعطاه آخر، بل الحكام الآن في جميع الممالك ينزعون ملك من يرون المصلحة العامة في نزع ملكه منه، ولكنهم يعطونه ثمنه شاء أم أبى»^(٢).

(١) أسباب النزول للواحي ص ١٥٨، والحديث مرسل وإسناده ضعيف [محقق أسباب النزول].

(٢) تفسير المنار (١٦٩/٥).

فإن كون مفتاح الكعبة مع عثمان بن أبي طلحة ليس بأمر إلهي، فلا يعقل أن يكون من عهد ابراهيم عليه وآله الصلاة والسلام.

٣- قوله سبحانه «يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون»^(١).

اشتهر في روايات أسباب النزول أنها نزلت في أبي لبابة رضي الله عنه، وقد سألَه بنو قريظة أتنزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار إلى حلقه: إنه الذبيح فلا تفعلوا، فقال: والله ما زالت قدماي حتى علمت أنني قد خنت الله ورسوله، فنزلت الآية، فلما نزلت شدد نفسه على سارية من سواري المسجد، وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ، فنزلت تويته بعد سبعة أيام^(٢).

والآية في سورة الأنفال التي نزلت في غزوة بدر، وأين فتح قريظة من غزوة بدر، فإجلاء بني قريظة في السنة الخامسة، وبدر في الثانية، وإن صحت الرواية فمن الممكن أن أبا لبابة رضي الله عنه تذكرها أو سمعها فكان منه ما كان.

٤- قوله تعالى «ألا إنهم يثنون صدورهم»^(٣).

فقد روى البخاري - عن ابن عباس - رضي الله عنهما قال: أناس كانوا

(١) الأنفال: آية (٢٧) .

(٢) أسباب النزول، للواحي ص ٢٣٥.

(٣) هود: آية (٥٤).

يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء" فنزل ذلك^(١). وقد نعلم أن الآية من سورة هود، وهي مكية إجماعاً، ثم إن السياق في شأن الكفار، فهو سياق تهديد. والظاهر أن ابن عباس رضي الله عنهما تلا هذه الآية في شأن أولئك الذين كانوا يستحيون من الله، لا أنها نزلت فيهم، مع أن الواحدي في أسباب النزول روى عن ابن عباس سبباً آخر يتفق مع سياقها، وهي أن الآية الكريمة نزلت في الأخنس بن شريق، وكان رجلاً حلو الكلام، حلو المنظر، يلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب ويطوي بقلبه ما يكره، وقال الكلبي: كان يجالس النبي صلى الله عليه وسلم يظهر له أمراً يسره ويضمّر في قلبه خلاف ما يظهر فنزلت^(٢). والرواية الأولى وإن كانت أصح من هذه الرواية، لكنها لا تتفق مع السياق، ولذا لا يعقل أن تكون سبب نزول.

هـ - قوله تعالى «ولا تمدن عينيك»^(٣).

فعن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ضيفاً نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعاني فأرسلني إلى رجل من اليهود يبيع طعاماً، يقول لك محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه نزل به ضيف ولم يلق عندنا بعض الذي نطبخه، فبعني كذا وكذا من الدقيق أو

(١) الفتح: ٣٤٨/٨ حديث ٤٦٨.

(٢) الواحدي ص ٢٦٥.

(٣) طه: آية (١٣١).

أسلفني إلى هلال رجب، فقال اليهودي: لا أبيعه ولاأسلفه إلا برهن، قال: فرجعت إليه فأخبرته، قال: "والله إني لأمين في السماء، أمين في الأرض، ولو أسلفني أو باعني لأدّيت إليه، اذهب بدرعي" ونزلت هذه الآية تعزية له عن الدنيا^(١).

وهذه الرواية ضعيفة من جهة الإسناد أولاً، ومن جهة المتن ثانياً، فإن الآية مكية والحادثة مدنية في آخر عمر الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا ما ذكره ابن عطية في تفسيره^(٢).

٦، ٧- قوله تعالى «تجافى جنوبهم عن المضاجع»^(٣)، وقوله «إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم»^(٤).

فقد ذكروا عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن الآية الأولى نزلت في الأنصار^(٥)، وأن الآية الثانية نزلت في بني سلمة وكانت أمكنتهم بعيدة عن مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فنزلت الآية^(٦).

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢١٢/١)، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٦/٤)

بسبب موسى بن عبيدة .

(٢) الحرر الوجيز (١١٥/١٠). (٣) السجدة: آية (١٦) .

(٤) يس: آية (١٢) .

(٥) الواحدي ٣٦١، الطبري (٦٣/٢١) وأبو داود في سننه (٧٩/٢) حديث رقم (١٣٢٢).

(٦) أخرجه الواحدي ٣٦٤، وقال المحقق إسناده صحيح.

وقد حسنوا بعض هذه الروايات وصححوا بعضها الآخر، ونحن نعلم يقيناً أن
الآيتين مكتتان، ويستحيل أن تكون الروايات التي ذكروها هي سبب النزول.
ومما لا ريب فيه إذن أن الآية الأولى تليت في شأن الأنصار، وأن الآية
الثانية تليت في شأن بني سلمة - وهم من الأنصار كذلك -، لا أنهما نزلتا فيهم.
٨- وعنه قوله سبحانه «أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى
عليهم»^(١).

ذكروا أن سبب نزول هذه الآية الكريمة أن بعض المسلمين أعجبوا بما
عند يهود، وقد جاءوا النبي صلى الله عليه وسلم بكتف كتبوا فيه بعض ما
سمعوه من اليهود وفي رواية أنهم أعجبهم ترتيل اليهود في بعض طقوسهم
الدينية، فتمنوا أن يكون لهم مثل ذلك، فنزلت هذه الآية. وقد أخرج هاتين
الروايتين القريائي والدارمي وأبو داود في مراسيله وابن جرير وابن المنذر^(٢).
ونحن نحسن الظن بالصحابة رضي الله عنهم ونجلهم عن مثل هذه
الأخبار المنكرة، ثم إن هذا مخالف لسياق الآية الكريمة، فالآية التي قبلها
«وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إنما الآيات عند الله، وإنما أنا نذير
مبين»^(٣).

وهذا حديث عن أهل مكة المكرمة، والسبب الذي ذكر يقتضي أن يكون في
المدينة المنورة. ولقد أحسن الشهاب الألويسي رحمه الله - إذ قال:
وتعقب بأن السياق والسباق مع الكفرة ... "وفي جعل سبب النزول ما
ذكر خروج عن ذلك فتأمل"^(٤).

(١) العنكبوت: آية (٥١).

(٢) ذكر ذلك الألويسي (١/٢١).

(٤) روح المعاني (٦/٢١).

(٢) العنكبوت: آية (٥٠).

٩- قوله تعالى «وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم»^(١).

أخرج البخاري في سبب نزولها عن ابن مسعود: كان رجلان من ثقيف وختن لهما من قريش، أو رجلان من قريش وختن لهما من ثقيف في بيت، فقال بعضهم، أترون الله يسمع نجوانا أو حديثنا؟ فقال بعضهم: قد سمع بعضه ولم يسمع بعضه، قالوا: لئن كان يسمع بعضه، لقد سمع كله فنزلت الآية^(٢).

ومع يقيننا بصحة رواية البخاري-رحمه الله- لكن الذي لا نستطيع قبوله أن تكون الرواية سبب نزول، ذلكم أن سياق الآية مع ما قبلها كان حديثاً عن الآخرة. قال تعالى «ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون، ويوم يُحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون، حتى إذا ما جاعوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون، وقالوا لجلودهم لما شهدت علينا، قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون، وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين»^(٣).

ألا إن أمر السياق متصل بالنظم اتصالاً تاماً، والآية الكريمة سياقاً

(١) فصلت: آية (٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير/ سورة فصلت/ باب «وما كنتم تستترون أن يشهد

عليكم سمعكم ... مما تعلمون» رقم ٢٠٢ حديث ٤٥٣٨.

(٣) فصلت: آية (١٨-٢٣).

وسباقاً مع ما بعدها وما قبلها فسياق الآية وسباقها، وما قبلها وما بعدها حديث عن يوم القيامة، فكيف يقطع السياق، وتفكك أجزاءه؟! نعم، قد يقال إن هؤلاء النفر تليت عليهم هذه الآية الكريمة، ولكن بعض الرواة قال نزلت، والله أعلم .

١٠- وأخيراً قوله سبحانه «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض»^(١)، قالوا إن هذه الآية نزلت في شأن بعض أهل الصفة، الذين أحبوا أن يكونوا أصحاب غنى، والآية مكية كما نعلم- لم يخالف في مكيتها أحد، فكيف تكون نزلت في شأن أهل الصفة الذين كانوا في مسجد الرسول عليه وآله الصلاة والسلام^(٢).

وأكتفي بما ذكرت، ولعلكم أدركتم أن قضية السياق أمر لا ينبغي التهاون فيه والغفلة عنه.

ثالثاً:

قد يصححون روايتين كلاتهما سبب نزول، لكن يصعب الجمع بينهما، وفي هذه الحالة لا بد من اعتماد إحداهما، لما لها من مرجحات، وأكتفي بمثال واحد. قوله تعالى: « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك »^(٣).

(١) الشورى: أية (٢٧).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٩/٢٥) وغيره وصححه الهيتمي في مجمع الزوائد (١٠٤/٧) والحق الذي لا

معدل أن هذه الرواية لا يقبل أن تكون سبب نزول للآية، بل الظاهر أنها تليت على هؤلاء.

(٣) التحريم: أية (١).

عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل: إني لأجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير، فدخل على إحدهما فقالت له ذلك، فقال: لا بأس شربت عسلاً عند زينب ابنة جحش ولن أعود له، فنزلت «يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك» إلى «إن تتوبا إلى الله» لعائشة وحفصة- «وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً» لقوله بل شربت عسلاً^(١).

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراماً فأنزل الله هذه الآية^(٢).

قال ابن حجر: "يحتمل أن تكون الآية نزلت في السببين معاً"^(٣) وقال الشوكاني في تفسيره^(٤) فهذان سببان صحيحان لنزول الآية والجمع ممكن بوقوع القصتين: قصة العسل وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعاً، وفي كل واحد منهما أنه أسر الحديث إلى بعض أزواجه.

(١) أخرجه الإمام البخاري في كتاب التفسير -سورة التحريم- باب «يا أيها النبي لم حرم ما أحل الله لك».

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (٤٩٣/٢) وقال على شرط مسلم وأقره الذهبي.

(٣) فتح الباري (٢٨٣/١٠).

(٤) فتح القدير (٢٥٢/٥).

لكن الذي يبدو لي أن الرواية الأولى التي تتحدث عن العسل، هي التي ينبغي أن تكون سبب نزول وليست الثانية، وذلك لما يلي:-

١- لأنها في صحيح البخاري، وليست الرواية الثانية كذلك.

٢- لأن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم الناس الخير والعدل، فهو إن حلف أن لا يشرب عسلاً، فذلك أمر يخصه هو، وليس فيه تعدُّ على أحد، أما الرواية الثانية فلا إخالها تكون من الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، إذ فيها تعدُّ على حقوق الآخرين، فالرسول صلى الله عليه وسلم قد يبتغي مرضات أزواجه، فيما لا ضرر فيه ولا ضرار، لذلك الذي يترجح لديّ صحة الرواية الأولى، وهو ما ذهب إليه كثير من المفسرين

رابعاً: روايات يجب ردها حتى إن اشتهرت لتعارضها مع قواطع الدين، أو إخلالها بمنزلة الرسول صلى الله عليه وسلم وكبار الصحابة رضوان الله عليهم، وإليك طرفاً من هذه الروايات:

١- جاء في رواية ضعيفة السند نسبت لابن عباس أن قوله تعالى «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء»^(١)، أنها نزلت في عبادة بن الصامت- وكان من النقباء يوم بيعة العقبة قبل الهجرة، وقد شهد بداراً- وكان له حلفاء من اليهود، أراد أن يخرج بهم يوم الأحزاب فنزلت^(٢). وهذا أمرٌ لا يليق بجلال الصحابي الكريم.

(١) ال عمران: آية (٢٨).

(٢) الواحدي ص ١٠٢ قال المحقق: هذه الرواية -فضلاً عن أخرجه- ضعيفة جداً بسبب جويبر

ومنقطعة أيضاً لأن الضحاك لم يلق ابن عباس

٢- قوله «ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت»^(١).

مما قيل في سبب نزولها عن ابن عباس: نزلت في رجل من المنافقين كان بينه وبين يهودي خصومة، فقال اليهودي: انطلق بنا إلى محمد وقال المنافق: بل نأتي كعب بن الأشرف—هو الذي سماه الله الطاغوت— فأبى اليهودي إلا أن يخاصمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختصما إليه، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهودي، فلما خرجا من عنده لزمه المنافق: وقال: ننطلق إلى عمر بن الخطاب، فأقبلا إلى عمر، فقال اليهودي: اختصمنا أنا وهذا إلى محمد فقضى لي عليه، فلم يرضَ بقضائه، وزعم أنه مخاصم إليك وتعلق بي فجئت إليك معه، فقال عمر للمنافق: أكذاك؟ قال: نعم، فقال لهما: رويداً حتى أخرج إليكما، فدخل عمر البيت وأخذ السيف فاشتعل عليه، ثم خرج إليهما وضرب به المنافق حتى برد، وقال: هكذا أقضي لمن لم يرضَ بقضاء الله وقضاء رسوله، وهرب اليهودي، ونزلت هذه الآية، وقال جبريل عليه السلام: إن عمر فرق بين الحق والباطل فسمي الفاروق^(٢).

وهذه رواية باطلة، ويسمي العلماء السلسلة التي جاءت فيها سلسلة الكذب، مع أن لها شهرة كبيرة عند الناس.

(١) النساء: آية (٦٠).

(٢) الواحدى ص ١٦٢.

٣- قوله سبحانه: «ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب، قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً»^(١). قالوا إنها نزلت في نفرٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: منهم عبد الرحمن بن عوف، والمقداد بن الأسود، وقدامة بن مظعون وسعد بن أبي وقاص كانوا يتمنون الجهاد في سبيل الله، فلما فرض القتال تولوا وقالوا ما ذكر الله. وعن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابه أتوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، وقالوا: يا نبي الله كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمننا صرنا أذلة فقال: إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم، فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا. فنزلت^(٢).

وكان من حقنا أن نورد هذا السب في حديثنا عن السياق، لكننا ذكرناه هنا في هذا القسم، لتعارضه مع الحق الواضح، ففضلاً على مخالفة هذا السبب للسياق؛ لأن السياق يتحدث عن المنافقين، فإنه يتعارض مع جلال وقدر خيرة أصحاب النبي عليه وآله الصلاة والسلام.

ونعجب كل العجب من الذين صححوا هذه الرواية على الرغم مما فيها من إساءة للسادة المبشرين بالجنة رضوان الله عليهم.

(١) النساء: آية (٧٧).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٠٧/٢) وانظر أسباب النزول للواحي ص ١٦٦.

٤- قوله: « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله^(١) ».

القاصي والداني والصغير والكبير، والعالم والجاهل كل أولئك سمعوا أن سبب نزول هذه الآية ما كان من ثعلبة يوم أن جاء النبي صلى الله عليه وسلم وسأله أن يدعو الله أن يرزقه، وكان حمامة المسجد، فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم وكثر ماله، وخرج من المدينة لكثرة ماله، ومنع الزكاة، فنزلت فيه الآية، فلما علم بنزولها جاء بركاته فلم يقبلها النبي صلى الله عليه وسلم، ثم جاء بها أبا بكر وعمر بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها أحد^(٢).

وهذه الرواية على الرغم من شهرتها فإنها ليست صحيحة من حيث الرواية، ثم هي مخالفة لقواطع الإسلام وأصول العقيدة، فباب التوبة لا يغلق كما نعلم، والله يقبل توبة الكافر، وتوبة المرتد^(٣).

٥- قوله تعالى «ولقد علمنا المستقدمين منكم، ولقد علمنا المستأخرين»^(٤) عن ابن عباس قال: كانت تصلي خلف النبي صلى الله عليه وسلم امرأة حسناء

(١) براءة: آية (٧٥) .

(٢) أخرجه الواحدي ٢٥٢، وأخرجه الطبري (١٠٠/١٣٠)، والبيهقي في الدلائل (٢٨٩/٥-٢٩٢) والطبراني في المعجم الكبير ٢٦٠/٨، حديث رقم ٧٨٧٣ ونكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢/٧) وقال ضعيف فيه علي بن يزيد وهو متروك وكذلك ضعفه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (٢١٠/٨).

(٣) كتب الأستاذ عذاب الحمش كتاباً أسماه ثعلبة بن حاطب الصحابي المفتري عليه، فجاء الكتاب شافياً وافياً جزى الله مؤلفه خير الجزاء

(٤) الحجر: آية (٢٤) .

في اول النساء، وكان بعضهم يتقدم إلى الصف الأول لئلا يراها، وكان بعضهم يكون في الصف المؤخر، فإذا ركع قال هكذا، ونظر من تحت إبطه فنزلت^(١).

وهذا سبب باطل رواية ودراية وسياقاً، فليس فيه أي دعامة من دعائم القبول لأسباب النزول.

فالرواية غير صحيحة، ثم هي مردودة دراية كذلك؛ لأنها إساءة للصحابة رضوان الله عليهم، أما من حيث السياق فليس لها أي وزن، ذلك أن الآية مكية، باتفاق، وصلاة الجماعة إنما كانت بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

٦- قوله « يا أيها الذين آمنوا إن جاعكم فاسق بنبأ فتبينوا »^(٢).

جاء في كثير من كتب التفسير في سبب نزول هذه الآية: أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق مصداقاً - يجمع الصدقات -، وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فلما ستم القوم به تلقوه تعظيماً لله تعالى ورسوله فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلي، فغضب رسول الله صلى الله

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٦/٥)، حديث: (٢٦٢٢)، والطبراني في الكبير (١٧١/١٢)، والجامع في

المستدرک (٣٥٢/٢)، وإسناده ضعيف، وقال ابن كثير في تفسير (٥٤٩/٢) غريب جداً.

(٢) الحجرات: آية (٦)

عليه وسلم وهم أن يغزؤهم، فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: سمعنا برسولك، فخرجنا نلتقاه ونكرمه ونؤدي إليه ما قبلنا من حق الله تعالى، فبدا له في الرجوع، فخشينا أن يكون إنما رده من الطريق كتاب جاءه منك بغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، فأنزل الله الآية^(١).

ومع أن هذا الحديث قد صححه بعضهم، وحسنه آخرون، لكن في ذلك كله نظر، فهذه الرواية عمادها وقوامها اتهام صحابي والإساءة له، ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا أمناء على دين الله، فلم يكن أحدهم ليجرؤ على أن يكذب في مثل هذه الحادثة، لما أكرمه الله من الصدق أولاً، ثم لأنهم يعلمون أن الله سيطلع نبيه صلى الله عليه وسلم على كل شيء....

قال الإمام الرازي: "ويدل على ضعف من يقول إنها نزلت لكذا، أن الله

(١) أخرجه أحمد [الفتح الرباني: (٢٨٢/١٨)، والطبراني في المعجم (٢١٠/٣)، وصححه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٩/٧)]. قال محقق [أسباب النزول للواحدي ص ٢٩١] ولا أراه يصح، بل أمثل أحواله أن يكون حسناً بسبب دينار الخزاعي وهو مقبول [تقريب التهذيب (٢٢٧/١) أي ضعيف إلا إذا توبع، وقد توبع في أحاديث أخرى ضعيفة، قال: وعلى فرض ثبوته فلا أرى متنه صحيحاً، وذلك لما فيه من إتهام لبعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد زكاهم الله تعالى، وزكاهم رسوله صلى الله عليه وسلم ولا أدعي أنهم معصومون عن الخطأ، كلا، ولكن لا يمكن أن يبلغ خطؤهم أن ينزل فيه قرآن يتلى إلى يوم القيامة، فإن هذا من دواعي بغض الناس لهم، وهو أمر يقرب من الكفر والعياذ بالله، والله تعالى أعلم .

قلت: وفي الرواية طعن في رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كيف يهجم بغزو القوم دون

تعالى لم يقل إني أنزلتها لكذا، والنبي صلى الله عليه وسلم لم ينقل عنه أنه بين أن الآية وردت لبيان ذلك فحسب، غاية ما في الباب أنها نزلت في ذلك الوقت، وهو مثل التاريخ لنزول الآية، ونحن نصدق ذلك، ويتأكد ما ذكرنا إن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد شيء بعيد؛ لأنه توهم وظن فأخطأ، والمخطيء لا يسمى فاسقاً، كيف والفاسق في أكثر المواضع المراد به من خرج عن رتبة الإيمان لقوله تعالى «إن الله لا يهدي القوم الفاسقين» وقوله «فسق عن أمر ربه» وقوله «وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها»^(١)، إلى غير ذلك^(٢) ثم إن عقبة بن الوليد كان في ذلك الوقت صغير السن^(٣). ولم يحاول أن يلتمسوا لكل آية سبب نزول؟ فلم لا تكون الآية نزلت ابتداء بلا سبب، وسورة الحجرات كلها آداب وتوجيهات خلقية.

وبعد فلعلي أطلت عليك أيها القارئ الكريم، لكن الموضوع يستحق منا هذه العناية، وأرجو أن لا تكون الإطالة فيه عبثاً، وما أحرانا أن نحتاط ونتأني، ونتريث كثيراً، ونحن نتحدث عن أسباب النزول حتى لا نقع في

(٢) تفسير الفخر الرازي (١١٩/٢٨).

(١) السجدة اية (٢٠).

(٢) قيل إن الوليد سبق يوم الفتح في جملة الصبيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح رؤوسهم وبرك عليهم إلا هو فقال: إنه كان على رأسي خلق فامتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسه، فمن يكون في هذا السن يرسل مصدقاً؟ انتهى كلام ابن العربي في العواصم من القواصم ص ٩٠-٩٢ تحقيق محب الدين الخطيب وقال المحقق: هذا الحديث رواه

الإمام أحمد في المسند ٣٢/٤.

محظور قد تكون له نتائج خطيرة، والله يجنبني وإياك الخطل ويهدينا إلى الصواب، فهو نعم المولى ونعم النصير واكمر مسؤول وخير مأمول.

هل يكون سبب نزول لبعض آية؟

ما حدثكم عنه من قبل من أسباب النزول كان لآية أو أكثر من آية، أما ما أحدثكم عنه في هذه المبحث فهو ما جاء في بعض الروايات من أن سبب النزول كان لبعض آية، لكلمتين أو ثلاث، وقد ذكرنا ذلك في موضعين اثنين:

الأول: في سورة البقرة في قوله سبحانه «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر»^(١). فقد روى البخاري عن سهل ابن سعد قال: أنزلت «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود» ولم ينزل، من الفجر» فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد «من الفجر» فعلموا أنه إنما يعني الليل والنهار^(٢). وفي صحيح البخاري كذلك عن عدي قال: أخذ عدي عقلاً أبيض وعقلاً أسود، حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبيناً فلما أصبح قال: يا رسول الله جعلت تحت وسادي قال: إن وسادك إذن لعريض، أن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك»^(٣).

(١) البقرة آية (١٨٦) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب تفسير/ سورة البقرة/باب «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم»

«وأنتم عاكفون في المساجد» رقم الباب ٣٠ رقم الحديث ٤٢٤١ (١٦٤٠/٤) .

(٣) الموضوع السابق الحديث رقم ٤٢٤٠ .

وهذه الروايات أوردوا عليها بعض الاشكالات، إذ كيف يتأخر نزول من "الفجر" الذي فيه بيان حكم شرعي وهي قضية فهمها كثير من علماء الأصول، حتى إن بعضهم زعم أن قوله سبحانه «من الفجر» نزل بعد سنة، ويبعد أن تكون هذه رواية صحيحة^(١).

وقد يقال هنا: فماذا تقولون فيما أخرجه البخاري-رحمه الله- عن عدي ابن حاتم؟ والجواب: إن عدياً بن حاتم رضي الله عنه كان إسلامه متأخراً، فالاية نزلت في السنة الثانية من الهجرة؛ لأنها هي السنة التي فرض فيها الصوم، لكن عدياً بن حاتم أسلم في السنة السابعة، فيمكن أن لا يكون عدي قد سمع الآية الكريمة، إنما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الحكم، فبينه له الرسول عليه وآله الصلاة والسلام من غير أن يسمع الآية الكريمة، ويؤيد هذا ما أخرجه الإمام أحمد عن عدي، أنه روي عنه أنه لما علمه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة والصيام، قال له: "فكل حتى يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود" قال فأخذت خيطين إلى آخر الحديث فعدي رضي الله عنه لم يكن قد قرأ الآية الكريمة، ولو قرأها ما فعل ما فعل.

وعلى هذا فلا نرى مانعاً أن يكون قوله سبحانه من الفجر نزل متأخراً، لكن هذا التأخر لم يكن سنة، بل لم يكن شهراً كذلك، لأن رمضان -كما نعلم- لا يزيد عن شهر، بل كان نزول "من الفجر" عقيب نزول قوله «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود». الثاني: قوله سبحانه «غير أولي الضرر» بعد قوله «لا يستوي القاعدون من المؤمنين»^(٢).

فقد أخرج الإمام البخاري رضي الله عنه عن سهل بن سعد الساعدي،

(١) المنار (١٨٠/٢).

(٢) النساء آية (٩٥).

أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد، فاقبلت حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُملي عليه «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله» فجاءه ابن أم مكتوم وهو يملؤها عليّ، قال: يا رسول الله والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان أعمى فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم، وفخذه على فخذي، فثقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سُريّ عنه فأنزل الله «غير أولي الضرر»^(١).

وقد أخرج البخاري هذه الرواية كذلك عن البراء بن عازب رضي الله عنه، ومؤدى هذه الرواية أن قوله «أولي الضرر» نزل مباشرة بعد قوله «لا يستوي القاعدون» فليس فيه الإشكالات التي وردت على آية الصوم الأنفة الذكر، ومع هذا فلقد رأينا صاحب المنار-رحمه الله وسامحه الله- يقول قولاً عجيباً، فعلى الرغم من أنه لم يعترض صراحة على آية الصوم^(٢)؛ فإنه يقول عند هذه الآية قولاً حريّ أن يناقش فيه، قال رحمه الله بعد تفسير الآية الكريمة:-

"وقد تركت ما ذكره في تفسير الآية من حديث زيد بن ثابت في كون قوله «غير أولي الضرر» نزل لأجل ابن أم مكتوم، لأن هذا من المشكلات

(١) أخرجه البخاري /كتاب التفسير/ سورة النساء باب قوله "لا يستوي القاعدون من

المؤمنين..." رقم الباب (٩٨) رقم الحديث ٤٥٩٢ (١٦٧٧/٤) .

(٢) المنار (١٨٠/٢) .

الجديرة بالرد مهما قووا سندها ولعلنا نفصل القول فيها في مقدمة التفسير^(١).

ومع إجلالنا للشيخ رشيد، وإفادتنا منه، ودعائنا له أن يجزيه الله عن الإسلام والقرآن خيراً، فإننا لا نستطيع أن نقبل منه هذا القول، فالحديث في صحيح الإمام البخاري كما رأينا؟ ثم ما المانع أن يكون قوله سبحانه «غير أولي الضرر» نزلت بعد كلام ابن أم مكتوم رضي الله عنه - فيكون ذلك من تكملة الله لعباده، وبياناً لحكم التشريع ما دام النزول كان عقب الجزء الأول من الآية.

إن رد الأحاديث الصحيحة لأسباب ترتكز على أذواق الناس من الأمور الخطيرة، وبخاصة إذا كانت هذه الأمور لا تتعارض مع صريح النقل وصحيح العقل، ويظهر أن الشيخ رحمه الله - كان ينوي أن يكتب مقدمة تفسيره بعد إتمامه، يضمونها بعض الفصول كما فعل كثير من المفسرين، لكنه رحمه الله - لم يكمل تفسيره.

إننا لا نرى من المنهجية الصحيحة أن نقف من الأحاديث الصحيحة هذا الموقف، نعم إن كان الحديث يتعارض مع القواطع فلنا معه شأن آخر، وما إخال الأحاديث الصحيحة كذلك.

وخلاصة القول إننا نجزم بما جاء عند الإمام البخاري رضي الله عنه من صحة الرواية.

(١) المنار (٢٥٣/٥).

وبعد... فإن القارئ الكريم يدرك مما سبق، أن كثيراً من روايات أسباب النزول لا نستطيع أن نعول عليها، فإن كثيراً منها مما لا يصح سنده، وإن كثيراً مما صح سنده جاء غير متفق مع سياق الآيات الكريمة، بل جاء معارضاً لما هو قطعي، وإن منها ما لا يصلح أن يكون سبب نزول، بل هو من قبيل التفسير للآيات الكريمة، أو من باب الاستشهاد بالآيات الكريمة عليه. ومن هنا ندرك ضحالة قول أولئك، بل تجنيهم على الحقائق، وقد قالوا إن أكثر أي القرآن نزلت على سبب.

العبارة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟

هذا المبحث الذي وعدتكم أن أحدثكم عنه عند حديثي عن فوائد أسباب النزول، ولا إخال طالب علم أو من له صلة بالعلم من أولئك المبتدئين يجهلون تلك العبارة التي تدور على كثير من الألسنة "العبارة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" ويأديء بدء أبيّن لكم أن هذه القضية تتدارسها فئتان من العلماء؛ علماء أصول الفقه والكتّابون في علوم القرآن، إلا أن بحثها عند الأصوليين هو الأساس، فإنهم يبحثونها بحثاً مستوعباً يتصل بكتاب الله تعالى، ويسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. أما الكتّابون في علوم القرآن الكريم فبحثهم يقتصر على بعض الآيات الكريمة في كتاب الله تبارك وتعالى.

ويقيني أن الخلاف في هذه القضية لم يكن في الأزمنة الأولى، أزمنة الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ذلكم أن هذا الإسلام الذي أكرمنا الله به، الدين العامّ الخالد دين جماعي جاء يسوّي بين الناس ليلغي بهذه المساواة كثيراً من الميزات والمكتسبات التي كانت لبعض الأفراد والفئات، فقريش ليس لها الحق في أن تمتاز عن غيرها مع أنهم أهل الحرم. لذا نجد الكتاب الكريم والسنة المطهرة صححا لهم بعض العبادات التي كانوا يحاولون الامتياز بها عن غيرهم كما كانوا يفعلون في أيام الحج، لا يقفون في عرفة، فجاء قول الله تبارك وتعالى يحذّرهم، فقال:

«ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس»^(١). كما منع الكبير في الأسرة أن

(١) البقرة آية (١٩٩).

يستأثر بالتركة ورئيس القبيلة من بعض الحقوق التي كانت له. ومن هنا كانت أحكام الكتاب والسنة لا تخصّ أحداً دون أحد، والعرب الذين لم يتعودوا هذا الأمر كانوا يظنون في أحيان كثيرة أن الحكم الذي شرّع لهم هو خاص بهم، فكانوا يتساءلون: أهو لنا أم لغيرنا من الناس؟ نجد هذا مثلاً في حديث العمرة وقد دخلت في الحج "لنا خاصة يا رسول الله؟ فيقول: إلى الأبد"^(١).

والمتتبع للسنة يجد هذا الأمر واضحاً، فهناك أسئلة كثيرة عن كون الحكم خاصاً، أو عاماً فيجيبهم النبي صلى الله عليه وسلم أنه عام. وسيأتيك هذا مفصلاً فيما ننقله لك عن ابن حزم.

لذا كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب في فهم التشريعات وغيرها في الكتاب والسنة، ولعلّ هذا كان فقه الصحابة جميعاً، واستدل لهذا بما جاء في صحيح البخاري من أنه صلى الله عليه وسلم لما أيقظ علياً وفاطمة رضي الله عنهما للصلاة من الليل، قال له علي: إن أرواحنا بيد الله إن شاء بعثنا" فوّلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب فخذه ويقول: «وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً»^{(٢)(٣)}.

ومن ذلك ما جاء فيه عن كعب بن عجرة رضي الله عنه حين أمره النبي

(١) أخرجه البخاري (٢١٨/١٣) كتاب التمني باب رقم ٢. ومسلم (٨٨١/٢) كتاب الحج باب رقم ١٧

وأبو داود (١٥٥/٢) كتاب المناسك باب رقم ٢٣.

(٢) الكهف آية (٥٤) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التهجد (٤٣/٢) ، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين حديث (٧٧٥) .

صلى الله عليه وسلم ان يحلق راسه، وقد كانت هامة تؤذية، ونزل قوله تعالى «ففدية من صيام أو صدقة أو نسك»^(١)، وقال «فنزلت في خاصة وهي لكم عامة»^(٢).

خلاصة القول: إن الخلاف في هذه القضية يكاد يكون خلافاً لفظياً، وبخاصة في القرآن الكريم أما في السنة المطهرة فربما نتج عن هذه القضية خلاف في بعض الأحكام وذلك في مثل اختلافهم في قول النبي صلى الله عليه وسلم «أيما إهاب دُبِغ فقد طهر»^(٣) فقد حمّله أكثرهم على العموم وخصّه بعضهم بالجلود التي تؤكل لحمها.

أسباب الخلاف.

والكاتبون في علوم القرآن وهم يتحدثون عن هذه القضية لا يتحدثون عن نشأتها ولا عن الأئمة ولا عن تعيين صاحب هذا الرأي أو ذاك، وإنما نجد ذلك عند بعض علماء أصول الفقه، ويظهر أن الخلاف يرجع إلى أمرين: أحدهما: أنه خلاف في الظاهر؛ لأن القائلين بخصوص السبب لا يقصرون الحكم على سببه، بل يعدي هذا الحكم إلى غيره، إما بنص آخر، وإما بدليل القياس.

ثانيهما: أن يكون خطأ في نسبته ذلك القول، أو خلافه إلى إمام من أئمة العلم^(٤).

(١) البقرة آية (٩٦).

(٢) أخرجه البخاري في المحصر (٢٠٨/٢) ومسلم في كتاب الحج رقم (١٢٠١).

(٣) رواه بهذا اللفظ الترمذي في كتاب اللباس حديث رقم (١٧٨٢) أنظر تحفة الأحوزي ٥/٢٩٩-٤٠٠.

(٤) راجع كتاب مسألة تخصيص العام بالسبب ص: ٦.

لذلك نجد هناك اضطراباً كبيراً في النقل عن الأئمة، فما من إمام إلا ونقل عنه أكثر من قول على أننا لا يمكن أن نتصور أن خطاب الشارع إنما يقتصر الحكم فيه على أشخاص معينين. وهذا أمر لا يقوله أحد، بل إن جهازة الأئمة على اختلاف مذاهبهم مجمعون على هذا.

قال ابن حزم: "قد أيقنا أنه صلى الله عليه وسلم بعث إلى كل من كان حياً في عصره في معمور الأرض من إنسي أو جني وإلى من يولد بعد إلى يوم القيامة، وليحكم في كل عين وعرض يخلقهما تعالى، إلى يوم القيامة، فلما صحّ ذلك بإجماع الأئمة -المتيقن المقطوع به المبلغ إلى النبي صلى الله عليه وسلم- وبالنصوص الثابتة بما ذكرنا من بقاء الدين إلى يوم القيامة، ولزومه الإنس والجن، وعلمنا بضرورة الحسّ أنه لا سبيل إلى مشاهدته عليه السلام من يأتي بعده، كان أمره صلى الله عليه وسلم لواحد من النوع، وفي واحد من النوع، أمراً في النوع كله، وللنوع كله، ويبين هذا: أن ما كان من الشريعة خاصاً لواحد أو لقوم فقد بينه عليه الصلاة والسلام نصّاً، وأعلم أنه خصوص، كفعله في الجذعة بأبي بردة ابن دينار^(١)، وأخبره عليه

(١) عن البراء بن عازب قال: ضحى لي خال يقال له -أبو بردة قبل الصلاة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "شأتك شاة لحم" فقال يا رسول الله: إن عندي داجناً جذعة من المعز، قال: اذبحها ولن تصلح لغيرك ثم قال: "من ذبح قبل الصلاة، فإنما يذبح لنفسه، ومن ذبح بعد الصلاة، فقد تم نسكه وأصاب سنة المسلمين" [أخرجه البخاري في الأضاحي (٢٣٦/٦) ومسلم في الأضاحي رقم (١٩٦١)].

السلام: أنها لا تجزئ عن أحد بعده، وكان أمره عليه السلام للمستحاضة
أمرًا لكل مستحاضة^(١).

وإقامته ابن عباس^(٢) وجابر^(٣) عن يمينه في الصلاة، حكماً على كل
مصلٍّ، وحده مع الإمام ولا خلاف بين أحد أن أمره لأصحابه رضي الله عنهم
وهم حاضرون، أمر لكل من يأتي إلى يوم القيامة^(٤).

وقال الإمام الغزالي:

(١) شكت فاطمة بنت أبي حبيش وأم حبيبة بنت جحش، إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنهما
تستحاضان، فأخبر كلًّا منهما بما تصنع، فكان حكمه صلى الله عليه وسلم حكماً لكل مستحاضة.
أخرج الحديث الإمام البخاري في كتاب الحيض (٧٩/١)، ومسلم في الحيض رقم ٣٢٣ .

(٢) عن ابن عباس: قال: بت في بيت خالتي ميمونة، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
العشاء، ثم جاء فصلى أربع ركعات ثم نام، ثم قام، فجئت فقممت عن يساره فجعلني عن يمينه.
[أخرجه البخاري كتاب الأذان (١٧١/١)، ومسلم في كتاب المسافرين رقم (٧٦٣) .

(٣) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في
سفر، فانتبهينا إلى مشرعة-الطريق إلى عبور الماء من حافة نهر أو بحر أو غيره- فقال: ألا
تشرع يا جابر؟- أي تشرع. ناقتك أو نفسك- قلت: بلى، قال: فنزل رسول الله صلى الله عليه
وسلم وانشرعت قال: ثم ذهب إلى حاجته، ووضعت له وضوءاً قال: فجاء فتوضأ، ثم قام فصلى
في ثوب واحد خالف بين طرفيه، فقممت خلفه، فأخذ بآنني فجعلني عن يمينه، [أخرجه مسلم في
كتاب صلاة المسافرين رقم ٧٦٦] .

(٤) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (٣/٢٣٠، ٢٣١) .

"مسألة: ورود العام على سبب خاص لا يسقط دعوى العموم، كقوله صلى الله عليه وسلم-حيث مر بشاة ميمونة، "أيمًا إهاب دبغ فقد طهر"^(١)، والحجة على بقاء العموم؛ أن الحجة في لفظ الشارع لا في السؤال والسبب، وكيف ينكر هذا، وأكثر أصول الشرع خرجت على أسباب:

كقوله تعالى « والسارق والسارقة »^(٢)، نزلت في سرقة المجن أورداء صفوان^(٣) ونزلت آية الظهار في مسلمة بن صخر، وآية اللعان في هلال بن أمية، وكل ذلك على العموم "^(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية:

"وقد يجيء كثيراً من هذا الباب، قولهم: هذه الآية نزلت في كذا، لا سيما إن كان المذكور شخصاً، كأسباب النزول المذكورة في عويمر العجلاني وهلال بن أمية، وأن آية الكلاله، نزلت في جابر بن عبدالله، وأن قوله «وأن أحكم بينهم بما أنزل الله»^(٥)، نزلت في بني قريظة والنضير، وأن قوله «ومن يولهم يومئذ دبره»^(٦)، نزلت في بدر، وأن قوله «شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت»^(٧)، نزلت في قضية تميم الداري، وعدي بن بداء، وقول أبي

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحيض رقم (٣٦٣-٣٦٦). بلفظ إذا دبغ الإهاب فقد طهر.

(٢) المائدة: آية (٣٨) .

(٣) لم يثبت أن هذا سبب نزول للآية الكريمة .

(٤) المستصفى في علم الأصول: لأبي حامد الغزالي (٦٠/٢) .

(٥) المائدة: آية (٤٩) . (٦) الأنفال: آية (١٦) . (٧) المائدة: آية (١٠٦) .

أيوب: وإن قوله «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة»^(١)، نزلت في معشر الأنصار، ونظائر هذا كثير مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة، أو في قوم من أهل الكتاب: اليهود والنصارى، أو في قوم من المؤمنين.

"فالذين قالوا ذلك: لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم، ولا عاقل على الإطلاق".

"والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه؟ فلم يقل أحد من علماء المسلمين إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص، فتعم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ، والآية التي لها سبب معين وإن كانت أمراً أو نهياً، فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته"^(٢).

وبعد هذا ندرك أن ما ذكره السيوطي ومن قبله الزركشي -رحمهما الله تعالى- من أن هناك آيات نزلت في أشخاص معينين وهي خاصة بهم لا تتجاوزهم إلى غيرهم كلام غير مقنع، من ذلك ما قالوه في الآية الكريمة، «وسيجنبها الأتقى» من أنها خاصة بأبي بكر رضي الله عنه بحجة وجود الألف واللام.

يقول الإمام السيوطي "قد علمت مما ذكر أن فرض المسألة في لفظ له عموم، أما آية نزلت في معين ولا عموم للفظها، فإنها تقتصر عليه قطعاً،

(٢) مقدمة في أصول التفسير (ص ٤٤-٤٥).

(١) البقرة: آية (١٩٥).

كقوله تعالى «وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى»^(١)، فإنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

وقد استدل بها الإمام فخر الدين الرازي مع قوله: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم»^(٢) على أنه أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ووهم من ظن أن الآية عامّة في كل من عمل عمله، إجراء له على القاعدة؛ وهذا غلط؛ فإن هذه الآية ليس فيها صيغة عموم إذ الألف واللام إنما تفيد العموم إذا كانت موصولة أو معرفة في جمع، زاد قوم: أو مفرد، بشرط، ألا يكون هناك عهد، واللام في «الأتقى» ليست موصولة لأنها لا توصل بأفعل التفضيل إجماعاً، و«الأتقى» ليس جمعاً بل هو مفرد والعهد موجود، خصوصاً مع ما يفيد صيغة «أفعل» من التمييز وقطع المشاركة فبطل القول بالعموم وتعين القطع بالخصوص والقصر على من نزلت فيه رضي الله عنه^(٣).

ويقول العلامة الشيخ عبد المجيد غزلان رحمه الله في كتابه الفذ:
"البيان في مباحث من علوم القرآن":

قال السيوطي بعد ذكر الخلاف في أن العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب "قد علمت مما ذكر أن فرض المسألة في لفظ له عموم. أما آية نزلت في معين ولا عموم للفظها فإنها تقصر عليه قطعاً كقوله تعالى «وسيجنبها

(١) الليل: آية (١٨) .

(٢) الالتقان (١١٢/١ - ١١٣).

(٣) الحجرات: آية (١٣) .

الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى» فإنها نزلت في أبي بكر الصديق بالإجماع
ثم استدل على أن لفظ «الأتقى» في الآية لا عموم له بأن «أل» فيه
عهدية لاجنسية فيكون دالاً على معهود معين وهو من نزلت فيه الآية فلا
يتناول غيره ممن يفعل فعله فهو خاص لا عام حيث أريد به معين.

ولكن كون الآية نزلت في أبي بكر رضي الله عنه لا يقتضى أن «أل» في
الأتقى للعهد وأنه لا يتناول إلا معهوداً معيناً وهو من نزلت فيه الآية وإلا لزم
ذلك في كل آية نزلت على سبب خاص وعبر فيها عن نزلت فيه بلفظ مقترن
بأل أو باسم موصول فإن الموصول حكمه حكم المعرف باللام يجري فيه من
وجوه الاستعمال ما يجري في المعرف باللام. فكما يشار باللام إلى معهود
معين يشار بمفهوم الصلة إلى معهود معين أيضاً فيكون الموصول في هذه
الحالة خاصاً لا عاماً وعلى ذلك تكون جميع الآيات التي نزلت على أسباب
خاصة وعبر فيها عن من نزلت فيه بلفظ مقترن بأل كما هنا أو باسم موصول
كما في آيات اللعان والظهار خاصة لا عامة ولا قائل بهذا سوى القائلين
بخصوص السبب وقد تقدم بطلان قولهم.

وحيث إن نزول هذه الآية في معين لا يصلح قرينة على أن «أل» في
«الأتقى» عهدية وأن المراد به معهود معين تعين أن تكون جنسية فيكون اللفظ
عاماً متناولاً لمن نزلت فيه ولكل من هو على مثل صفته وهذا هو ما قاله غير
واحد من المفسرين في هذا اللفظ وفي لفظ «الأشقى» المذكور قبله سواء جعل
كل منهما أفعل تفضيل أو جعلاً بمعنى الشقى والتقى .

قال الجلال المحلي إن الأشقى بمعنى الشقي والأتقى بمعنى النقي ثم

قال إن هذه الآية وهي قوله تعالى «وسيجنبها الأتقى الخ » نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ثم قال " والآية تشمل من فعل مثل فعله رضي الله عنه، فيبعد عن النار ويثاب » .

وصرح ابن كثير بأن المراد من «الأتقى» التقى وصنيعه في تفسير الأشقي» يدل بوضوح على أن المراد به الشقي وأن الشقي هو الكافر وقد صرح بأن الآية وإن نزلت في أبي بكر إلا أنها بعمومها تشمل كل من فعل مثل فعله، وحمل الألوحي اللفظين على العموم في بعض الاحتمالات التي ذكرها فقال. المراد من الأشقي الكافر والمراد بالأتقى المبالغ في اتقاء الكفر والمعاصي فلا يحوم حولها، وجعلهما على هذا التفسير من قبيل أقبل التفضيل فإن الكافر أشقى من الفاسق والمبالغ في تجنب المعاصي أتقى ممن هو دونه فيكون الأشقى عاماً في كل كافر ويكون الأتقى عاماً في كل من لا يحوم حول المعاصي مع الاتصاف بالصفات الجارية على الأتقى فيما ذكر عقبه من آيات السورة الكريمة، ثم قال ويصح أن يكون المراد بالأتقى والأشقى التقى والشقي وشاع أقبل في مثل ذلك ومنه قول طرفة :

تمنى رجال أن أموت فإن مت فذلك سبيل لست فيها بأوحد

فإنه أراد بواحد؛

ومن الواضح البين أنه على هذا التفسير يكون كل من اللفظين على العموم كالتفسير الذي قبله وهو أنهما من قبيل أقبل التفضيل.

ومما سبق يتضح أنه ليس هنا حجة تقضى بأن أل في لفظ «الأتقى»

للعهد لا للجنس حتى يكون المراد به معيناً وهو من نزلت فيه فقط وإذا تكون جنسية ويكون اللفظ عاماً لا خاصاً لأن أل لا تحمل على العهد إلا لقرينة تصرفها إلى ذلك ولا قرينة هنا.

الحداثة وأسباب النزول .

« إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا »^(١).

إذا كان شأن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أخرجه الله تعالى لحمل هذه الرسالة العظيمة الخاتمة وقال له فيما أخرجه الإمام مسلم رحمه الله: "إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِي بِكَ"... أقول إذا كان هذا شأنه صلى الله عليه وآله وسلم، فلقد أدركت الأمة التي اختيرت لحمل هذه الرسالة ضخامة مسؤولياتها، وثقل واجباتها، وعظيم أعبائها فسهرت الليل ضاربة خاشعة، وشغلت النهار منافحة بالقلم مدافعة بالسيف، وهي في ذلك كله لا تحمل إلا الخير للإنسانية كلها، فما عرفت أمة في القديم والحديث صافحة متسامحة، ما عرفت هذه الأمة، اللهم إلا أن صفحها وتسامحها في القديم كان شيمة وجيلة؛ لأنها كانت ناشئة عن قوة، أما اليوم فلا أقول ما أشبه الليلة بالبارحة—كما يقولون— بل ما أبعد الليلة عن البارحة، وما أبعد الفرق، وأعمق الهوة بين صفح الأقوياء، وتسامح الضعفاء، وما هو في الحقيقة بتسامح.

كان لا بد من هذه المقدمة؛ ذلك لأن خصوم الإسلام يتعاملون معنا ومع هذا الدين بذكاء، فهو تعامل ناشيء عن قاعدة، ناشئة عن تخطيط، ويمكننا أن ندرك هذا بلا عناء، وننتيقن منه دون حاجة إلى إعياء في البحث، وصعوبة في الدرس.

(١) المزملة آية (٥) .

إن الناظر في الشبهات والفري التي كانت توجه لهذا الدين وأئمة
الأعلام قبل النصف الثاني من هذا القرن العشرين، يدرك أنها كانت تسفر
عن ضماير أصحابها، كانت شبهات غير مبطنة، كانت نيلاً مباشراً موجهاً إلى
جوهر الإسلام وحقيقته بلا تحفظ ولا موارد... لكن هذه الشبهات كانت - والله
الحمد - ذات نتائج طيبة لأنها نبهت المسلمين، حتى أولئك الذين لم يكن الدين
مستقراً في نفوسهم، مزيناً في قلوبهم؛ ذلك أن الذي يوجه السهام المسمومة
إلى القرآن الكريم، فيحكي عنه أنه أساطير، وإلى النبي صلى الله عليه وسلم
فيصفه بما يتناقض مع جليل قدره ورفيع منزلته، ويتهم الأئمة بسوء المسلك،
إنما يذكر بعمله هذا العواطف، وينبه العقول؛ لذا قولت هذه الشبهات وهذه
الغارة من الأكاذيب باستنكار، وانبرى ثلة مخلصه من ذوي الأفكار والأقلام
لإسكات هذه الأصوات، ومحو كل ما لها من أثر في النفوس.

وفي هذه المرحلة نذكر ما قام به كثير من المستشرقين، وما قلدهم فيه
كثير من المستغربين مما مر بك أو سيمر بك شيء منه إن شاء الله .
أما في النصف الثاني من هذا القرن فلقد تغيرت الجوقة وتبدل الحال
وسلك أولئك الخصوم مسلكاً آخر بعيداً عن مسلك سلفهم، لا يقوم على
المواجهة، ولا يتسم بالصراحة، إنما أساسه المراوغة والمكر والخبث فهم
باطنيون مغلفون، لكن هذا الأسلوب وذلك المنهج كان أكثر خطراً وأشد
ضرراً وأقرب إلى بلوغ هدفهم - وما هم بباليغيه إن شاء الله - . إنهم لا
يعلمون الكفر، بل لا يظهرون به كذلك، إن دعواهم في هذا النهج تستند إلى
الإسلام نفسه في مصادره الأصلية، بل قد تكون الغيرة التي يتظاهر بها

بعضهم، هي التي حملتهم على أن يصححوا بعض الأخطاء، وأن يقوموا
بعض ما رأوه من اعوجاج في التراث، فما أشبه حالهم بأولئك الذين أنذرتنا
القرآن الكريم منهم بقوله «والذين اتخذوا مسجداً ضراراً»^(١).

ولقد رأى أولئك أن أقصر خط وأقرب طريق يوصلهم إلى هدفهم ميدان
علوم القرآن، وميدان علوم السنة، وما من موضوع من موضوعات علوم
القرآن إلا كان لهم فيه سهم وسم.

وربما تاقَت نفسك أيها القارئ الكريم-وقد أطلت عليك إطالة دعت إليها
الحاجة- لتعرف نفثاتهم ونزعاتهم في أسباب النزول .

يتحدث هؤلاء عن أسباب النزول تارة بهذا العنوان، كما نجده عند
(نصر أبو زيد)، وتارة تاريخية القرآن كما نجده عند غيره، وهم مجتمعون
على تخطئة العلماء الذين كتبوا في علوم القرآن، كالسينوطي وغيره -رحمهم
الله تعالى- ويتهمونهم تهماً لا تتفق مع الموازين العلمية أو مقاييس الدق...
ولكن لم هذا كله؟ .

إنهم يتظاهرون بأن أولئك لم ينقوا الروايات مما فيها من خطأ، مما
جعلهم يفصلون بين النص وبين الواقع، لكن الغاية التي يريدون أن يصلوا
إليها-وهذه يؤكدونها كثير منهم في هذه الأيام- هي أن القرآن الكريم تأثر
بالبيئة في كل شيء، حتى في أوصافه للجنة والنار وما فيهما، وإذا كان
كذلك فتاريخية القرآن يلزم فيها أن ما جاء فيه لا ينبغي أن يتعدى العصر

(١) التوبة آية (١٠٧) .

الذي نزل فيه، فانظر أخي القارئ: كيف اختلف هذا الأسلوب عن الأساليب السابقة، إنهم لم ينكروا الوحي، ولم ينكروا نبوة النبي عليه وآله الصلاة والسلام، كما كان يفعل من قبلهم، وكل الذي أرادوا قوله: إن هذا القرآن هو ابن بيئته نزل لعصره فلا تتجاوز أحكامه وقيمه هذا العصر الذي نزل فيه والمسلمون-إذن- ليسوا ملزمين بما في هذا القرآن الكريم من أحكام وآداب، وحجتهم أن هذه الأحكام لكل منها سببه الذي نزل من أجله، وهذه الأسباب بالطبع كانت نتيجة بيئة خاصة.

الأحكام القرآنية-إذن- نزلت لأسباب، والأسباب وليده البيئة، نتيجة هذا كله أن القرآن لا ينبغي أن يتجاوز عصره وبيئته.

وهذه النتائج بينونها على مقدمات ليست صحيحة ولا قريبة من الصحة، فنحن نعلم علماً لا يتطرق إليه ريب -كما مر معك من قبل- أن القرآن الكريم منه ما نزل ابتداءً ومنه ما نزل لسبب، لكن الذي نزل لسبب كان قليلاً إذا ما قيس بالقسم الآخر.

ومع هذا فإن الدكتور (نصر أبو زيد) يخرق هذا الاجماع مقررأ في هذه القضية -التي ليست قضية- نسبية تقوم على الاجتهاد العقلي، بل هي قضية أساسها الاحصاء والحصص، ومن هنا فنحن نعجب كل العجب من هذا المسلك الذي يسلكه أولئك الكاتيون- مقررأ ما يعجب منه كل قارئ، حيث يقول في مبحث أسباب النزول:

* "إن الحقائق الامبريقية المعطاة عن النص تؤكد أنه نزل منجماً على بضع وعشرين سنة، وتؤكد أيضاً أن كل آية أو مجموعة من الآيات نزلت عند

سبب خاص استوجب إنزالها، وأن الآيات التي نزلت ابتداء -أي دون علة خارجية - قليلة جداً^(١).

ومعنى هذا القول أن جُلَّ ما في القرآن الكريم وأكثره نزل من أجل أمور تتصل بالبيئة، وعلى هذا فلا ينبغي للقرآن الكريم أن تتجاوز قيمه وأدابه وأحكامه عصر النبوة من جهة، وشبه الجزيرة العربية من جهة أخرى، هذا ما يقرره الدكتور أبو زيد، وهو يلتقي مع ما يقرره (أركون) وغيره، وهم الذين يصورون بأنهم ربّان المسيرة الفكرية.

ولا بد أن نتساءل هنا: لماذا تزور الحقائق، وتُصور بصورة هيكلية غريبة لا تمت إلى الواقع ولا إلى الحق بصلة ما؟!

ونحن إذ نناقش أولئك فلا بد من أن نبين لهم أولاً وللقرءاء ثانياً، أن الحقيقة مثل الشمس لا يستطيع أحد أن يطمس نورها، قد تكسف أحياناً قليلة، ولكن سرعان ما ينعم الله على الناس بضيائها، فالذي نزل من القرآن الكريم بسبب أقل كثيراً كما قلنا من قبل، هذا أولاً^(٢).

أما ثانياً فلا بد أن ننظر في هذه الأسباب التي نزلت الآيات الكريمة فيها: أهى حوادث خاصة؟ لا تعني إلا أولئك الذين نزلت فيهم زماناً ومكاناً، أهى حوادث ضيقة النطاق؟ إقليمية المنشأ؟ لا تعني إلا من نزلت فيه ولا تتجاوزه إلى غيره لأنها أمور خاصة؟ أهى كذلك أم هي أمور عامة تتجاوز

(١) مفهوم النص ص ٩٧ .

(٢) خذ مثلاً كتاب الواحدى الذي يعد أوسع الكتب في هذا الشأن فإن مجموع الآيات التي تحدث

عن أسبابها يقارب (٦٠٦) آية مع الأخذ بعين النظر أن كثيراً من هذه الأسباب هو موضع نقاش.

فتأمل كيف جعل أبو زيد هذا العدد هو أكثر القرآن!!

الزمان والمكان، وتعني الإنسانية كلها، تتصل بالأحياء ما دامت الحياة؟^(١)
للإجابة عن هذا التساؤل يجدر بنا أخي القارئ أن تعرض بإيجاز إلى
بعض الأسباب سواء مما عرفته من قبل أم من غيره.

نزل قول الله سبحانه «إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس
بما أراك الله.... وكان فضل الله عليك عظيماً»^(٢) في شأن أحد المنافقين وقد
سرق، ولكي يبزوه قومه قالوا: إن السارق يهودي ظناً منهم بأن هذا القول
سيقبل منهم؛ لأن التهمة ألصقت بيهودي، وموقف اليهود من الإسلام ظاهر.
لكن الله تبارك وتعالى أنزل في هذه الآيات الكريمات إرشاد نبيه صلى الله
عليه وسلم وبيان وجه الحق حيث برئ اليهودي مما ألصق به .

أسبب هذه الآيات الكريمات خاص لا يتجاوز زمان النزول ومكانه ؟ أو
هو سبب عام يحقق قاعدة من القواعد التي أقيمت عليها السماوات والأرض،
قاعدة العدل؟ اللهم إنه كذلك!

وقد تقدم لكم سبب نزول قوله سبحانه «يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا
راعنا وقولوا انظرونا»^(٣) وقوله «ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم»^(٤) وقوله سبحانه
«واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك»^(٥)، وقوله «لا يتخذ المؤمنون
الكافرين أولياء من دون المؤمنين»^(٦) وكلها تحذير للأمة من مكر عدوها، فهي

(١) النساء آية (١٠٥-١١٣) .

(٢) البقرة آية (١٠٤) .

(٣) آل عمران آية (٧٣) .

(٤) المائدة آية (٤٩) .

(٥) آل عمران آية (٢٨) .

صمامات أمان تقي الأمة - إن تدبرت- كثيراً من المخاطر والمصائب والمصائد.

والمستعرض للآيات التي نزلت لأسباب معينة، لا يتردد ألبتة في أن هذه الأسباب والحوادث ليست إلا أموراً عامة لا تتصل ببيئة مخصوصة، أو فئة مخصوصة، بل تعم الناس جميعاً مهما اختلفت مبادئهم واتجاهاتهم، أفيقال بعد ذلك: إن أكثر الآيات الكريمة نزلت لسبب، وإن هذه الأسباب دليل على أن القرآن ابن بيئته، شبّ فيها وهرم وتلاشى ؟!

ثالثاً: ولماذا القرآن هو الذي يوصم ويُتجنى عليه؟ أقول لأولئك لماذا القرآن وحده؟، أما غيره فعلى الرغم من القدم التاريخي فلا يزالون يحيطونه بهالات التقديس، بل يمنعون من أن تحوم حوله شائبة شبهة، بل يجعلونه الأصل لكثير من ألوان الثقافة والعلم والأدب في أيامنا هذه، هذا هو أرسطو الذي كان قبل نزول القرآن الكريم بألف سنة لا زالت عند أولئك كتبه وآراؤه في الفلسفة والنقد والشعر والخطابة والأدب منارات يهتدي بها أولئك القوم، وقواعد يصدرّون عنها في أحكامهم، ومراجع يرجع إليها في الجامعات، ويتسابق المتسابقون في ترجمتها وشرحها، وكذلك القانون الروماني، الذي وضعت أسسه الأولى قبل نزول القرآن الكريم بثلاثة عشر قرناً .

لماذا القرآن وحده ؟! الذي أنزله الله يهدي للتي هي أقوم، وينعم الناس في ظلاله الوارفة، وجناه الداني... ولماذا هالات التقديس لما ليس بمقدس ؟.

إن القضية- إذن- ليست نتيجة مصادفة، وليست رداً لكل قديم، إنما

هي درس دُبّر وخطط، بل ذهب أركون الذي يعدونه كبيرهم الذي علمهم السحر، لكنه يختلف عن كبير السحرة في عهد موسى عليه الصلاة والسلام؛ لأن ذاك عرف الحق فأمن «وألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون»^(١)، [أقول بلغ الأمر به مبلغاً عجباً حيث لا يرضى أن يسمى القرآن الاسم الذي سماه الله به، يسميه المصحف ويدعي أن هذه التسمية تقال للتوراة والإنجيل]، والأمر ليس كذلك، إن المصحف إنما هو القالب الذي كتب فيه القرآن، لكنّ (أركون) لا يرى هذه التسمية، كأنه يرى أن القرآن الكريم الذي نزل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس هو الذي نعرفه اليوم.

إن ما يقوله أولئك لا يختلف كثيراً عما قرره المستشرقون من قبلهم، ومن قبل المستشرقين، اللهم إلا أنهم ألبسوه ثوباً جديداً وغيّروا بعض ملامحه وعرضوه بأسلوب وشكل وهيكل مخالف لمن قبلهم .

على أن القرآن الكريم سيبقى في قدسيته وأحكامه ونظمه المنارة الكبرى. تهتدي به الإنسانية، «ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً»^(٢).

بقيت قضية يركز عليها أولئك؛ لأنهم يرون أنها تخدم أغراضهم، وهي في حقيقة الأمر تظهر أمراضهم، تلكم هي أزلية النص القرآني التي بنوا عليها كثيراً من النتائج، وراحوا يلتمسون لها الأدلة التي لا تثبت.

(١) الشعراء آية (٤٦-٤٨) .

(٢) المائدة آية (٤١) .

وخلاصة قولهم في هذه القضية: أن القرآن الكريم، إن كان أزيلاً فما معنى نزوله على أسباب خاصة، بل نزول أكثره، كما يقول الدكتور نصر أبو زيد، وقد ردنا على هذه القضية من قبل وبيننا أن الذي نزل لسبب قليل إذا ما قيس بغيره، فأزلية القرآن تتنافى مع كونه نزل على أسباب... ونزوله على أسباب-إذن- يرد القول بأزليته، فكون كلام الله القديم لا يتفق مع ما يقال من أنه إنما أنزل ليصحح أحداثاً، ويبين أموراً وقعت عند نزول آياته، وهم لا يودون أن يصرحوا بأن هذا القرآن ليس جديراً بالقداسة، بل حريٌّ به أن يخضع لموازين النقد.

وهذا يذكرنا بما حدث في العشرينات من هذا القرن، يوم أن بين الدكتور طه حسين لطلابه في كلية الآداب أن القرآن الكريم ينبغي أن يوجه إليه النقد مثل أي كتاب آخر، مما جعل طلاب كلية الحقوق في الجامعة المصرية -كما كانت تُسمى- يثورون على هذا القول ويحتجون على ذلكم الإلحاد... فالقرآن الكريم كتاب الله الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة، الكبير المتعال، يعلم ما في البر والبحر، «وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين»^(١).

فأزلية القرآن لا تتنافى ولا تتناقض مع كونه نزل منجماً يصحح الأخطاء، ويقوم الأعوجاج، ويواكب الحوادث ليصلحها، وهذا الترتل المنجم لا

(١) الأنعام آية (٥٩) .

يتعارض مع ترتيبه سوراً وآيات، فالقرآن أزلي، علم الله نزوله في زمان ما، ومكان ما، وقدّر أن يكون هناك أسباب لنزول بعض آياته المحكمة، وأي استحالة، بل أي صعوبة في هذا؟ نحن نرى اليوم أن من البشر من يخطط لسنين مستقبلية، بل نجد أن الاستعمار كان يخطط للشعوب الضعيفة تخطيطاً مرحلياً دقيقاً، بحيث كان يتحقق جُلّ ما كان يتوقعه...

والذي عرف تاريخنا منذ حرب فلسطين، وقبل حرب فلسطين، كيف كنا وإلى أي مدى وصلنا؟ يدرك صحة ما أقول... فإذا كان هذا شأن البشر فيما يخططونه ويتوقعون فلماذا هذه المغالطات؟ ولماذا التعمية في الأمور؟ ولماذا تغطية الحقائق؟ ولماذا القرآن الكريم هو الذي تثار حوله الشبهات وتنسج حوله هذه الخيوط الباهتة من الريب والشوائب؟ إن ما اشتمل عليه القرآن من تصحيح الحوادث أمانة حيويته وصدقه.

وأختم بهذا المبحث موضوع أسباب النزول، راجياً أن أكون قد أكرمني الله تبارك وتعالى ببيان هذا الموضوع بياناً شافياً، جُلّي حقائقه، وأزال إشكالاته. وابهاماته، وهو الله سبحانه وليّ كل نعمة، وصلى الله وبارك وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه تسليماً كثيراً.

رَفَعُ

الفصل التاسع

المكي والمدني

عبد الرحمن الأفريقي
أسكنه الله الفردوس

ونتحدث فيه عن :

١- تعريف المكي

موازنة بين الأقوال

٢- فائدة معرفة المكي والمدني

٣- كيفية معرفة المكي والمدني

ضوابط المكي

ضوابط المدني

خصائص ومميزات كل من المكي والمدني

أقوالهم في المكي والمدني

شبهات حول المكي والمدني

تفنيد هذه الشبهة

تقسيم القرآن الكريم إلى مراحل

مناقشة لما ذكره

خطأ تقسيم القرآن إلى مراحل

الفصل التاسع

المكي والمدني

مكة المكرمة والمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم، مهد الإسلام ومعقله ومنطلقه، ولقد نزل أكثر القرآن الكريم فيهما، لذا رأينا العلماء يقسمون القرآن الكريم إلى مكي ومدني، ويعنون بهذا المبحث، وهو بحاجة إلى عناية وتحليل. وإن حديثنا السابق عن أسباب النزول، قد أغنانا عن كثير من مسائل هذا المبحث - أعني المكي والمدني - فإن بين المبحثين صلات ووشائج.

وحديثنا عن المكي والمدني ينتظم الأمور التالية:-

أولاً: تعريفهما.

ثانياً: أهمية معرفة المكي والمدني وفوائده.

ثالثاً: كيفية معرفة المكي والمدني.

رابعاً: الضوابط والخصائص لكل منهما.

خامساً: السورة المكية والمدنية وما يتصل بذلك مما اتفق عليه واختلف

فيه.

سادساً: الشبهات التي أثارت حول المكي والمدني.

أولاً: تعريف المكي والمدني:

اختلف العلماء في تعريف المكي والمدني تبعاً للجهة التي نظر كل منهم إليها عند التقسيم، وخلاصة ذلك أن بعضهم نظر في تقسيم المكي والمدني إلى المخاطبين، وبعضهم نظر إلى المكان، وآخرون نظروا إلى الزمان.

فالذين نظروا إلى المخاطب قالوا: إن المكي ما كان خطاباً لأهل مكة، وإن المدني ما كان خطاباً لأهل المدينة، والذين نظروا إلى المكان قالوا: إن المكي ما نزل في مكة، وإن المدني ما نزل في المدينة، أما الفريق الثالث وهم الذين نظروا إلى الزمان وهم الأكثرون من العلماء فقالوا: إن المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعد الهجرة.

موازنة بين هذه الأقوال:

وإذا نحن وازنا بين هذه الأقوال الثلاثة، فإننا سنعتمد منها قولاً واحداً وهو الذي ارتآه وارتضاه جمهور العلماء، وإليك بيان ذلك:-

أما القول الأول: فغير مطرد ولا منضبط، ذلك أن كثيراً من آيات القرآن بل بعض سوره أيضاً ليس فيها خطاب لأهل مكة ولا لأهل المدينة، وهناك سور جاءت خطاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم. سورة الشمس مثلاً ليس فيها خطاب لأحد وكل من الضحى، الشرح، والكوثر خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم إن هناك سوراً من سور القرآن الكريم اشتملت على خطاب المؤمنين مثل «يا أيها الذين آمنوا» وعلى خطاب الناس جميعاً مثل «يا أيها الناس» مع أنها مدنية باتفاق، وذلك كسورتي البقرة والنساء، لذا فهذا القول ليس حريماً بالقبول.

أما القول الثاني: فهو ليس منضبطاً ولا منحصراً، فإن كثيراً من آي القرآن الكريم، لم يكن نزولها في مكة أو المدينة، ألا ترى أن سورة براءة نزل كثير منها في تبوك، وسورة الفتح نزلت في منصرفه صلى الله عليه وسلم

من الحديبية، وهناك آيات نزلت في بعض أماكن الغزوات، وسيمر طرف من هذا في بعض الموضوعات.

والخلاصة: أن كلا القولين غير جامع ولا مانع، ويلزم عليهما أن تكون القسمة غير ثنائية.

والقول الثالث: خالٍ عن كل هذه الاعتراضات، فالقسمة عليه ثنائية، فالمكي ما نزل قبل الهجرة، أيًا كان المكان الذي نزل فيه، والمدني ما نزل بعد الهجرة حتى إن كان المكان الذي نزل فيه مكة فإنه لا يخرج عن كونه مدنيًا؛ لذا عد العلماء قوله تعالى: «اليوم اكملت لكم دينكم» مع اتفاقهم أنها نزلت في عرفة، من القسم المدني، ذلكم أن هذا القول لوحظ فيه إقامة النبي صلى الله عليه وسلم، فطيلة إقامته في مكة سمي القرآن مكيًا، حتى لو نزل في الطائف أو بيت المقدس، وطيلة إقامته صلى الله عليه وسلم في المدينة، سمي القرآن مدنيًا ولو نزل في مكة المكرمة أو تبوك.

المكي -إذن- ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها، وذلك تقسيم منضبط جاسر؛ لذلك كان هو المختار عند العلماء -رحمهم الله-

ثانيًا: فائدة معرفة المكي والمدني:

إن عناية المسلمين بالبحث عن المكي والمدني تعكس لنا الصورة المشرقة لعنايتهم بالقرآن الكريم، واهتمامهم به، وفي تلك العناية وذلك الاهتمام لأعظم دليل على سلامة النص القرآني من كل شائبة نقص أو زيادة أو تحريف.

ومن فوائد معرفة المكي والمدني كذلك الوقوف على السياسة الحكيمة التي سلكها القرآن الكريم في تربية هذا الإنسان، هذه السياسة التي تقوم

على التدرج في الأحكام والتكاليف، وعلى البداية بالأولويات التي تتلاءم مع ما تقتضيه تلك التربية الحكيمة "وقد تقدم لنا ما جاء عن السيدة عائشة في مبحث أول ما نزل وآخر ما نزل".

وعلى سبيل المثال: اشتمل القرآن المكي على تثبيت العقيدة في النفوس، والنهي عن الرذائل والأخلاق السيئة، وعمل على تثبيت هذه كلها بما ذكره من أنباء الأولين وقصصهم، كذلك كانت هناك إشارات ولحات لبعض القضايا الكبرى التي فُصل فيها القول التام في القرآن المدني، من ذلك الإشارة إلى ذم الربا والخمر، أما الربا ففي قوله سبحانه: «وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله»^(١)، وسورة الروم مكية، وأما الخمر ففي قوله سبحانه: «ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون من سكرًا ورزقًا حسنًا»^(٢)، حيث وصف الرزق بالحسن، ونفي هذا الوصف عن الخمر، وهي لمحة ذكية يدركها العرب بفطنهم وسلائقهم.

وقد ذكروا من فوائد المكي والمدني كذلك معرفة الناسخ من المنسوخ، وأقول إن المتتبع بدقة للآيات المنسوخة في القرآن الكريم لا يجد في الحقيقة آيات مكية منسوخة، اللهم إلا ما قيل عن آية المزمل وهي قوله: «يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً»^(٣) وسيأتي لهذا بسط في موضع النسخ إن شاء الله. ومن فوائد معرفة المكي والمدني تيسير فهم الموضوعات القرآنية بحيث

(١) الروم: آية (٣٩).

(٢) المزمل: آية (١-٢).

(٣) النحل: آية (٦٧).

تدرس القضايا القرآنية دراسة موضوعية مبنية على الترتيب الزمني بحيث تجمع النجوم المتفرقة في الموضوع الواحد الأول فالأول، وهذه الطريقة المثلى لدراسة ما يعرف اليوم بالتفسير الموضوعي.

ثالثاً: كيفية معرفة المكي والمدني:

كيف نعرف المكي والمدني؟ وما هي الطرق التي بوساطتها نستطيع أن نحكم على كلٍ منها؟.

ذكر العلماء لمعرفة المكي والمدني طريقين اثنين: أحدهما: سماعي عمدته النقل، كأن يقول بعض الصحابة أو التابعين رضي الله عنهم، نزلت سورة كذا في المدينة، أو نزلت سورة كذا قبل الهجرة، كما روي عن السيدة عائشة أن قوله: «بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر» في سورة القمر^(١)، نزلت وهي طفلة في مكة، وأن سورة النساء نزلت في المدينة وهي في بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، وكما روي عن بعض الصحابة أن قوله تعالى: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة»^(٢) نزلت في شأن الأنصار... ومن تتبع هذا فسيجد كثيراً من هذا القبيل.

ويلحق بهذا أن نتحدث السورة الكريمة عن أمر عرف زمانه ومكانه، وذلك كسورة الأنفال التي نتحدث عن غزوة بدر، وسورة الإسراء التي تحدثت عن حدث الإسراء، ومن البدهي أن الأولى مدنية والثانية مكية. والثاني: قياسي وهو ضوابط وخصائص لكل منهما.

(٢) البقرة: آية (١٩٥).

(١) القمر: آية (٤٦).

ضوابط المكي:

على أننا يجب أن ننبه هنا قبل التحدث عن هذه الضوابط، على أنها ليست عامة، بمعنى أنها ليست في جميع السور المكية أو المدنية، كما ستعلمونه إن شاء الله.

١- وعلى سبيل المثال ذكروا من ضوابط المكي وجود كلمة (كلا)، التي ذكرت ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها مكية، فكلما لم تذكر في جميع السور المكية، لأن السور المكية أكثر من هذا العدد.

٢- كل سورة فيها سجدة فهي مكية، وهذان ضابطان مطردان، على معنى أن السور المدنية ليس فيها كلا، وليس فيها سجدة.

٣- كل سورة ذكر فيها قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، من حيث دعوتهم لأقوامهم لعبادة الله وحده، والابتعاد عن الرذائل الاجتماعية، واستثنى بعضهم سورة البقرة، ولا أرى ضرورة لهذا الاستثناء؛ لأن ما ذكر في سورة البقرة من ذكر إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام ليس من هذه الحثية؛ أعني حثية الدعوة إلى توحيد الله ونبذ عبادة غيره، فالحديث عن موسى عليه الصلاة والسلام كان عما جرى بينه وبين بني إسرائيل في قضايا خاصة، والحديث عن إيلنا إبراهيم أبي الانبياء وشيخ الحنفاء عن بناء الكعبة وما يتصل به.

ثم إذا استثنينا سورة البقرة، فلا بد أن نستثنى غيرها من السور المدنية، ففي سورة آل عمران قصة امرأة عمران وزكريا، وفي سورة المائدة نبأ من قصة موسى عليهم الصلاة والسلام.

٤- كل سورة ابتدئت بالحروف المقطعة فهي مكية إلا الزهراوين البقرة
وآل عمران.

٥- كل سورة ذكرت فيها قصة آدم عليه الصلاة والسلام فهي مكية إلا
سورة البقرة، حيث ذكروا فيها «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض
خليفة...»^(١).

٦- كل سورة انفردت بـ (يا أيها الناس) دون نداء المؤمنين، وذلك مثل
سورة يونس، وسورة الأعراف، أما إذا اجتمع النداءان، فالسورة مدنية، وذلك
مثل سورة البقرة، وسورة النساء، فقد ذكر فيهما «يا أيها الناس» و«يا أيها
الذين آمنوا».

على أن هذين النداعين ذكرا في سورة الحج كذلك، وقد اختلف فيها،
وسياتيك نبؤها بعد حين إن شاء الله.

وإذا عرفنا هذا ندرك عدم دقة، بل خطأ المقولة التي شاعت عند كثير
من الناس وهي أن كل ما في القرآن من (يا أيها الناس) مكّي، فقد رأينا أن
هناك آيات كثيرة مدنية. أما (يا أيها الذين آمنوا) فكلها مدنية باتفاق "وإذا
سألت عن سبب ذلك فإن الإجابة ميسرة إن شاء الله، فـ «يا أيها الناس»
تصلح أن تكون في المجتمع المكّي والمدني، لأن هذا النداء للناس، أيأ كان
المكان الذي هم فيه، فهم في مكة المكرمة، وهم في المدينة المنورة على ساكنها
أفضل الصلاة والسلام، أما «يا أيها الذين آمنوا» فإنها ليست إلا في المدينة
المنورة؛ ذلك أن المسلمين لم يكن لهم في مكة المكرمة مجتمع خاص بهم.

(١) البقرة: آية (٢٠).

ضوابط المدني:

١- كل سورة ذكرت فيها الحدود والفرائض، فسورة النساء التي ذكرت فيها الفرائض، وسورة المائدة وسورة النور، اللتان ذكر فيهما بعض الحدود هي سور مدنية باتفاق.

٢- كل آية أمرت المسلمين بالجهاد والقتال، ولم أقل كل سورة ذكر فيها الجهاد؛ ذلك أن هناك فرقاً بين ذكر كلمة الجهاد في سورة، وبين أمر المسلمين بهذا الجهاد أو ترغيبهم فيه، فقوله سبحانه: «والذين جاهدوا فينا»، وهي آخر آية في سورة العنكبوت، آية مكية عند أكثر العلماء.

٣- كل سورة ذكر فيها المنافقون إلا سورة العنكبوت، وهذا ما يراه أكثر العلماء كذلك. والذي أرجحه أن الآيات التي ذكر فيها المنافقون مدنية، حتى في سورة العنكبوت؛ لأن هذا المصطلح -المنافقون- لم يظهر إلا في المدينة المنورة.

خصائص ومميزات كل من المكي والمدني.

ولعلك تتساءل -حفظك الله- عن الفرق بين الضوابط وبين الخصائص والمميزات؟ فاعلم أن الضوابط هي علامات ظاهرة قد تكون لفظية أو معنوية، إذا وجدت في سورة ما قيل إنها مكية أو مدنية، وما عليك إلا أن ترجع إلى الضوابط التي ذكرناها.

أما الخصائص والمميزات فهي الأصول والمقاصد والأغراض والأساليب التي امتاز بها كل قسم^(١).

(١) البيان في مباحث من علوم القرآن/ عبد الوهاب عبد المجيد غزلان ص ١٣١.

خصائص القسم المكي:-

نزل القرآن الكريم في مكة، وأهلها انذاك مشركون يعبدون الأصنام وينكرون البعث، ومهما كان لهم من عادات طيبة فطروا عليها كالكرم والشجاعة، فقد كانت هناك عادات سيئة، وذنابل اجتماعية: كانوا يئنون البنات، ويقتلون الأولاد خشية إملاق، يقربون القرابة، ويرفعون شأن القبيلة فوق كل شأن؛ لذلك كانت عناية القرآن الكريم تتركز على تغيير عقائدهم، وذلك كتثبيت عقيدة التوحيد في القلوب، وعلى تحويل العادات والأعراف إلى ما يتلاءم مع حقبة الدين الجديد وإنسانيته وعالميته.

لذا كان من أصول القسم المكي الدعوة إلى التوحيد، ومناقشة المنكرين له، وإقامة الأدلة عليه. نقرأ ذلك في سورة الأنبياء «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا»^(١) وفي سورة المؤمنون «ما اتخذ الله من ولد وما كان منه من إله»^(٢) وفي سورة النمل «أمن خلق السماوات والأرض....»^(٣).

وضرب الأمثال لذلك كما نقرأ في سورة النحل «فلا تضربوا لله الأمثال....»^(٤) وفي سورة الروم «ضرب لكم مثلاً من أنفسكم»^(٥) وفي سورة الزمر «ضرب الله مثلاً»^(٦).

كما بثت قواعد إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام، ورد شبهات الذين يزعمون أن الرسل لا يكونون من البشر، وأن الرسالة تخضع لمقاييس الناس، ومكانتهم «الله أعلم حيث يجعل رسالته»^(٧).

(١) الأنبياء: آية (٢٣). (٢) المؤمنون: آية (٩١).

(٣) النمل: آية (٦٠). (٤) النحل: آية (٧٤).

(٥) الروم: آية (٢٨). (٦) الزمر: آية (٢٩). (٧) الأنعام: آية (١٢٤).

كما ثبت عقيدة البعث وناقش ما يحيك في صدور القوم، وقد شبهاتهم،
ودعا إلى مبادئ الأخلاق الفاضلة.

ولما كانت أخبار الأولين من أعظم الرسائل المؤثرة في النفوس، كثرت
فيه القصص، قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبخاصة تلك التي
تتصل بدعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أقوامهم إلى توحيد الله، ونبذ
العادات السيئة.

تصحیح عقيدة الألوهية، والإيمان بالرسالات، وعقيدة البعث، والدعوة
إلى الأخلاق الفاضلة، وطرح الأخلاق الذميمة، هي أصول القسم المكي، ولقد
سلك القرآن الكريم لتثبيت هذه المبادئ ذكر قصص الأولين وضرب الأمثال.

أما من حيث الأسلوب، فقد يمتاز كثير من السور المكية بالقصر، وقصر
الآيات، والجزالة في تقرير القواعد، وعرض الأحداث والمشاهد، وذلك لسليقة
القوم وسلامة فطرتهم اللغوية، ونبذهم لكل ما هو جديد، فكانت آياته قوارع
مزمجرة كأنما هي الرعد القاصف، هذا إن كانت بعيداً، أما إذا كانت وعداً
فلا تسل عن عنوبتها وسلاستها.

ولنتدبر سورة الحاقة، سورة الغاشية، وسورة المرسلات والإنسان،
وسنجد ما تقشعر له الجلود، ويثلج الصدور.

على أن من القسم المكي سوراً طويلة كسورتي الأنعام والأعراف، وذلك
لما فيهما من كثرة الحجج كما في الأولى، والقصص كما في الثانية.

خصائص القسم المدني:

ما أعظم شأن القرآن الكريم في تربية النوع الإنساني، أما وقد ثبتت

العقيدة في القلوب، وصقلت النفوس، وطرح السيء من العادات، فما أحوج الناس إلى ما ينظم شؤون حياتهم، وعلاقاتهم في مناحي الحياة المتعددة، وهذا ما تكفل به القسم المدني، حيث ذكر فيه كثير من الأحكام التفصيلية التي تنظم شؤون الحياة، وتعرف كل واحد بما له وما عليه، لذا كانت الأحكام جُلها في هذا القسم المدني.

ومما امتاز به هذا القسم كثرة الحديث عن أهل الكتاب، ودعوتهم إلى الحق ومناقشتهم في بعض ما حرقوه وبدلوه.

كما اشتمل هذا القسم على فضح المنافقين، والتحذير من الأعيبهم ومكرهم وكيدهم ذلكم أن النفاق لم يكن مشتهراً في مكة.

ومن خصائص القسم المدني بيان أحكام الجهاد والقتال، تمشياً مع طبيعة هذا الدين الذي جاء يحرر الناس من العبودية؛ والحديث عن اليهود وتحذير المسلمين منهم، وبيان صفاتهم، وشدة عداوتهم للمؤمنين، وحقدهم على الاسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم.

هذه أصول القسم المدني. أما من حيث الأسلوب فيمتاز بطول آياته وكثير من سوره، ذلك لأن الحديث عن الأحكام يحتاج إلى شرح وتفصيل.

رابعاً: السور المكية والمدنية، وما يتصل بذلك.

لعل هذا المبحث هو أخطر ما في المكي والمدني، لكثرة ما فيه من الأقاويل والدعوى التي تحتاج إلى تمحيص وتحقيق. وقد ذكروا أن سور القرآن الكريم منها ما هو مكي خالص، ومنها ما هو مدني خالص، وقالوا إن هناك سوراً مكية فيها آيات مدنية، وسوراً مدنية فيها آيات مكية، وهذه لا بد

لها من مناقشة فيما بعد .

وهناك روايات كثيرة في بيان السور المكية والمدنية، ونرى أن أقربها إلى القبول ما نقله السيوطي عن ابن الحصار وهي: "أن المدني باتفاق عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشر سورة، وما عدا ذلك مكي باتفاق". وقد نظمها في أبيات، فالمتفق عليه: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، النور، الأحزاب، محمد صلى الله عليه وسلم، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الجمعة، المنافقون، الطلاق، التحريم، النصر. والمختلف فيه: الرعد، الرحمن، الصف، التغابن، الجن، المطففين، القدر، البيئة، الزلزلة، الاخلاص، الفلق، الناس^(١).

ومع كون هذه الرواية هي أقرب إلى القبول -كما قلت- إلا أننا نرى أنه لا بد من إجراء بعض التعديل عليها، والذي نرجحه أن سورتي الصف والتغابن مدنيتان، وكذلك المعوذتان.

أقوالهم في المكي والمدني.

إن قضية المكي والمدني حرية بالعناية القصوى من العلماء جديرة بأن تصفى من كثير من الشوائب وما أكثرها، فلقد ذكروا أنواعاً كثيرة تتصل بهذا الموضوع، آيات مكية لها حكم المدني، أو مدني لها حكم المكي، وآيات مكية في السور المدنية، ومدنية في السور المكية، إلى غير ذلك، وقد نقل السيوطي عن أبي قاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري في كتابه

(١) الإتيان في علوم القرآن/ السيوطي (١/٤٤).

التنبية على فضل علوم القرآن: - قال:

”من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته، وترتيب ما نزل بمكة
والمدينة وما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكّي، وما نزل
بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، وما يشبه نزول المكّي في
المدني، وما يشبه نزول المدني في المكّي، وما نزل بالجحفة وما نزل ببيت
المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية وما نزل ليلاً وما نزل نهاراً،
وما نزل مشيعاً وما نزل مفرداً، والآيات المدنيات في السور المكّية، والآيات
المكّية في السور المدنية، وما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة
إلى مكة، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة وما نزل مجملاً وما نزل
مفسراً، وما اختلفوا فيه، فقال بعضهم: مدني وبعضهم مكّي. فهذه خمسة
وعشرون وجهاً من لم يعرفها ويميز بينها لم يحلّ له أن يتكلم في كتاب
الله^(١)

وهذا القول لا يخلو من مبالغة وغلو، ولقد ذكر السيوطي -رحمه الله-
وهو يتحدث عن الآيات المكّية في السور المدنية وعكس ذلك أن الحافظ ابن
حجر يرى أنه لا مانع من وجود آيات مدنية في السور المكّية، أما عكس ذلك،
وهو وجود آيات مكّية في السور المدنية فنادر، وكأن السيوطي -رحمه الله-
لا يسلم للحافظ قوله حيث ذكر أمثلة لهذين النوعين، والناظر في كتاب
الإتقان لا يجد سورة من السور القرآنية الكريمة إلا وذكر اختلاف العلماء

(١) الإتقان (٣٦/١).

في مكيتها ومدنيتها، وكثير من الروايات التي ساقها -رحمه الله- لا تقوى أمام التحقيق العلمي.

ونحن مع الحافظ -رحمه الله- بل نذهب إلى أبعد مما ذهب إليه، حيث قال رضي الله عنه: "إن الآيات المكية في السور المدنية أمر نادر" والذي يظهر لي أنه شيء لا وجود له، فلا يعقل أن تنزل الآية في مكة المكرمة، وأن تبقى سنين طويلة لا مكان لها إلى أن تنزل السورة في المدينة المنورة، ثم توضع تلك الآيات، أو الآية، أو الآيتان في تلك السورة. وكنت أود أن أتعامل مع المكي والمدني من حيث تمحيص الروايات كما ذكرت لك في أسباب النزول، لكنني خشية التطويل سأؤجز القول محيلاً على ما ذكرته في أسباب النزول. وننبه هنا على أن ما استثنوه في السور المكية من آيات مدنية يظهر فيه الغلو والتكلف في كثير من الأحيان، وقل أن نجد سورة من السور المكية، إلا وقد استثنوا منها آيات قالوا إنها مدنية، وفي أغلب الأحوال يكون هذا الاستثناء لأسباب واهية، إما رواية ضعيفة، وإما ذكر كلمة وهم أنها ليست مما ينزل في مكة، وإما حمل بعض الكلمات على تفسير معين.

ومن امثلة ذلك أن كل آية ذكرت فيها الزكاة استثنوها بحجة أنها مدنية، لأن الزكاة إنما فرضت في المدينة، كذلك كل آية ذكر فيها التسبيح، مثل «فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون» في سورة الروم، ومثل «فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب» في سورة ق، قالوا لأن التسبيح هنا يعني الصلوات الخمس، كذلك كل آية ذكر فيها أهل الكتاب... وهذا أمر غير مسلم؛ فإن لفظ الزكاة كان معروفاً في مكة، وكان يعني شيئاً

من البذل والعطاء، كذلك التسبيح قد زخرت به أي القرآن الحكيم، ولم نقصرُ
معنى التسبيح على الصلوات الخمس؟.

كذلك ذكر أهل الكتاب، فأهل الكتاب معروفون بهذه التسمية قبل أن
يهاجر النبي عليه وآله الصلاة والسلام ثم إن كثيراً من هذه الاستثناءات
ترده وحدة النظم وإحكام السياق القرآني.

والمطلع على ما ذكر في كتب القوم، إن تدبر فسيعجب مما يجد...
وإليك أمثلة على هذه الاستثناءات.

١- فاتحة الكتاب: تقدم القول عنها في مبحث أسباب النزول.

٢- سورة البقرة: أجمعوا على مدنيتهما، ولكن السيوطي استثنى
آيتين «ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من
عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره
إن الله على كل شيء قدير»^(١). وقوله تعالى: «ليس عليك هدام ولكن الله
يهدي من يشاء، وما تنفقوا من خير فلاأنفسكم، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه
الله، وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون»^(٢). ولم يذكر دليلاً على
الاستثناء، والحق أنهما مدنيتان.

٣- سورة آل عمران: أجمعوا على مدنيتهما، والأمر كذلك.

٤- سورة النساء: أجمعوا على مدنيتهما، واستثنى بعضهم قوله
تعالى: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها»^(٣) وقد تقدم القول فيها

(١) البقرة: آية (١٠٩). (٢) البقرة: آية (٢٧٢). (٣) النساء: آية (٥٨).

في أسباب النزول، والحق أنها مدنية، والزعم بأن فيها آيات مكية لما ورد فيها من قوله سبحانه: «يا أيها الناس» زعم غير صحيح، وقد عرفت هذا في حديثنا عن ضوابط المكي والمدني.

٥- سورة المائدة: أجمعوا على مدنيتهما، واستثنى بعضهم قوله: «اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت الإسلام ديناً»^(١) حيث نزلت في عرفة، وقد تقدم لنا أن ما نزل بعد الهجرة مدني.

٦- سورة الأنعام: سورة الأنعام مكية، وقد قالوا إنها نزلت دفعة واحدة، شيعها سبعون ألف ملك، ولا تصح هذه الرواية، وقد استثنوا منها آيات قيل إنها نزلت في المدينة المنورة، منها «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم» ومنها «وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء»^(٢) حيث قالوا إنها نزلت في مالك بن الصيف. ومنها «ومن أظلم ممن اقترى على الله كذباً أو قال أحى إلي»^(٣) ومنها «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة»^(٤) ومنها «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم»^(٥). والآيتان بعدها. والحق الذي لا معدل عنه أن هذه الآيات كلها مكية، ليس منها ألبتة مدني؛ لأن السياق والأسلوب والموضوع كل أولئك يدل على مكيتها.

٧- سورة الأعراف: مكية اجماعاً، واستثنى بعضهم «واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر وما بعدها»^(٦) وقوله سبحانه: «وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم»^(٧) وهو استثناء لا دليل عليه، وما يقال إن قوله

(١) المائدة: آية (٢). (٢) الأنعام: آية (٩١). (٣) الأنعام: آية (٩٤). (٤) الأنعام: آية (١١١).

(٥) الأنعام: آية (١٥١). (٦) الأعراف: آية (١٦٣). (٧) الأعراف: آية (١٧٢).

سبحانه «واسألهم عن القرية» حديث عن اليهود، وأن أخبارهم كانت في مكة؟
يجاب عنه بأن الآية متصلة اتصالاً تاماً بما قبلها، من حديث عن بني
اسرائيل واتخاذهم العجل، وغير ذلك من معاصيهم.

٨- سورة الأنفال: مدنية بإجماع، فهي حديث عن غزوة بدر،
واستثنوا منها قوله سبحانه «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو
يخرجوك»^(١) وقوله تعالى: «يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين»^(٢)
وهو استثناء يرده الواقع والمنطق والسياق، إذ الآية الأولى امتنان على
النبي عليه وآله الصلاة والسلام والمؤمنين، ودليل هذا تصديرها بـ (إذ) وهو
ظرف لما مضى من الزمان، وكذلك الآية الثانية امتنان من الله سبحانه على
النبي عليه وآله الصلاة والسلام، قاله سبحانه وتعالى حسبه نصيره على
اعدائه والمؤمنون كذلك حسبهم الله.

٩- سورة التوبة: مدنية باتفاق، واستثنوا منها قوله: «ما كان للنبي
والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين
لهم أنهم أصحاب الجحيم»^(٣) وقوله: «لقد جاعكم رسول من أنفسكم عزيز عليه
ما عنتكم.. أُلخ السورة»^(٤). وقد تقدم القول فيهما في أسباب النزول وموضوع
أول ما نزل وآخر ما نزل وهما مدينتان.

(١) الأنفال: آية (٢٠).

(٢) الأنفال: آية (٦٤).

(٤) التوبة: آية (١٢٨ - ١٢٩).

(٣) التوبة: آية (١١٣).

١٠- سورة يونس: مكية واستثنوا آيتين «ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به»^(١) وقوله «فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ... حتى يروا العذاب الأليم»^(٢) وسيأتي الآيات يدل على أنها مكية.

١١- سورة هود عليه السلام: وهي مكية واستثنوا منها: «فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز، أو جاء معه ملك، إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل»^(٣) وهذا أمر عجيب جداً لأن سياق الآية مكي وقوله: «أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة»^(٤) وهو كسابقه؛ لأن سياقها مكي كذلك وقوله: وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل، إن الحسنيات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين»^(٥) وتقدم القول عن هذه الآية في مبحث أسباب النزول.

١٢- سورة يوسف عليه السلام: وهي مكية، واستثنوا أولها: «الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون، نحن نقص عليك أحسن القصص»^(٦) وقوله: «لقد كان في يوسف وأخوته آيات للسائلين»^(٧) ولكن.. أنى لهم؟ فسامحهم الله!!

(١) يونس: آية (٤٠).

(٢) يونس: آية (٩٤-٩٧).

(٣) هود: آية (١٢).

(٤) هود: آية (١٧).

(٥) هود: آية (١١٤).

(٦) يوسف: آية (١-٣).

(٧) يوسف: آية (٧).

١٣- سورة الرعد: اختلفوا في مكيتها ومدنيتها والصحيح أنها

مكية. وقد استثنوا من مكيتها آيات «كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أُمم»^(١)، «ولو أن قرآننا سيرت به الجبال»^(٢) والآية الأخيرة «ويقول الذين كفروا لست مرسلًا»^(٣) وكل هذا سياق مكّي، يظهر ذلك بأدنى تأمل وتدبر.

١٤- سورة أبينا ابراهيم عليه الصلاة والسلام: مكية استثنوا منها

ثلاث آيات «ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها فبئس القرار، وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله، قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار»^(٤) مع أنها حديث عن أهل مكة.

١٥- سورة الحجر: مكية اجماعاً، واستثنوا منها «لقد علمنا

المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين»^(٥) وقد رددنا هذا الإستثناء في مبحث أسباب النزول، كما استثنوا «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم»^(٦) وقوله: «كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين»^(٧) ويعلم الله أنهما ذواتا سياق مكّي، ولا ينبغي أن يَنزاع في هذا منازع.

(١) الرعد: آية (٣٠).

(٢) الرعد: آية (٣١).

(٣) الرعد: آية (٤٣).

(٤) ابراهيم: آية (٢٨-٣٠).

(٥) الحجر: آية (٢٤).

(٦) الحجر: آية (٩٠-٩١).

(٧) الحجر: آية (٨٧).

١٦- سورة النحل: مكية، واستثنوا خواتيمها «وإن عاقبتهم

....»^(١) فقالوا إنها نزلت مرتين أو أكثر، وقد ردنا هذا القول من قبل، كما استثنوا قوله: «والذين هاجروا من بعد ما ظلموا لنبوئتهم في الدنيا حسنة»^(٢) وقوله: «ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً»^(٣) والاستثناء لا دليل عليه، وشبهتهم ذكر الهجرة والعهد، ولكن السياق أقوى من هذه الشبهات ولم لا تكون الهجرة في الآية الكريمة لهجرة الحبشة.

١٧- سورة الإسراء: مكية، وقد أكثروا فيها من الاستثناءات، وقد

تقدم لنا بعض هذا في مبحث أسباب النزول، من ذلك قوله: «وإن كادوا ليستفزونك من الأرض وما بعدها»^(٤) وقوله: «ويسألونك عن الروح»^(٥)، ومما استثنوه كذلك ما يتصل بما في السورة من وصايا وقوله: «قل لئن اجتمعت الإنس والجن....»^(٦) وهو استثناء ليس فيه شبهة فضلاً على أن يكون عليه دليل.

١٨- سورة الكهف: مكية، واستثنوا منها «وإننا لجاعلون عليها

صعيداً جرزاً»^(٧)، «واصبر نفسك»^(٨) وقوله: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً.... الخ السورة»^(٩). والسورة كلها من حيث النظم والسياق، أخذ بعضها بحجز بعض، فهي مكية دون استثناء.

(١) النحل: آية (١٢٦-١٢٨).

(٢) النحل: آية (٤١).

(٣) النحل: آية (٩٥).

(٤) الإسراء: آية (٧٦).

(٥) الإسراء: آية (٨٥).

(٦) الإسراء: آية (٨٨).

(٧) الكهف: آية (٨).

(٨) الكهف: آية (٢٨).

(٩) الكهف: آية (١٠٧-١١٠).

١٩- سورة مريم رضي الله عنها: مكية، واستثنوا منها «أولئك الذين أنعم الله عليهم»^(١) وهو استثناء عجيب غريب؛ لأن ما قبل هذه الآية حديث عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فكيف يتحدث عنهم في مكة المكرمة ثم يقال بعد سنين طويلة «أولئك الذين أنعم الله عليهم»^(٢) وأعجب من هذا استثناء قوله: «وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً»^(٣) فالضمير يعود إلى جهنم أعادنا الله منها، فكيف يعود الضمير على شيء ذكر قبل سنين، سامح الله أولئك.

٢٠- سورة طه: مكية، واستثنوا منها «فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى»^(٤) وكل كلمة في هذه الآية ناطقة بمكيته، واستثنوا «ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى»^(٥) وقد رددنا هذا في مبحث أسباب النزول.

٢١- سورة الأنبياء: مكية، واستثنى السيوطي قوله: «أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون»^(٦) ولا أدري سببا لهذا الاستثناء.

٢٢- سورة الحج: اختلفوا في مكيتها ومدنيتها، والصحيح أنها مكية

(١) مريم: آية (٥٨).

(٢) مريم: آية (٥٨).

(٣) مريم: آية (٧١).

(٤) طه: آية (٣٠).

(٥) طه: آية (١٢١).

(٦) الأنبياء: آية (٤٤).

فيها آيات كثيرة وقد روي أنه من الآيات المدنية قوله: «هذان خصمان اختصموا في ربهم»^(١) كما جاء في صحيح البخاري، ومن الآيات المدنية قوله سبحانه: «يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون»^(٢).

٢٣- سورة المؤمنون: مكية، واستثنوا من مكيتها «والذين هم للزكاة فاعلون»^(٣) وهو استثناء غير معقول، لأن هذه الصفات ذكرت مجتمعة، كذلك استثنوا قوله سبحانه: «حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذ هم يجأرون... إذا هم مبلسون»^(٤) وأظن أن الذين استثنوا هذه الآيات، نظروا إلى قوله سبحانه: «حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب»^(٥) إذ لم يعذب أهل مكة إلا بعد الهجرة، ولكن يمكن أن تحمل الآيات محملاً آخر، فهي حكاية حال يتحدث عنها القرآن الكريم، قال سبحانه: «بل قلوبهم في غمرة من هذا، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون، لا تجأروا اليوم إنكم من لا تنصرون، قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون، مستكبرين به سامراً تهجرون»^(٦) فالآيات الكريمة تحدثت عما سيحل بهم، والتعبير بالماضي لكونه متحقق الوقوع وقد يكون مما أصاب أهل مكة عندما دعا عليهم رسول الله عليه الصلاة والسلام كما جاء في قوله: «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين» المهم أن السياق والسباق مكيان، وعلى هذا فآيات السورة كلها مكية.

(٢) الحج: آية (٧٧).

(١) الحج: آية (١٩).

(٤) المؤمنون: آية (٦٥-٧٧).

(٣) المؤمنون: آية (٤).

(٦) المؤمنون: آية (٦٥-٧٧).

(٥) المؤمنون: آية (٦٥).

٢٤- سورة النور: مدنية، ولم يستثنوا منها شيئاً.

٢٥- سورة الفرقان: مكية، واستثنوا منها قوله: «والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً، إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً»^(١) وهو استثناء غريب عجيب، لأن الآيات الكريمة متصلة بما قبلها من صفات عباد الرحمن، فلا حول ولا قوة إلا بالله!!

٢٦- سورة الشعراء: مكية، استثنوا منها قوله سبحانه: أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل^(٢)، وكأنهم نظروا إلى أن كل ما جاء في القرآن الكريم من لفظ بني اسرائيل فهو مدني، وليس الأمر كذلك، فقد ورد هذا اللفظ في القرآن المكي المجمع على مكيتته، كما استثنوا قوله سبحانه: «والشعراء يتبعهم الغاؤون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الله الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»^(٣) وذلك لقوله سبحانه: «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً» فالمقصود بهذا الاستثناء حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك، وغيرهم من شعراء الصحابة رضوان الله عليهم.

(٢) الشعراء: آية (١٩٧).

(١) الفرقان: آية (٦٨- ٧٠).

(٣) الشعراء: آية (٢٢٤- ٢٢٧).

٢٧- سورة النمل: مكية، وذكر الألوسي رحمه الله^(١) أن بعضهم استثنى منها بعض الآيات، فإن كان المستثنى «الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة»^(٢) فلا دليل على هذا الاستثناء؛ لأن يمثل هذا التعبير يجيء في القرآن المكي.

٢٨- سورة القصص: مكية، واستثنوا منها «الذين آتيناهاهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون»^(٣) وقوله: «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد»^(٤). وهو استثناء لا دليل عليه.

٢٩- سورة العنكبوت: المراجع مكيته، وقد استثنى بعضهم الآيات الأولى، وذلك لما جاء فيها من ذكر الجهاد، وذكر المنافقين وقد استثنى السيوطي كذلك «وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها»^(٥)، والذي يرجح لديّ أن الآية مكية، فهي تشبه قوله سبحانه «وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه»^(٦)، وقوله سبحانه «وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها»^(٧).

(١) ١٥٤ / ١٩.

(٢) النمل: آية (٣).

(٣) القصص: آية (٥٢ - ٥٤).

(٤) القصص: آية (٨٥).

(٥) العنكبوت: آية (٦٠).

(٦) الانعام: آية (٣٨).

(٧) هود: آية (٦).

٣٠- سورة الروم: مكية ولم يستثنوا منها شيئاً.

٣١- سورة لقمان: مكية واستثنوا منها قوله «الذين يقيمون الصلاة

ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون»^(١)، وقد مر مثل هذا من قبل، وبيننا أن ليس فيه دليل على الاستثناء، وقوله «ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم»^(٢)، ولكن سياقها مكي، فهي شبيهة بقوله «قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي»^(٣).

٣٢- سورة السجدة: مكية، وقد استثنوا منها «تتجافى جنوبهم عن

المخاضع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين»^(٤)، وقد تقدم رد مثل هذا في أسباب النزول.

٣٣- سورة الأحزاب: مدنية اجماعاً دون استثناء.

٣٤- سورة سبأ: مكية واستثنوا منها قوله «ويرى الذين أوتوا العلم

الذي أنزل إليك من ربك هو الحق، ويهدي إلى صراط العزيز الحميد»^(٥)، وقد جاءت الآية مستقرة في مكانها وسياقها، ويظهر أنهم استثنوها لذكر «الذين أوتوا العلم» وهي شبهة لا تقف أمام السياق والسباق.

(١) لقمان: آية (٤).

(٢) لقمان: آية (٢٧).

(٣) الكهف: آية (١٠٩).

(٥) سبأ: آية (٦).

(٤) السجدة: آية (١٦-٢٠).

٣٥- سورة فاطر: مكية، واستثنى بعضهم قوله «ان الذين يتلون كتاب الله واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور»^(١)، وقوله «ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير»^(٢)، وهو استثناء ليس عليه دليل، بل الدليل على عكسه.

٣٦- سورة يس: مكية، استثنى منها قوله «انا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء احصيناه في امام مبين»^(٣)، وقوله «واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين»^(٤)، وقد اوردنا هذا في سبب النزول.

٣٧- سورة الصافات: مكية ولم يستثنوا منها شيء.

٣٨- سورة ص: مكية ولم يستثنوا منها شيء.

٣٩- سورة الزمر: مكية، استثنوا منها آيات «قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم»^(٥)، وقوله «الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله»^(٦).

(٢) فاطر: آية (٤٧).

(١) فاطر: آية (٢٩).

(٤) يس: آية (٤٧).

(٣) يس: آية (١٢).

(٥) الزمر: آية (١٠).

(٦) الزمر: آية (٢٣).

وقوله «قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم»^(١)، وسياق الآيات وموضوعها ينفيان هذا الاستثناء.

٤٠- سورة غافر: مكية، واستثنى بعضهم «فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبِّح بحمد ربك بالعشي والابكار»^(٢)، وقوله «إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم»^(٣)، والسياق يأبى هذا الاستثناء.

٤١- سورة فصلت: مكية دون استثناء.

٤٢- سورة الشورى: مكية، استثنوا منها «ولو بسط الله الرزق لعباده»^(٤)، وقد مر معنا هذا في أسباب النزول، كما استثنوا آيات لا ينبغي أن تستثنى، لأنها مكية المضمون والسياق، مثل «والذين يحتاجون في الله من بعدما استجيب له»^(٥)، وقوله «ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات»^(٦)، وما بعدها، وقوله «والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة»^(٧).

٤٣- سورة الزخرف: مكية، واستثنوا منها «واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا اجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون»^(٨).

(١) الزمر: آية (٥٢). (٢) غافر: آية (٥٥).

(٣) غافر: آية (٥٦). (٤) الشورى: آية (٢٧).

(٥) الشورى: آية (١٦). (٦) الشورى: آية (٢٣).

(٧) الشورى: آية (٢٩-٣٨). (٨) الزخرف: آية (٤٥).

٤٤- سورة الدخان: مكية، واستثنى بعضهم «إنا كاشفوا العذاب قليلاً»^(١).

٤٥- سورة الجاثية: مكية، «واستثنى بعضهم «قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله»^(٢).

٤٦- سورة الاحقاف: مكية، واستثنوا منها «قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به»^(٣) وقوله «والذي قال لوالديه أف لكما اتعداني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي»^(٤) وقوله: فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل»^(٥)، وهي استثناءات -كما مر معنا من قبل- لا دليل عليها ولا التفات إليها.

٤٧- سورة محمد صلى الله عليه وسلم: مدنية بلا استثناء.

٤٨- سورة الفتح: مدنية بلا استثناء.

٤٩- سورة الحجرات: مدنية بلا استثناء.

٥٠- سورة ق: مكية، استثنوا منها «ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام»^(٦) ولا دليل عليه.

٥١- سورة الذاريات: مكية، استثنوا منها «وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم»^(٧) وهو استثناء غير مقبول، لأن هذه الآية تابعة لما قبلها سياقاً وشكلاً ومضموناً.

(١) الدخان: آية (١٥). (٢) الجاثية: آية (١٤). (٣) الاحقاف: آية (١٠).

(٤) الاحقاف: آية (١٧). (٥) الاحقاف: آية (٣٥). (٦) سورة ق: آية (٢٨).

(٧) الذاريات: آية (١٩).

٥٢- سورة الطور: مكية بلا استثناء.

٥٣ سورة النجم: مكية، استثنوا «الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللّم»^(١) وقد رددنا هذا من قبل.

٥٤- سورة القمر: مكية، استثنى بعضهم «سيهزم الجمع ويولون الدبر»^(٢) وقوله في آخر السورة: «إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر»^(٣) والسياق يأبى هذا الاستثناء.

٥٥- سورة الرحمن: مكية، واستثنى بعضهم «يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن»^(٤)، لكن الآية مع أخواتها نزولاً وأسلوباً ومضموناً.

٥٦- سورة الواقعة: مكية، واستثنى بعضهم آيات مثل «وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين»^(٥) وقوله: «ثلة من الأولين وثلة من الآخرين»^(٦) وقوله: «فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم»^(٧) ولا أدري كيف يصح هذا الاستثناء، والسورة متصلة الآيات، فكيف نستثني أصحاب اليمين، والسورة من بدايتها تقول «وكنم أزواجاً ثلاثة» وكيف نستثني القسم، وهو من أساليب القرآن المكي.

(١) النجم: آية (٢٢). (٢) القمر: آية (٤٥).

(٣) القمر: آية (٥٤- ٥٥). (٤) الرحمن: آية (٢٩).

(٥) الواقعة: آية (٢٧). (٦) الواقعة: آية (٣٩- ٤٠).

(٧) الواقعة: آية (٧٥- ٨١).

٥٧- سورة الحديد: الصحيح مدنيتهما، واستثنى بعضهم الآيات الأولى، مستدلين بما جاء في بعض الروايات من أن سيدنا عمر يوم إسلامه وجد أول سورة الحديد عند أخته، والصحيح أن السورة التي كانوا يقرؤونها سورة طه، فالسورة مدنية بلا خلاف.

٥٨- سورة المجادلة: مدنية، وما ذكر من أن قوله: «ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم»^(١) مكى، غير متجه ولا ينسجم مع ما قبل الآية وما بعدها.

٥٩- سورة الحشر: مدنية بلا استثناء.

٦٠- سورة الممتحنة: مدنية بلا استثناء.

٦١- سورة الصف: مدنية بلا استثناء.

٦٢- سورة الجمعة: مدنية بلا استثناء.

٦٣- سورة المنافقون: مدنية بلا استثناء.

٦٤- سورة التغابن: مدنية بلا استثناء.

٦٥- سورة الطلاق: مدنية بلا استثناء.

٦٦- سورة التحريم: مدنية بلا استثناء إلا ما روي من أن بعض أي هذه السورة مكى، وهو قول لا يصح، لأن الذي يتدبر السورة الكريمة يجدها ذات نسق واحد ابتداء من أول سورة إلى قوله: «ضرب الله مثلاً»^(٢). وما بعدها» فإن الحديث فيها عن العنصر النسائي ظاهر.

(٢) التحريم: آية (١٠).

(١) المجادلة: آية (٧).

٦٧- سورة الملك: سورة مكية وروى عن ابن عباس استثناء ثلاث آيات منها، غير أنه لم يحددها، وقد يعني بهذه الآيات الثلاث: «إن الذين يخشون ربهم بالغيب... وما بعدها»^(١) أو الآيتين آخر السورة، ولا إخال أياً من الموضعين يصح استثناءه، ولا إخال الرواية تثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما.

٦٨- سورة القلم: مكية، وأعجب كل العجب كيف استثنوا منها قصة أصحاب الجنة، وخبر صاحب الحوت عليه الصلاة والسلام مع أنهما من صلب موضوع السورة.

٦٩- سورة الحاقة: مكية باتفاق.

٧٠- سورة المعارج: مكية، واستثنوا «والذين في أموالهم حق معلوم»^(٢) ونقول فيه ما قلنا في سابقه في سورة الذاريات.

٧١- سورة نوح عليه السلام: مكية باتفاق.

٧٢- سورة الجن: مكية باتفاق.

٧٣- سورة المزمل: يرى بعض العلماء أن قوله سبحانه: «إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل.... إن الله غفور رحيم»^(٣) نزل في المدينة المنورة، وذهب كثيرون إلى أنه نزلت في مكة، وبعد نزول صدر السورة الكريمة، وهو ناسخ لما جاء قبله، ولكن الذي تعجب منه أيها القارئ أن بعضهم استثنى قوله: «واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلاً»^(٤)

(١) الملك: آية (١٢-١٤).

(٢) المعارج: آية (٢٤).

(٣) المزمل: آية (٢٠).

(٤) المزمل: آية (١٠).

والآية التي قبلها «واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً»^(١) والآية التي بعدها «وذرنى والمكذبين....»^(٢) كيف يكمن أن يبتتر السياق فتفصل الآية عما قبلها... إن ذلك لا ينبغي في غير القرآن الكريم.

٧٤- سورة المدثر: مكية.

٧٥- سورة القيامة: مكية.

٧٦- سورة الإنسان: مكية.

٧٧- سورة المرسلات: مكية.

ولا يتجه القول بالاستثناء، فقد استثنوا من سورة المدثر «عليها تسعة عشر»^(٣) الأدلة يمكن أن تناقش، كما استثنوا من سورة الإنسان «ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً»^(٤) ومن سورة المرسلات «وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون»^(٥) وهو استثناء غير متجه كما قلت.

٧٨- سورة النبأ: مكية.

٧٩- سورة النازعات: مكية.

٨٠- سورة عبس: مكية.

٨١- سورة التكويد: مكية.

٨٢- سورة الانفطار: مكية.

(٢) المزمّل: آية (١١).

(١) المزمّل: آية (٨).

(٤) الإنسان: آية (٨).

(٣) المدثر: آية (٣٠).

(٥) المرسلات: آية (٤٨).

كلها سور مكية بلا استثناء، إلا ما استثنوه تحكماً من سورة النازعات وهو قوله: «وأما من خاف مقام ربه»^(١) ولا أدري -سامحهم الله- كيف هذا الاستثناء، فمن قبل هذه الآية الكريمة جاء قوله «فأما من طغى»^(٢)، وأما للتفصيل كما تعلمون، أفيجوز أن يكون قوله «أما من طغى» نزلت في مكة؟ وقوله: «وأما من خاف مقام ربه» نزلت في المدينة المنورة؟

٨٣- سورة المطففين: اختلف فيها، فقليل مكية، وقيل مدنية والذي يرجح لي مكيتها -والله أعلم- لكنها من أواخر ما نزل في مكة، ذلك لأن موضوع السورة لا يبعد عن الموضوعات المكية. أما ما قيل: إن أهل المدينة كانوا يطففون المكيال قبل الهجرة، فإن هذا القول يمكن أن يُرد؛ لأنه بحاجة إلى اثبات أولاً، ولأنه قد ورد في السور المكية ما يشبه هذا الموضوع من الوفاء بالكيل، والوزن بالقسطاس في أكثر من آية؛ لذا رجحت لكم مكية السورة الكريمة.

٨٤- سورة الإنشقاق:

٨٥- سورة البروج:

٨٦- سورة الطارق:

كلها مكية بلا استثناء.

٨٧- سورة الأعلى: مكية، ولا تلتفت لما قالوه من أن قوله: قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى^(٣) المقصود منه زكاة الفطر وصلاة العيد، أقول لا تلتفت إلى هذا فهو بعيد، فإن التزكي في الآية الكريمة ليس إعطاء الزكاة، بل هو تطهير النفس وتزكيتها، فالسورة كلها مكية.

(١) النازعات: آية (٤٠). (٢) النازعات: آية (٣٧). (٣) الأعلى: آية (١٤-١٥)

٨٨- سورة الغاشية: مكية.

٨٩- سورة الفجر: مكية، وغير واضح ما قيل إن قوله: «يا أيتها النفس المطمئنة»^(١) مدني.

٩٠- سورة البلد: مكية، وما ادعوه من مدنيها لقوله: «وأنت حلّ بهذا البلد»^(٢) غير صحيح، لأن معنى الآية "أنت مقيم" أو هي بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم، بأن الله سيفتح له مكة بعد هجرته، فيكون المعنى "سيحل لك هذا البلد" فيكون هذا من الإعجاز، لأنه إخبار عن المستقبل، فالسورة مكية إجماعاً.

٩١- سورة الشمس: مكية.

٩٢- سورة الليل: وقد قيل بمدنيها، لكن الرواية التي تستند إليها وهي رواية النخلة * غير صحيح.

٩٣- سورة الضحى:

٩٤- سورة الشرح:

٩٥- سورة التين:

٩٦- سورة العلق:

سور مكية بلا استثناء.

(١) الفجر: آية (٢٧).

(٢) البلد: آية (٢).

* وهي القصة الواقعة في شأن أبي الدرداء وشراؤه النخلة من المنافق والرواية ضعيفة.

- ٩٧- سورة القدر: اختلف فيها، والصحيح مكيتها.
- ٩٨- سورة البينة: اختلف فيها، والصحيح مكيتها.
- ٩٩- سورة الزلزلة: اختلف فيها، والصحيح مكيتها.
- ١٠٠- سورة العاديات: اختلف فيها، والصحيح مكيتها.
- ١٠١- سورة القارعة: مكية باتفاق.
- ١٠٢- سورة التكاثر: اختلف فيها، والصحيح مكيتها.
- ١٠٣- سورة العصر: مكية.
- ١٠٤- سورة الهمزة: مكية.
- ١٠٥- سورة الفيل: مكية.
- ١٠٦- سورة قريش: مكية.
- ١٠٧- سورة الماعون: الصحيح مكيتها.
- ١٠٨- سورة الكوثر: اختلف فيها ويترجح لدي مكيتها، والله أعلم.
- وبعد مراجعتي لما كتبت، والمقارنة بين الروايات، والموازنة التي تقوم على
الدرس والاستنتاج، صار الراجح مرجوحاً، ولا نجد سورة من سور القرآن
الكريم اختلفت أقوالهم فيها، كاختلافهم في هذه السورة، فقد نسب أبو حيان
-رحمه الله- في البحر المحيط مكيتها إلى الجمهور، وقد روي هذا عن ابن
عباس، والكلبي ومقاتل. أما ابن عباس -رضي الله عنهما- فلا نملك ما
يصحح الرواية عنه، وأما الكلبي ومقاتل فأمرهما معروف عند أهل العلم،
وهذه الروايات أخرجها ابن سعد وابن عساكر عن الكلبي عن أبي صالح عن
ابن عباس، كما أخرجها ابن جرير وابن أبي حاتم عن شمر بن عطية.

والقائلون بمكيثها ذهب أكثرهم إلى أنها نزلت في العاصي بن وائل
-أعني قوله سبحانه: «إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ»^(١)، وذهب بعضهم إلى أنها نزلت
في عقبة بن أبي معيط، وقال بعضهم في أبي جهل، وأكثرهم على أنها في
العاصي بن وائل^(٢).

وذهب الحسن وقتادة ومجاهد إلى أنها مدنية، وهذا يجعلنا نشك كثيراً
فيما روي من مكيثها عن ابن عباس؛ لأن قتادة ومجاهد من خاصة تلاميذه
رضي الله عنهم، واستند القائلون بمدنيثها إلى ما أخرجه الإمام مسلم
وأحمد وأبو داود والنسائي والبيهقي -رحمهم الله تعالى- عن أنس رضي
الله عنه قال: "أَغْفَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِغْفَاءً، فَرَفَعَ رَأْسَهُ
مَبْتَسِماً، فَقَالَ: "إِنَّهُ أَنْزَلَ عَلَيَّ أَنْفَاءً سُورَةَ فَقَرَأُ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ،
إِنَّا أُعْطِينَاكَ الْكَوْثَرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ، إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ»^(٣).

وأصحاب هذا القول يقولون إنها نزلت في الحديبية، وقد رجح النووي
-رضي الله عنه- وتبعه السيوطي -رحمه الله- القول بمدنيثها.

ونظن أن القائلين بمدنيثها وقفوا عند كلمة الأبتَر، وفسروه بأنه الذي لا
عقب له، ونسجت حول هذا التفسير هذه الروايات، ولنا على هذه الروايات
أكثر من مأخذ.

(١) الكوثر: آية (٣).

(٢) روح المعاني (٢٤٤/٢٠).

(٣) الكوثر: آية (١-٣).

أما أولاً: فلأن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، حينما اشتد الصراع بينه وبين أولئك الكافرين، كان في الأربعينات من عمره الشريف، وهو عمر لا يحكم على الإنسان فيه بأنه لا عقب له، فمن الممكن أن يولد للإنسان في الأربعينات والخمسينات والستينات، والمولود قد يكون ذكراً أو أنثى، فكيف استطاع أولئك أن يحكموا عليه صلى الله عليه وسلم بأنه لا عقب له.

وأما ثانياً: فلأن الأبتري في اللغة مأخوذ من البتر وهو القطع، وقد قالوا إن الأبتري الذي لا خير فيه، ونظن أن هذا التفسير للأبتري، هو الذي يتفق مع السياق والمنطق، وليس كذلك التفسير الأول؛ لأنه لا يعقل أن يصدر من عاقل، ثم إن الله تبارك وتعالى سيكذب هذا القائل ويخزيه.

ثالثاً: إن تفسير الأبتري بما فسروه من أنه الذي لا عقب له، يثير الشبهات حول القرآن الكريم وحاشاه، فلقد ذهب أكثرهم إلى أن المقصود به العاصي بن وائل. وعلى هذا قاله يقول: «إن شائئك هو الأبتري» فقد جاءت الآية بأسلوب القصر والتأكيد، ومعنى الآية أن العاصي أو أبو جهل أو عقبة لن يكون لكل منهم عقب ألبتة، والأمر غير صحيح، فلقد قال الواقع والتاريخ، بأن هؤلاء جميعاً كان لهم، وكان هذا العقب ممن أكرمه الله بالإسلام، عمرو بن العاص وابنه عبدالله، وعكرمة ابن أبي جهل، وابنة عقبة بن أبي معيط.

هذه الأسباب وغيرها تجعلنا نرد هذا القول، لما يترتب عليه من محاذير كثيرة.

والذي يظهر بعد هذا أن ما أخرجه الإمام مسلم وغيره من الأئمة، هو

الذي ينبغي أن يقبل، ثم مما يزيد هذا القول ترجيحاً، ويزيد النفس أطمئناناً له، أن السورة الكريمة كما تقول الروايات نزلت في الحديبية، ونحن نعلم مقدار ما عاناه النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون في الحديبية، حتى إن الله منَّ عليهم وهو يعلم ما في نفوسهم، منَّ عليهم بالسكينة، بل ذكر إنزال السكينة مرات ثلاث في سورة الفتح، وسورة الفتح - كما نعلم - نزلت في منصرفه صلى الله عليه وسلم من الحديبية، والمنطق الذي تطمئن إليه النفس أن كلتا السورتين نزلت في الحديبية بشرى للنبي عليه وآله الصلاة والسلام، كانت سورة الفتح وعداً له بالنصر وثناء على المؤمنين معه، وكانت سورة الكوثر بشرى للنبي صلى الله عليه وسلم بما أعد الله له من خير، لا في الدنيا وحدها، بل في الآخرة كذلك. والذي يزيد هذا الأمر وضوحاً قوله سبحانه: «فصل لربك وانحر» وهذا أمر - أعني النحر - بعدما صدهم المشركون عن العمرة.. والأبتر في السورة الكريمة هو الذي لا خير فيه، ولقد صدق الله وعده.

أخرج الطبري عن سعد بن جبير إنه قال "كانت هذه الآية يعني قوله: «فصل لربك وانحر» يوم الحديبية، أتاه جبريل عليه السلام، فقال: أنحر وارجع فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب خطبة الفطر والنحر ثم ركع ركعتين ثم انصرف إلى البدن فنحرها فذلك حين يقول فصل لربك وانحر»^(١).

(١) (٢١٢/٣٠).

هذا ما أكرمني الله به بعد تأنٍ وتدبر، والله سبحانه الحمد في الأولى
والآخرة، وله الحمد رب السماوات والأرض رب العالمين، وله الكبرياء في
السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم وصلى الله عليه وعلى آله وصحبه
وسلم.

١٠٩- الكافرون: مكية.

١١٠- النصر: مدنية بالإجماع.

١١١- المسد: مكية.

١١٢- الإخلاص: سبق القول فيها في أسباب النزول.

١١٣-١١٤- المعوذتان: قيل بمكيتها، وقيل مدنيتان، ويرجح الأكثرون

القول الثاني.

هذه خلاصة مؤهجة، أرجو أن أكون تحرّيت فيها الصواب أو الأقرب
إلى الصواب، ويمكن بعد أن عشنا مع العبق الطيب للسور الكريمة أن نقرر
مطمئنين ما يلي:-

أولاً: السور المختلف في مكيتها ومدنيتها ليست كثيرة، بل هي قليلة،
ولقد أمكننا أن نرجح في كل سورة موطنها الذي تنتمي إليه.
ثانياً وجدنا أن هناك سوراً مكية فيها آيات مدنية، وذلك مثل سورة
الحج، وقد رأينا الاختلاف في الشعراء والعنكبوت. وعلى كل حال: إنها سور
معدودة.

ثالثاً: لم نجد رواية يركن إليها تثبت أن هناك آيات مكية في سور
مدنية، وما أدعي من هذا أرجو أن تكونوا قد كُفِّتُمْ مؤنثته وبالله التوفيق
ومنه العون وله الحمد والمنة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

شبهات حول المكي والمدني

وردت كثير من الشبهات حول قضية المكي والمدني، نحصرها فيما

يلي:-

الشبهة الأولى:

ذكر المستشرقون أن القسم المكي تتصف آياته بقوتها الشعرية، وبتعبيرها الحيوي وأن الآيات جاءت على شكل نثر مقفي أي مسجوع، أما القسم الثاني فكانت آياته مفصلة ومعقدة نثرية في مظهرها ولغتها، وقد احتوى على التشريعات والأحكام، بينما خلت الآيات المكية من ذلك، وقد كثر القسم في الآيات المكية بالأشياء المحسوسة، وذلك لأن القرآن كان متأثراً بالبيئة التي نزل فيها، فالعرب لا يدركون إلا المحسوسات ونقول أولاً:

إن التفرقة بين القرآن المكي والمدني أمر كانت له أبعاده ونتائجه، وهي قضية طالما عرض لها رجال التبشير والاستشراق على السواء، ورددها بعدهم المتأثرون بهم، وكنا نود أن تتخذ دائرة المعارف منهجاً أقرب إلى الموضوعية والعلم، والنزاهة والإنصاف.

إن الغاية من تقسيم القرآن إلى أسلوبين هدفها إثبات أن هذا القرآن كان خاضعاً للبيئات المختلفة، فهو في مكة كان ذا أسلوب شعري يتفق مع لغة القوم وثقافتهم العربية المحدودة، ولكنه في البيئة المدنية كان متأثراً بأهل الكتاب الذين كانوا هناك من اليهود، والذين كان لهم من الثقافة ما لم يكن للعرب في مكة، كما أن لأهل مكة من السليقة اللغوية ما لم يكن لهؤلاء، وعلى هذا فالقرآن كان يخضع لأمزجة مختلفة، وثقافات متغيرة، فليس نسقاً

واحداً، فأياته في مكة قصيرة ذات أسلوب وإيحاء قوي، ولكنها في المدينة كانت طويلة ذات أسلوب معقد، وهذه والحق يقال فرية لا تقوم على أساس من منطق، بيان ذلك:

إن القرآن المكي كان يعالج موضوعات معينة هدفها تثبيت عقيدة الألوهية، وما يتبعها من شؤون الرسالة والنبوة، وأنباء اليوم الآخر، وما يمكن أن ينمّي ذلك من أخلاق فاضلة، ولكي يتم التأثير جاءت القصص تحدث عن الأولين، وما كان من شأنهم، لا من حيث الإيمان فحسب، ولكن من حيث الأمور المسلكية كذلك، كتطفيف المكيال والميزان، وتعظيم الناس من حيث أنسابهم وأموالهم، وفعل بعض الفواحش. وكل هذه من مقتضيات التربية، التي يهدف لها القرآن المكي، ولكن طبيعة الأحداث، تحتم أن يكون للقرآن المدني هدف آخر، فالجماعة المسلمة لا بد لها من نظام شامل كي تحفظ نفسها من المنزلاقات، وهذا النظام الشامل لا بد أن يشمل مناحي الحياة جميعها، فعلاقة الأفراد بعضهم مع بعض، وعلاقة الجماعة بغيرها من الناس، كل أولئك كان الهدف الذي يوجه إليه القرآن، ويبين أسسه ويرسي قواعده.

ولكن اختلاف الموضوع قد ينتج عنه اختلاف الأسلوب من حيثية معينة، اللهم إلا حيثية الجودة وحسن الصياغة، ولنتصور استازاً يحاضر في أدب المسرح أو في أهداف الشعر، أو في أسلوب القصة، وآخر يتحدث في قضية من قضايا العلم كالطب والكيمياء، أو قوانين فيزيائية، وقد أعطي كل منهما القدرة على الشرح، وروعة الأسلوب، وحسن المحاضرة. إن عاقلاً لا يمكن أن يفرق بين هذين الأستاذين، بأن الأول كان سهل الأسلوب ميسره وبأن الثاني

كان معقداً ركيكاً، بل إن كليهما رائع في شرحه، موفق في عرضه، ولكن طبيعة الموضوع المتحدث عنه هي التي تختلف من واحد لآخر، وهكذا أسلوب القرآن مكية ومدنية.

إن أي باحث منصف يتدبر آيات القرآن على اختلاف تنزلاتها، سيجد أن الأسلوبين سواء، لا يختلف أحدهما من حيث الجودة عن صاحبه، إن آية الدين في سورة البقرة [آية ٢٨٢]، وآيات المواريث في سورة النساء [الآيات ١٢، ١١]، وقضايا العقود في سورة المائدة وأحكام الآداب في سورة الحجرات وآيات الجهاد في براءة [الآيات ١ - ٢٩]، كلها مدنية لا تختلف من حيث أسلوبها وجودتها عن أي القصص في سورة الشعراء، أو عن قواعد الوحدة في سورة النمل، أو عن قضايا الأخلاق في سورة الإسراء، اللهم إلا أن طبيعة الموضوع نفسه تقتضي شيئاً من التغير في العرض، ولكن هذا التغير كما قلت، بعيد كل البعد عن صلب الأساسيات الأولى، من جودة النظم، وروعة الأسلوب وعلو شأنه، وديع الصنعة، والتناهي في البلاغة، وتلك قضية يدركها كل من كان له أدنى اطلاع وأدنى معرفة بالأساليب مقبولها ومردودها على السواء.

ثانياً: أما القسم، فإن العرب كانوا يعرفون غير المحسوسات، فقد طولبوا بالإيمان بالله وبصفاته، ومما غاب عنهم من اليوم الآخر، وما فيه، وأقيمت عليهم الأدلة العقلية الكونية، وهذا الخطاب لا يمكن أن يكون لمن لا يدرك إلا المحسوسات.

"إن القسم بهذه الأشياء قد كثر في القسم المكي لأن دعوة أهل مكة كانت إلى أصول الإيمان من الإلهيات وغيرهما من بيان الحجج وغيرها، وبيان

الحجج الدالة على ذلك، وفي القسم بهذه الأشياء العظيمة التنبيه على أنها آيات ودلائل على قدرة الله تعالى، والإشارة إلى ما في هذه الأشياء من المنافع العظيمة وبذلك تنتقل عقولهم من الاهتداء بها إلى الاعتراف بالخالق جل وعلا، والله تعالى أقسم لهم بما فيه النفع لهم من المحسوسات كالشمس والكواكب وغيرهما، أو المعنويات كالقرآن فقد أقسم به غير مرة، بل أقسم بنفس الإنسان، وبالرسول صلى الله عليه وسلم لأن نفعه عام وهدايته شاملة، أرسله رحمة للعالمين.

أبعد هذا يقال إن اشتغال القسم المكي على القسم بهذه المحسوسات دليل على تأثره بالبيئة^(١).

الشبهة الثانية:

يمتاز القسم المكي أيضاً بالهروب من المناقشة، وبالخلو من المنطق، فيقول: «قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين».

وأما القسم المدني، فهو يناقش الخصوم بالحجة الهادئة، والبرهان الساكن الرزين، فيقول: «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا».

وفي الرد على هذا الكلام نقول: صحيح أن في القرآن المدني حجة وبرهان، ولكن القسم المكي مفعم بهما كذلك، ولم يكن يهرب من المناقشة، بل كان يقرع بالحجة ويؤكد بالدليل، والآية التي استشهد بها القائل «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» هي آية مكية، لا مدنية كما ادعى^(٢).

(١) منهج الفرقان في علوم القرآن ص ٩٤.

(٢) الآية (٢٢) من سورة الأنبياء المكية بلا خوف.

وفي القرآن المكي براهين رائعة ناصعة ظاهرة، تقمع الجاحد المعاند، وتدفع شبهته، وتقيم الدليل على أصول هذا الدين، والأمثلة في هذا كثيرة جداً^(١).

فمن الحجج على البعث، انظر إلى قوله تعالى في سورة "ق" المكية «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، ونزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد، رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج»^(٢).

وفي سورة يس المكية «أولم ير الإنسان أننا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين، وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه، قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم»^(٣).

ومن البراهين على وجود الإله والخالق لهذا الكون، استمع إلى قوله تعالى في سورة النبا المكية: «ألم نجعل الأرض مهاداً، والجبال أوتاداً، وخلقناكم أزواجاً، وجعلنا نومكم سباتاً، وجعلنا الليل لباساً، وجعلنا النهار معاشاً، وبنينا فوقكم سبعاً شداداً، وجعلنا سراجاً وهاجاً، وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً، لنخرج به حياً ونباتاً وجناتٍ ألقافاً»^(٤).

(١) أنظر: نقم مطاعن القرآن (٢١) وما بعدها، فقد أورد أمثلة كثيرة، والمدخل لأبي شهبه (٢٤٢).

(٢) ق : آية (٦-١١). (٣) يس آية (٧٧-٧٩).

(٤) النبا: آية (٦-١٦).

وفي سورة الفرقان المكية «تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً، وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً»^(١).

ومن الأدلة على وحدانية الله تعالى، قوله في سورة المؤمنون المكية «قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون، سيقولون لله قل أفلا تذكرون، قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، سيقولون لله قل أفلا تتقون، قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يُجبر ولا يُجار عليه إن كنتم تعلمون، سيقولون لله قل فأتى تسحرون، بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون، ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون»^(٢).

ومن المناظرات بين النبي -صلى الله عليه وسلم- وبين كفار مكة، وفي الرد على افتراءاتهم، قوله تعالى في سورة الأحقاف المكية «أم يقولون افتراه، قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه، كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم، قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إليّ وما أنا إلا نذير مبين»^(٣).

(١) الفرقان: آية (٦١-٦٣).

(٢) المؤمنون: آية (٨٤-٩١).

(٣) الأحقاف: آية (٨-٩).

وأما سورة الكافرون، التي استدل بها المدعي على الهروب من المناقشة، فإن لنزولها قصة، حيث طلب كفار قريش من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يعبد آلهتهم سنة يجاريهم ويسكت عن معبوداتهم وهذا مثل قوله سبحانه: «ودو لو تدهن فيدهنون» وهو ما يعبر عن اليوم بالحرب الإعلامية، ويعبدوا إلهه سنة، فنزلت السورة سداً لطنعهم، وإيناساً لهم أن يلين -صلى الله عليه وسلم-، أو يعترف بعبادة ما كانوا يشركون مع الله تعالى. وهذا ليس هروباً من المناقشة، إذ أقامت الآيات الحجج والدلائل عليهم في مواضع أخرى، وتأتي هنا تبيكياً لهم، وإشعاراً بأنه لا سبيل لما يدعونه أبداً.

الشبهة الثالثة:

يمتاز القسم المكي كذلك بتقطع الفكرة، واقتضاب المعاني، وقصر الآيات والخلو التام من التشريع.

أما القسم المدني، فهو ينفرد بالتشريعات الإسلامية، كالمواريث والوصايا والزواج والطلاق والبيع وسائر المعاملات، ولا شك أن هذا أثر واضح من آثار التوراة والبيئة اليهودية، التي ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة، يشهد بها هذا التغير الفجائي، الذي ظهر على أسلوب القرآن.

تفنيد هذه الشبهة:

إن المتدبر لآيات القرآن الكريم، يدرك بجلاء أن القرآن الكريم كله، مترابط متماسك، قصرت آياته أم طالت، وكأنتها حبات لؤلؤ في عقد منتظم متسجم متناسق^(١).

(١) لمزيد من الأمثلة والبيان، أنظر: نقض مطاعن القرآن ص ٦٠ والمداخل لأبي شهبه: ٢٢٤، وما

بعدها ومناهل العرفان: ٢١٦، وما بعدها، وعلوم القرآن د. زرزور: ص ١٤٤.

وإن قصر الآيات وطولها لا يقطع الصلة بين قسمي القرآن: المكي والمدني، بل إن الصلة -كما يحسها كل صاحب نوق في البلاغة- محكمة بين كافة أجزاء التنزيل.

وكذلك فإن قصر الآيات وطولها أمر تابع للموضوع الذي تطرحه، فلكل موضوع حليته اللفظية التي تناسبه، وقد دارت أكثر الآيات المكية -كما أشرنا- حول العقيدة والإيمان، وخاطبت قوماً طغاة عتاة، فلا بد أن الأسلوب الأوجز أوقع في القلب.

أضف إلى أن قصر الآيات مظهر إيجاز، وهو مظهر رقي المخاطب وآية فهمه وذكائه، بحيث يكفيه من الكلام موجزه، ومن الخطاب أقصره، وأهل مكة كانوا في الذؤابة من قبائل قريش ذكاءً وألمعية.

أما حين تنزل آيات التشريع والأحكام على قوم مؤمنين، فيجب أن تكون هادئة طويلة، حتى تبين وتوضح.

والإعجاز في النظم كان في القرآن الكريم كله، الذي تحدى العرب قاطبة على أن يأتوا بمثله، ولو بأقصر سورة منه فباؤوا بالعجز، على الرغم من أن قريشاً كانت أوسط العرب داراً، وأبرعهم في الخطابة والتفنن في الأساليب، واستمر التحدي لأهل المدينة كذلك، ولكنهم سكتوا، بل كان عجزهم أشد من عجز أهل مكة.

والقول بأن القرآن المدني تكثر فيه التشريعات، هذا أمر صحيح ولكن ليس كما زعموا، بأنه تأثر بالبيئة -إنه أمر لا بد منه في سياسة التربية، أن يبدأ بإصلاح القلوب، وتقويم العقيدة، حتى إذا استضاءت بنور الحق، كلفوا

بالتشريعات والأحكام العملية.

وهذا أمر، قد ذكرناه عندما تحدثنا عن خصائص المكي والمدني، ومن غير المعقول أن يكلف بالفروع والأحكام من لم يتمكن الإيمان في قلبه، ويفرض مثلاً على كفار مكة أحكام المواريث والزواج والطلاق، وهم ينازعون في أصل العقيدة وفي نبوته -صلى الله عليه وسلم-.

على أن القرآن المكي قد حوى جملة من الأحكام العامة التي عرض لها بطريقة إجمالية، كوصايا سورة الأنعام، وآيات سورة الإسراء، وغيرها.

بقي أن نوضح أن العديد من الشبهات التي تشير للفروق بين المكي والمدني، تهدف إلى الطعن في مصدر القرآن الكريم، فتقول بأنه كان بسيطاً ساذجاً في مكة، كما هو حال أهلها، وتظهر عليه أمارات الثقافة والاستنارة في المدينة، وهذا من تأثير اليهود وثقافتهم عليه.

سبحان الله! كيف يأخذ القرآن الكريم من اليهود، أو يتعلم منهم، وقد عابهم في كثير من المواضع، وبين سفاهتهم، وظلمهم، وبغيهم، وخبث طباعهم، وتحريفهم للتوراة وتضييعهم للأمانة!! .

أنظر إلى قوله تعالى: «وقال اليهود يد الله مغلولة، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء»^(١).

«لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرِ فَعْلَاهُمْ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ»^(٢).

(٢) المائدة: آية (٧٨-٧٩).

(١) المائدة: آية (٦٤).

وقوله تعالى: «مثل الذين حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا، كمثل الحمار يحمل أسفاراً» يؤس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، والله لا يهدي القوم الظالمين»^(١).

وآيات كثيرة غيرها... تذكر عيوبهم وردائلهم... فكيف يأخذ القرآن منهم، ويعجب بثقاقتهم؟! كيف يأخذ المصيب من المخطيء، وكيف يستمد الحي حياته من ميت؟.

لو كان ما أدعوه صحيحاً، وأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد أخذ عن أهل الكتاب، وتعلم منهم، وتأثر بثقاقتهم، لأظهروا ذلك دفاعاً عن أنفسهم، وقالوا: كيف نعلمك، وتسفهننا وترميننا بالكفر والفسق والكذب؟!

ولكنه لم يفعل، بل باعوا بالخزي والمذلة، وكان موقف القرآن الكريم من اليهود، موقف المعلم الناقد والمتحدي، لا موقف المتعلم والآخذ المستفيد.

ويتبين لكل دارس يطلع على التشريع الإسلامي، الفرق بينه - بشموليته وعظمته وسعته - وبين التشريع اليهودي المخصص المحدود، الذي لا يصلح أن يكون أساساً لتشريع عام خالد وهو تشريع الإسلام الذي انتشل الإنسانية من وهديتها، وأضاء النفوس بعد ظلمتها، وحرر العقول، وملا الأرض هداية ورحمة وعلماً وعدلاً.

الشبهة الرابعة:

هناك موضوع آخر، يجب أن أنبهكم عليه، وهو مسألة هذه الحروف

(١) الجمعة: آية (٥).

العربية غير المفهومة التي تبتديء بها بعض السور مثل: ألم، أَلر، طس، كهيص، حم عسق، إلخ....

فهذه الكلمات، ربما قصد منها التعمية أو التهويل، أو إظهار القرآن في مظهر عميق مخيف، أو هي رموز، وضعت لتمييز المصاحف المختلفة التي كانت موضوعة عند العرب، فمثلاً (كهيص) رمزاً لمصحف ابن مسعود، (حم عسق) رمزاً لمصحف ابن عباس (طس) رمزاً لمصحف ابن عمر، وهلم جرا، ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآناً.

في هذه الشبهة تناقض، فهي تقول تارة كانت منذ عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- وتقول أخرى بأنها رموز قد وضعت، وألحقت بمرور الزمن بالقرآن، أي أنها لم تكن منه أولاً، وهذا الاضطراب في الكلام يدل على أنه زور وبهتان.

لقد بالغ الصحابة والتابعون -رضي الله عنهم- في العناية بالقرآن الكريم والمحافظة عليه من أي دخيل، حتى لو كان حرفاً، وشددوا في تجريد المصحف من كل ما ليس قرآناً، فلا يعقل القول بأن شيئاً قد ألحق بالمصحف بمرور الزمن.

والقول بأن هذه الألفاظ ليس لها مدلول، أمر غير صحيح، فقد ذكر العلماء في معناها: أنها أسماء للسور، أو تنبيه للسامع إلى ما يتلى بعدها، وقيل: إنها من التشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه، والذي يرجحه أكثر العلماء، أنها للإعجاز والتحدي لهؤلاء العرب الذين تتألف لغتهم من مثل تلك الحروف ومع ذلك فقد عجزوا عن أن يأتوا بمثله^(١).

(١) لمزيد من البيان أنظر: مناهل العرفان: ٢٢٧/١، وما بعدها.

وهكذا نلاحظ من خلال ما سبق من الشبهات أنها تركز على بيان
الفروق بين القرآن المكي والمدني، لتخلص إلى فكرة تأثر القرآن بالوسط الذي
نزل فيه، أي أنه من كلام محمد -صلى الله عليه وسلم- وإن صح هذا،
فكيف لا يختلف أسلوبه عن أسلوب الحديث النبوي؟!

لكلٍ منهما أسلوب ونظم واضح بيّن، ولو لاحظنا التدرج في السور
القرآنية، لوجدنا أن ما نزل في آخر العهد المكي كسورة النحل والعنكبوت
وغيرها، قريبة في أسلوبها وبعض معانيها مما نزل في أول الهجرة، فالفروق
بينها لم تكن جذرية، وإنما هو أسلوب التدرج في التعليم، وفوارق نابعة من
طبيعة الموضوعات.

فهذه الشبه لا تعدو أن تكون هراءً من القول، وزوراً من متعصب جاهل
بالقرآن الكريم «يريدون ليطفئوا نور الله بأقواهم، والله متم نوره ولو كره
الكافرون»^(١).

«وإنه لكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه تنزيلٌ من
حكيم حميد»^(٢).

تقسيم القرآن الكريم إلى مراحل:

ومما يتصل بما نحن بصدد من حديث حول أسلوب القرآن المكي
والمدني، تقسيم المستشرقين للقرآن الكريم إلى مراحل متعددة، ومن هؤلاء

(١) الصف: آية (٨).

(٢) فصلت: آية (٤١-٤٢).

المستشرق بلاشير حيث قسم القرآن من حيث ترتيبه إلى أربع مراحل، ثلاثاً في مكة، وواحدة في المدينة، ويقول:

(كان محمداً مضطرباً متردداً في قواه، قريباً من اليأس أمام ضخامة رسالته (سورة المدثر، والضحى، والانشراح) ثم تلى ذلك مجموعة أشد إحياءً إذ أنها تعد ثلاثاً وعشرين سورة فتوضح لنا التجربة الأولى للنبي الجديد أنها ما يزال تحت وطأة النداء الإلهي، يلزم خياله تصوره للكارثة الأرضية التي ستقضي على العالم، وتصوره للحساب الأخير. إن الساعة القريبة ولا تحديد للوقت الذي ستقع فيه على البشر وإن هلعاً عظيماً سيصيب الأثمين والموسرين «يوم تكون السماء كالمهل»^(١) والأرض سترتعد هي أيضاً وسيقتلع الأموات من سباتهم وتكون ساعة الحساب «إذا زلزلت»^(٢)).

ولقد نجد في هذه النصوص ذاتها موضوعاً آخر من مواضيع التبشير تكشف كثرة وروده فما يكفي من دلالة على الأهمية التي يتخذها في عمل محمد النضالي. لا شك أن الله يوصف بقدرته الكلية وتنزهه، لكنه ليس مع ذلك صانعاً عديم الشفقة، إنه خالق يظهر حذبة على البشر بعطاياه واهتمامه بتزويد العالم بحلّاه... ولا يقل أهمية في سور هذه الفترة ظهور موضوع آخر كان ملحاً للتذكير بالساعة، إن التصريح بسمو المهمة التي كلف بها محمد... لكن مجموعة أخرى من الموضوعات توسع أيضاً وتشهد لتغير في الموقف نحو المعارضين المكيين، لا شك أن هؤلاء جعلوا النبي يشعر بصعوبة

(١) المعارج: آية (٨-١٤).

(٢) الزلزلة: آية (١).

كل اتفاق، فإن الحرب الكلامية في وجههم ازدادت خشونة ونفاذ صبر... وفي الوقت ذاته يزداد الحز على التوبة اتقاداً، كذلك إدانة الأغنياء والأمر بالصدقة.

إن المنزلات الملتقاة طيلة هذه الفترة المكية الأولى تتميز بوحدة الأسلوب وتتألف الآيات على العموم من ستة إلى عشرة مقاطع صوتية، والسجعات تتتابع غالباً على قافية واحدة شديدة الوقع. وبعض السور تبني آياتها على شكل أدوار مع لازمة (تردد مرتين أو ثلاث مرات «المرسلات» وغالباً ما تفتتح السور بعبارة قسم بالنجوم أو الجبال المقدسة فتؤلف عندئذ صيفاً من الكلام السحري. وكل هذه النصوص تتميز بطابعها الغنائي وسياقها المذهل). أما عن الفترة الثانية من الدعوة في مكة فيقول: (إنا نتبين في هذه النصوص كثرة استعمال اسم الرحمن إلى جانب أسماء أخرى تطلق عادة على الإله... إن دور المنذر الذي أنيط بمحمد يصبح موضوعاً لعدة تذكيرات... أما الكافرون فإن القرآن لم يقتصر فيما يتعلق بهم على وصف نتائج الاختيار بين الصراط المستقيم وغير المستقيم. بل إن جهنم تغدو وعيداً موعوداً للمشركين المكيين الذين صمّوا أذانهم في وجه دعوة محمد.

ولكي تبلغ الدعوة غايتها كانت ترجع إلى قصص أو أساطير معروفة في الجزيرة العربية. إن الإطار الذي اعتمد في ذلك كان متسقاً تماماً، فبعد استهلال قصير على العموم يتناول التوبة أو فرائض الإيمان، تأتي قصة تتعلق بقبيلة أو بشعب أضله ترفه فرده عن عبادة الإله الأعلى. أما أسماء هذه الشعوب فهي قليلة وتكرر بلا ملل، إنهم قوم عاد من جنوب الجزيرة

العربية، وثمرود من وادي القرى شمالي الجزيرة العربية، وثمرود من وادي القرى شمالي المدينة، والعمالق، وشعب لوط، والمصريون وفرعون، وأخيراً معاصرو نوح في قدم الزمان. وقد أرسل الله إلى كل من هذه الأمم الملقدة نبياً تماثل سيرته سيرة محمد، فإن هوداً وصالحاً وموسى وإبراهيم ونوحاً قبل الطوفان مثل محمد قد تألموا من الهزء وعانوا مما وجهه إليهم مناوئوهم من الإهانة والتهديد (القمر، والصفاء، ونوح، والشعراء، والحجر، والأنبياء) هكذا يعالج هنا موضوع النبي للمبشر في الصحراء كما نرى بالاستناد إلى قصص قومية وإلى قصص مأخوذة من التوراة. أما مع القصص التوراتية فلم يكن من التوازي بد، والقرآن يتبع عن كثب الديباجة التوراتية عامة، إلا أن اللغة تضيف على الرواية ميزة غريبة بسياقها المكثف وباهتمامها بالإحياء أكثر من اهتمامها بالوصف. وفي هذه النبويات تكثرت القصص عن موسى بصورة محسوسة، في حين أن مركزاً مهماً قد جعل لعيسى ومريم (سورة مريم) رغم ما تتميز به هاتان الشخصيتان هنا في بعض النقاط الأساسية، عن الصورة التي قدمتها لنا عنهما الأناجيل الأربعة. أما القالب العربي الذي اتخذته شخصية إبراهيم، فهو أجدر أيضاً بالملاحظة، لقد بقي إبراهيم في احتمال ذلك الوقت مثل الأنبياء الآخرين، كان يعظ صمماً، وكان حزنه أشد عمقاً بمقدار ما كان يصطدم بزيغ والده نفسه).

(أما من حيث الأسلوب فإن منزلات الفترة الثانية تختلف اختلافاً جذرياً عن منزلات الفترة السابقة، فلم تطل الآيات فقط.. لكن سياقها العام ما عاد يكشف نفس الزخم الباطن أو ينطوي على نفس القوة المذهلة. إن النبي الملهم

تهيمن عليه إرادة النضال في وجه خصوم يشعر بأنهم لن يثبتوا... إن الواقع الذي يبرز ذلك باستمرار هو أن القوافي تنتهي في أكثر الأحيان على سجعات. وإن التنوع في هذه السجعات محدود).

أما المرحلة الثالثة فيقول بلاشير:

(... هي امتداد، لسور الفترة السابقة. ولا شيء في هاتين المجموعتين من النصوص يشير إلى تجديد أساسي لا في الموضوعات ولا حتى في طريقة معالجتها لكن هذا الشعور بالاستمرار لا يجب أن يمنعنا من أن نميز فروقاً دقيقة في التفاصيل فغالباً ما تقدم هذه السور نماذج عن المنزلات المتلقاة بعد سنة ٦٢٢م، أدرجت في ترتيبات منزلة خلال السنتين أو السنوات الثلاث الأخيرة من التبشير في مكة^(١) انتهى.

مناقشة لما ذكره:

ونظرة عجل نجد أن هذا الاستنتاج يصطدم مع مسلمات كثيرة، فمن حيث الأسلوب والجرس نجد أن هناك سوراً متشابهة في هذه المراحل الثلاث، ومن حيث الموضوع نجد أن بلاشير يركز في المرحلة الأولى -كما رأينا- على قضية الساعة وما يحدث للكون، إلا أن هذا الموضوع لم يكن أكثر من غيره من موضوعات كثيرة في هذه المرحلة فهناك مثلاً

١- قضية خلق الإنسان التي جاء العلم فقرأ بكل ما فصلته من جزئيات التي أشير إليها في هذه المرحلة في آيات متعددة، كل آية تتحدث عن قضية مستقلة ولا مجال هنا للتفصيل.

(١) القرآن، نزوله وتدوينه وترجمته/ بلاشير ص ٤٥- ٥٨ .

٢- هناك قضية التعليم بالقلم، تعليم الإنسان ما لم يعلم.

٣- هناك قضايا الأخلاق، وما يحمد منها وما يذم يظهر هذا في سورة المدثر «ولا تمنن تستكثر»^(١) وفي سورة القلم «ولا تطع كل حلاف مهين»^(٢).

٤- هناك قضية العقيدة وأبرزها الوجدانية.

٥- هناك قضية تكريم الإنسان وخلقه في أحسن تقويم، والإشارة إلى النفس الإنسانية.

ثم إن القصص التي ذكرها في المرحلة الثانية نجد لها جذوراً وأصولاً في المرحلة الأولى كذلك، ولا نود أن نعلق هنا على ما قال من أن هذا القصص من الأساطير المعروفة عند العرب.

إن أمر الترتيب الذي ذكره المستشرقون ستظل فيه ثغرات كثيرة لا تجد لها من يملؤها، وستظل فيه أسئلة كثيرة، لا تجد لها إجابتها المنطقية، وستظل فيه ألغاز عديدة لا تجد حلاً.

ثم إن تقسيم العهد المكي إلى مراحل ثلاث ليس له ما يسوغه لا من المنطق ولا من التاريخ، على أن أخطاء المستشرقين لم تقف عند تقريرهم للعهد المكي فحسب، بل تجاوزها إلى العهد المدني كذلك، ومما يدل على ذلك ما ذكره بلاشير وهو يتحدث عن العهد المدني، من أن هناك بعض السور القرآنية ليس فيها ترابط تام بين موضوعاتها، ويمثل لذلك بسورة النور، مع أن كل سورة لها شخصيتها وموضوعاتها المترابطة كما بين ذلك علماء

(٢) القلم: آية (١٠).

(١) المدثر: آية (٦).

المسلمين بياناً لا يعتمد على العاطفة ولا الهوى، وأهل مكة أدرى بشعابها كما يقولون.

لقد ذكر الأئمة ميزات كل من القرآن المكي والمدني وبينوا ذلك بياناً شافياً كافياً يعتمد على صحة النقل في الرواية، وقوة الحجة العقلية، والدليل المنطقي.

إن ترتيب الموضوعات في السورة الواحدة من القضايا التي عنى بها كثير من المفسرين والعلماء قديماً وحديثاً، ومن هؤلاء الفخر الرازي وابن العربي، والبقاعي في تفسيره: (نظم الدرر في تناسب الآي والسور). ومن العلماء المحدثين، الإمام محمد عبده، والدكتور محمد عبدالله دراز رحمهم الله جميعاً.

نحن لا نحجر على أي باحث في بحث، كل الذي نريده أن تقوم هذه الأبحاث على أسس متينة، وذلك يحتاج بالطبع إلى معرفة تامة وعامة كذلك اللغة التي نزل فيها القرآن أولاً، وللظروف النفسية والاجتماعية ثانياً، وتمييز الروايات الصحيحة من الفاسدة ثالثاً، وللتخلي عن مسلمة خاضعة لأغراض وأهواء عرقية ودينية رابعاً، فإذا وجدت هذه الأسباب أمكننا أن نصل إلى بحث نزيه وجيه، وإلى نتائج جريئة، ونعترف أن بعض أولئك الباحثين وقد اجتمعت لهم هذه الأسباب قد وصلوا إلى هذه النتائج فغيروا كثير من معتقداتهم^(١).

(١) قضايا قرآنية ص ١٩٢.

خطأ تقسيم القرآن إلى مراحل:

إن تقسيم القرآن إلى مراحل -كما أراد المستشرقون- أمر يصطدم مع واقع الأحداث، ومسلمات العقل، وصحيح الرواية؛ ذلك أن المدة التي جهر بها النبي عليه وآله الصلاة والسلام بالدعوة إلى الله، منذ أن نزل عليه قوله سبحانه: «قم فأنذر»^(١) كانت متشابهة دون أن يكون بينها خلافات جوهرية رئيسية، ولو أن هؤلاء المستشرقين أفادوا مما قرره علماء المسلمين من الاعتماد على صحيح الروايات، ودرسوا القضايا القرآنية دراسة موضوعية لوصلوا إلى نتائج غاية في الدقة والإبداع والروعة. ولنعط أمثلة على ذلك.

هناك موضوع العقيدة، والخلق، والإنسان، والأخلاق، فإذا أخذنا موضوع العقيدة مثلاً فدرسنا الآيات التي تتحدث عن الله سبحانه وتعالى لوجدنا أن هذه الآيات تقر هذه المسائل تقريراً تربوياً، فهي تذكر الدعاوى أولاً، ثم تقيم عليها الأدلة ثانياً، على تعدد مصادر الأدلة، ومثل هذه الدراسة ستجعلنا ندرك ضحالة المقولة التي كاد يجمع عليها المستشرقون، وهي أن قضية التوحيد كان القرآن خالٍ منها في سوره الأولى، وهكذا يمكن أن ندرس قضية الخلق، وكيف ذكرت في القرآن، وكيف تطورت هي كما جاء في الآيات القرآنية.

وهكذا إذا أخذنا موضوع الرسالة على ضوء هذه الدراسة الموضوعية، كيف بدأت بعد المرحلة الأولى من مراحل الوحي «قم فأنذر» وكيف كان هذا

(١) المدثر: آية (٢).

الإنذار خاصاً، ثم أصبح ينمو ويتسع، وما هي الشبه الأولى التي قوبلت بها هذه الرسالة، وكيف رُدّت، وما هي الأدلة التي قامت على صحتها. إنّ مثل هذه الدراسة الموضوعية لو اتبعت حسب ما قرره المسلمون من ترتيب للسور القرآنية لكانت لها نتائج مذهلة من حيث الصحة في هذا التدرّج التربوي والعلمي والتاريخي.

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل العاشر

ترتيب أي القرآن وسوره
ونتحدث فيه عن :
معنى الآية القرآنية
طريقة معرفة الآيات
فوائد معرفة الآيات
عدد آيات القرآن
سبب الاختلاف في عدد الآي
أقسام سور القرآن
ترتيب الآيات
الفاصلة القرآنية
سور القرآن الكريمة
تعريف السورة
اصطلاحاً
عدد السور في القرآن
أسماء السور
أيتعلل أسماء السور ؟
اتسمية سور القرآن توقيفية
الحكم من تفسير القرآن
أقسام سور القرآن
ترتيب سور في القرآن
نظرة في هذه الأقوال
ادلة الفريق الثاني (القائلون بالاجتهاد)
مناقشة الأدلة

الفصل العاشر

ترتيب أي القرآن وسوره

هذا موضوع مهم من الموضوعات الأساسية في علوم القرآن، وسنعرض

فيه -إن شاء الله- للقضايا التالية:

١- معنى الآية والسورة وحكم تسوير القرآن الكريم.

٢- ترتيب الآيات في سورها.

٣- ترتيب سور القرآن وآراء العلماء فيها.

معنى الآية القرآنية:

١- لغة: للآية في اللغة معانٍ متعددة، ولكنها متقاربة:

أ- فتطلق الآية ويراد منها العلامة، ومن ذلك قوله تعالى: «إن آية ملكه أن يأتىكم التابوت فيه سَكِينَةٌ من ربكم»^(١). أي علامة ملكه، ومنه قوله تعالى «قال رب اجعل لي آية»^(٢).

ب- ويراد منها المعجزة، ومنه قوله سبحانه «وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون»^(٣)، وقوله: «وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله»^(٤). وقد تطلق على الرسالة، وجعل بعضهم منه قوله تعالى «ما ننسخ من آية» أي رسالة.

(١) البقرة: آية (٢٤٨) .

(٢) مريم: آية (١٠) .

(٤) غافر: آية (٧٨) .

(٣) الإسراء: آية (٥٩) .

ج- العبرة: ومنه قوله سبحانه: «إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون»^(١) وهو كثير في التنزيل.

د- الأمر العجيب: ومنه قوله سبحانه: «وجعلنا ابن مريم وأمه آية»^(٢).

هـ- الدليل: ومنه قوله سبحانه: «ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام»^(٣) وقوله سبحانه: «ومن آياته أن خلقكم من تراب»^(٤)، وقد تطلق الآية على الجماعة، يقال "خرج القوم بأيّتهم، أي بجماعتهم".

وقد تطلق على البناء المرتفع، واستدلوا بقوله سبحانه «أتبنون بكل ريع آية تعبثون»^(٥).

وقد قلت إن هذه المعاني متقاربة ويمكن أن يستغنى ببعضها عن بعضها الآخر.

٢- اصطلاحاً:

إن المعنى الاصطلاحي وثيق الصلة بالمعنى اللغوي، فالآية في الاصطلاح "طائفة من القرآن ذات مبدأ ومنتهى مندرجة في سورة، يسمى آخرها فاصلة"^(٦).

(١) النحل: آية (١١).

(٢) المؤمنون: آية (٥٠).

(٣) الشورى: آية (٣٢).

(٤) الروم: آية (٢٠).

(٥) الشعراء: آية (١٢٨). (٦) الكشاف.

وجميع المعاني اللغوية السابقة تتفق مع المعنى الاصطلاحي " فالآية القرآنية علامة على نفسها بداية ونهاية، وفيها العبرة، وهي معجزة كذلك، وهي أمر عجيب لما فيها من سمو تشريع وبيان، وهي دليل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وهي مكونة من جمع من الحروف، وهي ذات منزلة ومكانة"

- طريق معرفة الآيات.

أجمع العلماء على أن معرفة الآيات ليس لها إلا طريق واحد، وهو أخبار الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- فمعرفة توقيفية لا مجال فيها للاجتهاد. قال الزمخشري -رحمه الله-:

"فإن قلت ما بالهم عدوا بعض الفواتح آية دون بعض؟ قلت: هذا علم توقيفي لا مجال للقياس فيه كمعرفة السور، أما «الم» فأية حيث وقعت من السور المفتحة بها، وهي ست، وكذلك «المص» آية. و«المر» لم تعد آية، و«الر» ليست بأية في سورها الخمس، و«طسم» آية في سورتيها، و«طه» و«يس» آيتان، و«طس» ليست بأية، و«حم» آية في سورها كلها، و«حم عسق» آيتان. و«كهيعص» آية واحدة، و«ص» و«ق» و«ن» ثلاثتها لم تعد آيات، هذا مذهب الكوفيين، ومن عداهم لا يعدون شيئاً منها. فإن قلت: فكيف عدوا ما هو في حكم كلمة واحدة آية؟، قلت: كما عد «الرحمن» وحدها آية و«مدهامتان» وحدها آية على طريق التوقيف" ^(١).

(١) الكشف للزمخشري (٢١/١).

- فوائد معرفة الآيات:

لمعرفة الآية فوائد ذكرها العلماء -رحمهم الله- منها:

- ١- معرفة الوقوف، فإن من السنة الوقوف على رؤوس الآي.
- ٢- تيسير الحفظ، فالقاري المبتدئ يسهل عليه الحفظ وهو يعد الآيات التي حفظها.
- ٣- معرفة الإعجاز، فإن الإعجاز يقع بثلاث آيات قصار أو آية طويلة تعدلها.
- ٤- الإعانة على صحة الصلاة، لأن الصلاة لا تصح -عند كثير من العلماء- بأقل من آية ^(١).
- ٥- حسابها في أجر قيام الليل، لما ورد من أحاديث في ذلك، منها "من قرأ بعشر آيات لم يكتب من الغافلين"، "ومن قرأ بخمسين آية في ليلة كتب من الحافظين"، "ومن قرأ بمئة آية كتب من القانتين"، "ومن قرأ بمئتي آية كتب من الفائزين"، "ومن قرأ بثلاثمئة آية كتب له قنطار من الأجر" ^(٢).

- عدد آيات القرآن:

للعلماء -رحمهم الله- عناية عظيمة في معرفة عدد آي القرآن الكريم، ولا نعجب إذا عرفنا أن معرفة عدد الآية علم مستقل بذاته، يدرس إلى الآن في الكليات والمعاهد المختصة بتدريس القرآن الكريم وقراءاته كما يدرس علم

(١) هذا هو المشهور عند المالكية، أما الشافعية، فقالوا: إن القرآن بأقل من آية تصح بها الصلاة،

على أن يكون المعنى تاماً، قال العلامة الشيخ سليمان بن الجمل: في حاشيته على شرح المنهج

للشيخ زكريا الانتصاري "والأوجه حصول أصل السنة بما دون آية" (٢٥٩/١).

(٢) رواه الدارمي مفرقاً (٢/ ص ٥٥١-٥٥٦).

الرسم، وعلم القراءات، وغيرهما من العلوم، والشيخ أبي القاسم الشاطبي. الإمام صاحب الشاطبية -رحمه الله تعالى- منظومة في ذلك تشبه الشاطبية من حيث سلاستها وفوائدها وإقبال الناس عليها تسمى "ناظمة الزُّهر". عنى العلماء بشرحها والتعليق عليها. ولشيخنا المفضل، شيخ القراء في عصره الشيخ عبد الفتاح القاضي -رحمه الله- أرجوزة موجزة مفيدة في ذلك.

وقد عرفنا من قبل أن أي القرآن ليست سواء، بل منها الطويل والقصير، ونزيد هنا إلى أن من الآيات ما ينتهي عنده المعنى ومنها ما ليس كذلك، الا ترى إلى قوله تعالى «وأولئك هم المفلحون»^(١)، في أوائل سورة البقرة كيف كانت نهاية الآية نهاية المعنى. وإلى قوله سبحانه وتعالى: «وإنكم لتمرون عليهم مصبحين»^(٢) وهي آية إلا أن الكلام لم ينته، فبعد الآية قوله تعالى «وبالليل أفلا تعقلون»^(٣) ولولا أن العلم بعدد الآي توقيفي لكان قوله مصبحين وبالليل ينبغي أن يكون آية واحدة، ومنها ما يتفق مع الفاصلة من حيث الجرس والنهائية، مثل: العالمين، الدين، في سورة الفاتحة.

ومنها ما ليس كذلك مثل «أنعمت عليهم»^(٤) عند من عدها نهاية آية. لهذا نقل الزركشي -رحمه الله- عن ابن العربي قوله "وتحديد الآي من المعضلات، ومن آياته طويل وقصير، ومنه ما ينقطع، ومنه ما ينتهي إلى

(١) البقرة: آية (٥).

(٢) الصافات: آية (١٣٧).

(٤) الفاتحة: آية (٧).

(٣) الصافات: آية (١٣٨).

تمام الكلام، ومنه ما يكون في أثناؤه، كقوله تعالى «أنعمت عليهم» على مذهب أهل المدينة، فإنهم يعدونها آية، وينبغي أن يعول في ذلك على فعل السلف^(١). وما نقله الزركشي عن ابن العربي -رحمهما الله- لا ينبغي أن يؤخذ على إطلاقه، فإن قصد أن الاختلاف في عد الآيات معضل من حيث صعوبة معرفة أين تنتهي الآية فليس ذلك مسلماً، فأكثر الآيات القرآنية يمكن للقاريء أن يعرف نهايتها دون عناء، ليس في ذلك إعضال ألبتة، قال الإمام الشاطبي -رحمه الله- في منظومته "ناظمة الزهر" التي أشرت إليها من قبل:

وليست رؤوس الآي خافية على

ذكي يهتم بها غالب الأمر

أما إن قصد بالإعضال حيثيات أخرى مثل ترك عد النظائر، وعد غيرها، فله محل من القبول.

وعلماء عد الآي، فصلوا عدد الآي في كل سورة من سور القرآن وإنما اختلفوا باختلاف العادين، وقد نسب العدد إلى خمسة بلدان هي: مكة المكرمة، المدينة المنورة، الكوفة، البصرة، والشام.

ولكن لأهل المدينة عددان، المدني الأول، والمدني الثاني، فتصير الأقسام ستة، وأهل كل بلد ينسبون عددهم إلى أحد التابعين أو الصحابة رضوان الله عليهم.

ومن هنا نشأ الاختلاف في عدد أي القرآن الكريم، وهم مجمعون على

(١) البرهان في علوم القرآن (ج ١، ص ٢٦٨):

أن عدد آي القرآن الكريم ستة ألف ومئتان وبعض المئة، واختلفوا في بعض المئة هذا.

فهو في عدد المدني الأول سبع عشر، وفي عدد المدني الأخير أربع عشرة، وفي عدد المكي عشرون، وفي عدد البصري خمس وفي عدد الكوفي ست وثلاثون، وفي عدد الشامي ست وعشرون.

سبب الاختلاف في عد الآي:

وقد يسأل سائل عن سبب هذا الاختلاف.

نقول -وبالله التوفيق-: كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقف في قراءته غالباً عند رؤوس الآي وكان الصحابة -رضوان الله عليهم- يتعلمون منه وبهذا عرفوا رؤوس الآي، ولكنه صلى الله عليه وسلم كان يقف أحياناً على غير رأس الآي لبيان الجواز، فيحسب بعض الصحابة -ممن لم يسمعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- وقف على رأس الآي سابقاً- أن هذه الكلمة التي وقف عليها النبي -صلى الله عليه وسلم- هي رأس الآي، هذا هو السبب الرئيس وهناك سبب آخر أشار إليه الزركشي في البرهان وهو اختلاف العلماء في عد «بسم الله الرحمن الرحيم» حيث اختلفوا فيها فهي آية أم ليست آية^(١). وهذا السبب لا يعم كل ما وقع فيه خلاف بالطبع.

أقسام سور القرآن:

وتنقسم سور القرآن الكريم من حيث الاختلاف في عدد آياتها أقساماً ثلاثة:

(١) البرهان (ج١/ ص ٢٢٢).

أ- قسم لم يختلف فيه ألبتة.

ب- قسم اتفقوا على عدد الآيات فيه، ولكنهم اختلفوا في تعيينها.

ج- والقسم الثالث اختلف العدد فيه زيادة ونقصاً.

فالقسم الأول أربعون سورة وهي «يوسف، الحجر، النحل، الفرقان، الأحزاب، الحجرات، الفتح، ق، التغابن، الذاريات، القمر، الحشر، الممتحنة، الصف، الجمعة، المنافقون، الضحى، العاديات، التحريم، ن، الإنسان، المرسلات، التكويد، الأعلى، الانفطار، المطففين، البروج، الغاشية، البلد، الليل، الانشراح، التين، التكاثر، الهُمزة، الفيل، الفلق، الكافرون، الكوثر، النصر، تبت» فهذه السور الأربعون لم يختلف فيها لا من حيث الإجمال ولا من حيث التفصيل.

أما القسم الثاني فهو خمس سور وليست أربعاً كما ذكر أكثر الكاتبين نقلاً عن الاتقان وهي «الفاتحة، القصص، العنكبوت، الجن، العصر».

فقد اجمعوا على أن الفاتحة سبع آيات. فقد أخرج البخاري وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد المعلى قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلم أجبه، ثم أتيتَه فقلت: يا رسول الله: إني كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم... الآية».

ثم قال لي: لأعلمتك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد، ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلت له: ألم تقل لأعلمتك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: «الحمد لله رب العالمين...» هي

السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته" ^(١).

إلا أنهم اختلفوا في تعيين بعض هذه الآيات فمن عدَّ «بسم الله الرحمن الرحيم» آية كان قوله -سبحانه وتعالى- «الحمد لله رب العالمين..ولا الضالين» ست آيات كما يلي: «الحمد لله رب العالمين آية، الرحمن الرحيم آية، مالك يوم الدين آية، إياك نعبد وإياك نستعين آية، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ آية، وما بعدها آية...» .

ومن لم يعدها آية جعل، «صراط الذين أنعمت عليهم» آية وما بعدها آيةً أخرى، كذلك سورة العصر اتفقوا على أنها ثلاث آيات إلا أن بعضهم عدَّ قوله تعالى: «والعصر» آية، والآخرين جعلوا قوله تعالى «وتواصوا بالحق...» آية.

القسم الثالث: تسع وستون سورة وليس سبعين كما جاء في الإِتقان ومن أخذ عنه، وعلى سبيل المثال فسورة البقرة اختلفوا فيها فهي:

أ- مئتان وخمس وثمانون آية عند المكي والمدني والشامي.

ب- ومئتان وست وثمانون آية عند الكوفي.

ج- ومئتان وسبع وثمانون آية عند البصري.

وقد اختلفوا فيها في أحد عشر موضعاً، وإنما ذكرت هذه المسألة بهذا

التفصيل لما ستعلمه عند ذكرنا المبحث الذي يتعلق بالشبهات.

ترتيب الآيات.

بقي مما يتصل بمبحث الآي في كتاب الله تعالى ترتيب الآيات في

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفضائل باب فضل فاتحة الكتاب (١٩١٢/٤).

السور. والعلماء مجمعون على أن ترتيب الآيات في السور توقيفي لا مجال فيه للرأي والاجتهاد علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته وهكذا أخذته التابعون، بل إن ترتيب الآيات في السور من أعظم روافد الإعجاز في القرآن الكريم.

ومع كون هذا أمراً مجمعاً عليه، إلا أن العلماء ذكروا له كثيراً من الأدلة وهي أحاديث تدل على أن الآيات رتبت في سورها هذا الترتيب البديع الذي نجده في المصاحف ومن هذه الأدلة:

١- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رحم الله فلاناً لقد أذكرني آيتين أو ثلاث كنت نسيتهما" ^(١).

٢- عن عثمان بن أبي العاص قال: "كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شخص ببصرة ثم صوبه ثم قال: أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآيات في هذا الموضع من هذه السورة" «إن الله يأمر بالعدل والإحسان....» ^(٢).

٣- ما رواه مسلم عن عمر رضي الله عنه قال: "ما سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء أكثر مما سألته عن الكلاله حتى طعن بأصبعه في صدري، وقال: "أما تكفيك آية الصيف التي في آخر النساء" ^(٣).

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب نسيان القرآن (٤/ ١٩٢٢).

(٢) رواه الإمام أحمد (ج ٤ / ص ٢١٨).

(٣) رواه الإمام مسلم كتاب الفرائض (ج ٢ / ص ١٢٣٦ حديث رقم ٩).

٤- أخرج البخاري عن ابن الزبير "قال: قلت لعثمان «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً...» وقد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها، قال: يا ابن أخي، لا أغير شيئاً من مكانه" ^(١).

٥- عن المسور بن مخرمة قال "قلت لعبد الرحمن بن عوف: يا خال، أخبرني عن قصتكم يوم أحد. قال: اقرأ بعد العشرين ومئة من آل عمران تجد قصتنا «وإذ غوت من أهلك...»" ^(٢).

٦- ما ورد من الأحاديث الصحيحة في خواتيم سورة البقرة "من قرأ الآيتين من خواتيم سورة البقرة في ليلة كفتاه" ^(٣).

٧- أخرج البخاري عن ابن عباس "إذا سرك أن تعلم جهل العرب فأقرأ ما فوق الثلاثين والمئة «قد خسر الذين قتلوا أولادهم...»" ^(٤).

٨- أخرج مسلم والترمذي عن أبي "قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قلت: «الله لا إله إلا هو الحي القيوم...» فضرب في صدري وقال: "لِيَهْزِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ" ^(٥).

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير/ تفسير سورة البقرة (٤ / ١٦٤٦).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (أنظر: مجمع الزوائد ١١١/٦-١١٢) وفيه راوٍ ضعيف.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن (٤ / ١٩٢٣).

(٤) أخرجه البخاري/كتاب المناقب رقم (٣٥٢٤).

(٥) رواه مسلم في كتاب المسافرين (ج ١/ ص ٥٥٤).

٩- أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: بت عند خالتي ميمونة.... الحديث وفيه وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم العشر آيات الأواخر من آل عمران^(١).

١٠- حديث السبع المثاني الذي مر ذكره...^(٢).

فهذه الآثار كلها وغيرها تدل دلالة بيّنة على أن ترتيب الآيات في سورها توقيفي لا يجوز لأحد أن يغير فيه شيئاً تقديماً أو تأخيراً.

الفصلة القرآنية:

الفواصل هي أواخر كلمات الآي، كالقافية آخر كلمات البيت، وكالسجعة في الكلام المسجوع، وقد أطلقوا على أواخر آي القرآن فواصل أخذاً من قوله سبحانه «كتابٌ فصلت آياته...»^(٣) وابتعاداً عن أن تسمى أسجاعاً، وقد دار خلاف بين العلماء: أيجوز أن يقال: إن في القرآن سجعاً؟ فمنعه بعضهم، منهم الإمام الرماني المعتزلي والقاضي الباقلاني-رحمهما الله- وأجازه الأكثرين، وليس من غرضنا في هذا الكتاب أن نتحدث عن هذه القضية، إنما يعيننا ما نحن بصدده، فقد عرفت أن معرفة عد الآي توقيفي ومع ذلك فقد ذكروا أن لمعرفة الفاصلة طريقين اثنين، أحدهما: توقيفي، كأن يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على كلمة معينة، فعن أم المؤمنين

(١) رواه البخاري/ كتاب العلم (ج ١/ ص ٢١٤ باب ٤١) .

(٢) أخرجه البخاري/ كتاب الفضائل/ باب فضل فاتحة الكتاب.

(٣) فصلت: آية (٢).

-أم سلمة- رضي الله عنها- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ قطع قراءته آية آية، يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم ثم يقف، الحمد لله رب العالمين ثم يقف، الرحمن الرحيم ثم يقف...»^(١).

والآخر: قياسياً، وهو إلحاق النظر بالنظر، وذلك موجود في أكثر فواصل القرآن، فإن أكثر العلماء على أن أي القرآن جاء أكثرها على فاصلة واحدة.

ولا محذور في ذلك لأنه لا زيادة فيه ولا نقصان، والأصل في الفاصلة -غالباً- أن تكون مساوية للطرفين -أي ما قبلها وما بعدها-.

فقد اجمعوا على أن "المقربون" في قوله سبحانه «لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون...»^(٢) ليست فاصلة، وذلك لمخالفتها للفاصلتين قبلها وبعدها، أما التي قبلها فهي قوله سبحانه «وكفى بالله كيلاً» وأما التي بعدها فهي قوله سبحانه «فسيحشرهم إليه جميعاً».

كما أجمعوا على أن «الحي القيوم» في قوله سبحانه «وعنت الوجوه للحي القيوم» ليست فاصلة مع أنهم عدوها فاصلة في أول سورة آل عمران واختلفوا فيها في آية الكرسي. وإنما لم تعد آية في سورة طه لأنها ليست مساوية لما قبلها «ولا يحيطون بها علماً» ولا لما بعدها وهو قوله سبحانه «وقد خاب من حمل ظلماً».

(١) أخرجه الترمذي (١٨٢/٥) كتاب فضائل القرآن باب رقم ٢٣.

(٢) النساء: آية (١٧٢)

وإنما قلت (غالباً) لأنهم قد يخرجون عن هذه القاعدة أحياناً، وذلك كما
مر معك في سورة الفاتحة، ألا ترى أن بعضهم عدّ "عليهم" في قوله «صراط
الذين أنعمت عليهم...» فاصلة مع أنها ليست متساوية مع ما قبلها «اهدنا
الصراط المستقيم» ولا مع ما بعدها «ولا الضالين».

– والله الموفق للصواب –

سور القرآن الكريم

تعريف السورة:

لغة: يرى بعضهم أن الواو في "السورة" منقلبة عن همزة، والأكثرون على أنها أصلية، فإن كانت منقلبة عن همزة فهي من السور وهو ما بقي من الشراب فهو قطعة منه، وعلى هذا التوجيه فقد سميت السورة كذلك لأنها قطعة من القرآن الكريم.

أما إن كانت الواو أصلية فإما أن تكون مأخوذة من سور البناء وهو المنزلة، وعليه فالسورة هي منزلة من منازل القرآن الكريم، كأن كل من قرأ سورة صعد منزلة.

وإما من سور المدينة المحيط بها، وعلى هذا سميت السورة سورة لإحاطتها بآياتها وما شاء الله أن تكون من ألفاظ ومعاني، ومنه السوار لإحاطته بالساعد.

اصطلاحاً: عرفنا أن هناك وشائج بين التسمية اللغوية والاصطلاحية فالسورة في الاصطلاح هي طائفة من القرآن لها بداية ونهاية، واسم خاص بها يميزها عن غيرها بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم.

عدد السور في القرآن:

اجمع المسلمون على أن عدد سور القرآن مئة وأربع عشرة سورة، لذا لا يعتد بقول من يقول أقل من ذلك، فقد ذهب بعضهم إلى دمج سورتي الضحى والشرح، وآخرون إلى دمج سورتي الفيل وقريش.

وهذه السور الكريمة تبتدئ بسورة الفاتحة وتنتهي بسورة الناس.

أَسْمَاءُ السُّور:

من الطبيعي أن يكون لكل سورة اسم خاص تنفرد به عن غيرها، وسور القرآن الكريم، بعضها ذات اسم واحد، وبعضها له أكثر من اسم.

ولكننا عند التمحيص ندرك الصلات بين ما تعدد من أسماء للسورة الواحدة. وذلك كسورة الإسراء التي سميت أيضاً "بني إسرائيل" وبين التسميتين صلة، وكذلك سورة محمد صلى الله عليه وسلم التي تسمى سورة القتال. وسورة غافر التي تسمى سورة المؤمن.

وقد تسمى السورة باسم أولها كسورة (تبارك)، (الحاقة)، (القارعة)... وقد تسمى باسم حادثة اشتهرت فيها كسورة البقرة، وسورة الكهف وقد تسمى باسم موضع فصل فيها كسورة النساء، وسورة الأنعام.

أَتَعْلَلُ أَسْمَاءُ السُّور؟

حاول بعض العلماء أن يعللوا أسماء السور، ولكن إن تم هذا لهم في كثير منها، فلن يتم لهم في كثير منها كذلك. فمما قبل تعليله، سورة يوسف وسورة نوح -عليهما السلام- حيث إن كل سورة تتحدث عن النبي الذي سميت باسمه، وقد قالوا: إن سورة هود -عليه السلام- سميت باسمه مع كون قصة نوح فيها أطول من قصة هود وذلك لأن لنوح -عليه السلام- سورة خاصة به، ولأن اسم هود -عليه السلام- لم يذكر في سورة كما ذكر في هذه السورة. فقد ذكر فيها أربع مرات.

ولكن هذا التعليل لا يتم لنا -كما قلت- في سور القرآن كلها، فعلى سبيل المثال: سورة يونس -عليه السلام- لم تذكر فيها قصته، وإنما ذكر

فيها آية واحدة وهي قوله تعالى: «فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس»^(١). مع أن قصته -عليه السلام- ذكرت بشيء من التفصيل في سورة الصافات كما ذكرت في غيرها، فكانت سورة الصافات وغيرها أولى أن تسمى سورة يونس لو أن الأمر يخضع للتعليل.

أتسمية سور القرآن توقيفية؟

وهذا المبحث يصلنا بمبحث آخر وهو "تسمية السور توقيفية أم اجتهادية؟"، كل قول من هذين القولين لا يعدم أنصاراً، ولكن الأكثرين ذهبوا إلى الأول، وهو أن تسمية السور توقيفية. وحجة القائلين بهذا القول: أن كثيراً من السور جاءت آثار تنبيء عن اسمائها، كقوله -صلى الله عليه وسلم- "اقرأوا الزهراوين، البقرة وآل عمران"^(٢).

وسيمر معنا في هذا المبحث أحاديث كثيرة يذكر فيها أسماء بعض السور، ولا يعقل أن لا يكون لكل سورة اسم خاص تعرف به في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال آخرون، إن التسمية اجتهادية حسبما يظهر للمتدبر.

قال الزركشي: "ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به، ولا شك في أن العرب تراعي في كثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه أو تكون معه أحكم أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى"^(٣).

(١) يونس آية (٩٨) .

(٢) البرهان (١/٢٧٠).

(٣) أخرجه مسلم (٥٥٣/١) كتاب صلاة المسافرين باب (٤٢).

والذي يظهر لي -والله أعلم- في هذا الأمر أن أسماء السور توقيفية، ولكن لا بأس لمن أحسن تدبر سور القرآن الكريم أن يستنتج بعض ما امتازت به كل سورة فيسميها به، على أن لا تكون هذه التسمية بديلاً للتسمية الأولى.

فنقول مثلاً: سورة الحجرات يمكن أن تسمى سورة الآداب، وسورة العنكبوت يمكن أن تسمى سورة الدعاة وذلك لما فيها من بدايتها إلى نهايتها من حث للدعاة على الثبات على الدين فأولها :
«ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون». وخاتمتها
«والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا...»^(١).

وكذلك سورة الفرقان يمكن أن تسمى سورة رد الشبهات، وسورة النحل سورة النعم -كما يقول العلماء- .
ولكن على أن لا يقال: قرأت سورة الآداب، وتدبرت سورة الدعاة، وفسرت سورة النعم ...، وإنما تذكر السورة أول ما تذكر باسمها الذي عرفت به.

الحكم من تسوير القرآن:

كون القرآن الكريم سوراً متعددة حجة بالغة على أنه الكتاب الذي أنزله الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ فهدف القرآن تربية المكلفين، وهذه التربية، لا تكون وارقة للخلال،

(١) العنكبوت: آية (١، ٦٩).

دانية القطوف، قريبة الجنى، كثيرة الثمرات، لو لم يكن القرآن الكريم سوراً متعددة، ألا ترى أن كل سورة منه لها شخصيتها وموضوعها. ثم إن الإنسان يكون أكثر نشاطاً وأعظم إقبالاً على كتاب الله تبارك وتعالى، وهو ينتقل فيه من سورة إلى أخرى؛ فكم يكون فرحه وسروره وهو يعرف أنه قد حفظ عشرين سورة من كتاب الله وسيحفظ غيرها كذلك.

ونجد أن الأطفال في سرور وفرحة، وكل واحد منهم يعدد مقدار ما حفظ من السور. ونوجز الحكم التي ذكرها العلماء من تسوير القرآن فيما يلي:

١- إن في ذلك تنشيطاً للقارئ، وتسهيلاً وتيسيراً عليهم في حفظه وفهمه فإذا حفظ سورة اعتقد أنه طائفة فعظم عنده ما حفظه.

٢- التنبيه على أن كل سورة من كتاب الله معجزة بذاتها، طويلة كانت أم قصيرة فليس الإعجاز وقفاً على السور الطوال.

٣- أن تكون كل سورة فناً مستقلاً لها مزاياها وخصائصها وموضوعها.

أقسام سور القرآن:

قسّم العلماء سور القرآن من حيث طولها وقصرها: أربعة أقسام وهي: الطوال، والمنثون والمثنائي والمفصل، واستندوا إلى بعض آثار لم تخل من مقال^(١).

(١) أخرج الحديث أحمد (١٠٧/٤) والطبراني في الكبير (٧٥/٢٢) وأنظر: مجمع الزوائد: (٤٦/٧).

١- أما الطوال: وهي جمع طولى فهي سبع سور: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، وقد أجمعوا على هذه السور الست واختلفوا في السابعة فرأى بعضهم أنها "الأنفال وبراءة معاً" لكونهما تشبهان السورة الواحدة، من حيث أن موضوعهما واحد وهو الجهاد، وإنه ليس بينهما (بسم الله الرحمن الرحيم).

وقال بعضهم سورة يونس -عليه السلام- وكلا القولين لا يقبل. أما الأول فلأن الأنفال وبراءة سورتان، وعلى هذا فلا تكون الطوال سبعاً بل ثمانية.

وأما الثاني، فلأن سورة يونس يشبهها كثير من السور في طولها، بل إن هناك ما هو أطول منها، كسورة النحل، ثم إن سورة براءة تكاد تكون ضعفها من حيث الطول، وعلى هذا فالذي نرجحه أن السورة السابعة هي سورة براءة. ثم إن سورة براءة هي أطول السور بعد السور الست السابقة. فسورة الأنعام التي هي أقصر السور الست، وسورة براءة عشرون صفحة بينهما سورة أقل من ثلاث عشرة صفحة -وهي الأنفال-.

٢- المئون: وهو ما يلي الطوال وهو ما زاد عن المئة آية ^(١).

٣- المثنائي: وهو ما دون المئين، فكأن الطوال والمئين مبادئ وهذه مثنائي.

٤- المفصل: وهو ما دون المثنائي، واختلفوا في تحديد أوله، فقليل يبدأ بسورة ق، وقيل الحجرات، وقيل أوله سورة محمد صلى الله عليه وسلم، والذي أميل إليه أن أوله سورة محمد -صلى الله عليه وسلم-. إذ جاءت بعد الحواميم السبع وهي سورة مدنية بعد سورة مكية، وهذا القسم ينقسم إلى

(١) وهي: الأنفال، يونس، هود، يوسف، النحل، الإسراء، الكهف، طه، الأنبياء، القصص، الحج،

الأحزاب، غافر، وهذا اعتماداً على عدد صفحات المصحف الذي بين أيدينا.

طوال المفصل وأوسطه، وقصاره، فالطوال إلى سورة البروج، والأواسط إلى سورة البينة، والقصار إلى سورة الناس.

تنبيه: ولا بد من التنبيه على ما يلي:

- ١- ليس هذا التقسيم تابعاً لترتيب السور في المصحف فالسور الطوال مثلاً رأينا أنه يفصل بين السادسة والسابعة منها سورة الأنفال وكذلك المئون يفصل بينها ما ليس منها، فسورة الحجر جاءت قبل سورة النحل مع أن الحجر اقصر من النحل التي هي من المثني. فالتقسيم لا يخضع للترتيب إذاً.
- ٢- إن أمر العدد لا يؤخذ على إطلاقه فإن هناك سوراً يقرب عدد آياتها من المثني ولا تعد من المثني كسورة الصافات مثلاً التي يبلغ عدد آياتها مئة واثنان وثمانون آية وهي من المثاني. وهناك سور هي أقل عدداً من المثني يقينا، كسورة النحل، مع أن آياتها مئة وثمان وعشرون آية، إلا أنها من حيث المساحة في المصحف ضعف سورة الصافات.

ترتيب السور في القرآن:

بقي في هذا البحث قضية ذات شأن وهي "ترتيب السور في القرآن أهو توقيفي أم اجتهادي؟". وخلاصة ذلك:
للعلماء مذاهب ثلاثة في هذه القضية:

أولاً: مذهب الجمهور وهو أن ترتيب السور في كتاب الله تعالى توقيفي لا مجال للاجتهاد فيه، فكما أن الآيات كانت بترتيب أخذها النبي -صلى الله عليه وسلم- عن جبريل عن الله رب العالمين، فإن ترتيب السور كذلك. هذا هو مذهب الجمهور وليس كما ذكر السيوطي -رحمه الله- من أن مذهبهم أن ترتيب السور اجتهادي.

ثانياً: إن ترتيب السوراجتهادي (توفيقي) وعزى صاحب الاتقان هذا القول إلى الإمام مالك وابن فارس وابن عطية وابن الباقلاني في احد قوله^(١).
ثالثاً: أن الترتيب منه ما هو توفيقي ومنه ما هو اجتهادي.

نظرة في هذه الأقوال:

قبل أن نتحدث عن أدلة كل مذهب من هذه المذاهب يلوح لنا أن المذهب الثالث يحمل لنا في طياته رده وعدم قبوله؛ ذلك لأن الترتيب إما أن يكون توفيقياً وإما أن يكون توفيقياً، أما أن يشتمل عليهما معاً فترجيح دون مرجح. وسنعرف أن أدلة هذا المذهب هي أدلة المذهب الثاني.

أدلة الفريق الأول -الجمهور-

استدل الفريق الأول على دعواهم بأنواع من الأدلة:
النوع الأول: المأثور؛ فهناك احاديث كثيرة تدل على هذه الدعوى وهاكم بعضها:

- ١- قوله صلى الله عليه وسلم "اقرأوا الزهراوين، البقرة وآل عمران"^(٢).
- ٢- عن عائشة -رضي الله عنها- "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما «قل هو الله أحد» و«قل أعوذ برب الفلق» و«قل أعوذ برب الناس»، ثم يمسخ بهما ما استطاع من جسده"^(٣).

(١) الاتقان (ج١/ ص ٦٣-٦٦. (٢) صحيح مسلم (ج١/ ص ٥٠٢) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) رواه البخاري (ج٨/ ص ٦٣) كتاب فضائل القرآن (باب ١٤).

٣- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال "بني اسرائيل والكهف ومريم وطه والانبياء، هن العتاق الأول وهن من تلادي" ^(١).

٤- عن سعيد بن خالد "قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم السبع الطوال في ركعة، وأنه صلى الله عليه وسلم كان يجمع المفصل في ركعة".

٥- وعن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اقرأ القرآن في شهر فقلت: إني أجد قوة، حتى قال: فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك" ^(٢).

٦- وحديث أوس بن حذيفة: "قَدِمْنَا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد ثقيف وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: وإنه طرأ علي حزبي من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى أتمه، قال أوس: فسألت أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: كيف تحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وأحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده" ^(٣).

وإذا كان كثير من هذه الاحاديث يتحدث عن ترتيب بعض سور القرآن فإن في الحديثين الاخيرين بياناً لترتيب السور كلها، أما حديث عبدالله بن عمرو فدلالته على ما نحن بصده ظاهرة؛ إذ كيف يقرأ القرآن دون أن تكون سور مرتبة وكذلك حديث أوس؛ ذلك إننا إذا جمعنا الاحزاب الستة

(١) رواه البخاري (ج ٨/ ص ٢٨٨) كتاب التفسير تفسير سورة الاسراء.

(٢) رواه الامام احمد (ج ٢/ ص ١٦٣).

(٣) رواه ابن ماجة / كتاب اقامة الصلاة (ج ١/ ص ٤٢٧).

كانت ثمانياً وأربعين سورة دون الفاتحة -لقصرتها- فهذه تسع وأربعون سورة، ويبقى حزب المفصل ابتداء من سورة ق وهو خمس وستون سورة -مع الفاتحة ست وستون سورة- فهذه أربع عشرة ومئة سورة، ومن تدبر السنة فسيجد فيها غير ذلك كثيراً.

النوع الثاني:

١- ما يرجع إلى واقع الترتيب في المصحف -الآن- فإن الناظر في المصحف يصعب أن يستنبط قاعدة رتبت على أساسها سور القرآن الكريم، فنحن نعلم أن من السور مكياً ومدنياً، وطوالاً وقصاراً وبين ذلك ونعلم كذلك أن لكل سورة موضوعاً امتازت به، ولو كان الترتيب اجتهادياً لكانت هناك قاعدة رتبت سور القرآن على أساسها.

نحن نجد بعض السور القصار جاءت بين السور الطوال، فسورة الانفال مثلاً جاءت بين الاعراف والتوبة، وسورة الحجر جاءت قبل سورة النحل. مع أن الثانية أطول منها وكذلك سورة السجدة قبل سورة الأحزاب مع أن الأحزاب أطول كثيراً.

ثم إننا نجد سوراً مدنية جاءت بين السور المكية، فسورة النور المدنية أحاطت بها سور مكية من قبلها ومن بعدها، وسورة الأحزاب كذلك، ترى لو كان الترتيب اجتهادياً أما كان ينبغي مراعاة مثل تلك الأحوال؟

٢- لو كان الترتيب اجتهادياً لوجب أن تراعى النظائر، إلا أننا لا نجد تلك القاعدة مفردة، فالحواميم السبعة رتبت معاً متناسقة بينما المسبحات التي تبدأ بيسبح وسبح -مع انها خمس سور- لم ترتب مثل الحواميم، بل

فصل بينهما، فبين الحديد والحشر جاءت سورة المجادلة، وبين الحشر والصف جاءت سورة الممتحنة، وبين الجمعة والتغابن جاءت سورة المنافقون وليس ترتيب الحواميم -لو كان الرأي خاضعاً للاجتهاد- بأولى من ترتيب المسبحات. ويقال هذا في كثير من السور فالسور التي ابتدأت بالحروف المقطعة لم تأت مرتبة كذلك، ولا السور التي ابتدأت بالقسم... وعلى هذا فإن مثل هذا الترتيب لا مجال للرأي فيه.

ومما يستأنس به أن ترتيب السور أحد روافد إعجاز القرآن، لذا وجدنا العلماء -رحمهم الله- يتحدثون عند تفسير أي سورة عن مناسبتها لما قبلها، وكثير منهم يأتي ببديع من القول.

نحن لا نستطيع أن نتصور أن هذا الكتاب المكنون -الذي لا نجد كتاباً في الدنيا لقي من العناية والإجلال والتقديس ما لقي- ترك دون أن توضع كل سورة منه في موضعها وموقعها الذي يلائمها.

أدلة الفريق الثاني (القائلون بالاجتهاد):

أولاً: المأثور: ١- عن حذيفة قال: "صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المئة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، ثم مضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها..."^(١).

٢- عن جابر أن معاذ- رضي الله عنه- صلى بالناس العشاء الآخرة،

(١) أخرجه مسلم (٥٣٦/١، ٥٣٧) كتاب صلاة المسافرين باب رقم ٢٧.

وافتتح البهرة وطول بأصحابه، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: اقرأ بكذا وكذا...

وفي رواية أنه قال اقرأ "والشمس وضحاها"، "والليل إذا يغشى" و"سبح اسم ربك الأعلى" ^(١).

٣- عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المثني، ففرقتم بينهما ولم تكتبوا سطر (بسم الله الرحمن الرحيم)، ووضعتموها في السبع الطوال؟ فقال عثمان: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السورة ذات العدد، وكان إذا نزل عليه شيء، دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من أواخر ما نزل من القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب سطر «بسم الله الرحمن الرحيم»، ووضعتهما في السبع الطول ^(٢).

ثانياً: استدلووا كذلك بترتيب مصاحف بعض الصحابة رضوان الله عليهم، حيث كان بعضهم قد رتب مصحفه ترتيباً يخالف الترتيب الذي تعرفه الآن ومن هؤلاء أبي بن كعب وعلي بن أبي طالب وابن مسعود. فمصحف أبي فيه

(١) أخرجه البخاري (٥١٥/١٠) كتاب الأدب باب رقم ٧٤ ومسلم كتاب الصلاة باب رقم ٣٦.

(٢) أخرجه أحمد (١٩/١) وأبو داود (٢٠٨/١) كتاب الصلاة والترمذي (٢٧٢/٥) كتاب التفسير باب رقم ١٠ والحاكم (٢٣٠/٢).

الحمد، البقرة، النساء، آل عمران، الأنعام ومصحف ابن مسعود البقرة،
النساء آل عمران، الأعراف، الأنعام...^(١).

أدلة الفريق الثالث: "الذين قالوا إن بعض السور ترتبها توقيفي وبعضها
اجتهادي" ليس لهؤلاء أدلة مستقلة، بل أخذوا من أدلة كل من الفريقين
السابقين ولكنهم عولوا على حديث ابن عباس الأخير
مناقشة الأدلة:

إن ما استدلل به الفريق الثاني من الآثار لا ينهض لهم حجة على ما
ذهبوا إليه:

-أما حديث معاذ الذي يرويه جابر- فليس فيه دليل على الترتيب لا من
قريب ولا من بعيد، بل إن سياق الحديث يدل بما ليس فيه شبهة على أن
الترتيب أمر غير مراد هنا، فمعاذ كان يطيل الصلاة بالقوم، وهم ذوو أعذار
وأعمال فأرشدته النبي صلى الله عليه وسلم إلى التخفيف عليهم بقراءة بعض
السور ومثل له ببعض السور. ونحن نجد أن أحدنا يسأل عن بعض السور
التي ذكر فيها القصص -مثلاً- فيجيب دون التزام الترتيب.

- وأما حديث حذيفة، فقليل في الإجابة عنه: لعل سورة النساء- كانت
في الترتيب قبل آل عمران. ولكننا لا نرتضي هذه الإجابة، إذ القرآن مرتب
في اللوح المحفوظ، ولا يعقل أن يختلف هذا الترتيب من وقت لآخر.
والجواب الذي نختاره: أن القراءة في الصلاة لا يجب فيها الترتيب،

(١) فصل الخطاب، الشيخ أحمد الكومي.

وهذا هو مذهب جمهور العلماء، وما يدرينا، فلعل الرسول صلى الله عليه وسلم -بأبي هو وامي- إنما فعل ما فعل من أجل بيان الجواز، وكثير من الأعمال التي كان يعملها النبي صلى الله عليه وسلم إذا نحن تدبرنا السنة المطهرة نجدها كذلك.

- وأما ترتيب مصاحف بعض الصحابة -رضي الله عنهم- فإن صح -فلا يقوم لهم دليلاً على ما ذهبوا إليه؛ نحن نعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له كُتَّاب يكتبون الوحي وهذه -التي بين أيدينا- هي الكُتُبة الرسمية- إن صح التعبير- وهناك بعض الكُتُبات المروية التي كان يقوم بها بعض الصحابة -رضوان الله عليهم-، فقد كانوا يكتبون في مصاحفهم ما تتسنى لهم كتابته.

ولعل لهم العذر في مخالفتهم الترتيب المقرون لدينا الآن، يقول الإمام النيسابوري -رحمه الله-: "واعلم أن القرآن كان مجموعاً على عهده -صلى الله عليه وسلم- فإنه ما نزلت آية إلا وقد أمر من كان يكتب له أن يضعها في موضع كذا من سورة كذا، ولا نزلت سورة إلا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يكتب له أن يضعها في موضع كذا من سورة كذا، ولا نزلت إلا وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الكاتب أن يضعها بجانب سورة كذا، روي عن ابن عباس قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه سورة دعا بعض من كان يكتب، فقال: "ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا... الحديث" ^(١)

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة براءة الحديث الأول أنظر تحفة الأحوزي ٤٧٧/٨.

غير أنهم لم يكونوا قد جمعوها بين الدفتين ولم يلزموا القرآن توالي
سورها؛ وذلك أن الواحد منهم إذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله صلى
الله عليه وسلم أو كتبها ثم خرج في سرية فنزلت في وقت مغيبه سورة، فإنه
كان إذا رجع يأخذ في حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته، ويتتبع ما فاتته على
حسب ما يتسهل له فيقع فيما يكتبه تقديم وتأخير من هذا الوجه، وقد كان
منهم من يعتمد على حفظه فلا يكتب على ما كان من عادة العرب في حفظ
أنسابها وأشعار شعرائها ومنهم من كان كتبها في مواضع مختلفة من
قرطاس وكتب وعسب ثقةً منهم بما كانوا يعهدونه من جد المسلمين في حفظ
القرآن، فلا يرون بأكثرهم حاجة إلى مصحف ينظر فيه.

– بقي حديث ابن عباس، وإنما أفردته عن غيره من الأحاديث السابقة
لأن لنا فيه مناقشة من أكثر من جهة.

أولاً: من جهة إسناده. فإسناده كما في الترمذي قال: حدثنا يحيى بن
سعيد ثنا سعيد ثنا عوف ثنا يزيد الفارسي... وفي هذا السند –الذي أخرجه
أكثر من واحد منهم أحمد وأبو داود– راويان فيهما مقال. أما الأول فهو
عوف الأعرابي. قال في ميزان الاعتدال: "وكان يقال له عوف الصدوق، وقيل
كان يتشيع، وقد وثقه جماعة.

وقال محمد الأنصاري: رأيت داود بن أبي هند يضرب عوفاً الأعرابي
ويقول ويلك يا قدرى.

وقال بNDAR وهو يقرأ حديث عوف: والله لقد كان عوفاً قدرياً رافضياً
شيطاناً.

وقال مسلم في مقدمة صحيحه: إذا وازنت بين الاقران كابن عون وأيوب مع عوف الأعرابي وأشعث الحمрани وهما صاحبا الحسن وابن سيرين، كما أن ابن عون وأيوب صاحباهما - إلا أن البون بينهما وبين هذين بعيد في كمال الفضل وصحة النقل^(١).

أما الثاني فهو يزيد الفارسي، فقد نقل الشيخ أحمد الساعاتي البنا -رحمه الله- في الفتح الرباني^(٢) أن البخاري ذكره في كتابه الضعفاء الصغير لاشتباهه في اسمه هل هو ابن هرمز أو لا .

على أن ابن حجر ذكر في التقريب^(٣) أنه مقبول، ونقل في التهذيب^(٤) عن أبي حاتم أنه لا بأس به.

وأياً ما كان، فليست هذه هي الجهة الوحيدة التي نناقش منها الحديث وإنما هناك جهات أخرى.

ثانياً: إن يزيد تفرد برواية الحديث كما قال الترمذي. قال الشيخ أحمد البنا "وحيث إنه انفرد بهذا الحديث، لا يحتج به في ترتيب القرآن الذي يطلب فيه التواتر، لا سيما وقد قال الخطيب في كتاب الكفاية لا يقبل خبر الواحد في منافية حكم العقل، وحكم القرآن الثابت المحكم والسنة

(١) ميزان الاعتدال (ج ٢ / ص ٣٠٥) .

(٢) الفتح الرباني (ج ٨ / ص ١٥٥) .

(٣) تقريب التهذيب (ج ٢ / ص ٣٧٣) .

(٤) تهذيب التهذيب (ج ١١ / ص ٣٧٤) .

المعلومة، والفعل الجاري مجرى السنة، وكل دليل مقطوع به. وكثيراً ما يضعف علماء الحديث راوياً لانفراده برواية حديث يخالف المشهور من الروايات" ^(١).

ثالثاً: الحديث من جهة متنه:

يمكن أن يناقش متن الحديث فيما يلي:

١- إن أوله ينقض آخره، ففي أول الحديث بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يدع شيئاً ينزل من القرآن الكريم إلا ويبين موضعه وموقعه في السورة ولكن آخره فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبين ما يتصل ببراءة والأنفال وهذا غير مقبول.

٢- أن سورة الأنفال كانت من أول ما نزل من القرآن المدني، لأنها تتحدث عن بدر وهي في السنة الثانية للهجرة- أما نزول براءة فكان من آخر القرآن الكريم نزولاً، فهي حديث عن غزوة تبوك، وهي في السنة التاسعة للهجرة، ولا يصح في العقل أن مثل هذا الأمر يخفى على المسلمين هذه المدة الطويلة بين نزول الأنفال ونزول براءة على أننا قد عرفنا من قبل أن أسماء السور توقيفية، وقد عرفت بأكثر من اسم واحد.

٣- تقدم لنا من قبل سؤال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه عثمان رضي الله عنه عن قوله تعالى «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً...» لم وضعت في القرآن مع أنها منسوخة، ولم وضعت متأخرة عن ناسختها،

(١) الفتح الرباني (ج ٢ / ص ١٥٥) .

فكانت إجابته عليه رضي الله عنه أن القرآن الكريم رتب هذا الترتيب وألف هذا التأليف، الذي هو عليه الآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وما كان لعثمان ولا لغيره أن يخالف ذلك الترتيب ولكننا نجد في هذا الحديث خروجاً من عثمان عن منهجه، وهو تعامله مع القرآن الكريم بظنه واجتهاده، ظنهما سورة واحدة وترك البسملة بينهما. وهذا مخالف لمنهجه رضي الله عنه في إجابته لعبد الله بن الزبير.

٤- إن عثمان رضي الله عنه لم ينفرد ولا يمكن له ذلك في ترتيب السور والآيات؛ فإن هناك من الصحابة من هم أقرأ وأحفظ منه، فانفراده -كما في هذا الحديث- أمر غير متصور.

٥- إن كل الذي فعله عثمان رضي الله عنه أنه جمع الناس على حرف واحد، أما ترتيب المصحف سوراً وآيات، فهذا ما لم يعرض له عثمان رضي الله عنه فترتيب المصحف -في عهده- هو الترتيب ذاته الذي كان في عهد أبي بكر.

٦- إن قول عثمان إنه ترك كتابة سطر (بسم الله الرحمن الرحيم) بعيد عن القبول منافٍ لما عرف عن الصحابة -رضوان الله عليهم- من غيرة على كتاب الله تعالى؛ إن أمر البسملة اثباتاً أو حذفاً مما لا يمكن أن يملكه أحد لا عثمان ولا غيره من الصحابة أو من غيرهم. ،من هنا نقل عن الصحابة في ترك البسملة أقوال منها ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "لم تكتب البسملة في براءة لأنها أمان، وبراءة نزلت بالسيف" ^(١)، وإذا

(١) الفتح الرباني (ج ٨ / ص ١٥٥) .

صح عن ابن عباس هذا القول ففيه أبلغ رد على الحديث الذي نحن بصدده.
٧- إن هذا الحديث لا ينهض دليلاً لأحد من الفريقين القائلين بالاجتهاد
والقائلين بالتفصيل لأن السؤال فيه لم يكن عن الترتيب، بل كان السؤال عن
اقترانها وترك البسملة وجعل السورتين في محل سورة واحدة، فجاء الجواب
مطابقاً للسؤال.

وبعد: فإن العناية بالقرآن الكريم منذ اللحظة الأولى التي نزلت فيها
أول آية من آياته وتوجيه أنظار المسلمين -من قبل النبي صلى الله عليه
وسلم- إلى هذا القرآن، وحرص المسلمين على تلاوته وحفظه، وتدبره، وعرض
النبي صلى الله عليه وسلم هذا القرآن على جبريل مرتين، وكتابته في عهد
النبي صلى الله عليه وسلم أولاً، وفي عهد أبي بكر ثانياً.... كل أولئك براهين
صدق على أنه من غير المعقول أن يظل القرآن غير مرتب السور، حتى يأتي
عثمان رضي الله عنه.

والله أعلم بالصواب وهو ولي التوفيق.

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الحادي عشر

رسم المصحف

ونتحدث فيه عن :

الجهات التي خالف فيها الرسم العثماني الخط القياسي
الحذف والزيادة بالهمزة في البدل في الفعل والوصل لما

فيه قراءتان

أراء العلماء في التزام الرسم العثماني

أدلتهم

قولان آخران

فوائد الرسم العثماني

الفصل الحادي عشر

رسم المصحف

يختلف كثير من المصطلحات. باختلاف اجيال الناس. ومن ذلك كلمة الرسم، فإن مجرد النطق بها في أيامنا يوحي بمدلول خاص، لهذه الكلمة. إنه (محاكاة صور الأشياء جماداً كانت أم غيره) فهذا يرسم شجرة وذلك يرسم كوكباً، وثالث يرسم منزلاً. ولكن كلمة الرسم التي يتحدث عنها العلماء إنما تعني (الطريقة التي تكتب بها الحروف والكلمات). فرسم الحرف هو الكيفية التي تكتبه بها، وإنما تحدث العلماء عن رسم المصحف وافردوا له موضوعاً خاصاً به؛ لأنه الطريقة التي كُتِبَ بها تختلف عما ألفناه من طرق الخط والكتابة.

فمن المعلوم أن الكلمات العربية تكتب كما تنطق؛ فليس هناك حروف نكتبها دون أن نطق بها، كما نجد في بعض اللغات، ولكن الطريقة التي كتب عليها القرآن الكريم، تختلف من جهات متعددة عن الخط المألوف -القياسي- وهذه الجهات التي خالف بها الرسم -الخط القياسي- سماها بعضهم قواعد وفي هذه التسمية نوع من التجوز لأن القاعدة ينبغي أن تكون منضبطة تشمل أشياء متشابهة كقولهم (الفاعل مرفوع)، (المعدن يتمدد بالحرارة).

لكن كثيراً مما خالف فيه الرسم العثماني -الخط القياسي- لا يندرج تحت قاعدة منضبطة، بل هي كلمات إذا اردنا معرفتها، فلا بد أن نَعُدَّها عدّاً، صحيح أن هناك بعضاً مما يندرج تحت قاعدة لكنه قليل كما ستعرفه -إن شاء الله-.

الجهات التي خالف فيها الرسم العثماني الخط القياسي:

وهناك أمور ستة خالف فيها الرسم الخط القياسي هي:

١- الحذف: وتحذف الألف من ياء النداء نحو (يَآدَمَ)، (يَآيُهَا النَّاسُ) ومن هاء التنبيه نحو (هَآنْتُمْ)، ومن نا مع ضمير نحو (انجِينَكم). ومن أولئك وهؤلاء واسم الجلالة والرحمن وسبحن إلا في قوله سبحانه: «قل سبحان ربي»^(١). ومن كل علم زائد على ثلاثة حروف نحو إبراهيم، صلح...

ومن كل جمع سالم لمذكر أو لمؤنث نحو (اللَّعْنُونِ)، (وملقوا ربهم) إلا في قوله: (طَاغُونِ) في الذاريات والطور (وكراماً كَاتِبِينَ) وبعض الاستثناءات. وتحذف الياء من كل منقوص منون رفعاً وجراً نحو (بَاغِ، عَادِ) وحيث وقع (أَطِيعُونِ)، (وَاقْتُونِ)، (خَافُونِ)... ونحوها إلا بعض الاستثناءات مثل (واخشوني) في البقرة.

وتحذف الواو مع أخرى نحو (بَاؤَا)، (الموعدة)، (يَتُوسَا) وتحذف اللام مدغمة في مثلها نحو (أَلِيلِ)، (الَّذِي) إلا بعض الاستثناءات مثل (اللَّهُو، اللغو....).

٢- الزيادة: زيدت ألف بعد واو الجمع نحو (بنوا إسرائيل)، (ملاقوا ربهم)، (أولوا الألباب). بخلاف الفعل منفرداً كان أو جمعاً، منصوباً أو مرفوعاً نحو (بَاوِ)، (جَاوِ)، (وعتو عتواً كبيراً) وزيدت بعد الهمزة المرسومة واواً نحو (تفتوا)، وفي (مائة) و (مائتين) و (الرسولا) و (السبيلا)، وزيدت واو في اولوا وفروعه.

(١) الإسراء: آية (٩٣).

* راجع الإتيان ١١٦٤/٢ وما بعدها طبعة الدكتور البغا.

٣- الهمز: يكتب الساكن بحرف حركة ما قبله أولاً أو وسيطاً أو

آخرأ إلا في قوله: (فادارعتم)، (رعيا)، (شطءه).

والمتحرك إن كان أولاً أو اتصل به حرف زائد كتب بالألف مطلقاً إلا

(اِنَّكُمْ لتشهدون)، (أئذا متنا)، (لئن)، (قل أُنَبِّئُكُمْ) وغيرها وإن كان

متوسطاً فيجرف حركته إلا، (لأملئن)، (مثلت)، (اشننزت) وغيرها.

وإن كان آخرأ فيحذف حركة ما قبله إلا في مواضع (تفتنوا)، (يتفيؤ)،

وهكذا...

٤- في البذل: تكتب بألف واواً في، الصلوة، الزكوة، ...

وتكتب ياءاً في (يتوفيكم)، (يا حسرتي)، (يا أسفى).... في كل ما

أصلها ياء وكانت الألف منقلبة عنها.

وتكتب نون التوكيد الخفيفة ألفاً (نسفعاً)، (يكوناً).

وتكتب تاء التانيث هاءاً وخالف رسم المصحف في (رحمت) في عدة

مواضع، و(أنعمت)، و(سنت) كذلك وغيرها.

٥- في الفصل والوصل:

هناك مواضع وصلت فيها بعض الألفاظ ومواضع فصلت فيها نفس

الألفاظ من ذلك أن لا فقد وصلت في كل المواضع إلا عشرة منها (أن لا

أقول)، (أن لا) تقولوا الأعراف، (أن لا تعبدوا....) يس.

ومن ذلك (عما) وصلت في كل القرآن إلا (عن ما نهوا عنه).

ومن ذلك (كلما) وصلت في القرآن إلا (كل ما ردوا إلى الفتنة)، (من

كل ما سألتموه).

ومن ذلك (أَمَّنْ) وصلت إلا (أَم من يكون) النساء (أَم من أسس)، (أَم من خلقنا) الصفات (أَم من يأتي آمناً).

ومن ذلك (إنما) توصل في القرآن كله إلا (إن ما توعدون لآت)، وغير ذلك كثير.

٦- فيما فيه قراعتان، فكتب على إحداهما:

ومن ذلك (ملك يوم الدين)، (يخدعون)، (غيابت الجب)، (الريح)، (تفدوهم)، (تظهرون).

ومن ذلك (الصراط)، (بصطة) في الأعراف (المصيطنون)، (مصيطن) كلها كتبت بالصاد لا غير.

ومن ذلك ما يكتب على قراءة شاذة نحو (إن البقر تشبه علينا)، ومنه (فذرو ما بقي من الربو) ومنه (أو كلما عهدوا).

هذه بعض امثلة ذكرناها لك باختصار يناسب المقام وإن اردت المزيد والاستقصاء فارجع إلى البرهان أو الإتيان تجد لك فيه متسعاً وتفصيلاً والله ولي التوفيق.

آراء العلماء في التزام الرسم العثماني:

إن مخالفة الرسم العثماني -الخط القياسي، كانت الأساس لمذاهب العلماء فمنهم من رأى أن مجيء الرسم على هذا الشكل لم يكن إلا لأمر من الشارع- لذا فهو توقيفي تحرم مخالفته، ومنهم من رأى أن مجيئه على ما هو عليه لا يعدو أن يكون أمراً يخضع لاختلاف الكاتين، لذا هو اصطلاحى ليس بواجب الاتباع، ولكل من هذين القولين أدلة وحجج.

أما الفريق الأول -القائلين بأن الرسم توقيفي- ومنهم الإمام مالك رضي الله عنه وقد قيل له: "هل تكتب المصحف على ما أخذته من الناس من الهجاء؟ قال: لا، إلا على المكتبة الأولى".

وسئل أيضاً عن الألف والواو المزيديتين، هل يغيرا من المصحف إذا وجدا فيه كذلك؟ فقال: لا، ومنهم الإمام أحمد -رحمه الله- قال: تحرم مخالفه خط مصحف عثمان في ياءٍ أو واوٍ أو ألٍ أو غير ذلك.

ومنهم البيهقي قال: "من كتب مصحفاً فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف ولا يخالف فيها، ولا يغير مما كتبه شيئاً، فإنهم أكثر علماً وصدق قلباً ولساناً وأعظم أمانة منا، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم".

ومنهم أبو عبيد قال: "اتباع حروف المصاحف عندنا كالسنن القائمة التي لا يجوز لأحد أن يتعداها"^(١).

(١) هذه الأقوال ذكرها الزركشي في البرهان ج ١/ص ٢٧٦ - ٢٨٠.

أدلتهم: استدل هؤلاء على مدعاهم بـ :

١- أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان كلما نزل شيء من القرآن دعا من يكتبه، وكان له كتبة للوحي، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرهم على هذه الكتابة، وما دام الأمر كذلك، فإن كتابة المصحف مما لا تجوز مخالفته لأنه ثابت بتقرير النبي صلى الله عليه وسلم.

٢- إجماع الصحابة على ما فعله عثمان ورضاهم به، إذ لم ينقل عن أحد مخالفته.

٣- ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لمعاوية "ألق الدواة، وحسّن الخط ودور الميم، ومد السين" الحديث^(١).

٤- اختلاف كتابة الكلمات المماثلة فكلمة (واخشوني) في البقرة كتبت بالياء أما في المائدة فبدون ياء في موضعين منها، ولولا أمر التوقيف ما وجد هذا الاختلاف.

بل ذهب بعضهم إلى أكثر من ذلك فقالوا: إن رسم القرآن له اسرار لا يعلمها كثير من الناس، وقالوا: إن القرآن كما هو معجز بنظمه فهو معجز كذلك في رسمه وحاول بعضهم أن يبرهن على ذلك ووقفوا في بعض ما ذهبوا إليه ومن هؤلاء أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي الشهير بابن البناء حيث بين أن هذه الأحرف قد اختلف حالها في الخط بحسب اختلاف أحوالها في المعاني^(٢).

(١) الحديث ضعيف .

(٢) البرهان ج ١/ ص ٣٧٦ وما بعدها .

ومنهم كذلك ابن المبارك في كتابه الابريز حيث نقل عن شيخه الدباغ قوله: "فكما أن القرآن -نظمه- معجز، فرسمه معجز كذلك. وكيف تهتدي العقول إلى سر زيادة الألف في مائة دون فئة، وزيادة الياء في (بأييد) أم كيف تتوصل إلى سر زيادة الألف في (سعوا) من سورة الحج دون (سعو) من سورة سبأ وفي (عتوا) من سورة الأعراف وحذفها من (عتو) في سورة الفرقان...

إلى غير ذلك مما لا يكاد ينحصر، وكل ذلك لأسرار إلهية واغراض نبوية..."^(١).

ثم قال "فمن كتبه بالكتابة التوقيفية فقد اداه بجميع اسرارهِ، ومن كتبه بالكتابة القياسية، فقد نقص من اسرارهِ، ويكون الذي كتبه كلمات من تلقاء نفسه إلا الكلمات المنزلة"^(٢).

ومن المفيد أن نذكر لك امثلة أو بعض امثلة مما ذكره الزركشي عن المراكشي:^(٣).

١- (لا أذبحنه) قال الزركشي: زيدت الألف تنبيهاً على أن المؤخر أشد في الوجود من المقدم عليه لفظاً، فالذبح أشد من العذاب، وكذلك (لا أوضعوا...) فالايضاع اشد فساداً من زيادة الخبال^(٤).

(١) الابريز ص ٩١. (٢) الابريز ص ١٠٥.

(٣) أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي المعروف بابن البناء، توفي سنة

٧٢١هـ له كتاب عنوان "الدليل في رسوم خط التنزيل".

(٤) البرهان ج ١ ص ٢٨١.

- ٢- (لا تايئسوا)، (أفلم يائئس) لأن الصبر وانتظار الفرج أخف من الالاس والالاس لا يكون في الوجود إلا بعد الصبر والانتظار^(١).
- ٣- (سعوا في آياتنا معاجزين) سقطت الألف من سعو لاضمحلال الفعل فإنه سعي في الباطل لا يصح له ثبوت في الوجود^(٢).
- ٤- كذلك (وعتو عتواً كبيراً) لأن هذا عتو على الله كذلك وصفه بالكبر وهو باطل في الوجود^(٣).
- ٥- (جاء بسحر عظيم)، (جاء ظلماً وزوراً) ومثيلاتها فإن هذا المجيء ليس^(٤) على وجهه الصحيح فحذفت الألف.
- وفي زيادة الياء في (باييد) نقل عن المراكشي أن هذا فرقاً بين الاليد الذي هو القوة والأيدي جمع يد، ولا شك أن القوة التي بنى الله بهل السماء هي أحق بالثبوت في الوجود من الأيدي، فزيدت الياء لاختصاص اللفظة بمعنى اظهر في إدراك الملكوني في الوجود^(٥).
- وفي زيادة الياء في مثل قوله: «فأين مات» وقوله: «أفاين مت». لأن موته مقطوع به، والشرط لا يكون مقطوعاً به، ولا ما رتب على الشرط هو

(١) البرهان ج ١ / ص ٢٨٢.

(٢) البرهان ج ١ / ص ٢٨٢.

(٣) البرهان ج ١ / ص ٢٨٢.

(٤) البرهان ج ١ / ص ٢٨٣.

(٥) البرهان ج ١ / ص ٢٧٨.

جواب له، لأن موته لا يلزم منه خلود غيره ولا رجوعه عن الحق، فاللفظ للإستفهام، والمعنى للإنكار، فزيدت الياء لخصوص هذا المعنى. الظاهر للفهم الباطن في اللفظ^(١).

- ومن ذلك حذف الألف في (بسم الله) تنبيهاً على علوه في أول رتبة الاسماء وانفراده، وأن عنه انقضت الاسماء، يدل عليه اضافته إلى اسم الله الذي هو جامع الاسماء كلها، ولهذا لم يتسم بهذا غير الله، بخلاف غيره من اسمائه، فلهذا ظهرت الألف معها -الإضافة- تنبيهاً على ظهور التسمية في الوجود، وحذفت الألف التي قبل الهاء وظهرت التي مع اللام من أوله، دلالة على أنه الظاهر من جهة التعريف والبيان، الباطن من جهة الإدراك والعيان^(٢).

وفي زيادة الياء في قوله تعالى: «بأييكم المفتون» أي المجنون، الإشارة إلى أن جنون المشركين بلغ الغاية أو تجاوز الحد أو أتهم المجانين لا أنت لأن مثلك يا محمد في رجاحة عقلك وعظم أخلاقك لا يصح أن يرمى بالجنون. ومثله قوله تعالى: «وإنّا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين» مع اليقين أن النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه على الهدى وهم الذين في ضلال بين ظاهر.

وكذلك نقول في زيادة الألف بعد الفعل المضارع المعتل الآخر في قوله تعالى: «وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم، ويعفو عن كثير» فيها

(٢) البرهان ج ١ / ص ٢٩٠.

(١) البرهان ج ١ / ص ٣٧٨.

الإشارة إلى كثرة عفو الله واستمراره والآ فلو أخذنا الله بمعاصينا وأثامنا لما ترك على ظهر الأرض من دابة.

ومثل ذلك «وجاعٌ بسحر عظيم» وقوله: «وجاعٌ ظلماً وزوراً»، «وجاعٌ أباهم عشاء يبكون»، «وجاعٌ على قميصه بدمٍ كذب» فهو لبيان أن مجيئهم ليس على وجه صحيح، ويغلب عليه التصنع، والزور والتمويه فمن هنا جاء رسم الكلمات على غير المعهود المعروف.

والمعنى في قوله تعالى: «ولقد جاءك من نبأى المرسلين» للإشارة إلى كثرة ما جاء في القرآن من أخبار الأنبياء وتحملهم الأذى البالغ والصبر الصابر حتى جاء نصر الله.

وفي قوله «ومن آناءى الليل فسبح وأطراف النهار لعك ترضى» للإشارة إلى أنه ينبغي أن يشغل معظم ساعات الليل بالقيام والتسبيح فجاءت هيئة رسم اللفظ موجبة بهذا المعنى.

وفي قوله: «أو من وراء حجاب» للإشارة إلى كلام من وراء وراء فهو وراء فسيح ممدود لا حد له. وهكذا لا يعدم المتأمل في رسم القرآن بعقل فسيح وقلب مستنير من أن يجد في الرسم من أسرار القرآن الشيء الكثير فله در القرآن ما أعظم بركاته وما أكثر أسرار معنًى ولفظاً ورسماً.

هذا بعض ما ذكره وإن كان فيه ما هو مقبول، إلا أن كثيراً مما ذكره قد يظهر فيه التكلف والله أعلم بأسرار كتابه.

أما الفريق الثاني الذين ذهبوا إلى أن الرسم اصطلاحى ومنهم أبو

بكر ابن الباقلاني وابن خلدون -رحمهما الله- فقد استدلوا بـ :

١- أن المصحف -رسمه- لم يرد في وجوب التزامه نص من كتاب أو سنة ولم يرد فيه كذلك اجماع.

وناقشوا أدلة الفريق الأول:

١- أما تقرير النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه يفيد الجواز، ثم إن تقديره عليه الصلاة والسلام كل الذي يفيد صحة الكتابة بقطع النظر عن كيفيتها.

٢- كذلك ما روه عن النبي صلى الله عليه وسلم -إن صح وما إخاله كذلك- فلا ينهض لهم دليلاً؛ لأنه يتحدث عن قضايا عامة ليس فيها تفصيل لجزئيات الخط.

٣- أما رضى الصحابة -رضوان الله عليهم- فلا ينهض دليلاً كذلك؛ إذ كل ما فيه موافقتهم على ما ذهب إليه عثمان من جمع الناس على حرف واحد، دون النظر إلى الصورة التي رسم بها كل حرف من حروف القرآن وكلماته.

٢- أما اختلاف رسم الكلمات، فلقد استدل له الفريق الثاني على مذهبهم كذلك. قالوا: إن اختلاف الكلمات في الرسم، دليل بين على أن الكتابة اصطلاحية تختلف باختلاف الكاتبين.

ومن الذين دافعوا عن الرأي الأول صاحب الابريز -ابن المبارك- وشيخه عبد العزيز الدباغ.

وممن جلى الرأي الثاني ودافع عنه الإمام الباقلاني -رحمه الله- وابن خلدون، وتتميماً للفائدة ولكي نكون منصفين ننقل لكم ما قاله الإمام

الباقلاني ومما نقله صاحب الابريز عن شيخه "ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن العزيز ولا شعرة واحدة، وإنما هو بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الأحرف ونقصانها بأسرار لا تهتدي إليها العقول، وما كانت العرب في جاهليتها ولا أهل الإيمان من سائر الأمم في أديانهم يعرفون ذلك. ولا يهتدون بعقولهم إلى شيء منه، وهو سر من أسرارهِ خصَّ الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية، فلا يوجد في التوراة ولا في الإنجيل ولا في غيرهما من الكتب السماوية" (١).

أما الإمام الباقلاني فقد قال: "إنما فرض على الأمة الوصية في القرآن والفاظه فلا يزيّدون حرفاً، ولا ينقصونه، ولا يقدمونه، ولا يؤخرونه، ويتلونّه على نحو ما يتلى عليهم، وأما الكتابة، فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً، إذ لم يأخذ على كتاب القرآن وخطاط المصاحف رسماً بعينه، دون غيره، أوجبّه عليهم وترك ما عداه، إذ وجوب ذلك لا يدرك إلا بالسمع والتدقيق، وليس في نصوص القرآن ولا مفهومه أن رسم القرآن وخطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص، وحد محدود لا يجوز تجاوزه، ولا في نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه، ولا في إجماع الأمة ما يوجب ذلك، ولا دلت عليه القياسات الشرعية، بل السنة دلت على جواز رسمه بأي وجه سهل لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرهم برسمه، ولم يبين لهم وجهاً معيناً، ولا نهى أحداً عن كتابته، ولذلك اختلفت خطوط المصاحف، فمنهم من كان يكتب الكلمة

(١) الابريز/ ص ٩٩.

على مطابقة مخرج اللفظ، ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بأن ذلك اصطلاح، وأن الناس لا يخفى عليهم الحال، ولأجل هذا جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول، وأن يجعل اللام على صورة الكاف، وأن تعوج الألفات، وأن يكتب أيضاً على غير هذه الوجوه وساغ أن يكتب الكاتب المصحف بالخط والهجاء القديمين، وجاز أن يكتبه بالهجاء والخطوط المحدثه، وجاز أن يكتب بين ذلك، وإذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصور، وإن الناس قد أجازوا ذلك كله، وأجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته وما هو أسهل وأشهر وأولى من غير تأثيم ولا تناكر؛ علم أنه لم يؤخذ في ذلك على الناس حدّ محدود مخصوص، كما أخذ عليهم في القراءة والأذان، والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الاشارات والعقود والرموز، فكل رسم دلّ على الكلمة مفيد وجه قراءتها تجب صحته، وتصويب الكاتب به، على صورة كان وبالجمله، فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه وأنى له ذلك" (١).

فهذان قولان يصعب الجمع بينهما لما بينهما من تضاد.

قولان آخران:

وإن تعجب فعجب أحد هذين القولين الآخرين، ذلكم ما روي عن سلطان العلماء -العز بن عبد السلام- رحمه الله تعالى فقد روي عنه حرمة كتابة

(١) الانتصار / مخطوط ص ٤٧٥.

المصحف على الرسم العثماني؛ لأن هذا الرسم كان معلوماً للصحابة رضوان الله عليهم، ومن هم قريبيون من عصرهم، أما في العصر المتأخرة فقد اختلف الأمر، وصار كثير من الناس يجهلون هذا الرسم، فكتابة المصحف الشريف به، قد ينتج عنها تحريف لكتاب الله -تبارك وتعالى- لأن كثيرين سيقروا كثيراً من الكلمات على غير حقيقتها.

وهذا الرأي من سلطان العلماء -رحمه الله- مع تقديرنا لحسن نية الشيخ وغيرته على كتاب الله وهو الذي كان لا تأخذه في الله لومة لائم، وهو البارع في أكثر من فن وعلم، فيه كثير من الغرابة لذا نود أن نبادر بالاعتذار عن قبوله.

- أما ثاني القولين: فقد جنح القائلون به إلى التفصيل.

فإذا كان القارئ -كما يقولون- ممن يعرف رسم المصحف وكان من خاصة القوم وذوي الدراية والمعرفة، فيتأكد لهؤلاء وجود اتباع الرسم العثماني. أما غيرهم ممن يجهل قواعد الرسم فلا ينبغي أن يكتب لهم المصحف على هذا الرسم.

وهذا القول -كما يبدو- تعديل لرأي أبي محمد العز بن عبد السلام -رحمه الله- ويظهر أن هذين القولين الأخيرين، يميل القائلون بهما إلى كون الرسم اصطلاحياً لا توقيفياً.

قال الزركشي -وهو من الذين تبناوا القول بالتفصيل- بعد أن نقل رأي القائلين بالتوقيف -وكأنه لا يراه- قال:

"وكان هذا في الصدر الأول، والعلم حي غض، أما الآن فقد يخشى

الإلباس، ولهذا قال الشيخ العز بن عبد السلام: "لا تجوز كتابة المصحف الان على الرسوم الأولى باصطلاح الأئمة، لئلا يوقع في تغير من الجهال" ولكن لا ينبغي اجراء هذا القول على اطلاقه لئلا يؤدي إلى دروس العلم، وشيء احكمته القدماء لا يترك مراعاته لجهل الجاهلين ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة" (١).

وبعد أن عرفت هذه الأقوال وحجة كل قول، فلا يصعب عليك أن توازن بينها لاختيار قول وسط.

رأينا تعارض الأدلة عند الفريقين الأولين ورأينا كذلك أن بعض الأدلة كان يحتج به كل من الفريقين، فلقد احتج كل منهما باختلاف رسم الكلمات: والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال، سقط به الاستدلال.

ورأينا كذلك أن اصحاب هذه الأقوال هم من أجلة العلماء وجهابذتهم، لذا فإن المسألة يقع فيها مثل هذا الخلاف من أئمة العلماء وافاضلهم لا نرجح أن تكون من المسائل التوقيفية، والمسائل التوقيفية -كما تعلم- ليس فيها اختلاف، وإن كان فهو محسوم، وليس كما رأينا في هذه القضية، وذلك كترتيب الايات مثلاً أو قراءة القرآن بالمعنى أو حتى ترتيب السور كذلك، فإن مثل هذه القضايا قد حسم القول فيها على الرغم من وجود بعض المخالفين.

وإذا كان هذا الرأي المختار عندنا، فليس معنى هذا أننا ننادي بتغيير رسم المصحف بل العكس هو الصحيح، فينبغي أن يظل المصحف على الرسم

(١) البرهان ج ١ / ص ٣٧٩.

الذي كُتب عليه في عهد الصحابة -رضوان الله عليهم-؛ وذلك لمتابعة السلف من جهة، وللإبقاء على قدسية القرآن من جهة أخرى، ولما يترتب على تغيير رسمه من مخاطر ينبغي أن نجل المصحف عنها كأن تصير كتابة المصحف خاضعة لأهواء الكاتبين من جهة ثالثة. وقد ينتج عن ذلك ما لا يحمد عقباه.

فالموازنة بين الإيجابيات والسلبيات -أمر لا بد منه، فإن نتج عن تغيير الأمور -حتى تلك التي لا بد من تغييرها- مفسدة فينبغي أن تظل كما هي. ونستأنس لذلك بحديث النبي صلى الله عليه وسلم للسيدة عائشة رضي الله عنها والذي أخرجه الإمام مسلم. قال لها: "لم تري أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم، قالت: يا رسول الله أفلا تردها على قواعد إبراهيم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت.... الحديث" ^(١).

قال النووي في شرحه للحديث: "في هذا الحديث دليل لقواعد من الأحكام منها، إذا تعارضت المصالح، أو تعارضت مصلحة مع مفسدة وتعذر الجمع بين فعل المصلحة ودرء المفسدة بدئ بالأهم" ^(٢).

ومن هنا فلا يعنينا كثيراً هذا الجدل وتلك المشادة بين انصار كل من الرأيين -أتوقيفي أم اصطلاحى- وإن كنا نميل إلى القول الثانى -وهو أن رسم القرآن اصطلاحى- فإننا نحذر من كتابة المصحف على غير ما عرف عليه لا لأن ذلك حرام شرعاً، ولكن لما ذكرناه آنفاً، على أن صاحب التبيان

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحجج رقم (٣٩٩) أنظر بشرح النووي ٨٨/٩ .

(٢) شرح النووي على مسلم ٨٩/٩ .

-الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله- ذكر أن بعض العلماء كتب المصحف على ما أحدث الناس من الخط قال -رحمه الله:-

"أما كتابته على ما أحدث الناس من الهجاء فقد جرى عليها أهل المشرق بناءً على كونها أبعد من اللبس، وتحامها أهل المغرب بناءً على قول الإمام مالك"^(١).

فوائد الرسم العثماني:

ومما تجدر الإشارة إليه أن اتباع هذا الرسم له فوائد متعددة حرية بالعناية نذكر منها:

١- حمل الناس على أخذ القرآن عن رسم المصحف، وألا يكتفي بأخذه من المصحف، لما يترتب عليه من اللبس، وعدم القراءة بالقراءة الصحيحة، وبهذا لا يوجد قارئ للقرآن إلا له شيخ أخذ عنه، زيادة في التثبت من ألفاظ القرآن وكيفيات النطق بها. فوق ما فيها من اتصال سند قراءة القارئ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتلك من خصائص هذه الأمة، امتازت بها عن سائر الأمم.

٢- الدلالة على أصل الحركة، ككتابة الكسرة ياءً والضممة واواً في نحو (ايتاوى ذي القربى)، (سأوريكم آياتي)، أو للدلالة على أصل الحرف ككتابة (الصلوة)، (الحياة)، (الزكاة).

٣- افادة المعاني المختلفة بالرسم مثل وصل، (أمن) في قوله: «أمن

(١) التبيان ص ٢١٤ .

يمشٍ سويًا...» وفصلها في قوله: «أَمْ مِنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا» فَإِنَّ الْمَفْصُولَةَ تَقِيدُ مَعْنَى بَلْ دُونَ الْمَوْصُولَةِ.

٤- الدلالة على بعض اللغات الفصيحة ككتابة هاء التانيث تاء في لغة طيء ومثل حذف أمر المضارع المعتل لغير جازم كقوله: «يَوْمَ يَأْتُ» في لغة هذيل.

٥- المحافظة على ما كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم واجمع عليه الصحابة.

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الثاني عشر

المحاكم والمتشابه

ونتحدث فيه عن :

١ - المعنى اللغوي

٢ - أقسام المتشابه

٣ - آراء العلماء في معنى الإحكام والتشابه

مناقشة هذين القولين

٤ - حكمة ورد المتشابه

أسباب وقوع التشابه

تفسير آية آل عمران

الفصل الثاني عشر

المحكم والمتشابه

قال تعالى «هو الذي أنزل عليك الكتاب، منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، وما يذكر إلا أولوا الألباب»^(١).

شغلت قضية المحكم والمتشابه، الفكر الإسلامي في القديم والحديث، وتعددت فيه كلمات العلماء، واختلفت أقوالهم وتباينت آراؤهم، ولكل وجهة هو موليها.

وسنحاول إن شاء الله أن نجمع الموضوع، ونلم لكم بأشهر الأقوال مختارين ما نراه الأرجح، والأقرب إلى روح الشرع بأسلوب سهل، نجيبك فيه وعورة المسلك، والله من وراء القصد.

وخطتنا فيه أن نتحدث:

أولاً: عن معنى الإحكام والتشابه في اللغة.

ثانياً: أقسام التشابه

ثالثاً: آراء العلماء في معناه، والقول الراجح.

رابعاً: أسباب ورود التشابه وحكمته.

أولاً: المعنى اللغوي:

المحكم: أصله حكم ومعناه منع، ومنه سميت اللجام حكمة الدابة،

(١) آل عمران: آية (٧).

فَقِيلَ: حَكَمْتُهُ وَحَكَمْتُ الدَّابَّةَ مِنْعَتَهَا، وَأَحَكَمْتُ الشَّيْءَ فَاسْتَحْكَمَ صَارَ مُحْكَمًا، وَاحْتَكَمَ الْأَمْرَ وَاسْتَحْكَمَ وَثِقَ ^(١). وبهذا المعنى فإن القرآن الكريم محكم كله؛ لأنه يمنع مَنْ تدبره وعمل به من السوء والشر، والانحراف في العقيدة، والفساد في المسلك، قال تعالى «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» ^(٢).

أما المتشابه فهو من شبه، ومعناه المماثلة، والمماثلة بين أمرين تعني أن لا يتميز أحدهما عن الآخر لما بينهما من التشابه، وقيل متماثلات في الكمال والجودة والمتشابهات من الأمور المشكلات ^(٣).

والقرآن الكريم متشابه كله من حيث مجيئه بأقصح الألفاظ، وأبلغ التراكيب، وأصح المعاني، وأحسن النظم، قال تعالى «الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلتن جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء، ومن يضلل الله فما له من هاد» ^(٤).

فأي القرآن الكريم كلها صدق، وكلها حق، وكلها فيها الهداية، والسعادة والخير لا فرق في ذلك بين قصصه وأمثاله وأحكامه العملية والاعتقادية.

(١) المفردات للراغب الأصفهاني ص ١٢٦، لسان العرب مادة حكم (١٢/١٤٣).

(٢) هود آية (١).

(٣) المفردات للراغب الأصفهاني ص ٢٥٤، لسان العرب مادة شبه (١٣/٥٠٤).

(٤) الزمر: آية (٢٣).

ثانياً: أقسام المتشابه.

ينقسم المتشابه في اصطلاح العلماء قسمين اثنين:-

الأول: المتشابه اللفظي؛ وهو ما نجده بين بعض آيات القرآن الكريم، كأن تقدم جملة في آية، وتتأخر في آية أخرى، أو أن نجد كلمة في آية ولا نجدها في أخرى، وذلك مثل قوله سبحانه في سورة البقرة «وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، وكلا منها رغداً» وقوله في سورة الأعراف «ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، فكلا من حيث شئتما» وفي سورة البقرة «وادخلوا الباب سجداً» وقولوا حطة»، وفي سورة الأعراف «وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً»، وفي سورة هود «ولما جاءت رسلنا لوطاً» وفي سورة العنكبوت «ولما أن جاءت رسلنا لوطاً». وفي سورة النساء «كونوا قوامين بالقسط شهداء لله»، وفي سورة المائدة «كونوا قوامين لله شهداء بالقسط».

وهذا القسم هو من أعظم روافد الإعجاز، وقد ألفت فيه كتب كثيرة، منها "متشابه القرآن" للكرمانلي، "وملاك التأويل" لأبي جعفر بن الزبير، "ودرة التنزيل" المنسوب للإسكافي، وهذا القسم ليس هو محل الخلاف بين العلماء. الثاني: وهو الذي يقابل المحكم، وهو الذي يعنيه العلماء في هذا المبحث، وهو الذي نقصر حديثنا عليه .

ثالثاً: آراء العلماء في معنى الإحكام والتشابه:

ولما كان المحكم والمتشابه ليس من الأمور التوقيفية التي ورد الشرع ببيان تفسيرها ومعناها، بل كان من الأمور التوفيقية والاجتهادية كثرت فيهما الأقوال، وإليك جملة من هذه الأقوال نذكرها، ثم نعلق عليها؛ تعليقاً موجزاً

مجملاً، من غير إطناب ولا تفصيل.

١- قالوا المحكمات الناسخات، والمتشابهات: المنسوخات، يروى عن ابن عباس وقتادة والضحاك.

٢- إحكامها بيانها وإيضاحها، وهو قول ابن كيسان.

٣- المحكمات ما فيه من الحلال والحرام وما سوى ذلك متشابه يصدق بعضه بعضاً، روى هذا القول عن مجاهد وعكرمة.

٤- المحكم ما لم تشبهه معانيه، والمتشابه: ما اشتبهت معانيه، روى كذلك عن مجاهد.

٥- المحكم ما لم يتكرر لفظه، والمتشابه المكرر لفظه، روى عن أبي زيد.

٦- المحكم: ما يعرف بتعيين تأويله، والمتشابه: ما لا يعرف بتعيين تأويله نحو ذكر الساعة روى عن جابر بن عبد الله .

٧- المحكم: ما لا يحتمل إلا وجهاً، والمتشابه: ما احتمل أكثر من وجه، روى عن محمد بن جعفر بن الزبير.

٨- المحكم: ما كان خبراً لا يلحقه نسخ، والمتشابه: الناسخ والمنسوخ اشتبه عليهم لا يعلمون منتهى ما يصير إليه أمره وأمر العمل به.

٩- المحكمات الآيات الثلاث في آخر الأنعام «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم» إلى ثلاث آيات، والمتشابه ما تشابه عليهم نحو: ألم، ألر، يس، روى عن ابن عباس ^(١).

(١) ذكر الاقوال التسعة الاولى الإمام أبو العباس أحمد بن عمار المهدي، في تفسيره التحصيل في التفصيل.

١٠- المحكم: ما كان معقول المعنى، والمتشابه بخلافه كأعداد الصلاة واختصاص الصيام برمضان.

١١- المحكم: الذي يعمل به، والمتشابه: الذي يؤمن به ولا يعمل به^(١).

ونظرة عجلى في هذه الأقوال، تجعلنا نحكم على كثير منها بالرد وعدم القبول فهناك أكثر من قول، روي عن إمام واحد، قابن عباس رضي الله عنهما روي عنه القول الأول والقول التاسع، ونكاد نجزم بعدم ثبوت ذلك عنه، من حيث الرواية ومن حيث المعنى معاً، فالقول بأن المحكم غير منسوخ، غير معقول ولا مقبول، وذلك لورود كل من هذين في كتاب الله على حدة، فلقد تحدث القرآن عن النسخ في قوله «ما ننسخ من آية»، وفي قوله «وإذا بدلنا آية مكان آية»، وتحدث عن الإحكام في قوله «منه آيات محكمات».

كذلك القول بأن المحكم آيات ثلاث من سورة الأنعام قول لا يقبل؛ لأنه لا يعقل أن تكون هذه الآيات وحدها هي المحكمة في كتاب الله، اللهم إلا أن يكون ذلك من باب التمثيل للمحكم.

كذلك روى أكثر من قول عن مجاهد، "وقد ذكر هذه الأقوال وغيرها الأمام الزركشي -رحمه الله- في كتابه الفذ في أصول الفقه "البحر المحيط" فراجع إن شئت^(٢).

ثم إن هذه الأقوال بعضها يتداخل في بعضها الآخر، ويمكن أن نرجع المقبول منها إلى رأيين اثنين:

(١) الإتيان في علوم القرآن/ جلال الدين السيوطي .

(٢) (٤٥/١) .

الأول: أن المحكم ما وضع معناه، والمتشابه ما لم يتضح معناه إلا بعد

إجالة نظر وإعمال فكر.

الثاني: أن المحكم ما علم معناه وكان في دائرة الإمكان، والمتشابه ما

استأثر الله بعلمه وهناك قول ثالث اختاره السهيلي نذكره فيما بعد إن شاء الله.

وعلى هذين المذهبين تدور أقوال العلماء، وإلى القول الأول ذهب أكثر

المفسرين، وإليك طائفة من الأئمة الذين قالوا هذا القول:

١- ابن قتيبة: قال -رحمه الله-: "وأما قولهم: ماذا أراد بإنزال

المتشابه في القرآن من أراد بالقرآن لعباده الهدى والتبيان؟ فالجواب عنه: أن

القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها في الإيجاز والاختصار، والإطالة

والتوكيد، والإشارة إلى الشيء، وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلا

اللقن -سريع الفهم-، وإظهار بعضها، وضرب الأمثال لما خفي.

ولو كان القرآن كله ظاهراً مكشوفاً حتى يستوي في معرفته العالم

والجاهل، لبطل التفاضل بين الناس، وسقطت المحنة، وماتت الخواطر. ومع

الحاجة تقع الفكرة والحيلة، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة. وقالوا: عيبُ

الغنى أنه يورث البله، وفضيلة الفقر أنه يبعث الحيلة..... ولسنا بزعم أن

المتشابه في القرآن لا يعلمه البراسخون في العلم. وهذا غلط من متأوليه على

اللغة والمعنى. ولم ينزل الله شيئاً من القرآن إلا لينفع به عباده ويدلّ به

على معنى أراد... فلو كان المتشابه لا يعلمه غيره للزمنا للطعن مقال

وتعلّق علينا بعلّة. وهل يجوز لأحد أن يقول: إنّ رسول الله صلى الله عليه

وسلمَ لم يكن يعرف المتشابه؛ وإذا جاز أن يعرفه من قوله تعالى «وما يعلم تأويله إلا الله» جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته؛ فقد علمَ علياً التفسير، ودعا لابن عباس فقال: «اللهم علِّمه التأويل، وفقهه في الدين»... وعن مجاهد -في قوله «والراسخون في العلم»- قال: يعلمونه ويقولون: آمنا به، ولو لم يكن للراسخين في العلم حظ في التشابه إلا أن يقولوا «آمنا به كلُّ من عند ربِّنا» لم يكن للراسخين فضل على المتعلمين بل على جهلة المسلمين لأنَّهم جميعاً يقولون: «آمنا به كلُّ من عند ربنا».

وبعد فإنَّنا لم نرَ المفسرين توقَّفوا عن شيء من القرآن فقالوا: هذا متشابه لا يعلمه إلا الله، بل أمرُّوه كلَّه على التفسير^(١).

٢- وقال أبو إسحاق الشيرازي -رحمه الله- «وليس في القرآن شيء استأثر الله بعلمه بل وقف العلماء عليه. لأنَّ الله تعالى أورد هذا صريحاً للعلماء فلو كانوا لا يعرفون معناه لشاركوا العامة ويطل مدحهم. وكذلك صححه سليم الرّازي في "التقريب" واستدل بقوله تعالى «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت».

قال: فأخبر أنَّ الكتاب كلَّه فصلت آياته وبيّنت، ويقول صلى الله عليه وسلم: «وبينهما أمور مشتبّهات لا يعلمهن كثير من النَّاس: فدلَّ على أن القليل من الناس يعلمها وهم الراسخون».

٣- وقال ابن الحاجب: والظاهر الوقف على «والراسخون في العلم» لأنَّ الخطاب بما لا يفهم بعيد.

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٦٢-٦٣.

٤- وقال القاضي أبو المعالي شيدته في كتاب "البرهان" إنه مذهب

أكثر القراء والنحاة واختاره وقال: وهو مذهب ابن مسعود وأبي بن كعب^(١).

٥- يقول الإمام الغزالي -رحمه الله- في المستصفى، "إذا لم يرد

توقيف في بيانه فينبغي أن يفسر بما يعرفه أهل اللغة ويناسب اللفظ من

حيث الوضع، ولا يناسبه قول من قال: المتشابه: الحروف المقطعة في أوائل

السور. والمحكم ما وراء ذلك، ولا قولهم المحكم: ما يعرفه الراسخون في

العلم، والمتشابه ما ينفرد الله بعلمه، ولا قولهم : المحكم الوعد والوعيد

والحلال والحرام. والمتشابه القصص والامثال فهو أبعد الأقوال بل الصحيح :

أن المحكم يرجع الى معنيين.

أحدهما: المكشوف المعنى الذي لا يتطرق إليه اشكال واحتمال،

والمتشابه ما تعارض فيه الاحتمال.

الثاني: أن المحكم ما انتظم وترتب ترتيباً مفيداً إما على ظاهر أو على

تأويل.

وأما المتشابه فيجوز أن يعبر به عن الأسماء المشتركة كالقرء، وكقوله

تعالى: «الذي بيده عقدة النكاح»^(٢) ، فإنه متردد بين الزوج والولي،

وكاللمس المردد بين المس والوطء، وقد يطلق على ما ورد في صفات الله

تعالى مما يوهم ظاهرة الجهة أو التشبيه ويحتاج إلى تأويل^(٣).

(١) الأقوال من الثاني - الرابع مصدرها، البحر المحيط في أصول الفقه/ الزركشي (٤٥٤-٤٥٤).

(٢) البقرة: آية (٢٣٧).

(٣) المستصفى /الغزالي (٣١١/١).

٦- ويقول الإمام الرّازي: "قال الأصمّ: المحكم: هو الذي يكون دليله واضحاً لائحاً والمتشابه: ما يحتاج في معرفته إلى التدبر والتأمل، ويقول: واعلم أن كلام الأصمّ غير ملخص، فإنّه إن عني بقوله المحكم: ما تكون دلائله واضحة. إن المحكم هو الذي يكون دلالة لفظه مع معناه متعينة راجحة: والمتشابه ما لا يكون كذلك، وهو إمّا المجمل المتساوي أو المؤول المرجوح، فهذا هو الذي ذكرناه أولاً" ^(١).

٧- يقول الإمام النّووي -رحمه الله- واختلف العلماء في الرّاسخين في العلم، "هل يعلمون تأويل المتشابه وتكون" الواو" في والراسخون" عاطفة، أم لا؟ ويكون الوقف على "وما يعلم تأويله إلا الله" ثمّ يبتدئ قوله تعالى «والراسخون في العلم يقولون أماناً» وكل واحد من القولين محتمل واختاره طوائف، والأصح: الأول: أنّ الراسخين يعلمونه لأنّه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق معرفته" ^(٢).

٨- وقال الرّاغب في المفردات: "ثمّ جميع المتشابه على ثلاثة أضرب: ضرب لا سبيل للوقوف عليه، كوقت السّاعة وخروج الدّابة من الأرض، وكيفية الدّابة ونحو ذلك" وهذا ليس فيه نزاع لأنّه ليس من تفسير القرآن الكريم. وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته، كالألفاظ الغريبة والأحكام الغلّة وضرب متروك بين الأمرين يجوز أن يختص بمعرفة حقيقته بعض الراسخين

(١) تفسير الرّازي (١٨٣/٧).

(٢) شرح النّووي على مسلم (١٧/١٦).

في العلم، ويخفى على من دونهم، وهو الضرب المشار إليه بقوله عليه السلام في علي رضي الله عنه "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"^(١)، وقوله لابن عباس مثل ذلك"^(٢).

وذهب إلى هذا القول من المحدثين الشيخ محمد رشيد رضا، وابن عاشور، والشيخ محمد بن يوسف اطفيش، والأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين.

أما المذهب الثاني، وهو أن المتشابه ما استأثر الله بعلمه، فقد ذهب إليه الحنفية، وروى عن الإمام مالك، ومال إليه الشاطبي. يقول « فالتشابه حقيقي وإضافي، فالحقيقي: ما لا سبيل إلى فهم معناه وهو المراد من الآية، والإضافي ما اشتبه معناه لاحتياجه إلى مراعاة دليل آخر، فإذا تقصى المجتهد أدلة الشريعة وجد فيها ما يبين معناه، والتشابه بالمعنى الحقيقي قليل جداً في الشريعة، وبالمعنى الإضافي كثير »^(٣).

فالشاطبي -رحمه الله - يرى أن التشابه الحقيقي هو ما استأثر الله

(١) قال محقق كتاب المفردات: صفوان عدنان الداودي "لم أجده -حديث دعائه صلى الله عليه وسلم- لكن جاء عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى اليمن لأقضي بينهم فقلت: يا رسول الله لا علم لي بالقضاء، فضرب بيده على صدره وقال " اللهم اهد قلبه وسدد لسانه " أخرجه النسائي في تهذيب خصائص علي بن أبي طالب ص ٤٣. وهو ضعيف (ص ٤٤٥).

(٢) الموافقات (٢/٩١).

(٣) المفردات ص ٤٤٤-٤٤٥.

بعلمه، إذ لا سبيل إلى معرفته وهو قليل في الشريعة كما يقول، أما المتشابه
الاضافي فهو كثير في الشريعة، وبهذا يوافق المذهب الأول في معنى
المتشابه.

مناقشة هذين القولين:

إن أصحاب المذهب الأول بنوا ما ذهبوا إليه على أساسين اثنين: النقل
والعقل. أما النقل، ففي آيات كثيرة من كتاب الله مثل قوله «ونزلنا عليك
الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين»^(١) وقوله «كتاب
أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير»^(٢) وقوله «كتاب أنزلناه إليك مبارك
ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب»^(٣).

وقوله «قرآنًا عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون»^(٤)، وقوله «أفلا
يتدبرون القرآن»^(٥)، وقوله «والكتاب المبين»^(٦)، وقوله «ولقد يسرنا القرآن
للذكر»^(٧). ومثل هذه الآيات كثيرة.

ومن الأحاديث النبوية، قول النبي صلى الله عليه وسلم «وأنزلت عليك
كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظاناً»^(٨)، ودعاؤه صلى الله عليه وسلم
لابن عباس أن يعلمه الله التأويل.

أما العقل فبأن الله تبارك وتعالى، وهو الحكيم، لا يكلف الناس ما لا

(١) النحل: آية (٨٩) . (٢) هود: آية (١) . (٣) ص: آية (٢٩) .

(٤) الزمر: آية (٢٨) . (٥) محمد: آية (٢٤) . (٦) الزخرف: آية (٢) .

(٧) القمر: آية (٥٤) . (٨) أخرجه مسلم/ كتاب الجنة ونعيمها (١٧/١٩٨ شرح النووي)

يطبقون، ومن حكمته أن لا يتعبد بهم بما يعجزون عن فهمه ولا يستطيعون إدراكه؛ لأن ذلك يتنافى مع التفسير.

أما أصحاب المذهب الثاني، فيستدلون على ما ذهبوا إليه من وجود المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، بأن ذلك للابتلاء، حتى يتبين المؤمنون الصادقون، فذكر ما لا يستطيع الناس فهمه، وقبولهم له، وتسليمهم به من غير مرأى من أقوى الأدلة على صدق الإيمان، وهو الذي يتفق مع معنى العبودية.

ويحسن قبل أن نوازن بين القولين، أن نذكر بعض ما ذكره من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، فمن ذلك: علم الساعة، والروح، والدجال، والداية، وعدد الركعات، وتخصيص بعض الشعائر بأوقات معينة، والحروف المقطعة في فواتح السور، وآيات الصفات.

والتدبر لهذه جميعها يجد أنها لا تصلح ليستدل بها على ما ذهبوا إليه، فجلها ليس محلاً للنزاع بين المسلمين، ذلك أن النزاع والخلاف في أن نقرأ آية من كتاب الله لا يعقل معناها، أو لا يستطيع أحد معرفتها.

إن تحرير محل النزاع، ضرورة لا بد منها في أي قضية من قضايا الخلاف، فالخلاف ليس في تحديد وقت الساعة، أو توقيت خروج الدابة والدجال، يقول الله تعالى «يسألك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض، لا تأتيكم إلا بغتة، يسألك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (١).

(١) الأعراف: آية (١٨٧).

فهذه الآية الكريمة ومثيلاتها لا يجد أي قارئ اشكالا في فهمها، وهي ناطقة بأن الله وحده عنده علم الساعة، فزمن الساعة ليس له صلة من قريب أو بعيد في فهم الآيات الكريمة، ونزاعنا نحن ليس في هذا، بل هو في كون آية من كتاب الله يمكن أن يفهمها الناس أو لا يمكنهم ذلك.

كذلك القول في توقيت خروج الدجال والدابة، ثم إن أمر الدجال غير مذكور في كتاب الله، فلا أدري لم يقحم في أمر المحكم والمتشابه؟، أما الدابة فقد جاء فيها قول الله «وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون»^(١)، فهذه الآية الكريمة بينة الفهم ميسرة المعنى، أما متى ذلك؟ وما صفات هذه الدابة؟ ذلك من معنى الآية بمعزل.

وما قيل في هذه يقال في تخصيص بعض الشعائر بعدد معين، وبأوقات معينة، مثلاً عدد الركعات لم يذكر في القرآن الكريم، أما تخصيص شهر رمضان بالصوم، فمع أنه ليس من محل نزاع كذلك، لأن النزاع -كما قلنا- في كون آية غير مفهومة المعنى، أقول أما تخصيصه بالصوم فيمكن أن تتلمس له الحكمة وهو أنه نزل فيه القرآن.

وكذلك يقال في أمر الروح، فالآية ظاهرة المعنى، «قل الروح من أمر ربي» أما ماهية الروح فليس مما يتعلق به لفظ الآية الكريمة. بقي أمران اثنان يمكن أن يكون لأصحاب هذا القول فيهما متمسك، وهما الحروف المقطعة، وآيات الصفات.

(١) النمل: آية (٨٢).

أما الحروف المقطعة فقد ذهب المحققون من العلماء بأن لها معنى معقولاً، فعلى حين ذهب بعضهم إلى أنها أسماء للسور، ذهب الأكثرون إلى أنها حروف افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم للتحدي والتنبيه وقرع الأسماع، أما التحدي ففي أن هذا القرآن الذي كان معجزة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس إلا من لغتكم فكلماته هي كلماتكم التي تنطقون، وحروفه هي حروفكم كذلك، هذه هي: ألم، أ، طسم، ومع ذلك فقد عجزتم أن تأتوا بسورة من مثله، وأما التنبيه وقرع الأسماع، فليحثهم على أن يتنبهوا لما سيتلى عليهم بعد هذه الحروف التي لم يألّفوا سماعها «ألم، ذلك الكتاب لا ريب فيه»^(١)، «الكتاب أحكمت آياته»^(٢)، «الكتاب آيات الكتاب وقرآن مبين»^(٣)، «طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين»^(٤).

أما آيات الصفات فإن اختلاف العلماء فيها ليس ناشئاً عن عدم الفهم، بل هو ناشئ عن أمر آخر، وهو أن الله تبارك وتعالى «ليس كمثله شيء»^(٥)، فلا يشبهه الحوادث، لذا اختلف العلماء في فهمها، فبعضهم أبقاها على ظاهرها، وفوّض العلم فيها إلى الله دون تشبيه أو تعطيل، وآخرون وهم الأكثرون - ذهبوا مذهباً آخر فأولّوها بما يتفق مع تنزيه الله عز وجل وتقديسه ومع ما يتفق كذلك مع أسلوب القرآن العربي المبين.

(١) البقرة: آية (١).

(٢) هود: آية (١).

(٣) الحجر: آية (١).

(٤) النمل: آية (١).

(٥) الشورى: آية (١١).

وقصد كلا الفريقين حسن نبيل، نسأل الله أن يثيب الجميع من فضله.
وبعد هذا البيان، نحسبـوالله أعلمـ أن القول بأن في القرآن الكريم
ما لا تستطيع العقول إدراكه، ليس منسجماً، مع تيسير القرآن للذكر، ومع
الحكمة الإلهية. يقول العلامة الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق
رحمه الله:-

"ونختار بعد هذا أن في القرآن آيات متشابهات أي غير واضحة الدلالة،
فإما أن تصل إليها أفهام الراسخين في العلم بعد النظر، وإما أن تصل إليها
أفهام بعض منهم دون بعض، وفهمها إما أن يكون على وجه مفصل، وإما أن
يكون على وجه مجمل تحصل به فائدة للمخاطب، وإن لم يصل إلى كنه المراد
منه، كالأيات والأحاديث الواردة في بعض أحوال يوم القيامة، أما أن يخاطب
الله عباده بكلام يستأثر بعلمه، ولا يفهم منه أحد ماذا أريد منه، ولو بطريق
الإجمال فذلك ما نراه بعيداً، ولم تقم أدلة تلجئنا إلى اعتقاد وجوده"^(١).

وهناك قول ثالث نقله الزركشي في البحر المحيط عن السهيلي
رحمهما الله تعالى- يقول السهيلي: اختلف الناس في الوقف عند قوله "إلا
الله" والمختار عندي مذهب ثالث، وهو قول ابن اسحاق: إن الكلام تمّ عند
قوله: "إلا الله" وقوله "والراسخون" مبتدأ ولكن لا نقول: لا يعلمون تأويله بل
يعلمونه برد المتشابه إلى المحكم، وبالاستدلال على الخفي بالجلي، وعلى
المختلف فيه بالمتفق عليه، فيتفق بذلك الحجة. والله تعالى يعلم تأويله بالعلم

(١) بلاغة القرآن ص ٤٢.

القديم لا بتذكر ولا تفكر ولا دليل، والراسخون يعلمونه بالتذكر والتدبر^(١).
وأظنك تجد تشابهاً بين قول السّهيلي وبين قول الأستاذ الشيخ محمد
الخضر حسين - رحمه الله - وكلاهما يرجع إلى أنه ليس في القرآن الكريم ما
ليس بمعلوم - نعم - الناس يتفاوتون ويفتح الله تعالى أبواب الفهم في كتابه
لمن أراد من عباده يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

رابعاً: حكمة ورود المتشابه:

إن الحكمة من المتشابه تختلف باختلاف الآراء فيه، فأما الذين يرون أن
المتشابه ما استأثر الله بعلمه، فتتلخص حكمة المتشابه عندهم في أنه مما
ابتلى الله به عباده، وتعبدتهم به فهم يؤمنون به دون أن يعلموا المراد منه.
أما عند الفريق الآخر وهم الذين يرون أن المتشابه ما خفيت دلالاته،
فيذكرون له فوائد كثيرة قال الإمام البيضاوي: عن حكمة المتشابه في القرآن
الكريم «... ليظهر فيها فضل العلماء ويزداد حرصهم على أن يجتهدوا في
تدبرها وتحصيل العلوم المتوقف عليها إستنباط المراد بها فينالوا بها وباتعاب
القرائح في استخراج معانيها والتوفيق بينها وبين المحكمات معالي
الدرجات...»^(٢).

وقول الإمام الرازي: "واعلم أن العلماء ذكروا في فوائد التشابهات
وجوهاً:

(١) ص ٤٥٧ .

(٢) أنوار التنزيل (٤/٢) .

الوجه الأول: أنه متى كانت المتشابهات موجودة، كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب، قال تعالى « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين »

الوجه الثاني: لو كان القرآن محكماً بالكلية لما كان مطابقاً لإلماذهب واحد، وكان تصريحه مبطلاً لكل ما سوى ذلك المذهب، وذلك مما ينقر أرباب المذاهب عن قبوله وعن النظر فيه، فالانتفاع به إنما يحصل لما كان مشتملاً على المحكم وعلى المتشابه، فحينئذ يطمع صاحب كل مذهب أن يجد فيه ما يقوي مذهبه، ويؤثر مقالته، فحينئذ ينظر فيه جميع أرباب المذاهب، ويجتهد في التأمل فيه كل صاحب مذهب، فإذا بالغوا في ذلك صارت المحكمات مفسرة للمتشابهات فبهذا الطريق يتخلص المبطل عن باطله ويصل إلى الحق.

الوجه الثالث: أن القرآن إذا كان مشتملاً على المحكم والمتشابه وافترق الناظر فيه إلى الاستعانة بدليل العقل، وحينئذ يتخلص عن ظلمة التقليد، ويصل إلى ضياء الاستدلال والبيئة، أما لو كان كله محكماً لم يفتقر إلى التمسك بالدلائل العقلية فحينئذ كان يبقى في الجهل والتقليد.

الوجه الرابع: لما كان القرآن مشتملاً على المحكم والمتشابه، افتقروا إلى تعلم طرق التأويلات وترجيح بعضها على بعض، وافتقر تعلم ذلك إلى تحصيل علوم كثيرة من علم اللغة والنحو، وعلم أصول الفقه، ولو لم يكن ذلك كذلك لما كان يحتاج الإنسان إلى تحصيل هذه العلوم الكثيرة فكان إيراد هذه المتشابهات لأجل هذه الفوائد الكثيرة.

الوجه الخامس: وهو السبب القوي في هذا الباب، أن القرآن كتاب

مشتمل على دعوة الخواص والعوام بالكلية، وطبائع العوام تنبو في أكثر الأمر عن إدراك الحقائق، فمن سمع من العوام في أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا بمتغير ولا مشارٍ إليه، ظن أن هذا عدم ونفي فوق في التعطيل، فكان الأصلح أن يخاطبوا بالفاظ دالة على بعض ما يناسب ما يتوهمونه ويتخيلونه، ويكون ذلك مخلوطاً بما يدل على الحق الصريح، فالقسم الأول وهو الذي يخاطبون به في أول الأمر يكون من باب المتشابهات، والقسم الثاني وهو الذي يكشف لهم في آخر الأمر وهو المحكمات، فهذا ما حضرنا في هذا الكتاب، والله أعلم بمراده.^(١)

أسباب وقوع التشابه

وقد يتساءل كثير من الناس عن أسباب وقوع التشابه في القرآن الكريم؟ وللإجابة عن هذا السؤال، نقول وبالله التوفيق:

إن القرآن الكريم نزل منجماً في مدة تزيد على العشرين سنة، وشاء الله تبارك وتعالى أن يصرف فيه من كل مثل، كما قال سبحانه «ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل»، وقال «ولقد صرفنا في هذا القرآن ليعلموا»، ففيه الأحكام والحكم، والقصص، والأمثال، والعقائد، والأخلاق، وعلوم كثيرة ومعارف جمّة، كما أن فيه المبين والمجمل، والمطلق والمقيد، والعام والخاص، والناسخ والمنسوخ.

ثم إن الذين نزل القرآن فيهم لم يكونوا سواء، فكان بعضهم أوعى لما

(١) تفسير الفخر الرازي (١٨٥/٧).

فيه من بعضهم الآخر، ثم إن كثيراً مما جاء في كتاب الله لم يكن لديهم علم به من قبل؛ لذا اشتهر بعض الصحابة رضوان الله عليهم بالتفسير، وآخرون في فقهه وأحكامه، وكانت بعض أساليبه وكلماته ومفرداته تخفى على كثير منهم، فكان لا بد من أن يرجع إلى من هو أعلم منه.

١- عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، قال: ما هي؟ قال: «فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون»، وقال «وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون»، وقال «ولا يكتُمون الله حديثاً»، وقال «والله ربنا ما كنا مشركين» وقد كتموا في هذه الآية، وفي النازعات، «أم السماء بناها رفع سمكها فسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاهها» فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثم قال: «أننكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين...» إلى قوله «طائعين» فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء، وقال «وكان الله غفوراً رحيماً» وقال «وكان الله عزيزاً حكيماً» وقال «وكان الله سميعاً بصيراً» فكأنه كان ثم مضى، فقال ابن عباس: «فلا أنساب بينهم» في النفخة الأولى ينفخ في الصور، «فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله»، فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون.

ثم في النفخة الثانية «أقبل بعضهم على بعض يتساءلون» وأما قوله «والله ربنا ما كنا مشركين»، «ولا يكتُمون الله حديثاً» فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول المشركون تعالوا نقول ما كنا مشركين، فيختم الله على أفواههم، فتنتطق جوارحهم بأعمالهم، فعند ذلك عرفوا أن الله لا يكتُم

حديثاً عنده، « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين »، وخلق الأرض في يومين ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات في يومين آخرين، ثم دحى الأرض أي بسطها وأخرج منها الماء والمرعى، وخلق فيها الجبال والأشجار والأكمام وما بينهما في يومين آخرين فذلك قوله دحاها، فخلقت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلقت السماوات في يومين، وقوله: «وكان الله غفوراً رحيماً» سمى نفسه ذلك أي لم يزل ولا يزال كذلك، فإن الله لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد فلا يختلف عليك القرآن، فإن كلاً من عند الله ^(١).

٢- عن عبدالله بن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من قد علمتم، فدعاني ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم، قال: ما تقولون في قوله تعالى «إذا جاء نصر الله والفتح» فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم، فقال لي: أؤكدك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له، قال: «إذا جاء نصر الله والفتح» وذلك علامة أجلك» فسبح بحمد ربك واسغفره إنه كان تواباً. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ماتقوله ^(٢).

٣- وروي أن عمر رضي الله عنه قرأ على المنبر « وفاكهة و أيا » فقال:

(١) البخاري ١٦٠/٦ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب «فسبح بحمد ربك» (١٩٠١/٤)

هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو الكلف يا عمر، وما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدري ما الأب؟.

٤- روى ابن كثير عن ابن عمر أن رجلاً أتاه يسأله عن «السموات والأرض كانتا رتقا». قال: إذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعال فأخبرني بما قال لك، قال: فذهب إلى ابن عباس فسأله، قال: ابن عباس نعم كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتي في القرآن علماً. صدق هكذا كانت، قال ابن عمر: قد كنت أقول، ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن علمت أنه قد أوتي في القرآن علماً^(١)، ومثل ذلك كثير.

وإذا كان هذا شأن الضحابة، فلا ريب أن من جاء بعدهم يكون ما خفي عليه أكثر مما خفي عليهم، وإذا نظرنا إلى ما ذكرنا من قبل رأينا أن الذي كان يخفى عليهم ويسألون عنه، قد يكون معنى بعض المفردات القرآنية، وقد يكون مثلاً من الأمثال القرآنية، وقد يكون مما يوهم ظاهره التعارض، وقد يكون في فهم بعض أساليب القرآن الكريم؛ لذلك كانت أسباب وقوع المتشابه في القرآن قد ترجع إلى اللفظ، أو إلى المعنى، أو إليهما معاً.

١- أما ما يرجع إلى اللفظ، فإما أن يكون في المفردات أو التراكيب، فأما المفردات فسبب التشابه فيها إما لغرابتها كالأب في قوله سبحانه

(٢) تفسير ابن كثير (١٧٧/٢).

«وفاكهة وآباً» ويزفون في قوله «وأقبلوا إليه يزفون»^(١)، وقوله تعالى «وأنتم سامدون»^(٢).

وإما لكونها ألفاظاً مشتركة بين معنيين أو أكثر كاليد والعين في قوله سبحانه «يد الله فوق أيديهم»^(٣) وقوله «ولتصنع على عيني»^(٤) وكالقرء في قوله «والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء»^(٥) فهو لفظ مشترك بين الحيض والطمهر، وكمسحرين في قوله «إنما أنت من المسحرين»^(٦) فهو لفظ مشترك بين من أصابه السحر، وبين من هو ذو رئة يأكل ويشرب، لذا اختلف المفسرون في الآية الكريمة»^(٧).

(١) الصافات آية (٩٤) .

(٢) النجم آية (٦١) .

(٣) الفتح آية (١٠) .

(٤) طه آية (٢٠) .

(٥) البقرة آية (٢٢٨) .

(٦) الشعراء آية (١٥٣) .

(٧) راجع تفسير الطبري (سورة الشعراء)، تفسير الزمخشري .

١- أما التراكيب فقد يكون سبب التشابه فيها الإيجاز والاختصار، أو الإطناب لفائدة «فإن كن نساءً فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك، وإن كانت واحدة فلها النصف»^(١)، فلقد ذكر في الآية نصيب ما زاد عن اثنتين، ونصيب الواحدة، ولم يذكر نصيب اثنتين، وفي شأن الأخوات يقول: «وله أخت فلها نصف ما ترك، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك»^(٢) فقد ذكر في هذه الآية نصيب الواحدة والاثنتين، ولم يذكر ما زاد عليهما، وقد رأينا الصحابة يختلفون في نصيب الابنتين.

أما ما يرجع إلى الإطناب وبسط الكلام فمثل قوله سبحانه «ليس كمثل شيء» ولم يقل «ليس مثله شيئاً»؛ لذا تعددت آراء العلماء في المقصود من هذه الكاف.

وقد يرجع التشابه في المركبات إلى نظم الكلام، وذلك مثل قوله سبحانه «وتعزروه وتوقروه، وتسبحوه بكرة وأصيلاً، بعد قوله «إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، لتؤمنوا بالله ورسوله»^(٣) حيث اختلفوا في مرجع الضمائر في قوله، وتعزروه وتوقروه أهو الله أم رسوله صلى الله عليه وسلم؟. وقد يكون سبب التشابه اختلاف القراءات المتواترة؛ وذلك مثل قوله:

(١) النساء: آية (١٧) .

(٢) النساء: آية (١٧٦) .

(٣) الفتح: آية (٨) .

سبحانه «حتى يَطْهَرُن» وفي قراءة يَطْهَرُن وقوله «وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم» بجر أرجلكم، ونصبها ^(١) وقوله «ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام» بفتح همزة (أن) وفي قراءة بكسر الهمزة؛ على أن (إن) شرطية.

٢- هذه هي خلاصة التشابه من حيث اللفظ، أما التشابه من حيث المعنى: فمنه صفات الله سبحانه وتعالى، وأخبار يوم القيامة؛ ذلك لأننا لا نستطيع أن نتصور هذه الأمور، كما هو معلوم لدينا من صفات المخلوقين، وما ندركه في دنيانا مشابهاً لما أخبرنا الله به مما سيكون في يوم القيامة؛ لذا اختلف العلماء في تأويل الآيات المشتبهة على هذه الأمور.

٣- التشابه من حيث اللفظ والمعنى كلاهما، وهو أنواع: فمنه ما يرجع إلى العموم والخصوص، ومنه ما يرجع إلى الناسخ والمنسوخ، ومنه ما يرجع إلى الوجوب والندب، ومنه ما يرجع إلى الشروط التي يصح بها الفعل أو يفسد، ومنه ما يرجع إلى معرفة عادات العرب وأحوالهم.

فمثال ما يرجع إلى العموم والخصوص قوله سبحانه «فإذا انسَلَخَ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين» ^(٢) وقوله «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن» ^(٣)، فقد اختلف العلماء أهي عامة تشمل المشركات كلهن، أم مخصوصة بغير الكتابيات؟ لقوله «والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم».

(١) المائدة آية (٦) .

(٢) التوبة آية (٥) .

(٣) البقرة آية (٢٢١) .

وما يرجع إلى النسخ مثل قوله «وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين» حيث اختلفوا أهى محكمة أم منسوخة، وقوله «وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه»^(١).

وأما الوجوب والندب فمثل قوله سبحانه «إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه»^(٢) وقوله «فانكحوا ما طاب لكم من النساء»^(٣) وقوله «فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم»^(٤).

وأما ما يرجع إلى الشروط فيمكن أن يمثل له بقوله «وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن»^(٥) فقد اختلف الصحابة رضي الله عنهم أيشترط في تحريم الربيبة أن تكون في حجر زوج أمها، أم لا يشترط ذلك؟.

وأما ما يتصل بعبادات العرب فمثل قوله سبحانه «إنما النسيء زيادة في الكفر»^(٦)، فإن معرفة تفسير هذه الآية الكريمة، تتوقف على ما كانوا يفعلونه في جاهليتهم، ومثل قوله «وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى، وأتوا البيوت من أبوابها»^(٧) فإن من يفسر هذه الآية على ظاهرها، لا بد له أن يعرف ما كانوا يفعلونه في جاهليتهم.

(٢) البقرة: آية (٢٨٢).

(١) النساء: آية (٨).

(٤) النساء: آية (٦).

(٣) النساء: آية (٣).

(٦) التوبة: آية (٣٧).

(٥) النساء: آية (٢٣).

(٧) البقرة: آية (١٨٩).

تلكم هي أهم أسباب وقوع المتشابه في القرآن الكريم، وقد يقال هنا: إذا كان لوقوع المتشابه في القرآن أسباب، فهلا ذكرتم لوقوع المحكم أسباباً كذلك؟^(١)

ونقول: لا حاجة بنا إلى ذلك، لأن المحكم هو الأصل، والأصل لا يحتاج إلى بيان علل وأسباب، لكن يجدر بنا أن ننبه هنا على أن هناك أسباباً تزيد التشابه وتمنعه، نذكر منها:

أولاً: أن تذكر القضية القرآنية في مواضع كثيرة، كالبعث، والجنة والنار، فلقد ذكرت هذه كثيراً في كتاب الله، فلا يجوز أن نجعلها من المتشابه، وما ذكرناه من قبل، فإنما هو عن جزئيات ما يكون في هذا اليوم. ثانياً: ما كان العقل يحيل خلاقه.

ثالثاً: ما ورد فيه خبر صحيح عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

إن ذلك كله ينبغي أن يكون من المحكم. وعلى هذا فلا ينبغي أن نلتفت إلى ما ذكره بعض الناس من تأويل معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن تأويل ما ورد في نعيم الجنة، حيث أولوا الأول تأويلاً مادياً، وأولوا الثاني بأنه نعيم روحي وليس كما جاء على ظاهره.

وقد رأينا من الخير المفيد أن نختم هذا المبحث بتفسير موجز للآية الكريمة التي ذكر فيها المحكم والمتشابه.

(١) مفردات الرأغب/ ص ٤٤٤ .

تفسير آية آل عمران:

قال الله تعالى «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأخر متشابهاً، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب»^(١).

هذه الآية الكريمة هي الآية السابعة في سورة آل عمران، وصدر هذه الآية -كما نعلم- نزلت رداً على نصارى نجران، تلزمهم بالحجة، وترد شبههم، وتبطل أقوالهم في المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، تبين أنهم كانوا يريدون الآيات المحكمة التي تبين وحدانية الله، وتفردده بالخلق والأمر إلى الآيات المتشابهات، مثل قوله سبحانه «يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه»^(٢) وقوله «وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه»^(٣)، ومثل قوله «إنا نحن نحي ونميت»^(٤)، حيث قالوا: إن كون المسيح كلمة الله وروحاً منه، دليل على تميزه عن البشر، وإن قوله سبحانه «إنا» و«نحن» ألفاظ لا تطلق إلا على أكثر من واحد، فالمقصود بمثل هذا التعبير الحديث عن الله وعيسى عليه الصلاة والسلام، فأنزل الله هذه الآية الكريمة رداً عليهم وعلى أمثالهم من المشركين والملاحدة، فبين سبحانه أن الله تبارك وتعالى وحده هو الذي نزل عليك أيها

(١) آل عمران آية (٧) .

(٢) آل عمران آية (٤٥) .

(٣) النساء آية (١٧٨) .

(٤) المجر آية (٢٣) .

النبي هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، منه آيات محكمات بينات المعنى، وواضحات الدلائل، لا يرتاب أحد من نوي العقول في إدراكها ومعرفة معانيها.

«هن أم الكتاب» أي هن أصله، وأم كل شيء أصله، وهن معظمه وأكثره، «وأخر متشابهات» أي تحتاج معرفتها إلى تأمل ونظر، واستنباط واستدلال، وإنما كان القرآن كذلك محكماً ومتشابهاً لحكم وفوائد بينها من قبل.

ثم ذكر تبارك وتعالى أصناف الناس حيال هذا الكتاب، فهم ليسوا "سواءً"، فقال سبحانه «فأما الذين في قلوبهم زيغ» والزيغ هو الضلال والميل عن الحق، قال تعالى «وإذ زاغت الأبصار» وهو ما أصاب المؤمنين يوم الأحزاب، وقال في شأن نبيه صلى الله عليه وسلم «ما زاغ البصر وما طغى».

يقول سبحانه إن الذين في قلوبهم زيغ، وهم أصحاب الضلال والأهواء، الذين انحرفوا عن الحق وتنكبوا الصراط، قصروا أنفسهم على اتباع المتشابه، فقد تركوا الآيات المحكمات، التي لا يستطيعون المراء فيها، ولا يقدرُونَ على تشكيك الناس في معانيها ومضمونها، ووقفوا أمام الآيات المتشابهات ييغونها عوجاً، ابتغاء الفتنة، فتنة أنفسهم وفتنة من يستطيعون أن يفتنوه من الناس، وقد روي عن معاذ رضي الله عنه قال:

"يقرأ القرآن رجلان، فرجل له فيه هوى ونية؛ يقلبه فلي الرأس يلتبس أن يجد فيه أمراً يخرج به على الناس، أولئك شرار أمتهم، أولئك يعمي الله

عليهم سبل الهدى، ورجل يقرؤه ليس له فيه هوى ولا نية يغليه فلي الرأس،
فما تبين له منه عمل به وما اشتبه عليه وكله إلى الله، ليتفقه أولئك فقها ما
فقهه قوم قط، حتى لو أن أحدهم مكث عشرين سنة فليبعثن الله له من يبين
له الآية التي أشكلت عليه أو يفهمه إياها من قبل نفسه".

وقوله «وابتغاء تأويله» وقد يقال: كيف يذم من يطلب تأويل القرآن، مع
أن الله قد أثبت له نفسه بقوله «وما يعلم تأويله إلا الله» والرسول صلى الله
عليه وسلم دعا لابن عباس أن يعلمه التأويل. وقد ثبت أن الصحابة رضوان
الله عليهم سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن تأويل آي من القرآن
الكريم. فقد سأل عمر فقال: ألم تكن تحدثنا -أنا نأتي- البيت ونطوف به،
وسأله عمر أيضاً: ما بالنا نقصر الصلاة وقد أمنا؟ ولما نزل قوله «ولم
يلبسوا إيمانهم بظلم» شق عليهم وقالوا: أينما لم يظلم نفسه؟ حتى بين لهم،
ولما نزل قوله «وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله»، شق
عليهم حتى بين لهم الحكمة في ذلك ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم "من
نوقش الحساب عذب قالت عائشة" ألم يقل الله "فسوف يحاسب حساباً
يسيراً"؟ قال: إنما ذلك العرض" (١).

والجواب: أن أولئك الذين في قلوبهم زيغ لا يطلبون التأويل الذي يزيل
حجب الغشاوة، ويوصل إلى الحق، ويبعد ظلمة الجهل، وإنما يبتغون التأويل
الذي يتفق مع أهوائهم ويتسق مع شهواتهم، فهو تأويل يرتكز على الفتنة، بل
إنهم يردون المحكم إلى المتشابه ليشككوا في آيات الله، ويوقعوا في النفوس
الريب.

(١) تفسير المنار (١٧٨/٣).

والمتتبع للتاريخ يجد كثيراً من الأمثلة التي تبين زيغ أولئك، ومن ذلك قول بني إسرائيل بأنهم أفضل الأمم مستدلين بقول الله «وأني فضلتكم على العالمين» وقولهم بأن الأرض المقدسة كتبها الله لهم، وقول النصارى إن عيسى ليس من البشر، لأنه روح الله وكلمته، وقول العرب ما بال محمد صلى الله عليه وسلم -يحرم ميتة الله، ويبيح ما ذبحه الناس؟.

وإننا نجد كثيرين في مجتمعنا يحاولون أن يصدوا الناس عن الحق، هذا هو موقف أولئك من المتشابه، أولئك الذين في قلوبهم زيغ وهوى، وهذه الهجمة الشرسة من الحداثيين وغيرهم الذين ضربوا صفحاً عن كل ما قاله العلماء في فهم كتاب الله، وأعطوا أنفسهم الحق أن يفسروا القرآن تفسيراً مخالفاً للغة والسياق والمأثور الثابت عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنخصص للحديث عن هؤلاء فصلاً في هذا الكتاب إن شاء الله. أولئك جميعاً تصدق عليهم هذه الآية الكريمة أما الذين صفت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم بالإيمان، فيؤمنون بالقرآن كله، لأن القرآن كله كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يردون متشابهه إلى محكمه، لا يرتابون ولا يمترون، وما أبعد البون بين الفريقين!!

«وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم»، في هذه الجملة الكريمة مبحثان مهمان: الأول: معنى "التأويل" في قوله «وما يعلم تأويله إلا الله» الثاني: في الوقف.

المبحث الأول: يرى بعض العلماء أن التأويل في قوله سبحانه «وما يعلم تأويله إلا الله» هو التفسير. والتأويل والتفسير متقاربان وإن كان بينهما من

فروق فسيائتيك نيؤها بعد حين، وعلى هذا يكون معنى الآية "وما يعلم تفسير المتشابه والمراد منه".

وقال بعضهم إن التأويل هنا ليس هو التفسير، وإنما هو ما يؤول إليه الشيء أي نتيجته وعاقبته، ومنه قوله سبحانه «بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله» وقوله سبحانه «هل ينظرون إلا تأويله، يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق»، فالتأويل في هاتين الآيتين ليس التفسير، إنما هو النتيجة العملية والأمر الفعلي الذي أخبر عنه القرآن الكريم، والذي سيلاقيه أولئك المكذبون.

ومع تقديرنا لهذا القول، لكن الذي نرجحه ونختاره القول الأول، لأن السياق يقتضيه ويدل عليه، ولأن هذا المعنى للتأويل يتفق مع المراد من قوله سبحانه «وابتغاء تأويله» فتكون كلمتا التأويل بمعنى واحد، أما على المعنى الثاني: فيكون لكل من الكلمتين معنى، فمعناها في قوله سبحانه «وابتغاء تأويله» للتفسير، ومعناها في قوله «وما يعلم تأويله» العاقبة، ولا ضرورة لهذا لما فيه من تفكك للنظم^(١).

المبحث الثاني: اختلفوا في الوقف؛ فالذين رأوا أن المتشابه ما استأثر الله بعلمه، رأوا أن الوقف ينبغي أن يكون على قوله تعالى «وما يعلم تأويله إلا الله»، وأن قوله سبحانه «والراسخون في العلم يقولون آمنا به» كلام مستأنف، والذين رأوا أن المتشابه مما يمكن الناس معرفته، قالوا إن الوقف على قوله «والراسخون في العلم»، فالواو عندهم للعطف سواء أكان التأويل التفسير، أم معرفة العاقبة.

(١) تفسير المنار (١٨٠/٣).

ومن خلال ما حدثناك عنه من قبل، تدرك أن هذا القول هو الذي نختاره ونرتضيه وتطمئن إليه النفوس، إذ لا يعقل ولا يتصور أن يتعبدنا الله تبارك وتعالى بما يستحيل علينا معرفته، وأن يكون في كتابه الذي أنزله هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان، ما لا يمكن الناس أن يصلوا إلى معناه. إن مما يستبعد حقاً أن يقال إن في كتاب الله تعالى كلاماً لا يمكن أن يعرف معناه أحد من الناس، حتى لو كان نبياً مرسلأً أو ملكاً مقرباً.

نعم قد يكون في القرآن آيات لا يعلم معناها كثير من العلماء فضلاً عن غيرهم، وليس ذلك في آية معينة، بل قد يُشكّل على هذا ما يعرفه ذاك، وذلك تارة يكون لغرابة اللفظ، وتارة لاشتباه المعنى بغيره، وتارة لشبهة في نفس الإنسان تمنعه من معرفة الحق، وتارة لعدم التدبر التام، وتارة لغيره من الأسباب^(١).

ومما يستأنس به لترجيح هذا القول على غيره قوله سبحانه «والراسخون في العلم» والرسوخ الثبات والتمكن، فالراسخون في العلم هم المتمكنون فيه المتحققون به، لا تعرض لهم فيه شبهة، وضحت لديهم حجة، فذكر الراسخين لا يقصد منه قولهم "آمنّا"، فهذا القول لا يختص به الراسخون، بل هو قول المؤمنين جميعاً، ولو كان القول هو المقصود لقليل: والمؤمنون يقولون آمنا به، أو الراسخون في العلم، والمؤمنون يقولون آمنا به، ألا ترى إلى قوله سبحانه وتعالى «لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك» فذكر الراسخين هنا فيه مزية تشريف لهم، فمعنى الآية والله أعلم. أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه كذلك

(١) تفسير المنار (١٨١/٣) .

قائلين أمنا به كل من عند ربنا، وبهذا يختلفون عن غيرهم وهم الذين يتبعون ما تشابه منه، وهم الذين قال الرسول صلى الله عليه وسلم في شأنهم "فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم" ^(١).

وقوله سبحانه «وما يذكر إلا أولو الألباب» ثناء على أولئك الراسخين، فهم الذين يتدبرون آي الكتاب الحكيم، يقول سبحانه «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب» ^(٢) ويقول «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» ^(٣).

هؤلاء يدعون ربهم أن يثبت قلوبهم على الحق، ويستعيذون بالله من الضلالة بعد الهدى ومن الجهل بعد المعرفة، ومن الزيغ بعد الطمأنينة، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

وندعو الله بما دعا به هؤلاء: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير/ سورة آل عمران- باب منه آيات محكمات رقم ٥٩.

حديث رقم ٤٢٧٣ .

(٢) ص آية (٢٩) .

(٣) ق آية (٢٧)

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ النَّجَّارِيُّ
أَسْلَمَ (الْمَدِينَةُ الْمَدِينَةُ)

الفهرس

تمهيد: جهود العلماء في علوم القرآن

الفصل الأول: واجبنا نحو كتاب الله تعالى

كيف تكون التلاوة

التدبر

الفصل الثاني: معنى علوم القرآن الكريم

تعريف القرآن الكريم

أسماء القرآن الكريم

الفصل الثالث: الوحي

تعريف الوحي لغة وشرعاً

أنواع الوحي

مصدر القرآن الكريم

الإفتراض الأول: اكتسابه من غيره

١- في مكة:

الاحتمال الأول

الاحتمال الثاني

الاحتمال الثالث

الاحتمال الرابع

الاحتمال الخامس

٢- في المدينة:

٨٦	الافتراض الثاني
١٠٣	هل يمكن أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم أكثر من أسلوب في الكلام.
١٠٧	الفصل الرابع: إعجاز القرآن
١٠٧	المعجزة لغة
١٠٨	المعجزة اصطلاحاً
١١٠	إعجاز القرآن
١١٠	وجوه الإعجاز
١١١	مراحل التحدي
١١١	دراسة هذه المراحل
١١٣	الإعجاز البياني
١٢٠	الأسلوب القرآني
١٢٢	الإعجاز العلمي
١٤٥	الفصل الخامس: نزول القرآن الكريم
١٤٥	أولاً: معنى نزول القرآن
١٤٧	ثانياً: تنزلات القرآن
١٤٩	الموازنة بين هذه الأقوال
١٥١	ثالثاً: فرية القول بنزول القرآن بالمعنى
١٥٦	نزول القرآن الكريم منجماً
١٦٧	الفصل السادس: أول ما نزل وآخر ما نزل

١٦٧	أول ما نزل
١٧٦	آخر ما نزل من الآيات
١٨٣	مناقشة هذه الروايات
١٨٥	أواخر السور نزولاً
١٩١	الفصل السابع: جمع القرآن الكريم
١٩١	معنى الجمع
١٩٢	جمع القرآن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم
١٩٢	جمعه بمعنى حفظه في الصدور
١٩٥	جمع القرآن بمعنى كتابته في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم
١٩٨	لماذا لم يجمع القرآن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم؟
١٩٩	ما أثير حول جمع القرآن وحفظه من الشبهات
٢٠٧	جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه
٢٢٩	المرحلة الثالثة: جمع القرآن في عهد خلافة عثمان رضي الله عنه
٢٣٢	عدّة المصاحف العثمانية
٢٣٣	رسم المصحف العثماني

٢٣٤	الموازنة بين جمع القرآن الكريم في
	العهود الثلاثة
٢٣٥	شبهات المستشرقين حول عثمان
	رضي الله عنه
٢٤١	الفصل الثامن: أسباب النزول
٢٥٠	أسباب النزول
٢٥٢	تنبيهات
٢٥٣	تعريف سبب النزول
٢٥٨	فوائد معرفة أسباب النزول
٢٥٨	الفائدة الأولى
٢٦٢	الفائدة الثانية
٢٧٥	الفائدة الثالثة
٢٧٦	الفائدة الرابعة
٢٧٧	الفائدة الخامسة
٢٧٩	أيتعدد السبب ويتعدد النزول؟
٢٨٨	طريق معرفة سبب النزول
٢٩٦	روايات أسباب النزول
٣٠١	القول بتعدد النزول
٣٠٥	دراسة للآيات التي قيل إنها نزلت مرتين
٣١٥	دعائم القبول لأسباب النزول

٣٢٠	مخالفة السياق
٣٣٩	هل يكون سبب نزول لبعض آية؟
٣٤٣	العبارة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟
٣٤٦	أسباب الخلاف
٣٥٤	الحذائثة وأسباب النزول
٣٦٧	الفصل التاسع: المكي والمدني
٣٦٧	أولاً: تعريف المكي
٣٦٨	موازنة بين هذه الأقوال
٣٦٩	ثانياً: فائدة معرفة المكي والمدني
٣٧١	ثالثاً: كيفية معرفة المكي والمدني
٣٧٢	ضوابط المكي
٣٧٤	ضوابط المدني
٣٧٤	خصائص ومميزات لكل من المكي والمدني
٣٧٥	خصائص القسم المكي
٣٧٦	خصائص القسم المدني
٣٧٧	رابعاً: السور المكية والمدنية وما يتصل بذلك
٣٧٨	أقوالهم في المكي والمدني
٤٠٦	شبهات حول المكي والمدني
٤٠٦	الشبهة الأولى
٤٠٩	الشبهة الثانية

٤١٢	الشبهة الثالثة
٤١٢	تفنيد هذه الشبهات
٤١٥	الشبهة الرابعة
٤١٧	تقسيم القرآن الكريم إلى مراحل
٤٢١	مناقشة لما ذكره
٤٢٤	خطأ تقسيم القرآن إلى مراحل
٤٢٩	الفصل العاشر: ترتيب آي القرآن وسوره
٤٢٩	معنى الآية القرآنية
٤٣١	- طريق معرفة الآيات
٤٣٢	- فوائد معرفة الآيات
٤٣٢	- عدد آيات القرآن
٤٣٥	سبب الاختلاف في عدد الآي
٤٣٥	أقسام سور القرآن
٤٣٧	ترتيب الآيات
٤٤٠	الفاصلة القرآنية
٤٤٣	سور القرآن الكريم
٤٤٣	تعريف السورة
٤٤٣	اصطلاحاً
٤٤٣	عدد السور في القرآن
٤٤٤	أسماء السور

٤٤٤	أُتْعِلُّ أَسْمَاءُ السُّورِ؟
٤٤٥	أَتُسَمَّى سُوْرُ الْقُرْآنِ تَوْقِيفِيَّةً؟
٤٤٦	الْحُكْمُ مِنْ تَسْوِيرِ الْقُرْآنِ
٤٤٧	أَقْسَامُ سُوْرِ الْقُرْآنِ
٤٤٩	تَنْبِيْهِ
٤٤٩	تَرْتِيبُ السُّوْرِ فِي الْقُرْآنِ
٤٥٠	نَظَرَةٌ فِي هَذِهِ الْأَقْوَالِ
٤٥٠	أَدْلَةُ الْفَرِيقِ الْأَوَّلِ الْجُمْهُورِ
٤٥٢	النَّوْعُ الثَّانِي
٤٥٣	أَدْلَةُ الْفَرِيقِ الثَّانِي الْقَائِلِينَ بِالِاجْتِهَادِ
٤٥٥	أَدْلَةُ الْفَرِيقِ الثَّالِثِ
٤٥٥	مُنَاقَشَةُ الْأَدْلَةِ
٤٦٥	الفصل الحادي عشر: رسم المصحف
٤٦٦	الْجِهَاتُ الَّتِي خَالَفَتْ الرَّسْمَ الْعُثْمَانِيَّ
	الْخَطُ الْقِيَاسِي
٤٦٩	آرَاءُ الْعُلَمَاءِ فِي التَّزَامِ الرَّسْمِ الْعُثْمَانِيَّ
٤٧٠	أَدْلَتُهُمْ
٤٧٧	قَوْلَانِ آخِرَانِ
٤٨١	فَوَائِدُ الرَّسْمِ الْعُثْمَانِيَّ
٤٨٥	الفصل الثاني عشر: المحكم والمتشابه

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

إنفاذ البرهان في علوم القرآن

الأستاذ الدكتور
فضل حسن عباس
أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم
في كلية أصول الدين
بجامعة العلوم الإسلامية العالمية - الأردن

الجزء الثاني



دار الفائق
للنشر والتوزيع - الأردن

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

إِتْقَانُ الْبُرْهَانِ
فِي
عُلُومِ الْقُرْآنِ

حقوق الطبع محفوظة

١٤٣٠هـ - ٢٠١٠م

الطبعة الثانية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

٢٠٠٩/٥/١٦١٠

ISBN 978-9957-80-004-8



9 789957 800048



دار النفايس

للنشر والتوزيع - الأردن

العبدلي - مقابل مركز جوهرة القدس

ص.ب 927511 عمان 11190 الأردن

هاتف: 5693940 6 (00962)

فاكس: 5693941 6 (00962)

Email: alnafaes@hotmail.com

www.al-nafaes.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

إِتْقَانُ الْبُرْهَانِ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ

الأستاذ الدكتور
فضل حسن عباس
أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم
في كلية أصول الدين
بجامعة العلوم الإسلامية العالمية - الأردن

الجزء الثاني



دار الفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَفَعُ
مُقَدِّمَةٌ
الجزء الثاني
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

لقد صدر الجزء الأول والحمد لله رب العالمين، وقد اشتمل بعد المقدمة والتمهيد على اثني عشر فصلاً، وهذا الجزء الثاني من كتاب إتيان البرهان، وهو وإن كان يشتمل على ستة فصول فحسب وهي نصف ما اشتمل عليه الجزء الأول من حيث العدد، فإن هذه الفصول عالج جلّها كثيراً من القضايا الخطيرة، وعِزَّة المسلك، باللغة الحساسة.

لقد كان الحديث في الفصل الخامس عشر وهو الفصل الأول من هذا الجزء عن النسخ، وأما الفصل السادس والسابع عشر فقد تحدثت فيهما عن الحروف السبعة والقراءات. ولقد كان الفصل الثامن عشر عن التفسير نشأته وخطواته وعن المفسرين مناهجهم ومدارسهم، ولم أطل القول في هذا الفصل حيث أحلت على كتابي «اتجاهات التفسير ومناهج المفسرين في العصر الحديث».

وقد كان الفصل التاسع عشر عن ترجمة القرآن وهي من القضايا التي أشبعها العلماء بحثاً وتفصيلاً، لذا جاء هذا الفصل خالياً عن كثير من المناقشات والردود.

أما الفصول ٢٠ و ٢١ و ٢٣ وهي الفصول الأخيرة في الكتاب، فلقد جاءت فصولاً متشعبة الأطراف متعددة الجوانب، أرجو الله أن يأجر عليه وينفع به. ولعله أكثر الفصول التي وجدت فيها عناءً وبحثاً. وأكثر الفصول حاجة إلى الوقت.

تحدثت فيه عن أنماط الشبهات حول القرآن الكريم التي أرادوا لها أن تعصف بهذه الحقيقة المجمع عليها وهي تواتر القرآن، وقسمت هذه الشبهات إلى أنماط ثلاثة كان

الأول تلکم الروایات التي ذكرت في كتب التفسیر والحديث وعلوم القرآن. وأما النمط الثاني فكان حول شبهات المستشرقين واختلافاتهم، على أنه لا يكاد فصلٌ من فصول هذا الكتاب إلا وفيه شيءٌ من هذه الشبهات، ولكن ما ذكر في هذه الفصول ٢٠، ٢١، ٢٢ كان مما يتلاءم معه مما لم يذكر من قبل.

وأما النمط الثالث فلبعض من يطلقون على أنفسهم العقلانيين العلمانيين والحدائين تناول الحديث عن ثلاثةٍ منهم (أركون الجزائري الذي ضمته أحضان التبشير والاستعمار والاستشراق).

ونصر أبي زيد الذي أراد أن يتسلق على العقلانية فتجاوزها وجاوزته. ومحمد شحرور الذي ظن أنه يستطيع أن يعصف - بما يقرب من تسعمائة صفحة - بحقائق الحياة وقواعد الدين ومسلمات اللغة. كان هذا التطواف كله في الفصول ٢٠ و ٢١ و ٢٢ وأرجو أن يجد القارئ المتعة الروحية والفكرية وأن يجد الحوافز التي تدفعه للازدياد من البحث، ليحصن نفسه بالعلم، ذباً عن هذا الدين وأئمته - وأن ينبهني على ما وقعت فيه من خطأ، وأن يتجاوز عن زلةٍ غير متعمدة.

وبعد شكر الله تبارك وتعالى والتضرع إليه أن يوفقني دائماً لشكره وأن يديم عليّ وعلى إخواني وأهلي وأحبائي نِعَمَهُ. اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجأة نقمتك وجميع سخطك، لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر لكل من قدم عوناً لإخراج هذا الكتاب من زوج وولد وإخوة وهم كثيرون.

وأخصّ الدكتور جمال أبا حسان فلقد كان ويعلم الله حريصاً كل الحرص على أن يظهر هذا الكتاب بصورة جيدة قليل الأخطاء، ولقد بذل جهداً مشكوراً جزاه الله خيراً. كما أخصّ ابنتي سناء فضل عباس التي لم تأل جهداً وبحثاً وتدقيقاً ومراجعة للنصوص.

وأخصّ كذلك ابني المهندس محمد فضل عباس الذي أحضر جهازاً خاصاً للطباعة (الليزر) من أجل طباعة هذا الكتاب وغيره.

شاكراً لهم جميعاً ولغيرهم ممن لم أذكرهم وعند الله خير الجزاء.
والله ولي التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي
وآله وصحبه والتابعين وسلم تسليماً كثيراً.
ونسأل الله أن يغفر لنا ولوالدينا ووالديهم ومشايخنا وذوي الحقوق علينا إنه سميع
بصير.

الْفَضْلُ الْخَامِسُ عَشْرُونَ

الناسخ والمنسوخ

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

اعلموا - أرشدكم الله وإياي - أن النسخ من الموضوعات التي أولاهها العلماء عنايتهم وبيّنوا خطره وشأنه وأهميته في فهم الدين، ولا نجد علماً من العلوم الشرعية إلا وللنسخ فيه مدخل، لذا وجدنا علماء التفسير وعلماء الحديث وعلماء الفقه وأصوله، وجدنا أولئك جميعاً يتحدثون عن النسخ فيما عرضوا له من بحوث، ولكن الذين كانوا أكثر عنايَةً بالحديث عن النسخ هم علماء أصول الفقه، حيث فصلوا فيه القول وذكروا مسائله ودقائقه وعرضوا لجزئياته وقضاياه.

أما الكاتبون في علوم القرآن فإن ما يعرضون له قضايا كُليّة وأمور عامة دون التفصيل الدقيق للجزئيات والمسائل، وسنجري على سننهم ونسير على منوالهم فنذكر ما يتصل به من أمور عامة وبعض قضايا الكلية.

والنسخ كما نعلم تناوله كثيرون من ذوي الاختصاص وغيرهم، قديماً وحديثاً، فزلّت فيه أقدام، وانثلمت فيه أفلام، فهناك المنكرون لورود النسخ في كتاب الله تبارك وتعالى، أعني نسخ الحكم مع بقاء التلاوة، وهي قضية من القضايا التي كانت ثابتة متأصلة عن الصحابة رضوان الله عليهم. وعلى حين أنكر أولئك هذا النوع من النسخ، وجدنا آخرين يثبتون أنواعاً أخرى:

١ - نسخ التلاوة والحكم.

٢- نسخ التلاوة مع بقاء الحكم.

٣- نسيان آيات كانت ثابتة ثم رفعت.

وهذه كلها منزلقات خطيرة، رأى فيها كثيرون من ذوي الأغراض والأهواء فرصة سانحة، وأوقاتاً ساحة، ليدخلوا من أبوابها الضيقة المسالك، فينالوا من دين الله ما ينالون. وإنني لأرجو أن أكون - بما عندي من جهد متواضع، ومن زاد علمي قليل ومن بضاعة مزجاة - وفقني الله للصواب، وأعطيت هذا الفصل بعض ما يستحق مما هو في وسعي.

وسنعرض للمباحث التالية:

أولاً: تعريف النسخ، لغةً واصطلاحاً وما يؤخذ من التعريف.

ثانياً: الطريق إلى معرفة النسخ.

ثالثاً: الفرق بين النسخ والتخصيص.

رابعاً: النسخ بين المُقرّين والمتكرّين.

خامساً: النسخ بين المُقلين والمكثّرين.

سادساً: هل تنسخ السّنة القرآن؟

سابعاً: أقسام النسخ - إن وُجدت - .

وهناك قضايا في هذا المبحث بحثها بعض الفضلاء رأيت أن لا أعرض لها في هذا الكتاب: كالنسخ ببدل أو بغير بدل، وكون البدل أخف أو أثقل، والنسخ قبل التمكن من الفعل، وغير هذين، وبعض الموضوعات التي لا تدعو إليها الحاجة، وقد بسط القول فيها الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني رحمه الله تعالى في كتابه القيم مناهل العرفان. وأجبت أن أتوسع هنا في مباحث تتصل بالقرآن الكريم اتصالاً مباشراً.

أولاً: تعريف النسخ:

يطلق النسخ في اللغة إطلاقين اثنين:

أحدهما: الإزالة يقال: نسخ الرّيح الأثر، ونسخت الشمس الظل.

ثانيهما: النقل: ومنه قولهم: نسختُ الكتاب، ولعلَّ هذا المعنى هو المقصودُ في موضوع الاستنساخ الذي أثير هذه الأيام، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

النسخ في الاصطلاح:

اعلموا أن هناك صلة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، فالنسخ في الاصطلاح: رفعُ الحكم الشرعي بدليل شرعي متراخ عنه.

ويحسن بنا أن نقف عند هذا التعريف لنرى ما يؤخذ منه وما يترتب عليه.

أولاً: يؤخذ من هذا التعريف أن المنسوخ لا بد أن يكون حكماً ثبت بالشرع ومن هنا نعلم أن إبطال عادات الجاهلية وما أشبهها لا يُسمى نسخاً، مثال ذلك: كان الظهار في الجاهلية لا كفارة له، تنقطع به عرى الزوجية، وجاء القرآن الكريم يبين أحكام الظهار وكفارته، فهذا البيان لا يُعدُّ نسخاً لأن النسخ رفعُ حكم شرعي، وعادات الجاهلية ليست كذلك، كذلك الأحكام الجديدة لا تُعدُّ نسخاً كإباحة التجارة في موسم الحج، وتحريم بعض النساء بسبب الرضاة.

ثانياً: يؤخذ من التعريف أن النسخ لا يكون إلا للأحكام، أما الأخبار سواء أكانت قصصاً أم أخلاقاً أم عقائد فلا يدخلها النسخ لأن النسخ رفع حكم شرعي.

ثالثاً: ويؤخذ من التعريف أيضاً أنه لا بُدَّ من تعارض بين الحكم الناسخ والحكم المنسوخ بحيث يتعذر الجمع بينهما، أما إذا أمكن الجمع فلا نسخ، وهذا هو المسلك الذي يتبعه العلماء، لا يذهبون إلى القول بالنسخ إلا بعد مراحل من البحث.

رابعاً: وما يرشد إليه التعريف: أن المنسوخ ينبغي أن يكون حكماً غير مُغيّا بغاية فقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَدْحَشَةُ مِنْ نِسَائِكَمْ فَأَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيْنَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥]، فهذا الحكم في الآية الكريمة لم يأت حكماً دائماً بل كان مُغيّاً، أي ينتهي إلى غاية بدليل قوله تعالى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ فهو يحمل نهايته في أثناؤه.

ولذلك قال رسول الله ﷺ فيما بعد من حديث عبادة بن الصامت: «خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً: البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»^(١).

قال الإمام القرطبي رحمه الله: وهذا نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الْآيِلِ﴾ [البقرة: ١٨٧] فإذا جاء الليل ارتفع حكم الصيام لانتهاه غايته لا لنسخه. هذا قول المحققين المتأخرين من الأصوليين، فإن النسخ إنما يكون في القولين المتعارضين من كل وجه اللذين لا يمكن الجمع بينهما^(٢).

خامساً: يدل التعريف على أن رفع الحكم إذا لم يكن بحكم شرعي فليس ذلك نسخاً، وذلك كرفع الحكم الذي يكون بسبب الموت أو لسقوط التكليف لجنون أو غيره فذلك كله لا يسمى نسخاً.

النسخ إذن: يكون في الأحكام الشرعية ولا يدخل الأخبار ولا بد فيه من تراخي الناسخ عن المنسوخ، ولا بد من أن يكون الحكم الناسخ معارضاً للحكم المنسوخ بحيث لا يمكن الجمع بينهما. مما تقدم ندرك:

أولاً: أنه إذا أمكن الجمع بين نصين ظاهرهما التعارض فلا بد أن يُصار إليه ولا يُعد ذلك من قبيل النسخ، مثاله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ﴾ [البقرة: ٢٢١] ثم قال سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥] فالآية الأولى منعت الزواج من المشركات، والعلماء مجمعون على أن أهل الكتاب يصدق عليهم هذا الوصف (أعني كونهم مشركين)، وفي الآية الثانية إباحة الزواج من الكتابيات، والمحققون من العلماء لم يروا نسخاً في هذه القضية بل رأوا أن الآية الثانية مُحْصَنَةٌ للأولى، فالآية الأولى حرمت نكاح المشركات، وهذا الوصف يشمل

(١) أخرجه الإمام مسلم، باب حد الزنا رقم ١٦٩٠.

(٢) تفسير القرطبي، ٨٥/٥.

الكتابات وغيرها من الوثنيات والملحقات، ثم جاءت الآية الثانية فخصّصت الحكم وأخرجت منه الكتابيات.

ثانياً: إنَّ ما كان من باب التدرج في الأحكام لا يُسمّى نسخاً، وذلك كالأيات التي تحدثت عن تحريم الخمر والربا، وكذلك آيات الجهاد، ومن هنا ندرك: أن كثيراً مما أدخلوه في باب النسخ ليس منه.

ثانياً: الطريق إلى معرفة النسخ:

عرفنا أن النسخ رفع حكم شرعي بدليل شرعي متراخ عنه. ولكن ما الطريق إلى معرفة النسخ؟

إن أهمية النسخ وما يترتب عليه من نتائج أمر لا بُدَّ فيه من الحِطة؛ لذا فإن الحكم على أحد النصين بأنه ناسخ أو منسوخ، لا يخضع لاجتهاد المجتهدين، كما لا يؤخذ فيه بقول لا يستند إلى حجة، وكما أن طريق النسخ لا يكون بالاجتهاد؛ فإنه لا يُقبل فيه قول مُفسّر حتى قول الصحابي ما لم يثبت بطريق صحيح، ويكون هذا القول مؤيداً بقرائن.

كما أنه ليس من طرق معرفة النسخ تقدّم الآية أو تأخرها في كتاب الله، بحيث يقال: إن الآية المتقدمة منسوخة والتأخرة ناسخة؛ لأننا نعلم أن ترتيب القرآن في المصحف يختلف عن ترتيب النزول ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرَىٰ عَيْنٌ بِأَفْئِسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] جاءت قبل قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْاَحْوَالِ...﴾ [البقرة: ٢٤٠] والآية الأولى ناسخة والثانية منسوخة.

لا بد إذن من أن يكون طريق معرفة النسخ طريقاً يؤمن فيه الزلل.

ومن طرق معرفة النسخ:

أولاً: أن يكون أحد النصين فيه دلالة عن تأخره على النص الآخر، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦]

فإن في هذا النص دلالة على أنه متأخر عن قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَادِقُونَ يَغْلِبُوا وَمِائَتِينَ﴾ [الأفال: ٦٥]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيَّ جُحُودَكُمْ صَدَقْتُمْ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ١٣] فإن هذا النص يحمل معه برهان تأخره عن الآية الكريمة ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَجِئْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيَّ جُحُودَكُمْ صَدَقَةٌ﴾ [المجادلة: ١٢].

كذلك قول النبي ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها»^(١) فإنه دال على تأخر الإباحة عن النهي.

ثانياً: من طرق معرفة النسخ الإجماع على أن أحد النصين هو الناسخ.

ثالثاً: أن يثبت ذلك من إجماع الصحابة رضوان الله عليهم، أما تفرد أحد الصحابة بالقول، فلا يكون طريقاً لمعرفة النسخ لأنه يمكن أن يقوله اجتهداً^(٢).

ثالثاً، الفرق بين النسخ والتخصيص:

١- التخصيص قصر العام على بعض أفرادهِ وليس كذلك النسخ بل هو عام لجميع الأفراد، فالآيات المنسوخة التي تحدثنا عنها من قبل لا يستثنى منها شيء، فحكم المتوفى عنها زوجها أن تعتد أربعة أشهر وعشراً حكماً عاماً لكل من كانت كذلك، أما التخصيص فليس كذلك ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿فَأَقْضُوا أَلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]، إن هذا الحكم لا يشمل المعاهدين والمستأنسين بل هو مقصور على غيرهم.

كذلك قوله سبحانه: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْبِضْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فإن لفظ الآية الكريمة يدل على أن عِدَّة المطلقه هذه القروء الثلاثة سواء أ قلنا: القروء، الحيض أم الطُّهر، وهناك مطلقات لا يشملهن هذا الحكم، فالمطلقات الحوامل عدتهن

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه في زيارة أمه، حديث رقم ١٠٦ باب ٣٦ انظر ٤٦/٧ شرح النووي.

(٢) مناهل العرفان، الزرقاني، ج ٢/ ١٠٥.

وضع حملهن كذلك المتوفى عنها زوجها عدتها أربعة أشهر وعشرًا، إذا لم تكن حاملاً، أما إذا كانت حاملاً فعدتها وضع حملها، طالت مدة الحمل أم قصرت، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]. وهكذا نجد أن لكل آية ميداناً خاصاً بها وهذا يختلف اختلافاً تاماً عن النسخ.

٢- الفرق الثاني بين النسخ والتخصيص: أن الناسخ والمنسوخ كلاهما حقيقة فقول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَتُوفَوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٤٠] والآية الناسخة لها ﴿وَالَّذِينَ يَتُوفَوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيضَنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] كلتاها حقيقة لا يدخلها مجاز.

أما في التخصيص فقد ذهب جمهور العلماء إلى أن النص الذي دخله التخصيص يصير مجازاً ويعنون به المخصَّص؛ ذلك لأنه خرج منه بعض أفراده فقوله سبحانه: ﴿فَأَقْضُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ خُصَّصَ بالمعاهدين ومن في حكمهم، حيث لا يشملهم حكم القتل، فكلمة المشركين في الآية الكريمة لا تشمل جميع الأفراد، كذلك المطلقات في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَتُ يَرِيضَنَّ﴾ لا تشمل جميع الأفراد، فقد خرج منهن ذوات الحمل وعلى هذا يقال في هاتين الآيتين: أطلق الكل وأراد الجزء، فالمشركون والمطلقات لفظان عامان خرج بعض أفرادهما في نص آخر وهذا هو المجاز.

فأنت تعلم: أن إطلاق الكل وإرادة البعض مجاز مُرسل علاقته الكلية، ومنه قوله سبحانه: ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيءًا ذَانِبِهِمْ﴾ [البقرة: ١٩].

٣- الناسخ لا بد أن يكون متراخياً عن المنسوخ كما مرَّ من قبل، أما التخصيص فقد يكون مقارناً له أو متراخياً عنه.

٤- الناسخ لا يكون إلا حكماً شرعياً، أما المخصَّص فقد يكون الشرع أو العقل أو الحس، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥] والشيء يشمل فيما يشمل الأرض والسموات، والعقل والحس يشهدان بأن الأرض والسموات غير داخلين في ما دمرته هذه الريح التي أرسلت على عاد.

كذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] فإن شيئاً في الآية الكريمة لا تشمل إلا الممكنات، فلا تشمل واجب الوجود - وهو الله سبحانه - ولا ما هو واجب في حكم العقل، كما لا تشمل المستحيلات التي يُحيلها العقل، فالقدرة لا تتعلق إلا بالممكنات، فوظيفة القدرة - كما يقول المتكلمون - إيجاد الممكن أو إعدامه، أما الواجب والمستحيل فلا معنى لتعلق القدرة بهما كما هو مبسوط في علم التوحيد، لذا فقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يُخَصِّصُ الشيء هنا بالممكن وحده والمخصص هو العقل.

٥- النسخ لا يكون إلا في الأحكام، أما التخصيص فيكون فيها وفي غيرها كما مرّ في الآيات السابقة، فقد يكون في الأحكام كما مرّ في قوله سبحانه: ﴿فَأَقْضُوا الْفُسْكَانَ﴾ وقد يكون في الأخبار كما في قوله: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

٦- والناسخ كما علمتم من قبل يجب أن يكون منفصلاً عن المنسوخ على معنى أن الآية الناسخة غير متصلة بالآية المنسوخة بل هي مترخية عنها، أما التخصيص فقد يكون المخصص مُتصلاً بالمخصص وقد يكون منفصلاً عنه، وإليك هذه الآية التي اجتمع فيها النوعان وهما المخصص المتصل والمنفصل، وسرّ ذلك أن في الآية الكريمة قراءتين، وغير خفي عليكم ما هو معروف عند العلماء، من أن في كل قراءة معنى جديداً، كأنها هي آية أخرى، وهذه المعاني غير متناقضة، كما ستعرفون هذا في مبحث القراءات إن شاء الله تعالى.

والآية المرادة قوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]. قلنا: إن في الآية الكريمة قراءتين.

الأولى: قراءة الأكثرين ومنهم حفص ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ بصيغة الماضي، ف (خلقه) فعلٌ ماضٍ والفاعل هو الله تبارك وتعالى والهاء مفعول به. هذه الجملة (خلقه) في محلٍّ جرٍّ صفيةٍ لـ (شيء)، أي: «الذي أحسن كلَّ شيءٍ مخلوقٍ». فالآية تتحدث عن الأشياء المخلوقة وهي الممكنة.

الثانية: قراءة أبي عمرو وابن كثير ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ ف (خَلَقَهُ) بدل من كُلِّ، أي «الذي أحسنَ خلقَ كُلِّ شيءٍ» إذا عرفتم هذا فاعلموا أنَّ كلمة (شيء) تطلق على جميع الموجودات سواء أكانت ممكنة مثل المخلوقات، كما تطلق على واجب الوجود وهو الله وصفاته، ودليل هذا من القرآن قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَى شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩]، وكلمة (كُلِّ) من صيغ العموم، فكلمة ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ في الآية الكريمة، الظاهر أنها تصدق على الله وصفاته.

فالظاهر أنَّ الله خلق ذاته وصفاته، وهذا قول لم يقله أحدٌ، وإذن فلا بد أن يكون قوله سبحانه: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ مُخَصَّصاً، أي: أحسن خلقَ كُلِّ شيءٍ غير ذاته وصفاته؛ لأنه غير مخلوق سبحانه. فما هو هذا المخصّص، أما في القراءة الأولى - وهي رواية حفص - فمعناها كما قلنا من قبل: الذي أحسنَ كُلِّ شيءٍ مخلوق.

وهذه الصفة أعني كلمة مخلوق أخرجت ذات الله وصفاته. أما على القراءة الثانية التي معناها: أحسنَ خلقَ كُلِّ شيءٍ فالمخصّص هو العقل. أي: العقل يقضي بأن ذاته وصفاته خارجة عن هذا اللفظ. فالمخصّص على القراءة الأولى وهو الصفة متصل؛ لأن الصفة غير منفصلة عن موصوفها، وعلى القراءة الثانية منفصل وهو العقل. والعقل منفصل عن النص.

قال الإمام البيضاوي - رحمه الله - : «وَحَلَقَهُ: بدل اشتغال وهذه قراءة أبي عمرو وابن كثير....» وقرأ نافع والكوفيون بفتح اللام على الوصف، فالشيء، على الأولى مخصوص بمنفصل وعلى الثانية بمتصل.

وقال الشيخ زاده - رحمه الله - في حاشيته مبيناً معنى كلام القاضي قوله: «فالشيء على الأول» يعني أن خلقه سواء جُعِلَ بدلاً أو مفعولاً ثانياً لا بد من تخصيص الشيء... والمخصّص على الأول الدليل المنفصل وهو العقل، فإنه يدل على أن المراد الموجودات الممكنة، وعلى الثاني الدليل المتصل وهو الوصف أعني خلقه^(١).

(١) حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي، ٤/٤٦.

وقد ذكرت هذا لأنني أريد أن يكون طلابنا على صلة بقرآنهم العظيم وبهذه الثروة العلمية العظيمة.

رابعاً، النسخ بين المقررين والمنكرين، جواز النسخ ووقوعه،

نازع بعض الناس في جواز النسخ، وقالوا: إن النسخ لا يجوز عقلاً، ونردّ على هؤلاء، بأن النسخ لا يلزم عليه محذور عقلي من جهة، وبأن نسخ الشرائع بعضها ببعض من الأمور التي لا مجال لإنكارها، ومن الذين ينكرون جواز النسخ عقلاً اليهود، والمحدثون من علماء النصارى.

وفي القرن الماضي جرت مناظرة في الهند، وهي مناظرة مُشْتَهرة بين «رحمة الله الهندي» - رحمه الله - والقسيس (فندر)، وكانت مسألة النسخ إحدى القضايا الخمس التي اتفق على بحثها، أما المسائل الأربعة الأخرى فهي: التحريف، التثليث، إثبات نبوة محمد ﷺ، وكون القرآن من عند الله، وقد جرت المناظرة الفعلية في مسألتي التحريف والنسخ، ثم امتنع القسيس بعد هاتين القضيتين عن المناظرة، فسجل المناظرة فيهما الشيخ - رحمه الله - وأكمل المسائل الثلاثة، وأخرجها في كتاب وهو كتاب «إظهار الحق» وقد طبع أكثر من مرة، وشبهه هؤلاء وأولئك تسويتهم بين النسخ والبداء.

والبداء: ظهور الشيء بعد خفاء، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ لَيْسَ جُذُنُهُ حَتَّىٰ جِئَ﴾ [يوسف: ٣٥] والحق أن هناك فرقاً كبيراً بين النسخ والبداء، فالنسخ ليس ظهوراً بعد خفاء، فالله تبارك وتعالى يعلم الأمور كلها ما كان منها وما سيكون، وعلى هذا فإن للنسخ حكماً عظيمة تظهر فيها حكمة الله ورحمته بعباده، أما وقوع النسخ في كتاب الله تعالى وهذا الذي يعيننا فقد كاد العلماء يجمعون عليه - اللهم - إلا ما قيل عن أبي مسلم من أنه يُنكره ثم رأينا من المُحدثين من تمحل وتكلف القول في إنكار النسخ. وأبو مسلم إمام من أئمة المعتزلة برز في كثير من العلوم فهو مفسر نحوي.

ولم يصل إلينا شيء من كتبه وإنما وصلتنا أقواله عن غيره، ورحم الله الإمام الزاوي وجزاه خيراً فهو الذي نقل لنا كثيراً من آراء أبي مسلم رحمه الله في تفسيره الكبير (مفتاح

الغيب) ولولا الإمام الرازي ما عرفنا كثيراً من هذه الآراء. ولذا ذهب بعض العلماء إلى أن الخلاف بين أبي مسلم وجههور العلماء خلاف لفظي، وما ذكروه عن أبي مسلم من استدلاله على إنكاره وقوع النسخ في كتاب الله بقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] إخاله غير ثابت عنه؛ لأن مثل أبي مسلم لا يخفى عليه الفرق بين النسخ والباطل، أما بعض الكاتبتين المحدثين فلقد حاولوا نفي النسخ عن كتاب الله تبارك وتعالى، وحاولوا الجمع بين الآيات المنسوخة والناسخة. وسأنقل لك أيضاً أيها القارئ الكريم خلاصة وافية موجزة لهذه القضية الخطيرة.

القائلون بوقوع النسخ في القرآن الكريم - بخاصة - وفي الأحكام الشرعية بعامة استدلوا بالقرآن والسنة، أما القرآن الكريم فقولوه سبحانه ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦] وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠١-١٠٢].

وأما السنة المشرفة ففي مثل قول النبي ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها»^(١) ونسخ وجوب الوضوء مما مسته النار، ونسخ قوله: «إنما الماء من الماء»^(٢)، فأوجب الغسل لالتقاء الختانين، ونسخ تحريم ادخار لحوم الأضاحي إلى غير ذلك من الأحكام الكثيرة التي بين العلماء نسخها في السنة المطهرة.

والكاتبتون في علوم القرآن يقتصر بحثهم على النسخ في كتاب الله تعالى دون الحديث عما جاء في السنة المطهرة، وعلى هذا فسنقصر حديثنا على الأدلة التي استندوا إليها من كتاب الله تعالى.

(١) أخرجه مسلم في الصحيح برقم ٢٣٠٥.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة، باب أن الغسل يجب بالجمع، حديث رقم ٣٤٣، صحيح مسلم بشرح النووي.

قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾، ذهب جمهور العلماء إلى أن المقصود من قوله: (من آية) في الآية الكريمة هي الآية من القرآن وعلى هذا فالمعنى عندهم: أي شيء ننسخ من آية سواء أكان هذا النسخ لحكم الآية أو للفظها، وأي شيء قدرنا أن ينسأه الناس من آية - حكماً أو لفظاً أو هما معاً - فإننا نأت بخير من الآية التي أردنا نسخها أو أردنا أن ننسها أو نأت بمثلها. فالنسخ عندهم يشمل نسخ الأحكام وغيرها، لذلك قسموا النسخ إلى نسخ الحكم ونسخ التلاوة ونسخها معاً، وقالوا: إن هناك آيات كانت تتلى ثم نُسِيها الناس، وأرادوا أن ينصروا هذا الرأي فذكروا بعض أسباب النزول التي تعينهم على هذا المعنى.

قال صاحب روح المعاني: نزلت لما قال المشركون أو اليهود: ألا ترون إلى محمد ﷺ يأمر أصحابه بأمر ثم ينهأهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، ما هذا القرآن إلا كلام محمد - ﷺ - يقول من تلقاء نفسه، وهو كلام يناقض بعضه بعضاً وليس لهذا السبب أثر صحيح يُستند إليه^(١).

هذا ما ذهب إليه جمهورهم في تفسير الآية الكريمة، وآخرون سلكوا مسلكاً آخر في فهم الآية الكريمة ومن أولئك أبو مسلم بن بحر الأصفهاني من الأقدمين والشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا من المحدثين وغيرهم فقالوا: إن الآية في قوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ ليس المقصود بها الآية من كتاب الله، إنما هي الرسالة التي كان يُبْعَث بها النبي من الأنبياء، وهذا إطلاق صحيح، فالآية وردت في كتاب الله تبارك وتعالى في مواضع كثيرة معنيًا بها المعجزة، وكما تطلق على المعجزة تطلق على الرسالة، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]، ومعنى الآية عند أصحاب هذا القول: أي رسالة من رسالات الأنبياء السابقين ننسخ، فإننا نأت برسالة غيرها خيراً منها أو مثلها بأن نرسل نبياً يدعو الناس إلى ما أمره الله به، وكذلك إذا قدرنا أن نُسِي رسالة بُعِد العصر بها فإننا نأت بخير منها أو مثلها. الآية عند هؤلاء إذن في قوله سبحانه:

(١) روح المعاني، (١/٣٥١).

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ ليست الآية من القرآن الكريم، والنسخ عندهم ليس رفع الحكم الشرعي، والنسيان عندهم ليس نسيان تلاوة الآية، بل نسيان الرسائل السابقة، ويستدل هؤلاء لما ذهبوا إليه بأدلة:

أولاً: السياق: قالوا سياق هذه الآية ومناسبتها لما قبلها لا تتصل بقضية الأحكام من قريب أو بعيد، بل هي متينة الصلة بالأمر الآخر وهو أمر الرسائل والنبوات، فلقد جاءت هذه الآية في سياق إقامة الحجة على اليهود الذين أنكروا رسالة الإسلام وبعثه سيدنا محمد ﷺ، مدّعين أنهم لا يؤمنون إلا بما أنزل عليهم بأنه ليس هناك دين بعد دينهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٧-٨٨]، وتستمر آي الكتاب الحكيم تتحدث عن اليهود ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ...﴾ [البقرة: ٨٩]. ثم يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ. وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١].

وفي هذا السياق جاءت آية النسخ ﴿مَا نَنْسَخْ﴾ وبعد هذه الآية يتصل السياق بعضه ببعض وكله حديث عن اليهود.

فسياق الآية وسباقها إذن حديث عن اليهود وإنكارهم رسائل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبخاصة رسالة الإسلام، وعلى هذا فالأوجه في تفسير الآية الكريمة أن تكون ردّاً على أولئك اليهود؛ لأن الله تبارك وتعالى اقتضت حكمته أن ينسخ بعض الرسائل ويأتي بغيرها، وهذا دليل قوي، لأن السياق من الأمور التي يعول عليها في فهم كتاب الله تعالى ما دام هذا السياق لا يعارضه صحيح المأثور ولا سليم اللغة كما في هذه الآية، فليس هناك حديث صحيح يبين لنا أن الآية هنا هي الآية من القرآن، ثم إن اللغة تُعين على هذا التفسير، أي: تفسير الآية بالرسالة.

ثانياً: استدلووا بقوله تعالى في الآية نفسها: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والقرآن الكريم كتاب البيان - الساحر - فكلّماته وفواصله تأتي مُقدّرة مُبيّنة ما يُراد منها،

فقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يتفق مع هذا التفسير، ولو كان المقصود تفسير الآية بأنها الآية من القرآن، وأن المقصود نسخ الحكم، لكان ينبغي أن تكون الفاصلة «أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

ثالثاً: قالوا: إن هذا التفسير سيحول بيننا وبين كثير من الإشكالات التي تنتج عن التفسير الأول، فإن قوله سبحانه: ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ معناه على التفسير الأول نُنسي بعض الأحكام أو نُسي تلاوة بعض الآيات وهذا أمر مختلف فيه كما ستعرفه إن شاء الله.

رابعاً: هناك قراءة سبعية في قوله سبحانه: ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ وهي «أو نَسَّأها» من الإنشاء وهو التأخير، والقراءات الصحيحة لا تتناقض ويؤيد بعضها بعضاً، فقوله سبحانه وتعالى: «أَوْ نَسَّأها» مُنْسَجِمٌ تماماً مع هذا التفسير كما ستعرفه إن شاء الله.

وعلى هذا: فهذا الآية الكريمة ليست دليلاً على وجود النسخ في كتاب الله تعالى: وقد عرفت من قبل أن من أجلّة المفسرين من ارتضى هذا التفسير، ومنهم الإمام محمد عبده والسيد رشيد رضا وشيخنا الأستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز، وقد وافقهم ابن عاشور في التحرير والتنوير - رحمه الله تعالى - إلا أن هذا الأخير اتسع فهمه للآية الكريمة حيث حمل الآية على الرسالة كصنيع صاحب المنار وحملها كذلك على نسخ الآية من كتاب الله كما هو رأي الجمهور، فبعد أن ذكر مناسبة الآية وبين أن الآية ﴿مَا نَنْسَخْ﴾ متصلة بالحديث عن اليهود الذين أنكروا رسالة النبي ﷺ وغيره من الأنبياء. لأنهم ينكرون أن تُنسخ شريعتهم. قال - رحمه الله - : فلما بين الردّ عليهم في ذلك كله أراد نقض تلك السفسطة أو الشبهة التي راموا ترويجها على الناس بمنع النسخ، والمقصد الأصلي من هذا هو تعليم المسلمين أصلاً من أصول الشرائع وهو أصل النسخ الذي يطراً على شريعة بشرية بعدها، ويطراً على بعض أحكام شريعة بأحكام تبطلها من تلك الشريعة^(١). فالشيخ - رحمه الله - يرى أن لفظ آية في قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ كما تصدق على الرسالة تصدق على الآية من القرآن، ولكن في المناسبة والسياق - كما قلت -

(١) التحرير والتنوير ج ١ ص ٦٥٥.

ترجيحاً للمعنى الأول. ولست مع الشيخ - رحمه الله - فيما ذهب إليه لأن حمل الآية على المعنيين يوقع القارئ في لبس ولا يحل الإشكال.

والذين فسروا الآية هذا التفسير - أعني تفسير الآية بالرسالة - لم يُنكروا وقوع النسخ في القرآن الكريم كما أنكره أبو مسلم. واستدل بعضهم على وقوعه بالآية الكريمة: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿[النحل: ١٠١-١٠٢]، وهو استدلال حسن، وذلك لأن سياق الآية وسبقها - ما قبلها وما بعدها - كله حديث عن القرآن الكريم، ولا يمكن أن تحمل على الرسالة كآية البقرة، ولكن يُعَكِّرُ على هذا التفسير أن الآية مكية، ونسخ الأحكام إنما كان في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام على أن صاحب التحرير والتنوير يذكر أن النسخ في مكة كان على قلة، ويضرب مثلاً لذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠] فهي منسوخة بقوله سبحانه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] ويقيني أن الشيخ - رحمه الله - أغرب كثيراً في هذا التفسير فليس في هاتين الآيتين الكريمتين نسخ، وقد ذكر - رحمه الله - أن هذه الآية الكريمة ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل: ١٠١] نزلت رداً على أولئك المعاندين لاختلافهم وعمدتهم التمويه فيما يأتي من آيات القرآن مُحَالِفاً لآيات أخرى لاختلاف المقتضي والمقام، والمغايرة باللين والشدة أو بالتعميم والتخصيص ونحو ذلك مما يتبع اختلافه اختلاف المقامات واختلاف الأغراض واختلاف الأحوال التي يتعلق بها فيتخذون من ظاهر ذلك - دون وضعه مواضعه وحمله محامله - مغامر يتشدقون بها في نواديهم...

روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: «كان إذا نزلت آية فيها شدة ثم نزلت آية ألين منها يقول كفار قريش: والله ما محمد إلا يسخر بأصحابه، اليوم يأمر أمراً وغداً ينهى عنه، وأنه لا يقول هذه الأشياء إلا من عند نفسه» وهذه الكلمة أحسن ما قاله المفسرون في حاصل معنى الآية. فالمراد من التبديل في قوله تعالى: ﴿بَدَلْنَا﴾ مُطْلَق

التغاير بين الأغراض والمقامات أو التغاير في المعاني واختلافها باختلاف المقاصد والمقامات مع وضوح الجمع بين محاملها، والمراد بالآية الكلام التام من القرآن وليس المراد علامة صدق الرسول ﷺ^(١).

وهو توجيه حسن من الشيخ - رحمه الله - في فهم الآية الكريمة وسواء أكانت الآية الأولى أم الآية الثانية دليلاً على وقوع النسخ في القرآن الكريم، فإن من التمثل والتكلف إنكار وقوع النسخ في القرآن الكريم، كيف وقد استقرت كلمة الرعيل الأول في خير القرون على وقوعه، وهذا هو عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما وقد سأل عثمان رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] كيف وضعتوها وهي ناسخة قبل قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ [البقرة: ٢٤٠] وهي منسوخة، فأجابه رضي الله عنه بأن ترتيب القرآن على ما هو عليه، لا يجوز لأحد أن يغير فيه شيئاً^(٢).

أمر النسخ إذن كان مستقراً لدى الصحابة - رضوان الله عليهم - ثم إن النسخ ثابت في السنة المطهرة وكلاهما وحي ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٣] أفيلق بعد هذا أن يأتي من ينكر وقوع النسخ مع أنه لا يترتب على هذا النسخ محذور ما بل على العكس فإن له فوائد وحكماً.

خامساً: النسخ بين المكثرين والمقلين:

وإذا كان النسخ أمراً واقعاً في كتاب الله فإن كثيرين قد بالغوا في هذا الأمر فجعلوا القرآن الكريم كله ناسخاً أو منسوخاً، وقد خرج كثير منهم عن المعقول والمقبول فادعوا نسخ ما لا يمكن أن يُنسخ، ادعوا نسخ الأخبار، والأخبار لا يدخلها النسخ، كما ادعوا نسخ بعض القواعد التي هي أصول لا يمكن أن تتغير، كما أدخل بعضهم في النسخ ما هو

(١) التحرير والتنوير، ج ١٤، ص ٢٨١.

(٢) هذا الحديث أخرجه البخاري في الصحيح برقم ٤٢٥٦.

من قبيل التدرج في الأحكام وما هو من قبيل التخصيص، وإليك مسرداً يتضمن أقوال بعضهم في النسخ:

اسم المؤلف	عدد الآيات المنسوخة
الإمام محمد بن حزم	٢١٤
الإمام أبو جعفر النحاس	١٣٨
الإمام أبو القاسم هبة الله بن سلامة	٢٣٥
الإمام عبد القادر البغدادي	٦٦
الإمام عبد القادر محمد بن بركات بن هلال	٢٢٠
الإمام الحافظ ابن خزيمة الفارسي	٢٠٢
الإمام عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي	٢٧٤
الإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي	٢٠
الإمام مرعي بن يوسف المقدسي الكرمي	٢١٨
الإمام عطية الله بن الأجهوري	٢١٣

والإمام السيوطي - رحمه الله - كان أكثرهم اقتصاداً وأقلهم إسرافاً فيما ذهب إليه ومع ذلك فلا يخلو ما ذكره من مناقشة وإليك بيان هذا:

الآية الأولى: قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] قيل: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطَرُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٩] والذي يتأكد عندي عدم النسخ.

وقد تقدم هذا في مبحث أسباب النزول فارجع إليه إن شئت.

الآية الثانية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠] قيل: إنها منسوخة بقول النبي: «ألا لا وصية لوارث»^(١) وقيل:

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٦٧/٥، وأبو داود في البيوع رقم (٣٥٦٥) وفي الوصايا رقم (٢٨٧٠).
والترمذي في الوصايا رقم (٢١٢٠)، و(٢١٢١) وابن ماجه في الوصايا رقم (٢٧١٣) وغيرهم.

بل بالآية الكريمة ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١] وقيل: محكمة، ويترجح عندي النسخ لأن القول بالإحكام لا يخلو من تكلف^(١).

الآية الثالثة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣] قالوا: نسخها قوله سبحانه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] وهذا النسخ لا يتضح له معنى، والحق الذي لا محيص ولا محيد عنه أن الآية محكمة غير منسوخة.

الآية الرابعة: قوله سبحانه: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] نسخها قوله سبحانه: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥] وهو الذي يترجح عندي، وقد فصلت القول في كتاب (البيان والإتحاف في أحكام الصيام والاعتكاف) فليرجع إليه من شاء.

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَفَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧] قالوا: إنها منسوخة، فذهب بعضهم إلى أن الناسخ قوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] وقال آخرون: الناسخ قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ونشأ عن هذا هل القتال في الشهر الحرام ما زال حراماً؟ والظاهر هذا؛ لأننا لا نملك نصاً صريحاً يلغي هذا الحكم، فهو حرام إلا إذا حدث أمر يزيل هذه الحرمة كأن يبدأ الأعداء بالقتال فالظاهر أن الآية محكمة.

الآية السادسة: قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْبَحُولِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠] نسختها الآية الأخرى ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] وهذا الذي يترجح لديّ وهو قول الجمهور.

(١) راجع إن شئت كتاب: اتجاهات التفسير ومناهج المفسرين في العصر الحديث، الجزء الأول، عند حديثنا عن السيد رشيد رضا وموقفه من آيات الأحكام.

الآية السابعة: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] قالوا: نسخها قوله سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. والذي يترجح لدي أن لا نسخ؛ لأن الله تبارك وتعالى رحيم بعباده لا يكلفهم إلا ما يستطيعون، فليسوا مؤاخذين بالخطرات ولا بأحاديث النفس كما جاء في الأحاديث الصحيحة.

أما قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ فالمراد بما يخفونه العزم والنية، وهو مما يُحاسب عليه كما جاء في الأحاديث الصحيحة ذلكم أن مراتب أفعال النفس خمسة:

- ١- الهاجس.
- ٢- الخاطر.
- ٣- حديث النفس.
- ٤- الهم.
- ٥- العزم.

والأربعة الأولى من رحمة الله بنا أننا لسنا محاسبين عليها أما المرتبة الخامسة وهي العزم فهو الذي يحاسب عليه.

الآية الثامنة: قوله سبحانه: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قالوا: نسختها الآية الكريمة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] ونحن نعجب لهذا القول فالآية الكريمة محكمة لا يتطرق إليها النسخ من قريب أو بعيد، فإن قوله سبحانه: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ هو ما نستطيع، ألم يقل سيدنا رسول الله ﷺ: «إذا نهيتكم عن شيء فدعوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»^(١).

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب فرض الحج في العمر مرة، حديث رقم ٤١٢ انظر شرح النووي على مسلم (١٠٠/٩).

الآية التاسعة: قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا حَصَرَ الْقَيْسَمَةَ أُولُوا الْقَرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ...﴾ [النساء: ٨]: قيل: إنها منسوخة بآيات الموارث وهو قول حري أن يُتعجب منه، فليس في الآية نسخ، بل هي إرشاد لذوي التركة أن يُعطوا شيئاً لذوي القربى والمساكين وأن يقولوا لهم قولاً معروفاً.

الآية العاشرة: قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَأَتَوُوهُمْ نَصِيهِمْ﴾ [النساء: ٣٣]: قيل: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥] ويظهر أنها محكمة؛ لأن نصيب مولى الموالاة لا زال باقياً إذا لم يكن للمتوفى ورثة.

وهذا أمر يحتاج إلى بعض التفصيل، فمن رحمة الله تعالى وعظمة هذا الدين ونبهه وكتابه أن من كان عنده عبد فعتقه فإن هناك صلة تبقى بين المُعتَق والمُعْتَق، أي: بين الذي كان عبداً وسيده.

وهذه الصلة تسمى الولاء يقول النبي ﷺ: «إنما الولاء لمن أعتق»^(١) والولاء حُمة كُلِّ حمة النسب، فإذا مات هذا الذي كان عبداً وليس له من يرثه ورثه الذي كان سيده له. وإذا مات الذي كان سيده ولم يكن له ورثة ورثه الذي كان عبداً له. الآية محكمة وإن لم يكن الآن رق. وذهب الشيخ محمد عبده إلى أن المقصود بقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَأَتَوُوهُمْ نَصِيهِمْ﴾ [النساء: ٣٣] يعني الزوجة وعلى كلا التفسيرين الآية محكمة.

الآية الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَلَحِشَّةُ مِنْ نِسَائِكَ فَأَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ [النساء: ١٥]: قالوا: إنها منسوخة بآيات النور وبقوله ﷺ: «خذوا عني». وقد عرفنا من قبل أن هذا ليس من باب النسخ.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب ذكر البيع والشراء على المنبر في المسجد، رقم ٧٠، حديث رقم ٤٥٦، انظر فتح الباري (١/ ٥٥٠).

الآية الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرِ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢] قيل: إنها منسوخة بقوله سبحانه: ﴿وَقَلْبُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] ولا نلتفت لمثل هذا القول.

الآية الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٣]، قالوا: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]، وسامحهم الله، فأين النسخ؟ إن جاءك فاحكم أو أعرض، وإن حكمت فاحكم بما أنزل الله.

الآية الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦]. قيل: إن قوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ منسوخ بقوله: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]، ولا يقل هذا عجباً عما سبقه فلا نسخ بل إحكام.

الآية الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٦٥]، نسخها قوله: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦].

الآية السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، قيل: إنها نسخت بآيات العذر، مثل قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ [التوبة: ٩١]، وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١] وقوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]، والحق أن لا نسخ وقد يكون هناك تخصيص.

الآية السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور: ٣]، قالوا: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِّنْكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، والحق أن لا نسخ فكلتا الآيتين إرشاد وتوجيه وكل منهما تحمل على محمل.

الآية الثامنة عشرة: قوله سبحانه: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ [الأحزاب: ٥٢]، نسخها قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ...﴾ [الأحزاب: ٥٠]، واعلموا أن الآية الناسخة من حيث ترتيب الآيات متقدمة على الآية المنسوخة، وإنما قلنا بالنسخ لآثار وردت عن السيدة عائشة وكثير من الصحابة، قالت رضي الله عنها: «لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله تعالى له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم»^(١)، وقيل: إن الآية محكمة.

الآية التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَزَجْتُمْ الرُّسُولَ فَعَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ مُحَمَّدٍ صَدَقَةٌ﴾ [المجادلة: ١٢]، نسختها الآية التي بعدها.

الآية العشرون: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابِقْتُمْ فَاتَوْا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ بِثَلَاثَةِ مِائَةِ مَنَافِقَةٍ﴾ [المتحنة: ١١] قالوا: إنها منسوخة بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: ٤١].

والحق: أن لا نسخ، فإن آية الخُمُس التي ادعوا كونها ناسخة نزلت قبل الآية التي قيل: إنها منسوخة ببضع سنين.

الآية الحادية والعشرون: قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْقُرْمَلُ ① قُرْأَتُهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١-٢] قالوا: إنها منسوخة بالآية التي في آخرها ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي الثَّيْلِ...﴾ [المزمل: ٢٠].

وقد اختلفوا في وقت نزول هذه الآية الأخيرة فقال بعضهم: إنها نزلت في مكة بعد نزول أول السورة بسنة أو أكثر، ورأى آخرون أنها نزلت في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٠١/٦)، والترمذي في التفسير رقم (٣٢١٦)، والحاكم في المستدرک (٤٧٤/٢)، والنسائي في المجتبى (٥٦/٦). وفي السنن الكبرى (٤٣٤/٦) رقم (١١٤١٥)، والحديث حسنه الترمذي وصححه الحاكم.

وأنت ترى بعد هذا الدرس أن الآيات المنسوخة لا تزيد على بضع آيات فسامح الله
المكثرين وعفا عنا جميعاً.

ومع أننا نرجح النسخ في هذه الآيات القليلة، إلا أن القائلين بعدم وجود نسخ في
كتاب الله تعالى وجهوا هذه الآيات توجيهاً آخر، وإليك ما قالوه فيها:

١- قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ
لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠] قالوا: إن هذه الآية إنما
يؤخذ بها إذا كان هؤلاء غير وارثين كما كان الأمر في أول الإسلام إذا أسلم وأبواه
مشركان، وكما كان بعد من تزاحم الورثة أو تقديم بعضهم على بعض، كأن يكون له
أخت شقيقة أو لأب وله ابن، فإن الأخت لا ترث وهي من الأقربين وكذلك أخوه لأن
الابن حجب، ففي الحال إذا كان الأخ ذا حاجة كمتقدم السن فإنه يوصى له.

ولذا قال هؤلاء الفقهاء إنه يجمع بين آية الوصية وآية الميراث، وتكون آية الميراث
مخصصة لآية الوصية بأنها في غير الوارثين من الأقارب ... ولا يقال إن آية الميراث
نسخت آية الوصية؛ لأنها بقيت شريعتهما في غير الوارثين، وهي في ذاتها ستر لما عساه
يكون من حاجة عند بعض الأقارب الأقربين الذين لم يصل إليهم تقسيم الميراث ويكون
هذا هو العدل وهو البر والرحمة بذوي قرباه^(١).

٢- قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] حيث
فسروا الطاقة بأنها اسم لمقدار ما يمكن الإنسان أن يفعل بمشقة، والمعنى عندهم ﴿وَعَلَى
الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾، أي: يتكلفون مشقة هي أقصى الطاقة لا يستطيعون مداومة عليها
وهم الشيوخ القانون الذين تقدمت سنهم^(٢) وعليه فلا نسخ عندهم.

٣- قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْفَحْشَاءِ قُلْ فِيهَا قَوْلٌ مُبِينٌ وَصَدٌّ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ...﴾ [البقرة: ٢١٧].

(١) زهرة التفاسير، الشيخ محمد أبو زهرة، (١/٥٤٤).

(٢) المرجع السابق، (١/٥٤٤).

قال الشيخ أبو زهرة: قال بعض العلماء إن تحريم القتال في الشهر الحرام منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] وبقتال النبي ﷺ أهل الطائف فيه، ولكن قال عطاء: آية لم ينسخ.

والحقيقة أنه لم يثبت ناسخ صريح في النسخ فإن قوله ﴿وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ العموم فيه بالنسبة للمقاتلين لا بالنسبة لزمان القتال وأن النبي ﷺ لم يتددى قتالاً في الشهر الحرام مختاراً قط، والتحريم في الاختيار والابتداء.. لا في البقاء والاضطرار؛ ولذا قال سبحانه، ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾... [التوبة: ٣٦]؛ ولأن الأشهر الحرم نص عليها في خطبة الوداع وكل ما جاء فيها غير منسوخ^(١).

٤- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٠] ذكروا أن الآية هنا جاءت في حق المرأة المتوفى عنها زوجها، حيث إن لها حق البقاء في بيت الزوجية سنة بعد موت زوجها، وعلى ذلك لا تكون ثمة معارضة بأي نوع من أنواع المعارضة بين هذه الآية وقوله تعالى في عدة المتوفى عنها زوجها ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيضَنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]؛ لأن هذه في بيان العدة، أما الآية التي نتكلم في معناها ففي بيان حق المرأة لا بيان الواجب عليها... وقد ذكر شيخ المفسرين ابن جرير الطبري ذلك فروي عن مجاهد أن هذه الآية وهي التي نتكلم في معناها آية محكمة لا نسخ فيها، فقد قال مجاهد: العدة تثبت أربعة أشهر وعشراً، ثم جعل الله لهن وصية سكنى سبعة أشهر وعشر ليلة فإن شاءت المرأة سكنت في وصيتها وإن شاءت خرجت...

ولقد روى البخاري مثل ذلك عن مجاهد؛ فقد أخرج البخاري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى، ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾، قال: كانت هذه العدة تعتدها عند أهل زوجها واجباً، فأنزل الله، ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ﴾... الآية،

(١) زهرة التفاسير، (٢/٦٨٦).

قال جعل الله لها تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية إن شاء سكنت في وصيتها وإن شاءت خرجت.

وهذا التخريج وبهذا السند الصحيح يثبت أن لا تعارض قط بين الآيتين، وشرط النسخ التعارض ولم يوجد فلا نسخ^(١).

٥- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا...﴾ [الأنفال: ٦٦]. قال أبو مسلم الأصفهاني: إنه تعالى قال في الآية الأولى ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ فهب أنا نحمل هذا الخبر على الأمر، إلا أن هذا الأمر كان مشروطاً بكون العشرين قادرين على الصبر في مقابلة المائتين، وقوله: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ يدل على أن ذلك الشرط غير حاصل في حق هؤلاء، فصار حال الكلام أن الآية الأولى دلت على ثبوت حكم عند شرط مخصوص، وهذه الآية دلت على أن ذلك الشرط مفقود في حق هذه الجماعة، فلا جرم لم يثبت ذلك الحكم، وعلى هذا التقدير لم يحصل النسخ البتة.

فإن قالوا: قوله ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ معناه ليكن العشرون الصابرون في مقابلة المائتين وعلى هذا التقدير فالنسخ لازم. قلنا: لا يجوز أن يقال إن المراد من الآية إن حصل عشرون صابرون في مقابلة المائتين فليشتغلوا بجهادهم؟ والحاصل أن لفظ الآية ورد على صورة الخبر خالفنا هذا الظاهر وحملناه على الأمر، أما في رعاية الشرط فقد تركناه على ظاهره، وتقديره إن حصل منكم عشرون موصوفون بالصبر على مقاومة المائتين فليشتغلوا بمقاومتهم وعلى هذا التقدير فلا نسخ. فإن قالوا: قوله: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ مشعر بأن هذا التكليف كان متوجهاً عليه قبل هذا التكليف. قلنا: لا نسلم أن لفظ التخفيف يدل على حصول التثقيل قبل، لأن عادة العرب الرخصة بمثل هذا الكلام، كقوله تعالى عند الرخصة للحر في نكاح الأمة ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٨] وليس هناك نسخ وإنما هو إطلاق نكاح الأمة لمن لا يستطيع نكاح الحرائر،

(١) زهرة التفاسير، (٢/ ٨٤٩)، ٨٥٠. وقول مجاهد المشار إليه أخرجه البخاري في الصحيح برقم (٤٢٥٧).

فكذا ههنا، وتحقيق القول إن هؤلاء العشرين كانوا في محل أن يقال إن ذلك الشرط حاصل فيهم، فكان ذلك التكليف لازماً عليهم، فلما بين الله أن ذلك الشرط غير حاصل فيهم، وأنه تعالى علم أن فيهم ضعفاء لا يقدرّون على ذلك فقد تخلصوا من ذلك الخوف، فصح أن يقال خفف الله، ومما يدل على عدم النسخ أنه تعالى ذكر هذه الآية مقارنةً للآية الأولى، وجعل النسخ مقارنةً للمنسخ لا يجوز^(١).

٦ - قوله تعالى: ﴿إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُلَ فَقَدِمْوا بَيْنَ يَدَيَّ بِمَوَدَّةٍ صَدَقَةٍ﴾ [المجادلة: ١٢].

قال أبو مسلم: إن المنافقين كانوا يمتنعون من بذل الصدقات، وإن قوماً من المنافقين تركوا النفاق وآمنوا ظاهراً وباطناً إيماناً حقيقياً فأراد الله تعالى أن يميزهم عن المنافقين فأمر بتقديم الصدقة على النجوى لتمييز هؤلاء الذين آمنوا إيماناً حقيقياً عمن بقي على نفاقه الأصلي، وإذا كان هذا التكليف لأجل هذه المصلحة المقدرة بذلك الوقت فلا جرم أن هذا التكليف بذلك الوقت، وحاصل قول أبي مسلم كما يقول الرازي: إن ذلك تكليف كان مقدراً بغاية مخصوصة، يعني التكليف بالصدقة قبل مناجاة النبي ﷺ كان له أمد لحدود وغاية مخصوصة، فوجب انتهاؤه عند الانتهاء إلى الغاية المخصوصة، فلا يكون هذا نسخاً^(٢).

هذا ما ذكره القائلون بعدم وجود نسخ في كتاب الله تعالى في توجيه الآيات... والذي نرجحه كما قلنا من قبل وجود نسخ في هذه الآيات القليلة، والله أعلم.

وكذلك الآيات التي ادعي نسخها بالسنة نجد بعد التحقيق أنها نسخت بالقرآن، وإذا أردت زيادة في البحث ولم تكف بما ذكرته لك فارجع إلى مناهل العرفان في علوم القرآن وكتب أصول الفقه وكتاب النسخ للدكتور مصطفى زيد، والله ولي التوفيق.

سادساً: نسخ القرآن بالسنة :

لا أود أن أفصل القول في هذه القضية كما وعدت من قبل، ولكنني أجمل وأوجز ما استطعت، فأقول وبالله التوفيق:

(١) انظر تفسير الرازي (١٩٥/٥).

(٢) تفسير الرازي، (٢٩/٢٣٧).

المثبتون للنسخ: لم يختلفوا في أن القرآن يُنسخ بالقرآن، وكذلك تُنسخ السنة بالسنة، والذي اختلفوا فيه نسخ القرآن بالسنة، فقد روي عن الشافعي: أن القرآن لا يُنسخ إلا بقرآن، وهي رواية عن أحمد، وخالف المالكية والحنفية، ولكل دليله وحجته.

أما حجة المانعين: فقد بينها الشافعي في رسالته وخلاصة القول فيها: أن الله تعالى يقول: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ [البقرة: ١٠٦] ويقول: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي ﴾ [يونس: ١٥].

قال الشافعي رحمه الله: فأخبر الله أن نسخ القرآن وتأخير إنزاله لا يكون إلا بقرآن مثله^(١).

قلت: ومثله قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي ﴾ فهذا خبر يُرجع النبي ﷺ فيه الأمر إلى الله وينفيه عن نفسه.

وقد ادعى الدكتور صبحي الصالح - رحمه الله رحمة واسعة - أن الذين نقلوا هذا القول عن الشافعي لم يفهموا ما جاء في رسالته، ولا إخال الأمر كما قال - رحمه الله - وهذه الرسالة قد بسط الشافعي فيها القول.

أما المجيزون: فحججتهم أن الكتاب والسنة كلاهما وحي. فحينما تنسخ السنة القرآن فإن الناسخ في الحقيقة هو الله تعالى، وأن الخيرية في قوله تعالى: ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴾ ليس المقصود منها أن السنة خير من القرآن، بل الخيرية من حيثيات أخرى، فهي خير من حيث التخفيف على الناس - أي: كون الناسخ أخف من المنسوخ - أو من حيث زيادة الأجر. على أننا إذا جاوزنا هذه الناحية النظرية إلى التطبيق العملي وجدنا أن كل ما ذكره من نسخ بعض الآيات بالسنة جدير بالمناقشة، حري بالتأمل، وعلى سبيل المثال فإن آية الوصية وهي قوله سبحانه: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا

(١) الرسالة للإمام الشافعي ص ١٠٨ تحقيق أحمد شاكر.

الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴿البقرة: ١٨٠﴾ التي قالوا فيها إنها نسخت بالسنة بقول النبي ﷺ: «ألا لا وصية لوارث»^(١).

فإننا بعد التأمل نجد أن هذه الآية تُسخت بآية الموارث ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١] بدليل ما جاء في الحديث نفسه «إن الله أعطى كل ذي حق حقه»^(٢) وهذا الإعطاء إنما عُرف من آية الموارث.

سابعاً: أقسام النسخ:

ليس من المبالغة وتضخيم القول، ولا أعدو الحقيقة إن قلت: إن هذا المبحث أعني أقسام النسخ هو أخطر مباحثه شأناً وأكثرها حاجة إلى التحقيق، وأولاها بالرعاية والعناية والفتنة؛ ذلك لأنه موضوع شديد الحساسية، كثير المنزلقات، وعر المسالك، وأرجو الله أن يُجَنِّبني الزلل وإياكم وأن يلهمنا الصواب.

قسموا النسخ أقساماً ثلاثة:

- ١- نسخ الحكم مع بقاء التلاوة.
- ٢- نسخ التلاوة مع بقاء الحكم.
- ٣- نسخهما معاً.

وتكاد كتب أصول الفقه والتفسير وعلوم القرآن وغيرها تُجمَعُ على هذا التقسيم. أما نسخ الحكم مع بقاء التلاوة: فهو الذي حدثتكم عنه من قبل، وأرجو أن يكون فيما حدثتكم غنية وكفاية.

وأما نسخ التلاوة مع بقاء الحكم: فقد مثّلوا له:

أولاً: بما جاء في بعض الأخبار^(٣) (خمس رضعات يحرم من).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) انظر صحيح مسلم كتاب الرضاع باب التحريم بخمس رضعات، شرح النووي (١٠ / ٢٩).

ثانياً: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) ^(١).

وأما نسخ التلاوة والحكم: فقد مثلوا له بهذا الأثر: (عشر رضعات معلومات يُحرّمُن) وهناك نصوص قيل: إنها كانت قرآناً فنسخ منها ما جاء في خبر شهداء بئر معونة الذين عُرفوا بالقراء رضي الله عنهم، ومنها ما روي من أنه لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى ثالثاً، ومنها غير هذا مما سنقف عليه إن شاء الله.

على أن تسمية ما جاء في شهداء بئر معونة وما بعده نسخاً لا يخلو من تجويز، فلقد عرفت من قبل أن النسخ هو رفع حكم شرعي، ومثل هذه الآثار - أعني ما ورد في شهداء بئر معونة، لو كان لابن آدم وما أشبهها - ليست أحكاماً شرعية، ثم إن مما يتصل بهذا المبحث ما ادّعي أنه كان قرآناً يُقرأ ثم نُسخ.

وسأحاول إن شاء الله ما استطعت أن أجمع لك هذه القضايا الخطيرة بما يُذهب الحرج ويُزيل اللجج، ولنبدأ:

أولاً: بما ادّعي نسخ حكمه وتلاوته وهو (عشر رضعات معلومات يُحرّمُن) ولما كان هذا متصلاً بما نُسخَت تلاوته وبقي حكمه في شأن الرضاع وهو (خمس رضعات معلومات يُحرّمُن) فلتتحدث عما يتصل بهذا الموضوع أعني موضوع الرضاع.

قال تعالى: في بيان المحرمات من النساء: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّيْلِ أَرْضَعْتَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرُّضَعَةِ﴾ [النساء: ٢٣]. والقرآن الكريم لم يُقيد الرضعات بعدد معين، ولكن جاء في السنة ما يبين هذا العدد ومن هذه الأحاديث «لا تحرم المصّة والمصتان» وفي رواية «ولا الإملاجة ولا الإملاجتان» ^(٢) وهو في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها.

(١) انظر ابن ماجة حدود باب الرجم حديث ٢٥٥٣ سنن ابن ماجة (٢/٨٥٣).

(٢) انظر شرح النووي على مسلم (١٠/٢٩).

وهناك رواية عن عائشة رواها الإمام مسلم وغيره من أصحاب السنن مع بعض الخلافات في هذه الروايات، قالت: «كان فيما نزل من القرآن (عشر رضعات معلومات يُحرّم من) ثم تُسخّن بخمس رضعات معلومات يُحرّم من، فتوفي النبي ﷺ وهن مما يُقرأ من القرآن»^(١).

وهذه الرواية رواها مع مسلم أبو داود والنسائي وفي رواية لمسلم: «ونزل في القرآن عشر رضعات معلومات ثم نزل أيضاً خمس معلومات» وفي رواية الترمذي «نزل في القرآن عشر رضعات معلومات فُسخ من ذلك خمس رضعات إلى خمس رضعات معلومات فتوفي رسول الله ﷺ والأمر على ذلك».

وفي رواية ابن ماجة «كان فيما أنزل الله عز وجل من القرآن ثم سقط: لا يُحرّم إلا عشر رضعات أو خمس معلومات» وأنت إذا تأملت هذه الروايات وجدتها مختلفة، فبعضها يبين أن العشر رضعات كانت أولاً ثم جاءت بعدها رواية الخمس، وبعضها وهي رواية ابن ماجة تبين أن العشر والخمس نزلتا معاً.

وبعض هذه الروايات تصف الخمس بالمعلومات، وبعضها ليس فيه هذا الوصف، ومن ناحية ثالثة تبين بعض الروايات أن هذا قد سقط من القرآن، ولكن بعضها جاء فيه أنه توفي الرسول ﷺ وهو ما يُقرأ من القرآن^(٢).

وقد يقال: إن هذه الخلافات لا تؤثر على هذه الروايات ويُعتمد منها أصحّها وهو ما جاء عند الإمام مسلم، ولكن هذا الجواب لا يُذهب ما يتصل بهذه الروايات من إشكالات، ولا يُذهب ما في النفوس من تساؤلات، فإذا كان هذا قرآنًا يقرؤه الناس فكيف يختلف الصحابة - رضوان الله عليهم - في عدد الرضعات المحرّمة، وهذا الخلاف استمر بعد الصحابة إلى التابعين ومن بعدهم؟!!

فالحنفية والمالكية: يرون أن قليل الرضاع وكثيره مُحَرَّمٌ، وذهب قوم إلى أن المحرّم ثلاث رضعات، والخمسة هي مذهب الشافعي وظاهر مذهب أحمد، فكيف يختلف

(١) أخرجه مسلم في الصحيح برقم ١٤٥٢ بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

(٢) في الرواية السابقة نفسها في حاشية (١).

الصحابة ومن بعدهم إذا كانت هناك آية من القرآن تحدد التحريم برضعات خمس، وهو نص ظاهر لا يحتمل تأويلاً آخر؟! ويقال بعد هذا: لم تأت هذه الرواية إلا عن عائشة رضي الله عنها، أكانت تقرأ هذه الآية وحدها؟ أم كان يقرأها الصحابة كذلك؟!

ثم إن عائشة روي عنها غير هذه الرواية كما عرفنا من قبل، ثم إذا كان النبي ﷺ قد انتقل إلى الرفيق الأعلى وهي مما يتلى من القرآن فلم تُكتب في القرآن الكريم؟!

هذه بعض التساؤلات على هذه الرواية، ومن الأمانة والإنصاف أن أذكر لك هنا ما قاله الأئمة.

قال الإمام النووي رحمه الله: إن النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله جداً، حتى إنه ﷺ توفي وبعض الناس يقرأ خمس رضعات ويجعلها قرآناً متلوّاً، لكونه لم يبلغه النسخ لقرب عهده، فلما بلغهم النسخ بعد ذلك رجعوا عن ذلك وأجمعوا على أن هذا لا يتلى^(١).

ويقول الحافظ ابن حجر - رحمه الله - : وقوى مذهب الجمهور - وهو أن مطلق الرضاع يحرم^(٢) - بأن الأخبار اختلفت في العدد، وعائشة التي روت ذلك قد اختلف عليها فيما يعتبر من ذلك، فوجب الرجوع إلى أقل ما ينطلق عليه الاسم، ويعضده من حيث النظر أنه معنى طارئ يقتضي تأييد التحريم، فلا يشترط فيه العدد... وأيضاً فقول عائشة: «عشر رضعات معلومات ثم نسخن بخمس معلومات فمات النبي ﷺ وهن مما يُقرأ» لا يتهض للاحتجاج على الأصح من قولي الأصوليين، لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، والراوي روى هذا على أنه قرآن لا خبر، فلم يثبت كونه قرآناً، ولا ذكر الراوي أنه خبر ليقبل قوله فيه، والله أعلم^(٣).

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٠ / ص ٢٩.

(٢) وهذا يدل على موضعية علمائنا وسيرهم مع الدليل دون تحيز أو تعصب فابن حجر - رحمه الله - كما نعلم شافعي ومذهب الشافعي التحريم بخمس، ولكن ابن حجر ذكر ما يقوي مذهب الجمهور.

(٣) فتح الباري، ج ١١ / ص ٥٠ كتاب النكاح.

وقال صاحب روح المعاني - رحمه الله - : ... والقول بأن ما ذكر إنما يلزم منه نسخ التلاوة فيجوز أن تكون التلاوة منسوخة مع بقاء الحكم - كالشيخ والشيخ إذا زنيا فارجهما - لست بشيء لأن ادعاء بقاء حكم الدال بعد نسخه يحتاج إلى دليل، وإلا فالأصل أن نسخ الدال يرفع حكمه، وما نظر به لولا ما علم بالسنة، والإجماع لم يثبت به^(١).

ويقول صاحب المنار - رحمه الله - بعد أن ذكر الروايات وآراء العلماء وبسط القول في ذلك بسطاً يرجع إليه من شاء لأن نقله يطول به الكتاب «.. الحق أنه لا يظهر لهذا النسخ حكمه، ولا يتفق مع ما ذكر من العلة، وإن ردّ هذه الرواية عن عائشة لأهون من قبولها مع عدم عمل جمهور من السلف والخلف بها كما علمت، فإن لم نعتمد روايتها فلنا أسوة بمثل البخاري وبمن قالوا باضطرابها خلافاً للنووي، وإن لم نعتمد معناها فلنا أسوة بمن ذكرنا من الصحابة التابعين ومن تبعهم في ذلك كالحنفية، وهي عند مسلم من رواية عمرة عن عائشة أوليس ردّ رواية عمرة وعدم الثقة بها أولى من القول بنزول شيء من القرآن لا تظهر له حكمة ولا فائدة ثم نسخه أو سقطه أو ضياعه، فإن عمرة زعمت أن عائشة كانت ترى أن الخمس لم تنسخ وإذا لا يعتد بروايتها»^(٢).

وبعد فتلك بعض الأقوال نقلتها لك على ما بينها من اختلاف، وأنا - يعلم الله - لست من عشاق ردّ أحاديث الصحيحين وما صح في غيرهما، لكن هناك مواقف لا يملك فيها الإنسان أن يظل أسير الرهبة، يقف عند أسوار القدسية وبخاصة عندما يتصل الأمر بكتاب الله تعالى أو بأصل من أصول الدين، ولا بُد أن نبين هنا أن للحديث جانبين اثنين. جانب المتن وجانب السند.

ولا يرتاب أحد في صحة السند، وقد يكون الخطأ متصلاً في المتن من بعض الرواة، والذي يبدو لي في هذا الحديث الذي روي عن السيدة عائشة - رضي الله عنها - أنه من قول النبي ﷺ وليس آية من القرآن الكريم، لأن القرآن إنما يثبت بالتواتر وهذا إجماع

(١) روح المعاني، ج ٤/ ص ٢٥٤ سورة النساء.

(٢) تفسير المنار: ج ٤، ص ٤٧٤، سورة النساء.

العلماء، وإنما اختلف الصحابة - رضوان الله عليهم - لأن الآية الكريمة جاءت مطلقة دون تقييد بعدد معين.

وقد صح عنه عليه السلام «لا تحرم المصبة والمصتان»^(١)، فلعل عائشة سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعلم - بداهة - أن كثيراً من الأحاديث لم يسمعها جميع الصحابة من النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وهذا كثير في السنة المطهرة، ولولا خشية التطويل لذكرت أمثلة كثيرة لهذا، وإنما ذهبت هذا المذهب؛ لأنه لا ينبغي عليه شيء من الإشكالات، وسنزيد هذا إيضاحاً فيما يلي إن شاء الله.

ثانياً: ما نسخت تلاوته وبقِيَ حكمه وقد ذكروا في ذلك موضعين:

الأول: خمس رضعات محرمات: وقد عرفت ما فيه.

الثاني: وهذا ما سأحدثك عنه إن شاء الله «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألَبَّةً».

لقد اشتهر هذا الخبر عند علماء أصول الفقه والكاتبين في علوم القرآن وغير أولئك وحاصله: أن هناك آية نزلت في كتاب الله «الشيخ والشيخة...»، وأنها نسخت، فهي مما نسخَ تلاوته وبقِيَ حكمه، وسأحاول إن شاء الله أن أجمع لك أطراف هذه المسألة رواية ودراية موجزاً ما أمكنني الإيجاز.

روايات الرجم:

قال البخاري - رحمه الله - [باب رجم المخصن] وذكر بسنده إلى علي عليه السلام قال علي: «حين رجم المرأة يوم الجمعة وقال: قد رجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم».

ثم ذكر البخاري: حديث عمر عن ابن عباس - رضي الله عنهما - «قال عمر: لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل: لا نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن إذا قامت البينة»^(٢).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع رقم (١٤٥٠)، وأبو داود في النكاح رقم (٢٠٦٣)، والترمذي في الرضاع رقم (١١٥٠)، والنسائي في النكاح (١٠١/٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الحدود باب الاعتراف بالزنى رقم ٦٨٢٩، انظر فتح الباري (١٣٧/١٢).

وفي رواية عند البخاري عن ابن عباس أيضاً قال عمر: «إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرّجم فقرأناها وعقلناها ووعيناها. رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرّجم في كتاب الله، فيضلّوا بترك فريضة أنزلها الله. والرّجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة»^(١).

وعند النسائي في السنن الكبرى: «قال زيد بن ثابت - وكانوا عند مروان - : كنا نقرأ الشيخ والشيخة فارجموها ألبتة، فقال مروان: لا تجعله في المصحف. قال: فقال: ألا ترى أن الشابين الثيبين يُرجمان ذكرنا ذلك وفينا عمر، فقال: أنا أشفيكم. قلنا: وكيف ذلك؟ قال: أذهب إلى رسول الله ﷺ إن شاء الله، فاذكروا كذا وكذا، فإذا ذكر آية الرّجم فأقول: يا رسول الله أكتبني آية الرّجم. قال: فأتاه فذكر ذلك له، فذكر آية الرّجم، فقال: يا رسول الله أكتبني آية الرّجم قال: لا أستطيع»^(٢).

وعند النسائي أيضاً: أخبرنا محمد بن منصور المكي قال: حدثنا سفيان عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: سمعت عمر يقول: قد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل: ما نجد الرّجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، ألا وإن الرّجم حق على من زنى إذا أحصن وكانت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف وقد قرأنا: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجمهما ألبتة، وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده.

قال أبو عبد الرحمن، أي: الإمام النسائي - : لا أعلم أحداً ذكر في هذا الحديث الشيخ والشيخة غير سفيان، وينبغي أنه وهم، والله أعلم^(٣).

وعند النسائي أيضاً: قال زيد بن ثابت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة»^(٤).

(١) أخرجه البخاري في الصحيح برقم ٦٤٤٢.

(٢) السنن الكبرى للنسائي، ج ٤ / ص ٢٧١.

(٣) السنن الكبرى للنسائي، ج ٤ / ص ٢٧٣.

(٤) السنن الكبرى للنسائي، ج ٤ / ص ٢٧٠.

وفي الموطأ: قال عمر رضي الله عنه ... إياكم أن تهلكوا عن آية الرّجم. أن يقول قائل: لا نجد حدّين في كتاب الله. فقد رجم رسول الله صلى الله عليه وآله ورجمنا، والذي نفسي بيده، لولا أن يقول الناس: زاد عمر بن الخطاب في كتاب الله تعالى لكتبها (الشيخ والشيخة فارجعوهما ألّبتة) فإننا قد قرأناها^(١).

وروى محدّوثه بسند عن الحسن أن عمر قال: هممت أن أدعو بنفر من المهاجرين والأنصار معروفة أسماؤهم وأنسابهم وأكتب شهادتهم في ناحية المصحف - أي في حاشيته - هذا ما شهد عليه عمر بن الخطاب وعلان وفلان يشهدون أن رسول الله صلى الله عليه وآله رجم في الزنى، وإني خفت أن يجيء قوم من بعد يرون أن لا يجدونها في كتاب الله فيكفرون بها^(٢).

وأخرج النسائي عن أبي بن كعب قال: كم تعدون سورة الأحزاب آية؟ قلنا: ثلاثاً وسبعين، فقال أبي: كانت لتعدل سورة البقرة، ولقد كان فيها آية الرّجم (الشيخ والشيخة...) ^(٣).

وأكتفي بهذه الروايات ومن مجموعها تؤخذ الحقائق التالية:

أولاً: أن الإمام البخاري ذكر أول حديث في هذا الباب عن عليّ «رجمتها بسنة رسول الله».

ثانياً: أن الإمام البخاري - رحمه الله - لم يذكر في صحيحه أن الشيخ والشيخة آية من كتاب الله، وإن عدم ذكره لها ناتج عن عدم اعتقاده صحتها. قال ابن حجر: ولعلّ البخاري هو الذي حذف ذلك عمداً^(٤). ويعني - الشيخ والشيخة - .

(١) الموطأ للإمام مالك، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (ج ٢/ ص ٨٢٤).

(٢) المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبه، ص ٣٠٥. وهذا الأثر أورده السيوطي في جامع الأحاديث برقم (٣١٢٢) في (٣١٩/٢٨) وهو في كنز العمال (٦٤٥/٥) برقم (١٣٥٢٤) وفي كليهما عزوه لابن جرير ولم أجد أين هو.

(٣) السنن الكبرى للنسائي، (ج ٤/ ٢٧١).

(٤) فتح الباري، (ج ١٥/ ص ١٥٥).

ثالثاً: ما تقدّم لنا عن النسائي عن زيد رضي الله عنه قال: (سمعت من رسول الله ﷺ).

رابعاً: اختلاف الروايات عن عمر رضي الله عنه فمع أنها كلها تثبت الرّجم ولكنها مختلفة فيما وراء ذلك. فعند النسائي يطلب عمر من الرسول ﷺ كتابة الآية، ولكن الرسول يأبى ويُبين عمر: أنها لم تُكتب لأن الشيخ إن كان غير مُحَصَّن لا يُرجم، وإن الشاب إن كان مُحَصَّناً رُجم.

خامساً: جاء عن عمر في رواية الموطأ قوله: لولا أن يقول الناس: زاد عمر في كتاب الله... وهذا يثبت بها لا مجال فيه لمرتاب أنها ليست آية؛ لأنه ﷺ لا يخشى في الله لومة لائم فلو كانت من كتاب الله لكتبها، ويبين قوله هذا: لولا أن يقول الناس: زاد عمر، والزيادة على الشيء ليست منه.

سادساً: يُقَوِّي هذا ما أخرجه ابن حَمْدَوِيه عن عمر أنه أراد أن يكتبها في حاشية المصحف. - إذا كانت قرآناً فَلِمَ تكتبُ في الحاشية -.

سابعاً: لقد كانت عناية عمر بهذه القضية خشية أن يُضَيِّعَ الناس هذا الحكم - وهو الرّجم - ولذلك كان يؤكد شرعية هذا الحكم، وهو أنه مما أنزله الله وهو في كتاب الله. وهذا لا يلزم منه أن يكون آية من القرآن الكريم، فالسنة أنزلها الله، وكتاب الله يشمل ما افترضه الله على عباده، ومنه ما جاء في السنة المطهرة.

ثامناً: إن الرواية التي صرحت بكون هذه آية من القرآن - الرواية التي أخرجها النسائي عن أبي - وهي رواية مُجْمَعٌ على تضعيفها فهي عن عاصم، وقد ضعفه العلماء في الرواية، ثم إن فيها محظوراً آخرَ سيأتيك نبأه فيما بعد، وهو أن سورة الأحزاب تعدل سورة البقرة. وقد أخرج هذه الرواية أبو عبيد، وعنه نقلها كثيرون في كتبهم، وأبو عبيد - رحمه الله - كما نعلم، يذكر في كتابه فضائل القرآن كثيراً من الغرائب.

تاسعاً: لقد أحسن النسائي - رحمه الله - صنعا حينما قال: لا أعلم أحداً ذكر في هذا الحديث (الشيخ والشيخة) غيرَ سفيان وينبغي أنه وَهَمَ.

من هذا كُلُّه ندرك موقنين أن القول بأن الشيخ والشيخة آية ليس فيه رواية صحيحة يستند إليها ويُعتمد عليها.

بقي أن ندرس هذه القضية من جانب آخر يتصل بمعناها. فنقول وبالله التوفيق:
ألفاظ القرآن الكريم ألفاظ مختارة متقاة. ومعانيه صحيحة محكمة، والشيخ والشيخة
ليست فيها هذا ولا ذاك.

وإليكم ما يلي:

أولاً: حينما تحدّث القرآن الكريم عن حكم السرقة قال: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾
[المائدة: ٣٨] وحينما تحدّث عن حكم الزنى قال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ [النور: ٢] فبدأ بالرجال في
أمر السرقة وبالنساء في أمر الزنى، وفي الشيخ والشيخة غير هذا. (عكس آية النور).

ثانياً: إن القرآن الكريم لم تستعمل فيه كلمة الشيخة ألبتة، والمستعمل فيه كلمة
عجوز قال تعالى: ﴿ءَالُذِّ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢].

ثالثاً: إن القرآن الكريم وهو كتاب الدقة والإحكام لم تستعمل فيه كلمة (إذا) في
الأمر النادرة الوقوع، بل تستعمل كلمة (إن) ألا ترى قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ
رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩]. فقد
ذكر (إذا) مع الأمن، وهذا ما يجب أن يكون عليه المؤمنون، وذكر (إن) مع الخوف، وهذا
لا ينبغي لهم، وانظر إلى قوله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا...﴾ [الحجرات: ٩]، وإلى
قوله: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ...﴾ [المتحنة: ١٠]، وقوله فيما بعد: ﴿وَإِنْ
فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ...﴾ [المتحنة: ١١]. فذكر (إذا) في قضية يكثر وقوعها،
وذكر (إن) في أمر نادر وهو ارتداد المؤمنات عن دينهن. هذا كله من حيث اختيار الألفاظ.

أما من حيث صحة المعنى ودقته فلقد سمعت ما قيل فيه من قبل فقد حُكِمَ على
الشيخ والشيخة بالرجم، وقد يكونان غير مُحَصَّنِينَ فلم يُرْجَمان؟ وقد يكون الشاب
والشابة مُحَصَّنِينَ. الأمر إذن لا يتصل بالسن وبالكبر وبالصغر، وإنما الإحصان أو عدمه
وهذا هو التعبير القرآني ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٢٤] ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ﴾
[النساء: ٢٥] فالقرآن الكريم لم يجعل لكبر السن وصغره دخلاً في هذا الأمر، بل السنة

المطهرة كذلك ألا ترى إلى قوله ﷺ: «لا يَحِلُّ دُمُّ امرئ مسلم إلا بثلاث: إحداها: زنى بعد إحصان...»^(١).

ويطيب لي أن أنقل لك هنا ما ذكره العلامة الكمال بن الهمام ونقله عنه الألويسي - رحمهما الله - قال - رحمه الله - : يكفينا في تعيين الناسخ، القطع برجم النبي ﷺ فيكون من نسخ الكتاب بالسنة القطعية، وهو أولى من ادعاء كون الناسخ الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألَبَتَ لعدم القطع بثبوت كونها قرآنًا، ثم انتساخ تلاوتها وإن ذكرها عمر وسكت الناس، فإن كون الإجماع السكوتي حجة، مُحْتَلَفٌ فيه، وبتقدير حُجِّيته لا يُقْطَعُ بأن جميع المجتهدين من الصحابة كانوا آن ذاك حضوراً، ثم لا شك أن الطريق في ذلك إلى عمر ظني.

ولهذا والله أعلم قال علي رضي الله عنه: إن الرجم سنة سنّها رسول الله ﷺ وقال: جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ، ولم يُنسبْه إلى القرآن المنسوخ التلاوة. وعُرف من قوله ذلك: أنه قائل بعدم نسخ عموم الآية، فيكون رأيه أن الرجم حكم زائد في حق المُخْصَن ثبوت بالسنة، وهو قول قيل به ويستدل له بقوله ﷺ: «الْثِّبُ جُلْدُ مائة وَرَجْمٌ بالحجارة»^(٢) انتهى.

فما تقدم نوقن أن هذا الذي نسبوه للقرآن بعيد عن أنوار التنزيل وإحكام الترتيل، وأرجو أن يكون فيما قدمته لك ما يُقْنِعُكَ وَيُمْتِعُكَ، والله يتولاني وإياك برعايته.

أقوال أخر ادّعي أنها قرآن:

وقبل أن تُنهي هذا المبحث، يجب أن نعرض إلى ما ادّعي أنه كان قرآنًا ثم نسخ. من ذلك ما جاء في شهداء بئر معونة وهم القراء (إنا لقينا ربنا ورضي عنا وأرضانا) ومن ذلك

(١) أخرجه أحمد في مسنده، (٦٢/١) و٧٠. وأبو داود، (٤٥٠٢). والترمذي، (٢١٥٨). والنسائي

(٧/٩١). والحاكم، (٣٥٠/٤)، وصححه على شرط الشيخين.

(٢) شرح فتح القدير، الكمال بن الهمام، ج ٤/ص ١٢٥.

(لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى ثالثاً وما ملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب) ^(١).

وبإدعى بدء: أقرر أن في مثل هذه الأقوال إشكالات خطيرة يتسلل منها أولئك الذين يريدون أن يصدوا عن سبيل الله ويبغونها عوجاً، وأقرر ثانياً قضية بدهية أن القرآن الكريم لا يثبت إلا بالتواتر.

أولاً: بينت من قبل أن إطلاق النسخ على مثل هذا إنما هو من قبيل التجوُّز؛ لأن النسخ في الأحكام. ومثل هذه ليست من الأحكام.

أما ما ورد في شهاداء بئر معونة، فإن من أول الإشكالات التي تجابه أن رواياته جميعها موقوفة على أنس رضي الله عنه فليس فيها رواية مرفوعة إلى الرسول ﷺ.

ويقيني أن هذه وحدها تكفي للتشكيك في هذه الروايات فكيف إذا انضم إليها ما يدعو إلى التشكيك بل الرد.

ثانياً: إن هذه الروايات ليست متفقة في نص واحد فإن بينها تخالفاً يدرُّكه كلُّ من قرأ هذه الروايات.

ثالثاً: لا يقتصر الخلاف بين هذه الروايات على اختلاف الألفاظ فليس هو اختلافاً من حيث الشكل فحسب بل إن هذا الاختلاف من حيث المضمون والموضوع.

فعلى حين تُصرَّح بعض الروايات: بأن الذي نزل كان قرآناً نجد روايات أخرى لا تُسمِّيه قرآنًا بل تُسمِّيه وحياً. وهناك روايات تبتعد عن كلِّ هذا وتُسندُه إلى الرسول ﷺ فهي مُصرَّحة أنه حديث نبوي.

واليكُم طَرَفًا من هذه الروايات:

(١) أخرجه ابن حبان في الصحيح برقم ٣٢٣٧، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح على شرط مسلم وهو في مسند أحمد برقم ١٩٢٩٩، وقال الشيخ شعيب إسناده صحيح رجاله ثقات.

أولاً: رواية قتادة عن أنس «.. قال أنس: فقرأنا فيهم قرآنًا، ثم إن ذلك رُفع (بَلَّغُوا) عنا قومنا أَنَّا لقينا ربنا فرضيَ عنا وأرضانا»^(١).

ثانياً: رواية أخرى عن أنس من طريق إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة... فأنزل الله علينا، ثم كان من المنسوخ (إِنَّا قد لقينا ربنا فرضيَ عنا وأرضانا)^(٢).

ثالثاً: رواية أخرى عن أنس من طريق إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة - أيضاً -... قال أنس: فأنزل الله تعالى لنبيه في الذين قتلوا أصحاب بئر معونة قرآنًا قرأناه حتى نُسخ بعد (بَلَّغُوا قومنا، فقد لقينا ربنا فرضيَ عنا ورضينا عنه)^(٣).

وإذا تركنا هذه الروايات الموقوفة على أنس ﷺ والتي يُصرِّح بعضها أن الذي نزل كان قرآنًا أقول: إذا تركنا هذه الروايات إلى رواية أخرى وهي رواية السيدة عائشة رضي الله عنها وجَدْنَا ما تنجلي به الحقيقة ويطمئن له القلب.

روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها... وكان خبر قتل رجال السرية قد بلغ إلى النبي ﷺ بإخبار جبريل عليه السلام، فنعاهم النبي ﷺ إلى أصحابه فقال: «إن أصحابكم قد أصيبوا، وإنهم سألوا ربهم، فقالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا» فأخبرهم عنهم^(٤).

وهذه الرواية كما نرى مُقدِّمة بما لا يقبلُ رُيباً بأن هذا كلامُ سيدنا رسول الله ﷺ. ومن أجلِ هذا الاختلاف بين هذه الروايات ولأسباب ستعرفها فيما بعد، يجب أن تستبعد قضية القرآنية التي ادَّعيت.

يقول صاحب المنار - رحمه الله - : «بئر معونة موضع بين الحرمين قيل هُدَّيْل، وقيل لسليم، وهناك اغتيل جماعة من الصحابة أكثرهم قراء، فحزن النبي ﷺ وأصحابه عليهم».

(١) أخرجه البخاري في الصحيح برقم ٢٨٩٩، وجاء في هذه الرواية بعد ذلك: ثم رفع بعد ذلك.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح برقم ٣٨٦٤.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح برقم ٣٨٦٩.

(٤) رواه البخاري برقم ٣٨٦٧.

وروى مسلم وغيره أنه نزل فيهم وحيٌ منه حكاية عنهم «بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه»^(١) وليس كلٌ وحي قرآنًا، فإن للقرآن أحكاماً ومزايا مخصوصة.

وقد ورد في السنة كثير من الأحكام مسندة إلى الوحي ولم يكن النبي ﷺ ولا أصحابه يعدونها قرآنًا، بل جميع ما قاله ﷺ على أنه دين فهو وحي عند الجمهور، واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤] وأظهره الأحاديث القدسية. ومن لم يفقه هذه التفرقة من العلماء وقعت لهم أوهام في بعض الأحاديث رواية ودراية وزعموا أنها كانت قرآنًا ونسخت^(٢).

وما قيل عن الروايات يُقال عما يشبهها مما زُعم أنه قرآن ومن ذلك: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب...» إن هذه الروايات تحمل في طياتها بطلان قرآنتها فهي غير متواترة أولاً ثم إنها بعيدة عن هذه الشفافية والإشراقات والنفحات التي كانت سر إعجاز الكتاب الخالد. وإن شيئاً من المقارنة بينها وبين آي القرآن الحكيم يجعل المتدبر على يقين من أن للقرآن الكريم قدسيته وتأثيره في النفوس الذي لا نجد له أثراً في مثل هذه المرويات، وهذا ما أدركه السهيلي - رحمه الله - فقال: إن هذا ليس عليه رونق الإعجاز^(٣).

وقد ذكر شيخنا محمد الصادق عرجون - رحمه الله - تحليلاً رائعاً وازن فيه بين هذه الروايات وبين ما جاء في كتاب الله عز وجل في الموضوع نفسه فأجاد وأفاد - رحمه الله -^(٤).

هل ينسى القرآن بعد نزوله،

بقيت قضية وثيقة الصلة بما نتحدث عنه وأعني بها قضية نسيان شيء من القرآن بعد تبليغه وتلاوته.

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين رقم ٢٩٧.

(٢) تفسير المنار، ج ١/ ص ٤١٤.

(٣) الروض الأنف، (٣/ ٢٣٩) طبع دار الفكر.

(٤) راجع كتاب محمد رسول الله، محمد صادق عرجون، ج ٤/ ص ٦٥-١٣١.

وقد وردت في ذلك آثار مختلفة الأسانيد، ولكنها كُلُّها لا تخلو من غرابة ولا تخلو من مناقشة، وما استدلوا به من قوله سبحانه: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنسَى﴾ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴿[الأعلى: ٦-٧] لا يُعين هذه الروايات على أن تتبوأ مكانها في قلوب المؤمنين. فمعنى الآية الكريمة نفي النسيان عنه ﷺ وتأكيده لعدمه. فقلوه ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ تأكيد لتثبيت القرآن في قلبه ﷺ؛ لأن الله تبارك وتعالى أوحى إليه هذا القرآن لِيُبَلِّغَهُ، وشاء ربنا سبحانه وتعالى أن لا ينسى نبيه شيئاً. والنسيان الجائز في حقه ﷺ هو الذي يكون بحسب الطبع والجبلَّة كما جاء ذلك في الأحاديث الصحيحة من أنه ﷺ نسي آية في الصلاة فذكره بها بعض الصحابة عند قراءته لها^(١).

قال صاحب التحرير - رحمه الله - : ومما يقف منه الشعر ولا ينبغي أن يوجه إليه النظر ما قاله بعض المفسرين في قوله: ﴿نُنْسِيهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] أنه إن شاء الله تعالى المسلمين للآية أو للسورة، أي: إذهابها عن قلوبهم أو إنساؤه النبي ﷺ إياها فيكون نسيان الناس كلهم لها في وقت واحد دليلاً على النسخ، واستدلوا لذلك بحديث أخرجه الطبراني بسنده إلى ابن عمر، قال: قرأ رجلان سورة أقرأهما إياها رسول الله ﷺ فقاما ذات ليلة يُصليان فلم يقدرا منها على حرف فغديا على رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له فقال لهما: «إنها مما نسخ وأنسي فاهلوا عنها».

قال ابن كثير: هذا الحديث في سنده سليمان بن أرقم وهو ضعيف، وقال ابن عطية: هذا حديث منكر أغرب به الطبراني، وكيف خَفِيَ مثله على أئمة الحديث.

والصحيح أن نسيان النبي ﷺ ما أراد الله نسخه ولم يُرد أن يثبته قرآنًا جائز، لكنه لم يقع، فأما النسيان الذي هو آفة في البشر فالنبي ﷺ معصوم عنه قبل التبليغ، وأما بعد التبليغ وحفظ المسلمين له فجائز، وقد روي أنه أسقط آية من سورة في الصلاة فلما فرغ قال لأبي: «لَمْ تَذَكِّرْنِي؟» قال: حسبت أنها رُفِعَتْ، قال: «لا، ولكنني نسيتها».

(١) انظر البخاري كتاب الشهادات حديث رقم (٢٦٥٥)، فتح الباري (٥/٢٦٤).

والحق عندي أن النسيان العارض الذي يتذكر بعده جائز، ولا تحمل عليه الآية لمنافاته لظاهر قوله: ﴿ثَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] وأما النسيان المستمر للقرآن فأحسب أنه لا يجوز. وقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ دليل عليه، وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ هو من باب التوسعة في الوعد.

وأما ما ورد في صحيح مسلم عن أنس قال: كنا نقرأ سورة نسيها في الطول براءة فأنسيتها غير أني حفظت منها (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثاً وما يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب) فهو غريب^(١).

ولا أدري كيف يجمع المرء بين هذه الروايات وبين ما جاء في القرآن الكريم: إنه أحكمت آياته ومن كونه قرآناً مجيداً في لوح محفوظ، ومن أنه هدى ورحمة وموعظة وشفاء إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تُبين حفظ القرآن وبقائه وخلوده، ثم إن هذه النصوص التي تُسييها الناس كما يُدعى أهي قرآن أم شيء آخر؟ فإن لم تكن قرآناً فقد كُفينا المؤونة، وإن كانت قرآناً فإن ذلك يتعارض بل يتناقض مع ما جاء في القرآن الكريم مما سمعت من قبل.

وهنا يبرز تساؤل لا بُد منه، كيف تردُّ هذه الروايات وقد جاءت في صحيح المسانيد وصحاح الكتب؟ وكنت قد أجبت عن هذا التساؤل من قبل، وأنقل هنا ما قاله شيخنا محمد الصادق عرجون - رحمه الله - : ومؤلفو هذه الكتب براء من جريرة هذه الروايات الباطلة بهذه الأسانيد المركبة، وهذا ما يوجب على أهل العلم وحماة السنة مراجعة هذه الكتب الرفيعة في أسانيدھا ومتونها، حماية لأصول الإسلام وتنقيتها مما أدخل عليها في عصور الاهتمام بالعالی والنازل، وكثر ما يحفظ فلان ويروي فلان، مما فتح باب الأباطيل المزورة والأكاذيب المدخولة، التي نُخلع عليها طول مرور زمن الجهالة في عصور الجُمود

(١) التحرير والتنوير، ج ١/ ص ٦٦٢. والحديث المشار إليه هو في البخاري برقم ٦٠٧٢، وفي مسلم برقم ٢٤٦٢.

الفكري شيئاً من فراسة، وروايات هذه الكتب التي تغلب عليه الصحة، والتي قام على تأليفها أعلام من الثقات يوم أن كان أصحابها أعلم أهل زمانهم بما يروون فيها^(١).

وأختم هذا المبحث بدعوة ذوي الشأن من العلماء أن يولوا هذه القضية وأمثالها ما تستحق من عناية، وأن يعدوا طلابهم الإعداد العلمي الناضج ليقفوا سداً، ولا يستطيع الحاقدون من الأعداء والأدعياء أن يظهره أو يستطيعوا له نقباً، ولعلي ألتقي معك أخي القارئ في الفصل الأخير من هذا الكتاب لأفصل في مثل هذه الموضوعات فالأمر جدٌ خطير ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ (١٣) وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٣-١٥].

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(١) محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون، ج ٤، ص ٧١.

الْفَضْلُ السَّالِسُ عَشْرُونَ

الأحرف السبعة

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

إن من أعظم موضوعات علوم القرآن، وأكثرها أهمية وأعظمها شأنًا وخطرًا، الحديث عن الأحرف السبعة، وعن القراءات القرآنية، وهو موضوع شائك كما هو معلوم، رأى فيه الخصوم من المستشرقين ومن تلاميذهم من مرضى القلوب، أو ممن ضحلت ثقافتهم أكثر من نافذة للدخول إلى حى القرآن، ذلكم الحمى الصعب على العابثين. ثم إن الأئمة من علماء القراءات وغيرهم، كانت لهم أنظار مختلفة في قضايا الأحرف السبعة والقراءات، ولقد تبعت ما استطعت كثيرًا من هذه الآراء وتلك الشبهات في القديم والحديث، راجيًا أن يكون قد كُشِفَ اللثام، وفُتِّقَتِ الأكمام وتواری الركام، وأعترف بأنني مدين لذوي الفضل من المشايخ الذين أفدت من علمهم وكتبهم وتوجيهاتهم.

وهذان الموضوعان وإن كان أحدهما وثيق الصلة بالآخر؛ فلقد درج العلماء على جعلهما في مبحثين اثنين، ولن نخرج نحن عن هذا المسلك إن شاء الله.

وبادي بدء تجدر الإشارة إلى أن الروايات في الأحرف السبعة، روايات كثيرة مبسوبة في كتب السنة منها الصحيح، وقد يكون فيها غير الصحيح كذلك. وسنقفك على هذه الروايات إن شاء الله.

كذلك الأقوال في معنى هذه الأحرف كثيرة، منها المقبول ومنها غير المقبول، وسنقتصر على ذكر بعض الروايات في الأحرف السبعة، كما سنقتصر على أصح الأقوال التي قيلت في معانيها.

أولاً: الروايات في الأحرف السبعة:

١- روى الإمام البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «أقراني جبريل على حرف، فراجعت، فلم أزل أستزيد ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»^(١).

وزاد مسلم: قال ابن شهاب^(٢): بلغني أن تلك السبعة أحرف إنها هي في الأمر الذي يكون واحداً، لا يختلف في حلال ولا حرام.

٢- وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:

سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان، في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة، لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فانتظرت حتى سلم، ثم لببته بردائه فقلت:

من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، قلت له: كذبت، فوالله إن رسول الله ﷺ أقراني هذه السورة التي سمعتك تقرأها، فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، وأنت أقرأتني سورة الفرقان، فقال رسول الله ﷺ: «أرسله يا عمر. اقرأ يا هشام»، فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرأها.

قال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت»، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقروا ما تيسر منه»^(٣).

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، فضائل القرآن. باب أنزل القرآن على سبعة أحرف (١٩٠٩/٤) حديث رقم ٤٧٠٥، وفي كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة (١١٧٧/٣) حديث ٣٠٤٧، ومسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف (٥٦١/١)، حديث ٢٧٢٢، ورواه أحمد في مسنده (٢٦٣/١).

(٢) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب، أبو بكر الزهري، أول من دَوَّن الحديث تدويناً موسوعياً. وأحد الفقهاء الأعلام التابعين بالمدينة، توفي عام ١٢٤هـ.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: فضائل القرآن، أنزل القرآن على سبعة أحرف (١٩٠٩/٤) ح ٤٧٠٦ وباب: من لم ير بأساً أن يقول سورة البقرة، وسورة كذا وكذا (١٩٢٣/٤) ح ٤٧٥٤، =

٣- روى مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كنت في المسجد، فدخل رجل يصلي، فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر، فقرأ قراءة سوى قراءه صاحبه، فلما قضينا الصلاة، دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ، فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله ﷺ فقرأ، فحسن النبي ﷺ شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري، ففضت عرقاً، وكأنها أنظر إلى الله عز وجل فقرأ، فقال لي: «يا أبي أرسِل إليّ أن أقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه: أن هون على أمتي، فرد إليّ الثانية: أن أقرأه على حرفين، فرددت إليه: أن هون على أمتي، فرد إليّ الثالثة: أقرأه على سبعة أحرف، فلك بكل ردة ردّتكها مسألة تسألنيها، فقلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إليّ الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام» ^(١).

٤- روى مسلم وأبو داود والنسائي واللفظ لمسلم عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ كان عند أضاة بني غفار ^(٢)، فأثاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف، فقال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك»، ثم أثاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين، فقال: «أسأل الله معافاته

= والخصومات، كلام الخصوم بعضهم في بعض (٢/ ٨٥١)، استتابة المرتدين والمعاندين، ما جاء في التأويل (٦/ ٢٥٤١) ح ٦٥٣٧، التوحيد، قول الله تعالى: (فأقرؤوا ما تيسر منه) (٦/ ٦٧٤٤) ح ٧١١١.

ومسلم في صحيحه: صلاة المسافرين، بيان أن القرآن على سبعة أحرف (١/ ٥٦٠) ح ٢٧٠. وأبو داود في سننه: الصلاة، أنزل القرآن على سبعة أحرف ١٥٨/ ٢ ح ١٤٧٥.

والترمذي في سننه: القراءات، ما جاء أنزل القرآن على سبعة أحرف (٥/ ١٩٣) ح ٢٩٤٣. وأحمد في مسنده: (١/ ٢٤، ٤٠، ٤٢، ٢٦٤). والطبري في تفسيره: (١/ ١٣)، وبتحقيق أحمد شاکر (١/ ٢٤) ح ١٠.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: صلاة المسافرين، بيان أن القرآن على سبعة أحرف (١/ ٥٦١) ح ٢٧٣. وأحمد في مسنده: (٥/ ١٢٧). والطبري في تفسيره: (١/ ١٦)، وبتحقيق أحمد شاکر (١/ ٣٦) ح ٣٠.

(٢) أضاة بني غفار: هي بفتح الهمزة وبضاد معجمة مقصورة، وهي الماء المستنقع كالغدير وجمعها أضا. كحصاة وحصا. انظر صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ١٠٤).

ومغفرته، وإن أمّتي لا تطيق ذلك»، ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف، فقال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمّتي لا تطيق ذلك»، ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف، فأبى حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا^(١).

٥- روى أحمد في مسنده عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: لقي رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام عند أحجار المراء، فقال رسول الله ﷺ لجبريل: «إني بعثت إلى أمة أميين، فيهم الشيخ العاسي، والعجوز الكبيرة، والغلام»، قال: فمرهم فليقرؤوا القرآن على سبعة أحرف^(٢).

وفي رواية الترمذي: «إني بعثت إلى أمة أميين: منهم العجوز، والشيخ الكبير، والغلام، والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط»، قال: يا محمد، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف.

٦- روى النسائي في سننه عن أبي بن كعب رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إن جبريل وميكائيل عليهما السلام أتياي، فقعد جبريل عن يميني، وميكائيل عن يساري، فقال: اقرأ القرآن على حرف واحد، وقال ميكائيل: استرده حتى بلغ سبعة أحرف، وكل شاف كاف»^(٣).

وفي رواية لأبي بكرة «فنظرت إلى ميكائيل فسكت، فعلمت أنه قد انتهت العدة».

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: صلاة المسافرين، بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، (١/٥٦٢) ح ٢٧٤، وأبو داود في سننه: الصلاة، أنزل القرآن على سبعة أحرف (٢/١٦٠) ح ١٤٧٨، والنسائي في سننه: الافتتاح، جامع ما جاء في القرآن (٢/١٥٢) ح ٩٣٩. وأبو داود الطيالسي في مسنده: ٧٦ ح ٥٥٨، والطبري في تفسيره (١/١٧)، وبتحقيق أحمد شاكر ٤٠/١ ح ٣٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٣٢)، والترمذي في سننه: القراءات، ما جاء أنزل القرآن على سبعة أحرف (٥/١٩٤) ح ٢٩٤٤، والطبري في تفسيره (١/١٦)، وبتحقيق أحمد شاكر (١/٣٥) ح ٢٩، وهذا إسناد صحيح.

(٣) أخرجه النسائي في سننه: الافتتاح، جامع ما جاء في القرآن (٢/١٥٤) ح ٤٩١ والطبري في تفسيره (١/١٤) وبتحقيق أحمد شاكر (١/٣٠) ح ٢١، ٢٥.

هذه بعض الأحاديث الواردة في هذا الموضوع، وقد روي حديث نزول القرآن على سبعة أحرف من طرق عدة في الصحاح وفي كتب السنن، ومصنف ابن أبي شيبة، ومسند أحمد، ومستدرك الحاكم، وعند الطبري والطبراني وغيرهم.

قال السيوطي رحمه الله: «ورد حديث «نزل القرآن على سبعة أحرف» من رواية جمع من الصحابة: أبي بن كعب، وأنس، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن أرقم، وسمرة بن جندب، وسليمان بن صرد، وابن عباس، وابن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وعمر بن الخطاب، وعمر بن أبي سلمة، وعمر بن العاص، ومعاذ بن جبل، وهشام بن حكيم، وأبي بكر، وأبي جهيم، وأبي سعيد الخدري، وأبي طلحة الأنصاري، وأبي هريرة، وأم أيوب، فهؤلاء واحد وعشرون صحابياً^(١). وقد أغفل السيوطي: عبادة ابن الصامت، وعبد الله بن عمر، فصار الإحصاء ثلاثة وعشرين^(٢).

وقال ابن الجزري: «وقد نص الإمام الكبير أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله على أن هذا الحديث تواتر عن النبي ﷺ. قلت: «وقد تتبعت طرق هذا الحديث في جزء مفرد جمعته في ذلك» ثم عد من روى هذا الحديث من الصحابة رضي الله عنهم. وقال: وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده الكبير أن عثمان رضي الله عنه قال يوماً وهو على المنبر: أذكّر الله رجلاً سمع النبي ﷺ قال: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ لما قام، فقاموا حتى لم يُحصوا، فشهدوا أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ» فقال عثمان رضي الله عنه: وأنا أشهد معهم^(٣).

فالروايات تدل على تواتر هذا الحديث، إذ شهد ذلك الجمع الكثير الذي يؤمن بتواطؤهم على الكذب على أنهم سمعوا هذا الحديث من رسول الله ﷺ، والتواتر لم يقتصر على طبقة الصحابة فحسب وقد نقل السيوطي أيضاً عن أبي عبيد القول بتواتر هذا الحديث^(٤).

(١) الإتيان (١/ ١٣٠).

(٢) تاريخ القرآن، د. عبد الصبور شاهين ص ٢٥.

(٣) النشر (١/ ٢١)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٥٢): رواه أبو يعلى في الكبير وفيه راوٍ لم يسم.

(٤) الإتيان (١/ ١٣١).

ثانياً، فوائد تؤخذ من الأحاديث السابقة،

١- تدل الأحاديث السابقة على أن الأحرف السبعة ليست إلا خلافاً في الألفاظ وهيئات النطق في كلمات القرآن؛ بدليل أن الخلاف الذي وقع بين الصحابة رضي الله عنهم كعمر بن الخطاب وهشام بن حكيم إنما كان حول كيفية تلاوة ألفاظ القرآن الكريم.

٢- إن قراءة الصحابة رضي الله عنهم للقرآن الكريم لم تكن باجتهاداتهم، إنما كان ذلك بالتلقي عن النبي ﷺ، والأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن توقيفية لا مجال للرأي والاجتهاد والقياس فيها، فقد نزل بها الروح الأمين على قلب الرسول الكريم ﷺ «هكذا أقرأها رسول الله»، «فاقرؤوا كما علمتم».

٣- إن الحكمة الأولى التي من أجلها أنزل الله القرآن على سبعة أحرف هي التخفيف والتيسير على الأمة الأمية، «إني بعثت إلى أمة أميين فيهم الشيخ العاسي والعجوز الكبيرة والغلام» فإن هؤلاء قد اعتادت ألسنتهم على كيفية معينة في النطق، وذلك أنهم نشؤوا منذ نعومة أظفارهم على النطق بلهجتهم الخاصة، فمن العسر بمكان أن يطلب منهم التحول مرة واحدة إلى لهجة أخرى تختلف عما اعتادوا النطق به ليقروا القرآن بها، فكان من رحمة الله تعالى بعباده أن أنزل القرآن على سبعة أحرف مراعاة لهم لاختلاف لغاتهم رفعاً للحرج عنهم.

٤- إن الاختلاف بين الأحرف السبعة إنما هو اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تناقض وتضاد، قال ابن قتيبة رحمه الله: «الاختلاف نوعان: اختلاف تغاير، واختلاف تضاد. فاختلاف التضاد لا يجوز، ولست واجده بحمد الله في شيء من القرآن إلا في الأمر والنهي من الناسخ والمنسوخ.

واختلاف التغاير جائز، وذلك مثل قوله: ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّتٍ﴾ [يوسف: ٤٥] أي: بعد حين، وبعد أمّة، أي بعد نسيانٍ له، والمعنيان جميعاً وإن اختلفا صحيحان؛ لأنه ذكر أمر يوسف بعد حين وبعد نسيان له، فأنزل الله على لسان نبيه ﷺ بالمعنيين جميعاً في غرضين^(١).

(١) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص ٣١.

٥- نهى النبي ﷺ عن الجدال والخصام والتنازع بشأن الأحرف السبعة لأن كل حرف منها إنما هو منزل من عند الله تعالى له حرمة القرآن الكريم، وإن إنكار أي شيء منها هو إنكار وجود لما أوحاه الله إلى نبيه ﷺ، وإنكار شيء مما أنزله الله على نبيه يوقع صاحبه في الكفر. «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف فلا تماروا في القرآن، فإن المراء فيه كفر»^(١).

٦- إن ما وقع من خلاف بين الصحابة الكرام رضوان الله عليهم في تلاوة القرآن الكريم، وتحاكمهم إلى النبي ﷺ، إنما كان في المدينة المنورة بعد هجرته ﷺ؛ لأن حجارة المراء، وأضائة بني غفار في المدينة المنورة.

٧- لم يقرئ النبي ﷺ الصحابة جميع الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، إنما كان يقرؤهم حسب ما تيسر، فيقرئ هذا حرفاً، ويطرئ الآخر حرفاً غيره.

٨- لم يكن إقراء النبي ﷺ لكل إنسان حسب لهجته وما تنطق به قبيلته فحسب، إنما كان يقرئ الصحابة حسب ما تيسر بقطع النظر عن لهجته، فقد يقرئ أصحاب قبيلة واحدة بأكثر من حرف كما كان من عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم رضي الله عنهما؛ فهما قرشيان.

٩- إن إعجاز القرآن الكريم إنما هو في هذه الأحرف المتواترة جميعها، وذلك لأن جميع هذه الأحرف من عند الله تعالى، فهي كلام الله المنزل على سيدنا رسول الله ﷺ للبيان والإعجاز «كلها كافٍ شافٍ».

يقول الإمام البغوي: «وقوله ﷺ في الحديث: «كلها كافٍ شافٍ» يريد - والله أعلم - أن كل حرف من هذه الأحرف السبعة شافٍ لصدور المؤمنين، لاتفاقها في المعنى، وكونها من عند الله وتنزيله ووحيه، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم ١٤٦٤ وحسنه الشيخ شعيب، وهو في مسند أحمد برقم ٧٩٧٦، وقال الشيخ شعيب إسناداه على شرط الشيخين.

هُدًى وَشَفَاءً ﴿[فصلت: ٤٤]﴾. وهو كافٍ في الحجة، على صدق رسول الله ﷺ لإعجاز نظمه، وعجز الخلق عن الإتيان بمثله والله سبحانه وتعالى أعلم^(١).

١٠- إن هذه الأحرف السبعة لم تكتب في المصحف في عهد النبي ﷺ، وكذلك في عهد أبي بكر رضي الله عنه، بل كان النبي ﷺ يعلمها مشافهة.

١١- إن كون حديث الأحرف السبعة في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، ليس معناه أن هذه الأحرف كانت في القرآن المدني وحده، بل كانت في المكي والمدني على السواء، ذلك أن المسلمين في المدينة المنورة ما كان يقرؤهم النبي ﷺ القرآن المدني وحده، بل كان يقرؤهم القرآن الكريم كله؛ لذا فإن النبي ﷺ أوحيت إليه هذه الأحرف في القرآن كله، وهذا ما ترشد إليه الأحاديث الصحيحة.

وإنما نهت على هذا الأمر مع أنه بدهي؛ لأنني قرأت كلاماً يستدعي العجب، ويقتضي الرد كما سنطالعك عليه فيما بعد إن شاء الله.

متى كان بدء نزول الأحرف السبعة؟

وتجدر الإشارة هنا إلى بدء نزول الأحرف السبعة، أين كان؟، أفي مكة المكرمة مع بدء نزول القرآن الكريم على قلب سيدنا رسول الله ﷺ؟ أم في المدينة المنورة بعد هجرته ﷺ، ودخول الناس في دين الله أفواجا؟

ذهب جمهور العلماء إلى أن نزول الأحرف السبعة كان في المدينة المنورة بعد دخول قبائل كثيرة من قبائل العرب في دين الله، واستدلوا لما ذهبوا إليه بما رواه مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان عند أضاة بني غفار، فأناه جبريل، فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمثك القرآن على حرف، فقال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك»؛ ثم أناه الثانية، فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمثك القرآن على حرفين، فقال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك»؛ ثم جاء في الثالثة، فقال: إن الله

(١) شرح السنة - أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦هـ). تحقيق شعيب الأرنؤوط (٤/٥٠٣). كتاب فضائل القرآن باب قول النبي ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف».

يأمرك أن تُقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف، فقال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك»؛ ثم جاءه في الرابعة، فقال: إن الله يأمرك أن تُقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف، فأيا حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا^(١).

واستدلوا كذلك بالأحاديث الواردة في اختلاف الصحابة رضي الله عنهم، كحديث عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم - رضي الله عنهما - ، وحديث أبي بن كعب رضي الله عنه عند مسلم، وفيه: «كنت في المسجد، فدخل رجل يصلي...»^(٢).

فهذه الأحاديث فيها دلالة على أن الخلاف بين الصحابة - رضي الله عنهم - في كيفية تلاوة القرآن الكريم كان في المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية. ذلك لما عرفته من الأحاديث النبوية السابقة.

وذهب الدكتور محمد سالم محيسن إلى أن الأحرف السبعة ابتدأ نزولها مع بدء نزول القرآن الكريم في مكة، واستدل لذلك بقول النبي ﷺ: «أقرأني جبريل على حرف واحد فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»، وبأن معظم سور القرآن الكريم مكية وفيها من الاختلاف والأحرف ما في السور المدنية، ولم يرو أن هذه السور نزلت مرة أخرى في المدينة^(٣).

والحق ما ذهب إليه الجمهور، وذلك لعدة أمور:

١- إن الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف التيسير على المسلمين، ورفع الحرج عنهم، إذ لو حُمِلوا جميعاً على قراءة القرآن على حرف واحد، لشق ذلك عليهم. ولوقعوا في حرج شديد، ولم تظهر الحاجة إلى ذلك إلا في المدينة، بعد هجرة النبي ﷺ،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف (٥٦٢/١ ح ٢٧٤)، وأبو داود في سننه: كتاب الصلاة، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف (١٦٠/٢ ح ١٤٧٨)، والنسائي في سننه: كتاب افتتاح الصلاة: باب جامع ما جاء في القرآن (١٥٢/٢ ح ٩٣٩)، والطبري في تفسيره: (١٧/١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف (٥٦١/١ ح ٢٧٣)، وأحمد في مسنده (١٢٧/٥)، والطبري في تفسيره (١٦/١).

(٣) المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة، محمد سالم محيسن، (٨٥/١).

حيث أصبح للمسلمين دولة، ودخلت العرب في دين الله تعالى، وجاءت الوفود من أنحاء الجزيرة العربية معلنة إسلامها. ومن المعلوم أن القبائل مختلفة لغاتها، فهذه القبيلة تهمز، وتلك تسهل الهمز، وهذه من لهجاتها الإمالة، وأخرى تقرأ بالفتح، وثالثة بين بين، وهذه قبيلة تستعمل لفظاً لا تستعمله قبيلة أخرى، فهذه تقول: المدية وتلك تقول: السكين، وهذه تقول: زقية، وتلك تقول: صيحة.

فكان لا بد لرفع الحرج عنهم من أن تقرأ كل قبيلة القرآن بما يوافق لهجتهم، فكانت عناية الله ورحمته أن أنزل القرآن على سبعة أحرف، لتقرأ كل قبيلة القرآن على الحرف الذي يوافق لهجتها.

أما في مكة المكرمة فكان الأمر على خلاف ذلك، فالرسول ﷺ يدعو قومه للإسلام، وكان جل الداخلين في الإسلام في ذلك الوقت من قريش وما جاورها من القبائل، فلم تكن الحاجة ماسة لنزول القرآن على غير لغة قريش.

٢- ما ورد من أحاديث تفيد أن القرآن نزل بلسان قريش منها ما جاء في صحيح البخاري: «باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب قرأناً عربياً، بلسان عربي مبين».

حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري، وأخبرني أنس بن مالك قال: فأمر عثمان زيد بن ثابت وسعيد بن العاص، وعبدالله بن الزبير، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها في المصاحف، وقال لهم: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإن القرآن أنزل بلسانهم، ففعلوا^(١).

فهذا الحديث يدل على أن القرآن الكريم نزل في مكة بلسان قريش ثم لما عادت الحاجة إلى نزوله على لغات أخرى أنزله الله تعالى على سبعة أحرف، وكان ذلك في المدينة بعد الهجرة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: فضائل القرآن، نزل القرآن بلسان قريش والعرب (٤/١٩٠٦ ح ٤٦٩٩).

يقول أبو شامة: «وقد قال بعض الشيوخ: الواضح من ذلك أن يكون الله تعالى أنزل القرآن بلغة قريش ومن جاورهم من فصحاء العرب، ثم أباح للعرب المخاطبين به المنزل عليهم أن يقرؤوه بلغاتهم التي جرت عاداتهم باستعمالها»^(١).

أما ما ذهب إليه الدكتور محمد سالم محيسن فلا دليل له فيما استدل به، وذلك لأن السور المكية نزلت في مكة على حرف واحد وهو حرف قريش، ثم لما دعت الحاجة إلى الأحرف الأخرى بعد دخول القبائل في الإسلام، أقرأ جبريل النبي ﷺ هذه السور نفسها بالأحرف الأخرى، ولا يعد هذا نزولاً آخر لهذه السور.

أما الحديث الذي استدل به فلا دلالة فيه على ما ذهب إليه، وذلك أن غاية ما يدل عليه الحديث أن جبريل عليه السلام أقرأ الرسول ﷺ على حرف، فراجعه النبي ﷺ طالباً الزيادة، ولم يزل النبي ﷺ يراجع حتى انتهى إلى سبعة أحرف، أما متى كان ذلك وأين فليس في الحديث ما يدل على ذلك.

يقول الدكتور عبدالصبور شاهين: «إن منطوق الأحاديث ومفهومها يدلان على أن زمن التصريح بقراءة القرآن على سبعة أحرف لم يكن خلال الفترة المكية، وإنما كان خلال الفترة المدنية، فأما المنطوق: فقد ورد في بعضها أن النبي ﷺ كان عند أحجار المراء بالمدينة، أو عند أضواء بني غفار وهو موضع بالمدينة، وأما المفهوم: فإن أغلب الأحاديث التي ذكرت خلافاً بين الصحابة حول شيء من القرآن أشارت إلى حدوثه بالمسجد، كما أشارت إلى صورة من الاحتكام إلى النبي ﷺ. والمسجد: هو مسجد المدينة، بلا مراء، والاحتكام لم يكن إلا حيث وجدت للمسلمين في شخص النبي ﷺ (حكومة) بالمعنى العام، وهو ما تشير إليه الآية المدنية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]^(٢).

وبعد كتابتي هذه الأسطر وقعت على كتاب من قضايا القرآن للدكتور إسماعيل أحمد الطحان، فوجدته يشير إلى هذه القضية يقول:

(١) المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز لأبي شامة ص ٩٥.

(٢) تاريخ القرآن، عبدالصبور شاهين، ص ٣٩.

إن الأحرف السبعة لم تكن إلا في المدينة المنورة، وأن ما كان من خلاف في القرآن المكي فلا يعد من الأحرف السبعة، فقله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ﴾ أو (أمانتهم) [المؤمنون: ٨] وقوله: ﴿هَٰؤُلَاءِكَ تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ﴾ وفي قراءة (تتلو) في [يونس: ٦٥]، وغير هذا مما جاء في القرآن المكي، إن كان متواتراً قبلناه - كما يقول الكاتب - لكن لا على أنه من الأحرف السبعة.

يقول الكاتب:

«ومن الغريب حقاً أن يكون ذلك واقعاً في القرآن المكي، ثم يدعون أن ذلك من الأحرف السبعة، وقد علمت أن الرخصة بها لم تسن إلا في المدينة، وأن القرآن المكي قد نزل منه ما نزل وانتهى نزوله، وإليك بعض ما مثلوا به من القرآن المكي لنفكك على التناقض وعدم التحري للدقة فيما يقولون:

- ١- في سورة القارعة/ ٥ وهي مكية ﴿كَالْمُهِنِ الْمُنْفُوشِ﴾ كالصوف المنفوش.
- ٢- في سورة ق/ ١٩ وهي مكية ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ وجاءت سكرة الحق بالموت.
- ٣- في سورة يس/ ٥٣ وهي مكية ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً﴾ إن كانت إلا زقية.
- ٤- في سورة الليل/ ٣ وهي مكية ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ والذكر والأنثى.
- ٥- في سورة الدخان/ ٤٤ وهي مكية ﴿طَعَامُ الْأُنْثَى﴾ طعام الفاجر^(١).

ثم قال الكاتب: هذا وقد يذهب الخيال أو تستبد المغالطة ببعض الناس فيدعي أن القرآن، المكي قد تكرر نزوله في المدينة^(٢)، ويقول: إن السيوطي ذكر هذه المسألة وهي قضية تكرر النزول نقلها عن السخاوي ثم ردها .. ما أجمل المثل «رمتني بدائها وانسلت». وكلام الطحان كما قيل: جعجعة ولا أرى طحناً.

(١) ص ٦٤.

(٢) ص ٦٥.

وهكذا يتهم الكاتب - سبحانه الله - الذين يرون أن الأحرف السبعة كانت في القرآن المكي والمدني على السواء، يتهمهم بالتناقض وعدم التحري للدقة، أو قد ذهب بهم الخيال واستبدت بهم المغالطة.. ولا ندري أين الأولى بهذه الأوصاف.

أولاً: لم يرد السيوطي القول بتكرار النزول - كما قال الكاتب - بل قبله ودافع عنه، واستدل له بكثير من الآيات التي ادّعي تكرار نزولها، ومع أننا لسنا مع السيوطي في هذا، لكن نعجب من الكاتب كيف يجرؤ على مثل هذا القول، ويا ليتة تحزى وقرأ الموضوع على قصره.

ثانياً: لا أدري كيف فات الكاتب هذا الأمر، وغابت عنه تلك القضية البديهية، فذهب يلصق بغيره ما كان حرياً أن يلصق به هو.

إن الأحاديث التي نقلها الكاتب صريحة واضحة، بأن الأحرف السبعة ليست في القرآن المدني وحده، فعمر رضي الله عنه وقد سمع هشاماً يقرأ، وكان ما كان، والسورة التي كان يقرأها هشام رضي الله عنه هي سورة الفرقان، وهي مكية إجماعاً، ويقول النبي ﷺ: «نزل القرآن على سبعة أحرف» والرجل الذي سمعه أبي رضي الله عنهم جميعاً، كان يقرأ سور النحل كما تقول بعض الروايات، وسورة النحل مكية إجماعاً كذلك، ويقول النبي ﷺ لأبي: «نزل القرآن على سبعة أحرف».

السبعة أحرف - إذن - ذكرت في سورة الفرقان وسورة النحل، هذا هو قول النبي ﷺ، أبعد قول الرسول ﷺ قول لأحد؟ إن التواضع للعلماء خلق لا بد منه.

١- ثم إن هناك بعض المآخذ على الأخ الكاتب، فهو يفرق بين اللهجة واللغة، ويلوم العلماء الذين أطلقوا على اللهجة «لغة» بقوله: «فتراهم يعبرون باللغات عن اللهجات وهو تعبير مضلل»^(١). مع أن الكاتب نفسه في كتابه كان لا يستعمل إلا كلمة لغة، ويحمل بنا هنا أن نفرق لك أيها القارئ الكريم بين اللهجة واللغة.

فاللهجة هي أسلوب أداء الكلمة إلى السامع من مثل: إمالة الفتحة والألف أو تفخيمها. ومثل: تسهيل الهمزة أو تحقيقها، فهي محصورة في جرس الألفاظ وصوت الكلمات. وكل ما يتعلق بالأصوات وطبيعتها، وكيفية أدائها.

واللغة يُراد بها الألفاظ التي تدلّ على المعاني من أسماء وأفعال وحروف ويراد بها كل ما يتعلق باشتقاق الكلمات وتوليدها، وبنية الكلمات ونسجها، غير أن اللهجة قد تتميز بقليل من الخصائص التي ترجع إلى بنية الكلمات ونسجها أو معاني بعض الكلمات ودلالاتها، ومتى كثرت هذه الصفات بُعدت اللهجة من أخواتها حتى تصبح اللهجة لغة قائمة بذاتها.

فكما أن اللغة تتشعب إلى لهجات، فإن اللهجة قد تستقل وتشيع وتثبت أقدامها حتى تصير لغة^(١). فادعاء الكاتب إذن أن الخلاف في الأحرف كان في اللهجات فحسب، ووصفه العلماء بالتضليل أمر لا مسوغ له، ونحن نعلم أن جُلّ العلماء يطلقون اللغة على ما اختلفت قبائل العرب في نطقه، لذلك كان اختلاف الأحرف السبعة يرجع أكثر ما يرجع إلى اللغات، واختلاف القراءات يرجع أكثر ما يرجع إلى اللهجات كما ستعرفه مفصلاً إن شاء الله.

٢- للكاتب عبارات موهمة، حيث يدعي أن المسلم أياً كانت لهجته وأياً كانت بيئته يستطيع أن يقرأ القرآن بالقدر الذي تعودته عضلات صوته في نطقه بلهجته دون تكبر عليه أو استهزاء به^(٢)، «وأن النبي ﷺ راقب هذه اللهجات فاختر منها أفصحها ورد بعضها»^(٣).

وهذا كلام يتفق مع ما قرره المستشرقون ومن نهج نهجهم؛ لأنه يعطي الحرية للقارئ أن يقرأ كما شاء، وأن النبي ﷺ اختار بعض اللهجات ورد بعضها... وسيأتي مزيد تفصيل لهذه القضية إن شاء الله.

(١) القراءات واللهجات: عبد الوهاب حمودة ص ٤-٥.

(٢) ص ٥٧.

(٣) ص ٥٨.

٣- ينقل عن الدكتور إبراهيم أنيس أن هذه الرخصة باقية لغير العرب كذلك^(١).
والحق أن الدكتور إبراهيم أنيس إن كان يقصد بهذا القول أنها مندرجة تحت الأحرف
السبعة فهذا قول مردود بصريح الأحاديث الصحيحة، وإن قصد أن المسلم لا يكلف إلا
ما يستطيع فهذا قول مقبول؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، لكن على المسلم أن يتعلم
وأخشى إن فتح هذا الباب أن نقرأ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾
[الجمعة: ٥] وقوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ٧]، أن نقرأ (الزین) بدل (الذين)،
و(سُم) بدل (ثم) و(سلاسة) بدل (ثلاثة). وأن نقرأ ﴿عَلَى سُوقِهِ﴾ [الفتح: ٢٩] و﴿عَلَى
بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤] بالهمزة بدل القاف في الآيتين.

وأختم هنا بكلمة لعلم من أعلام التفسير في هذا العصر ذلكم هو الأستاذ الشيخ
سيد أحمد الكومي الذي كان رئيساً لقسم التفسير في كلية أصول الدين في الأزهر الشريف
نقلها عنه الأستاذ عبدالفتاح السيد سليمان في تحقيقه وتعليقه على شرح طيبة النشر في
القراءات العشر لأبي القاسم النوري. إليكموها لما فيها من فوائد جلييلة:

السبب في جمع مصحف أمير المؤمنين عثمان ؓ :

قال رحمه الله بعد أن ذكر قول رسول الله ﷺ : «أنزل القرآن على سبعة أحرف»:
قال: «هذا الحديث نزل في آخر العهد المدني حين دخلت القبائل المختلفة الإسلام بعد
صلح الحديبية، فكان ترخيصاً للقبائل أن تقرأ القرآن بما لقنها الرسول بالفاظ يستعملونها
فيما بينهم لا وجود لها في لغة قريش. وكانت هذه رخصة للقبائل؛ لأنهم لم يتعودوا لسان
قريش حيث كانت المواصلات في الجاهلية شبه منعدمة، والقبائل يحارب بعضها بعضاً،
ولكل قبيلة نظامها ودستورها ورئيسها، وكان نظام الغاب هو السائد بينهم، أي: الحرب
التي لا مبدأ لها إلا غلبة القوي على الضعيف، وجاء هذا الحديث في وقت دخول القبائل،
وبناءً على سؤال الرسول حين سأل ربه التخفيف، فرخص له في حرفين إلى سبعة كما جاء
في الحديث، وكان في كل مرة يقول: «إن أمتي لا تطيق ذلك» لعلمه بلغات العرب جميعاً،

وهنا لا بد لنا أن نعلم أن الرسول علم لغات العرب إما بالوحي أو بمجرد قوة إدراكه واتصاله الخاص ببعض القبائل، ولكننا نرجح أن علمه بكل اللغات العربية كان معجزة أظهرها الله على يده، وكتب بها لكل القبائل كل بلغته، ومن هنا ترى الرسائل النبوية مشتملة على ألفاظ وأساليب لا نألفها الآن كما نألف القرآن الكريم الذي كتب بلغة قريش ونزل بها في تسعة عشرة عاماً من لدن البعثة حتى صلح الحديبية، فلما كان عام الوفود وجاءت القبائل تتلقى عن الرسول ﷺ أقرأ كلاً بلغته. وليس معنى هذا أنه أقرأ كل قبيلة القرآن كله، إنما يقرؤهم بحسب ما ييسر لحفاظهم وما يحتاجون إليه. وإذا فالكاتب بالأحرف السبعة لم تكن إلا بين يدي هذه القبائل ولأجلها، أما كتاب الوحي منذ نزل القرآن بمكة فكانوا يكتبون بحرف قريش وفي القرآن أكثر من سبع وثمانين سورة مكية وكتاب الوحي قرشيون كتبوا بها، وكذلك في الشطر الأول من العهد المدني، وما حدث في الأحرف والكتابة بها للقبائل لم يكن من كتاب الوحي الرسميين الذين يكتبون للرسول ﷺ في اللخاف والعسب فيما كان يحتفظ به هو أو تحتفظ به الصحابة لأنفسهم بالمدينة، فكلها كانت بحرف قريش، ومن هنا كانت المصحف البكرية نسخة من عين ما كتب بين يديه ﷺ بلغة قريش، وكان المصحف العثماني نسخة منها، وليس لاختلاف القراءات دخل في اختلاف الأحرف.

فالقراءات كلها بلغة قريش، وما جاء به الصحابة لزيد لينسخه في المصحف كان من عين ما كتب بين يدي الرسول بكتابه الرسميين وبكتابة الصحابة لأنفسهم، وكذلك فعلت اللجنة في المصحف العثماني، ولا يُشكّل على ذلك قول عثمان للجنة: «ما اختلفتم فيه أنتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش»؛ لأن زيدا كان أخبر الناس بكتابة ما نزل من الوحي إذ إنه الكاتب الأول، وكذلك فعل زيد فلم يقبل من الصحابة إلا ما كتب بين يدي الرسول ﷺ، واختلاف بعض الأنصار في رسم حرف كالتابوه أو التابوت أمر يسير لا يتعلق بلغة ولا بلفظ يعسر نطقه، وإذا فكان المصحف العثماني جمعاً للأمة على حرف قريش، ولهذا عزم عثمان على من كان عنده شيء من الأحرف الأخرى أن يحرقها، ولم يمنع قراءة صاحبها بما سمعه من الرسول؛ لأنه قرآن في حقه وهو مستوف للشروط القرآنية، وإذا فالاختلاف بين القبائل في أذريجان كان ناشئاً عن اختلاف الحروف التي قرأت بها

وكتبتها لنفسها، فكان جمع الناس على المصحف لمنع هذه الخلافات؛ فلا بد أن يكون خالياً من هذه الأحرف الزائدة عن حرف قريش، وإلا لكان المصحف نفسه سبباً في الخلاف من جديد، ولا معنى لطلب عثمان من الأمة أن يحرقوا صحفهم إلا لما فيها من الأحرف المخالفة لحرف قريش. ولا نقول: إن الأحرف الزائدة على معنى أن فيها حرفاً يزيد عن لغة قريش ليس له مقابل في لغة قريش، ومن هنا تبطل الشبهة القائلة: إن عثمان بعمله هذا قد أضاع شيئاً من القرآن لأنه لم يعزم على الأمة بتحريق صحفها إلا لأن أحرفها كانت بديلة عن حرف قريش.

أما دعوى أن المصحف كتب بغير نقط ليشمل الأحرف المختلفة له فدعوى متجنية لا دليل عليها؛ لأنه بالإجماع كتب بحرف قريش، وبالإجماع نسخ من صحف أبي بكر، وبالإجماع نسخت صحف أبي بكر من عين ما كتب بين يدي الرسول، سواء كان الكتبهم هم كتاب الوحي أم الصحابة من المهاجرين والأنصار الذين قدموا ما كتبوه بين يدي الرسول ﷺ. وكانت الفكرة كما قلنا توقيف الأحرف السبعة على أصحابها من القبائل المختلفة، ولم يمنعمهم عثمان من القراءة بها لأنفسهم، ولكنه أرسل مع كل مصحف مقرأ للقبائل من المهاجرين والأنصار الذين يجيدون حرف قريش لتعليم الناشئة، فنشأت الناشئة الجديدة على حرف قريش. أما القراءات السبعة بالذات، بل والثلاثة المكملة للعشرة فهي موافقة لرسم المصحف ولحرف قريش، وما كان فيها من زيادة حرف عطف - أو حرف جر كـ (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا)^(١)، (وَالزُّبُرُ)^(٢)، (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا)^(٣)، فلا يقال: إن هذا من اختلاف اللغات؛ لأن اختلاف اللغات إنما يكون في لفظة بدل أخرى غير مستعملة عند هذه القبائل ويعسر فهمها في أول الإسلام؛ فلما انتشر الإسلام،

(١) التوبة الآية ١٠٠ وحرف الجر الزائد موجود في المصحف المكي على قراءة ابن كثير. وقرأ الباقون ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا﴾ [التوبة: ١٠٠].

(٢) آل عمران الآية ١٨٤ وحرف الجر الزائد موجود في المصحف الشامي على قراءة ابن عامر، وكذلك قوله تعالى: (وَبِالْكِتَابِ) بعدها. وقرأ الباقون: ﴿جَاءُوا بِالْبَيْنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

(٣) البقرة الآية ١١٦ وحرف العطف (الواو) محذوف في المصحف الشامي على قراءة ابن عامر، أي: (قالوا اتخذ الله ولداً).

وانتشرت الصحابة في الأقطار، وكانوا يعلمون القبائل بلغة قريش، سهل على كل القبائل القراءة بحرف قريش، ومن هنا زالت الضرورة المؤدية للرخصة التي سألها الرسول ﷺ لبعض قبائل العرب.

أما الطعن على مصحف ابن مسعود بأنه كان خالياً من المعوذتين فهذا لا أصل له؛ لأن عاصماً وحمزة والكسائي وهم ثلاثة من أقطاب القراء السبعة أخذوا قراءتهم عن ابن مسعود وقد قرؤوا بالمعوذتين، وما ورد أن أياً كان في مصحفه سورتان تسميان الخلع، والحنف؛ فهي أيضاً رواية باطلة لا أصل لها، كما ادعوا بعض الكلمات على ابن عباس في قوله: ﴿حَقَّ تَسْتَأْذِنُوا﴾ [النور: ٢٧] أظن الكاتب كتبها وهو ناعس. وهذه كلها من دس الملاحدة يريدون بها تشويه وجه القرآن الكريم، ولا يوجد سند صحيح لأي رواية من هذا النوع، ومحاولة الإجابة بالتأويل أن ابن مسعود لم يكتب المعوذتين في مصحفه لأنه كان يحفظهما هو تمحل، ويكفي في الرد عليه قراءة القراء عنه.

وأما أن أياً كان عنده القنوت مكتوباً في ورقة فوضعت بجوار المصحف، هذا تمحل أيضاً وافتراءً، ومن أين صحت لنا هذه الرواية والطاعنون كثير، مثل طعنهم على عدم كتابة البسملة بين سورتي الأنفال والتوبة وجواب عثمان أن الرسول ﷺ «مات ولم يبين» وكانت سورة التوبة شبيهة بسورة الأنفال في موضوعها فظننت أنها سورة واحدة ولم أكتب البسملة بينهما، هذا كلام لا يقوله إلا من فقد عقله؛ لأن السائل والمجيب كلاهما يعترف كما جاء في الرواية أن هذه سورة الأنفال وتلك سورة التوبة، وسؤال في عدم كتابة البسملة بين السورتين وجواب عثمان معترف بأن كل سورة لها اسمها وتاريخ نزولها كما في الرواية، والجواب لا يتلاقى مع السؤال، وهي قطعاً روايات مدسوسة لا سند لها. والله أعلم. انتهى.

هل نزول القرآن على سبعة أحرف يلزم منه تكرار النزول؟

وهنا أمر جدير بالذكر لا بد من أن ينبه عليه، وهو أن نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف ليس معناه تكرار النزول، وقد تحدثت عن تعدد نزول بعض الآيات في مبحث أسباب النزول، وناقشت هذه القضية هناك مناقشة أرجو أن تكون شافية إن شاء الله. وكان من بعض تعليقات القائلين بتعدد النزول أن الآية الكريمة قد تكون نزلت مرة

على حرف ثم نزلت ثانية على حرف آخر، وقد وعدتكم أن أفصل لك هذه القضية في مبحث الأحرف السبعة، فأقول وبالله التوفيق ومنه وحده العون:

إن نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف لا يباري فيه أحد، لكن يجب أن نفرق بين كونه نزل على سبعة أحرف بمعنى أن جبريل أوحى إلى النبي ﷺ كيفية قراءة هذه الآية على أحرف متعددة، وبين كون الآية نزلت مرات متعددة، والأول هو المراد قطعاً، أعني أن الآية نزلت مرة واحدة، وأوحى إلى النبي ﷺ الأحرف التي تصح قراءة الآية بها فعلمها الصحابة، لا أن الآية نزلت في يوم على حرف، وفي يوم آخر نزلت على حرف آخر، ثم نزلت مرة ثالثة على حرف ثالث.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وفي حديث الرسول ﷺ «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»^(١)، فمعنى نزول القرآن على سبعة أحرف نزول الروح الأمين به على حرف واحد ثم تعليم الوحي النبي أن يعلمه الصحابة على ما بقي من وجوه في القراءة، لذا كان الرأي الذي لا محيد عنه أن القرآن الكريم كُتب في الكتب الثلاث على حرف واحد هو حرف قريش.

قال الإمام الطبري - رحمه الله - عند حديثه عن الآية الكريمة ﴿بِكُلِّ عَجَبَةٍ يُسَوِّرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]، بعد أن ذكر القراءتين في الآية الكريمة وهما ضمّ التاء من (عجبت) وفتحها: «فإن قال قائل: وكيف يكن مصيباً القارئ بهما مع اختلاف معنييهما؟ قيل: إنها وإن اختلفت معنييهما فكل واحد من معنييهما صحيح: قد عجب محمدٌ مما أعطاه الله من الفضل، وسخر منه أهل الشرك بالله، وقد عجب ربنا من عظيم ما قاله المشركون في الله، وسخر المشركون بها قالوه.

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٤) في كتاب السنة، باب لزوم السنة، والترمذي رقم (٢٦٦٦) في كتاب العلم باب رقم ٦٠ وأحد (٤/ ١٣٠-١٣١).

فإن قال: أكان التنزيل بإحدهما أو بكليتهما؟ قيل: التنزيل بكليتهما. فإن قال: وكيف يكون تنزيل حرف مرتين؟ قيل: إنه لم ينزل مرتين، إنما أنزل مرة، ولكنه أمر ﷺ أن يقرأ بالقراءتين كليتهما^(١).

مناقشة بعض الروايات في الأحرف السبعة:

قبل أن أحدثك عن آراء العلماء في معنى الأحرف السبعة، أرى لزماً أن نقف مع بعض الروايات التي قد تثير في نفس القارئ بعض الشبهات، وأحب أن أذكرك هنا ببعض الفوائد التي تؤخذ من أحاديث الأحرف السبعة، ومنها أن هذه الأحرف كانت بتعليم النبي ﷺ، ولم يكن فيها مجال لاجتهاد أو قياس أو اختيار، ولكن وردت بعض الأحاديث والآثار التي قد يفهم منها غير هذا.

١- عن أبي بن كعب قال: قرأت آية، وقرأ ابن مسعود خلافها، فأتيت النبي ﷺ، فقلت: ألم تقرئني آية كذا وكذا؟ قال: «بلى» فقال ابن مسعود: ألم تقرئنيها كذا وكذا؟ فقال: «بلى، كلاهما محسنٌ مجمل»، قال: فقلت له، فضرب في صدري، فقال: «يا أبي بن كعب إني أقرئت القرآن فقل لي: على حرف أو على حرفين؟ فقال الملك الذي معي: على حرفين، فقلت: على حرفين، فقال: على حرفين أو ثلاثة؟ فقال الملك الذي معي: على ثلاثة، فقلت: على ثلاثة، حتى بلغ سبعة أحرف، ليس منها إلا شافٍ كافٍ، إن قلت: غفوراً رحيماً، أو سميعاً عليماً، أو قلت عليماً سميعاً فالله كذلك، ما لم تحتّم آية عذاب برحمة، أو آية رحمة بعذاب»^(٢).

٢- ذكر أبو عبيد في فضائل القرآن أن عبد الله بن مسعود ؓ كان يقرأ أحد الناس ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ﴿١٣﴾ طَعَامُ الْأَيْمِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٤] فقال الرجل: طعام اليتيم،

(١) تفسير الطبري: (٢٣/٢٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند الفتح الرباني (١٨/٥١)، وأبو داود في الصلاة (١٤٧٧) وإسناده صحيح على شرط الشيخين كما قال الشيخ شعيب. انظر «مسند أحمد»، (٨٥/٣٥) طبعة مؤسسة الرسالة.

فكررها، فلما وجدته لا يحسن القول (طعام الأثيم) قال: أتستطيع أن تقول: طعام الفاجر؟ قال: نعم، قال: فافعل^(١).

٣- وذكر الإمام الطبري عند تفسيره هذه الآية في سورة الدخان: أن أبا الدرداء رضي الله عنه كان يُقرئ أحد الناس هذه الآية طعام الأثيم، فقال: طعام اليتيم، فلما رآه لا يعقل قال: قل: طعام الفاجر^(٢).

قالوا: فهذه الروايات يمكن أن نفهم منها أن أمر الأحرف السبعة يمكن أن نرجع فيه إلى القياس والاجتهاد، فحديث أبي جاء فيه: إن قلت فيه: غفوراً رحيماً، أو سميعاً عليماً، أو عليماً سميعاً، فالله كذلك، ما لم تختتم آية رحمة بعذاب، أو آية عذاب برحمة، ومعنى هذا أن النبي ﷺ، يختار ما شاء مما تختتم به الآية الكريمة من أسماء الله الحسنى، كذلك ما كان من ابن مسعود وأبي الدرداء رضي الله عنهما، حيث غيّر كل منهما الكلمة بأخرى تقاربها في المعنى.

ومثل هذه الروايات هي التي فتحت الباب على مصراعيه لأصحاب الشبهات التي سنطالعك على شيء منها إن شاء الله، وإليك مناقشة هذه الروايات بما يثلج الصدر ويطمئن القلب، ويزيل الشبهة، ويمحو من النفس آثارها إن شاء الله.

أما حديث أبي بن كعب فقد أخرجه أبو داود (١٤٧٧)، وقد حاول بعض العلماء - جزاهم الله خيراً - أن يجيبوا عنه، فذكر الشيخ محمود خطاب السبكي في شرحه القيم شرح سنن أبي داود: المنهل العذب المورود، أن مثل هذا كان قبل كتابة عثمان رضي الله عنه المصحف، الذي جمع المسلمين عليه، وقال الشيخ أحمد البنا الساعاتي - رحمه الله - في كتابه الفذ الفتح الرباني، الذي أسأل الله أن يجزيه عنه خيراً، نقلاً عن صاحب فتح الودود

(١) «فضائل القرآن» ص ٣١٢، وقال القرطبي في «تفسيره» (١٤٩/١٦) بعد أن أورد هذا الأثر: ولا حجة في هذا للجهاش من أهل الزيف، أنه يجوز إبدال الحرف من القرآن بغيره، لأن ذلك إنما كان من عبدالله تقريباً للمتعم، وتوطئة منه له للرجوع إلى الصواب واستعمال الحق والتكلم بالحرف على إنزال الله وحكاية رسول الله ﷺ.

(٢) رواه ابن جرير الطبري، (٢٤٣/١١). والحاكم في المستدرک (٤٥١/٢) وصححه الحاكم على شرط الشيخين.

- رحمه الله - أنهم كما رخص لهم في الأحرف السبعة، رُخص لهم في فواصل الآي، وإخالك تتفق معي أخي القارئ بأن هذه إجابة غير كافية وغير شافية. وإذا كان سند الحديث لا بد أن تتوافر له الشروط لكي يقبله العلماء، فإن متن الحديث حري أن يكون كذلك.

والحديث الذي معنا روى أصله الإمام البخاري رحمه الله بسنده قال: ... سمعت النزال ابن سبرة، عن ابن مسعود قال: سمعت رجلاً قرأ آية، سمعتُ النبي مرة يقرأ خلفها، فجنّت به النبي ﷺ فأخبرته، فعرفت في وجهه الكراهية، وقال: «كلاكما محسن، ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»^(١).

فرواية البخاري ليس فيها هذه الزيادات المريبة، فيحیی بن يعمر - راوي الحديث عند أبي داود - وإن كان ثقة، فإنه يرسل^(٢)، ثم إن لفظ الحديث هنا يتطلب من القارئ وقفة طويلة، فالملك، وهو الذي مع النبي ﷺ، هو الذي كان يدل النبي على ما يقول: (فقل لي على حرف أو على حرفين؟ فيقول الملك: على حرفين، حرفين أو ثلاثة، فيقول الملك: على ثلاثة). ولعل القارئ يعجب من هذا الحوار، قال للنبي: على حرف أو على حرفين؟.. على حرفين أو ثلاثة؟ والملك الذي معه هو الذي يجيب، مع أن هذه رغبة النبي ﷺ، كما جاء في الأحاديث الكثيرة، مثل «إني بعثت إلى أمة أمة». ثم إن قوله: «إن قلت: غفوراً رحيماً..» أمر يثير في النفس تساؤلات كثيرة، فكلمات القرآن الكريم مقدرة كلمة كلمة في موقعها بحيث لا يصلح غيرها فيه. ولا ننسى هنا ما جاء عن رسول الله ﷺ وهو يعلم البراء بن عازب دعاء النوم «أمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت، فقال البراء: ورسولك الذي أرسلت»، فقال النبي ﷺ: «ونبيك»^(٣)، فما بالك بالقرآن الكريم.

ثم إن فواصل الآي من أعظم وأدق روافد الإعجاز، فإذا كانت الفاصلة: (الغفور الرحيم) فإنما جاءت مع سياق الآية، وكذلك السميع العليم، والعزیز الحكيم. لا تقبل

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب ٣٧ حديث رقم ٥٠٦٢، انظر فتح الباري (١٠١/٩).

(٢) انظر مثلاً تاريخ ابن معين، (٢١٤/٤).

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء باب ٧٥ حديث رقم ٢٤٧، انظر فتح الباري (١/٣٥٧).

فاصلة مكان أختها. ولقد مر معنا ما كان من ذلك الأعرابي الذي أدرك وهو يسمع أحد القراء وقد أخطأ حينما قرأ (فإن زلتم من بعد ما جاءكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم) فقال: ما هذا بكلام الله، كيف يذكر المغفرة والرحمة بعد الزلل، فتذكر القارئ خطأ فقراً ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩].

وهناك قضية خطيرة في هذا الحديث لا يمكن التغاضي عنها، فلقد علمنا القرآن الكريم أن ما ورد من أسماء الله تبارك وتعالى في خواتم الآيات مرتباً ترتيباً معجزاً، قد يأتي حكيم عليم، أو عليم حكيم، أو غفور رحيم، وقد جاء في آية واحدة رحيم غفور، لكن بعض الأسماء الحسنی لزمّت حالة واحدة من حيث التقديم والتأخير، فقله: ﴿قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ لم يأت (عزیز قوی) كذلك ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ لم يأت (خبير عليم) وكذلك ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣] لم يأت (غفوراً عفواً) وكذلك ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وهذا - ويعلم الله - آية الإعجاز، فكون الرواية يذكر فيها (عليم سمیع) وهو ما لم يأت في كتاب الله تعالى، أقول: كون الرواية جاء فيها ما لم يأت في كتاب الله أمر يتطلب منا الحیطة والحذر.

ثم إن في مثل هذا الحديث ما يوجب علينا الحذر والحیطة، فقد جاء في بعض الروایات أن أياً ﷺ، لم يرض ما قاله الرسول، ففي بعض الروایات حينما قال الرسول ﷺ: «كلاهما محسن مجمل» صار أبي يرددها ترديداً لا يليق بمثله، وفي بعض الروایات، قال: ما كلانا محسن مجمل، أو: ما كلانا أحسن ولا أجمل^(١).

تُرى: كيف نعتمد مثل هذه الرواية؟

ما تقدم ندرك أننا لن نستطيع الاطمئنان إلى هذه الرواية، التي لا تتفق مع الروایات الكثيرة التي جاءت في أحاديث الأحرف السبعة، التي نقلت لك بعضها.

أما ما ورد في آية الدخان ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿١٥﴾ طَعَامٌ لِلْإِنْسِ﴾ فهناك روايتان: إحداهما عن ابن مسعود وهي التي ذكرها أبو عبيد في «فضائل القرآن»، وهذه

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»، (١١/٢١٩)، رقم الحديث (٢٠٣٧١)، والبيهقي في «السنن الكبرى»، (٢/٣٨٤)، رقم الحديث (٣٨٠٢).

الرواية رواها أبو عبيد عن نعيم بن حماد عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود بن أخي عبد الله بن مسعود^(١). وهذه الرواية لن نجد عناء في ردها، ذلك لأن نعيماً تكلم فيه العلماء^(٢). أما عون بن أخي عبد الله بن مسعود، فلم يلق ابن مسعود عليه السلام^(٣)، ثم كيف رويت هذه الحادثة عن ابن مسعود تارة وعن أبي الدرداء تارة أخرى؟، وهل كان المتعلم واحداً؟ وهل كان هذا التعليم في المدينة المنورة قبل أن يغادرها ابن مسعود إلى الكوفة، وأبو الدرداء إلى دمشق؟ هل كان هذا الإقراء من ابن مسعود في الكوفة، ومن أبي الدرداء في دمشق؟ ثم هل كلمة الأئيم من الصعوبة بحيث يعسر النطق بها؟ على كل حال رواية أبي عبيد عن ابن مسعود، ترد لأكثر من سبب.

أما رواية الطبري^(٤) فهي من رواية همام بن الحارث، قال: إن أبا الدرداء كان يُقرئ رجلاً... الحديث ولا بد من أن نذكر بعض ما تثيره الرواية:

١- همام بن الحارث كان من العباد، ولم يذكر عنه أنه كان صاحب رحلة، ولم تذكر كتب التراجم أنه روى عن أبي الدرداء.

٢- إن همام بن الحارث توفي في الكوفة سنة خمس وستين، أما أبو الدرداء رضي الله عنهم جميعاً فقد توفي سنة اثنتين وثلاثين في دمشق.

٣- جاء عن همام: «إن أبا الدرداء»، والذي أكاد أجزم به أن في هذه الرواية إرسالاً، ثم جاء في هذه الرواية كما ذكر الطبري: «فلما رآه لا يعقل قال: قل طعام الفاجر» ومعنى هذا على فرض صحة الرواية، أن أبا الدرداء - لم يقل هذا على أنه قرآن - «رأه لا يعقل».

(١) انظر فضائل القرآن، حديث رقم ٥٥٥.

(٢) انظر الضعفاء والمتروكين للنسائي، (١/١٠١). وفي الكاشف روى له البخاري مقروناً (٢/٣٢٤). وانظر في حاله: الكشف الخفي (١/٢٦٨)، والمغني في الضعفاء (١/٨١).

(٣) عون هذا لم يدرك الصحابة ولذا قيل روايته عنهم مرسلة كما في التهذيب (٨/١٥٣)، وفي تهذيب الكمال (٢٢/٤٥٣) وما بعدها.

(٤) تفسير الطبري (٢٥/٧٨). وقال محقق تفسير الطبري: أخرجه عبد الرزاق في مصنفه عن الثوري به (٣/٣٦٤)، والحاكم من طريق الأعمش به (٢/٤٥١)، وعزاه السيوطي في الدر (٦/٣٢) إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر. قلت وقد قال الذهبي إن إسناده على شرط الشيخين؟؟ انظر حديث رقم ٣٦٨٤.

وبعد ما بينت لك فلعلك تظمنن إلى أنه ليس في هذه الروايات ما يخالف الجم الغفير من روايات الأحرف السبعة، وليس فيها كذلك ما يصلح أن يكون شبهة يثيرها بعضهم.

على أن من الأمانة والإنصاف أن أختتم هذا المبحث بما جاء في كتاب التمهيد لابن عبد البر، حافظ المغرب - رحمه الله - حيث نقل أن ابن وهب: قال: وأخبرني مالك بن أنس قال: أقرأ عبد الله بن مسعود رجلاً: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّقْمِ ﴿١٣﴾ طَعَامُ الْإِيمِ﴾، فجعل الرجل يقول: طعام اليتيم، فقال له ابن مسعود: طعام الفاجر، فقلت لمالك: أترى أن يقرأ كذلك! قال: نعم أرى ذلك واسعاً، قال أبو عمر: معناه عندي أن يقرأ به في غير الصلاة، وإنما ذكر ذلك عن مالك تفسيراً لمعنى الحديث، وإنما لم تحز القراءة به في الصلاة؛ لأن ما عدا مصحف عثمان فلا يقطع عليه، وإنما يجري مجرى السنن التي نقلها الآحاد، لكن لا يقدم أحد على القطع في رده، وقد روى عيسى عن ابن القاسم في المصاحف قراءة ابن مسعود، قال: أرى أن يمنع الإمام من بيعه^(١)، ويضرب من قرأ به ويمنع ذلك. وقد قال مالك: من قرأ في صلاة بقراءة ابن مسعود أو غيره من الصحابة، مما يخالف المصحف لم يصل وراءه، وعلماء المسلمين مجمعون على ذلك إلا قوماً لا يعرج عليهم منهم الأعمش ابن مهران^(٢).

ولا بد من تعقيب على هذا القول؛ إذ كيف تثبت القرآنية - ، ومع ذلك لا تجوز الصلاة بهذا الذي ثبتت قرآنيته؟ أي: كيف يمكن أن نعد «طعام الفاجر» قرآناً، ولا يجوز أن نقرأها في الصلاة؟، على أن ما نقله ابن عبد البر عن ابن القاسم من أن مثل هذا إن وجد في مصحف ما فيجب على الإمام أن يمنع بيعه ويضرب من قرأ به، ويمنع ذلك.

خلاصة القول: إن روايات الأحرف السبعة منسجم بعضها مع بعض، فإذا خرجت رواية عن هذا الانسجام فلا بد لها من بحث، والله ولي التوفيق.

(١) أي: المصحف على قراءة ابن مسعود.

(٢) التمهيد، ابن عبد البر (٨/ ٢٩٣).

ثالثاً، آراء العلماء في معنى الأحرف السبعة :

اختلفت آراء العلماء وتباينت أقوالهم في بيان المراد من الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن الكريم، والتي ورد ذكرها في كلام النبي ﷺ .

وسبب اختلاف العلماء في ذلك أنه لم يأت في معنى هذه السبعة نص ولا أثر كما أشار إلى ذلك ابن العربي رحمه الله^(١)، فالأحاديث الواردة في ذلك مع كثرتها جاءت مجملة، لا تكشف عن حقيقة المراد بهذه السبعة. فأعمل العلماء عقولهم واجتهدوا في تحديد المراد بها فكان الاختلاف.

وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً^(٢) وأوصل السيوطي الأقوال إلى أربعين^(٣)، ذكر منها خمسة وثلاثين قولاً ثم قال: «قال ابن حبان: فهذه خمسة وثلاثون قولاً لأهل العلم واللغة في معنى أنزل القرآن على سبعة أحرف، وهي أقوال يشبه بعضها بعضاً، وكلها محتملة، ويحتمل غيرها. وقال المُرسي: هذه الوجوه أكثرها متداخلة ولا أدري مستندها ولا عمن نقلت، ولا أدري لم خص كل واحد منهم هذه الأحرف السبعة بما ذكر مع أنها كلها موجودة في القرآن، فلا أدري معنى للتخصيص، ومنها أشياء لا أفهم معناها على الحقيقة، وأكثرها معارضة لحديث عمر وهشام بن حكيم الذي في الصحيح، فإنها لم يختلفا في تفسيره ولا أحكامه، وإنما اختلفا في قراءة حروفه، وقد ظن كثير من العوام أن المراد بها القراءات السبع، وهو جهل قبيح»^(٤).

هل مفهوم العدد مقصود؟

ولكن قبل أن أذكر لكم هذه الأقوال، فإن من المفيد أن نعرض لقضية العدد في هذا الحديث، أله مفهوم؟ فالعدد مقصود وهو سبعة كما جاء في الأحاديث، لا تزيد ولا تنقص، فهي ليست ثمانية، كما نقل الدكتور عبدالصبور عن الخوئي^(٥) واستحسنه. ولست

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، (١/ ٤٢).

(٢) انظر المرجع السابق.

(٣) انظر الإتيقان في علوم القرآن (١/ ١٣١).

(٤) الإتيقان (١/ ١٤١).

(٥) صاحب (البيان في تفسير القرآن) وهو من علماء الشيعة الإمامية.

معهما. وحجة الخوئي أنه ليست كل آي من آيات القرآن تختلف في قراءتها؛ فإن هناك آيات وكلمات لم يختلف المسلمون في قراءتها، فإذا أضفنا هذا إلى ما يختلف فيه وهي سبعة، صارت الأحرف ثمانية، وما إخال هذه الحجة مقبولة؛ لأن معنى الحديث أن ما نزل عليه القرآن سبعة أحرف؛ ولا يلزم من هذا أن الاختلاف ينبغي أن يكون في كلمات القرآن الكريم جميعها، ولا أود أن أقف طويلاً عند هذه القضية، لكنني أواصل الحديث عن العدد من حيث المراد، أله مفهوم أم لا؟!

أكثر العلماء على أن العدد مقصود لذاته فهي سبعة أحرف ليست ثمانية، وحثهم ما جاء في بعض أحاديث هذا الباب، من أن سيدنا رسول الله ﷺ الحريص على هذه الأمة - كما قال ربنا - : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿[التوبة: ١٢٨-١٢٩]، أقراني جبريل على حرف، فقلت: إن أمتي لا تطيق ذلك، ثم أقراني على حرفين فقلت: إن أمتي لا تطيق ذلك، فاستردته فقال: أقرأه على سبعة أحرف كل شاف كاف.

قالوا: هذا الحديث وأمثاله يدل على أن السبعة عدد مقصود لذاته... وذهب القاضي عياض، وجماعة من الأئمة إلى أن العدد غير مقصود^(١)، وقد كنت إلى عهد قريب أرثي أن العدد مقصود لذاته، لكن بدا لي فيها بعد رأي آخر، وتعالى الله وتقدس، فهو المنزه وحده عن البداء؛ ذلك أنني تتبعت كثيراً من الأحاديث التي ذكر فيها هذا العدد «سبعة» فوجدت منها ما يبين فيه المعدود، فالعدد مقصود لذاته وله مفهومه الخاص، ومن هذه الأحاديث ما ليس كذلك وإليكم بيان هذا:

من الأحاديث التي قصد فيها العدد قوله ﷺ :

١ - «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله».

٢ - «اجتنبوا الموبقات السبع».

٣ - «بادروا بالأعمال سبعاً».

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٩٩/٦).

هذا كله في الحديث، إذا كان الحديث عن أمور من أمور الحياة مما ينبغي أن نفعله أو نتجنبه.. أما ما ورد من المغيبات فأمر لا نسمح لأنفسنا أن نخوض فيه، بقي أن هناك أحاديث ذكرت هذا العدد غير أنها لم يفصل فيها المعداد، وذلك مثل قوله ﷺ: «المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء» فمثل هذا القول - والله ورسوله أعلم - ليس العدد فيه مقصوداً لذاته، وإنما المقصود من الحديث العبرة، والفرق بين المؤمن والكافر.

وأرى أن حديث الأحرف السبعة إنما هو من هذا القبيل، المقصود به بيان رحمة الله تبارك وتعالى، وحرص الرحمة المهداة سيدنا رسول الله ﷺ على الأمة، ولو كان المقصود بيان مفهوم العدد لبيّن النبي ﷺ نوع هذه الأحرف.. وما احتج به الذين رأوا أن للعدد مفهوماً ليس فيه الدليل القاطع على ما ذهبوا إليه، بل يمكن أن يفهم من هذه الأحاديث سعة فضل الله تبارك وتعالى، وعظيم رحمة الله لهذه الأمة، والأمر بعد ذلك وقبله يسير إن شاء الله، فإذا كنت ترى أن تظل مع القائلين بأن للعدد مفهوماً، فلا حرج عليك، فلقد كنت كذلك، إلى وقت، وإن اقتنعت بما ذكرته لك، فأرجو أن يجنبني الله وإياك الخطل والخطأ.

خلاصة القول: إننا إذا جردنا العدد من أن يكون له مفهوم، فإننا نريح أنفسنا من كثير من الخلافات، التي قد جاوزت الحد والمعقول عند بعض من فسر هذا الحديث، وعلى هذا القول أيضاً يمكننا أن نفهم الأحاديث الشريفة فهماً يتفق مع جوهر هذه القضية وروحها، وقد آن لنا أن تعرض آراء العلماء في فهم الأحاديث الشريفة.

هل الحديث مشكل؟

إن اختلاف العلماء في معنى الأحرف السبعة، وعدم اتفاقهم على قول واحد جعل بعضهم يرى أن الحديث مشكل، ومن أولئك: ابن سعدان النحوي. حيث قال: «معنى قوله ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» مشكل لا يُدرى معناه؛ لأن العرب تسمي الكلمة المنظومة حرفاً، وتسمي القصيدة بأسرها كلمة، والحرف يقع على الحرف المقطوع من الحروف المعجمة، والحرف أيضاً: المعنى والجهة، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١] أي: على جهة من الجهات، ومعنى من المعاني»^(١).

(١) المرشد الوجيز لأبي شامة، ص ٩٢.

ابن سعدان النحوي عد لفظ الحرف من المشترك اللفظي؛ إذ يشترك هذا اللفظ بين عدة معان لا يُدرى أيها المراد.

ولا يسلم لابن سعدان ما ذهب إليه، وذلك أنه لا يلزم الإشكال في المشترك اللفظي، إلا إذا لم تقم قرينة على تعيين أحد هذه المعاني وأنه المراد دون غيره؛ والأمر في الحديث ليس كذلك، فإن القرينة قد قامت على أن أحدها هو المراد دون سواه، وذلك أن الناظر في هذه المعاني لأول وهلة يستبعد كثيراً منها، فلا يصح إرادة حرف الهجاء؛ لأن القرآن مركب من جميعها، ولا إرادة الكلمة؛ لأن كلمات القرآن تعد بالآلاف، ولا إرادة الجهة، فيتعين أن يكون المراد به هو اختلاف الألفاظ، كما مر معك في الأحاديث الصحيحة، وكما ستبينه فيما بعد إن شاء الله^(١).

وسأكتفي في هذه الدراسة بذكر بعض الأقوال التي هي حرة بالدرس والبحث، والتي ما زالت محط أنظار العلماء وطلاب العلم في عصرنا الحاضر، مبيناً الأدلة التي استدلت بها كل صاحب رأي، ومناقشتها بإيجاز وتركيز.

الأقوال في الأحرف السبعة،

القول الأول: إن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب المشهورة في كلمة واحدة تختلف فيها الألفاظ مع اتفاق المعاني، وعدم تناقضها، وذلك نحو: هلم، وتعال، وأقبل، وإليّ، ونحوي، وقصدي، وقربي، فهذه الألفاظ السبعة مختلفة يعبر بها عن معنى واحد وهو طلب الإقبال.

وهو رأي جمهور أهل الفقه والحديث - كما ذكر الزركشي - منهم: سفيان بن عيينة، وابن وهب، والطحاوي، والطبري. وقد أطال القول فيه، ودافع عنه في مقدمة تفسيره جامع البيان، وأيده ابن عبد البر^(٢) في التمهيد، ونسبه لأكثر أهل العلم، ورجح هذا من المحدثين: الشيخ طاهر الجزائري^(٣).

(١) منهج الفرقان إلى علوم القرآن، الشيخ محمد سلامة، ص ٦٠.

(٢) التمهيد (٢٧٢/٨) وما بعدها.

(٣) التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن ص ٧.

والشيخ محمد علي سلامة^(١)، والشيخ محمد أبو زهرة^(٢)، والشيخ محمد أبو شهبة^(٣)،
والشيخ أحمد الكومي والشيخ عبد الوهاب غزلان في كتبهم^(٤)، في علوم القرآن. وهم من
أجلة العلماء في قضايا علوم القرآن ولم يعارضه من المحدثين إلا الشيخ محمد عبد العظيم
الزرقاني في كتابه مناهل العرفان.

يقول الإمام الطبري رحمه الله في تحريره لهذا القول في مقدمة تفسيره: «الأحرف
السبعة التي أنزل بها القرآن هن لغات سبع في حرف واحد وكلمة واحدة، باختلاف
الألفاظ، واتفاق المعاني، كقول القائل: هلم، وأقبل، وتعال، وإليّ، وقصدي، ونحوي،
وقربي، ونحو ذلك مما تختلف فيه الألفاظ بضروب من المنطق وتتفق فيه المعاني»^(٥).

وعنده أدلة أصحاب هذا الرأي حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن
جبريل عليه السلام قال: يا محمد اقرأ القرآن على حرف، قال ميكائيل عليه السلام: استزده، فاستزاده،
قال: اقرأ على حرفين، قال ميكائيل: استزده فاستزاده، حتى بلغ سبعة أحرف، قال: كلها
شافٍ كافٍ، ما لم تختتم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب»^(٦)، نحو قولك: تعال، وأقبل،
وهلم، واذهب، وأسرع، وعجل.

قال الطبري رحمه الله: «فقد أوضح نص هذا الخبر أن اختلاف الأحرف السبعة إنما
هو اختلاف ألفاظ كقولك: هلم، وتعال، باتفاق المعاني لا باختلاف معاني موجبة
اختلاف أحكام»^(٧).

وهذا الحديث ظاهره مشكل، إذ قد يتوهم أن القارئ مخير في القراءة من عند نفسه،
فيجوز له أن يختتم الآية بما يريد ما لم يختتم آية عذاب برحمة، أو آية رحمة بعذاب، وليس

(١) منهج الفرقان، ص ٦١.

(٢) انظر المعجزة الكبرى: ٢٩.

(٣) انظر المدخل لدراسة القرآن (١٣٨-١٤٦).

(٤) البيان في مباحث من علوم القرآن (٢١٧).

(٥) جامع البيان (١/٢٥).

(٦) سبق تخريجه في أحاديث الباب.

(٧) جامع البيان (١/٢٢).

الأمر كذلك، بل المراد بالحديث ضرب المثل لاختلاف الأحرف السبعة، كما أشار إلى ذلك ابن عبد البر يقول: «إنما أراد بهذا ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن عليها؛ أنها معان متفق مفهومها مختلف مسموعها، لا يكون في شيء منها معنى وضده، ولا وجه يخالف معنى وجه خلافاً ينفيه ويضاده كالرحمة التي هي خلاف العذاب وضده»^(١).

واستدل أصحاب هذا الرأي أيضاً بما روي عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه كان يقرأ ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِس مِنْ تَوَكُّمٍ﴾ [الحديد: ١٣]، (للذين آمنوا أمهلونا، للذين آمنوا آخرون، للذين آمنوا ارقبونا) وكان رضي الله عنه يقرأ ﴿كَلَّمَ أَصَاءَ لَهُمْ مَشَوُا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٠] مرواً فيه، سعوا فيه^(٢). فهذا هو رأي الإمام الطبري رحمه الله في الأحرف السبعة كما بينه وقرره في تفسيره.

القول الثاني: القرآن نزل على سبع لغات متفرقة فيه، فبعضه نزل بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن فهو يتنظم في مجموعه اللغات السبع.

وينسب هذا القول لأبي عبيد، وأحمد بن يحيى (ثعلب) وآخرين، وهذا الرأي يختلف عن سابقه، لأن هذا الرأي معناه أن الأحرف السبعة متفرقة في القرآن، أما الرأي السابق فيعني أن الأحرف السبعة لغات مختلفة في كلمة واحدة مع اتفاق المعنى في جميعها. يقول أبو عبيد في كتاب غريب الحديث: «قوله: سبعة أحرف، يعني سبع لغات من لغات العرب، وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه، هذا لم نسمع به قط، ولكن نقول: هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن، فبعضه نزل بلغة قريش، وبعضه نزل بلغة هوازن، وبعضه نزل بلغة هذيل، وبعضه نزل بلغة أهل اليمن، وكذلك سائر اللغات ومعانيها في هذا كله واحدة»^(٣).

(١) البرهان للزركشي (١/ ٢٢)، الإتيقان (١/ ١٣٤)، التمهيد (٨/ ٢٨٣).

(٢) البرهان (١/ ٢٢١)، الإتيقان (١/ ١٣٤).

(٣) غريب الحديث (٣/ ١٥٩)، المرشد الوجيز، ص ٩١.

ويقول ابن عطية: «فمعنى قول النبي ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» أي: فيه عبارات سبع قبائل بلغاتها نزل القرآن، فيعبر عن المعنى فيه مرة بعبارة قريش، ومرة بعبارة هذيل، ومرة بغير ذلك بحسب الأفصح والأوجز في اللفظ»^(١).

واستدل أصحاب هذا الرأي بأدلة منها:

ما قاله سيدنا عثمان ؓ للرهط الأربعة حين أمرهم بنسخ المصحف. قال عثمان: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإن القرآن أنزل بلسانهم، ففعلوا»^(٢).

فالحديث يدل على أن معظم القرآن نزل بلسان قريش، وأن فيه من بقية لغات العرب.

وقد اختلف القائلون بهذا الرأي في تحديد اللغات السبع، فيرى بعضهم أن اللغات السبع في العرب كلها، وقيل في قريش وقيل غير ذلك. هذا الرأي مردود لما يلي:

أولاً: بعده عن واقع الخلاف الذي حدث بين الصحابة رضي الله عنهم، وذلك أن الأحاديث التي وردت في ذلك كحديث عمر وهشام رضي الله عنهما لا تؤيده بل تنافيه وترده.

ولتوضيح ذلك: أقول: إن الخلاف الذي وقع بين الصحابة رضي الله عنهم إنما كان في سور قليلة منها سورة الفرقان في حديث عمر ؓ، فعمر سمع هشاماً يقرأ سورة الفرقان على حروف كثيرة لم يقرئه إياها رسول الله ﷺ وقد أقرأ رسول الله ﷺ هشاماً سورة الفرقان، وهذا يدل على أن رسول الله ﷺ أقرأ عمر سورة الفرقان على وجه يختلف عن الوجه الذي أقرأ به هشاماً. ثم بين النبي ﷺ أن سبب هذا الاختلاف في التلاوة يرجع إلى سبب نزول القرآن على سبعة أحرف، والكلام نفسه يقال في حديث أبي ابن كعب ؓ واختلافه مع الرجلين في قراءة سورة النحل.

(١) تفسير ابن عطية، المحرر الوجيز (١/٤٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: فضائل القرآن، نزل القرآن بلسان قريش والعرب (٤/١٩٠٦ ح ٤٦٩٩).

فكيف يتأتى الخلاف إذن إذا كان المنزل لفظاً واحداً، والمقروء به واحد، ولهذا يتبين أن الأحرف السبعة إنما هي تعدد وجوه قراءة القرآن الكريم وتلاوته لا أن أجزاءه تتألف من لغات سبع.

ثانياً: إن الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف التخفيف والتيسير على العرب، والقول السابق ليس فيه أي معنى للتخفيف والتيسير، لأن العرب الذين نزل القرآن عليهم، لا يمزج غالبهم لغات بعضهم ببعض.

قال ابن عبد البر: «وأنكروا على من قال: إنها لغات، لأن العرب لا تركب لغة بعضها بعضاً، ومحال أن يقرئ النبي ﷺ أحداً بغير لغته»^(١).

ثالثاً: لو كان القرآن مؤلفاً من عدة لغات، كل جزء من لغة، لما أمكن لأهل كل لغة أن يقرؤوا منه إلا جزءاً واحداً وهو النازل بلغتهم، ويدعون سائر أقسامه التي هي بغير لغتهم، لتعسر اللغات الأخرى عليهم، وهذا يوقعهم في الحرج ويمنعهم من تلاوة القرآن كله، مع أن كل قبيلة مكلفة بقراءة القرآن كله وفهمه، والعمل به، ويكون نزول القرآن على سبعة أحرف - بذلك - موقعاً في الحرج، غير جالب للتيسير والتخفيف^(٢).

ثم إن ما استدلوا به من قول سيدنا عثمان ؓ، يجاب عنه: بأنه يحمل على بدء نزول القرآن الكريم، وأنه نزل في أول الأمر بلسان قريش، ثم تتابع نزول باقي الأحرف عندما دعت الحاجة لذلك.

يقول أبو شامة رحمه الله: «أشار عثمان ؓ إلى أول نزوله، ثم إن الله تعالى سهله على الناس، فجوز لهم أن يقرؤوه على لغاتهم»^(٣).

القول الثالث: إن المراد بالأحرف السبعة الأوجه التي يقع بها التباير، فقد استقرأ العلماء القائلون بهذا القول وجوه الاختلاف بين القراءات فاستنتجوا أنها سبعة أوجه، ففسروا بها حديث النبي ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف».

(١) البرهان في علوم القرآن (١/٢٣٢).

(٢) انظر الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها (١٧٣).

(٣) المرشد الوجيز لأبي شامة، ١٠٢.

وقد ذهب إلى هذا الرأي طائفة من العلماء، منهم: ابن قتيبة، ومحمد بن الهيصم، والقاضي ابن الطيب (الباقلائي)، وأبو الفضل الرازي، وابن الجزري، وهذا هو القول الراجح عند جماهير القراء، وسبب هذا كما يظهر لي يرجع إلى تأثرهم بابن قتيبة رحمه الله، والفضل يعود له في هذا كله فقد نهجوا نهجه، ثم غيروا وبدلوا.

وقد اختلف هؤلاء الخمسة في تحديد هذه الأوجه، فاتفقت أقوالهم في بعضها واختلفت في بعضها الآخر، وإليك أقوالهم لتوازن بينها:

أولاً: ابن قتيبة:

قال ابن قتيبة - رحمه الله - «وقد تدبرت وجوه الخلاف في القراءات فوجدتها سبعة أوجه:

أولها: الاختلاف في إعراب الكلمة، أو حركة بنائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتاب، ولا يغير معناها نحو قول الله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] (وأطهر لكم)، وقوله ﴿وَهَلْ يُجِزِي إِلَّا الْكُفُورُ﴾ [سبا: ١٧] (وهل يجازى إلا الكفور) وقوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧، الحديد: ٢٤]، (وبالبخل)، وقوله: ﴿فَنَظَرْتُ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] (وميسرة).

فهذه وإن اختلف بعضها في الإعراب مثل أطهر وأطهر، أو في الحركات مثل البخل والبخل، فإنها متحدة في المعنى وفي صورة الخط كذلك.

الوجه الثاني: أن يكون الاختلاف في إعراب الكلمة وحركات بنائها بما يغير معناها، ولا يزيلها عن صورتها في الكتاب، نحو قوله: ﴿رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾ [سبا: ١٩] (وربنا باعد بين أسفارنا) وقوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ [النور: ١٥] (وتلقونه)، وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أَمَةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] (وبعد أمة).

وهذا الوجه وإن اتفق مع الوجه الأول باتفاق صورة الخط، واختلف الإعراب والحركات، فإنه يختلف عنه من حيث المعنى.

الوجه الثالث: أن يكون الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها بما يغير معناها، ولا يزيل صورتها نحو قوله: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَىٰ آلِظَّالِمِ كَيْفَ تَنْشُرُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] و﴿تَنْشُرُهَا﴾، ونحول قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبا: ٢٣] و﴿فُزِّعَ﴾.

ويتفق هذا الوجه مع سابقه باتحاد صورة الخط، ويختلف عنهما من حيث الإعراب فالإعراب فيه واحد، نشر، ننشر، وفُزِّعَ، وفُزِّعَ، وفيهما ليس كذلك، ويتفق مع الثاني بتغير المعنى.

الوجه الرابع: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتاب، ولا يغير معناها نحو قوله: (إن كانت إلا زقية واحدة) و﴿صَيِّحَةً﴾ [يس: ٢٩]، و(كالصوف المنفوش) و﴿كَالْعِهْنِ﴾ [القارعة: ٥].

ويختلف هذا الوجه عن سابقه باختلاف صورة الخط، مع اتحاد المعنى كما هو في الوجه الأول.

الوجه الخامس: أن يكون الاختلاف في كلمة بما يزيل صورتها ومعناها، نحو قوله (وطلع منضود) في موضع ﴿وَطَلَعَ مَنضُورٌ﴾ [الواقعة: ٢٩] واختلافه عما قبله ظاهر.

الوجه السادس: أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير نحو قوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩] وفي موضع آخر (وجاءت سكرة الحق بالموت).

الوجه السابع: أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان، نحو قوله تعالى: (وما عملت أيديهم) و﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس: ٣٥] ونحو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤] و(إن الله الغني الحميد)^(١).

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ص ٢٨، ٢٩.

ثانياً، محمد بن الهيصم:

أما محمد بن الهيصم^(١) فقال: «ثم إنني تدبرت الوجوه التي تتخالف بها لغات العرب فوجدتها على سبعة أنحاء لا تزيد ولا تنقص وبجميع ذلك نزل القرآن.

الوجه الأول منها: إبدال لفظ بلفظ آخر بمنزله، فإن منهم من لا يكاد يعرف إلا الحوت، ومنهم من يقول: سمك، ولا يكاد يقول: حوت، ومنهم من يقول: عشب، وآخر يقول: كلاً، وآخر يقول: حشيش.

وفي القرآن ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] وقد قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه (فامضوا إلى ذكر الله)، وقال عز وجل: ﴿كَأَنَّمِنِ الْمُنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٧]، وقرأ ابن مسعود (كالصوف المنفوش).

الوجه الثاني: إبدال حرف بحرف بمنزلة قولهم: أعطيت، ومن العرب من يقول: أنطيت بالنون، وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال يوم الدار لعثمان: «طاب أمضرب» أي: طاب الضرب، وفي القرآن «الصراط» قرئ بالصاد والسين جميعاً.

الوجه الثالث: تقديم وتأخير: إما في الكلمة، وإما في الحرف. ويمثل لهذا الوجه بما وقع في القرآن بقوله: ﴿لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] وهي قراءة العامة، وقرئ أيضاً (الظالمون).. وأما في الحروف فكقولهم جَبَذَ، وَجَذَبَ، وأُحْجِمْتُ عن الأمر وأُحْجِمْتُ. وفي القرآن ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّوٍ﴾ [العنكبوت: ٦٠] بتقديم الهمزة على حرف الاعتلال، وتأخيرها عنه (وكائن)، ﴿يَعَذَابُ بَشِيشٍ﴾ [الأعراف: ١٦٥] بتقديم الهمزة على الياء على وزن فعيل، و(بئأس) بتأخير الهمزة على الياء مثال فيعل.

الوجه الرابع: زيادة حرف أو نقصانه، وذلك بمنزلة قول من يقول من العرب: ماليه، وداريه، بزيادة حرف الهاء على مالي، وداري، وفي القرآن ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ٢٨]

(١) محمد بن الهيصم أبو عبدالله إمام مقرئ، روى عنه القراء وذكروا عنه فوائد، انظر غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجوزي (٢/ ٢٧٤).

ومنهم من يسقط بعض الحروف ترخياً، فقد تقول العرب: يا صاح، أي: يا صاحب، ويا حار، أي: يا حارث، وفي القرآن ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧] وقرئ ﴿وَنَادُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] يا مال، بغير كاف وبإثباتها.

الوجه الخامس: اختلاف حركات البناء، مثل قول بعض العرب في الجواب: نَعَمْ، وبعضهم يقول: نَعِم، ومثل الْبُخْلُ وَالْبَخْلُ، وميسره، وميسره. ومثل قول بعضهم: حَسِبَ فلان يَحْسِبُ بكسر السين في المستقبل، وقول بعضهم: يَحْسِبُ بفتحها. ومن ذلك كَسَرَ من كَسَرَ أول الفعل المضارع فقال: يَعْلمُ وإِعلمُ ونحو ذلك، ومنه إشمام بعضهم الضمة في قوله (وإذا قيل)، و(غيض) ونحوه.

الوجه السادس: اختلاف الإعراب من نحو قول الهذلي: ما زيدٌ حاضرٌ، قال تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١]، وقرأ ابن مسعود (ما هذا بشرٌ)، وقد ذكر من لغات بلحارث بن كعب أنهم يقولون: مررت برجلان، وقبضت من درهمان وفي القرآن ﴿إِنْ هَٰذَا لَسَاحِرٌ﴾ [طه: ٦٣].

الوجه السابع: هو إشباع الصوت بالتفخيم والإظهار، أو الاقتصاد به بالإضجاع والإدغام، وأكثر الإضجاع في لحم، ولغة الحجاز على التفخيم^(١).

ثالثاً: الباقلائي،

يقول القاضي ابن الطيب فيما يحكيه عنه القرطبي رحمهما الله: تدبرت وجوه الاختلاف في القراءة فوجدتها سبعة:

١ - منها ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته مثل:

﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] (وأطهر) وقوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ [الشعراء: ١٣] (ويضيّق).

(١) مقدمتان في علوم القرآن، ٢٢١-٢٢٧.

٢- ومنها لا تتغير صورته ويتغير معناه بالإعراب، مثل ﴿رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩] (رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا).

٣- ومنها ما تبقى صورته، ويتغير معناه باختلاف الحروف، مثل قوله: (ننشرها) و﴿تُنَشِّرُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩].

٤- ومنها ما تتغير صورته، ويبقى معناه مثل: ﴿كَأَلَمِهلِ الْمَنفُورِ﴾ [القارعة: ٥]، وكالصوف.

٥- ومنها ما تتغير صورته ومعناه مثل: وطلع منضود ﴿وَطَلَعَ مَنضُورٌ﴾ [الواقعة: ٢٩].

٦- ومنها بالتقديم والتأخير مثل: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩] وقوله (وجاءت سكرة الحق بالموت).

٧- ومنها بالزيادة والنقصان نحو: ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً﴾ [ص: ٢٣]^(١) (وله تسع وتسعون نعمة أنثى)، وقوله: ﴿وَأَمَّا الْعَلَمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٠]، وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣].

رابعاً: الرازي،

قال أبو الفضل الرازي - رحمه الله - : «الكلام لا يخرج عن سبعة أوجه في الاختلاف:

الأول: اختلاف الأسماء من أفراد وتشنية وجمع وتذكير وتأنيث، كقوله: (والذين هم لأمانتهم) و(أماناتهم).

الثاني: اختلاف تصريف الأفعال من ماضي ومضارع وأمر (رَبَّنَا بَاعِدْ) و(رَبَّنَا بَاعِدْ).

الثالث: اختلاف وجوه الإعراب كقوله (ولا يضارُ) برفع الفعل المضارع على أن لا نافية (ولا يضارُ) بجزمها على أنها ناهية.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/٤٥-٤٦).

الرابع: الاختلاف بالنقص والزيادة، مثل: (تجري من تحتها الأنهار) وقوله: (تجري تحتها الأنهار).

الخامس: الاختلاف بالتقديم والتأخير، كقوله: (يَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ) و(يُقْتَلُونَ وَيَقْتُلُونَ).

السادس: الاختلاف بالإبدال مثل السراط والصراط، وتبينوا وثبتوا.

السابع: اختلاف اللغات كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم، والإظهار والإدغام ونحو ذلك»^(١).

خامساً: ابن الجزري،

ويقول ابن الجزري رحمه الله: «ولا زلت أستشكل هذا الحديث وأفكر فيه، وأمعن النظر من نيف وثلاثين سنة، حتى فتح الله عليّ بما يمكن أن يكون صواباً إن شاء الله، وذلك أني تتبعت القراءات صحيحها وشاذها. وضعيفها ومنكرها. فإذا هو يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه من الاختلاف لا يخرج عنها، وذلك:

١- إما في الحركات بلا تغير في المعنى والصورة نحو (البُخْل، البُخْل، البَخْل، البَخْل) بأربعة وجوه ويحسب بوجهين.

٢- أو بتغير في المعنى فقط نحو ﴿فَلَقَّيْءَ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَيْمَتٍ﴾ [البقرة: ٣٧] برفع آدم ونصب كلمات وعكس ذلك: ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٢] و(أمة).

٣- وإما في حروف بتغير المعنى لا الصورة نحو (تبلوا، تتلوا) ﴿نَنْجِيكَ بِدَنِكَ لِنَكُونُ لِمَنْ خَلَقَكَ﴾ [يونس: ٩٢]، و(ننجيك ببذنك).

٤- أو عكس ذلك أي تغير الصورة لا المعنى نحو: (بصطة)، و(بسطة)، (الصراط) و(السراط).

٥- أو بتغيرهما نحو: (أشد منكم) و(منهم)، و(يأتل) و(يتأل)، و(فامضوا إلى ذكر الله)، و(فاسعوا).

(١) النشر في القراءات العشر (٢٧/١).

٦- وإما في التقديم والتأخير نحو ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]، و(جاءت سكرة الحق بالموت).

٧- أو في الزيادة والنقصان نحو (أوصى ووصى، والذكر والأنثى)^(١).

فهذه أقوال العلماء الذين رأوا أن المراد بالأحرف السبعة الأوجه التي يقع بها التغير في تحديد هذه الأوجه السبعة، ذكرتها لك بطولها لتبين ما بينها من اختلاف في مجال الاستقراء وفي الأوجه التي توصل كل واحد منهم إليها. وقد استدل أصحاب هذا الرأي بأدلة منها:

١- أن الطريق الذي توصلوا به إلى هذه الأوجه هو الاستقراء التام لأوجه الخلاف في اللغة أو القراءات، والاستقراء التام دليل من جملة الأدلة التي يحترمها المنطق ما دام مستوفياً شروطه^(٢).

٢- إن تأويل كلمة الحرف بالوجه موافق لما جاء في القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١]، أي: وجه، وتفسير حديث الرسول ﷺ بما يفسر به كلام الله أولى من تفسيره بكلام سواه. يقول القرطبي رحمه الله: «إن معناه على وجه واحد، وهو أن يعبد الله على السراء دون الضراء»^(٣) ويقول ابن الجزري «قد يراد به الوجه بدليل قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ فالمراد بالحرف هنا الوجه، ولهذا سمى النبي ﷺ هذه الأوجه المختلفة من القراءات المتغايرة من اللغات أحرفاً على معنى أن كل شيء منها وجه»^(٤)، ويقول القاسمي: «والحرف قد يراد به الوجه بدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ فالمراد بالحرف الوجه»^(٥).

(١) النشر في القراءات العشر (٢٦/١).

(٢) مناهل العرفان (١٥٧/١، ١٦٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٧/١٢).

(٤) النشر في القراءات العشر (٢٣/١).

(٥) محاسن التأويل (٢٨٩/١).

ويدل عليه قول الناس: حرف أبيّ، وحرف ابن مسعود، فالوجه الذي قرأ عليه أبيّ سمي حرفاً، والوجه الذي قرأ عليه ابن مسعود هو حرف أيضاً.

٣- إن هذا الرأي ينسجم انسجاماً تاماً مع أحاديث الباب ومع ما حصل بين الصحابة من خلاف، بل الأحاديث دالة عليه.

وقبل الشروع في مناقشة هذه الأدلة، يحسن بك أن توازن بين هذه الأقوال، التي ذكرها العلماء في تحديد أوجه التغاير، وسنجد بعد تقليب النظر وإنعام الفكر أن ما قرره بعضهم يختلف عما قرره الآخرون.

فإن ما قرره ابن الهيصم، يختلف عما قرره غيره. فما جعله هو وجهين جعله غيره وجهاً واحداً، عدّ إبدال لفظ بآخر وجهاً، وإبدال حرف بآخر وجهاً آخر، بينما عدّها أبو الفضل الرازي وجهاً واحداً؛ فالوجه السادس عنده هو الاختلاف بالإبدال، وهو يشمل إبدال حرف بآخر وكلمة بأخرى، وقد عد ابن قتيبة وجه الرازي ثلاثة أوجه، وهن الثالث والرابع والخامس، أي: الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها ولا يغير معناها كزقية، وصيحة. والاختلاف في حروف الكلمة بما يغير معناها كنشرها ونشزها، والاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها ومعناها، نحو طلع منضود، وطلح منضود، وكذلك فعل ابن الجزري في أوجهه الثالث والرابع والخامس، وابن الطيب أيضاً في الأوجه نفسها.

ويلزم من هذا الاختلاف أن يكون ابن قتيبة وابن الهيصم وابن الجزري وابن الطيب قد ذكر كل واحد منهم خمسة أوجه لا سبعة، وهذا ينافي نص الحديث فلا يصح أن يكون تفسيراً له.

ثم إن ابن الهيصم ذكر من الوجوه اختلاف حركات البناء نحو (ولا تحسبن) بفتح السين وكسرها، و(فنظرة إلى ميسرة) بفتح السين وضمها، وهذا الوجه غير وجه اختلاف الإعراب الذي ذكره كل منهما، ويلزم على هذا أن يكون أبو الفضل الرازي أغفل وجهاً نزل عليه القرآن، وهو ينافي دعوى حضر جميع اختلاف القراءات في سبعة أوجه^(١).

(١) منهج الفرقان في علوم القرآن ص ٧٥.

وقد اعتمد بعضهم في تحديد الوجوه على القراءات الشاذة، وهي لا تعد من القرآن باتفاق، ولا يصح الاعتماد عليها في تحديد معنى الأحرف السبعة، وذلك أن الاعتماد عليها يجعلها داخلة ضمن الأحرف السبعة وهذا أمر غير مقبول.

ثم إن الوجوه التي حددها بعضهم لا يدركها ويقف عليها إلا البارعون في القراءة والكتابة، فكيف يكون فيه تيسير على الأميين. على أننا نعتقد أن ابن قتيبة هو الذي فتح الباب لمن جاء بعده لهذه الأوجه، ومع ذلك فلقد كان عرضة للنقد. ومما جاء في هذا:

قول أبي الفضل الرازي معقباً على رأي ابن قتيبة: «فإنه قد تنطع فيما تمحل للأحرف السبعة من الوجوه، وذلك؛ لأنه ركب طريقاً فيما خرجها لها من الوجوه يعسر ارتيادها على النحارير من الكتاب المستنبطين غوامض ما في الخطوط، فكيف على الأمي الذي لا يعرف الكتابة بحال، وهو ما ذكر ابن قتيبة في تأويل الأحرف السبعة من نحو حركات البناء والإعراب، وإعجام الكلم وإزالة صورته من الكتاب، وغير إزالته على وجوه، فلو ابتغى امرؤ أن يقف على ما خرج من وجوه الأحرف السبعة لما وقف عليه أبداً. ولكن ملازمته الحرف الواحد أيسر عليه من تتبع تأويلها على الصفة التي ذكرها. ولو لم يكن مظان الأحرف ومطلبها إلا على ما استنبطه لكان ذلك أشبه بالتضييق منه بالتوسيع، مع أنها لم ترد إلا للتوسعة والترخيص.. واعتقادي أن علم معنى الخبر غير خارج عن إجماع الأمة ولا عن النبي ﷺ، فلو كان ما ذكره ابن قتيبة ترتيباً لكان بعض ذلك منفياً عن رسول الله ﷺ وهو ما ذكره مما يتعلق بالكتابة»^(١).

ويقول قاسم بن ثابت في كتابه «الدلائل»: وهذه الأحاديث الصحاح التي ذكرنا بالأسانيد المتصلة تضيق عن كثير من الوجوه التي وجهها عليها من زعم أن الأحرف في صورة الكتب وفي التقديم والتأخير والزيادة والنقصان؛ لأن الرخصة كانت من رسول الله ﷺ والعرب ليس لهم يومئذ كتاب يعتبرونه، ولا رسم يتعارفونه، ولا يقف أكثرهم من الحروف على كتبه، ولا يرجعون منها إلى صورة، وإنما كانوا يعرفون الألفاظ بجرسها،

(١) الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها (١٥٨) نقلاً عن كتاب الرازي معنى قول النبي: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» وهو مخطوط (٣٤-٣٧).

أي: بصوتها، ويحدونها بمخارجها، ولم يدخل عليهم يومئذ من اتفاق الحروف ما دخل بعدهم على الكتّابين من اشتباه الصور، وكان أكثرهم لا يعلم بين الزاي والسين سبباً ولا بين الصاد والضاد نسباً^(١).

ويلاحظ أن ابن قتيبة في تحديده للأوجه السبعة قد أعمل أصول القراءات كالمدة والتفخيم والهمز والإمالة وغير ذلك، وهي تدخل في اختلاف اللغات، وخروج هذه الأشياء من تقسيم ابن قتيبة دليل على أن في أوجهه نقصاً. يقول ابن الجزري رحمه الله: «على أنه فاته كما فات غيره أكثر أصول القراءات كالإدغام والإظهار، والإخفاء، والإشمام، على اختلاف أنواعه، وكل ذلك من اختلاف القراءات وتغاير الألفاظ مما اختلف فيه أئمة القراء، وقد كانوا يترافعون بدون ذلك إلى النبي ﷺ، ويرد بعضهم على بعض كما سيأتي تحقيقه وبيانه في باب الهمز والنقل والإمالة»^(٢).

فكل ما سبق بيانه فيه الدلالة الواضحة على اضطراب أقوال القائلين بهذا القول واختلافها وتناقضها مما يجعل هذا الرأي بعيداً عن الصواب.

أما ما يتعلق بأدلتهم التي استدلوها بها على تأييد ما ذهبوا إليه فيجواب عن كل دليل منها بأجوبة.

أما الدليل الأول وهو قولهم: إن ما توصلنا إليه إنما كان بالاستقراء التام، وهو دليل من جملة الأدلة التي يحترمها المنطق. فيقال لهم: إن ادعاءكم الاستقراء التام أمر لا يسلم لكم، لا من ناحية كلام العرب ولا من ناحية القراءات كذلك.

أما من نواحي اختلاف كلام العرب، فإنه من الواضح أن الإحاطة باللغة كلها إحاطة تامة أمر متعذر، وذلك لاندثار كثير من لغات العرب. يقول الشافعي رحمه الله:

(١) المرشد الوجيز (ص ١٣١، ١٣٢).

(٢) النشر في القراءات العشر (١/ ٢٨).

«لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلم أنه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي»^(١).

ويروى عن أبي عمرو بن العلاء قوله: «ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير»^(٢).

فكيف يتأتى لأحد أن يقف عن طريق الاستقراء التام على وجوه الخلاف بين كلام العرب ولم يحصل له منه إلا أقله، لذلك فإن الاستقراء الذي ادعوه تاماً، إنما هو استقراء ناقص، ونتائج ظنية لا يسلم بها.

ويقال في نواحي اختلاف القراءات نفس ما قيل في نواحي اختلاف اللغات؛ لأن كثيراً من القراءات قد نسخت في حياة النبي ﷺ، ولم يصلنا منها شيء.

ثم إن كثيراً من القراءات التي اعتمد عليها في هذا الاستقراء قراءات شاذة ليست من القرآن في شيء، ولا يصح الاعتماد عليها في استقراء ما هو من الأحرف السبعة^(٣).

ومن ادعى أن بعض هؤلاء المستقرئين استقراؤه عام دون غيره، يعوزه الدليل. ثم إننا إذا سلمنا لهم ما استدلوا به، فإننا نسلم بأن ما توصلوا إليه هو وجوه اختلاف اللغات أو القراءات، أما أن يقال: إن هذه الوجوه التي تتخالف بها اللغات أو القراءات هي الأحرف السبعة، فهذا أمر يحتاج إلى دليل غير الاستقراء، ولا دليل^(٤).

أما قولهم: إن هذا الرأي منسجم مع أحاديث الباب، فيجواب عنه بأن أحاديث الباب إنما أفادت أن اختلافاً حصل بين الصحابة رضي الله عنهم في قراءة القرآن الكريم، فرفعوا ذلك إلى النبي ﷺ، فصوّب لكل واحد منهم، وأن سبب الاختلاف بينهم راجع إلى نزول القرآن على سبعة أحرف، أما أن الأحاديث فيها دلالة على أن الأوجه السبعة التي ذكروها هي الأحرف السبعة فلا.

(١) اللغة والنحو عباس حسن ٣٩، معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (١/١٩٦).

(٢) الخصائص لابن جني (١/٣٨٦).

(٣) الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها ١٦٧.

(٤) الأحرف السبعة ١٦٧، معنى قول النبي: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» لمناخ القطان ٨٨.

ثم إن الأحاديث التي وردت عن سيدنا رسول الله ﷺ تدل على أن كل حرف من الأحرف السبعة فيه تخفيف على الأمة، وبدونه تقع في حرج ومشقة، وبعض الأوجه التي ذكروها سهلة واضحة لا تقع الأمة بدونها في حرج ومشقة. كقراءة الاسم المفرد بصيغة الثنية والجمع، وعكس ذلك، مع أن ذلك كله موجود في لغة العرب، وكذلك الاختلاف بالنقص والزيادة نحو (وما عملت أيديهم) و﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس: ٣٥]، (تجري من تحتها الأنهار) و﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ١٠٠] وكذلك التقديم والتأخير الذي ذكره كل واحد منهم (يقتلون ويقتلون)، كذلك حركات الإعراب (يضارّ، يضارّ)، وفي هذا دلالة على عدم انسجام هذا الرأي مع أحاديث الباب^(١).

وأصحاب هذا الرأي أنفسهم قد اختلفوا كما رأينا من قبل، فالسبعة عند أحدهم، خمسة عند غيره.

الرأي المختار:

والرأي الذي نختاره إذا كانت القضية لا تعدو أن تكون اجتهاداً - ونرى أنه أقرب إلى معنى الأحاديث الواردة عن سيدنا رسول الله ﷺ، وتظهر فيه الحكمة من التيسير على الأمة التي حرص عليها النبي الكريم ﷺ ما ذهب إليه ابن جرير وكثير من المحققين رحمهم الله تعالى؛ وهو أن الأحرف السبعة سبع لغات متفقة من حيث المعنى، مختلفة في اللفظ.

وعلى هذا القول يظهر معنى التيسير، فلا يكلف أحد أن يقرأ بغير لغته، ولكن لا يظن ظان أن ذلك على إطلاقه، إنما ذلك بتعليم من النبي ﷺ.

وهنا تساؤل لا بد من الإجابة عليه، أيدخل في هذه اللغات اختلاف اللهجات من فتح وإمالة وتحقيق الهمز أو تسهيله أو إبدالها وغير ذلك مما اختلفت فيه لهجات العرب، كإبدال الحاء عيناً «عتى عين» بدل «حتى حين» عند الهذليين، وكسر أول الفعل مثل «تعلمون» عند الأسديين؟

(١) المدخل لدراسة القرآن، ص ١٩٤.

وللإجابة عن هذا التساؤل نقول: إن هذه اللهجات ثبت كثير منها في القراءات القرآنية الصحيحة، ولا يرتاب أحد في أنها تظهر فيها حكمة التيسير، وهي جزء من الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن الكريم، ومعنى هذا أن الأحرف السبعة ليست هذه اللهجات فحسب، بل هي لغات كما مر، وكل قبيلة لها لغة ما من الطبعي أن تكون لها لهجة تميزها عن غيرها.

والإمام الطبري ومن معه من المحققين - رحمهم الله - لا يخفى عليهم هذا.

وإنما اخترنا هذا القول ورجحناه على غيره، لأنه هو الذي تظهر منه الحكمة، حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف، وليس كذلك الرأيان الآخران، أعني الرأي الذي يقول إنها سبع لغات متفرقة في القرآن الكريم كله، والرأي الذي يقول: إنها سبعة وجوه من الاختلاف، ولقد ناقشناهما من قبل، فلا حاجة لإطالة الكلام فيها هنا.

ويؤيد هذا الرأي ما ذكر من اختلاف المسلمين في قراءة القرآن الكريم في عهد عثمان رضي الله عنه، حتى تشاجروا وكاد بعضهم يكفر بعضاً، ولا يعقل أن يكون هذا الشجار والتكفير من أجل اختلاف في رفع الكلمة أو نصبها، وهمز وتحقيق همز أو تسهيله، وإمالة كلمة أو فتحها، فهذا لا يعقل أن يكفر المسلمون بعضهم بعضاً فيه، وهذا ما ذكره الإمام الطبري رحمه الله في مقدمة تفسيره، وهو يعرض رأيه في معنى نزول القرآن على سبعة أحرف.

ثم إن هذه الأحرف السبعة ليست مما كان يمليه النبي ﷺ على كتاب الوحي، وليست كذلك كتبت في عهد أبي بكر رضي الله عنه وإنما كان الذي أمر النبي ﷺ بكتابته هو حرف قریش الذي نزل به الوحي وبقيّة الأحرف كان مما يتلقاه الصحابة رضي الله عنهم مشافهة من النبي ﷺ كما فصل في هذا البحث، إذ ليس من الممكن أن يكتب كل نص من نصوص القرآن الكريم عدة مرات، ولم يثبت كذلك أن الألواح التي كتب عليها القرآن الكريم كانت مجموعات متعددة، كل مجموعة كتبت على حرف معين، وإنما الأمر المقبول المعقول، أن الرسول ﷺ كان يقرئ الصحابة رضي الله عنهم على هذه الأحرف، يقرئ بعضهم حرفاً، وبعضهم حرفاً آخر، وكان بعض الصحابة اتخذ مصحفاً خاصاً يكتب ما أقرأه النبي ﷺ، وتفرق الصحابة في الأمصار، وكانوا يعلمون الناس كتاب الله، فتعددت

قراءاتهم، واختلفوا فيما بينهم، فجمع الخليفة الثالث ﷺ الناس على مصحف واحد، كان هذا المصحف الذي جمع الناس عليه لا يختلف في شيء ما عن ما كتب في عهد رسول الله ﷺ وما كتب في عهد أبي بكر ﷺ، فلو كانت الأحرف السبع اختلافاً في تقديم بعض الكلمات أو تأخيرها أو اختلافاً في الإعراب، لبقى الاختلاف، ولم يكن معنى للعمل الذي قام به عثمان.

لذلك كله كان ترجيحنا لما ذهب إليه الطبري في معنى الأحرف السبعة، ويقيني أن ابن جرير - رحمه الله - ومن معه حينما قرروا رأيهم لم يكن اختلاف اللهجات وما يتصل به أمراً غائباً عنهم.

وما دمتنا قررنا من قبل أن العدد لا مفهوم له، وبرهناً على ذلك، فإننا لا نجد ما يصعب علينا حلّه من بحث عن ماهية هذه الأحرف، وبقيننا أن هذا القول ليس فيه تحجُّر على المصحف، ولا إهدار للأحرف التي نزل عليها القرآن الكريم، ولا إضاعة لشيء من كتاب الله تبارك وتعالى، وكيف ذلك وسيدنا رسول الله ﷺ ما كان يقرئ الصحابة جميعاً هذه الأحرف جميعها، وإذن ليست من الواجبات على كل مسلم.

ولذلك فإن فعل عثمان ﷺ منسجم تماماً مع ما كان يعلمه النبي ﷺ، فالنبي لم يكن يعلم المسلمين جميعاً الأحرف السبعة، وعثمان ﷺ انسجماً مع هذا الفهم لم يكتب الأحرف السبعة، وما قرره الطبري وغيره من الأئمة منسجم كل الانسجام ومتسق كل الاتساق ومتفق كل التوافق مع إقراء النبي ﷺ وكتابة عثمان ﷺ.

يقول الدكتور عبدالصبور شاهين: «فالذي نرجحه في معنى الأحرف السبعة ما يشمل اختلاف اللهجات، وتباين مستويات الأداء الناشئة عن اختلاف السن، وتفاوت التعليم، وكذلك ما يشمل اختلاف بعض الألفاظ وترتيب الجمل بما لا يتغير به المعنى المراد. وإذا كانت الأحاديث الواردة في الباب لم تحدد تحديداً قاطعاً المراد بها، وتخصيص العدد بسبعة، فليس لنا أن نحُدس بهذا المراد، وخير برهان على أن دلالة العدد هنا غير مرادة لذاتها أن الصحابة، وهم أكثر الناس معاناة للمشكلة، كانوا يتقبلون الأمر على أنه من باب التوسعة والتيسير، كما حدثهم دائماً رسول الله، وكانت دلالته تتسع يوماً بعد

يوم، كلما جد جديد في محيط الدعوة، أو وفد وافد من الأصقاع البعيدة، يحمل معه تقاليد لهجية غريبة يقرأ بها القرآن، ويتسع لها دائماً مدلول الأحرف السبعة»^(١).

هل المصحف العثماني مشتمل على الأحرف السبعة؟

اختلف العلماء في هذه القضية، واختلفا فهم هذا ناشئ عن اختلافهم في معنى الأحرف السبعة، فمن رأى أنها سبع لغات مختلفة في الألفاظ، متفقة في المعاني، قال: إن مصحف عثمان كتب على حرف واحد، ومن رأى أنها وجوه كالاختلاف في الإعراب أو التقديم والتأخير، قال: إنها مشتملة على الأحرف السبعة، وكذلك الذين قالوا: إنها سبع لغات متفرقة في كتاب الله. ويتلخص ما ذكره في آراء ثلاثة:

الرأي الأول: مذهب الإمام الطبري ومن وافقه:

فقد ذهب الإمام الطبري والطحاوي وابن حبان والحرث المحاسبي وأبو عمر بن عبد البر والداودي وأبو عبيد وأبو عمرو الداني^(٢) إلى أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ؓ أمر الرهط الأربعة الذين اشتركوا في جمع المصحف في عصره أن يكتبوا القرآن على حرف واحد، كي لا تختلف الأمة في كتابها كما اختلف اليهود والنصارى في كتابهم، ففعلوا، ومن ثم تم جمع الناس على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، وترك الناس الأحرف الأخرى طاعة لخليفهم أمير المؤمنين عثمان ؓ، والتزموا قراءة القرآن وتلاوته على ذلك الحرف، غاضين الطرف عن الأحرف الأخرى، حتى اندثرت. فلا سبيل اليوم لقراءة القرآن عليها لذهابها واندثارها.

وقد أطال الإمام الطبري النفس في تأييد هذا القول والدفاع عنه ودحض الشبه التي ترد عليه في مقدمة تفسيره.

قال رحمه الله بعد أن ذكر طرفاً من الأحاديث والآثار الواردة في جمع القرآن الكريم: «وما أشبه ذلك من الأخبار التي يطول باستيعاب جميعها الكتاب، والآثار الدالة على أن

(١) تاريخ القرآن ص ٤٧.

(٢) انظر البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/٢٢١، ٢٣٩)، وشرح النووي على صحيح مسلم (٦/١٠٠)، والمقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار (١/٤٦).

إمام المسلمين، وأمير المؤمنين عثمان بن عفان رحمة الله عليه، جمع المسلمين، نظراً منه لهم، وإشفافاً منه عليهم، ورأفة منه بهم، حذار الردة من بعضهم بعد الإسلام، والدخول في الكفر بعد الإيمان، إذ ظهر من بعضهم بمحضه وفي عصره التكذيب ببعض الأحرف السبعة، التي نزل عليها القرآن، مع سماع أصحاب رسول الله ﷺ من رسول الله ﷺ النهي عن التكذيب بشيء منها، وإخباره إياهم، أن المرء فيها كفر، فحملهم - رحمة الله عليه - إذ رأى ذلك ظاهراً بينهم في عصره. ولحدائث عهدهم بنزول القرآن، وفراق رسول الله ﷺ إياهم، بما أمن عليهم معه عظيم البلاء في الدين من تلاوة القرآن على حرف واحد، وجمعهم على مصحف واحد، وحرف واحد، وخرق ما عدا المصحف الذي جمعهم عليه.

وعزم على كل من كان عنده مصحف، مخالف المصحف الذي جمعهم عليه، أن يخرقه، فاستوسقت له الأمة على ذلك بالطاعة، ورأت أن فيما فعل من ذلك الرشد والهداية، فتركت القراءة بالأحرف الستة، التي عزم عليها إمامها العادل في تركها، طاعة منها له، ونظراً منها لأنفسها، ولن بعدها من سائر أهل ملتها، حتى درست من الأمة معرفتها، وتعتت آثارها، فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها لدثورها، وعفو آثارها، وتتابع المسلمون على رفض القراءة بها من غير جحود منها صحتها وصحة شيء منها، ولكن نظراً منها لأنفسها، ولسائر أهل دينها، فلا قراءة اليوم للمسلمين إلا بالحرف الواحد، الذي اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح، دون ما عداه من الأحرف الستة الباقية»^(١).

وقد أورد رحمه الله على قوله هذا شبهة فقال: «فإن قال بعض من ضعفت معرفته: كيف جاز لهم ترك قراءة أقرأهموها رسول الله ﷺ. وأمرهم بقراءتها؟

ثم أجاب عليها قائلاً: إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض، وإنما كان أمر إباحة ورخصة، لأن القراءة بها لو كانت فرضاً عليهم لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف السبعة عند من تقوم بنقله الحجة، ويقطع خبره العذر، ويزيل الشك

(١) جامع البيان (١/٢٨).

من قَرَأَ الأَمة، وفي تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل على أنهم كانوا في القراءة بها مخيرين، بعد أن يكون في نقلة القرآن من الأمة من تجب بنقله الحجة ببعض تلك الأحرف السبعة.

فإذا كان ذلك كذلك، لم يكن القوم بتركهم نقل جميع القراءات السبع، تاركين ما كان عليهم نقله، بل كان الواجب عليهم من الفعل ما فعلوا إذ كان الذي فعلوا من ذلك، كان هو النظر للإسلام وأهله. فكان القيام بفعل الواجب عليهم بهم أولى من فعل ما لو فعلوه كانوا إلى الجناية على الإسلام وأهله أقرب منهم إلى السلامة من ذلك.

وأما ما كان من اختلاف القراءة في رفع حرف وجره ونصبه، وتسكين حرف وتحريكه ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصورة فمن معنى قول النبي ﷺ: «أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف» بمعزل^(١).

وقال رحمه الله في إجابته عن مصير الأحرف الأخرى في موضع آخر من تفسيره: «لم تنسخ فترفع ولا ضيعتها الأمة، وهي مأمورة بحفظها، ولكن الأمة أمرت بحفظ القرآن، وخيرت في قراءته وحفظه، بأي تلك الأحرف السبعة شاءت، كما أمرت إذا هي حثت في يمين وهي موسرة أن تكفر بأي الكفارات الثلاث شاءت: إما بعق، أو إطعام، أو كسوة، فلو أجمع جميعها على التكفير بواحدة من الكفارات الثلاث دون حظرها التكفير بأي الثلاث شاء المكفر، كانت مُصيبةً حُكَمَ الله، مؤدية في ذلك الواجب عليها من حق الله.

فكذلك الأمة أمرت بحفظ القرآن وقراءته، وخيرت في قراءته بأي الأحرف السبعة شاءت، فرأت - لعله من العلل، أوجبت عليها الثبات على حرف واحد - قراءته بحرف واحد، ورفض القراءة بالأحرف الستة الباقية، ولم تحظر قراءته بجميع حروفه على قارئه، بما أذن له في قراءته به»^(٢).

ويقول أبو عمرو الداني: «فلما كان زمان عثمان ؓ ووقع الاختلاف بين أهل العراق، وأهل الشام في القراءة، وأعلمه حذيفة بذلك، رأى هو ومن بالحضرة من

(١) المرجع نفسه (٢٨، ٢٩).

(٢) جامع البيان (١/٢٦).

الصحابة أن يجمع الناس على حرف واحد من تلك الأحرف، وأن يسقط ما سواه فيكون ذلك مما يرتفع به الاختلاف، ويوجب الاتفاق إذ كانت الأمة لم تؤمر بحفظ الأحرف السبعة وإنما خبرت في أيها شاءت لزمته، وأجزأها كتخيرها في كفارة اليمين بالله بين الإطعام والكسوة والعق، لا أن يجمع ذلك كله فكذلك الأحرف السبعة»^(١).

وذكر الطحاوي أن ذلك كان في وقت خاص لضرورة دعت إليه؛ لأن كل ذي لغة كان يشق عليه أن يتحول عن لغته، ثم لما كثر الناس والكتّاب ارتفعت تلك الضرورة، فارتفع حكم الأحرف السبعة، وعاد ما يقرأ به إلى حرف واحد^(٢).

وقال ابن عبد البر: «فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كانت في وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك، ثم ارتفعت تلك الضرورة فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد»^(٣) وروي مثل هذا عن الحارث المحاسبي رحمه الله^(٤).

خلاصة هذا الرأي لهؤلاء الأئمة الأعلام: أن مصحف عثمان رضي الله عنه كتب على حرف واحد، وليس في ذلك مطعن، فإذا كان الرسول ﷺ لم يلزم جميع المسلمين، بل كان يقرئ كل واحد ما تيسر من هذه الأحرف - كما مر من قبل - فلم لا يكون عمل عثمان رضي الله عنه مقبولاً، أما الكتابة فكانت على حرف واحد كما مر من قبل.

لم يكن ما فعله عثمان - إذن - مخالفاً لهدي الرسول ﷺ لا سيما وقد اختلف المسلمون اختلافاً كان سيؤدي بهم إلى فتنة خطيرة النتائج، فوقى الله به المسلمين شر هذه الفتنة.

ويقيني أن الأمر ليس فيه إلا اليسر، وهو خالي عن كل إشكال وتعقيد، فإذا رجعتم إلى بعض الحقائق التي ذكرت من قبل أدركتم هذا اليسر.

(١) المقتنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار لأبي عمرو الداني (١٢٠).

(٢) انظر البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٢٤، شرح النووي على صحيح مسلم (١٠٠/٦)، والجامع لأحكام القرآن (٤٢/١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤٣/١)، والبرهان (٢٢١/١).

(٤) انظر البرهان في علوم القرآن (٢٣٨/١).

عرفنا من قبل أن سيدنا رسول الله ﷺ ، كان يأمر بكتابة الآيات التي تنزل، ويبين للناس موضعها من كل سورة، وكتب القرآن كله في عهد النبي ﷺ في صحف كثيرة متعددة الأنواع فمنها العظم والرقائق والخشب وغير ذلك، ثم جمعت هذه الصحف في مصحف واحد في عهد أبي بكر، وكان هناك عمل آخر من الرسول ﷺ حيث كان يقرئ الصحابة أحرفاً متعددة، يقرئ هذا حرفاً وذاك حرفاً آخر، حسب ما يتسنى لكل واحد، فكان بعض الصحابة يكتب ما يقرئه النبي ﷺ ، وكان آخرون لا يكتبون، ثم تفرق الصحابة في الأمصار فبعضهم لم يكن معه إلا ما أقرأه النبي ﷺ وما أخذه عنه مشافهة، وآخرون أضافوا إلى هذا ما كانوا يكتبونه لأنفسهم، وكان من البدهي أن يقوم هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم بتعليم الناس القرآن، وكان من البدهي كذلك أن تختلف قراءات المتلقين لاختلاف إلقاء الصحابة لهم، ولطول عهد ما بين النبي ﷺ وما بين عثمان، قد يكون بعض الناس من أولئك المتلقين عن الصحابة، أو عمن تلقى عنهم من المتفنين، فكان من الطبيعي أن تكون النتيجة التي فزع من أجلها حذيفة ؓ في فتح أرمينية وأذربيجان، وأسرع بإبلاغ عثمان ؓ ما كان من الناس، فما زاد عثمان ؓ على أن أخذ المصحف الذي جُمع في عهد أبي بكر ؓ ، والذي كان جمعه من الصحف التي كُتبت في عهد الرسول ﷺ وحفظ الصحابة رضوان الله عليهم، ونسخ ؓ بضعة مصاحف أرسلها إلى الأقاليم، وأرسل مع كل مصحف مقرئاً يعلم الناس، وأمر الناس أن يلتزموا بهذا المصحف، وأن يتركوا الحروف التي عندهم.

هذا ملخص ما فعله عثمان ؓ وليس في هذا الفعل أي مخالفة أو هدر أو خروج على ما كان في عهد النبي ﷺ .. الحرف الذي جمع عثمان ؓ الناس عليه، هو الذي كان يمليه النبي ﷺ على كتبة الوحي.

الرأي الثاني: إن المصحف العثماني مشتمل على الأحرف السبعة جميعها:

ذهب جماعة من الفقهاء والقراء والمتكلمين إلى اشتمال المصاحف العثمانية على الأحرف السبعة جميعها منهم القاضي أبو بكر الباقلاني حيث يقول: «الصحيح أن هذه الأحرف السبعة ظهرت واستفاضت عن رسول الله ﷺ وضبطها عن الأمة وأثبتها عثمان والجماعة في المصحف وأخبروا بصحتها»^(١).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٦/١٠٠)، البرهان في علوم القرآن (١/٢٢٣، ٢٢٤).

واحتج أصحاب هذا الرأي بأنه لا يجوز للأمة أن تهمل نقل شيء من الأحرف السبعة، التي نزل القرآن بها، وقد أجمع الصحابة على نقل المصاحف العثمانية من الصحف التي كتبها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وإرسال كل مصحف منها إلى مصر من أمصار المسلمين، وأجمعوا على ترك ما سوى ذلك، ولا يجوز أن ينهى عن القراءة ببعض الأحرف السبعة، ولا أن يجمعوا على ترك شيء من القرآن^(١).

يقول الباقلاني رحمه الله: «وإنه لا يجوز أبداً أن تتفق الأمة على حظر ما أحله الله تعالى، ونخطة من أخبر الله بصوابه؛ لأن ذلك إجماع على خطأ وهو ممتنع على الأمة»^(٢).

وأجيب عما قاله أصحاب هذا الرأي بأجوبة منها ما قاله الإمام الطبري رحمه الله من أن القراءة بالأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة، وإنما كان ذلك مباحاً لهم ومرخصاً فيه، وقد خيروا في القراءة بأيها شاءوا، كما في الأحاديث الصحيحة، فلما رأى الصحابة رضي الله عنهم أن الأمة ستفترق وستختلف إن لم يجتمعوا على حرف واحد، اجتمعوا على ذلك اجتماعاً سائغاً، وهم معصومون عن أن يجتمعوا على ضلالة، ولم يكن في ذلك ترك لواجب ولا فعل لمحظور^(٣).

الرأي الثالث: أن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة:

ذهب جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين إلى أن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط، جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل عليه السلام متضمنة لها لم تترك حرفاً منها^(٤).

وهو قول أبي العباس المهدوي، ومكي بن أبي طالب وابن الجزري وغيرهم.

(١) انظر النشر في القراءات العشر (١/ ٣١).

(٢) الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها (٣٧٦) نقلاً عن كتاب الانتصار، (١/ ٣٣٥) طبعة مؤسسة الرسالة.

(٣) جامع البيان (١/ ٢٦).

(٤) النشر في القراءات العشر (١/ ٣١).

يقول مكِّي رحمه الله: «وكان المصحف قد كتب على لغة قريش، على حرف واحد ليزول الاختلاف بين المسلمين في القرآن، ولم ينقط ولم يضبط فاحتمل التأويل لذلك»^(١).

ويقول أيضاً: «فالمصحف كتب على حرف واحد، وخطه محتمل لأكثر من حرف إذ لم يكن منقوطةً ولا مضبوطةً فذلك الاحتمال الذي احتمل الخط هو من الستة الأحرف الباقية»^(٢).

ويقول أبو شامة: «والحق أن الذي جُمع في المصحف هو المتفق على إنزاله المقطوع به المكتوب بأمر النبي ﷺ، وفيه بعض ما اختلفت فيه الأحرف السبعة لا جميعها، كما وقع في المصحف المكي ﴿تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، في آخر براءة، وفي غيره بحذف «من» وكذا ما وقع من اختلاف مصاحف الأمصار من عدة واوات ثابتة في بعضها دون بعض، وعدة هاءات، وعدة لامات ونحو ذلك، وهو محمول على أنه نزل بالأميرين معاً، وأمر النبي ﷺ بكتابه لشخصين أو أعلم بذلك شخصاً واحداً، أو أمره بإثباتها على الوجهين»^(٣).

ويقول ابن الجزري رحمه الله معقياً على هذا القول: «وهذا القول هو الذي يظهر صوابه لأن الأحاديث الصحيحة والآثار المشهورة المستفيضة تدل عليه وتشهد له»^(٤).

على أنني هنا أراني مضطراً أن أسجل ما يلي:

إن ما ينشأ عن احتمال رسم المصحف ليس كله مقبولاً، ومن هنا دخل المستشرقون وأعوانهم لإثارة الشبهات في هذه القضية. إن ما نشأ عن احتمال الرسم كان بعضه صحيحاً لا شبهة فيه ولا مطعن عليه... نحن إذن أمام مجموعتين يحتملها الرسم العثماني: مجموعة لا يجوز أن يقرأ بها.

(١) الإبانة عن معاني القراءات (٢٣).

(٢) المرجع السابق ص ٢٤.

(٣) المرشد الوجيز ص ٣٨، وانظر فتح الباري (٩ / ٣٠).

(٤) النشر (١ / ٣١).

ومجموعة هي قرآن بإجماع المسلمين.

والتساؤل هنا أكان عثمان في اختياره الخط الذي كُتب عليه المصحف يقصد أن يحتمل هذا الرسم أحرفاً غير الحرف الذي كُتب عليه المصحف؟ أنا لا يدولي هذا، بل الذي يظهر لي أن هذه القراءات الصحيحة التي احتملها رسم المصحف لم تكن من حروف متعددة، فإننا نرى أن هناك ألفاظاً احتملها الرسم وهي ليست قرآناً بإجماع^(١)، وهناك ألفاظ خالفت الرسم - وهي قليلة - ومع ذلك فإنهم أجمعوا على قرآنتها، ولعل في هذا إجابة عن سؤال ناشئ عن هذا القول. من أين جاءت هذه القراءات التي أجمع المسلمون على صحتها، إذا كان مصحف عثمان كُتب على حرف واحد؟! .

ونجيب عن هذا التساؤل:

إن الأحرف هي اللغات، وأما القراءات فهي إما كيفيات في النطق كالمد والقصر والإدغام والإظهار والإمالة ونحو ذلك، وإما أنواع من التعبير لا تختص بها لغة دون لغة. بل هي من الأساليب المشتركة بين اللغات كما أنزلها الله تعالى لحكمة تتضح بالتأمل الصادق في كل موضع، وذلك كالغيبة والخطاب والتذكير والتأنيث والتقديم والتأخر واختلاف الحركات التي يترتب عليها اختلاف المعاني كما في قوله: ﴿وَلِنْ كَانَتْ مَكْرَهُمْ لِنَزُولِ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ بكسر اللام الأولى من قوله: «لِنَزُولِ» وفتح الثانية في قراءة، وفتح الأولى وضم الثانية في قراءة أخرى، وقد يكون اختلاف القراءتين باختلاف مادتيهما، لكن لا على أنها لفظان من لغتين مختلفتين يؤديان معنى واحداً، كشأن الأحرف بل على أنها مادتان عربيتان لا تختص بهما أو إحداها لغة دون أخرى، وكل منهما يفيد معنى غير الذي يفيد الأخرى، وذلك نحو «تتلو»، و«تبلو» من قوله: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠]^(٢).

(١) راجع كتابنا القراءات القرآنية.

(٢) مباحث علوم القرآن، عبدالمجيد غزلان، ص ٢١٨.

وقد يقال: إن هذا لا يزيل إشكالاً يظل عالقاً في النفس، إن في هذه القراءات الصحيحة لهجات متعددة: منها ما يتعلق بالإمالة وما يتبعها، ومنها ما يتعلق بالهمز وما يعرض له من تسهيل وإبدال، وهذه كلها ليست لقبيلة واحدة، وليست كلها لغة قريش، فكيف بقيت على تعددها وما بينها من اختلاف ترجع إلى حرف واحد؟!

وأقول: إن لغة قريش بعد نزول القرآن استوعبت كثيراً من اللهجات، وهي وإن لم تكن منها في الأصل لكنها استطاعت أن تهضمها بعد ذلك، ولذلك وجدنا كثيراً من هذه الظواهر، كالإدغام والفك في مثل (يشاق ويشاقق).

وأرجو أن تجد مزيد تفصيل في البحث التالي مبحث القراءات القرآنية وهو الذي يلي هذا المبحث.

الفصل السابع عشر

القراءات القرآنية

رفع

عبد الرحمن بن النجدي
(سكنه الله)

بعد أن تحدثنا عن الأحرف السبعة نرى أن نتحدث الآن عن القراءات القرآنية، ولم نفصل بين المبحثين كما ذهب إليه كثير من الكاتبين؛ ذلك لما بينهما من وشائج وصلات، وتداخل كل منهما في الآخر، ولهذه الصلات رأينا بعض المؤلفين الأقدمين يجعلها موضوعاً واحداً، وهذا هو صنيع الزركشي - رحمه الله - في البرهان. وقد صدر - والحمد لله - لي كتاب القراءات القرآنية وما يتصل بها في العام الماضي. وحديثنا ينتظم ما يلي:

أولاً: تعريف القراءة لغةً واصطلاحاً.

ثانياً: العلاقة بين القرآن والقراءات.

ثالثاً: العلاقة بين الأحرف السبعة والقراءات.

رابعاً: تعدد القراءات وأسبابه.

خامساً: الأئمة العشرة ورواتهم.

سادساً: الفرق بين القراءة والرواية والطريق.

سابعاً: أقسام القراءات.

ثامناً: أركان القراءة المقبولة.

تاسعاً: تواتر القراءات.

عاشراً: الاختلاف بين القراءات اختلاف تنوع لا تضاد.

حادي عشر: القراءات الشاذة وأسباب الشذوذ.

ثاني عشر: الاختيار في القراءات.

ثالث عشر: توجيه القراءات.

رابع عشر: القراءات والنحاة.

خامس عشر: شبهات حول القراءات.

أولاً: تعريف القراءات:

القراءات لغة: القراءات جمع قراءة، وهي مصدر قرأ، يقال: قرأ فلان، يقرأ قراءة، وهي بمعنى الجمع والضم.

قال ابن منظور: «قَرَأَهُ، وَيَقْرُؤُهُ، وَيَقْرُؤُهُ، قَرَأَ، وقراءة، وقرآنًا، فهو مقروء... ومعنى القرآن معنى الجمع، وسمي قرآنًا لأنه يجمع السور فيضمها، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصتْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨]، أي قراءته... وقرأت الشيء قرآنًا: جمعته وضممت بعضه إلى بعض».

وقال ابن الأثير: «تكرر في الحديث ذكر القراءة، والافتراء، والقارئ، والقرآن، والأصل في هذه اللفظة الجمع، وكل شيء جمعته فقد قرأته»^{(١)(٢)}.

القراءات اصطلاحاً: قال ابن الجزري: «القراءات: علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزواً لناقله»^(٣)، ثم تابع كلامه معرفاً المقرئ فقال: «والمقرئ: العالم بها رواها مشافهة؛ فلو حفظ التيسير»^(٤) مثلاً ليس له أن يقرئ بها فيه، إن لم يشافهه من شوفه به مسلسلًا؛ لأن في القراءات أشياء لا تحكم إلا بالسمع والمشافهة»^(٥).

يلاحظ في تعريف ابن الجزري رحمه الله للقراءات، أنه أكد قضية مهمة حرية بالتنبيه عليها، والتنبيه لها، ألا وهي: اعتماد القراءات القرآنية على السماع، والمشافهة، والتلقي عن

(١) النهاية في غريب الحديث (٤/ ٣٠).

(٢) لسان العرب مادة قرأ، والصحاح للجوهري مادة قرأ.

(٣) منجد المقرئين ومرشد الطالبين، لابن الجزري ص ٣.

(٤) كتاب مشهور في القراءات لأبي عمرو الداني، وهو الذي نظم الشاطبي - رحمه الله - في قصيدته المشهورة (الشاطبية).

(٥) منجد المقرئين ومرشد الطالبين لابن الجزري ص ٣.

تلقاها وسمعها، وأخذها مشافهة عن شيوخه، مسلسلاً إلى النبي ﷺ، وهذا أحد الفروق الدقيقة بين القراءة والحديث^(١).

وهذه القضية مع ما لها من أهمية كبيرة إلا أن كثيراً من الناس يغفلون عنها، ويظن بعضهم أنه إن حفظ بعض متون القراءات، وقرأ بعض الكتب الخاصة بالقراءة والأداء والتلاوة، أصبح قارئاً، وبإمكانه أن يقرأ الناس ويعلمهم ما أخذه عن الكتب والصحف؛ وهذا أمر خطير لما له من عواقب وخيمة؛ فعلى مريد القراءة، ومتعلم أحكامها أن يعرف عمن يأخذ ذلك، وعمن يتلقى الكيفية الصحيحة التي يقرأ بها كتاب الله تعالى.

ثانياً: العلاقة بين القراءات والقرآن:

ذهب الإمام الزركشي رحمه الله، إلى أن القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان حيث يقول: «واعلم أن القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان؛ فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز؛ والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتابة الحروف أو كفيته، من تخفيف، وتثقيل وغيرهما»^(٢).

وتبعه على ذلك القسطلاني في كتابه لطائف الإشارات^(٣)، وأحمد بن محمد الدمياطي الشهير بالبنا في كتابه: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر^(٤).

قلت: إن كان الزركشي رحمه الله قصد من قوله: إن القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان. جميع القراءات الواردة، المتواترة منها وغير المتواترة، الموافقة لخط المصحف والمخالفة له، فإن قوله صحيح، وذلك أننا لا نقول بقرآنية ما لم يثبت متواتراً من القراءات، لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، أما القراءات الأخرى المنقولة بأخبار الأحاد فهي مغايرة للقرآن، لأننا لا نقطع بكونها قرآناً.

(١) ففي الحديث قد يكتفى بسماع التلميذ من الشيخ، أما في القراءات فلا يكفي بذلك، وإنما المعول على قراءة التلميذ على الشيخ، حتى يتبين إتقانه وحسن أدائه.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٣١٨/١).

(٣) انظر لطائف الإشارات في فنون القراءات (١/١٧١).

(٤) انظر إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر (٥).

وأما إن عني بقوله هذا القراءات المتواترة، فقوله فيه نظر، وذلك أن القراءات المتواترة هي وحي منزل من عند الله تعالى، كما أن القرآن وحي منزل من عند الله تعالى، فإن الوحي نزل بكل وجه من الأوجه المتواترة التي يقرأ عليها القرآن الكريم، فكما أن الوحي نزل بقراءة «نُنشِزُها» وهي من القرآن دون شك؛ فقد نزل كذلك بقراءة «نُنشِزُها» وهي من القرآن أيضاً، فكل قراءة من القراءات المتواترة سدت مسد آية، كما أن القرآن المقروء بأي قراءة من القراءات المتواترة، هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز؛ فالقرآن الذي بين أيدينا مكتوب ومقروء على رواية حفص بن عاصم، وهو الوحي المنزل من عند الله دون شك؛ وكذلك المصحف الذي في بلاد المغرب مكتوب ومقروء على قراءة نافع، من رواية قالون عنه في تونس، ومن رواية ورش عنه في الجزائر، وهو دون شك الوحي المنزل من عند الله تعالى، وكذلك المصحف الذي في بلاد الصومال فهو مكتوب ومقروء على قراءة أبي عمرو البصري وهو الوحي المنزل من عند الله تعالى.

كذلك الحال في كل قراءة من القراءات المتواترة، لو كان مقروءاً بها في أي مصر من أمصار المسلمين. فلا فرق بين القرآن المكتوب والمقروء على أي قراءة من القراءات المتواترة، وغيره المكتوب أو المقروء على قراءة أخرى، فجميعها الوحي المنزل على سيدنا محمد ﷺ للبيان والإعجاز.

فالقراءات القرآنية المتواترة، هي أبعاض القرآن وأجزاؤه، وبعض الشيء وجزؤه لا يقال عنه هو غيره. فالقراءات القرآنية بمجموعها تمثل الوحي المنزل على سيدنا محمد ﷺ للبيان والإعجاز، وكل قراءة متواترة تمثل صورة صادقة وكاملة عن وجه من وجوه أداء هذا القرآن كاملاً، كما أنزل على سيدنا محمد ﷺ.

ثالثاً: العلاقة بين الأحرف السبعة والقراءات:

ذكرنا في تفسير معنى الأحرف السبعة أن أحد وجوه تفسيرها القول بأن المراد بالأحرف السبعة، القراءات السبع، وقد ردّدنا هذا القول.

فما هي الصلة بين الأحرف السبعة والقراءات السبع؟

إن هذه الصلة تتوقف على تفسيرنا للأحرف السبعة، فإذا فُسِّرَتْ بأنها وجوهٌ من الاختلاف في القراءة كما ذهب إليه ابن قتيبة وأبو الفضل الرازي والباقلاني وابن الجزري فإن الأحرف السبعة: أصلٌ لهذه القراءات. ببيان ذلك: أنهم عدّوا أحد الوجوه السبعة: التقديم والتأخير، وهذا وجهٌ عامٌ يندرج فيه قراءات كثيرة اشتملت على هذا الوجه. فمنها مثلاً:

«وَقَاتِلُوا وَقَاتِلُوا»، «وَقَاتِلُوا وَقَاتِلُوا» ومنها «فَيَقْتُلُونَ وَيَقْتُلُونَ» «فَيَقْتُلُونَ وَيَقْتُلُونَ».

ومن الأوجه الحذف والذكر وهذا الوجه تندرج تحته قراءات كثيرة كذلك.

أما إذا فُسِّرنا الأحرف السبعة بما ذهب إليه ابن جرير الطبري فالأمرُ يختلف اختلافاً تاماً كما بيّناه من قبل، إذ الأحرف السبعة لغاتٌ، أما القراءات فكيفياتٌ في اختلاف النطق والأداء.

قال النيسابوري - رحمه الله - في تفسيره: «فإن قيل فما قولكم في القراءات التي تختلف بها المعاني؟ قلنا: إنها صحيحة منزلة من عند الله، ولكنها خارجة من هذه السبعة الأحرف، وليس يجوز أن يكون فيها أنزل الله من الألفاظ التي تختلف معانيها ما يجري اختلافها مجرى التضاد والتناقض لكن مجرى التغاير الذي لا تضاد فيه»^(١).

رابعاً: تعدد القراءات وأسبابه،

مصدر القراءات:

وردت آيات قرآنية وأحاديث شريفة صريحة في أن مصدر القراءات هو الوحي. ومن هذه الآيات الكريمة:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَأَنْتِ بِظُرٍّ أَبْصَرْتِ أَمْ أَبْصَرْتِ لَنَا مَا كُنْتِ لِي أَنْ أَبْصَرْتِ مِنْ تِلْكَ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتِ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

(١) تفسير النيسابوري (المطبوع على هامش تفسير الطبري)، (٢٢/١) المقدمة الثالثة، ط بولاق ١٣٢٣هـ.

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾
[النجم: ٣-٥].

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ۖ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۖ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

فالأيات الكريمة تؤكد أن الرسول ﷺ لا يستطيع أن يبدل في القرآن الكريم شيئاً من عند نفسه، فمن الأولى - إذن - أن غير الرسول ﷺ لا يستطيع ذلك.

أما الأحاديث الشريفة، فلقد سبق لنا إيراد طائفة منها في فصل الأحرف السبعة، وإننا إذا تأملنا نصوص أحاديث الأحرف السبعة وجدناها تدل بوضوح على أن القراءات كلها من الوحي وليس للرسول ﷺ فيها سوى التبليغ.

وإذا نظرنا إلى استمداد علم القراءات وجدنا علماء القراءات يقولون: إن القراءة سنة متبعة لا مجال فيها للاجتهاد أو القياس حتى ولو كان لقوة وجه في اللغة، فالرواية «إذا ثبتت عندهم لا يردّها قياسٌ عربية ولا فشو لغة؛ لأنّ القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها»^(١).

قال الإمام الشاطبي:

وما لقياس في القراءة مدخلٌ فدونك ما فيه الرضا مُتكفلاً
قال أبو شامة: «أي لا مدخل للقياس في أصل القراءات وإلا لاتسع الأمر في ذلك»^(٢).

كما لا يجوز القياس على إجماع انعقد أو القياس على أصل يعتمد، فالإجماع إنما يؤخذ به عند عدم النص وغموض وجه الأداء؛ لأن ذلك مما يرجح به كالذي اختير في تخفيف

(١) النشر: ٣٨/١.

(٢) إيراد المعاني: ١٨٦.

بعض الهمزات أو إثبات البسمة وعدمها لبعض القراء وغير ذلك مما لا يخالف نصاً ولا يرد إجماعاً ولا أصلاً^(١).

أما القراءة بالقياس المطلق فممنوعة إجماعاً، وقد شدّ من القدماء ابن مقسم الذي رأى جواز القراءة بها خالف خط المصحف وإن لم يُرو^(٢).

فمصدر القراءات أساساً هو الوحي، لكن قد يرد في بعض مصادر القراءات أن استمدادها «من السنة والإجماع»^(٣).

فأما ذكرُ السنة هنا فمن جهة كون الرسول ﷺ مبلّغاً للوحي.

أما الإجماع فمدارُه على شروط قد تُشترط في القراءات زيادةً في الاحتياط، أو على أمور تتعلق بكيفية أداء غمض وجهه كما تقدم، لا أن الإجماع يأتي بوجه من القراءة لم يُرو عن الرسول ﷺ، وإنما أقول هذا دفْعاً لما قد يرد في عبارات موهمة لبعض المعاصرين مثل الدكتور عبد الهادي الفضلي^(٤) إذ يقول إن مصدر القراءات «تلکم الروایات التي تتحدث عما سُمع من في رسول الله ﷺ من القراءات، وعما قُرئ عليه بسماح منه ﷺ وأمضاه»^(٥).

فهذا الكلام يُتوهم منه أن الرسول ﷺ كان يقرّ بعض الصحابة على قراءة أحرف لم يقرئهم إياها، وهذا غير دقيق؛ لأن كل واحد من هؤلاء الصحابة لم يكن ينسب القراءة لنفسه، بل يصرّح بأنه تلقى ما قرأ به رسول الله ﷺ كما مرّ معنا في روايات حديث الأحرف السبعة.

ومصادر القراءات في الجملة خمسة حسبما ذكر الأستاذ الشيخ عبد الوهاب حمودة رحمه الله وهي:

١ - حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف...».

(١) انظر البرهان: (١/ ٣٣٠)، والنشر: (١٧/ ١٨-١٧)، ومناهل العرفان: (١/ ٤١٥).

(٢) النشر: (١٧/ ١)، وغاية النهاية: (١/ ١٢٤).

(٣) إتحاف فضلاء البشر: ٥.

(٤) وهو أحد كتّاب الشيعة.

(٥) القراءات القرآنية تاريخ وتعريف: ٩١.

٢- الاختلافات التي حدثت بين الصحابة في القراءة في عهد الرسول وكان صلوات الله عليه وسلامه حكماً فيها.

٣- الاختلافات التي حدثت بين الصحابة في عهد عثمان رضي الله عنه وكانت حاملاً له على جمع المصحف الإمام.

٤- الاختلافات التي رويت بين المصاحف العثمانية التي أرسلها إلى الآفاق، وهذا الاختلاف إنما هو أثر من آثار القراءات.

٥- الروايات التي رويت عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم ونقلها ثقات الأئمة وتلقتها الأمة بالقبول^(١).

ورحم الله شيخنا، فإن هذه كلها ترجع إلى سبب واحد.

وما ذكره الشيخ - رحمه الله - لا يخرج في حقيقة الأمر عن حديث الأحرف السبعة، فإن تحاكم الصحابة إلى الرسول ﷺ، كان الحديث فيه صريحاً «نزل القرآن على سبعة أحرف»، هذا إذا كان الحديث عن القراءات المتواترة، أما إذا كان الحديث عن جميع القراءات فإن كلام الشيخ - رحمه الله - له وجاهة.

تعدد القراءات وأسبابه:

إن الاختلاف في القراءات في الجملة مرجعه إما إلى اختلاف اللغات وتعدد اللهجات وإما إلى أسباب أخرى.

مثال ما كان مرجعه إلى اختلاف اللهجات وتعدد اللغات قراءة أبي أيوب السخيتاني: (ولا الضالين) [الفاتحة: ٧] بإبدال الألف همزة فراراً من التقاء الساكنين.

وقوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ [سبا: ١٤] قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بألف بعد السين من غير همزة، وهي لغة الحجاز، وهذه الألف بدل من الهمزة، وهو مسموع على غير قياس، ووافقهم اليزيدي والحسن وقرأ الباقر على الأصل بالهمزة المفتوحة^(٢).

(١) القراءات واللهجات، ص ٥.

(٢) الإتحاف: ٣٥٨.

ومثال القراءات التي لا يرجع اختلافها إلى اختلاف اللهجات واللغات قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٥].

قرأ أبو بكر وحمة والكسائي وخلف (عملت) بغير هاء موافقة لمصاحفهم، والباقون بالهاء موافقة لمصاحفهم^(١). وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قرئ بزيادة «من» وقرئ بحذفها، وهي في المصحف المكي بزيادة «من» وفي غيره بحذفها^(٢).

والمتبع لاختلاف القراءات يجد أن جلّها يرجع إلى اللهجات كما قلنا من قبل واختلاف الأساليب من حيث الغيبة والخطاب وهذا يجعلنا نطمئن إلى ما رجحناه من قبل عند حديثنا عن الأحرف السبعة، إذ يندر أن نجد لاختلاف اللغات أثراً في هذه القراءات كتلك التي كانت تروى عن ابن مسعود رضي الله عنه وغيره مثل «زقية» بدل «صبيحة» في قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٢٩].

ومثل «أصوب» بدل «أقوم» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: ٦]، إلى غير ذلك مما دُوِّن في مظانه.

خامساً، الأئمة العشرة ورواتهم:

١- نافع المدني (٧٠-١٦٩هـ):

هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم، أبو رويم الليثي مولاهم، أحد القراء السبعة الأعلام، ثقة صالح، أصله من (أصفهان)، كان أسود اللون حالكاً، صبيح الوجه، حسن الخلق، فيه دعابة.

(١) الإتحاف: ٣٦٥.

(٢) الإتحاف: ٢٤٤.

أقرأ الناس دهرًا طويلاً نيفَ عن سبعين سنة، وانتهت إليه رئاسة القراء بالمدينة، وكان عالمًا بوجوه القراءات متبعًا لأثار الأئمة الماضين ببلده.

وكان رحمه الله إذا تكلم يشم من فيه رائحة المسك، ف قيل له: تتطيب كلما قعدت تقرئ الناس، قال: ما أمس طبيباً ولا أقربه ولكن رأيت فيما يرى النائم النبي ﷺ وهو يقرأ في فيّ، فمن ذلك الوقت أشم من فيّ هذه الرائحة.

توفي رحمه الله في المدينة المنورة سنة تسع وستين ومائة^(١)، وقد أخذ القراءة عن نافع خلق كثيرون لا يحصى عددهم، وأشهر الرواة عنه اثنان وهما قالون وورش.

أ- قالون (١٢٠-٢٢٠): هو عيسى بن مينا بن وردان بن عيسى بن عبد الصمد بن عمر بن عبد الله الزرقى، أبو موسى الملقب قالون، لقبه به نافع لجودة قراءته فإن قالون بلغة الروم جيد، قارئ المدينة ونحوها.

كان جد جده عبد الله من سبي الروم من أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقدّم به من أسره إلى عمر إلى المدينة، وباعه، فاشتراه بعض الأنصار فهو مولى محمد بن محمد بن فيروز.

روي عن أبي محمد البغدادي أنه قال: كان قالون أصم لا يسمع البوق، وكان إذا قرأ عليه قارئ فإنه يسمعه، وقال ابن أبي حاتم: كان أصم يقرئ القرآن ويفهم خطأهم ولحنهم بالشفة. توفي رحمه الله بالمدينة سنة عشرين ومائتين للهجرة^(٢).

ب- ورش (١١٠-١٩٧): هو عثمان بن عبد الله، أبو سعيد، القبطي المصري، الملقب بورش لشدة بياضه، شيخ القراء المحققين، وإمام أهل الأداء المرتلين، انتهت إليه رئاسة الإقراء بالديار المصرية في زمانه، كان رحمه الله جيد القراءة، حسن الصوت، لا يمله سامعه، توفي رحمه الله بمصر سنة سبع وتسعين ومائة عن سبع وثمانين سنة^(٣).

(١) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (٢/٣٣٠)، معرفة القراء الكبار للذهبي (١/١٠٧)، النشر في القراءات العشر (١/١١١).

(٢) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (١/٦١٥)، معرفة القراء الكبار (١/١٥٥)، النشر في القراءات العشر (١/١١٢).

(٣) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (١/٥٠٢)، معرفة القراء الكبار (١/١٥٢)، النشر في القراءات العشر (١/١١٣).

٢- ابن كثير المكي (٤٥-١٢٠):

هو عبدالله بن عمر بن عبدالله بن زاذان بن فيروز بن هرمز. المكي الداري، أبو معبد، إمام أهل مكة في القراءة، ولد بمكة، ولقي بها عبدالله بن الزبير، وأبا أيوب الأنصاري، وأنس بن مالك، ومجاهد بن جبر، ودرباس مولى عبدالله بن عباس وروى عنهم.

كان رحمه الله فصيحاً، بليغاً، مفوهاً، أبيض اللحية، طويلاً، جسيماً، أسمر، أشهل العينين يخضب بالحناء، عليه السكينة والوقار، عالم بالعربية. توفي رحمه الله بمكة سنة عشرين ومائة للهجرة^(١).

أخذ القراءة عن ابن كثير، خلق كثير وأشهر من روى عنه اثنان ولكن بوساطة وهما البزي وقنبل.

أ- البزي (١٧٠-٢٥٠): هو أحمد بن محمد بن عبدالله بن القاسم بن نافع بن أبي بزة، واسمه (بشار) فارسي من أهل همذان، أسلم على يد السائب بن أبي السائب المخزومي، الإمام أبو الحسن البزي المكي مقرئ مكة، ومؤذن المسجد الحرام، كان رحمه الله إماماً في القراءة، محققاً ضابطاً، متقناً. توفي رحمه الله سنة خمسين ومائتين، عن ثمانين سنة^(٢).

ب- قنبل (١٩٥-٢٩١): هو محمد بن عبدالرحمن بن خالد بن سعيد المخزومي بالولاء المكي، أبو عمر الملقب بقنبل، لأنه كان من قوم يقال لهم القنابلة، وقيل غير ذلك، شيخ الإقراء بالحجاز، ورحل الناس إليه من جميع الأقطار. كانت سيرته حمودة. وكبر سنه وشاخ، وقطع الإقراء قبل موته بسبع سنين. توفي رحمه الله بمكة سنة إحدى وتسعين ومائتين، عن ست وتسعين سنة^(٣).

(١) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (٤٤٣/١)، ومعرفة القراء الكبار (٨٦/١)، النشر في القراءات العشر (١٢٠/١).

(٢) انظر المراجع نفسها (١١٩/١)، (١٤٨/١)، (١٢٠/١) وسير أعلام النبلاء (٥٠/١٢).

(٣) انظر المراجع نفسها (١٦٥/٢)، (٢٣٠/١)، (١٢٠/١).

٣- أبو عمرو البصري (٦٨-١٥٤):

هو زيان بن العلاء بن عمار بن العريان، الإمام السيد أبو عمرو التميمي المازني البصري، أحد القراء السبعة، ليس في القراء السبعة أكثر شيوخاً منه، سمع أنس بن مالك وغيره.

كان رحمه الله أعلم الناس بالقرآن والعربية، مع الصدق، والثقة، والزهد وكان كثير العبادة، صاحب كرامات.

وُلد رحمه الله بمكة المكرمة، ونشأ بالبصرة، ومات بالكوفة سنة أربع وخمسين ومائة رحمه الله رحمةً واسعة، وأُسكنه فسيح جناته آمين، روى عنه القراءة^(١).

أ- الدوري (.... - ٢٤٦): هو حفص بن عمر بن عبدالعزيز بن صهبان بن عدي، أبو عمر الدوري الأزدي البغدادي النحوي الضري، إمام القراءة، وشيخ الناس في زمانه، ثقة، ثبت، كبير، ضابط، أول من جمع القراءات، والدوري: نسبة إلى (الدور) موضع ببغداد.

رحل في طلب القراءات، وقرأ بسائر الحروف السبعة وبالشواذ، وسمع من ذلك شيئاً كثيراً. توفي رحمه الله سنة ست وأربعين ومائتين للهجرة^(٢).

ب- السوسي (.... - ٢٦١): هو صالح بن زياد بن عبدالله بن إسماعيل بن الجارود ابن مسرح الرستبي، أبو شعيب السوسي الرقي المقرئ، ضابط محرر ثقة، أخذ القراءة عرضاً وسامعاً عن أبي محمد اليزيدي، وهو من أجل أصحابه، وقرأ على حفص قراءة عاصم، وأخذ القراءة عن جماعة. توفي رحمه الله أول سنة إحدى وستين ومائتين، وقد قارب السبعين^(٣).

(١) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (٢٨٨/١)، معرفة القراء الكبار (١٠٠/١)، النشر في القراءات العشر (١٣٣/١).

(٢) انظر المراجع نفسها (٢٥٥/١)، (١٩١/١)، (١٣٤/١)، طبقات المفسرين للدودي (١٦٥/٦).

(٣) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (٣٣٢/١)، معرفة القراء الكبار (١٩٣/١)، النشر في القراءات العشر (١٣٤/١) وسير أعلام النبلاء (٣٨٠/١٢).

٤- عبدالله بن عامر الشامي (٨-١١٨):

هو عبدالله بن عامر بن يزيد بن نعيم بن ربيعة اليحصبي، يكنى أبا عمران، إمام أهل الشام في القراءة، والذي انتهت إليه مشيخة الإقراء بها.

كان رحمه الله إماماً كبيراً، وتابعياً جليلاً، عالماً شهيراً، أم المسلمين بالجامع الأموي سنين كثيرة في أيام عمر بن عبدالعزيز رحمته الله، جمع له بين الإمامة والقضاء ومشيخة الإقراء في دمشق، وأجمع الناس على قراءته، وُلد رحمه الله سنة ثمان من الهجرة، وقبض رسول الله ﷺ وله سنتان، وقد ثبت سماعه من جماعة من الصحابة. توفي رحمه الله بدمشق يوم عاشوراء سنة ثمان عشرة ومائة^(١).

أشهر من روى عنه من القراء هشام وابن ذكوان وقد أخذوا عنه القراءة بوساطة.

أ- هشام (١٥٣-٢٤٥): هو هشام بن عمار بن نصير بن ميسرة، أبو الوليد السلمي الدمشقي، إمام أهل دمشق، وخطيبهم، ومقرئهم، ومحدثهم، ومفتيهم.

وروى القراءة عنه أبو عبيد القاسم بن سلام قبل وفاته بنحو أربعين سنة.

كان رحمه الله مشهوراً بالنقل والفصاحة والعلم والرواية والدراية، رزق كبر السن وصحة العقل والرأي، فارتحل الناس إليه في القراءات والحديث. توفي رحمه الله سنة خمس وأربعين ومائتين^(٢).

ب- ابن ذكوان (١٧٣-٢٤٢): هو عبدالله بن أحمد بن بشر - ويقال: بشير بن ذكوان بن عمرو، أبو عمرو القرشي الفهري الدمشقي الإمام الأستاذ الشهير الراوي الثقة، شيخ الإقراء بالشام، وإمام جامع دمشق، حين قدم الشام، قال أبو زرعة: لم يكن بالعراق ولا بالحجاز ولا بالشام ولا بمصر ولا بخراسان في زمان ابن ذكوان أقرأ عندي

(١) انظر المراجع نفسها (١/٤٢٣)، (١/٨٢)، (١/١٤٤).

(٢) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (٢/٣٥٤)، معرفة القراء الكبار للذهبي (١/١٩٣)، النشر في القراءات العشر (١/١٤٤).

منه. أخذ القراءة عن أيوب بن تميم عن يحيى بن الحارث الذماري عن عبد الله بن عامر، توفي رحمه الله سنة اثنتين وأربعين ومائتين^(١).

٥- عاصم الكوفي (ت ١٢٧):

هو عاصم بن أبي النُّجُود - بفتح النون وضم الجيم - أبو بكر الأسدي مولا هم الكوفي شيخ الإقراء بالكوفة، وأخذ القراءة السبعة، قيل اسم أبيه عبد الله، وكنيته أبو النُّجُود، وهو الإمام الذي انتهت إليه رئاسة الإقراء بالكوفة بعد أبي عبد الرحمن السلمي، جمع بين الفصاحة، والإتقان، والتحرير، والتجويد، وكان أحسن الناس صوتاً بالقرآن، وكان من التابعين. توفي رحمه الله سنة سبع وعشرين ومائة^(٢). وقد روى القراءة عنه خلق كثير، واشتهر منهم شعبة، وحفص.

أ- شعبة (٩٥-١٩٣): هو شعبة بن عياش بن سالم، أبو بكر الحنطاط، الأسدي النهشلي الكوفي كان إماماً كبيراً وعالمًا عاملاً، وكان من أئمة السنة، ختم القرآن ثمانين عشرة ألف ختمة. عرض القرآن على عاصم ثلاث مرات. توفي رحمه الله سنة ثلاث وتسعين ومائة^(٣).

ب- حفص (٩٠-١٨٠): هو حفص بن سليمان بن مغيرة بن أبي داود الأسدي الكوفي الغاضري البزار، أخذ القراءة عرضاً وتلقيناً عن عاصم، وكان ربيبه ابن زوجته، وكان أعلم من روى عن عاصم بقراءته، وهو في القراءة ثقة ثبت ضابط لها، أقرأ الناس دهرًا، وكانت القراءة التي أخذها عن عاصم ترتفع إلى علي عليه السلام. توفي رحمه الله سنة ثمانين ومائة^(٤).

(١) انظر غاية النهاية (١/٤٠٤)، معرفة القراء الكبار (١/١٩٨)، النشر في القراءات العشر (١/١٤٤).

(٢) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (١/٣٤٦)، معرفة القراء الكبار (١/٨٨)، النشر في القراءات العشر (١/١٥٥).

(٣) انظر غاية النهاية (١/٣٢٥)، معرفة القراء الكبار (١/١٣٤)، النشر في القراءات العشر (١/١٥٦).

(٤) انظر غاية النهاية (١/٢٥٤)، ومعرفة القراء الكبار (١/١٤٠)، النشر في القراءات العشر (١/١٥٦).

٦- حمزة الكوفي (٨٠-١٥٦):

هو حمزة بن حبيب بن عمار بن إسماعيل الزيات، الإمام الحبر، أبو عمار الكوفي، التيمي، مولا هم، وقيل من صميمهم، أحد القراء السبعة، إمام الناس في القراءة بالكوفة بعد عاصم، وكان ثقة حجة، مجوداً لكتاب الله، عارفاً بالفرائض، حافظاً للحديث عابداً، خاشعاً، قانتاً لله تعالى، أدرك بعض الصحابة، وهو من التابعين الأجلاء. توفي رحمه الله سنة ست وخمسين ومائة^(١).

وقد روى القراءة عنه كثير من الناس، وأشهرهم خلف وخلاد فقد أخذوا قراءته عن سليم بن عيسى عن حمزة.

أ- خلف (١٥٠-٢٢٩): هو خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف بن ثعلب، أبو محمد الأسدي البزار البغدادي، أحد القراء العشرة، وأحد الرواة عن سليم عن حمزة. حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين كان ثقة كبيراً، زاهداً عابداً، عالمياً، وقد اختار له قراءة انفرد بها، قال ابن أخته: كان خلف يأخذ بمذهب حمزة إلا أنه خالفه في مائة وعشرين حرفاً، أي: في اختياره. توفي رحمه الله سنة تسع وعشرين ومائتين ببغداد^(٢).

ب- خلاد (١١٩-٢٢٠): هو خلاد بن خالد، أبو عيسى الشيباني مولا هم الصيرفي الكوفي، إمام في القراءة ثقة، عارف، محقق، أستاذ. توفي رحمه الله سنة عشرين ومائتين^(٣).

٧- الكسائي الكوفي (١١٩-١٨٩):

هو علي بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الأسدي مولا هم، أبو الحسن الكسائي، الإمام الذي انتهت إليه رئاسة الإقراء بالكوفة بعد حمزة الزيات، أخذ القراءة عرضاً عن حمزة أربع مرات وعليه اعتماده، وروى الحروف عن أبي بكر بن عياش وعن المفضل بن محمد الضبي وآخرين، رحل إلى البصرة فأخذ اللغة عن الخليل.

(١) انظر غاية النهاية (٢٦١/١)، ومعركة القراء الكبار (١١١/١)، النشر في القراءات العشر (١٦٥/١).

(٢) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (٢٧٢/١)، معرفة القراء الكبار (٣٠٨/١).

(٣) انظر غاية النهاية (٢٧٤/١)، ومعركة القراء الكبار (٢١٠/١).

قال أبو عبيد في كتاب القراءات: كان الكسائي يتخير القراءات، فأخذ من قراءة حمزة ببعض، وترك بعضاً، وكان من أهل القراءة، وهي كانت عمله وصناعته، ولم يجالس أحد كان أضبط، ولا أقوم بها منه.

وقال أبو بكر بن الأنباري: اجتمعت في الكسائي أمور: كان أعلم الناس بالنحو، وأوحدهم في الغريب، وكان أوحد الناس في القرآن، فكانوا يكثرُونَ عليه فيجمعهم ويجلس على كرسي، ويتلو القرآن من أوله إلى آخره، وهم يسمعون ويضبطون عنه حتى المقاطع والمبادئ.

وسمي بالكسائي لأنه أحرم في كساء، له مؤلفات كثيرة نافعة منها كتاب معاني القرآن، وكتاب القراءات، وكتاب العدد، وكتاب النوادر: الكبير، والأوسط، والصغير. توفي رحمه الله سنة تسع وثمانين ومائة^(١).

أشهر من روى عنه اثنان هما: الليث وحفص الدوري.

أ- الليث (...-٢٤٠): هو الليث بن خالد، أبو الحارث البغدادي، ثقة، معروف، حاذق، ضابط عرض على الكسائي، وهو من جلة أصحابه، وروى الحروف عن حمزة بن القاسم الأحول واليزيدي. توفي رحمه الله سنة أربعين ومائتين^(٢).

ب- حفص الدوري (...-٢٤٦): تقدمت ترجمته.

٨- أبو جعفر المدني (...-١٣٠):

هو يزيد بن القعقاع الإمام، أبو جعفر المخزومي المدني القارئ، أحد القراء العشرة، تابعي مشهور كبير القدر، أتى به وهو صغير إلى أم سلمة (رضي الله عنها) فمسحت على رأسه، ودعت له بالبركة، وصلى بآبَنَ عمر، وأقرأ الناس قبل حادثة الحرة، أي: قبل سنة ثلاث وستين، روى عنه القراءة نافع بن أبي نعيم، وآبَنَ جَاز، وآبَنَ وردان وآخرون. كان

(١) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (١/٥٣٥)، ومعرفة القراء الكبار (١/١٢٠)، النشر في القراءات العشر (١/١٧٢).

(٢) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (٢/٣٤)، معرفة القراء الكبار (١/٢١١).

رحمه الله كثير العبادة فكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ويصلي في جوف الليل. توفي رحمه الله سنة ثلاثين ومائة على الأصح^(١).

أشهر من روى عن أبي جعفر، عيسى بن وردان، وسليمان بن جهماز.

أ- عيسى بن وردان (...-١٦٠): هو عيسى بن وردان، أبو الحارث المدني الحذاء، إمام مقرئ حاذق، وراي محقق ضابط. توفي رحمه الله في حدود الستين ومائة^(٢).

ب- سليمان بن جهماز (...-١٧٠): هو سليمان بن مسلم بن جهماز - بالجيم والزاي مع تشديد الميم - أبو الربيع الزهري، مولا هم المدني مقرئ جليل ضابط، توفي رحمه الله بعد سنة سبعين ومائة^(٣).

٩- يعقوب البصري (١١٧-٢٠٥):

هو يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبدالله بن أبي إسحاق، أبو محمد الحضرمي، مولا هم البصري، أحد القراء العشرة، وإمام أهل البصرة ومقرئها، انتهت إليه رئاسة القراءة في البصرة بعد أبي عمرو بن العلاء.

قال أبو حاتم السجستاني: هو أعلم من رأيت بالحروف والاختلاف في القراءات وعلله، ومذاهبه، ومذاهب النحو، وأروى الناس لحروف القرآن، وحديث الفقهاء.

يقول ابن الجزري: ومن أعجب العجب بل من أكبر الخطأ جعل قراءة يعقوب من الشاذ الذي لا تجوز القراءة به ولا الصلاة، وهذا شيء لا نعرفه قبل هذا إلا في هذا الزمان ممن لا يعول على قوله، ولا يلتفت إلى اختياره.

(١) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (٢/٣٨٢)، معرفة القراء الكبار (١/٧٢)، النشر في القراءات العشر (١/١٧٨).

(٢) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (١/٦١٦)، ومعرفة القراء الكبار (١/١١١).

(٣) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (١/٣١٥)، والنشر في القراءات العشر (١/١٧٩).

توفي رحمه الله سنة خمس ومائتين وله ثمان وثمانون سنة، ومات أبوه عن ثمان وثمانين سنة، وكذلك جده وجد أبيه رحمهم الله تعالى^(١).

أشهر من روى القراءة عنه رويس، وروح.

أ- رويس (....-٢٣٨هـ): هو محمد بن المتوكل، أبو عبدالله اللؤلؤي البصري المعروف برويس، مقرئ حاذق، ضابط مشهور. توفي رحمه الله سنة ثمان وثلاثين ومائتين بالبصرة^(٢).

ب- روح (....-٢٣٤هـ): هو روح بن عبدالمؤمن، أبو الحسن الهذلي مولا هم البصري النحوي، مقرئ جليل ثقة ضابط مشهور. توفي رحمه الله سنة أربع أو خمس وثلاثين ومائتين^(٣).

١٠- خلف العاشر (١٥٠-٢٢٩هـ):

تقدمت ترجمته وأشهر رواه:

أ- إسحاق (....-٢٨٦هـ): هو إسحاق بن إبراهيم بن عثمان بن عبدالله، أبو يعقوب المروزي ثم البغدادي الوراق، كان رحمه الله قتيماً بالقراءة، ثقة، ضابطاً لها، وإن كان لا يعرف من القراءات إلا اختيار خلف. توفي رحمه الله سنة ست وثمانين ومائتين^(٤).

ب- إدريس (١٩٩-٢٩٢هـ): هو إدريس بن عبدالكريم الحداد، أبو الحسن البغدادي، إمام، ضابط، متقن. توفي رحمه الله يوم الأضحى سنة (٢٩٢) عن ثلاث وتسعين سنة^(٥).

(١) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (٢/٣٨٦)، معرفة القراء الكبار (١/١٥٧)، النشر في القراءات العشر (١/١٨٥).

(٢) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (٢/٢٣٤)، ومعرفة القراء الكبار (١/٢١٦).

(٣) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (١/٢٨٥)، ومعرفة القراء الكبار (١/٢١٤).

(٤) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (١/١٥٥)، النشر في القراءات العشر (١/١٩١).

(٥) غاية النهاية في طبقات القراء (١/١٥٤).

سادساً: الفرق بين القراءة والرواية والطريق:

هذه ألفاظ مشتهرة عند علماء القراءات، ويحسن أن نبين لكم بإيجاز الفرق بينها. عرفتم القراء، وعرفتم أن لكل قارئ رواية، فنافع قارئ، وورش وقالون راويان، ولورش تلاميذ أخذوا عنه واشتهروا كذلك، من هؤلاء مثلاً الأصبهاني. وعلى هذا فإذا كان الخلاف للقارئ ورواته، فهذه قراءة، وإذا كان للراوي فهي الرواية، وإذا كان الخلاف لمن دون الراوي، أي لمن أخذ عن الراوي فهي الطريق، وإليك مثلاً يوضح هذه كلها.

البسمة بين السورتين لم يجمع عليها القراء، بل أثبتها بعضهم دون بعض، ومن القراء الذين يسملون بين السورتين ابن كثير؛ لذا نقول: البسمة بين السورتين قراءة ابن كثير ومن معه، وهي رواية قالون عن نافع، فإن لنافع راويين كما عرفنا من قبل، ورشاً وقالوناً، وقد اختلفا في الرواية عن شيخهما، أما ورش فلا يسمّل بين السورتين، ولكن قالوناً يسمّل بينهما، فنافع - رحمه الله - أقرأ قالوناً إثبات البسمة بين السورتين، فالبسمة إذن بين السورتين، هي رواية قالون عن نافع، وذلك لأن نافعاً اختلف عنه الراويان في هذه المسألة، أما ابن كثير فلم يختلف راوياه في إثبات البسمة، لذا كانت البسمة قراءة ابن كثير، لأن راويه لم يختلف في إثباتها، ولا نقول: إن إثبات البسمة قراءة نافع، لأن أحد راويه وهو ورش لم يقرأ بها، إذن هي رواية قالون عن نافع.

ثم إن إثبات البسمة طريق الأصبهاني عن ورش، ومعنى هذا أن ورشاً رحمه الله كان يقرئ تلاميذه بعدم إثبات البسمة بين السورتين، ولكن إحدى الطرق عنه وهي طريق الأصبهاني تثبت فيها البسمة.

أما الوجه فهو ما يُخَيَّر فيه القارئ؛ مثال؛ المد العارض للسكون كالذي يكون في آخر الآيات، فيه ثلاثة أوجه: القصر، والتوسط - أربع حركات -، والمد - ست حركات -.

سابعاً: أقسام القراءات:

القراءات ليست كلها سواءً، بل إن بعضها أصح من بعض، ولا بد لنا هنا من بيان أقسام هذه القراءات وما يُقْبَل منها وما لا يُقْبَل، فهناك قراءات مقبولة استوفت شروط القبول وأخرى لم تستوفها.

وهذه هي أهم أقسام القراءات التي ذكرها العلماء^(١).

١- القراءات المتواترة: هي القراءات التي نقلها جمع من الثقات بحيث يؤمن تواطؤهم على الكذب من أول السند إلى منتهاه. وهذه القراءات يُقَطَّع بصحة نسبتها إلى الوحي الإلهي.

٢- القراءات المشهورة المستفيضة: هي القراءات التي صحَّ سندها، واشتهرت قراءتها، ووافقت العربية ولو بوجه، ووافقت الرسم ولو تقديراً، وهذه القراءات كذلك يُقَطَّع بقرآنتها وأنها من وحي الله.

وهذان القسمان الأول والثاني من القراءات الثابتة المقطوع بقرآنتها ولا ترد قراءة تصل إلينا من أي هذين الطريقين.

وقراءات الأئمة العشرة داخلية في هذين القسمين، فهي إما أن تكون متواترة أو صحيحة مستفيضة كما ورد عن كثير من كبار الأئمة كابن الجزري وأبي شامة وغيرهما^(٢).

وقد أفاض الونشريسي في تقرير تواتر القراءات ناقلاً تقريراً طويلاً لابن عرفة في ذلك، ومع أن ابن عرفة اقتصر على القول بتواتر القراءات السبع، لكنه صرح بصحة الثلاثة المكملية للعشر كذلك^(٣).

وأرى أن لا ضرورة لهذا التقسيم، فإذا كان القرآن متواتراً، فإن القراءات التي اعتمدتها الأمة ينبغي أن تكون كذلك، وهذا التقسيم، قد يوقع كثيرين في لبس ما أغنانا عن مثله، وقد يأتي لهذا مزيد تفصيل فيما بعد إن شاء الله.

٣- القراءات المروية بطريق الآحاد: هي التي صحَّ سندها وخالفت الرسم أو العربية، أو لم تشتهر الاشتهار المذكور.

(١) انظر الإبانة عن معاني القراءات لمكي بن أبي طالب، ٥١ وما بعدها، والنشر: (١/٢٦-٣٢، ٤٤-٤٦)، ومنجد المقرئين: ١٥ وما بعدها، والإتقان: (١/٧٥) وما بعدها، ومناهل العرفان: (١/٤٢٢-٤٢٤).

(٢) النشر: (١/١٣).

(٣) المعيار العربي: (١٢/٦٨) وما بعدها.

وهذه القراءات لا يُقرأ بها ولا تعد من القراءات الصحيحة المقطوع بقرآنيتهما، وهي نفسها التي تسمى القراءات الشاذة^(١).

٤- القراءات التي لم يصح سندها: وقد مثل السيوطي لهذا النوع بقراءة (مَلَكَ يَوْمَ الدين) [الفاتحة: ٣] وقراءة (إِيَّاكَ يُعْبَدُ) [الفاتحة: ٤] وهذا لا يعد قرآناً^(٢).

٥- القراءات الموضوعية: هي التي تنسب إلى قائلها، وقد مثل لها السيوطي بقراءات الخزاعي^(٣) وتسميتها بالقراءات من باب التجوُّز كما يسمي علماء الحديث الموضوع حديثاً.

٦- ما زيد في القراءات على وجه التفسير: مثاله قراءة (وله أخ أو أخت من أم)^(٤) وقراءة (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر) وغيرهما، ومثل هذا قد يصح نقله لا على أنه قرآن وإنما هو يشبه الإدراج في الحديث الشريف، فالفائدة منه تفسير بعض الكلمات وبيان المراد منها.

وقد قسّم مكّي بن أبي طالب القراءات إلى ثلاثة أقسام:

١- المنقول عن الثقات عن النبي ﷺ وله وجه شائع في العربية، وموافق لخط المصحف، فهذا يُقرأ به ويُقطع بأنه قرآن، ويكفر من جحدته.

٢- ما صحّ نقله عن الآحاد، وصحّ وجهه في العربية، وخالف لفظه خط المصحف، فهذا يُقبل ولا يُقرأ به لعلتين: إحداهما: أنه لم يؤخذ بإجماع، وإنما أخذ بأخبار الآحاد، ولا يثبت قرآن يُقرأ به بخبر الواحد، والعلة الثانية: مخالفته لما قد أُجمع عليه فلا يُقطع بصحته، ولا يُقرأ به، ولا يكفر من يجحدته ويؤس ما صنع إذا جحدته.

(١) الإتيان: (٧٧/١).

(٢) الإتيان: (٧٧/١).

(٣) نفسه: (٧٧/١).

(٤) انظر النشر: (٤٥/١) وما بعدها، الإتيان: (٧٧/١)، مناهل العرفان: (٤٢٤/١).

٣- القسم الثالث: ما نقله غير ثقة، أو نقله ثقة ولا وجه له في العربية، فهذا لا يُقبل وإن وافق خط المصحف^(١).

ثامناً: أركان القراءة المقبولة:

احتاط أئمة القراءة غاية الاحتياط لصون القراءات، فوضعوا ضوابط ومقاييس لتميز القراءة المتواترة من المشهورة والضعيفة، فاشتروا في القراءة الصحيحة المقبولة أن تتوافر فيها الشروط التالية:

١- صحة السند واستفاضته، وقد اختلف في مستوى صحة السند المشترطة، فاشترب بعضهم التواتر، واكتفى آخرون بالاستفاضة، ومنهم أبو شامة^(٢) ومكي بن أبي طالب^(٣). وتبعهما الإمام ابن الجزري في طيبة النشر حيث قال^(٤):

فكلُّ ما وافق وجهَ نَحْوٍ وكان للرسم احتمالاً يحوي
وصحَّ إسناداً هو القرآنُ فهذه الثلاثة الأركانُ
وحيثما يحتلُّ ركنٌ أثبت شدوذه لو أنه في السبعة
وهذا وجهٌ ضعيف؛ لأن ابن الجزري نفسه اشترط التواتر في منجد المقرئين^(٥).

وقد بين النويري الصفاقي أن اشتراط تواتر القراءات ذكره كثير من العلماء^(٦).

وشدَّ في مخالفة اشتراط هذا الركن ابن مقسم الذي ذهب إلى الأخذ بما وافق خط المصحف وإن لم يُرو، وقد استتيب فرجع عن قوله كما تقدّم^(٧).

(١) الإبانة: ٥١ وما بعدها.

(٢) انظر منجد المقرئين: ٥٧ وما بعدها، ومناهل العرفان: ٤٢٤-٤٤٨.

(٣) الإبانة: ٥١ وما بعدها.

(٤) طيبة النشر: ٣.

(٥) انظر منجد المقرئين: ٥٧ وما بعدها.

(٦) غيث النفع: ٧.

(٧) انظر النشر: (١٧/١)، غاية النهاية: (١٢٤/١).

٢- موافقة العربية ولو بوجه: المقصود به أن تكون القراءة موافقة لوجه من وجوه اللغة والنحو، سواء أكان أفصح أم فصيحاً مجمعاً عليه أم مختلفاً فيه ما دامت القراءة صحيحة الإسناد موافقة لأحد المصاحف العثمانية.

مثال ذلك قراءة حمزة بخفض الأرحام في الآية: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ عطفاً على الضمير المجرور في (به) على مذهب الكوفيين أو أعيد الجار وحُذف للعلم به أو جُرَّ على القسم تعظيماً للأرحام وحثاً على صلتها^(١).

قال أبو عمرو الداني: «وأئمة القراءة لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفتى في اللغة، والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر، والأصح في النقل، وإذا ثبتت الرواية لم يردّها قياسٌ عربيّة ولا فشو لغة؛ لأنّ القراءة سنّة متّبعة يلزم قبولها والمصير إليها»^(٢).

٣- موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً: المقصود به أن توافق القراءة أحد المصاحف العثمانية التي نسخها عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرسلها إلى الأمصار الإسلامية المختلفة، مثال ذلك قراءة ابن كثير في قوله تعالى: ﴿جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ١٠] بزيادة (من) فإنها موافقة للمصحف الذي أرسل إلى مكة المكرمة^(٣).

وهذا الشرط مجمعٌ عليه، وخالف في اشتراطه ابن شنبوذ الذي «كان يرى جواز القراءة بما خالف الرسم ما دامت الرواية صحيحة النقل، وقد استتيب فرجع عن قوله»^(٤).

ومعنى قول ابن الجزري «وكان للرسم احتمالاً يحوي» أن الكلمة يحتملها رسم المصحف العثماني وذلك مثل ﴿مَالِكٌ﴾ و﴿مَلِكٌ﴾ فقوله سبحانه وتعالى ﴿مَلِكٍ يَوْمَ﴾

(١) إتحاف فضلاء البشر: ١٨٥، وانظر الدفاع عن القرآن: ص ١ وما بعدها.

(٢) جامع البيان في القراءات السبع المشهورة، للداني، ص ٣٩٦. طبعة دار الكتب العلمية. وانظر النشر، (١/ ١٠-١١).

(٣) القراءات: أحكامها ومصدرها: ٧٧. وتاريخ القرآن للدكتور عبد الصبور شاهين: ٢٠٧.

(٤) النشر: (١/ ١٦، ٤٣).

الدين ﴿ [الفاتحة: ٤] رسمت بلا ألف، لكن قراءة «مالك» قراءة صحيحة ويحتملها الرسم فقد تكون الألف حُذفت تخفيفاً.

قال النويري رحمه الله في شرح الطيبة: اعلم أن الرسم هو تصوير الكلمة بحروف هجائها بتقدير الابتداء بها والوقف عليها، والعثماني هو الذي رُسم في المصاحف العثمانية ثم ذكر أقسام الرسم وقال عند حديثه عن القسم الثالث وهو ما وافق الرسم احتيلاً: «ويندرج فيه ما وقع الاختلاف فيه بالحركة والسكون نحو (الْقُدُس) [البقرة: ٨٧، ٢٥٣- المائدة: ١١٠- النحل: ١٠٢]^(١)، وبالتخفيف والتشديد نحو (يُنشُرُكُمْ)^(٢) [يونس: ٢٢].

وبالقطع والوصل المعبر عنه بالشكل نحو (ادخلوا)^(٣) [غافر: ٤٦]، وباختلاف الإعجام نحو (يعلمون) و(يفتح)^(٤)، وبالإعجام والإهمال نحو (نُنشِرُها)^(٥) .. إلخ^(٦).

تاسعاً: تواتر القراءات:

اعلموا - أرشدكم الله - أن الأئمة المحتج بأقوالهم مجمعون على أن القرآن الكريم متواتر كله لا يرتاب في هذا مراتب، وسنعتقد مبحثاً خاصاً - إن شاء الله - نتحدث فيه عن تواتر القرآن الكريم، ونناقش الشبهات التي يحاول إثارتها خصوم الإسلام، لكننا

(١) أي الْقُدُس والقُدُس.

(٢) أي: يَنْشُرُكُمْ وَيُنشُرُكُمْ.

قرأ ابن عامر وأبو جعفر (يُنشُرُكُمْ) وقرأ الباقر (يُنشِرُكُمْ) [يونس: ٢٢]. انظر: السبعة لابن مجاهد ص ٣٢٥، والمقنع للداني ص ١٠٤. وقرأ بعض الشاميين (يُنشُرُكُمْ) بتشديد الشين وهي قراءة شاذة. انظر «البحر المحيط» (١٣٧/٥).

وكان من الأفضل الاستشهاد بـ «ينجيكم» ونحوه مما يدور الخلاف فيه بين التشديد والتخفيف دون تغير في الحروف وأما «ينشركم» فالخلاف يدور بين الحروف والحركات، فالموافقة احتمالية وليست صريحة، لأن المصاحف كانت غير منقوطة وخالية من الشكل. وأما (ينجيكم) فقد قرأ يعقوب (يُنَجِّيكُمْ) بالتخفيف وقرأ الباقر (يُنَجِّيكُمْ) [الأنعام: ٦٣] بالتشديد.

(٣) أي: ادخلوا وأَدْخِلُوا.

(٤) أي: يَعْلَمُونَ وتعلمون. يفتح وتفتح.

(٥) أي: ننشُرُها وننشُرُها.

(٦) شرح الطيبة للنويري (١١٥-١١٧).

ستحدث الآن عن تواتر القراءات، وهي قضية اختلف فيها العلماء، وإنما نشأ اختلافهم عن نظرهم إلى القراءات القرآنية أهي شيء غير القرآن أم هي القرآن نفسه، وعن فهم لجوهر القراءات من حيث كونها فرشاً وأصولاً، ومن حيث ما فيها من أوجه في المذهب والوقف وغيرهما. والناظر إلى أقوالهم في هذه المسألة لا يرتاب في أن هناك من غالى وأسرف وأفراط أو فراط، وسندرك هذا ونحن نستعرض أقوالهم رحمهم الله. وإليكم خلاصة موجزة لهذه الآراء، وهي خمسة:

أولاً: إن القراءات القرآنية ليست متواترة وقد نسب هذا القول إلى ابن العربي رحمه الله.

ثانياً: إن القراءات القرآنية متواترة فيما اتفق عليه القراء، أما ما اختلفوا فيه فليس متواتراً، وقد نسب هذا القول إلى أبي شامة، على أن كثيراً من العلماء يشككون في نسبته إليه.

ثالثاً: إنها متواترة إلى القراء أنفسهم، أما من القراء إلى الرسول ﷺ فليست كذلك، وقد نسب هذا القول إلى أبي شامة والزركشي، وقد ارتاب ابن الجزري - رحمه الله - في نسبته إلى أبي شامة.

رابعاً: إنها متواترة من حيث الفرش لا من حيث الأداء، ويعنون بالأداء الأصول من إمالة وهمز وتسهيل وغير ذلك، وقد نسب ذلك القول إلى ابن الحاجب.

خامساً: القراءات القرآنية متواترة أصولاً وفرشاً إلا ما كان من بعض أوجه الوقف واختلاف المدود وما في معناهما، وهذا قول جماهير العلماء كما نقله عنهم ابن الجزري وارتضاه في كتاب «منجد المقرئين» حيث عقد في هذا الكتاب الفصل الثاني من الباب السادس لإثبات ذلك، فأطال النَّقَسَ، وناقش المخالفين وردَّ عليهم في أربع وعشرين صفحة فليراجعه من أراد^(١).

(١) انظر منجد المقرئين لابن الجزري: ٥٧-٧٠.

وهذا الكتاب - على صغر حجمه أعني «منجد المقرئين» لابن الجزري - فيه فوائد جمة وقضايا جوهرية في فن القراءات يعزّ وجودها في كثير من الكتب المطولة.

نظرة في هذه الأقوال:

وإذا نظرنا في هذه الأقوال فإننا نجد أن بينها كثيراً من التباين من جهة، وأن بعضها ينبغي أن يُردّ لأول وهلة من جهة أخرى. وأولى الأقوال بالرد ما نُسب لابن العربي «القول الأول» وهو أن القراءات القرآنية ليست متواترة. وإذا لم تكن كذلك فهي آحاد، وهذا يطعن في قرآنيتهما، لأن شرط القرآنية التواتر، وبلي هذا القول في أحقية الرد القول الثاني وهو أن القراءات القرآنية متواترة فيما اتفق عليه القراء، وأن ما اختلفوا فيه ليس كذلك. ونسأل هنا: إذا كان ذلك كذلك فما هي ثمرة اختلاف القراءات؟ وما هي ثمرة نزول القرآن على سبعة أحرف، نتيجة هذا القول أن القراءات المتواترة هي التي أجمعوا على قراءتها، وهذه نتيجة خطيرة؛ لأنها ستلغي كثيراً مما ثبتت قرآنيته فمثلاً: إذا وقفنا عند قوله سبحانه: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنِإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] وهناك قراءة أخرى (فتبينوا) على هذا القول كلتا القراءتين غير متواترة. وبقيني أن الذي نُسب إليه هذا القول لو فكر فيما يؤدي إليه قوله من نتائج ما كان ليتنبأه ويقول.

أما القول الثالث وهو أن القراءات القرآنية متواترة إلى القراء أنفسهم وليس إلى الرسول ﷺ، فهو قول لا يخلو من نتائج سلبية، وهو قول يتنبأه كثير ممن يطعنون في القراءات القرآنية، وإن التواتر إلى القراء أنفسهم ليس فيه كبير عناء ولا كثير اعتناء، ذلك أن الذي عينا هو التواتر إلى عصر النبي ﷺ، ولا أدري كيف غاب عن هذا القائل رحمه الله أن هذا القارئ الذي تلقى القرآن مشافهةً عن الأئمة قبله ما كانت تلك القراءة التي تلقاها قراءته وحده، بل كانت قراءة جماهير كثيرة من المسلمين، ولا يعقل أن تكون هذه القراءة التي تلقاها آحاداً؛ لأن معنى ذلك أنه كان يقرأ قراءة، وكان أهل البلد الذي هو فيه يقرؤون قراءة أخرى، وهذا أمر لا يصحّ في العقول؛ لأنه يؤدي إلى نتيجة سلبية وهي عدم قبول قراءته عند أهل البلد الذي هو فيه.

أما القول الرابع فيكاد يكون أقرب إلى الصواب لولا أنه أهمل أصول القراءات وجعل التواتر للفرش وحده، مع أننا نعلم أن أكثر الاختلاف في القراءات يرجع إلى الأصول كالإمالة وتحقيق الهمز وتسهيله.

والقول الخامس أخرى بالقبول، لكن لا يخلو من مغالاة، فكون هذه القراءات معلومة من الدين بالضرورة قول لا يخلو عن مناقشة، والله أعلم بالصواب.

وقد يقال: ليس بالضرورة أن يكون المتواتر معلوماً من الدين بالضرورة، فنحن نعلم أن كثيراً من الأحكام المجمع عليها ليست مما علم من الدين بالضرورة، ويظهر أن هذه القضية، أعني تقسيم القضايا الشرعية إلى ما علم من الدين بالضرورة، وإلى ما لم يعلم كان الأصل فيها: التفرق بين ما يخرج عن الملة، وما لا يخرج، فالصلاة مثلاً مما علم من الدين بالضرورة فجاحدها كافر، لكن بعض قضايا الأحكام كبعض مسائل الرضاع وغيره مما لا يعلمه كثير من الناس مختلف عن سابقه.

بقيت قضية لا بد أن نشير إليها بإيجاز وهي تتصل بالقراءات الثلاث المكملة للعشرة، فبعض العلماء يرى أنها صحيحة غير متواترة. فالقسمة عند هؤلاء هكذا: القراءات إما متواترة وهي القراءات السبع وإما صحيحة وهي الثلاث المكملة للعشر، وكلا هذين النوعين تجوز قراءته في الصلاة. وإما شاذة وهي ما بعد العشر، وهي ليست قرآناً فلا يُقرأ بها في الصلاة، ولكن أكثر العلماء يرون أن القراءات الثلاث متواترة كالقراءات السبع^(١)، ولعل هذا أقرب إلى الصواب أو هو الصواب لكثير من الأسباب لا بد من ذكرها، والله أعلم بالصواب، ونكتفي هنا بذكر سبب واحد، وهو أننا إذا أمعنا النظر في هذه القراءات الثلاث وجدناها لا تخرج عن القراءات السبع - كما هو معلوم عند طلاب هذا العلم - إلا في حروف قليلة، مثل: رفع (الأنصار) في قوله سبحانه: ﴿وَالسَّيْفُورَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهِجَرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠]، ورفع كلمة (جدال) في قوله ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

عاشراً: الاختلاف بين القراءات اختلاف تنوع لا تضاد:

اعلموا أرشدكم الله أن الذي يتدبر الاختلافات بين القراءات، سيجد أن هناك

سببين:

(١) راجع الإنقان للسيوطي (٢٧٧/١)، وانظر المعنى القرآني في ضوء اختلاف القراءات ص ٢٥ للدكتور أحمد سعيد الخطيب، وكذلك النشر (٦٠/١)، وكذلك مناهل العرفان (٣٠٤/١).

الأول: يرجع إلى اختلاف اللهجات العربية، وذلك مثل تحقيق الهمز، أو إبداله مثل (يؤمن) و(يومن) و(أقتت) و(وقئت)، أو الفتح والإمالة مثل (والضحى) و(الضحى)، وغير ذلك كثير مما اختلفت فيه لهجات القبائل وألسنتهم.

الثاني: يرجع إلى ما يمتاز به القرآن الكريم من خصائص في إعجازه، وذلك أولاً كالانتقال من الغيبة إلى الخطاب وعكسه في مثل قوله سبحانه: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (ويعملون). وقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ﴾ وفي قراءة أخرى (ولو ترى الذين ظلموا)، فـ (الذين) في القراءة الأولى فاعل، وفي الثانية مفعول به، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩] وفي قراءة (يخادعون)، ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿يَمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]، وفي قراءة (يُكْذِبُونَ).

وكل واحدة من هذه القراءات ذات معنى، فكأنها كل قراءة آية بعينها، وإذا نحن تدبرنا الفروق بين هذه القراءات، نجد ما يثلج الصدر، وتطمئن به النفس، ولن نجد تناقضاً ولا تضاداً، وهناك صور ثلاث لاختلاف هذه القراءات:

الأولى: أن تتحد القراءتان في المعنى، وذلك مثل (يحسب) بفتح السين وكسرها، و(مسيطرون)، و(مصيطنون) بالسين والصاد، و(السرائ والصرائط).

الثانية: أن تختلف القراءتان في المعنى، ولكن يمكن الجمع بينهما، وذلك مثل قوله سبحانه ﴿فَأَرَاهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦] و(أزاهما) فهما قراءتان سبعيتان، لكل معنى غير معنى صاحبتها، ولكن الجمع بينهما ممكن، إذ مؤداهما واحد، ومثل قوله: ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ﴾ برفع آدم ونصب الكلمتين، أو العكس، ولئن اختلف الفاعل والمفعول في كل من القراءتين، فإن الجمع بينهما ممكن.

ومثل قوله سبحانه: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَىٰ آلِطَّارِ كَيْفَ نُنشِرُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] وفي قراءة (ننشرها) فإن لكل من القراءتين معنى يختلف عن الأخرى، إذ (ننشرها) من النشر وهو الارتفاع، أي: نرفعها لنضع كلاً في مكانه، و(ننشرها) بضم النون الأولى والراء، أي:

نحييها، ومنه قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِذَا سَاءَ أَنْشَرُهُ﴾^(١) [عبس: ٢٢] فإنه يمكن الجمع بين هاتين القراءتين، إذ المقصود واحد.

الثالثة: أن تختلف القراءتان في المعنى، ولا يمكن الجمع بينهما، ولكن لا تناقض بين القراءتين، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرَهُمْ لِنَزُولِ مِنْهُ الْجَبَالِ﴾ [إبراهيم: ٤٦] ففيها قراءتان سبعيتان، الأولى لتزول، بكسر اللام الأولى، وفتح اللام الثانية، وعلى هذا تكون هذه اللام ناصبة للفعل المضارع (تزول) أما القراءة الثانية، فبفتح اللام الأولى وبضم الثانية (لتزول).

وقد اختلف العلماء في توجيه هاتين القراءتين، والتوجيه المختار أن (إن) في القراءة الأولى نافية، وقد جاءت (إن) للنفي كثيراً في كتاب الله، مثل قوله سبحانه: ﴿إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠] ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣] وقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦] أي في شيء ما مكناكم فيه، وقوله: ﴿إِنْ أَمْسَكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [فاطر: ٤١] فإن: نافية، أي: ما أمسكهما من أحد من بعده. وعلى هذا يكون معنى الآية الكريمة وما كان مكرهم لتزول منه الجبال.

وذهب بعض العلماء إلى أن (إن) شرطية، وجواب الشرط محذوف والقول الأول هو الذي نختاره.

ومعنى هذه القراءة - إذن - بأن مكر أولئك مهما عظم، ومهما اشتد وقوي، فإنه ليس من شأنه أن يزيل الجبال.

أما القراءة الثانية، أعني لتزول برفع الفعل المضارع، فإن (إن) فيها مخففة من الثقيلة (إن) واللام في قوله سبحانه: (لتزول) هي اللام الفارقة بين المخففة والنافية؛ ذلكم أن (إن) تأتي نافية - كما عرفنا - وتأتي مخففة من الثقيلة (إن)، ويفرق بينهما من حيث المعنى، أولاً؛ أن المخففة من الثقيلة تفيد التأكيد تبعاً لأصلها وهي (إن) وإن أداة توكيد كما نعلم.

(١) انظر «النشر»، (١/٣٨٢-٣٨٤)، و«معجم القراءات» للدكتور عبد اللطيف الخطيب، (١٠/٣٠٩-٣١٠).

ويفرق بينهما ثانياً، بمجيء اللام الفارقة، إذا كانت مخففة من الثقيلة، وتسمى اللام الفارقة وهذا كثير في كتاب الله، قال سبحانه: ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢]، وقاله سبحانه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ٧٦] ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِ﴾ [القلم: ٥١] فإذا تدبرنا هذه الآيات الكريمة تدبراً صحيحاً أدركنا أنه لا يجوز أن تكون (إن) نافية في هذه الآيات؛ لأنه ليس المعنى (وما وجدنا أكثرهم لفاسقين، وما كادوا ليستفزونك، وما كادوا ليزلقونك، بل المعنى وأننا وجدنا، وإنهم كادوا، وإنهم ليكادون. الغرض التأكيد - إذن - لا النفي. وهذا من حيث المعنى^(١).

ثم إننا إذا تدبرنا الآيات مرة أخرى وجدنا هذه اللام فيها جميعها، وهذه اللام متسقة مع (إن) التي هي للتأكد، إذا عرفنا هذا استطعنا أن نفهم الآية على القراءة الثانية (لتزول منه الجبال)، فيكون المعنى: وإن كان مكرهم من شدته يزيل الجبال الرواسي، فمعنى القراءة الأولى: ما كان مكرهم ليزيل الجبال، ومعنى القراءة الثانية: إن مكرهم لتزول منه الجبال. وهما معنيان مختلفان، إذ المعنى الأول نفي زوال الجبال من مكرهم، والمعنى الثاني: إثبات زوالها، وقد يقال: أليس هذا تناقضاً؟

والجواب: معاذ الله، وحاش لله، وصدق الله، أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، وإليكم بين ذلك:

الجبال في القراءة الأولى تعبير مجازي، المقصود به ثبات المؤمنين، فكأنه قيل: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال، أي: ما كان مكرهم ليزيلكم أيها المؤمنون عن عقائدكم وعن موقفكم، ذلك أن الإيمان في قلوبكم أثبت من الجبال الرواسي في أعماق الأرض.

أما الجبال في القراءة الثانية، فهي على حقيقتها، أي: وإن مكرهم من شدته لتزول منه الجبال الرواسي.

فالقراءة الأولى - إذن - فيها تطمين للمؤمنين، بأن مكر أولئك لن يؤثر فيهم، فالهدف إلهاب المؤمنين والإشادة بهم وتثبيتهم، أما القراءة الثانية ففيها تحذير المؤمنين من

(١) انظر على سبيل المثال: الدر المصون للسمين الحلبي (٧/ ٢٠٩).

شدة مكر أولئك، لأنه يزيل الجبال الرواسي، فالقراءتان في هذه الآية وإن لم يمكن الجمع بينهما، فإنهما غير متضادتين، بل إن الهدف منهما واحد، وهو إلهاب المؤمنين وتحذيرهم، وهكذا يقال في كل ما نجده من فروق بين القراءات القرآنية الصحيحة.

حادي عشر: القراءات الشاذة وأسباب الشذوذ،

أصل معنى شذّ، انفرد عن الجمهور ونَدَّر، فهو شاذّ، وأشدّه غيره، وشذّ الرجل: إذا انفرد عن أصحابه. وكذلك كل شيء منفرد فهو شاذّ^(١).

أما الشاذّ - اصطلاحاً - فهو: كلّ قراءة فقدت الأركان الثلاثة: التواتر أو الاستفاضة، ورسم المصحف، وموافقة وجه من وجوه اللغة العربية، أو فقدت أحد الأركان الثلاثة، وهذه القراءة الشاذة لا يُقرأ بها ولا تسمى قرآناً^(٢).

والشاذ عند مكّي هو ما نقله غير ثقة أو نقله ثقة ولا وجه له في العربية فهذا لا يُقبل وإن وافق خط المصحف^(٣).

أنواع القراءات الشاذة:

عَدّ العلماء من الشواذ في القراءات الأقسام التالية:

- ١- الأحاد: هو ما صحّ سنده ولم يتواتر، وخالف الرسم أو العربية.
 - ٢- الشاذّ: ما فقد الأركان الثلاثة أو أحدها.
 - ٣- المدرج: ما زيد في القراءة على وجه التفسير.
 - ٤- الموضوع: هو ما نسب إلى قائله من غير أصل، وهذا ليس بقراءة مطلقاً.
- أما المشهور، فقد اختلف في عدّه من الشواذ، ذلك لأن بعض العلماء اكتفوا بالاستفاضة والشهرة في إثبات القرآنية، في حين ذهب بعضهم إلى اشتراط التواتر.
- قال ابن الجزري في غاية النهاية:

(١) لسان العرب: ٢٨/٥-٢٩.

(٢) انظر منجد المقرئين، والإتقان: ١/١٢٩، وغيث النفع: ٦-٧.

(٣) الإبانة: ٥٢.

«إن أول من تتبع وجوه القراءات وألفها، وتبع الشاذ منها فبحث عن إسناده هو هارون بن موسى الأعور العتكي البصري المتوفى سنة سبعين ومائة، وقيل: توفي سنة مائة وثمانية وتسعين للهجرة»^(١).

ثم تتابع العلماء في وصف القراءات التي لم تستوف شروط القراءة الصحيحة بالشذوذ، وألفوا فيها العديد من الكتب من أشهرها:

مختصر شواذ القرآن لابن خالويه، والمحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جني، كتاب شواذ القراءة واختلاف المصاحف - لرضي الدين أبي عبدالله محمد الكرمانى، وإتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربع عشر للدمياطي، والقراءات الشاذة للشيخ عبدالفتاح القاضي^(٢).

قال ابن الجزري: «القراءات المشهورة اليوم عن السبعة والعشرة والثلاثة عشر قياساً إلى ما كان مشهوراً في العصر الأولى قلة من كثر، ونزر من بحر، فإن من له اطلاع على ذلك يعلم هذا علم اليقين، وذلك أن القراء الذين أخذوا عن أولئك الأئمة المتقدمين من السبعة وغيرهم، كانوا أئماً لا تحصى، وطوائف لا تستقصى، والذين أخذوا عنهم أكثر، وهلم جرّاً.. فلما كانت المائة الثالثة واتسع الخرق، وقل الضبط، وكان الكتاب والسنة أوفر مما كان في ذلك العصر، تصدى بعض الأئمة لضبط ما روي من القراءات، فكان أول إمام معتبر جمع القراءات في كتاب: «أبو عبيد القاسم بن سلام» وجعلهم - فيما أحسب - خمسة وعشرين قارئاً، مع هؤلاء السبعة، وتوفي سنة ٢٢٤ هـ»^(٣).

يُفهم من كلام ابن الجزري أنّ هناك كثيراً من القراءات الصحيحة تركت، وكان ذلك قبل أن تسبّع السبعة، وهذا ما كنت أسمعه من شيخنا الشيخ محمد سليمان - رحمه الله - .

وقد اختلف العلماء في أيّ القراءات هي الشواذ، فعّد بعضهم ما وراء السبع من الشواذ، وعدّ بعضهم ما وراء العشر من الشواذ.

(١) غاية النهاية: ٢/ ٣٤٨.

(٢) القراءات أحكامها ومصدرها: ٩٤.

(٣) النشر: ١/ ٣٤.

وبهذا يكون القسم المتفق على شذوذه ما فوق العشر، أما الثلاث المكملة للعشر، فقد كانت موضع جدل وخلاف بين القراء، فمنهم من قال بتواترها ومنهم من قال بأنها صحيحة السند فقط.

نقل ابن الجزري فتوى لابن السبكي رداً على سؤال وجه إليه فكانت خلاصة جوابه على مذهب والده الإمام أن السبع متواترة، والثلاث المكملة للعشر مختلف فيها، ولكن والده يميل إلى القول بتواترها، وقد رجح ابن السبكي ذلك، والثلاث هي قراءة أبي جعفر ويعقوب، وخلف.

وأما ما فوق العشر فهو شاذ، إذ هناك إجماع من العلماء على تشديده.

ثاني عشر: الاختيار في القراءات:

عرّف الشيخ طاهر الجزائري، الاختيار بقوله: «الاختيار عند القوم أن يعتمد من كان أهلاً له إلى القراءات المروية، فيختار منها ما هو الراجح عنده، ويجرد من ذلك طريقتاً في القراءة على حدة»^(١).

وقال القرطبي في تفسيره: «وهذه القراءات المشهورة هي اختيارات أولئك الأئمة القراء، وذلك أن كل واحد منهم اختار مما روى وعلم وجهه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى، فالتزمه طريقة، ورواه وأقرأ به، واشتهر عنه، وعُرف به، ونسب إليه، فقليل: حرف نافع وحرف ابن كثير»^(٢).

وقد كان لكبار القراء اختيارات عن شيوخهم الذين تلقوا عنهم، فقد كان شعبة، يقول: «انظر ما يقرأ أبو عمرو مما يختار لنفسه، فإنه سيصير إسناداً»^(٣)، وقد كان للكسائي وليحيى بن سلام ولأبي حاتم السجستاني اختيارات في القراءة^(٤).

(١) التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن لطاهر الجزائري: ٩٠، طبع المنار بالقاهرة ١٩٣٤.

(٢) تفسير القرطبي: (٤٠/١).

(٣) غاية النهاية: (٢٩٢/١).

(٤) المصدر نفسه (٥٣٨/١) الكسائي، (٣٧٣/٢) يحيى بن سلام، (٣٢٠/١) أبو حاتم السجستاني.

قال ابن خالويه في الحجة:

«وبعد، فإني تدبرت قراءة الأئمة السبعة من أهل الأمصار الخمسة^(١) المعروفين بصحة النقل، وإتقان الحفظ، المأمونين على تأدية الرواية واللفظ، فرأيت كلاً منهم قد ذهب في إعراب ما انفرد به من حرفه مذهباً من مذاهب العربية لا يدفع، وقصد من القياس وجهاً لا يمنع، فوافق باللفظ والحكاية طرق النقل والرواية غير مؤثر للاختيار على واجب الآثار»^(٢).

قيود الاختيار:

مما سبق ذكره نستطيع أن نتبين أن اختيارات القراء تقوم على ضوابط للاختيار.

فمن تعريف الشيخ طاهر الجزائري نستنتج قيدين لا يقبل الاختيار دونهما:

أولهما: أهلية من يختار، والثاني: أن يختار ما يُروى، وقد أضاف إليهما الدكتور عبدالفتاح شلبي قيداً ثالثاً هو: أن يكون الاختيار موافقاً للرسم^(٣)، وأظن أن هذا القيد الأخير لا داعي له؛ لأنه متضمنٌ في شروط القراءة الصحيحة المقبولة كما تبين، فإذا كانت اختيارات القارئ من ضمن ما هو مقبول فهذا الشرط موجود، واشتراطه في الاختيار، -تحصيل حاصل.

أما القياس في الاختيار، فقد يكون مقبولاً أو ممتنعاً، والقياس الممتنع أن يقيس على قواعد العربية من لا علم له بالروايات، أما ما اصطلاح عليه العلماء من أصول مُطّردة في القرآن الكريم ثابتة بالاستقراء فهذا قياس صحيح لا يُردّ، لا سيما فيما تدعو إليه الضرورة، لأن القياس في هذه الحال يعين على الترجيح^(٤).

ثالث عشر: توجيه القراءات:

اعلموا - أرشدكم الله - أن الكتب التي تتصل بالقراءات اتخذت طريقتين اثنتين:

(١) الأمصار الخمسة هي: مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والشام، والبصرة، والكوفة.

(٢) الحجة لابن خالويه: ٦١-٦٢ (بتحقيق د. عبدالعال سالم مكرم).

(٣) رسم المصحف العثماني: ٨٦-٨٧.

(٤) النشر: (١٧/١).

الطريق الأول: الكتب التي اقتصر مؤلفوها على ذكر القراءات والقراء سواء أكانت السبعة أم العشرة، وقد يكون أقل من ذلك كمصطلح الإشارات لابن القاصح الذي تحدث عن ست قراءات، أو أكثر كإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر للدمياطي.

وأما الطريق الثاني: فلم يقتصر فيها أصحابها على القراءات والقراء، بل أضافوا إلى ذلك توجيهاً لكل قراءة، ونعني بتوجيه القراءة تحليلها تحليلاً لغوياً، وذكر الحجة اللغوية لكل قراءة. ومن هنا أطلق عليها هذه العنوانات الثلاثة: فقد تسمى توجيه القراءات، أو عِلَلُ القراءات، أو حجة القراءات، وكلها شيء واحد.

ومن أشهر الكتب التي أُلِّفَتْ في القراءات وحدها:

السبعة لابن مجاهد، والتيسير لأبي عمرو الداني، والشاطبية لأبي القاسم الشاطبي وهي نظمٌ للتيسير، ولقد نفع الله بها، ولا زالت المَعَوَّلُ عليها في القراءات السبع، حيث يحفظها الطلاب وهي ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتاً واسمها «حُرُزُ الأمانِي ووجه التهاني» وتشتهر بالشاطبية، وقد قَيَّضَ الله لشرحها كثيراً من العلماء وأشهر شروحها المطبوعة شرح أبي شامة المقدسي رحمه الله، وشرح ابن القاصح رحمه الله، وهناك شرح مشتهر كنا نسمع عنه من شيوخنا للإمام الجعبري ولم يطبع، وهذه الشروح كلها للأئمة الأقدمين من العلماء، أما المُحَدَّثُونَ فأشهر من شرحها منهم الشيخ علي محمد الضَّبَاع شيخ المقارئ المصرية الأسبق، وشمسي الشيخ عبدالفتاح القاضي من علماء الأزهر رحمهم الله. وهذه كلها في القراءات السبع.

وقد أُلِّفَ ابن الجزري - رحمه الله - الدرّة وهي منظومة تشتمل على الثلاث المكملّة للعشر، والشاطبية مع الدرّة تسمى عند العلماء العشر الصغرى، ويقابلها العشر الكبرى، وأشهر ما أُلِّفَ فيها كتاب النشر في القراءات العشر لابن الجزري، وهو كتاب في مجلدين كبيرين، وقد اختصره في منظومة سماها «طَبِيبَةُ النَشْرِ» كما أن ابن الجزري أُلِّفَ كتاب «التحبير»، ذكر فيه كتاب التيسير للداني وزاد عليه القراءات الثلاث المتممة للعشر.

أما كتب التوجيه فمنها: كتاب الحجة في توجيه القراءات السبع لأبي علي الفارسي وهو كتاب كثير المعارف جمّ الفوائد ولعله أوسع كتب التوجيه، وقد طبع في ستة مجلدات

ومنها: كتاب الكشف لمكي بن أبي طالب وهو مطبوع في جزأين، ومنها: حجة القراءات لابن زنجلة، ومثله: لابن خالويه.

ومن الكتب التي ذاع صيتها واشتهرت بين العلماء كتاب: المحتسب لابن جني وهو في الاحتجاج للقراءات الشاذة، وهناك مختصر الشواذ لابن خالويه، ولم يفث المحدثين أن يكتبوا في هذا الاتجاه فألف الدكتور محمد سالم محيسن كتابين في الاحتجاج للقراءات العشر: المهذب، والمغني، وهو أوسع من المهذب وأكثر استطراداً. ومن المفيد أن أنقل لك قليلاً من النماذج من كتب القراءات ومن كتب الاحتجاج لتطلع على هذين المنهجين عن كتب:

١ - قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال ابن الجزري في النشر: «واختلفوا في (ليس البر أن) فقرأ حمزة وحفص بالنصب وقرأ الباقون بالرفع...»^(١).

من كتب التوجيه: «قرأ حفص وحمزة بنصب الراء على أنه خبر (ليس) مقدم «وأن تولوا» في تأويل مصدر اسمها مؤخر.

وقرأ الباقون بالرفع على أنه اسم ليس «وأن تولوا» في تأويل مصدر خبرها»^(٢).

٢ - قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢].

من كتب القراءات: «واختلفوا في (هل يستطيع ربك) فقرأ الكسائي (يستطيع) بالخطاب (ربك) بالنصب، وهو على أصله في إدغام اللام في التاء [هل تستطيع]. وقرأ الباقون بالغيب والرفع»^(٣).

(١) النشر: (٢/٢٢٦).

(٢) المهذب: (١/٨١).

(٣) النشر: (٢/٢٥٦).

من كتب التوجيه: «قرأ الكسائي (تستطيع) بناء الخطاب مع إدغام اللام في التاء [هل تُستطيع] والمخاطب سيدنا عيسى عليه السلام (وربك) بالنصب على التعظيم، أي: هل تستطيع سؤال ربك.

وقرأ الباقون (يستطيع) بياء الغيب و(ربك) بالرفع على أنه فاعل، أي هل يطيعك ربك، ويحييك على مسألتك، واستطاع بمعنى أطاع، ويجوز أن يكونوا سألوه سؤال مستخبر هل ينزل أم لا؟ وذلك لأنهم مؤمنون ولا يشكون في قدرة الله تعالى»^(١).

٣- قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِيَنْزِلَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

من كتب القراءات: «واختلفوا في (لتزول) فقرأ الكسائي بفتح اللام الأولى ورفع الثانية، وقرأ الباقون بكسر الأولى ونصب الثانية»^(٢).

من كتب التوجيه: «قرأ الكسائي بفتح اللام الأولى ورفع الثانية على أن (إن) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، أي: وآته، واللام الأولى هي الفارقة بين (إن) المخففة والنافية، والفعل مرفوع، والجملة خبر كان. وقرأ الباقون بكسر اللام الأولى ونصب الثانية على أن (إن) نافية، واللام لام الجحود، والفعل منصوب بعدها بأن مضمرة»^(٣).

من هذه النماذج الكريمة تدرك أن كتب التوجيه تزيد على كتب القراءات فهي تذكر مع القراءات في الآية الواحدة الاحتجاج لكل قراءة منها.

رابع عشر، القراءات والنحاة،

قال الزركشي في البرهان: إن القراءات توقيفية ولست اختيارية خلافاً لجماعة منهم الزمخشري حيث ظنوا أنها اختيارية تدور مع اختيار الفصحاء واجتهاد البلغاء، وردّ على

(١) المذهب: (١/١٩٩).

(٢) النشر: (٢/٣٠٠).

(٣) المذهب: (١/٣٥٩).

حمزة قراءة «والأرحام» بالخفض، ومثل ما حكي عن أبي زيد والأصمعي ويعقوب الحضرمي أنهم خطئوا حمزة في قراءته «وما أنتم بمصرخي» بكسر الياء المشددة.

وكذلك أنكروا على أبي عمرو إدغام الراء في اللام في «يغفر لكم». وقال الزجاج: إنه خطأ فاحش فلا يدغم الراء في اللام، إذا قلت: مر لي بكذا؛ لأن الراء حرف مكرر ولا يدغم الزائد في الناقص للإخلال به، فأما اللام فيجوز إدغامه في الراء، ولو أدغمت الراء في اللام لذهب التكرير من الراء، وهذا خلاف إجماع النحويين انتهى، وهذا تحامل - وقد انعقد الإجماع على صحة قراءة هؤلاء الأئمة، وأنها سنة متبعة - ولا مجال للاجتهاد فيها، ولهذا قال سيبويه في كتابه في قوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١] في لغة أهل الحجاز وبنو تميم يرفعونه. إلا من درى كيف هي في المصحف^(١). وإنما كان كذلك؛ لأن القراءة سنة مروية عن النبي ﷺ ولا تكون القراءة بغير ما روي عنه. انتهى.

وعن ابن المنكدر وعروة بن الزبير وعمر بن عبدالعزيز وعامر الشعبي من التابعين أنهم قالوا: القراءة سنة يأخذها الآخر عن الأول فاقروا كما علمتم؛ ولذلك كان كثير من أئمة القراءة كنافع وأبي عمرو يقول: لولا أنه ليس لي أن أقرأ إلا بما أقرئت لقرأت حرف كذا كذا وحرف كذا كذا؛ وقال أبو بكر بن مجاهد في كتاب جامع القراءات: ولم أر أحداً ممن أدركت من القراء وأهل العلم باللغة وأئمة العربية يُرخصون لأحد أن يقرأ بحرف لم يقرأ به أحد من الأئمة الماضين، وإن كان جائزاً في العربية، بل رأيتهم يشددون في ذلك وينهون عنه، ويروون الكراهة له عمن تقدم من مشايخهم - لئلا يجسر على القول في القرآن بالرأي أهل الزيغ - وينسبون من فعله إلى البدعة، والخروج عن الجماعة، ومفارقة أهل القبلة، ومخالفة الأمة^(٢).

وأحب أن أبين هنا أن كثيراً من القراء كانوا من أئمة العربية وجهابذة الأمة، وما ظنك بمثل أبي عمرو والكسائي رحمهم الله، تعالى، وقد كان ابن كثير، أعلم بالعربية من

(١) كتاب سيبويه، تحقيق عبدالسلام هارون، ج ١/ ٥٩.

(٢) التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن، طاهر الجزائري، ص ٨٧.

مجاهد^(١)، وعرف عن عاصم أنه «جمع بين الفصاحة والإتقان والتحرير والتجويد»^(٢)، كما عرف عن حمزة أنه «كان إماماً حجة ثقة ثباتاً رضاً، قياً بكتاب الله، مجوداً، بصيراً بالفرائض، عارفاً بالعربية»^(٣).

ثم إن هؤلاء القراء كانوا أفاقه في اللغة من كثير من النحويين، ذلك لأن النحويين اعتمدوا قواعدهم النظرية ولم يسمحوا لأنفسهم ولا لغيرهم أن يخرج على هذه القواعد، والذي يطلع على لهجات العرب يجد أن القراء كانوا أحفظ وأحصى لها من النحويين، وهذا الذي أقرره يعترف به كثير من المفسرين الذين اشتهروا بالنحو وبلغوا فيه أوجاً عظيماً، كما يقرّه علماء اللغة في العصر الحديث، وسأنقل لكم موجزاً بعض النصوص في هذه القضية الخطيرة.

أولاً: عند تفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] حيث قرأ الجمهور بنصب الميم من (الأرحام) وقرأ حمزة بجرها، وأقام البصريون النكير على حمزة، قالوا: لأنه لا يجوز عطف الاسم الظاهر على الضمير إلا بإعادة حرف الجر، فلو أنه قيل: (واتقوا الله الذي تساءلون به وبالأرحام) لقبلها البصريون، أما وقد حذف حرف الجر فهي مردودة عندهم. وأتعجب كل العجب أن الذي قبلها منهم استدل لها ببعض الآيات من الشعر المجهول قائلها، وقد تكون مصنوعة ومنها:

فالיום قد يبتّ تهجوناً وتشتتاً فاذهب فما بك والأيام من عجب^(٤)
والقول الآخر:

تعلّق في مثل السواري سيوفنا وما بينها والكعب غوط نفائف^(٥)

(١) غاية النهاية (١/٤٤٣).

(٢) غاية النهاية (١/٣٤٦).

(٣) النشر (١/٢٦٣).

(٤) تفسير الرازي، ٩/١٦٤. وهذا البيت من شواهد سيبويه كما في الدر المصون (٢/٣٧١).

(٥) البيت لرجل من بني دارم كما في التذكرة السعدية، ص ١٠.

فقد جُرت (الأيام) عطفاً على الضمير في (بك)، وجرت (والكعب)، عطفاً على الضمير في (بينها).

يقول الإمام الرازي - رحمه الله - : «والعجب من هؤلاء النحاة أنهم يستحسنون إثبات هذه اللغة بهذين البيتين المجهولين. ولا يستحسنون إثباتها بقراءة حمزة ومجاهد مع أنها من أكابر علماء السلف في علم القرآن»^(١).

ويقول الشيخ رشيد: «وقد اعترض النحاة البصريون على حمزة في قراءته هذه؛ لأن ما ورد قليلاً عن العرب لا يعدونه فصيحاً، ولا يجعلونه قاعدة، بل يسمونه شاذاً، وهذا من اصطلاحاتهم، ومثل هذه اللغات التي لم ينقل فيها شواهد كثيرة قد تكون فصيحة، ولكن هؤلاء النحاة مفتونون بقواعدهم، وقد نبه الأستاذ الإمام على خطئهم في تحكيمها في كتاب الله تعالى، على أنه ليس لهم أن يجعلوا قواعدهم حجة على عربي ما، وقال هنا: إن (الأرحام) إما منصوب عطفاً على لفظ الجلالة، وإما مجرور عطفاً على الضمير في (به)، وهو جائز بنص هذه الآية على هذه القراءة، وهي متواترة خلافاً لبعضهم. وإن المنكرين على حمزة جاهلون بالقراءات ورواياتها، متعصبون لمذهب البصريين من النحاة، والكوفيون يرون مثل هذا العطف فصيحاً، ورجح مذهبهم هذا بعض أئمة البصريين، وأطال بعض العلماء في الانتصار له»^(٢).

ثانياً: عند تفسير قوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧] اعترضوا على قراءة ابن عامر رحمه الله، وقراءته بناء الفعل (زَيْنٌ) للمفعول ورفع (قَتَلَ) على أنه نائب فاعل. ونصب (أولاد) على أنها مفعول به وجر (شركاء) على أنها مضاف إليه لكلمة (قتل). أي: (وكذلك زَيْنٌ لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم)، أي أن هؤلاء الشركاء زينوا للآباء قتل أولادهم، واعتراضهم على هذه القراءة لأنها فصلت بين المضاف وهو (قَتَلَ) والمضاف إليه (شركاء) بفواصل أجنبي وهو (أولاد) بل إن الزمخشري تجاوز الحد واتهم ابن عامر وهو من أجلّة

(١) تفسير الرازي، (٩/ ١٦٤).

(٢) المنار: (٤/ ٣٣٣).

التابعين بما لا يجوز ولا ينبغي^(١)، ولكن المحققين ردّوا على الزمخشري وكادوا يكفرونه، قال أبو حيان مناقشاً مسألة الفصل بين المصدر المضاف إلى الفاعل بالمفعول:

وهي مسألة مختلف في جوازها، فجمهور البصريين يمنعونها - متقدّموهم ومتأخروهم - ولا يميزون ذلك إلا في ضرورة الشعر، وبعض النحويين أجازها - وهو الصحيح - لوجودها في هذه القراءة المتواترة المنسوبة إلى العربي الصريح المحض ابن عامر الآخذ القرآن عن عثمان بن عفان قبل أن يظهر اللحن في لسان العرب، ولوجودها أيضاً في لسان العرب في عدة أبيات... ولا التفات إلى قول ابن عطية: «وهذه قراءة ضعيفة في استعمال العرب، وذلك أنه أضاف الفعل إلى الفاعل وهو لـ (شركاء) ثم فصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول، ورؤساء العربية لا يميزون الفصل بالظروف في مثل هذا إلا في ضرورة الشعر... فكيف بالمفعول في أفصح كلام...» ولا التفات أيضاً إلى قول الزمخشري: «إن الفصل بينهما - يعني بين المضاف والمضاف إليه فشيء لو كان في مكان الضرورات - وهو الشعر - لكان سمجاً مردوداً؟ فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمته وجزالته؟ والذي حمله على ذلك أنه رأى في بعض المصاحف (شركائهم) مكتوباً بالياء، ولو قرئ بجر (الأولاد) و(الشركاء) لأن الأولاد شركائهم في أموالهم لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب». انتهى ما قاله الزمخشري. وأعجب لعجمي ضعيف في النحو يردّ على عربي صريح محض قراءة متواترة موجود نظيرها في لسان العرب في غير ما بيت، وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تختيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقاً وغرباً، وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم ومعرفتهم وديانتهم، ولا التفات أيضاً لقول أبي علي الفارسي: «هذا قبيح قليل في الاستعمال، ولو عدل عنها - يعني ابن عامر - كان أولى؛ لأنهم لم يميزوا الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف في الكلام مع اتساعهم في الظرف وإنما أجازوه في الشعر» انتهى. وإذا كانوا قد فصلوا بين المضاف والمضاف إليه بالجملة في بعض كلام العرب: «هو غلامٌ إن شاء الله أخيك»، فالفصل بالمفرد أسهل، وقد جاء الفصل في اسم الفاعل في الاختيار.

(١) الكشف (٢/٦٩، ٧٠).

قرأ بعض السلف «مُخْلَفَ وَعَدَهُ رُسُلِهِ» [إبراهيم: ٤٧] بنصب وعده وخفض رسله، وقد استعمل أبو الطيب الفصل بين المصدر المضاف إلى الفاعل بالمفعول اتباعاً لما ورد عن العرب.. وقال أبو الفتح: «إذا اتفق شيء من ذلك نُظِرَ في حال العربي وما جاء به، فإن كان فصيحاً وكان ما أورده يقبله القياس فالأولى أن يحسن به الظن؛ لأنه يمكن أن يكون ذلك وقع إليه من لغة قديمة قد طال عهدها وعفا رسمها». وقال أبو عمرو بن العلاء: «ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلُّه، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علمٌ وشعرٌ كثير» ونحوه ما روى ابن سيرين عن عمر بن الخطاب أنه حفظ أقل ذلك وذهب عنهم كثيره يعني الشعر... وقال أبو الفتح: «فإذا كان الأمر كذلك لم نقطع على الفصيح إذا سمع منه ما يخالف الجمهور بالخطأ»^(١).

يقول الشيخ رشيد رضا: «أنكر القراءة الزمخشري، وغلط ابن عامر لظنه أنه استنبطها من كتابة بعض المصاحف، وانتصر لها ابن مالك في الألفية. لقد أطال ابن مالك - رحمه الله - في كتابه الكافية الشافية وهي نظمٌ في ثلاثة آلاف بيت، وقد اختصر منها الألفية وشرحها هو، وعند كلامه في باب الإضافة استشهد بكثير من كلام العرب متصراً لقراءة ابن عامر وسأنقل بعض عباراته.

قال رحمه الله في الكافية الشافية:

وَعُمِدَتِي قِرَاءَةُ ابْنِ عَامِرٍ وَكَمْ لَهَا مِنْ عَاضِدٍ وَنَاصِرٍ
وَمِثْلُ ذَا مَعَ اسْمٍ مَفْعُولٍ وَرَدَ كَـ [مُخْلَفُ الْوَعْدِ مُحِقُّ ذُو تَكْدِ]

فعلِمَ بهذا أن قراءة ابن عامر - رحمه الله - غير منافية لقياس العربية على أنها لو كانت منافية له لوجب قبولها لصحة نقلها كما قبلت أشياء تنافي القياس بالنقل. وشنعوا على الزمخشري في إنكارها وكادوا يكفرونه به، ولكن سبقه به إمام المفسرين ابن جرير الطبري. والقرآن في جميع رواياته الثابتة بالتواتر حجة على كل أحد. وقد تكون القراءة فصيحة على لغة القبيلة ولكنها ليست كذلك عند النحاة لتحكيمهم قواعدهم التي أبوا الخروج عنها.

(١) البحر المحيط: (٤/٢٢٩-٢٣٠).

وقد يكن ورود القراءة بغير الشائع في الاستعمال، وهو ما يسميه النحاة شاذاً، لنكتة تجعلها من البلاغة بمكان، كإفادة معنى جديد مع منتهى الإيجاز، كما يدل عليه معنى هذه القراءة وكثيرة من القراءات»^(١).

ورحم الله الشيخ رشيد فلقد صدر في هذا الكلام عن ذكاء في فهم كتاب الله تبارك وتعالى، وهو يقرر أن كل قراءة تعطي معنى غير الذي تعطيه ضريعتها وأختها. ولقد أشار بعض العلماء إلى هذه الحقيقة، وأذكر ما قاله الزمخشري رحمه الله عند قوله سبحانه: ﴿فَأَنزِلْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْهُوكَ مِنَ اللَّيْلِ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَّكَ﴾ [هود: ٨١] فهناك قراءتان سبعيتان إحداهما بنصب امرأة، والأخرى برفعها، وذكر أن لكل قراءة معنى يختص بها. ولقد وقفني الله، وله الفضل والحمد والمنة والشكر، لكتابة بحث جديد في معناه بكرة في موضوعه (توجيه القراءات من الناحية البلاغية) ونشر في مجلة الدراسات التي تصدرها الجامعة الأردنية، وقد طبع هذا البحث في كتابنا القراءات القرآنية، فله الحمد والمنة، عرضت فيه لآيات من كتاب الله تبارك تعالى التي فيها أكثر من قراءة، وبيّنت المعنى على كل قراءة من هذه القراءات، ومن هذه الآيات التي أذكرها الآن.

(ليس البرّ أن تولوا وجوهكم) برفع البر ونصبها، ومنها الآية التي معنا (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم) وهذه قراءة الجمهور (زين) فعل ماضي (وقتل) مفعول به و(أولادهم) مضاف إليه و(شركاؤهم) فاعل. وقراءة ابن عامر التي حدثتك عنها من قبل، وقد ظهر أن لكل من القراءتين معنى، وهذا وإيم الله دليل الإعجاز الساطع وبرهانه القاطع. ومن هنا قالوا: إن كل قراءة تقوم مقام آية. وأكتفي بهاتين الآيتين ومن أراد سعة في البحث وتضلعا من العلم فكتب التفسير والتوجيه - أعني توجيه القراءات - فيها الغنية لمن أراد.

لكن الذي يجب أن يؤكد هنا أنه لا يجوز لأحد أياً كان نحوه وصرفه، وأياً كان علمه وإثره، أن يتناول على الأئمة الثقات، وعلى القراءات المتواترة. يقول الدكتور عبده الراجحي: «لكن هل كان القراء على درجة من الضبط والدقة في النقل بحيث لا يلبس

(١) المنار (٨/ ١٢٥).

عليهم شيء، وبحيث نقبل عنهم قراءاتهم على أنها مصدر لدراسة اللهجات، قبولاً مطلقاً؟

وبعد أن ذكر الأستاذ الدكتور الراجحي بضع آيات لبعض القراء نقل كلام أبي علي الفارسي وسيبويه وابن جني في عدم قبول هذه القراءات، ونقل قول ابن جني عن أولئك القراء «ولم يؤت القوم في ذلك من ضعف أمانة، لكن أتوا من ضعف دراية».

وللدكتور الراجحي كلام جيد حري أن ينقل، جدير بالفهم والتأمل، ونستميحك أيها القارئ إن أطلنا بعض الشيء: «فماذا يكون موقفنا من هذه النصوص؟ هل نوافق سيبويه وأبا علي وأبا الفتح على ما ذهبوا إليه فنخرج هذه القراءات؟ أم أننا ينبغي أن نضع في اعتبارنا قضية مهمة، وهي أن هؤلاء الثلاثة نحاة، وأن الآخرين قراء، وفرق كبير بين هؤلاء وأولئك. فالنحاة أصحاب تقعيد وتنظيم، وهذه الروايات التي تخرج عن قواعدهم كانت تفاجئهم، فلا يكون منهم إلا تجريحها وإخراجها على التوهم، والقراء أصحاب أداء وهم أهل تلق وعرض، فهم - من هذه الناحية - أدق من النحاة في نقلهم للغة. نحسب أن الحق في جانب القراء حيث إن بحثنا في اللهجات يثبت أنه قد كانت هناك لهجات مستعملة تؤيد هذه القراءات على النحو الذي سيظهر في الباب الرابع من هذا البحث، ولو كان النحاة مهتمين بدراسة اللهجات العربية القديمة لما ردوا هذه القراءات ولما جرحوا أصحابها.

ولقد كان أصحاب القراءات والمهتمون بها يدركون هذا الفرق بين منهج النحو والقراءات، ويرون - بحق - أن منهجهم أوثق وأصح من هذه الأصول والقواعد التي خضع لها النحاة وحاولوا أن يخضعوا لها العربية^(١). ثم ينقل عن أبي حيان - رحمه الله - في تفسيره البحر المحيط قوله: «إن نقل القراءات السبع متواتر لا يمكن وقوع الغلط فيه»^(٢) وعند قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا﴾ [الأعراف: ١٠] حيث قرأها نافع بالهمز. يقول أبو حيان: «قال المازني: أصل أخذ هذه القراءة عن نافع، ولم يكن يدري ما

(١) اللهجات العربية في القراءات القرآنية، للدكتور عبده الراجحي، ص ٨٥-٨٦.

(٢) البحر المحيط (٤/٢٦٤).

العربية وكلام العرب التصحيح في نحو هذا.. ولسنا متعبدین بأقوال نحاة البصرة.. فوجب قبول ما نقلوه إلينا، ولا مبالاة بمخالفة نحاة البصرة في مثل هذا، وأما قول المازني: أصل أخذ هذه القراءة عن نافع، فليس بصحيح؛ لأنها نقلت عن ابن عامر وعن الأعرج وزيد بن علي والأعمش، وأما قوله: إن نافعاً لم يكن يدري ما العربية، فشهادة على النفي، ولو فرضنا أنه لا يدري ما العربية وهي هذه الصناعة التي يتوصل بها إلى التكلم بلسان العرب فهو لا يلزمه ذلك. إذ هو فصيح متكلم بالعربية ناقل للقراءة عن العرب الفصحاء، وكثير من هؤلاء النحاة يسيئون الظن بالقراء ولا يجوز لهم ذلك»^(١).

هل القراءات المتواترة وحدها حجة في العربية؟

يقرر أئمة القراءات والتفسير واللغة وعلوم القرآن أن القراءات المتواترة ليست وحدها حجة في العربية بل إن القراءات الشاذة كذلك، بل إن بعض العلماء ذهب إلى ما هو أبعد من هذا، فقرر أن القراءات الشاذة يمكن أن نفيد منها في الأحكام بل في العقائد كذلك^(٢)، والذي يعنينا الآن أمر اللغة، فإن المعن في القراءات الشاذة إذا كانت لديه معرفة باللهجات العربية قبل الإسلام، فإنه لن يتردد في أن هذه القراءات الشاذة عليها معول كبير في معرفة العربية، ولقد عقد الدكتور الراجحي باباً خاصاً من عدة فصول لهذه القضية، درس في هذه الفصول الصوامت والصوائت، والمستوى الصرفي والمستوى النحوي والمستوى الدلالي، وخلص من هذه الدراسة إلى أن جميع القراءات الشاذة لها أصول وجذور عميقة في اللهجات العربية، فهناك من القبائل من كان يلغي الهمزة، وهناك من كان يكسر أول المضارع، ومن يصرف ما لا ينصرف إلى غير ذلك من أمور نجدها غريبة ومستنكرة عند النحاة في بعض القراءات. صحيح أن القراءات الشاذة لا تجوز القراءة بها في الصلاة، ولا تسمى قرآناً لأمر بيتها لك في مبحث سابق.

ويختتم الدكتور الراجحي بهذه النتائج التي أختتم بها هذا المبحث شاكراً الأستاذ الراجحي هذا الجهد الطيب الذي ينم عن معرفة وإنصاف:

(١) البحر المحيط (٤/ ٢٧١-٢٧٢).

(٢) مناهل العرفان (١/ ٣٨٠). وقد فصلت هذه القضية في كتابي (القراءات القرآنية).

١- تعد القراءات مرآة صادقة لما كانت عليه ألسنة العرب قبل الإسلام، وعلى ذلك لا يستطيع باحث أن يتعرض للهجات العربية دون أن يقوم بدراسة للقراءات.

٢- وإذا كانت القراءات كذلك فهي أوثق المصادر اللغوية لدراسة اللهجات إذ تختلف عن الشعر الجاهلي الذي أصابه ما أصابه من تحريف في الرواية على مر العصور، وتختلف عن الحديث بما أجز فيه من رواية بالمعنى، ولقد رأيت أن منهج القراءات أصح مناهج النقل اللغوي؛ لأنها تعتمد على التلقي والعرض وهما يكفلان صحة النقل ودقته.

٣- إن القراء لا يمثلون بيئاتهم اللهجية تماماً؛ لأن القراءة كما قلنا تقوم على الرواية، وأصدق مثل على ذلك ابن كثير قارئ مكة.

٤- إن النحاة جرحوا بعض القراءات حيث رأوها تخرج على قواعدهم وكان ينبغي أن يكون العكس صحيحاً، إذ القرآن مصدر لمعرفة اللغة وليس النقيض كذلك^(١).

العرضة الأخيرة والقراءة الشاذة:

كثير من القراء سيجدون غرابة وعجباً من هذا العنوان، فأبي صلة بين العرضة الأخيرة والقراءة الشاذة، ولكن رجائي أن يزول عجبهم واستغرابهم ورجائي كذلك ألا يعجلوا عليّ. فأقول وبالله التوفيق ومن الله العون:

إن كل من تحدث عن القراءة الشاذة وأسبابها وأنواعها يذكر أول ما يذكر أن أول نوع من أنواع القراءة الشاذة ما نُسخ في العرضة الأخيرة، ولكن هؤلاء رحمهم الله أمواتاً وبارك فيهم أحياء، لا يأتوننا بأي مثالٍ على ما ذكره وقرروه، وكأن هذه العرضة الأخيرة وما سبقها كانت لنسخ بعض الآيات، وهذا من الأمور الخطيرة التي لا يجوز أن نصدر الحكم، وأن يكون القول فيه قولاً بلا دليل ولا حجة، ثم إن نسخ التلاوة أمرٌ فيه خلافٌ كبير بين العلماء، على أن القائلين بالنسخ لم يدع أحدٌ منهم أن هذا النسخ كان في العرضة الأخيرة.

(١) القراءات واللهجات، ص ٢٠٤.

إن معارضة سيدنا رسول الله ﷺ الروح القدس جبريل عليه السلام لم يكن هدفها نسخ آيات وترك قراءتها، بل كانت هذه المعارضة تأنيساً وتثبيتاً ولقاء حب بين أمين الأرض وأمين السماء (عليهما السلام)، ولذا فإن في رمضان العام العاشر من الهجرة النبوية الشريفة عارض الأمين الأمين مرتين، وقد أدرك النبي ﷺ سر هذا (وهو قرب أجله)، بأبي هو وأمي، ولقد تحدث كثير من الكتاب عن العرضة الأخيرة، وجلّهم يرى أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حضر هذه العرضة، ويرى بعضهم أن أياً وزيداً رضي الله عنهما قد حضراها أيضاً.

والحق أن مثل هذا لا نجد له ما يسند فليس هناك أثر يمكن أن يعتمد عليه في هذا الأمر، ثم إن العرضة الأخيرة كانت لقاء كما قلت من قبل بين أمين الأرض وأمين السماء، وفيه من الشفافية والنورانية ما لا يمكن وصفه، فكيف يمكن أن يكون في هذا اللقاء غير هذين الحببيين؟ وإن قضية مثل هذه لو صحت لكان ينبغي أن تستند إلى أحاديث، كأن يقول الرسول ﷺ لنفر من الصحابة: تعالوا كما روي عنه قوله لبعض أمهات المؤمنين: «إن جبريل يقرئك السلام»^(١)، وكما قال لأبي ﷺ: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة كذا»^(٢).

ولقد أهدت إلي جمعية المحافظة على القرآن الكريم مشكورة كتاب (المنهج النبوي في التعليم القرآني) للدكتور عبدالسلام مقبل المجيدي، تحدث فيه عن العرضة الأخيرة في بضع عشرة صفحة، ومما قاله في هذا الموضوع: إن الهدف العام من المعارضة ليتم مقابلة ما حفظه ﷺ على ما أوحاه إليه جبريل عليه السلام عن الله سبحانه وتعالى؛ لبقى ما بقي ويذهب ما نسخ توكيداً واستثباتاً وحفظاً، وهذا القول يعوزه الدليل، كيف؟ وقد تكفل الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ بأن يثبت بالقرآن الكريم فؤاده الشريف ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: ٣٢] وألا ينسى النبي ﷺ هذا القرآن ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴿[الأعلى: ٦-٧]، والمحققون من علماء التفسير وأئمة اللغة يرون أن هذا

(١) أخرجه البخاري في الصحيح برقم ٣٥٥٧.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح برقم ٣٥٩٨.

الاستثناء ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ ليس الغرض منه أن الله سبحانه تعالى شاء أن ينسى النبي ﷺ بعض ما أقرئ، إنما الغرض منه ألا ينسى النبي ﷺ شيئاً، ولقد ذكر صاحب المنار رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَنَّا إِلَىٰ آلِهِمُ الْمَلَكُيْكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١] أن المشيئة هنا ليست لإثبات إيمانهم، إنما هي تأكيد لعدم الإيثار، كما تكفل الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ أن الله سيجمع له هذا القرآن في صدره الشريف: ﴿لَا تُفَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، (١٧) فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَلْبِقْ قُرْآنَهُ، (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ، ﴿[القيامة: ١٦-١٩].

ويقول الكاتب في هذا الموضوع أيضاً: إن النصوص التي بين أيدينا تدل على شهود ابن مسعود للعرضة الأخيرة، وأنه تعلم من النبي ﷺ القرآن بعد أن عرضه جبريل عليه السلام، ويدل لذلك ما رواه أبو ظبيان قال: «قال لنا ابن عباس: أي القراءتين تقرأون؟ قلنا: قراءة عبدالله، قال: إن رسول الله ﷺ كان يُعرض عليه القرآن في كل عام مرة، وإنه عُرض عليه العام الذي قبض فيه مرتين، فشهد عبدالله ما نسخ». وفي لفظ عنه: «قال ابن عباس: أي القراءتين تعدون القراءة الأولى؟ قالوا: قراءة عبدالله. قال: قراءتكم القراءة الأولى وقراءة عبدالله القراءة الآخرة! إن رسول الله ﷺ كان يُعرض عليه القرآن كل رمضان عرضة، فلما كان العام الذي قبض فيه عُرض عليه عرضتان، فشهده عبدالله وشهد ما نُسخ منه وما بُدل (فقراءة عبدالله الآخرة)»، ويقول الأخ الكاتب مستدلاً على ما ذهب إليه: إن حفظ ابن مسعود للقرآن الكريم في حياة النبي ﷺ دليل على حضوره العرضة الأخيرة.

ولم يكتف الأخ الكاتب بتقريره أن عبدالله بن مسعود وحده هو الذي حضر العرضة الأخيرة، بل يرى أن هناك كثيرين من الصحابة حضروا هذه العرضة، ويقول: إن العرضة الأخيرة هي قراءة العامة، وإنما لم يشهدوا جميع الناس للاكتفاء بوجوب تبليغ بعضهم بعضاً، ويستدل على ما سبق من أن جميعاً لم يشهدوا العرضة الأخيرة بل شهدوا بعضهم بحديث الرضاع المروي عن السيدة عائشة رضي الله عنها في صحيح مسلم، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحر من ثم

نُسَخْنَ بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يُقرأ من القرآن^(١)، فقولها: «وهن فيما يقرأ» أي: يقرأها بعض الناس لكونهم لم يبلغهم النسخ الواقع في العرصة الأخيرة لقرب عهدهم، فلما بلغهم رجعوا وأجمعوا على أنه لا يتلى، وهذا ما قرره العلماء، ولللفظ عائشة تقرير آخر عند الباحث ربما كان أكثر وجاهة كما يقول، هو أن يكون معنى قولها هذا على سبيل التأكيد البالغ على التحريم بالرضاع بهذا العدد دون نسخه، ولكن ذلك من قول الرسول ﷺ وليس من قول الله تبارك وتعالى، وأرادت التأكيد على الالتزام فعزته إلى القرآن، وهذا من خواص لغة الصحابة كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لعن الله الواشيات والمستوشيات، والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله» قال: فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها: أم يعقوب، وكانت تقرأ القرآن، فأتته فقالت: ما حديثٌ بلغني عنك أنك لعنت الواشيات والمستوشيات، والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله، فقال عبدالله: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله؟ فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لוחي المصحف فما وجدته، فقال: لئن كنت قرأته لقد وجدته قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]^(٢).

ومن هذا الباب أيضاً إطلاق لفظ آية أو نسبته إلى الله تبارك وتعالى لزيادة التأكيد على ثبوته لسنة النبي ﷺ حتى يظن بعضهم أنها من القرآن، نحو ما جاء عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: «قال عمر بن الخطاب وهو جالس على منبر رسول الله ﷺ: إن الله قد بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم، قرأناها ووعيناها وعقلناها، فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، حقق أصوله ورقم أحاديثه حسب المعجم المفهرس والتحفة الشيخ مأمون خليل شبحا، حديث رقم ٣٥٨٢، دار المعرفة.

(٢) المرجع السابق، ج ١٤، حديث (٥٥٣٨).

كان الحبل أو الاعتراف»^(١). وينظر التعبير الوارد في آخر الحديث (فريضة أنزلها الله) وقوله: (الرجم في كتاب الله حق) .. كقول ابن مسعود المتقدم.

يستدل الأخ الكاتب على أن سيدنا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه حضر العرضة الأخيرة بأنه كان يحفظ القرآن الكريم في حياة النبي ﷺ، وهل كان وحده ﷺ يحفظ القرآن الكريم في حياة النبي ﷺ لقد كان كثير من الصحابة يحفظون كتاب الله.

أما القضية التي يقرر فيها الكاتب أن العرضة الأخيرة هي قراءة العامة وليس عبدالله بن مسعود وحده الذي حضرها، بل حضرها كثير من الصحابة رضوان الله عليهم وهذا أمر لم يذكره أحد إلا الأخ المؤلف، وكيف؟ جبريل عليه السلام والرسول ﷺ يتدارسان القرآن وجم غفير من الصحابة يجلس لستمع؟ أكان جبريل عليه السلام في صورته الملكية أم في صورته البشرية؟ لا يجوز أن تصدر الأحكام في أمور ذات شأن وخطر، وإذا كان الأمر يمكن أن يتساهل فيه في القضايا السابقة، فإن الأمر لأشد خطراً في القضية الأخيرة التي يقرر الكاتب فيها أن كلام السيدة عائشة رضي الله عنها أرادت به التأكيد على الالتزام فعزته إلى القرآن الكريم. سبحان الله !!

أيجوز مثل هذا عن السيدة عائشة رضي الله عنها أو غيرها ممن يخشى الله ويتقيه أن يقول: قال الله في كلام لم يقله رب العالمين؟ وأن تنسب كلام الرسول ﷺ إلى الله تبارك وتعالى؟ وأن تجعل الحديث قرآناً؟ وإن هناك قضايا كثيرة أهم من قضية الرضاعة ذكرها النبي ﷺ وروته السيدة عائشة رضي الله عنها، ولكن مسنداً إلى الرسول ﷺ، كانت أولى من قضية الرضاعة أن تُسند إلى القرآن الكريم. إن هذا والله أمر يمكن إن اطلع عليه أعداء الإسلام وخصومه من المستشرقين والمستغربين وضعاف الإيذان المفتونين بما عند الآخرين أن يجد فيه ضالته الخبيثة، وما استدلل به الكاتب من حديث النامصة عن عبدالله بن مسعود بعيد كل البعد، وهو قياس مع الفارق كما يقولون إن كان فيه قياس؟! إن ابن مسعود رضي الله عنه بين للمرأة ما أراده من قوله: «وهو في كتاب الله» قال: «لئن قرأته لقد وجدته» ويستدل بالآية الكريمة ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ وأين هذا مما ذكره

(١) المرجع السابق، ج ١١، حديث (٤٣٩٤).

الكاتب عن السيدة عائشة رضي الله عنها؟ إن حديث النامصات حديث روي عن رسول الله ﷺ والرسول هو الذي قال: «لعن الله النامصة» فالله في الحقيقة هو اللاعن، وكلام أم يعقوب مع أنه كلام لا معنى له، وأظنها لو كانت ذات ذكاء لأدركت ما أراد ابن مسعود أن يقوله لها.

والذي روي عن ابن مسعود ﷺ روي ما يشبهه عن الشافعي رحمه الله ورضي عنه أما أن تقول السيدة عائشة عن قول النبي ﷺ : كان فيما أنزل وفيما يُقرأ، فهذا لو كان من غير الكاتب الذي نحسن الظن به لكان لنا معه شأن آخر وكلام آخر، وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم. ثم إن الكاتب سأل الله وأسأل الله أن يغفر له لم يكتف بهذا بل أول قول عمر في قضية الرجم (فكان مما أنزل عليه آية الرجم قرأناها ووعيناها...) يرى الكاتب أن قول عمر ﷺ إنما يعني به حديث النبي ﷺ ، يعني أن أمر الرجم كان من قول الرسول ﷺ لكن عمر نسبته إلى القرآن الكريم، كما نسبت السيدة عائشة رضي الله عنها أمر الرضاة. والعجب من الكاتب أنه يرى أن العرضة الأخيرة تُسخ فيها شيء من القرآن الكريم ويا ليت استقر على هذا الرأي من أن هناك قرآنٌ سُخت تلاوته وأن آيتي الرضاة والرجم من الأمور التي نسخت، لكن أن يُثبت النسخ في العرضة الأخيرة ثم يدعي أن ما قالته السيدة عائشة رضي الله عنها - وما قاله سيدنا عمر ﷺ - ليس في الحقيقة قرآن بل هو من قول الرسول ﷺ أسندته السيدة عائشة وسيدنا عمر إلى الله حتى يكون أكثر قبولاً عند الناس فلو أنه أثبت النسخ لهذين القولين كان خيراً له.

وأود أن أوجه كلمة إلى إخواننا الأفاضل في جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ومنهم الكثيرون من أهل العلم والفضل، عندما يأتيهم كتابٌ للطباعة أن يكون هناك متخصصون ليقروا ما يريدون طباعته ونشره.

وبعد هذا نرجع إلى الحديث عن القراءة الشاذة:

والقراءة كما تعلم - وهو ما استقر عليه في زماننا - إما أن تكون متواترة أو شاذة، والمتواترة هي القراءات العشر، والشاذة ما زاد عليها، ولكن كثيراً من الناس توسعوا فيما هو شاذ من القراءات فذكروا ما نسخ في العرضة الأخيرة كما مرّ، كما ذكروا منها القراءات التفسيرية، والقراءات الموضوعية، والذي يظهر لي أن هذه كلها لا ينبغي أن نطلق عليها

قراءات شاذة؛ لأن تسميتها قراءة تحوُّزٌ ليس إلا، وتوضيحاً لهذا الأمر نذكر الشروط التي أجمعوا عليها للقراءة الصحيحة، والقول الفصل في هذا ما ذكره ابن الجزري رحمه الله في طيبة نشره:

فكل ما وافق وجه نحوي وكان للرسم احتمالاً يحوي
وصحح إسناداً هو القرآنُ فهذه الثلاثة الأركانُ
وحيثما يختل ركنٌ أثبت شذوذه لو أنه في السبعة

قال الإمام النووي بعد شرح هذه الآيات: «اعلم وفقني الله وإياك أن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على خط المصاحف والكتب، وهذا من الله تعالى غاية المنّة على هذه الأمة، ففي صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله لي: قم في قريش فأنذرهم، فقلت: يا رب إذا يثلغوا رأسي حتى يدعوه خبزة، فقال: إني مبتليك ومبتل بك، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان»، فأخبر الله تعالى أن القرآن لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة تغسل بالماء، بل يقرؤه في كل حال، كما جاء في صفة أمته (أناجيلهم في صدورهم)، بخلاف أهل الكتاب الذين لا يقرؤونه كله إلا نظراً»^(١). وقال أيضاً: «إذا تقرر ما تقدم علم أن الشاذ عند الجمهور: «هو ما ليس بمتواتر». وعند مكّي ومن وافقه: «هو ما خالف الرسم أو العربية ونقل ولو بثقة عن ثقة أو وافقهما. ونقل بغير ثقة أو بثقة؛ لكن لم يشتهر». وأجمع الأصوليون والفقهاء والقراء وغيرهم على القطع بأن الشاذ ليس بقرآن، لعدم صدق حد القرآن عليه أو شرطه وهو التواتر، صرح بذلك الغزالي وابن الحاجب في كتابيهما والقاضي عضد الدين وابن الساعاتي والنووي وغيرهم مما لا فائدة في عدّه لكثرتة وكذلك السخاوي في جمال القراءة»^(٢).

يقول الإمام السخاوي: الشاذ مأخوذ من قولهم: شذ الشيء يشذ ويشذ شذوذاً: إذا انفرد عن القوم واعتزل جماعتهم، وكفى بهذه التسمية تنبيهاً على انفرد الشاذ وخروجه

(١) شرح طيبة النشر في القراءات العشر، لأبي القاسم النووي، تحقيق وتعليق: عبدالفتاح ميد سليمان أبو سنة، ج ١، ص ١٠٢-١٠٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٠.

عما عليه الجمهور. والذي لم يزل عليه الأئمة الكبار القدوة في جميع الأمصار من الفقهاء والمحدثين وأئمة العربية - توقير القرآن، واجتناب الشاذ واتباع القراءة المشهورة، ولزوم الطرق المعروفة في الصلاة وغيرها.

قال ابن مهدي: لا يكون إماماً في العلم من أخذ بالشاذ من العلم، ولا يكون إماماً في العلم من روى عن كل أحد، ولا يكون إماماً في العلم من روى كل ما سمع. وقال الحارث بن يعقوب: الفقيه كل الفقيه من فقه في القرآن، وعرف مكيدة الشيطان.

وقال خلاد بن يزيد الباهلي: قلت ليحيى بن عبد الله بن أبي مليكة: إن نافعاً حدثني عن أبيك عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقرأ: (إِذْ تَلْقَوْنَهُ)، وتقول: إنما هو من (وَلَقَى) الكذب، فقال يحيى: ما يضررك أن لا تكون سمعته من عائشة، نافع ثقة على أبي، وأبي ثقة على عائشة، وما يسرني أني قرأتها هكذا، ولي كذا وكذا، قلت: ولم وأنت تزعم أنها قالت؟ قال: لأنه غير قراءة الناس، ونحن لو وجدنا رجلاً يقرأ بما ليس بين اللوحين ما كان بيننا وبينه إلا التوبة أو تُضرب عنقه، نجيء به عن الأمة عن الأمة عن النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام عن الله تبارك وتعالى، ويقولون أنتم: حدثنا فلان الأعرج عن فلان الأعمى، ما أدري ماذا أن ابن مسعود يقرأ غير ما في اللوحين إنما هو - والله - ضرب العنق أو التوبة^(١).

ويقول الإمام النووي: «ولا تجوز القراءة في الصلاة ولا غيرها بالقراءات الشاذة لأنها ليست قرآناً، لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، وأما الشاذة فليست بمتواترة، فلو خالف وقرأ بالشاذ أنكر عليه، سواء قرأ بها في الصلاة أو غيرها، هذا هو الصواب الذي لا معدل عنه ومن قال غيره فهو غلط أو جاهل»^(٢).

ومما تقدم ندرك أن هناك إجماعاً على أن القراءة الشاذة ليست قرآناً، ولا تجوز الصلاة بها وما كان من خلاف في هذه القضية فقد أجمع العلماء فيها بعد على أنه تحرم القراءة الشاذة في الصلاة.

بقيت مسألة في شأن القراءة الشاذة أعني الاحتجاج بها، وهذا ما سنذكره فيما يأتي.

(١) جمال القراءة وكمال الإقراء، لعلم الدين علي بن محمد السخاوي، (١/٢٣٤-٢٣٥).

(٢) المجموع شرح المذهب (٣/٣٩٢).

القراءات الشاذة:

من الأمور التي أجمع عليها المسلمون أن القراءة الشاذة هي ما بعد العشرة، ولكن مفهوم القراءة الشاذة قد يتسع ليشمل الموضوع والمدرج (القراءة التفسيرية) وما روي آحاداً، وما خالف رسم المصحف. وهذه ليست سواءً، فما لم يصحّ سنده لا يقبله أحد من العلماء، كذلك المدرج أو القراءة التفسيرية، إنما تمثل رأي من رويت عنه.

والقراءة الشاذة التي نتحدث عنها من حيث الاحتجاج بها هي التي رويت آحاداً أو خالفت رسم المصحف، وجُلّ هذه القراءات تندرج في الأربعة التي هي بعد العشرة، وقد اختلف العلماء من حيث حجية هذه القراءات، فتوسع بعضهم ساعدهم الله في أمر الاحتجاج بهذه القراءات من غير أن يفرقوا بين ما روي آحاداً وبين ما لم يصحّ سنده، بل ذهب بعضهم إلى أن هذه القراءات قد يحتج بها في قضية من قضايا العقيدة، ذكر شيخنا الأستاذ عبد العظيم الزرقاني صاحب مناهل العرفان - رحمه الله - أن القراءة الشاذة قد تكون حجة في قضايا الفقه والعقيدة والأصول، ومثل لذلك بقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠] وهناك قراءة (وَمَلِكًا كَبِيرًا) بفتح الميم وكسر اللام وهو الله تبارك وتعالى. وقال: استدلل بهذه القراءة على رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة. وقد أخذ هذا القول عن الشيخ كثير ممن جاؤوا بعده، بل من المتخصصين في موضوع القراءات، وهو أمر يدعو إلى العجب والاستغراب، فهذه القراءة لم يذكرها أحد من علماء القراءات ولا من المفسرين، إنما جاءت في تفسير النيسابوري رحمه الله، فعند تفسير هذه الآية الكريمة قال: (عن علي أنه قرأ: مَلِكًا كَبِيرًا) وهذا أمر - كما نرى - غير مقبول، فقد رواها النيسابوري عن سيدنا علي بلا سند، ولم يشر إليها أحد من المفسرين، الذين كانت لهم عناية في ذكر القراءات في تفسيرهم كالرازي^(١) وأبي حيان والسمين الحلبي، والألوسي، فكيف يجوز أن نقل ما قاله شيخنا الزرقاني - رحمه الله دون بحث أو تمحيص.

(١) استدرارك: لقد ذكر الإمام الرازي هذه القراءة في «التفسير الكبير» (١٣/١٠٨) في سورة الأنعام عند تفسير الآية ١٠٣، الحجة السادسة، وذكرها الإمام ابن الجزري في كتابه «النشر» (١/٢٩) وعزاها لقارئ مكة ابن كثير وغيره.

والاحتجاج بالقراءات الشاذة - كما قلت من قبل - هي التي رويت آحاداً، أو خالفت الرسم، على أن لا يكون فيها غير ثقة، يمكن أن يحتج بها في اللغة. وقد كتب ابن جني - رحمه الله - كتابه الفذ المحتسب في القراءات الشاذة التي يمكن أن يحتج بها في مجال اللغة.

حكم الاحتجاج بالقراءة الشاذة.

اختلف العلماء في حجية القراءة الشاذة على أقوال نكتفي بذكر أصحها وأرجحها والذي يكاد يكون مجمعاً عليه في أيامنا هذه.

وهو أن القراءة الشاذة ليست بحجة ولا يصح الاعتماد عليها، وهو ظاهر مذهب الشافعي رحمه الله. قال إمام الحرمين: «ظاهر مذهب الشافعي أن القراءة الشاذة التي لم تنقل تواتراً لا يسوغ الاحتجاج بها، ولا تنزل منزلة الخبر الذي ينقله آحاد الثقات»^(١). وقال النووي: «مذهبنا أن القراءة الشاذة لا يحتج بها ولا يكون لها حكم الخبر عن رسول الله ﷺ»^(٢).

ونقل الزركشي في البحر والسيوطي في الإتيان القول بذلك عن الأمدي والأبياري في شرح البرهان وابن الحاجب وأبو النصر بن القشيري وابن السمعاني في (القواطع)، و لكيا الطبري في (التلويح)^(٣)، وبه قال المالكية وهو رواية عند الحنابلة^(٤).

وحجة هؤلاء هي:

١ - قال الجويني - رحمه الله - : إن القرآن قاعدة الإسلام وقطب الشريعة، وإليه رجوع جميع الأصول ولا أمر في الدين أعظم منه، وكل ما يجلب خطره ويعظم وقعه لا سيما من الأمور الدينية فأصحاب الأديان يتناهون في نقله وحفظه، ولا يسوغ في اطراد الاعتياد

(١) البرهان (١/٦٦٦).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، (٥/١٣٠-١٣١).

(٣) الاحتجاج بالقراءة الشاذة عند الأصوليين، ٣٧٦.

(٤) البرهان (١/٦٦٧).

رجوع الأمر فيه إلى نقل الأحاد ما دامت الدواعي متوفرة، والنفوس إلى ضبط الدين متشوقة.

٢- إن أصحاب رسول الله أجمعوا في زمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه على ما بين الدفتين واطرحوا ما عداه، وكان ذلك على اتفاق منهم، ولم ينكر على عثمان ذلك منكر، وكل زيادة لا تحويها الأم ولا تشتمل عليها الدفتان فهي غير معدودة في القرآن^(١).

٣- وهي تفريع على سابقتها، ذلك أن الزيادات الحاصلة في الشاذ أو الروايات المغايرة لما جاء في المتواتر، إما أن يكون قد كان موجوداً في عهد الصحابة، وإما أن لا يكون، فإن كانت الثانية، فهو فوق كونه ممنوعاً ثبت أنه ليس من القرآن ولا حجية له، وإن كانت الأولى فهو مما أجمع الصحابة على تركه، والإجماع دليل معتد به مقدم على ضعيف الإسناد أو مروى الأحاد.

٤- قال الإمام النووي: لا يكون للقراءة الشاذة حكم الخبر عن رسول الله ﷺ؛ لأن ناقلها لم ينقلها إلا على أنها قرآن، والقرآن لا يثبت إلا بالتواتر بالإجماع، وإذا لم يثبت قرآنًا لا يثبت خبراً^(٢).

٥- نقل الزركشي عن إلكيا في التلويح قوله: والدليل القاطع على إبطال نسبة القراءات الشاذة إلى القرآن أن الاهتمام بالقرآن من الصحابة الذين بذلوا أرواحهم في إحياء معالم الدين يمنع تقدير دروسه، وارتباط نقله بالأحاد^(٣)، وهو قريب من كلام إمام الحرمين.

٦- إن الزيادة في القراءة الشاذة التي يرويها الراوي، إن ذكرها على أنها قرآن فهو خطأ، وإن لم يذكرها على أنها قرآن فقد تردد بين أن تكون خبراً عن النبي ﷺ وبين أن تكون مذهباً له، فلا تكون حجة بخلاف خبر الواحد عن النبي ﷺ فهو حجة معتبرة يعمل به، ومع التردد لا يعمل به.

(١) البرهان (١/٦٦٨).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، (١٣١/٥).

(٣) البحر (١/٣٨٤).

هذه خلاصة ما ذكره من أدلة في منع الاحتجاج بالقراءة الشاذة، وأرجو أن يكون في الذي ذكرت ونقلته في هذا المضمار كفاية في بيان الحكم، والحمد لله رب العالمين.

خامس عشر: شبهات حول القراءات القرآنية:

لما كانت القراءات ذات أهمية كبيرة في حياة المسلمين لاتصالها بأعظم مقدساتهم، وهو كتاب الله اتصالاً مباشراً، فقد أثرت حولها شبهات لا تعدو كلها أن تكون مزاعم لا سند لها من عقل أو نقل، وسأذكر أهم هذه الشبهات وأناقشها.

١- الشبهة الأولى:

وصف المستشرق جولد تسيهر نص القرآن الكريم بالاضطراب وعدم الثبات بسبب تعدد وجوه القراءات، فقد قال في كتابه «مذاهب التفسير الإسلامي»: «فلا يوجد كتاب تشريعي، اعترفت به طائفة دينية اعترافاً عقدياً على أنه نص منزل أو موحى به، يقدم نصه في أقدم عصور تداوله مثل هذه الصورة، من الاضطراب وعدم الثبات، كما نجد في نص القرآن»^(١).

وهذا قول بعيد عن التمهيد؛ لأن الاضطراب وعدم الثبات يوجدان حينها تكون الصور المتعددة للنص متناقضة لا يتميز الصحيح فيها، لكن هذا لا ينطبق على تعدد القراءات، فالقراءات المتعددة كلها مقطوع بصحة نسبتها إلى الوحي^(٢).

وقد ناقش الشيخ عبدالوهاب حمودة ما أثاره جولد تسيهر من شبهات كما ناقش منهج المستشرقين عموماً في تعاملهم مع القراءات فأجاد وأفاد. قال - رحمه الله - : «وكان كل هم المؤلف هو أن يدل على أن الاختلاف في القراءات إنما كان عن هوى من القراء لا عن توقيف ورواية. وهذا هو سر خطئه في منهجه، حيث لم يعد أن القراءات إنما هي رواية بالسند الصحيح، وهي سنة يتبعها الآخر عن الأول، ونسي أن القراء لم يأخذوا قراءاتهم إلا بعد بحث وتمحيص للسند وللرجال الذين أخذوا عنهم، ونسي أيضاً مقياسهم الذي وضعوه ليميزوا بين صحيح القراءة وسقيمها، وبين متواترها وشاذها. ثم نقله عن كتب

(١) مذاهب التفسير الإسلامي لجولد تسيهر، ص ٤.

(٢) مذاهب التفسير الإسلامي، ص ٤، هامش التحقيق للدكتور عبدالحليم النجار.

غير جديرة بالنقل منها، والارتكان إلى آراء ضعيفة لا يقيم لها علماء القراءات وزناً. هذا إلى خطئه في فهم النصوص، وعجزه عن الغوص إلى أعماقها وفهم أسرارها.. ومن أخطائه أنه يحتمل القراءة ما لا تحتمله، ويتطوّع في تفسير السبب الذي حمل القارئ على اختياره هذه القراءة.

والقارئ نفسه بريء من هذا الاستنباط، بل ويصرّح أحياناً بما يخالفه، ولكن حرص جولد تسيهر على التشكيك في القراءات وإثبات أنها من محض الرأي لا النقل - يجعله يسلك ذلك السبيل...»^(١).

ويواصل رده على تسيهر فيقول: «فلو كان جولد تسيهر أمعن النظر في التفاسير وقرأها بروح الإخلاص المجرد عن الهوى والغرض لبان له وجه الصواب، ولكفانا مؤونة المناقشة والرد، ولكن يظهر لنا أنه لم يفهم روح القرآن ومراميه، ولا أسرار أساليبه ومعانيه، ولم يحط خبراً بأسباب اختلاف القراءات، ولم يستوعب ما كُتب في التفسير وعلم القراءات. وأكبر الخطأ في فهم جولد تسيهر جعله القراءات كلها على قدم المساواة، ونسيانه أن هناك قراءات شاذة وقراءات ضعيفة»^(٢).

ويقول الشيخ - رحمه الله - مبيناً الفرق الأساس في منهج المستشرقين ومنهج المسلمين في التعامل مع القراءات وجميع منابع الثقافة الإسلامية:

«إن الخلاف بيننا وبين المستشرقين خلاف على المبدأ والمنهج. فالمبدأ عند علمائنا في جميع منابع الثقافة الإسلامية هو إثباتها أولاً من طريق الرواية والبحث فيها إسناداً وممتناً، ووضعوا لذلك مقاييس ليس بعدها من دقة. وعلماء المناهج الحديثة ما زالوا يقلدونهم، ولم يأتوا بجديد يخالف كثيراً ما وضعه علماء الرواية من أئمة المحدثين. أما المستشرقون فلا يعترفون بغير المتن، ولا يقرّون إثبات شيء من طريق الرواية، وإنما كل همهم امتحان النص امتحاناً لا يقوم على أصول ثقافية ولا قواعد منهجية»^(٣).

(١) القراءات واللهجات: ١٨٢-١٨٤.

(٢) نفسه: ٢١٢-٢١٣.

(٣) نفسه: ٢٠٠.

لقد أثار جولد تسيهر شبهات كثيرة لا تقوم على أساس من منطق أو علم، وهو ليس وحده في هذا المضمار الظالم بل سبقه كثيرون ولحقه كثيرون، ولكنهم يعدّونه شيخ الاستشراق لكثرة اطلاعه وتنوّع معارفه، ولكن - ومع كل أسف - لم يوظف هذا الاطلاع المتعدد الجوانب إلا في تزيف الحقائق وتزيين الأباطيل، وإن القارئ ليلمح من خلال السطور وفي أثناء الكلمات هذا التحريف المتعمّد والهوى المتبع حقداً متغلغلاً في أعماق نفسه على هذا الدين وكتابه ونبيه ﷺ، وعداوة وبغضاء، تصديقاً لقوله سبحانه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾ [المائدة: ٨٢]. واستمع إليه وهو يلقي الشبهات في آيات كثيرة من كتاب الله من حيث القراءات الصحيحة. ومن هذه الآيات الكريمة: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢] فلقد قرأت هذه الآية بضمّ التاء (عجبت) وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ [يوسف: ١١٠] حيث قرأت هذه الآية (كُذِّبُوا) بالتخفيف و(كُذِّبُوا) بالتشديد وهناك قراءة شاذة (كُذِّبُوا) ببناء الفعل للفاعل فسوّى بين هذه القراءات صحيحها وشاذها، بل يلمح القارئ من خلال كلماته الغمز في شخصية سيدنا رسول الله ﷺ، بل ادّعى تناقض بعض القراءات مع بعضها الآخر.

ولقد بيّنتُ لكم في مبحث سابق أن الاختلاف بين القراءات ليس اختلاف تضادّ وتنافر، بل هو اختلاف تنوع، ولقد مثّل لهذا التناقض - في زعمه - بالآية الكريمة ﴿الْعَرْشِ الْمُبِينِ﴾ [الرؤم: ٢] في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ﴿٢﴾ في يضع سين ﴿[الرؤم: ١-٤] فادّعى أولاً أن هذه الآية ليس فيها أي لون من الإعجاز كما يزعم المسلمون، فإن الآية من باب الرجاء كما يقول أحدهم لصاحبه: «ستنجح إن شاء الله، وسيقضى دينك، وستغلب على عدوك».

والآية من هذا القبيل. وهذه مغالطة نكراء، إن الآيات الكريمة تقرر حقيقة بأسلوب حازم حاسم لا يحتمل إلا حقيقة واحدة وهي أن الروم المغلوبين سيصيرون غالبيين، ثم كيف هذا الادعاء بأن الآية من قبيل الرجاء وفيها تحديد دقيق للمدة التي سيتحوّلون فيها من مغلوبين إلى غالبيين. والتاريخ خير شاهد على ذلك.

ثانياً: يقول: إن هناك قراءةً تُناقض هذه القراءة وهي غلبة الروم في أدنى الأرض
ببناء الفعل للفاعل ﴿وَهُمْ مَرَّتْ بَعْدَ غَلْبِهِمْ سَيُّعِلُونَ﴾.

فهاتان قراءتان في الآية لا يمكن الجمع بينهما كما يزعم، فإن القراءة الأولى الروم
فيها مغلوبون ثم غالبون، والقراءة الثانية الروم فيها غالبون ثم مغلوبون.

ونقول - وقولنا لا يجمله جولد تسيهر - : إن القراءة الثانية ليست قراءة متواترة
سبعية بل ليست من العشر كذلك، ولكن هذا هو جولد تسيهر في تزييفه وتزويره.

ونقول ثانياً: مع كَوْن القراءة من الشواذ فيمكن تخريجها على أن القراءة الأولى
الصحيحة تتحدث عما كان بين الروم وبين الفرس حيث غلبَ الفرس أولاً ثم غلب
الروم بعد ذلك.

أما القراءة الثانية - وهي من الشواذ كما قلت - فإنها تتحدث في جزئها الأول عن
غلبة الروم للفرس، وفي جزئها الثاني عن غلبة المسلمين للروم فأين التناقض؟ إنه لا
تناقض مع كون القراءة من الشواذ.

٢- الشبهة الثانية:

القول بأن اختلاف القراءة ناشئ عن طبيعة رسم المصحف والخط العربي، وقد قال
بها المستشرق جولد تسيهر كذلك. جاء ذلك في كتابه «مذاهب التفسير الإسلامي» الذي
قال فيه: «وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات إلى خصوصية الخط العربي الذي
يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة، تبعاً لاختلاف النقاط الموضوعة فوق هذا
الهيكل أو تحته، وعدد تلك النقاط، بل كذلك في حالة تساوي المقادير الصوتية يدعو
اختلاف الحركات الذي لا يوجد في الكتابة العربية الأصلية ما يحدده، إلى اختلاف مواقع
الإعراب للكلمة، وبهذا إلى اختلاف دلالتها.

وإذاً فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط واختلاف الحركات في المحصول الموحد
القالب من الحروف الصامتة كانا هما السبب الأول في نشأة حركة اختلاف القراءات في
نص لم يكن منقوفاً أصلاً، أو لم تُتَحَرَّ الدقة في نقطه أو تحريكه»^(١).

(١). مذاهب التفسير الإسلامي: ٨-٩.

وقد استدل لرأيه هذا بجملة من القراءات الباطلة التي لم يصحّ معظمها، إذ استدل بسبع من القراءات لم يُقرأ في المعتمد المقبول إلا بواحدة منها^(١).

وهذه الدعوى التي جاء بها أجمع علماء المسلمين على خلافها، وقد شدّ عنهم بعض المتكلمين الذين اندثر قولهم. قال السيوطي: «وقال قوم من المتكلمين: إنه يسوغ إعمال الرأي، والاجتهاد في إثبات قراءة وأوجه وأحرف إذا كانت تلك الأوجه صواباً في العربية، وإن لم يثبت أن النبي ﷺ قرأ بها. وأبى ذلك أهل الحق وأنكروه وخطّوا من قال به»^(٢) وهذا الرأي اندثر، ولم يُعرف أصحابه والإجماع على خلافه، ومن شدّ من المتقدمين ابن مقسم الذي ذهب إلى جواز القراءة بها خالف الرسم وإن لم يُرو، وقد تقدم معنا أنه استتيب عن قوله هذا فرجع عنه.

ومن تابع جولد تسيهر على رأيه من المسلمين المعاصرين على اختلاف مذاهبهم أبو القاسم الخوئي، وطه حسين وإبراهيم الأبياري وعلي عبدالواحد وافي^(٣).

وهذا خلاف إجماع أهل العلم من الأمة في مختلف العصور، ودعوى جولد تسيهر باطلة يكذبها الواقع التاريخي ويتبين لنا بطلانها من الأمور التالية:

أولاً: إن القرآن الكريم كان محفوظاً في صدور الصحابة، كما أنه حُفظ بالتلقي السماعي إلى جانب النص المكتوب، وبهذا لم يتطرق إليه التبديل أو التغيير، وبدهي أن القرآن كان يُتلقى سماعاً بقراءاته المتعددة التي مصدرها الوحي^(٤).

ثانياً: إن القراءات كانت تروى قبل جمع القرآن وتدوين المصاحف، وهذا يدل دلالة قاطعة على أن اختلاف القراءات بين قراء الأمصار لم يكن راجعاً إلى طبيعة رسم المصحف. وخصوصية الخط العربي^(٥).

(١) انظر تعليقات المحقق د. عبدالحليم النجار في هوامش كتاب (مذاهب التفسير الإسلامي): هوامش الصفحات ٩-١١.

(٢) الإتيان (٧٨/١).

(٣) انظر البيان للخوئي: ١٨٠، في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين: ٩٥-٩٦، والموسوعة القرآنية للأبياري: (٨٠/١)، وفقه اللغة للدكتور علي عبدالواحد وافي: ٩٤.

(٤) القراءات أحكامها ومصدرها: ١٣٣-١٣٤.

(٥) رسم المصحف العثماني: ٢٣.

ثالثاً: إن الخط العربي الخالي من النقط والتحريك الذي كُتب به المصحف في عهود جمعه الأولى - لا دخل له في اختلاف القراءات، بدليل أن عثمان لم يكتف بإرسال المصاحف المكتوبة وحدها إلى الأمصار بل أرسل مع كل مصحف قارئاً يقرئ الناس حتى يتلقوا القراءة من أفواه الأئمة.

رابعاً: ليس كل ما احتمله رسم المصحف تصحّ القراءة به، بل إن للقراءة المقبولة عند العلماء ضوابط وأركاناً من صحة السند وشهرته وموافقة رسم المصحف ووجه من العربية، وقد بينا هذه الشروط سابقاً.

خامساً: مما يدل دلالة قاطعة على أن خط المصحف ليس هو مبعث اختلاف القراءة وجود كلمات كثيرة في القرآن رسمها واحد، ولكن اختلفت القراءة في بعض منها واتفقوا في بعض. ومثل هذا كثير في القرآن الكريم، ونكتفي بذكر مثال واحد، فكلمة (نسقي) وردت في عدة مواضع في القرآن الكريم منها (سورة النحل الآية ٦٦، سورة المؤمنون الآية ٢١، سورة الفرقان الآية ٤٩، سورة القصص الآية ٢٣).

وقد اختلفت القراء في كلمة (نسقيكم) في سورتي النحل والمؤمنون فقرأها بعضهم بالنون المضمومة، وبعضهم بالنون المفتوحة، واتفقوا على قراءتها في سورة الفرقان بضم النون، وفي سورة القصص بفتح النون، ومثل هذا كثير^(١).

٣- الشبهة الثالثة:

القول بوقوع اللحن في القرآن الكريم نتيجة لعدم تحري الدقة في كتابته، وقد أثار هذه الشبهة المستشرقون ثم جاء ابن الخطيب وأثارها في كتاب «الفرقان»^(٢) وقد تمسك بها يروى من أنه «لما فرغ من المصحف أتى به عثمان فنظر فيه فقال: «قد أحسنتم وأجملتم. أرى فيه شيئاً من لحن سقيم العرب بألسنتها»^(٣).

(١) انظر كتاب القراءات القرآنية.

(٢) انظر الفرقان لابن الخطيب: ٤١ وما بعدها، وانظر مناقشة شبهته في كتاب مناهل العرفان للزرقاني: (٣٧٩-٣٨٠).

(٣) المصاحف لابن أبي داود (٤١).

وما نُقل عن عمر بن الخطاب من قوله: «إِنَّا لَنرغب عن كثير من لحن أبي»^(١)، يعني لغة أبي.

وما روي عن سعيد بن جبير من قوله: في القرآن أربعة أحرف لحن «الصابئون» و«المقيمين» و«فأصدق وأكن من الصالحين»، و«إن هذان لساحران»^(٢)، وهذه الشبهة واهية يردها ما ثبت عن الرسول ﷺ في قوله: «اقرأوا كما علّمت» ويردها ما ثبت من أحاديث الأحرف السبعة التي تقدمت، ثم إن من أهم أركان القراءة أن تكون بإسناد صحيح متصل كما تقدم.

أما الآيات التي ذكرها سعيد بن جبير فإن قياس العربية يصحح تلاوة كلماتها بما رسمت به، ولكل منها وجه صحيح في المعنى والإعراب، وله نظائر في شواهد من فصيح الشعر، وقد أفاض الدكتور عبدالفتاح شلبي في ذكر هذه الشواهد ووجوه إعرابها^(٣).

كما أن مكانة عثمان ؓ بين حفاظ القرآن وأهل العربية معروفة، فلا يمكن أن يدع عثمان اللحن في المصحف ليغيره من بعده، ثم إن التناقض على أساس هذه الشبهة يكون واضحاً في قول عثمان، إذ كيف يقول: أحسستم وأجهلتم لمن لحنوا في المصحف^(٤)؟

والمعروف أن الذين كتبوا المصاحف كانوا من العرب الفصحاء، فلا يمكن أن يلحنوا في المصحف، ثم إذا وُجد اللحن فعلاً ولم يقوّمه من كان في عهد عثمان من أهل الفصاحة من العرب فهل سيقوّمه الذين سيأتون من بعد وهم الذين ضعفت سليقتهم اللغوية؟

وهذا النص وأمثاله لم يثبت عن عثمان ولا عن سعيد بن جبير، وتمحيص صحة ما يُروى واجب علمي، فلا يجوز التمسك بالأخبار الضعيفة وغير الثابتة. وسيأتي لهذا مزيد بيان في فصل خاص إن شاء الله.

(١) المصاحف لابن أبي داود: (٤١).

(٢) المصدر السابق: ٤٢.

(٣) انظر كتاب رسم المصحف العثماني: ١١٢ وما بعدها.

(٤) مناهل العرفان: (١/ ٣٨٠)، ورسم المصحف العثماني: ١١٥.

٤- الشبهة الرابعة^(١) :

إن اختلاف القراءات نشأ عن اختلاف النحويين والتشاذ المذهبي بين البصريين والكوفيين.

وهو قول باطل؛ لأن القراءات كانت تروى بالسند المتصل قبل نشوء المدارس النحوية واختلافاتها بل قبل وضع علم النحو، كما يستدل على بطلانه بالنظر إلى واقع القراءات إزاء النحو ومذاهبه، ونمثل لهذا بما يأتي:

أولاً: إن القارئ قد يُخالف مذهب النحوي قراءته، مثال ذلك ما ثبت عن الكسائي من أنه قال في معنى الآية الكريمة:

﴿وَيَكَاذِبُونَ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢] إن أصل التركيب: ويليكَ إنه لا يفلح الكافرون، فحذفت اللام تخفيفاً، فويلك كلمة على حدة، وإنه كلمة أخرى، وعلى هذا المذهب ينبغي أن يقف الكسائي على الكاف في قوله: «ويك» لأن هذا هو مذهب اللغوي، ولكن قراءته ليست كذلك، بل هو يقف على الياء ويبدأ «كأنه لا يفلح الكافرون».

قال الزركشي معلقاً على هذه المسألة:

«وأما الوقوف فأبو عمرو ويعقوب يقفان على الكاف على موافقة مذهب الكوفيين، والكسائي يقف على الياء وهو مذهب البصريين، وهذا يدل على أنهم لم يأخذوا قراءتهم من نحوهم، وإنما أخذوها نقلاً، وإن خالف مذهبهم في النحو»^(٢).

ثانياً: قد تكون القراءة واحدة متفقاً عليها بين القراء مع مخالفتها القياس النحوي، مثال ذلك الفعلان (خطف يخطف) ففي العربية لغتان: خَطَفَ يَخْطِفُ، وَخَطِفَ يَخْطِفُ. «والقراء لم يقرؤوا إلا يَخْطِفُ وَخَطِفَ مثل عَلِمَ، قال: ولا نعلم أحداً قرأ الأخرى»^(٣).

(١) البرهان: (٤/ ٤٤٤).

(٢) البرهان: (٤/ ٤٤٤).

(٣) الحجة لأبي علي الفارسي: (١/ ٣٩١).

ثالثاً: قد يجوز في الآية لغة أكثر من وجه، ولكن القراءة تأتي على واحد منها فقط. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نِزِيلًا﴾ [إسراء: ١٠٦]. جاء في تفسير أبي حيان: أن القراء أجمعوا على ضم الميم في كلمة (مُكث) مع أنه يجوز لغة فتحها وكسرها إذ «يُقال: مكث بضم الميم وفتحها وكسرها»^(١).

٥ - الشبهة الخامسة:

إن اختلاف القراءات نشأ عن تعدد اللهجات واللغات للقبائل العربية، فكانت كل قبيلة وكان كل واحد يقرأ بما يسهل عليه، ولم يكن هذا الاختلاف ناشئاً عن تلقٍ من الرسول ﷺ. وقد أثار هذه الشبهة الدكتور طه حسين في كتابيه الشعر الجاهلي والأدب الجاهلي مكرراً ما أثاره المستشرق الألماني نولدكه في كتابه «تاريخ القرآن»^(٢).

فقد جاء في كتاب «في الأدب الجاهلي» لطف حسين: «إنما نشير إلى اختلاف آخر في القراءات يقبله العقل، ويسعفه النقل، وتقضيه ضرورة اختلاف اللهجات بين قبائل العرب التي لم تستطع أن تغير حناجرها وألستها وشفاهها لتقرأ القرآن كما كان يتلوه النبي وعشيرته من قريش، فقرأته كما كانت تتكلم، فأملت حيث لم تكن تميل قريش، ومدت حيث لم تكن تمد، وقصرت حيث لم تكن تقصر، وسكنت حيث لم تكن تسكن، وأدغمت أو أخفت أو نقلت حيث لم تكن تدغم ولا تخفي ولا تنقل»^(٣).

وقال أيضاً: «إن القرآن الذي تلي بلغة واحدة ولهجة واحدة هي لغة قريش ولهجتها، لم يكذب تناوله القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته وتعددت اللهجات فيه وتباينت تبايناً كثيراً...»^(٤) وهي شبهة ضعيفة لا تستند إلى أساس نناقشها بما يلي^(٥):

(١) البحر المحيط: (٨٨/٦).

(٢) الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم أو المصحف المرتل بواعثه ومخططاته: ص ١٩٥.

(٣) في الأدب الجاهلي: ٩٥.

(٤) المرجع السابق: ٩٤.

(٥) انظر مناقشة هذه الشبهة في بحث (شبهات حول القراءات القرآنية) ١٣٩ وما بعدها.

أولاً: إن الكاتب يقرر أن القرآن نزل بلغة قريش ولم يكذب يتناوله القراء حتى كثرت قراءاته وتعددت اللهجات فيه، وهذا كلام باطل، قد أثبت الواقع التاريخي عكسه، إذ لم يملك أحد حرية قراءة كلام الله حسب لهجته ولسانه من تلقاء نفسه، بل لا يملك أن يقرأ مطلقاً إلا بعد أن يتلقى مشافهة من النبي ﷺ أو ممن تلقى عنه، وهذا ما تؤيده نصوص أحاديث الأحرف السبعة التي تبين لنا في بعضها أن مبعث إنكار صحابي على قراءة آخر شدة الحرص على القراءة بالوجه الذي سمعه وتلقاه عن رسول الله ﷺ، بل إن قرشية كل من عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم تؤكد لنا أن اختلافهما في القراءة كان مبعثه التلقي عن رسول الله ﷺ وليس لهجة قبيلة كل منهما.

ثانياً: أما تقسيم الكاتب القراءات إلى قسمين: قسم يتصل باللهجات كالمدة والإمالة، وقسم ناشئ عن اختلاف في الإعراب، فقد ناقشنا القسم الأول منه، والحقيقة أن قراءة أي قارئ وحدة تامة بما فيها من اختلاف اللهجات مدّاً وإمالةً، واختلاف الحركات والكلمات تبديلاً وتقديماً وتأخيراً، فليس هناك دائرتان منفصلتان: إحداهما لاختلاف اللهجات، والأخرى لاختلاف الكلمات، وقد أجمع العلماء على أن القراءة سنة متبعة سواء من حيث اختلاف اللهجة أم اختلاف الكلمات.

ثالثاً: لقد خلط الكاتب في الأمثلة التي ذكرها بين القراءات الجائزة وغير الجائزة ليعزز رأيه وهذا منهج غير علمي.

رابعاً: ادّعى الكاتب أن القائلين بتواتر القراءات السبع وتكفير منكريها لم يوفقوا إلى دليل على قولهم ثم وصل إلى نتيجة خطيرة وهي أن القراءات السبع ليست من الوحي، وليس منكرها كافراً ولا فاسقاً.

وقد جانب الكاتب الصواب في ذلك، إذ إن القول بتواتر القراءات السبع مجمع عليه لا يُعْبَأُ بشذوذ أفراد قلائل شذّوا عنه، والأدلة على تواترها قائمة، ومنها قوله ﷺ: «أنزل الله القرآن على سبعة أحرف، على أي حرف قرأتم فقد أصبتم، فلا تتهاروا فيه، فإن المرء فيه كفر»^(١) وقد بينا سابقاً أقوال جمهور العلماء في تواتر القراءات.

(١) انظر هذا الحديث في مسند الإمام أحمد: (٢٠٤/٤) ونحوه ص ١٧٠، ص ٢٠٥، عن عمرو بن العاص وبلغظ (مراء في القرآن كفر) ونحوه في مواضع أخرى منها (٢/٢٨٦، ٣٠٠، ٤٢٤، ٤٧٥، ٥٠٣، ٥٢٨)، انظر سنن أبي داود: (٩/٥)، عن أبي هريرة.

٦- الشبهة السادسة^(١) :

من الشبهات التي أثرت حول القراءات ما قاله الخوري حداد الذي نقل كلام الطبري في تفسير الأحرف السبعة، وبنى عليه مغالطات صريحة لا تدل على فهم كلام الطبري وفهم معاني الأحرف السبعة، فبعد أن يعرض نص حديث الأحرف السبعة ويأخذ بتفسير الطبري للأحرف السبعة الذي مفاده أن المصاحف العثمانية اقتصرت على حرف واحد من الأحرف السبعة - يبنى على ذلك أن عثمان أتلّف ستة نصوص من القرآن واحتفظ بنص واحد، وأن لجان عثمان عملت برأيها في اختيار النص الأفضل، ثم أردف بقوله إن «صحابه المسيح» حفظوا الإنجيل بأربعة نصوص أو بأربع شهادات فكانوا أوفى من أصحاب محمد الذين أتلّفوا ستة نصوص واحتفظوا بنص واحد وإن الآية ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] تنطبق على المسيحيين أكثر من المسلمين^(٢) وهذه الشبهة لا تقف أمام تمحيص ولا أمام العقل أو النقل، ونرد عليه بما يأتي^(٣) :

أولاً: «إن ما قاله الطبري في تفسير الأحرف السبعة وفي اقتصار عثمان على حرف واحد منها لم يتفق عليه المسلمون، بل إن جمهور العلماء على خلافه، حتى على اختيار قول الطبري، فلم تكن هناك نصوص متعددة للقرآن قبل عثمان ولا بعده، إنها هو نص واحد كانت بعض الكلمات تقرأ فيه على صور متعددة».

فعثمان لم يبطل ستة نصوص من نصوص القرآن أو يهملها، بل إن عثمان جمع الناس على مصحف واحد هو نفسه القرآن الكريم الذي أنزله الله على الرسول ﷺ.

ثانياً: قول المؤلف إن لجان عثمان لم تكن معصومة فعملت برأيها في اختيار النص الأفضل - محض افتراء؛ لأن القرآن الكريم لم يكن مكتوباً في السطور فقط ليصح قوله هذا، بل كان القرآن محفوظاً في الصدور كذلك عند جمٍّ غفير من المسلمين.

(١) انظر بحث شبهات حول القراءات القرآنية: ١٣٣ وما بعدها. وكتاب القرآن والمبشرون لمحمد عزة دروزة: ٧٧.

(٢) انظر مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي: ١٤٠-١٤٢.

(٣) انظر مناقشة هذه الشبهة في كتاب القرآن والمبشرون: ١٦ وما بعدها، ٧٧ وما بعدها، وبحث: شبهات حول القراءات القرآنية: ١٣٣ وما بعدها.

ثالثاً: إن قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] إنما نزل في شأن هذا القرآن ولا يصدق إلا عليه بشهادة الواقع والتاريخ.

رابعاً: لقد ثبت تاريخياً عدالة الصحابة وضبطهم وحفظهم ووفائهم في حفظ كتاب الله وأحاديث رسوله. والحق أنه لم يقل أحد من النصارى إن أصحاب المسيح عليه السلام قد حفظوا الإنجيل الذي أنزل عليه، ومن يطلع على الأناجيل اليوم يدرك ذلك.

وللرد على ما ذكره الخوري، أذكر هنا ما ورد في كتاب إظهار الحق، حديثاً عن أسانيد هذه الأناجيل، وما كتبه رحمة الله هندي - رحمه الله - هنا، لم يأت به من عنده، ولكنه نقله عن علماء متخصصين في الأناجيل قديماً.

يقول عن إنجيل متى: إن قدماء المسيحيين كافة يعترفون بأنه كان باللسان العبراني، وفقد بسبب تحريف الفرق المسيحية، والموجود الآن ترجمته ولا يوجد عندهم سند هذه الترجمة، حتى لم يعلم باليقين اسم المترجم أيضاً إلى هذا الحين كما اعترف جيروم من أفاضل قدمائهم، فضلاً عن علم أحوال المترجم.

وجاء في أنسكلوبيديا^(١) يوبي «كتب هذا الإنجيل في السنة الحادية والأربعين باللسان العبراني، أو باللسان الذي ما بين الكلداني والسرياني لكن الموجود منه الترجمة اليونانية، والذي يوجد الآن باللسان العبراني فهو ترجمة الترجمة اليونانية.

أما إنجيل مرقس، فقد قال وارد الكاثوليكي في كتابه صرح جيروم في مكتوبه أن بعض العلماء المتقدمين كانوا يشكون في الباب الآخر من إنجيل مرقس، وبعض القدماء كانوا يشكون في الباين الأولين من هذا الإنجيل، وما كان هذا البابان في نسخة فرقة مارسيني^(٢).

(١) دائرة معارف، ويوبي اسم شخص.

(٢) نسبة إلى مارسيون وهو شخص مبتدع ظهر في حوالي ١٤٤ م، وقال بالثنائية، وأنكر إله العهد القديم، ووصفه بأنه إله قاس وغير رحيم، واجتمع حوله عدد غير قليل من المسيحيين، وفرقه ترد كل أسفار العهد القديم، وترد جميع أسفار العهد الجديد، وتقول بأنها محرفة إلا إنجيل لوقا وعشر رسائل من رسائل بولس.

أما إنجيل يوحنا فيقول عنه: «إنه لم يثبت بالسند الكامل أن الإنجيل المنسوب إلى يوحنا من تصنيفه، بل هناك أمور تدل على خلاف ذلك:

١- جاء في آية ٢٤ من الباب ٢١ من الإنجيل «هذا هو التلميذ الذي يشهد بهذا، وكتب هذا ونعلم أن شهادته حق» وهذه الكلمات في حق يوحنا، وهذا دليل على أنه لم يكتبه هو.

٢- إنه لما أنكر الإنجيل في القرن الثاني بأنه ليس من تصنيف يوحنا، وكان في هذا الوقت شخص يدعى أرينيوس، وهو تلميذ بوليكارب وهذا الأخير تلميذ يوحنا الحواري، ولم يقم ويدافع عن الإنجيل، فلو سمع من أستاذه أن يوحنا كاتب الإنجيل، لدافع عنه، ولم يكن منكراً مع المتكرين.

وقد كان سلوس يصيح في القرن الثاني وهو من علماء المشركين الوثنيين: إن المسيحيين قد بدلوا أناجيلهم ثلاث مرات أو أربع مرات، بل أزيد من هذا تبديلاً، كأن مضامينها بدلت.

وكان فاستس الذي هو من أعظم علماء فرقة ماني كيز في القرن الرابع يقول: «بأن هذا الأمر محقق أن هذا العهد الجديد ما صنفه المسيح ولا الحواريون، بل صنفه رجل مجهول الاسم، ونسبه إلى الحواريين ليعتبره الناس، وأذى المريدين لعيسى إيداءً بليغاً، بأن ألف الكتب التي فيها الأغلاط والتناقضات».

٣- جاء في صفحة ٢٠٥ من المجلد ٧ المطبوع سنة ١٨٤٤ من كاثوليك هرلد: كتب أستاذلن في كتابه أن «كاتب إنجيل يوحنا طالب من طلبة المدرسة الإسكندرية بلا ريب».

٤- ويقول المحقق المشهور بر طشيندر: إن هذا الإنجيل كله وكذا رسائل يوحنا ليست من تصنيفه، بل صنّفها أحد في ابتداء القرن الثاني.

٥- توجد في زمان تأليف الأناجيل روايات واهية ضعيفة بلا سند، يعلم منها أيضاً أنه لا سند عندهم لهذه الكتب، قال هورن في الباب الثاني من القسم الثاني من المجلد الرابع من تفسيره المطبوع سنة ١٨٢٢: «الحالات التي وصلت إلينا في باب زمان تأليف الأناجيل من قدماء مؤرخي الكنيسة أبتر، وغير معيّنة لا توصلنا إلى أمر معين، والمشايخ

القدماء الأولون صدقوا الروايات الواهية وكتبوها، وقبل الذين جاؤوا من بعدهم مكتوبهم تعظيماً لهم، وهذه الروايات الصادقة والكاذبة وصلت من كاتب إلى كاتب آخر وتعذر تفنيدها بعد انقضاء المدة».

وقال في نفس المجلد: ألف الإنجيل الأول - متى - سنة ٣٧، أو سنة ٣٨، أو سنة ٤١، أو سنة ٤٣، أو سنة ٤٨، أو سنة ٦١، أو سنة ٦٢ أو سنة ٦٣، أو سنة ٦٤ من الميلاد، وألف الإنجيل الثاني - مرقس - سنة ٥٦ أو ما بعدها إلى سنة ٦٥، والأغلب أنه ألف سنة ٦٠، أو سنة ٦٣، وألف الإنجيل الثالث - لوقا - سنة ٥٣، أو سنة ٦٣، أو سنة ٦٤، وألف الإنجيل الرابع - يوحنا - سنة ٦٨، أو سنة ٦٩، أو سنة ٧٠، أو سنة ٩٧، أو سنة ٩٨ من الميلاد^(١). فانظر أخي القارئ هذا التخييط في السنة التي ألقت فيها الأناجيل والشك ليس في سنة أو سنتين، بل في ثلاثين سنة، كما هو الشأن بالنسبة للإنجيل الأول، والرابع. فلله الأمر ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأخيراً فهذه كلمة ذكرها باحث غربي قال: «إن فلسفة الإغريق والقانون الروماني جعلوا الإنجيل لا يمثل حقيقة، كما أثرا في تدوينه، والباحث المنصف في تاريخ الكنيسة لا يستطيع ولا للحظة واحدة أن ينكر أن آراء مزيفة، وأغراضاً غير كريمة، ومقاصد خاطئة، كانت أسباباً رئيسية مسيطرة أحياناً، دفعت إلى هذا التبديل، والتغيير الذي حدث في الأناجيل»^(٢).

وليس غرضنا الآن أن نتحدث عن التناقض بين هذه الأناجيل فلقد عرضت إليه في موضع آخر، في قصص القرآن الكريم، وكان حرياً بالخوري حداد أن لا يطلق هذه الدعوى الباطلة، فإن من بيته من زجاج، لا يضرب الناس بالحجارة.

٦- الشبهة السابعة^(٣)

زعم المستشرق بلاشير جواز قراءة القرآن بالمعنى، مستنبطاً ذلك من رواية باطلة، وتابعه على ذلك تلميذه الدكتور مصطفى مندور، وقد تعقبها وردّ عليها الدكتور

(١) إظهار الحق، رحمة الله هندي (١٥١/١-١٥٧)، وانظر تفسير المنار (٣/١٥٨).

(٢) ألفرد. أ. جاري، المسيحية، د. أحمد شلبي، ص ٢١٥.

(٣) انظر المدخل لدراسة القرآن الكريم: ٢٠٧ وما بعدها. وتاريخ القرآن للدكتور عبدالصبور شاهين:

عبدالصبور شاهين في كتابه «تاريخ القرآن» أمّا مستندات بلاشير وتلميذه فهي الفهم الخاطئ للروايات، أو التعلّق بروايات ضعيفة أو باطلة، مثل اعتمادهما روايات من كتاب الأغاني، والحقيقة أن الزعم بجواز القراءة بالمعنى مخالف لإجماع المسلمين، فما زعمه المستشرق بلاشير والدكتور مصطفى مندور باطلٌ نردّه بما يأتي:

أولاً: لا يجوز التعلّق بالروايات الضعيفة، ولا تفسير الروايات الصحيحة بما يخالف المعقول، أو يخالف ما يصحّ في المنقول.

ثانياً: اعتمادهما مصادر كتب الأدب والتاريخ مثل كتاب الأغاني وغيره؛ مما لا يعتدّ به عند العلماء في باب الرواية.

ثالثاً: إن هذه التوسعة في الأحرف السبعة لم تكن بالهوى والتشهي، وإنما كانت في حدود المنزل من عند الله تعالى.

رابعاً: البحث العلمي الذي هدفه إصابة الحق يلزم الباحث النزيه نقد السند وال متن في الروايات المتعارضة.

خامساً: المعلّ عليه في حفظ القرآن هو التلقي الشفهيّ وليس الحفظ في الصحف والمصاحف، وأي رواية أو حديث أحادي يخالف المتواتر لا يعوّل عليه وبخاصة الروايات الضعيفة.

وأختم هذا البحث بما جاء في مقدمة تفسير ابن عطية - رحمه الله - الذي يصلح لرد كثير من هذه الشبهات المتقدمة. قال: «فأباح الله تعالى لنبيه هذه الحروف السبعة وعارضه بها جبريل في عرضاته على الوجه الذي فيه الإعجاز، وجودة الرصف، ولم تقع الإباحة في قوله ﷺ «فاقرؤوا ما تيسر منه» بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدل اللفظة من بعض اللغات جعلها من تلقاء نفسه، ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن، وكان معرضاً أن يبدل هذا وهذا، حتى يكون غير الذي نزل من عند الله، وإنما وقع الإباحة في الحروف السبعة للنبي ﷺ ليوسع بها على أمته، فقرأ مرة لأبيّ بما عارضه به جبريل صلوات الله عليهما، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضاً».

وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»، وعلى هذا تحيء قراءة عمر بن الخطاب لسورة الفرقان وقراءة هشام بن حيكم لها، وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبي ﷺ في كل قراءة منهما وقد اختلفتا «هكذا أقرأني جبريل» هل ذلك إلا لأنه أقرأه بهذه مرة وبهذه مرة؟ وعلى هذا يحمل قول أنس بن مالك حين قرأ ﴿إِنْ نَاشِئَةُ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَصْوَبُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦] ف قيل له: إنما نقرأ (وأقوم) فقال أنس: أصوب وأقوم وأهياً واحداً، فإنها معنى هذا أنها مروية عن النبي ﷺ، وإلا فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه لبطل معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] ^(١).

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (١/ ٤٥-٤٦).

الْفَضْلُ الثَّامِنُ عِشْرِينَ

التفسير والمفسرون

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أستاذ الدين والفكر

لقد ألفت كتب كثيرة في التفسير وتاريخه، والمفسرين ومناهجهم، ومن أشهر هذه الكتب قديماً: طبقات المفسرين للسيوطي، وطبقات المفسرين لتلميذه الداودي ويقع في مجلدين، وأما حديثاً: فكتاب التفسير والمفسرون للشيخ محمد حسين الذهبي - رحمه الله -، وقد عوّل عليه أكثر الذين كتبوا من بعده، ويقع في ثلاثة أجزاء، والتفسير ورجاله للشيخ ابن عاشور - رحمه الله - . ولقد منّ الله عليّ وله الحمد والمنة والفضل كله والشكر كله، حيث وفقني لكتابة اتجاهات التفسير ومناهج المفسرين في العصر الحديث صدر منه جزآن اثنان، الأول التفسير نشأته واتجاهاته وأساسياته، يزيد على سبع مئة صفحة، والثاني المفسرون مناهجهم ومدارسهم - القسم الأول - ويقع في ثمان مئة صفحة، وأرجو الله تبارك وتعالى أن يوفقني لإصدار القسم الثاني إن شاء الله. لذا سأوجز القول في هذا الفصل وفي الفصول التي بعده: أمثال القرآن، والقصة في القرآن، وجدل القرآن، وهذه الفصول الثلاثة لم تكن في الطبعة الأولى.

نشأة التفسير والحاجة إليه:

المرحلة الأولى: عصر ما قبل التدوين:

قال الله تعالى: ﴿كَتَبْنَا إِلَيْكَ مِيزَانًا لِنَبْرِؤْ أَيْتِينَهِ وَلِنَذَكَّرَ أُولَئِيَ الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] وتدبر القرآن لا بد له من فهم ووعي؛ لذا كانت الحاجة إلى التفسير حاجة ملحة ماسة منذ نزول القرآن الكريم على قلب سيدنا محمد رسول الله ﷺ.

ولكن هذه الحاجة كانت تختلف من عصر إلى عصر، فكانت في عصر النبوة أقلّ منها في العصور اللاحقة، ذلكم؛ لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وكان الذين

نزل فيهم ذوي سلائق عربية سليمة، وطبائع بعيدة عن أن تلوثها العُجمة، أو يفسدها اللحن، لذلك يحدثنا التاريخ أنهم حينما استمعوا القرآن تأثروا به، رقصت له نفوسهم، وخشعت له قلوبهم، حتى أولئك الذين لم يؤمنوا به، ومع ذلك الوعي العربي، ومع تلكم الجبلّة السليمة، كانت لهم حاجة إلى أن يفهموا بعض آي القرآن الكريم، ذلكم أن الكتاب الكريم له جهتان، فهو كتاب العربية الأول من جهة، وهذه كانت مدركة لدى العرب، وهو كتاب سماوي من الله، ولا بد أن تكون فيه مصطلحات جديدة، بعيدة عن أفهام القوم؛ لذا كان سيدنا رسول الله ﷺ يبتدئهم بتفسير بعض الآيات حيناً، ويحجب عن أسئلتهم لفهم بعض الآيات حيناً آخر.

ولقد كانت عنايتهم بفهم القرآن الكريم عناية عظيمة؛ لما فيها من خير الدنيا والآخرة. الحاجة إلى التفسير - إذن - في عهد النبي ﷺ تكفل النبي ﷺ ببيانها، وكانت تتصل بمعاني القرآن من حيث أحكامه إطلاقاً وتقييداً، وإجمالاً وبياناً، ولقد بقي تفسير النبي ﷺ المعول عليه، لا في عصر النبوة فحسب، بل في العصور المتتالية، وسيظل كذلك.

نشأة التفسير - إذن - بدأت منذ عهد النبوة، ولم تكن تفسيرات النبي ﷺ شاملة للقرآن الكريم كله، وتلكم حكمة أرادها الله تبارك وتعالى، وعمد إليها الرسول ﷺ، وذلك من أجل أن تدبر الأمة في جميع العصور كتاب الله تبارك وتعالى. فلو أن النبي الكريم ﷺ فسر القرآن كله ما تجرأ أحد أن يفسر القرآن، ولما وجدنا هذه المكتبة التفسيرية المفيدة العظيمة.

وخير ما يفسر القرآن، القرآن نفسه، خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿أُجِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١] فقد فسرتها الآية التي بعدها ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ﴾ [المائدة: ٣] وقوله تعالى: ﴿فَلَقَدْ أَهَدْنَا آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ٣٧] فقد فسرهما قوله تعالى: ﴿فَلَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣].

ومن ذلك ما روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] قال الصحابة: يا رسول الله: أينما لم يظلم نفسه؟ فأرشدهم الرسول ﷺ إلى آية

أخرى لتزيل ما التبس عليهم فقال: «ليس الذي تعنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح لابنه: ﴿يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّكَ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] إنما ذلكم الشرك»^(١).

وبعد تفسير القرآن بالقرآن، يأتي تفسير النبي ﷺ، أي: تفسير القرآن بالسنة، فقد فسر النبي ﷺ القوة في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. قائلًا: «ألا إن القوة الرمي»^(٢). ولا بد أن نبين قبل الحديث عن أقسام التفسير، معنى التفسير والفرق بينه وبين التأويل.

التفسير والتأويل:

اعتاد العلماء وهم يتكلمون عن تاريخ التفسير ونشأته أن يعرضوا الفرق بين كلمتي تفسير وتأويل، فالتفسير أصله من الفسر وهو الكشف. أما التأويل فهو من الأول، وهو الرجوع، ومنه آل إليه الأمر^(٣).

وإذا أردنا أن نعرف الفرق بين هاتين الكلمتين فإن خير ما يعيننا على ذلك القرآن الكريم نفسه، أما كلمة (التفسير) فقد وردت في الكتاب مرة واحدة في معرض الرد على الكافرين وهم يثيرون الشبه حول القرآن، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝٣٣ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢-٣٣] أي: لا يأتونك بمثل ما يحيك في صدورهم إلا ورددناه بأحسن بيان.

أما كلمة تأويل فقد وردت في الكتاب العزيز في مواضع متعددة وسياقات مختلفة:

١- فيما يتعلق بالمتشابه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ

(١) أخرجه البخاري، في كتاب الإيمان باب ٢٣ حديث رقم ٣٢ انظر فتح الباري (١/ ٨٧).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمامة حديث رقم ١٦٧ انظر شرح النووي على مسلم (١٣/ ٦٤).

(٣) اللسان مادة فسر.

وَأَتَّبَعَهُ تَأْوِيلُهُ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿[آل عمران: ٧].

٢- فيما يتعلق بتأويل الرؤيا، قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَتْلِيَ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُ رَأْيِي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤].

٣- في تأويل الأعمال وبيان ما يقصد منها، قال تعالى حاكياً عن العبد الصالح يخاطب موسى ﷺ: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨] وبعد أن شرح له ذلك شرحاً تاماً قال: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

٤- وردت كلمة تأويل في صحة ما ينبيء عنه القرآن، وأنه أمر محقق الوقوع، قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩].

وإذا تأملنا هذه الآيات الكريمة وإطلاقها، نستطيع أن ندرك الدقة في الفرق بين التفسير والتأويل من تعبيرات القرآن نفسها، فالمواضع التي عبر فيها بالتأويل، هي في الحقيقة بحاجة إلى الروية وإعمال الفكر، وبحاجة إلى عملية عقلية، ولا أدل على ذلك من استعمال كلمة «التأويل» بجانب التشابه وتأويل الرؤى. أخرج الإمام البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها، ترفعه إلى رسول الله ﷺ: «فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين ساء لهم الله فاحذروهم»^(١).

ندرك من هذا إذاً أن استعمال آيات القرآن كما يشير الحس اللغوي، تفرق بين التفسير والتأويل، وإليه ذهب كثير من الكاتبيين القدامى كما يعرف ذلك من كلامهم، ولقد أدرك الراغب الأصفهاني هذا الفرق بفهمه الدقيق للقرآن الكريم فلقد كان رحمه الله على قدر عظيم من المعرفة اللغوية الدينية، فذكر في مقدمته فروقاً بين التفسير والتأويل:

١- منها أن التفسير أعم، وأن التأويل أخص، وأن هذه الخصوصية أتت من جهتين اثنتين:

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة آل عمران، حديث رقم ٤٢٧٣.

أ- إن التفسير بيان غريب الألفاظ، وبيان لفظة يستطاع بها فهم نص متضمن لها، أما التأويل فهو بيان الجمل ومعانيها، وهذا يؤكد ما سبق أن قلناه: إن التأويل بحاجة إلى الدقة وإعمال الفكر.

ب- إن التأويل أغلب استعماله في الكتب الإلهية، وهذه الكتب بحاجة إلى أن يتروى فيها أكثر من غيرها، فلا يلقي الكلام فيها جزافاً، بخلاف التفسير، فإنه يستعمل فيها وفي غيرها.

٢- ومنها أن التفسير ما يختص بالرواية، والتأويل يختص بالدراية، والرواية لا تحتاج إلى إعمال الفكر، فإنها قول مسلم به ما دام قد ثبتت صحته.

ما روي عن ابن عباس في أقسام التفسير^(١) :

اشتهر عن ابن عباس رضي الله عنهما هذه المقولة: التفسير أربعة أقسام: حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تفسره العرب بالسنتها، وتفسير تفسره العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله..

ومع اشتهار هذا القول عن ابن عباس، لكننا لا نملك اتصال سنده من جهة، ونرتاب في معناه من جهة أخرى، فالحلال والحرام الذي لا يجهله أحد وهو القسم الأول، وهو ما يعرف بأحكام القرآن نجد فيه اختلافاً كثيراً للعلماء، ثم التفسير الذي تعرفه العرب من لغتها، كان مقتصرأ على عصر النبوة والقريب منه.

ثم إن المشتهر عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه لا يفسر المتشابه بما استأثر الله بعلمه، بل المشتهر عنه أنه ليس في القرآن شيء لا يعلم معناه. وعلى هذا فتفسير القرآن الكريم لا بد لبيان من علماء تهبأ لهم ما لم يتهبأ لغيرهم.

التفسير في عهد الصحابة :

لم يكن الصحابة - رضوان الله عليهم - سواء في تفسير كتاب الله، بل هم متفاوتون، وقد قالوا: إن عشرة منهم اشتهروا بالتفسير: «وهم الخلفاء الأربعة، وابن

(١) راجع التفسير اتجاهاته وأساسياته، د. فضل عباس، ص ١١٣ وما بعدها.

مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبدالله بن الزبير^(١). وابن مسعود وعلي بن أبي طالب أكثر العشرة رواية في التفسير بعد ابن عباس، إذ إن عبدالله بن عباس أشهرهم، وذلك لدعاء النبي ﷺ له أن يعلمه الله التأويل؛ ولذلك كثرت الروايات عنه ﷺ وقد يروى له في الآية الواحدة قولان أو ثلاثة، وقد يكون بعضها يناقض بعضها الآخر؛ لذا لا بد من الحذر والحكمة والحيلة في اعتماد الروايات المنقولة عنه، ولعل هذا هو السبب فيما روي عن الشافعي ﷺ: «لم يثبت عن ابن عباس إلا زهاء مائة حديث في التفسير»^(٢).

وإذا أردنا أن ندرك فهم ابن عباس رضي الله عنهما فما لنا إلا أن نرجع لبعض تفسيراته. وأذكر من هذه التفسيرات على سبيل المثال تفسيره لقوله تعالى: ﴿يُؤَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٦٦] فقد روى البخاري: «أن عمر ﷺ قال يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيم ترون هذه الآية نزلت ﴿يُؤَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس «في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين» فقال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أي عمل؟ قال: لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله»^(٣)، وكذلك تفسيره لسورة النصر في قصة شهيرة مع عمر ﷺ وهي ما رواه ابن عباس قائلاً: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد في نفسه. فقال: لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من قد علمتم. فدعاني ذات يوم فأدخلني معهم. فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم. قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله، ونستغفره إذا نصرنا

(١) ولقد ناقشت هذا القول في كتاب اتجاهات التفسير، وثبت أنه قول غير دقيق، راجع اتجاهات التفسير وأساسياته.

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي تحقيق السيد أحمد صقر (٢/ ٢٣).

(٣) البخاري، ج ٦، ص ٣٩.

وفتح علينا، وسكت بعضهم، فقال لي: أؤكدك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: إذا جاء نصر الله والفتح، وذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول»^(١).

أسباب قلة الروايات في عهد الصحابة :

وهنا مسألة لا بد من بيانها والوقوف عندها، وهي أن ما نقل عن الصحابة من تفسيرات للقرآن، لم يكن من الكثرة بمكان، بل إنه كان أقل مما نقل عنهم في أمور أخرى كالفقه والفتاوى، وذلك لا يرجع بالطبع لعدم اهتمامهم بالقرآن معاذ الله، ولا يرجع كذلك لعدم فهمهم لآيات القرآن وعدم حفظ أكثرهم له، وإنما يرجع ذلك لأنهم كانوا يفسرون القرآن تفسيراً عملياً حسب ما تقتضيه الوقائع والحوادث، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لسلاقة لغة القوم وصفاء عقيدتهم، بينما نجد ما نقل عنهم في التشريع والفتاوى أكثر بكثير مما نقل عنهم في التفسير. فلقد ذكر ابن حزم في رسالته «أصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم» أن من نقل عنهم الفتيا من الصحابة، مائة واثنتان وستون، وذلك بعد بحثه وتقصيه عن ذلك.

ثم ذكر أن المكثرين من ذلك سبعة هم: عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعائشة أم المؤمنين وعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وعبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت رضي الله عنهم، ثم ذكر أن مجموع ما روي عن الصحابة يزيد عن عشرين ألف قضية، وقال: إنه يمكن أن يجمع لكل من هؤلاء السبعة المكثرين سفر ضخمة. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على اهتمام الصحابة رضوان الله عليهم بواقع الحياة التي يعيشونها وبما تتطلبه الظروف التي كانت تمر بهم^(٢).

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير - سورة النصر، حديث رقم ٤٦٨٦، على أن بعض الروايات الأخرى ذكر فيها أحاديث مرفوعة إلى الرسول ﷺ، يبين فيها أنه نعت له نفسه في هذه السورة. وقد رواها الإمام أحمد في المسند برقم ١٨٧٣ و ٤٢٩٤ وجعل الشيخ شعيب إسناده الرواية في إحدى طرقها ضعيفاً والثاني موضوعاً. والصحيح أن الروايات الواردة فيها موقوفة (٢) تحفة الفقهاء للسمرقندي، (١/ ٢٢).

التعويل في التفسير على سبب النزول:

ولهذا فإن ما نقل من تفسيرات الصحابة للقرآن يعول عليه كثيراً، وبخاصة لمعرفة القوم بأسباب النزول^(١)، فإن سبب النزول يعين على فهم الآية ومعرفة المراد منها. وذلك واضح في آيات كثيرة. فقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] يوهم ظاهره عدم وجوب التوجه إلى القبلة. لكننا إذا عرفنا السبب زال هذا الوهم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] يقتضي ظاهره عدم وجوب السعي. لكننا إذا عرفنا سبب النزول، عرفنا المراد من الآية وزال هذا التوهم. ويوضح هذا المعنى ما رواه أبو عبيد عن إبراهيم قال: «خلا عمر ذات يوم فجعل يحدث نفسه كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد؟ فأرسل إلى ابن عباس فقال: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد؟ وقبلتها واحدة؟ قال ابن عباس: يا أمير المؤمنين إنا أنزل القرآن علينا فقرأناه وعلمنا فيم نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأي، وإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اختلفوا اقتتلوا»^(٢).

أخبار أهل الكتاب ليست من مصادر التفسير عند الصحابة:

وإذا كانت مصادر التفسير عند الصحابة - كما سبق أن قلنا - الكتاب والسنة، ومعرفتهم بلغة العرب، وأسباب النزول، وما من الله عليهم من رأي ثاقب صائب، فهل كانوا في حاجة إلى أهل الكتاب ليستعينوا بهم على تفسير القرآن، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين؟

للإجابة على هذا لا بد أن نتبين أن الرسول ﷺ، أراد أن يشد الصحابة رضوان الله عليهم، إلى شيء واحد وهو القرآن، حتى لا ينصرفوا إلى غيره، فهذا هو الرسول ﷺ

(١) وسبب النزول عليه معول كبير في فهم الآية، ولا أدل على ذلك من قول ابن مسعود: (والله الذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكاناً آخر فيه أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيت) تفسير ابن كثير، ج ١، ص ٣.

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد ص ٤٥ تحقيق وهبي سليمان غاوجي، وإسناده ضعيف لانقطاعه؛ لأن إبراهيم النخعي لم يدرك عمراً.

يدخل المسجد، فيجد الناس قد اجتمعوا حول واحد يحدثهم، فيقول: «ما هذا؟» فيقال: رجل يحدث عن أنساب العرب! فيقول ﷺ: «هذا علم لا ينفع، وجهل لا يضر». ثم يقول: «العلم ثلاثة: آية محكمة، وفريضة قائمة، وسنة متبعة»^(١).

وحينما رأى ﷺ عمر رضي الله عنه يقرأ صحيفة من التوراة غضب، وقال: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل. والله لو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني»^(٢). وفي رواية «يا أيها الناس إني قد أوتيت جوامع الكلام وخواتمه، واختصر لي الكلام اختصاراً، ولقد أتيتم بها بيضاء نقية فلا تهوكوا»^(٣) وهذا هو ابن عباس رضي الله عنهما يقول فيما رواه البخاري «يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه، أحدث الأخبار بالله، تقرأونه لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله، وغيروا بأيديهم الكتاب. فقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً. أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم»^(٤) ونحن حينما نستعرض ما ورد عن الصحابة رضوان الله عليهم من روايات صحيحة، لا نجد فيه أثراً لأهل الكتاب، بل نجد ما فسروه إنما يرجع إلى المصادر التي ذكرناها.

ولعله على العكس من ذلك، نجد أنهم كانوا لا يقبلون، بل وينفرون من كثير مما يعرض له أهل الكتاب، بل ويناقشونهم في آرائهم. فهذا عمر رضي الله عنه، يهدد كعباً بوجوب

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٨٥)، وابن ماجه (٥٤)، والحاكم (٣٦٩/٤)، والبيهقي (٢٠٨/٦) (١٩٥٢). وسكت عليه الحاكم وضعفه الذهبي.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣٣٨/٣ رقم (١٤٦٣١)، وأبو يعلى (٢٣١٥)، والبزار (١٢٤) كشف الأستار)، والبيهقي في السنن (١١-١٠/٢) وإسناده ضعيف كما قال الشيخ شعيب الأرنؤوط في تحقيقه على المسند وسبقه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٢/١).

(٣) أخرجه أبو يعلى في مجمع الزوائد (١٨٢/١)، قال: فيه عبد الرحمن بن إسحاق واسطي، ضعفه أحمد وجماعة.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الشهادات، ج ٣، ص ٢٣٧.

انتهائه عما يحدث به بقوله: «لتركن الحديث عن الأول، أو لألحقنك بأرض القردة»^(١) وهذه السيدة عائشة رضي الله عنها حينما يصل إليها أن كعباً يقول: «لقد قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد عليهما السلام» تقول: «لقد قف شعري»^(٢).

بعد هذه النصوص والتعليقات، لا نستطيع مطلقاً أن ندعي أن أخبار أهل الكتاب كانت مصدراً من مصادر التفسير عند الصحابة، فضلاً على أن يتوسعوا في الأخذ عنهم، بل كانت مصادر التفسير عندهم صافية غير مستوردة، تنبع من ذاتهم وبيئتهم، ولذلك لم نجد بينهم اختلافاً فيما عرضوا له من تفسير، مع أنه لم يصلنا عنهم تفسير للقرآن كله^(٣) والذي وصل إلينا منهم كان سهل المأخذ ميسور التناول، حتى لقد كان كثير من تفسيراتهم يوضح بالقراءات التفسيرية، مما دعا مجاهداً أن يقول كلمته الشهيرة: «لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود، ما احتجت أن أسأل ابن عباس عن كل ما سألته عنه»^(٤) وهذه ميزات لا تجدها في الفترة التالية أعني فترة التفسير في عهد التابعين.

التفسير في عهد التابعين،

التابعون هم الذين ورثوا علم الصحابة رضوان الله عليهم. ولا شك أن عصر التابعين هو خير العصور بعد عصر الصحابة، يقول الرسول ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»^(٥) وإذا كان ورع التابعين وعلمهم من المكانة بحيث لا يسعنا إلا أن نوليهم من الاهتمام ما يتسع له الجهد، فإنه ينبغي ألا يفوتنا أن نقرر أن التفسير في عصر التابعين، امتاز عنه في عصر الصحابة بميزات كان لها أثر فيما بعد.

وإذا كان الأئمة قد اختلفوا في قول الصحابي في التفسير أهو حجة أم لا؟ فإن هذا الاختلاف من الأولى أن يكون في تفسير التابعين. ولقد فرعوا على ذلك خلافاً آخر هو: أفسير التابعين من التفسير المأثور أم لا؟ وهي إحدى الروایتين عن أحد، واختارها ابن

(١) البداية والنهاية (١٠٦/٨)، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق، ١٧٢/٥.

(٢) الترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن حديث رقم (٣٢٩٠) وإسناده ضعيف.

(٣) التفسير المنسوب لابن عباس لم تصح نسبته إليه.

(٤) هذا الأثر أخرجه الترمذي في الجامع بعد الحديث رقم (٢٩٥٣) وذكره الذهبي في السير (٤/٤٥٥).

(٥) رواه البخاري، ج ٥ ص ٣.

عقيل من أئمة الحنابلة. وقال أبو حيان: «ذهب بعض من عاصرنا إلى أن علم التفسير مضطر إلى النقل في فهم معاني تراكيبه، بالإسناد إلى مجاهد وطاووس وعكرمة وأضرابهم. وأن فهم الآيات يتوقف على ذلك، قال: وليس كذلك^(١). ولا ننسى كلمة أبي حنيفة رحمه الله، «ما جاءنا عن الرسول ﷺ فعلى الرأس والعين، وما جاءنا عن الصحابة تخيرنا فيه، وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال»^(٢) وهذا لا يحيط من قيمة ما روي عن هؤلاء الأعلام رضي الله عنهم ولا يقلل من شأنه.

ولا بد أن نعرض هنا لمسألتين؛ الأولى: ما امتاز به التفسير في عهد التابعين ووجه الخلاف في التفسير بين عهدهم وعهد الصحابة. وأما المسألة الثانية فهي أشهر المفسرين في هذا العصر.

١- ميزات التفسير في عهد التابعين:

لقد عرفنا أن التفسير في عهد الصحابة رضي الله عنهم، كان يعتمد على الكتاب والسنة واجتهاد الصحابة في بعض الأحيان، وكان يساعدهم على ذلك معرفتهم اللغوية، وعلمهم بأسباب النزول، ومعرفتهم بعادات العرب، وأهم من ذلك ما فتح الله به عليهم. والتفسير في عهد التابعين أخذ بهذه الأسباب إلا أن دائرته كانت أوسع فيه من دائرة الصحابة. ولقد قل الاختلاف في التفسير في عهد الصحابة رضوان الله عليهم قلة توصله إلى حكم النادرة، ولكنه زاد في عهد التابعين إلى درجة أوسع كما سنفصله فيما بعد.

ولئن كان التفسير في عصر الصحابة لم يعتمد على أهل الكتاب كمصدر من مصادره فإن أخبارهم في عهد التابعين كانت مصدراً من مصادره. وهذا بحكم امتداد البيئة الإسلامية ومن دخل الإسلام من أهل الكتاب.

ولا ننسى أن أهم ما يميز التفسير في عهد التابعين ظهور الخلافات المذهبية، التي لم تكن قد ظهرت في عصر الصحابة رضوان الله عليهم. وهناك بادرة ينبغي أن ننبه إليها

(١) البحر المحيط ج ١ صفحة ٥.

(٢) مقدمة تحفة الفقهاء.

وهي أن البذرة الأولى للتفسير بالرأي ظهرت في عهد التابعين كما نراه مثلاً في بعض تفسيرات مجاهد.

٢- أشهر المفسرين في عهد التابعين^(١) :

بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، كان من الطبيعي أن لا يبقى أصحاب الرسول ﷺ ملتزمين بلداً واحداً، إذ تفرقوا في البلاد التي بسط الإسلام عليها سلطانه، وأشرق فيها نوره، لينهل الناس من علمهم، ومن هنا فإن أمة كثيرة كانت منارات لنشر العلم بعامة والتفسير بخاصة، وأشهر هذه الأمانة التي كان يتلقى فيها تفسير كتاب الله، مكة المكرمة والمدينة المنورة، والكوفة، وما ذلك إلا لأن هذه الأمانة كان فيها أناس من أئمة التفسير من الصحابة رضوان الله عليهم، ففي مكة عبدالله بن عباس، وفي المدينة أبي بن كعب، وفي الكوفة عبدالله بن مسعود ولما كان ابن عباس رضي الله عنهما، من انتهت إليه الشهرة في التفسير، رأينا أن أعلم الناس بالتفسير تلاميذه، ورأينا التفسير ينتقل للعالم الإسلامي أكثر ما ينتقل عن هؤلاء التلاميذ. ولعل هناك سبباً آخر لهذا، وهو أن مكة المكرمة فيها بيت الله العتيق مهوى الأفئدة. ومهما يكن من أمر فمن هذه المنارات الإسلامية اشتهر أعلام كانوا المرجع لكل من أراد أن ينهل من كتاب الله. ومن هؤلاء الأعلام في مكة المكرمة: سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وطاووس وعطاء. ومنهم في المدينة المنورة: زيد بن أسلم وأبو العالية ومحمد بن كعب القرظي. ومنهم في الكوفة: علقمة ابن قيس ومسروق والحسن البصري وقتادة وغيرهم.

قال ابن تيمية: «وأما التفسير فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاووس وابن الشعثاء وسعيد بن جبير وأمثالهم، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود، ومن ذلك ما تميزوا به عن غيرهم. وعلماء أهل المدينة في التفسير، مثل: زيد بن

(١) أثرت هذا التعبير على تعبير (مدارس التفسير) في عهد التابعين، لأن المدرسة في لغة العصر ما كانت لها مميزات وأسس.

أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير وأخذه عنه أيضاً ابنه عبدالرحمن وعبدالله بن وهب^(١).

ثم أخذ عن التابعين تابعوهم، وكانت دائرة التفسير تتسع في كل عصر أكثر من سابقه. وهذا أمر تحتّمه ضروريات الحياة، إلى أن وصل التفسير إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة التدوين.

أسباب ضعف التفسير بعد التابعين:

وبعد عهد التابعين ظهرت مؤثرات كان لها أثر في ضعف روايات التفسير. وأهم هذه المؤثرات الوضع والإسرائيليات. أما الوضع فقد نشأ عن الخلاف المذهبي الذي أدت فيه السياسة دوراً مهماً. فرأينا أن بعض الفرق تود أن تنصر رأياً بتأويل الآية تارة وبالوضع تارة أخرى، ورأينا كذلك أن هذا الوضع يزيد وينقص بحسب الأشخاص الذين يوضع عليهم كابن عباس وعلي رضي الله عنهم، فالمنسوب إليهما في التفسير أكثر من المنسوب إلى غيرهما.

أما الإسرائيليات فلعل مما ساعد على انتشارها وتضخمها حذف الأسانيد^(٢) وأول من سن هذه السنة السيئة، هو مقاتل بن سليمان صاحب التفسير الكبير، فقد حذف الأسانيد وملاً تفسيره بروايات عن أهل الكتاب. وجاء بعده من نقل عنه هذه الروايات غير مميز بين صحيحها وضعيفها وغثها، وسمينها.

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ٢٣-٢٤.

(٢) التفسير والمفسرون ج ١، ص ٢٠٢.

أقسام التفسير

لا بد أن نعرض هنا، وقبل الانتقال للحديث عن عصر التدوين، لقسمي التفسير وهما:

١- التفسير بالمأثور.

٢- التفسير بالرأي.

١- التفسير بالمأثور:

تعريفه وسبب نشأته:

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، على قلب الرسول ﷺ، لينذر به أول ما ينذر، قومًا كانوا في قمة المعرفة اللغوية، وكانت لغتهم نفسها قد بلغت من النمو والتكامل ما بلغت. ولكن هذا القرآن لم ينزل جملة واحدة، بل نزل منجماً مفرقاً بحسب الحوادث والمناسبات والوقائع، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان فيه ما يحتاج إلى بيان أو تفصيل. والصحابة الذين شهدوا نزول الوحي رضي الله عنهم، قد عرفوا هذه المناسبات التي نزلت في شأنها آيات من القرآن، وهي التي سماها العلماء فيما بعد أسباب النزول. وسمعوا من الرسول ﷺ، تفسير ما كان يشكل عليهم فهمه. من معنى مبهم، فكانوا هم أعلم الناس بذلك.

ثم اتسعت دائرة التفسير، فكانت اللغة مصدراً من مصادره تارة، وأخبار أهل الكتاب تارة أخرى. ولكن التفسير بالمأثور يبقى محتفظاً بمميزاته وحدوده، ليشمل فيما يشمل، ما كان بياناً لمناسبة لنزلت فيها آية أو توضيحاً لمعنى مبهم بينه الرسول الكريم ﷺ. وغير هذا لا يعد من التفسير بالمأثور، حتى ولو روي عن أعظم الصحابة وأعلمهم. وليس معنى هذا أننا نقلل من شأنهم رضي الله عنهم. فهم حملة علم النبي ﷺ، وهم الذين لا يقادر قدرهم أمانة وذكاء وحرصاً على سلامة الدين كتاباً وسنة.

دائرته عدم تأثره بالمخلفات الدينية السابقة:

والذي أريد أن أقوله: إن التفسير بالمأثور ما لا مجال فيه إلا للساع الثابت إما في بيان مناسبة نزل، أو نزول، أو في توضيح مبهم بينه الرسول الكريم.

وأرى أن ندخل في هذه الدائرة، المعاني اللغوية للكلمات، التي تكفلت بها المعاجم، لأنه يعتمد على السماع، أما ما عدا ذلك من القضايا اللغوية كالإعراب وأخبار أهل الكتاب فنرى أن نبتعد به عن التفسير بالمأثور.

ولقد عرف علماء الحديث ذلك وأحسوا بقدسية التفسير الأثري، فقرروا أن تفسير الصحابي لا يعد من قبيل المرفوع، إلا إذا كان بياناً لمناسبة نزلت فيه الآية الكريمة. هذا هو تحديد التفسير الأثري.

دفع بعض الشبه عن الصحابة رضوان الله عليهم،

وبهذا ندرك أن نشأة هذا التفسير قد بدأت وتكاملت في عهد الرسول الكريم ﷺ، وندرك أن سبب نشأته لم يكن ناتجاً عن عدم نضوج العقلية عند المسلمين، كما يرى الأستاذ الخولي رحمه الله في منهج التجديد، ويتابعه على ذلك صاحب نشأة التفسير^(١).

ونحن إذ نستنكر هذا القول نتساءل: ألا يكون ناضجاً عقل هؤلاء وقد صار من بعدهم عائلة عليهم فهماً وحفظاً واستنباطاً واجتهاداً؟! أما إذا كان النضوج العقلي يقصد منه عدم معرفة ما حدث من تطورات الحياة فيما بعد، فإن أرسطو طاليس مثلاً لم يكن يعرف عود الثقب، فهل يسميه هؤلاء كذلك أنه كان غير ناضج العقل؟ الحق أنه لا بد من الشعور بالإجلال والتقدير، ولا بد من اختيار الكلمات التي يحتم علينا الأدب أن نستعملها مع هؤلاء الصفوة المختارة.

ويتبين لنا مما سبق أن الصحابة رضوان الله عليهم، وقد نزل القرآن بلغتهم قد فهموا القرآن، وإن كانوا قد تفاوتوا في هذا الفهم. ولم يكن القرآن بالنسبة لهم لغزاً يصعب حله، حتى هؤلاء الذين كانوا في مكة يناصبون القرآن العداء كانوا يتأثرون به ومنه.

وإذا فتحنا نستغرب هذه المقارنة، التي يحلو لبعض الكتاب أن يتغنوا بها، فيقارنوا مثلاً بين القرآن وبين بعض الكتب الدينية. حتى ما ليس منها سواياً. ومن هذا القبيل

(١) فيقول: وكانت أقليتهم لم تبلغ بعد درجة النضج الذي توفر لها فيما ولي ذلك.

يذكرون أن زردشت لما أتى «بالإفستا» لم يفهمها كثير من الناس، فاضطر إلى شرحها هو بكتاب سماه (زندا)، ثم شرح هذا الشرح بكتاب سماه (بازندا)^(١).

إن القرآن الكريم كتاب عربي، يسره مُنزلُه - سبحانه - للذكر ليدبروا آياته. وإذا فهذه المقارنة باطلة ذاتاً وموضوعاً، وإن نشأة التفسير الأثري، وعدم اتساع دائرته، يرجع أول ما يرجع إلى وضوح المعنى القرآني، ويسر لفظه من جهة، وإلى كونه كتاباً سماوياً يحتاج فيه إلى بيان بعض ألفاظ مبهمة من جهة أخرى.

منكرو التفسير الأثري:

وإذا كنا قد وجدنا من يوسع دائرة التفسير بالمأثور، فيدخل فيها الغث والسمين، وما كان راجعاً للغة أو لأخبار الأمم السابقة، مع أن ذلك لا يعد من قبيل التفسير الأثري كما رأينا من قبل، فلقد وجدنا على العكس من ذلك، من ينكر ثبوت شيء من التفسير بالمأثور. ويستند هؤلاء فيما يستندون، إلى كثرة الروايات المتناقضة تارة، والممزوجة بالإسرائيليات تارة أخرى. كما يستندون إلى قول الإمام أحمد رحمه الله «ثلاثة ليس لها أصل: المغازي والملاحم والتفسير»^(٢) ومن الذين ذهبوا إلى هذا الرأي الأستاذ المرحوم أحمد أمين، وهو يتكلم عن وضع الحديث، ويضرب مثلاً لذلك أحاديث التفسير، كأنه يريد نفي ثبوت شيء منها، وهذه عبارته «وحسبك دليلاً على مقدار الوضع، أن أحاديث التفسير التي ذكر عن أحمد بن حنبل أنه قال: لم يصح عنده منها شيء. قد جُمع فيها آلاف الأحاديث».

والحق الذي لا مرية فيه، أن ثبوت أحداث تفسير لبعض آيات القرآن، أمر مجمع عليه من قِبَل الأمة وإلا فما معنى قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] بل لقد اشترط الأئمة لمن أراد أن يتصدى لتفسير القرآن أن يكون ملماً بما ثبت

(١) يقول الدكتور سيد أحمد خليل في كتابه (نشأة التفسير) ص ٣٢ وهذا العمل نفسه من جانب زردشت صاحب الإفستا، قوي الشبه بالعمل الذي قام به الرسول في تفسير الآيات القرآنية.

(٢) أخرجه ابن عدي في مقدمة الكامل (١/١١٩) وعزاه إليه جمع من أهل العلم منهم ابن حجر في لسان الميزان (٦/١) وابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة (١/٥٤).

عن الرسول ﷺ يقول صاحب البحر المحيط^(١) في مقدمته «الوجه الرابع» أي: ما يحتاج إليه المفسر: تعيين مبهم، وتبيين مجمل، وسبب نزول، ونسخ. ويؤخذ ذلك من النقل الصحيح عن رسول الله ﷺ وذلك من علم الحديث. انتهى.

معنى عبارة الإمام أحمد،

وأما عبارة الإمام أحمد فإن صح نقلها عنه، فلقد فسرها العلماء تفسيراً شافياً يزيل كل شبهة يمكن أن تعلق بالنفس. فقال قوم: إن الإمام إنما قصد ما ذكر في هذه الموضوعات، ولم يرد الحكم عليها جميعها. ومن ذهب إلى هذا الرأي الزركشي في البرهان، وابن تيمية في مقدمته أصول التفسير. قال الخطيب في جامعة: وهذا محمول على كتب مخصوصة في هذه المعاني الثلاثة، غير معتمد عليها؛ لعدم عدالة ناقلها، وزيادة القصاص فيها، فأما كتب الملاحم فجميعها بهذه الصفة، وليس يصح في ذكر الملاحم المرتبة والفتن المنتظرة غير أحاديث سيرة، وأما كتب التفسير فمن أشهرها كتابا الكلبي ومقاتل بن سليمان، وقد قال أحمد في «تفسير الكلبي»: من أوله إلى آخره كذب، قيل له: فيحل النظر فيه؟ قال: لا، وأما المغازي فمن أشهرها كتاب محمد بن إسحاق وكان يأخذ عن أهل الكتاب. وذهبت فئة إلى أن هذا اصطلاح خاص بالإمام ﷺ، فلا يلزم من نفي الصحة ثبوت الوضع، وقد عرف عن الإمام أحمد خاصة نفي الصحة عن أحاديث وهي مقبولة^(٢).

قال اللكنوي، كثيراً ما يقولون: «لا يصح» أو «لا يثبت» هذا الحديث، ويظن من لا علم له أنه موضوع أو ضعيف، وهو مبني على جهله بمصطلحاتهم، وعدم وقوفه على مصراتهم^(٣).

وأقول - وأنا أميل إلى هذا الرأي الأخير - : فقد روي عن الإمام أحمد ﷺ بعض العبارات التي تشبه هذه العبارة، وهي قوله: (أربعة أحاديث ليس لها أصل) ومنها

(١) البحر المحيط، (٦/١).

(٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للسباعي، ص ٢٢١.

(٣) الرفع والتكميل ص ١٣٧، طبعة ثانية ١٩٦٨، مكتبة المطبوعات الإسلامية - حلب.

«للسائل حق وإن جاء على ظهر فرس» مع أن هذا الحديث قد أخرجه الإمام أحمد في مسنده^(١).

وإذا ثبتت أحاديث التفسير من القضايا التي لا ينبغي أن يشكك فيها أحد، كيف وقد ذكر الأئمة الأعلام، الذين أجمعت الأمة على عدالتهم في كتبهم كثيراً من ذلك، كصاحبي الصحيحين وغيرهما، نعم لا بد من التحري والدقة. فلقد دخل على أحاديث التفسير، كما دخل على غيرها كثير يجب الحذر منه، والتنبه إليه. ولقد كفانا الأئمة رضي الله عنهم وجزاهم الله خيراً مؤونة البحث، فبينوا لنا الحديث ودرجته.

٢- التفسير بالرأي؛

وإذا كان التفسير بالمأثور غير متسع الدائرة، مع أن القرآن كتاب جعله الله ليسع الإنسانية كلها في جميع أوقاتها، إذا كان الأمر كذلك، فكيف نجد من يمنع التفسير إلا إذا كان مأثوراً، ويروون أحاديث في ذلك؟ وأحب هنا - وقد وعدت أن أوجز - أن أذكر رداً على هؤلاء، قول الإمام علي كرم الله وجهه، حينما سئل: هل ترك لكم نبيكم شيئاً؟ فقال: «لا إلا هذا القرآن، أوفهم أعطيه الرجل»^(٢). ولعل ما استدلل به هؤلاء على ما ذهبوا إليه، ما رواه الترمذي وأبو داود عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في كتاب الله عز وجل برأيه فأصاب فقد أخطأ»^(٣) مع أن الترمذي قال عنه: غريب، وقد تكلموا على أحد رواته، وهو سهيل بن أبي حزم. قال ابن حجر: سهيل بن أبي حزم، واسمه مهران أو عبدالله القطعي. وبعد أن ذكر عمن روى ومن روى عنه قال: قال حرب عن أحمد: روى أحاديث منكورة. وقال البخاري: لا يتابع في حديثه،

(١) الباعث الحثيث بتعليق المرحوم أحمد شاكر صفحة ١٩١. والحديث أخرجه أحمد في المسند برقم (١٧٣٠)، وأبو داود (١٦٦٥)، وأبو يعلى (٦٧٨٤)، وضعفه الشيخ شعيب بجهالة أحد رواته، وروى نحوه مالك في الموطأ (٩٩٦/٢) مراسلاً. قال ابن عبد البر في التمهيد (٢٩٤/٥): وليس في هذا اللفظ مسند محتج به مما علمت.

(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم ج ١، ص ٦٤ الطبعة المنيرية.
(٣) أخرجه أبوداود رقم (٣١٦٧) والترمذي في الجامع رقم (٢٩٥٢).

يتكلمون فيه. وقال أبو حاتم: ليس بالقوي، يكتب حديث، ولا يحتج به^(١). انتهى باختصار.

وإذا كان هذا الحديث قد تكلم فيه العلماء، وقالوا: لا يحتج به، فإن في النفس شيئاً من متن الحديث كذلك، وعلى التسليم به، يطيب لي أن أنقل هنا ما ذكره العلامة ابن الأثير الجزري في تعليقه على هذا الحديث^(٢): النهي عن تفسير القرآن بالرأي، لا يخلو، إما أن يكون المراد به الاقتصاد على النقل والمسموع، وترك الاستنباط، أو المراد به أمراً آخر. وباطل أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد في القرآن إلا بما سمعه من الصحابة، فإن الصحابة رضي الله عنهم، قد فسروا القرآن، واختلفوا في تفسيره على وجوه، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبي ﷺ. وإن النبي دعا لابن عباس فقال: «اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل» فإن كان التأويل مسموعاً كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك؟ وإنما النهي يحمل على أحد وجهين، ثم ذكر الوجه الأول، وهو أن يكون له في الشيء رأي وهوى، فيتأول القرآن حسب رأيه وهواه. وهذا النوع تارة يكون مع العلم، وتارة يكون مع الجهل، وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلاً من القرآن، ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به. ثم ذكر مثلاً لهذا الأخير بمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي فيقول: قال الله تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [النازعات: ١٧] ويشير إلى قلبه، يعني أنه المراد بفرعون. وقد يستعمل هذا الوجه بعض الوعاظ، كما تذهب إليه الفرق الباطنية، وكله ممنوع.

وذكر بعد ذلك الوجه الثاني، وهو أن يسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل، فمن اعتمد على اللغة وحدها، دون معرفة صحيح النقل، كثر غلطه، ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأي، ويقول ابن الأثير: (والنقل والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير أولاً، لينفي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يسع المتفهم الاستنباط)^(٣). ويمثل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَلَيْنَا نُمُودَ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾

(١) تهذيب التهذيب ج ٦ ص ٢٦١.

(٢) جامع الأصول ج ٣ ص ٢٦١.

(٣) جامع الأصول ج ٢، ص ٥ ط ١٩٦٩، مطبعة الملاح، دمشق.

[الإسراء: ٥٦]. فمن نظر إلى ظاهر اللغة فقط، يظن أنها مبصرة غير عمياء، ويختم قوله بأن ما عدا هذين الوجهين لا يتطرق النهي إليه، والله أعلم. انتهى باختصار وتصرف.

شروط التفسير بالرأي:

التفسير بالرأي غير ممنوع إذا استوفى شروطه وخلاصتها:

١- أن لا يصدر المفسر في تفسيره عن هوى في نفسه، فينزل التفسير على مذهبه وعقيدته.

٢- أن لا يتعارض هذا التفسير مع اللغة، فإن اللغة هي الأساس، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

٣- أن لا يتعارض التفسير مع سياق الآيات الكريمة.

٤- أن لا يخالف ما صح عن الرسول ﷺ.

شروط المفسر:

ولا بد للمفسر بعد هذا أن تتوافر فيه شروط تؤهله لهذه المهمة الخطيرة وهذه الشروط هي:

١- فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن، بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة.

٢- فهم ومعرفة الأسباب الرفيعة، وهذا يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته، مع التفتن لنكته ومحاسنه، والمراد على مراد المتكلم منه، فيحتاج إلى علم الإعراب، وعلم المعاني والبيان، وممارسته.

٣- علم أحوال البشر، فقد أنزل الله الكتاب وبين فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعه وسننه الإلهية في البشر، وقص علينا أخبار الأمم، فلا بد من النظر في أحوال الأمم في أدوارهم وأطوارهم ومناحي اختلاف أحوالهم.

٤- العلم بوجه هداية البشر كلهم، فيجب على المفسر أن يعلم ما كان عليه البشر في عصر النبوة من العرب وغيرهم الذين كانوا في شقاء فبعث النبي لهدايتهم وإسعادهم، لذلك لا بد للمفسر من معرفة عوائدهم التي قبحتها الآيات.

٥- العلم بسيرة النبي ﷺ وأصحابه وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشؤون دنيويها وأخرويها^(١).

المرحلة الثانية: مرحلة التدوين:

لا نستطيع أن نتبين بالتحديد أول مدون للتفسير، وإن كان بعض الباحثين يذكر أن سعيد بن جبير ومجاهداً في القرن الأول الهجري، قد دون كل منهما تفسيراً للقرآن، إلا أنني أشك في تلك الروايات، فالمعروف عن سعيد بن جبير مثلاً، أنه كان يخشى أن يدون شيئاً في التفسير، وقد ذكر ابن خلكان في ترجمته: أنه سئل أن يدون شيئاً في التفسير، فقال: إن قطع لسانه أهون عليه من ذلك^(٢). ولكن القرن الثاني ولا شك كان ميداناً للتدوين والتأليف فقد شغل القرآن علماء هذا العصر على اختلاف مسالكهم ومشاربهم، وقد تفرعت بحوثهم وانتظمها سبيلان اثنان:

أولهما: التفسير بالمأثور. وثانيهما: الدراسات اللغوية للقرآن. ولا يعنيني الآن أن أتكلم عن الدراسات اللغوية، فليس مجال الحديث عنها هنا.

وأما التفسير بالمأثور، فقد بدأ أولاً، وكانت مهمته نقل الروايات بأسانيدها، دون تعليق عليها، ودون مزج لهذه الروايات بلون آخر من الدراسة. كتفسير يزيد بن هارون السلمي المتوفى سنة ١١٧ هـ، وتفسير عبدالرزاق الصنعاني ونظرة واحدة إلى هذه التفاسير تعطينا صورة واضحة عما اشتملت عليه. ثم تدرج التفسير الأثري خطوة أخرى، وإذ به لا يقتصر على نقل الأقوال، بل نراه يجمع إليها كذلك مسألة القراءات، وشيئاً من الإعراب، وهذه المسائل بالطبع لم تكن هي القصد الأول لهؤلاء المفسرين، بل كان قصدهم نقل الروايات فقط.

(١) مقدمة تفسير المنار.

(٢) وفیات الأعيان ج ١ ص ٢٥٦.

يقول الأستاذ أحمد رضا في مقدمة تفسير «مجمع البيان» في تاريخ نشأة التفسير:

وفي المائة الثالثة: اشتهر بالتفسير محمد بن جرير الطبري، صاحب التفسير الكبير، الذي جمع فأوعى وهو أخذ عنه كل من جاء بعده من المفسرين، ومحمد بن خالد البرقي صاحب كتاب التفسير، إمام أبي محمد الحسن العسكري (ع) حكاة ابن شهر آشوب في معالم العلماء. وعلي بن إبراهيم القمي، وابن ماجة محمد بن يزيد القزويني المحدث المشهور، والأشج أبو سعيد بن راهويه.

وفي المائة الرابعة: عرف النيسابوري وأبو الحسن الأشعري إمام أهل السنة، وعلي ابن عيسى الرماني النحوي المشهور، وأبو هلال العسكري، وعبدالله بن محمد الكوفي، وابن حبان، وابن فورك.

وفي المائة الخامسة: عرف شيخ الطائفة الإمامية وفقهها الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي صاحب كتاب البيان الجامع لكل علوم القرآن، ثم السيد الشريف الرضي الموسوي صاحب كتاب حقائق التنزيل ودقائق التأويل، وإمام الحرمين أبو المعالي الجويني، وعبد الملك الثعالبي.

وفي المائة السادسة: اشتهر جار الله الزمخشري صاحب الكشاف الذي لم يؤلف في بابيه مثله جودة وإتقاناً، واشتهر أبو علي الفضل بن الحسن الفاضل الطبرسي صاحب كتاب مجمع البيان، وهو التفسير المشهور الذي لم ينسج على منواله أبدع منه، وأبو البقاء العكبري، وأبو محمد البغوي، وابن الدهان.

وفي المائة السابعة: اشتهر البيضاوي صاحب التفسير المشهور المسمى بأنوار التنزيل الذي تناوله العلماء بالشروح والتعليق، واتخذه طلاب التفسير مناراً لهم، وعرف ابن رزين والشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي صاحب الفتوحات، وابن عقيل النحوي، ومحمد بن سليمان البلخي المعروف بابن النقيب.

وفي المائة الثامنة: عرف الشيخ بدر الدين الزركشي الفقيه الشافعي، وابن كثير إسماعيل بن عمر القرشي، وأبو حيان الأندلسي صاحب كتابي البحر والنهر في التفسير، ومحمد بن عرفة المالكي، وابن النقاش.

وفي المائة التاسعة: عرف البقاعي صاحب نظم الدرر في تناسب الآي والسور، والمولى الجامي، وبرهان الدين بن جماعة، وعلاء الدين القراماني صاحب بحر العلوم في التفسير، والجلال السيوطي صاحب كتاب الإتقان في علوم القرآن.

وفي المائة العاشرة: عرف الشيخ علي بن يونس النباطي صاحب مختصر مجمع البيان، والعلامة ابن كمال باشا أحمد بن سليمان بن كمال الرومي، وأبو السعود العمادي مفتي القسطنطينية، صاحب التفسير المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم الذي اشتهر صيته وانتشرت نسخه، والشيخ أبو يحيى زكريا بن محمد الأنصاري.

وفي المائة الحادية عشرة: عرف الشيخ علي القاري، والشيخ حسن البوريني، والشيخ بهاء الدين العاملي الكوفي صاحب التفسير المسمى بعين الحياة وهو مؤلف الكشكول، والشيخ خير الدين الرملي، والشهاب الخفاجي.

وفي المائة الثانية عشرة: عرف الشيخ العارف عبدالغني النابلسي صاحب التحرير الحاوي في شرح تفسير البيضاوي، والسيد هاشم البحراني صاحب البرهان في تفسير القرآن.

وفي المائة الثالثة عشرة: اشتهر الألوسي صاحب التفسير المشهور والمسمى روح المعاني، والسيد محمود الحمزاوي مفتي دمشق الشام بكتابه در الأسرار وهو تفسير بالحرف المهمل، وما أحوج هذا التفسير إلى تفسير.

وفي المائة الرابعة عشرة: اشتهر العلامة المحقق الأستاذ محمد عبده مفتي الديار المصرية بما كان يلقيه من دروس التفسير المفيدة على طلاب العلوم في الجامع الأزهر بالقاهرة، سلك فيها مسلكاً رائعاً دلّ على مزيد تبحر وسلامة ذوق وجامعية كبرى، وقد اقتبس دروسه هذه العلامة محمد رشيد رضا فنشرها في مجلة المنار التي تصدر عن مصر وزاد عليها فوائد مهمة في التفسير.

هذا أنموذج من كتب التفسير المؤلفة، ذكرناها مختصرة، ولكننا سنفصل القول في بعض هذه التفاسير إن شاء الله.

ابن جرير الطبري،

كان الاعتقاد السائد أن ابن جرير، هو الذي خطا في التفسير هذه الخطوة، ونقله تلك النقلة. إلا أن العلامة ابن عاشور رحمه الله، يذكر أن هناك حلقة بين ابن جرير، ومن سبقه ممن عني بنقل الروايات فحسب، نقل عنها العلماء والمستشرقون. ويعني بذلك تفسير يحيى بن سلام، الذي ذكر فيه بعض أوجه القراءات، كما كان يرجح بعض الآراء على بعض، ويبيدي رأيه في ذلك. ويقول ابن عاشور^(١): «إن تفسير ابن سلام يقع في ثلاث مجلدات، وهو موجود في تونس». ومهما يكن من أمر فإن جامع البيان لابن جرير كان الإمام والمورد في تفسير القرآن للعلماء جميعاً. ولا أشك في أن تفسير ابن جرير، كان الممهد لمن جاء بعده من المفسرين على اختلاف اتجاهاتهم. فالمعروف أن ابن جرير لم يذكر في تفسيره الروايات فقط، بل كان يرجح ما يراه مستحقاً للترجيح، كما كان يذكر أوجه القراءات وبعض مسائل اللغة من إعراب وغيره، كما كان يتطرق إلى النواحي الفقهية وأمور العقيدة، والخلاف مشهور بينه وبين الحنابلة في بعض المسائل. إذا لا نعدو الحقيقة إن قلنا: إن تفسير ابن جرير كان النواة الأولى للتفسير بالرأي، وليس كما شاع من أنه تفسير بالمأثور فحسب. ولعل الذين جعلوه من قسم التفسير بالمأثور، نظروا إلى ما فيه من روايات فحسب. يقول الشيخ ابن عاشور رحمه الله: «والعجب كل العجب، من ابن خلدون، حين راجت عليه هذه الشبهة، فعده من مدوني الآثار المنقولة، مثل الواقدي والثعالبي، وقد يرجع السبب في ذلك، إلى أن تفسير الطبري، كان منذ قرون مفقوداً أو في حكم المفقود، حتى إن صاحب كشف الظنون لم يقف عليه»^(٢).

لقد كان محمد بن جرير رحمه الله إمام المفسرين بحق، وكان تفسيره الأنموذج العلمي ذا الروعة والبيان. لذلك عرف الأئمة فضله، فقالوا ما قالوا فيه وعنه، ولا يحط من قيمته العلمية، ما فيه من بعض الإسرائيليات أو الروايات الضعيفة، ما دام يبين أسانيدها. ومن أسند ذلك فقد أحالك. ومن الظلم لعلماؤنا وتراثهم، أن نغمطهم حقهم، وأن نجعل هذا التراث محفوظاً في متاحف أثرية، كما يرى الأستاذ عبد المنعم النمر، في

(١) التفسير ورجاله، ص ١٠ فما بعدها.

(٢) التفسير ورجاله ص ٣٧.

مقال كتبه في مجلة العربي عن تفسير الطبري. فهو يرى أن يختصر أمثال هذا التفسير، وأن تبقى النسخ الأصلية في مكتبات لا يطلع عليها إلا الخاصة. إننا حينها نصدر أحكامنا على الناس، ينبغي أن نراعي الظرف والبيئة التي عاشوا فيها، فهل نريد من ابن جرير مثلاً، أن يرد في تفسيره على مطاعن المستشرقين، أو يبين لنا بوضوح أنظمة القرآن في الاجتماع والسياسة والمال، مقارنة ذلك بالنظم الأخرى؟ إن من الإنصاف الواجب علينا أن نقدر رجلاً كان يريد أن يجعل تفسيره ثلاثين ألف ورقة، لولا الرفق بطلابه ومستمعيه، فجعله في ثلاثة آلاف.

أهم مدارس التفسير في تلك المرحلة،

وبعد ابن جرير بدأ العلماء يتوسعون في دلالات الألفاظ القرآنية، وفي ما تلقى هذه الألفاظ من ظلال. فكانت هناك اتجاهات ومدارس متعددة في التفسير، وأهمها المدرسة البينانية. وكان أساتذتها بادئ بدء من المعتزلة، ولكن أهل السنة استلموا زمامها فيما بعد، وذلك بفضل ابن قتيبة صاحب «تأويل مشكل القرآن» وأبي بكر الباقلاني، وعبدالقاهر الجرجاني، إلا أن هذا لم يحل دون تربع الزمخشري المعتزلي على كرسي الأستاذية لتلك المدرسة. والكشاف خير شاهد على ذلك، فلقد كان الإمام في تجلية البيان القرآني، شهد له حتى خصومه، فها هو ابن المنير الذي تعقب الزمخشري في اعتراضاته، لا يسعه إلا أن يعترف له بالفضل والسبق، والغوص على درر المعاني، والتحليق في أوج البيان. استمع إليه وهو يعلق على تفسير الزمخشري في قوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ [النحل: ١١٣] يقول الزمخشري:

«فإن قلت: الإذاقة واللباس استعارتان، فما وجه صحتها؟ والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار، فما وجه صحة إيقاعها عليه؟ قلت: أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمس الناس منها فيقولون: ذاق فلان البؤس والضرر، وأذاقه العذاب، شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر والبشع. وأما اللباس فقد شبه به لاشتتاله على اللابس: ما غشي الإنسان والتبس به من بعض الحوادث، وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منها ويلابس، فكانه قيل: فأذاقه ما غشيهم من الجوع والخوف، ولهم في نحو هذا

طريقان لا بد من الإحاطة بهما، فإن الاستنكار لا يقع إلا لمن فقدهما، أحدهما: أن ينظروا فيه إلى المستعار له.. والثاني: أن ينظروا فيه إلى المستعار..» .

قال أحمد بن المنير: هذا الفصل من كلامه يستحق على علماء البيان أن يكتبوه بدوب التبر لا بالحبر، وقد نظر إليهما جميعاً في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَت بِتِجَارَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]. فاستعير الشراء لاختيارهم الضلالة على الهدى، وقد كانوا متمكنين من اختياره عليها، ثم جاء ملاحظاً للشراء المستعار قوله: «فما ربحت تجارتهم» فاستعمل التجارة والربح ليناسب ذلك لاستعارة الشراء، ثم جاء ملاحظاً للحقيقة الأصلية المستعار لها قوله «وما كانوا مهتدين» فإنه مجرد عن الاستعارة، إذ لو قيل: أولئك الذين ضلوا وما كانوا مهتدين، لكان الكلام حقيقة معرّى عن ثوب الاستعارة، والنظر إلى المستعار في بابه كترشيح المجاز في بابه^(١).

وعند قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: ٩١] قال الزمخشري: «فينا ضعيفاً» لا قوة لك ولا عز فيما بيننا، فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروهاً. قال أحد: وهذا من محاسن نكتة الدالة على أنه كان ملياً بالحذاقة في علم البيان، والله المستعان^(٢).

وقد رُوي عن الزمخشري هذان البيتان وقد يكونان لغيره:

إن التفاسير في الدنيا بلا عددٍ وليس فيها لعمرى مثل كشافي
إن كنت تبغي هدى فالزم قراءته فالجهل كالداء والكشاف كالشافي
ويعقد أبو حيان الذي كثيراً ما يعترض على الزمخشري، لا في المعتزليات فحسب، بل في النحويات كذلك مقارنة بين كتاب الزمخشري، وتفسير ابن عطية. فيقول: «وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص، وكتاب الزمخشري أخلص، وأغوص»^(٣).

(١) الكشف (٢/٦٣٨).

(٢) الكشف (٢/٤١٣).

(٣) البحر المحيط (١/١٠).

ومع قسوة أبي حيان على الزمخشري أحياناً، لكنه يعترف له بالفضل في كثير من الأحيان^(١) وفي تعقبه له في المسائل النحوية، نجد تلميذ أبي حيان السمين الحلبي في كتاب الدر المصون، وهو أجمع الكتب وأنفسها في موضوع إعراب القرآن وتوجيه قراءاته، نجده يتدخل كثيراً بين شيخه وبين الزمخشري، وفي أحيان كثيرة بل في أكثر الأحيان يقف مع الزمخشري.

أولئك هم أئمتنا أمانة وإنصافاً، وحرية فكر، استمع إليه عند قول الله تبارك وتعالى في سورة آل عمران: ﴿الْمُحْسِنِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُسْتَفْهِينَ وَالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] حيث يرد أبو حيان قولاً للزمخشري عن سر وجود واو العطف. قال الزمخشري: «الواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم في كل واحدة منها»^(٢).

قال أبو حيان: «ولا نعلم العطف في الصفة بالواو يدل على الكمال»^(٣). قال السمين: قد علمه علماء البيان، وقد تقدم لك تحقيق هذه المسألة في أوائل سورة البقرة، وما أنشدته على ذلك من لسان العرب^(٤).

ومن المعلوم أن الزمخشري تأثر تأثراً لا ينكر بنظرية عبدالقاهر في دلائل الإعجاز، نظرية النظم، بل بأسرار البلاغة كذلك، ولكنه كان تأثر المبدع الواعي لكل ما يقول، فلقد طبق نظرية النظم في تفسير الكشف، واتسع في تطبيقها، وزاد عليها بعض القضايا^(٥). ويذكر الدكتور محمد رجب البيومي في كتاب «التفسير القرآني»: مقارنة بين الرجلين.

«لقد رزق الزمخشري مواهب عبدالقاهر في صدق الفطرة ولطافة الحس، ورقيق الاستشفاف، ولكن صاحب أسرار البلاغة رزق انطباعاً في التعبير، واسترسالاً في

(١) راجع مقدمة البحر.

(٢) الكشف (١/٤١٧).

(٣) البحر (٢/٤٠٠).

(٤) الدر المصون (٣/٧١).

(٥) راجع كتاب البلاغة تطور وتاريخ، للدكتور شوقي ضيف، ص ٢٢٢.

التوجيه، واطراداً في النسق، لم يستطع الزمخشري أن يبلغ منه كثيراً، وقد وضع ذلك في مسلك الرجلين في التأويل، فعبدالقاهر يتعرض للآية البليغة ليسطها بسطاً كاشفاً متماسكاً يجري به النفس الأدبي إلى أبعد مدى وأقصاه، أما الزمخشري فقد جعل الحوار سبيله في التوضيح فهو يقول: إن قلت كذا كان الجواب كذا، وهذه الطريقة تنفع العقل وترضيه، ولكنها تبعث على الإيجاز في مواقع تتطلب البسط والامتداد، وقد مهد لعبدالقاهر أن يطيل فيبدع، أنه لم يتعرض لتفسير الكتابة آية آية، فيغرق في بحر لا ساحل له، إذ كان صاحب قضية يسطها مستعيناً على إيضاحها بما يتوجه إليه من آيات الكتاب، أما الزمخشري فيتعرض لتفسير القرآن آية آية فهو مضطر إلى الإيجاز، وقد يتجه إلى البسط في بعض الآيات فلا يبلغ شأن صاحبه^(١).

وقول الأستاذ الفاضل نناقشه بما يلي: لقد كان تفسير الكشاف ثاني تفسيرين للزمخشري، يظهر ذلك من مقدمة تفسيره، فلقد بدأ الزمخشري - رحمه الله - تفسيره للقرآن تفسيراً أطال فيه النفس، وبسط فيه القول، فرأى فيه قراءه أنه حريّ بالاختصار، فاستجاب لرغبتهم بعد أن كتب قطعة لا بأس بها في التفسير، وهذه القطعة وإن لم توجد بين أيدينا الآن، لكننا قد وجدنا الإشارة إليها عند بعض الأئمة، فالزركشي ينسب على هذا الأمر، فيقول في كتاب البرهان: قال الزمخشري في كشافه القديم، فالكشاف الذي يبين أيدينا، هو الكشاف الجديد، وهو الذي اختصر فيه الزمخشري القول.

وما دنا بصدد الحديث عن تفسير الزمخشري المعتزلي، فمن المستحسن أن أسجل بإيجاز ما كان لبعض المعتزلة من إسهام وجهه في تفسير القرآن الكريم، وأخص القاضي عبدالجبار الهمداني والأخوين المرتضى والرضي، المرتضى في أماليه، والرضي في مجازات القرآن، والقرآن الكريم الذي يؤمن به المسلمون جميعاً من الطبيعي أن يسهموا في تفسيره على اختلاف مذاهبهم، فكما كان للمعتزلة جهد في التفسير، كان لغيرهم جهد كذلك.

تفاسير الشيعة

وللشيعة تفاسير كثيرة، ما بين إيجاز وإطناب، لكننا نخص بالذكر تفسيرين اثنين أحدهما للأقدمين، والثاني للمحدثين.

(١) التفسير القرآني، ص ٨١-٨٢.

أما الأول: فهو مجمع البيان للطبرسي: وهو تفسير وسيط بين الإيجاز والإطناب، طبع في بضع مجلدات، وهو حسن الترتيب، يذكر الآية، ويذكر ما يتصل بها مرتباً، فيذكر المعنى على حدة، والإعراب على حدة، والنظم، وتوجيه القراءات، لكل موضع عنوانه الخاص، وهو ترتيب جيد، كنت أسمع من خالي - رحمه الله - قوله: «ليت لأهل السنة تفسيراً على مثل هذا الترتيب». وهو تفسير معتدل، ينقل فيه صاحبه عن المفسرين من أهل السنة، كما ينقل كثيراً من توجيه القراءات عن حجة أبي علي الفارسي، وبالجملة فهو تفسير حسن مفيد، وقبل سنين أعدت إحدى الطالبات^(١) رسالة ماجستير عن هذا التفسير، كان لي شرف الإشراف عليها، فكانت موافقة طريقة نبهت عليها الطالبة، حيث كان اسم المفسر الفضل بن الحسن، وكان اسم المشرف كذلك الفضل بن الحسن.

أما التفسير الجديد، فهو تفسير الطباطبائي، وهو تفسير يقع في عشرين جزءاً، وقد عرض المفسر فيه لكثير من القضايا التشريعية والاجتماعية والفلسفية، والمحدثات من العلوم، مبيناً حكمة التشريع، وعظمة المدنية الإسلامية، وقوة الإسلام في مجابهة الأحداث في هذا العصر. وقد كتبت رسالة ماجستير في هذا التفسير، كنت أحد مناقشيها، وقد ردّ الشيخ محمد حسين فضل الله حفظه الله في تفسيره على الطباطبائي في مواضع كثيرة^(٢). وهناك تفسير للكاشف للشيخ جواد مغنية، أحد علماء لبنان.

تفاسير الإباضية:

وقد كان للإباضية إسهام في تفسير القرآن، فهناك تفسيران للشيخ محمد يوسف إطفيش، هيمان الزاد.

وقد توفي المؤلف عام ١٣٣٢ هـ. وتفسيره الذي ذكرناه يعد المرجع المهم للتفسير عند الإباضية. وقد تأثر المؤلف بكثير من كتب التفسير التي قرأها.

وهو يذكر في أول كل سورة عدد آياتها والمكي والمدني منها، ويذكر فضائل السورة مستشهداً بالأحاديث الموضوعة غالباً، ثم يذكر فوائد السورة، ثم يشرح الآيات شرحاً

(١) الطالبة: حسنية عبدالله حويج.

(٢) راجع كتابنا المفسرون مناهجهم ومدارسهم.

وافياً، فيسهب في المسائل النحوية واللغوية والبلاغية، ويفيض في مسائل الفقه والخلاف بين الفقهاء، كما يعرض لمسائل علم الكلام ويفيض فيها، مع تأثير كبير بمذهب المعتزلة، كما لا يفوته أن يعرض للأبحاث الأصولية والقراءات، ويكثر من ذكر الإسرائيليات، ويطيل في ذكر تفاصيل الغزوات التي كانت على عهد الرسول ﷺ^(١).

وقد شعر المؤلف بأن تفسيره بحاجة إلى اختصار لأكثر من سبب، فاختصره وسمى المختصر تيسير التفسير، فخلا هذا المختصر من كثير مما لا تمس إليه الحاجة، أو مما كان يجب أن يحذف، فكان تفسيراً معتدلاً من حيث المساحة، وهو بالطبع يشتمل على آراء الإباضية، العقدية والفقهية.

تلکم عجاله موجزة لبعض تفسيرات المعتزلة، والشيعة والإباضية.

ولنرجع إلى الحديث عن المدرسة البيانية التي كان الزمخشري على رأسها، وكان الكشف أساس بنيانها، لنبين أن أصحاب هذه المدرسة قد تأثروا بالكشاف تأثيراً كبيراً على اختلاف بينهم في كيفية هذا التأثير، وليس معنى هذا أن أصحاب هذه المدرسة وحدهم هم الذين تأثروا بالكشاف، بل إن من المقطوع به أن كل الذين جاؤوا بعد الكشف تأثروا به وأفادوا منه، ونقلوا عنه موافقين أو مخالفين، كالطبرسي - كما قلنا من قبل - وتفسير أهل السنة على تعددها، كالإمام الرازي مع كونه صاحب مدرسة - كما سنعرف - وأبو حيان كذلك، بل إن الإمام النيسابوري صاحب التفسير المشتهر غرائب القرآن، الذي طبع قديماً على هامش تفسير الطبري، ثم طبع طبعة مستقلة بعد ذلك، يبين لنا في مقدمته أن تفسيره يقوم في أساسه على اختصار لتفسير الكشاف والفخر الرازي. وقد عرفت من قبل ما بين البحر والكشاف.

أما الذين تأثروا بالزمخشري، ونقلوا عبارات الكشاف وخالفوه في اعتزالياته فإنني أذكر منهم أعلاماً ثلاثة:

(١) انظر التفسير والفسرون للذهبي (٢/٣١٩).

أولهم: العلامة الإمام صاحب التصانيف في المعارف المتعددة: القاضي البيضاوي وهو ناصر الدين أبو الخير عبدالله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي، وهو من بلاد فارس، توفي سنة (٦٩١هـ).

والقاضي البيضاوي اشتهر بتحرير العبارة ودقتها من غير خلل أو نقص، وكتبه التي وصلتنا خير دليل لما قلت، فمنهاج الوصول في علم الأصول كتاب صغير الحجم، كثير العلم، ولذلك لقي من العلماء شرحاً وتعليقاً ما لم يلقه كثير من الكتب، فلقد شرحه ابن السبكي، والإسنوي.. - وهما شافعيان - كما شرحه البدخشي وهو حنفي، كما أن الشيخ محمد بخيت المطيعي - رحمه الله مفتي الديار المصرية - كتب تعليقاً نافعاً على نهاية السؤل وهو شرح الإسنوي، كذلك كتابه في أصول الدين (طوالع الأنوار) يقع في صفحات معدودة، ولكنه يقرب من كثير من المطولات.

أما ما نحن بصدده، فهو تفسير القرآن الكريم الذي سماه (أنوار التنزيل) أفاد فيه مما سبقه كالفخر الرازي، لكنه استوعب تفسير الكشاف بحق مع اختصار للعبارة وتغير في الأسلوب، ولقد كانت عبارة البيضاوي - كما قلت - محكمة دقيقة، وإنه ليصعب على القارئ كثيراً، أن يختصر الجملة التي تتكون من عشر كلمات إلى تسع كلمات، أو أن يختصرها إلى أقل من هذا، ولقد ظن الشيخ الذهبي - رحمه الله - في التفسير والمفسرون، ومن قبله صاحب كشف الظنون، أن العلامة القاضي قد تأثر بشيخه الزمخشري بشيء من الاعتزال، واستدل الذهبي - رحمه الله - بما ذكره الشيخ عند تفسير قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] حيث قال الشيخ: «إلا قياماً كقيام المصروع، وهو وارد على ما يزعمون إن الشيطان يخط الإنسان فيصرع... وفسر المس بالجنون. وهذا أيضاً من زعمائهم أن الجن يمس الرجل فيختلط عقله»^(١) قال الذهبي: «ولا أشك أن هذا موافق لما ذهب إليه الزمخشري من أن الجن لا تسلط لها على الإنسان إلا بالسوسة والإغواء»^(٢).

(١) تفسير البيضاوي (١/٢٦٧).

(٢) التفسير والمفسرون (١/٢٩٨).

ولست مع الشيخ الذهبي من أن هذا دليل على تأثر البيضاوي بشيء من اعتزاليات الزمخشري، فمثل هذه القضايا، ليست من صلب مذهب الأشاعرة أو المعتزلة، بل للرأي فيها مجال، ولا ينبغي أن نوسع الشرح بين الفرق والطوائف والمذاهب، أما صاحب كشف الظنون. فمع إجلاله لصاحب التفسير، لكنه يرى أنه قد تأثر بشيء من أفكار الاعتزال، عند تفسير قوله سبحانه: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] حيث قال الشيخ: وحمل الملائكة العرش وحفيفهم حوله مجاز عن حفظهم وتدبير لهم^(١).

والأسلوب العربي مرن يتسع للحمل على الحقيقة والمجاز، فلا يمكننا أن نحكم على شخص ما عرف مذهبه وعقيدته، أن نحكم عليه من عبارة واحدة، بأنه قد تأثر بمذهب آخر، أو شخص آخر. لقد كان ابن عباس رضي الله عنهما، ومن بعده تلميذه مجاهد، أول من بذر البذرة العقلية في التفسير، ولا يمكن أن يقال بأنها يمثلان المعتزلة أو غيرهم.

وقد مر معنا بعض عبارات الشيخ في فصل «المحكم والمتشابه» وقد نقلنا عنه من قبل حكمة ورود المتشابه في كتاب الله تعالى. ومما يؤسف له أن البيضاوي اقتفى أثر الزمخشري، فكان عند آخر كل سورة يذكر ما جاء في فضل هذه السورة، وهي أحاديث موضوعة بالإجماع كنا نود أن تخلو منها كتب أولئك الأئمة الأعلام.

أما الشيخ النسفي والعلامة أبو السعود، فقد سلم تفسيرهما من هذه الثغرة فلم يقتفيا أثر الزمخشري في ذكر هذه الأحاديث.

وإذا كان تفسير الكشاف قد رأى بعض العلماء أن يضعوا عليه حواشي، تبين عبارته، مخالفة أو موافقة، ومن أوسعها حاشية الطيبي الإمام المعروف بعلمه وتبحره، وحاشية الكشف للقرطبي، وقد بسط في هاتين الحاشيتين القول بالأمور البلاغية والبيانية، وهناك حاشية الكشف لأبي زرعة ابن الحافظ العراقي يغلب عليها الطابع الحديثي، ومن أشهرها: الانتصار لابن المنير الإسكندري - وقد تحدثت من قبل عنها - كما أن هناك حواشي مختصرة بينت بعض مفرداته أو خرجت الشعر الذي استشهد به الزمخشري.

(١) تفسير البيضاوي.

وللشيخ محمد عليان المرزوقي حاشية في بيان المفردات وأخرى في بيان الشعر. أقول: إذا ارتأى العلماء أن الكشف بحاجة إلى هذه الحواشي، فلقد كانت الحاجة إلى تفسير البيضاوي أكثرها إلحاحاً.

ولا نجد تفسيراً كان للعلماء فيه عناية مثل البيضاوي، فلقد تعددت هذه الحواشي، وذكر صاحب كشف الظنون منها، ويذكر الأستاذ محمد رجب البيومي: أن أشهر هذه الحواشي: حاشية الشهاب الخفاجي، وحاشية عبدالحكيم^(١)، ولم يذكرهما صاحب كشف الظنون؛ لأنه مات قبل أن يكتب. ونستميح الأستاذ الأديب عذراً، فصاحب كشف الظنون توفي عام (١٠٦٧هـ)، وتوفي الشهاب عام (١٠٦٩هـ) أي: بعده بستين، ولا شك أن هذه الحاشية قد كتبت في حياة صاحب كشف الظنون، ومن الممكن أنه لم يطلع عليها. أما حاشية عبدالحكيم السالكوتي، فليست مما اشتهر، وإنما الحواشي التي اشتهرت على تفسير البيضاوي، والتي يرجع إليها العلماء، عدا حاشية الشهاب، حاشية الشيخ زاده.

وهذه الحاشية طبعت قبل ما يقرب مائتي سنة في أربعة مجلدات كبار، وهي حاشية مفيدة يرجع إليها طلاب العلم، بل سمعت من الشيخ الذهبي - رحمه الله - إنها حاشية علمية دقيقة، وقد يفضل الرجوع إليها أكثر من الرجوع إلى حاشية الشهاب، وسمعت من شيعي رحمه الله، أن حاشية الشهاب يغلب عليها الطابع الأدبي، أما حاشية الشيخ زاده فهي حاشية علمية. وعلى كل حال رحم الله الشيخين الشهاب وزاده، وحاشيتاهما كفرسي رهان.

وهناك حاشية القونوي، وحاشية الكازروني، وحاشية ابن التمجيد وهي حاشية مفيدة مع إيجاز بها.

الثاني: الإمام النسفي،

وهو أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي، توفي عام (٧٠١هـ) فهو معاصر للإمام البيضاوي.

(١) التفسير القرآني، ص ٨٧.

وتفسيره وسيط الحجم، معروف بين أهل العلم، أخذ فيه عبارة الزمخشري، فحذف بعضها. اقرأ ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] قال علمقة: ما في القرآن: يا أيها الناس، فهو خطاب لأهل مكة، وما فيه: يا أيها الذين آمنوا، فهو خطاب لأهل المدينة، وهذا خطاب لمشركي مكة، ويا: حرف وضع لنداء البعيد، وأي والهمزة للقريب ثم استعمل في مناداة من غفل وسها وإن قرب ودنا، تنزيلاً له منزلة من بُعد ونأى، فإذا نودي به القريب المقاطن فذاك للتوكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معتنى به جداً، وقول الداعي: يا رب، وهو أقرب إليه من جبل الوريد، استقصار منه لنفسه، واستبعاد لها من مظان الزلفى، هضماً لنفسه وإقراراً عليها بالتفريط مع فرط التهالك على استجابة دعوته، وأي وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام، كما أن ذو والذي وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس ووصف المعارف بالجمل. وهو اسم مبهم يفتقر إلى ما يزيل إبهامه فلا بد أن يردفه اسم جنس أو ما يجري مجراه يتصف به حتى يتضح المقصود بالنداء، فالذي يعمل فيه يا أي، أي والتابع له صفته نحو يا زيد الظريف إلا أن أياً لا يستقل بنفسه استقلال زيد، فلم ينفك عن الصفة، وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لتأكيد معنى النداء، وللعوض عما يسحقه، أي من الإضافة. وكثر النداء في القرآن على هذه الطريقة؛ لأن ما نادى به الله عباده من أوامره ونواهيه ووعدته ووعدته أمور عظام وخطوب جسام، يجب عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقترض الحال أن ينادوا بالأكّد الأبلغ (اعبدوا ربكم): وحدوه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كل عبادة في القرآن فهي توحيد (الذي خلقكم) صفة موضحة مميزة؛ لأنهم كانوا يسمون الآلهة أرباباً، والخلق إيجاد المعدوم على تقدير واستواء، وعند المعتزلة إيجاد الشيء على تقدير واستواء، وهذا بناء على أن المعدوم شيء عندهم، لأن الشيء ما صح أن يعلم ويخبر عنه عندهم، وعندنا هو اسم للموجود»^(١). فراجع الكشف، ونستجد أنها عبارة الزمخشري ولكنها اختزلت، واختصرت؛ وقد رأينا كيف خالفه في بعض القضايا العقدية، التي فيها خلاف بين أهل السنة والمعتزلة.

(١) النسفي (٢٨/١).

الثالث: شيخ الإسلام مفتي الديار الرومية، أبو السعود العمادي؛

وكتابه إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، والعنوان ينم عن المضمون.

لقد كان الشيخ متأخراً عن صاحبيه ما قرب من ثلاثة قرون، حيث توفي في منتصف القرن العاشر - رحمه الله جميعاً - ولقد هضم الشيخ هضماً جيداً كل الأقوال والعلوم التي تتصل بتفسير القرآن الكريم بياناً وإعراباً ومعنى، وما أكثر ذلك الذي كتب قبل الشيخ، إضافة إلى الكشف، كان هناك الرازي والبيضاوي والنسفي، وما كتبه السعد التفتازاني، والسيد الجرجاني، إضافة إلى كتب عبد القاهر الذي أفاد منه الزمخشري. هضم الشيخ كل هذا واستوعبه، ومع ذلك كان ذا ملكة تعينه على أن يفرغ كل ما أفاده بأسلوب يدل على ذلاقة وتمكّن، وتصرف في القول.

لقد كانت إفادة الشيخ من الكشف، مختلفة عن إفادة صاحبيه البيضاوي والنسفي، فلئن اختصر أحدهما - وهو النسفي -، وأحكم الآخر العبارة - وهو البيضاوي - لقد تفنن شيخ الإسلام مفتي الديار الرومية في عبارة الكشف، تفنناً ينم عن ذوق رفيع، فاتسع بدلاً من أن يختصر، وفصل بدلاً من أن يجمل، كأنها تحيي العبارة شرحاً، متضمناً لكثير من الأسرار البيانية والأغراض البلاغية.

والحق أن تفسير الشيخ من أجل التفاسير، وأكثرها اتساقاً مع البيان القرآني، لكن - ومع الأسف والأسى - فإن تفسير الشيخ في أمس الحاجة في أن يجد له من يفهمه ويشرحه ويدرسه للطلاب، أنا لست مبالغاً ولا مغالياً حينما أقول: إن من يفهم هذا التفسير يحصل على درجة عالية في التذوق القرآني، وحبذا لو أنه يجد من يعتمد على طلاب العلم بعامة، وطلاب التفسير من الدراسات العليا بخاصة، إن أسلوب الشيخ، هو أسلوب العلماء الأفذاذ الجهابذة، فليس عيبه هو أو عيب التفسير أن لا يفهمه كثير من المتخصصين، وإنما العيب في الضحالة العلمية والإعراض عن كل نافع مفيد، ومحاولة تفريغ العلوم من محتواها الرفيع.

يعرض الشيخ إلى القضايا الإعرابية عرضاً غير جاف، هدفه المباحكة اللفظية، ولكنه يربطه بالمعنى والبيان والبلاغة، فتدرك منه بعد أن تعيه دقة الفهم، وتذوق الجمال،

فمن الخير أن أذكر لك هنا بعض الأمثلة لتذوق كما تذوقت أنا من قبلك. استمع إليه عند قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾. قال رحمه الله عند تفسير الآية الثانية ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ وهو في محل النصب على أنه صفة ثانية لربكم موضحة أو مادحة أو على تقدير أخص أو أمدح، أو في محل الرفع على المدح والتعظيم بتقدير المبتدأ... وأما كونه مبتدأ خبره فلا تجعلوا - كما قيل - فيستدعي أن يكون مناط النهي ما في حيز الصلة فقط من غير أن يكون لما سلف من خلقهم وخلق من قبلهم مدخل في ذلك مع كونه أعظم شأنًا^(١).

وهذا كلام في غاية الرفعة والإبداع، وذوق في الفهم، وهو تحقيق لهذه القاعدة القيمة: الإعراب فرع المعنى، ذكر الشيخ الأعاريب في قوله (الذي)، فقد تكون الذي في محل نصب، صفة لرب في قوله: (اعبدوا ربكم)، وقد يكون هدف هذه الصفة المدح أو التوضيح. أو منصوب بفعل محذوف، أي: أخص الذي جعل، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو الذي جعل.

وهذه أوجه لا غبار عليها من حيث الصناعة الإعرابية، و صحة المعنى أو قبوله، ولكن هناك وجهاً آخر وإن كان جائزاً من حيث الصناعة الإعرابية، فإن فيه قصوراً من حيث المعنى، وهذا الوجه أن يعرب (الذي) مبتدأ، والخبر قوله: (فلا تجعلوا لله أنداداً)، وهو إعراب صحيح من حيث الصناعة، يجمع علماء النحو على صحته، لكن الشيخ رده لغرض بياني عظيم؛ لأنه يؤدي من حيث المعنى إلى أن النهي عن جعل الأنداد لله، كونه جعل الأرض فراشاً والسماء بناءً، وأنزل من السماء ماء، وهذا من شأنه أن يقطع هذه الآية عن الآية التي قبلها (يا أيها الناس اعبدوا ربكم...) ويقول الشيخ: إن نهيهم عن أن يجعلوا لله أنداداً ليس لأنه جعل الأرض فراشاً... إلخ فحسب، بل لشيء أعظم من هذا، وهو أنه خلقهم وخلق من قبلهم، فهذا الإعراب - إذن - وهو جعل (الذي) مبتدأ،

(١) أبو السعود (٤٨/١).

وقوله: (فلا تجعلوا لله أنداداً) خبراً، رده الشيخ، لأنه يترتب عليه قصور في المعنى، وهذا ما قصده الشيخ بقوله: وأما كونه مبتدأ خبره فلا تجعلوا - كما قيل - فيستدعي أن يكون مناط النهي ما في حيز الصلة فقط، من غير أن يكون لما سلف من خلقهم وخلق من قبلهم مدخل في ذلك مع كونه أعظم شأنًا.

وعن قوله سبحانه في سورة النازعات: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ [النازعات: ٨-٩] يذكر الشيخ أن قوله تعالى قلوبهم: مبتدأ، وقوله: واجفة: صفة جوّزت الابتداء بالنكرة، وأن قوله: أبصارها خاشعة: جملة وقعت خبراً لقوله: قلوب، هذا هو القول المشتهر عند المعريين، ولكن الشيخ يرد هذا القول، لا لأنه لا يجوز صناعة من حيث الإعراب؛ بل لأنه مع المعنى الذي يجب أن يرجح بالآية الكريمة، وسأذكر لكم خلاصة لما عناه شيخ الإسلام، ثم أنقل لكم قوله لتكونوا أشدّ تذوقاً له.

ما يعنيه، والذي من أجله يرد إعراب من قبله. قال: إن الخبر عمدة بالكلام والصفة فضلة، وعلى هذا فالخبر ينبغي أن يكون أكثر التصاقاً بمبتدئه وأكثر إفادة للمعنى، ووجيف القلوب أدل على الفزع وعلى الخوف، وأعظم أثراً من خشوع الأبصار. فكيف يجعلون ما هو أكثر خوفاً وأعظم فزعاً وهو الوجيف صفة، ويجعلون الذي هو أقل منه وهو خشوع الأبصار خبراً.

هذا لا يصحّ عند ذوي الذوق من أصحاب المعاني، وعلى هذا يقول الشيخ: قلوبٌ: مبتدأ، وإنما جوّز الابتداء بها التنوين، وواجفة: خبر المبتدأ. وإليكم عبارته رحمه الله «قيل: قلوب: مبتدأ، ويومئذ: متعلق بواجفة، وهي صفة لقلوب مسوغة لوقوعه مبتدأ، وقوله تعالى: (أبصارها) أي: أبصار أصحابها «خاشعة» جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبراً لـ (قلوب)، وقد مر أن حق الصفة أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند السامع حتى قالوا: إن الصفات قبل العلم بها أخبار، والأخبار بعد العلم بها صفات، فحيث كان ثبوت الوجيف للقلوب، وثبوت الخشوع لأبصار أصحابها سواء في المعرفة والجهالة كان جعل الأول عنواناً للموضوع مسلم الثبوت مفروغاً عنه، وجعل الثاني مخبراً به مقصود الإفادة تحكماً بحثاً، على أن الوجيف الذي هو عبارة عن شدة اضطراب القلب وقلقه من الخوف والوجل أشد من خشوع البصر وأهول، فجعل أهون الشرين عمدة وأشدّها

فضله، مما لا عهد له في الكلام، وأيضاً فتخصيص الخشوع بقلوب موصوفة بصفة معينة غير مشعرة بالعموم والشمول تهوين للخطب في موقع التهويل، فالوجه أن يقال: تنكير قلوب يقوم مقام الوصف المختص سواء حمل على التنوع كما قيل، وإن لم يذكر النوع المقابل، فإن المعنى منسحب عليه أو على الكثير كما في شرُّ أهرَّ ذا نابٍ، فإن التفخيم كما يكون بالكيفية يكون بالكمية أيضاً، كأنه قيل: قلوب كثيرة يوم إذن يقع النفختان واجفة أي شديدة الاضطراب».

وأخيراً إن إرشاد العقل السليم من أكثر التفاسير فائدة، وأوسعها تجليةً للبيان القرآني، لكنه من أقلها إقبالاً لاحتياجه إلى من يشرحه ويوضحه. ولقد قرأت في ترجمة القاسمي رحمه الله أنه شرع في شرح هذا التفسير، لكن لم يصلنا شيء من هذا، هؤلاء الأئمة الثلاثة البيضاء والنسفي وأبو السعود الذين نهجوا نهج الكشف على تفاوتٍ فيما بينهم رحمهم الله جميعاً.

وما دمنا قد تحدثنا على المدرسة البيانية فمن الإنصاف أن نتحدث بإيجاز عن بعض مدارس التفسير.

المدرسة العلمية العقدية:

وقبل أن أتحدث عن هذه المدرسة لا بد من الإشارة إلى أن التفاسير متداخلة من حيث موضوعاتها، فذوو الاتجاه البياني لا تخلو تفسيراتهم من قضايا عقدية، وكذلك ذوو الاتجاه العقدي أو الفقهي. لكن الحاصل أن بعض التفاسير يغلب عليها طابع معين فالمدرسة العقدية العلمية مثلاً يمثلها الرازي الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ يغلب عليها الطابع الفكري والعلمي. فهو ينقل آراء الفرق على اختلافها مناقشاً راداً، كما يذكر مسائل علم الهيئة والفلاسفة الطبيعيين. ومع ذلك تجده لا يهمل المسائل الفقهية والقضايا اللغوية، إن تفسير الفخر الرازي بحر من بحار العلوم فيه من المعارف المتعددة كما في البحر من المخلوقات الكثيرة المتعددة. أطال النفس فيه وبسط القول. إن تفسير سورة الفاتحة في هذا التفسير يقع في ثلاث مئة صفحة من القطع الكبير ومن أجل ذلك لا يرجع له إلا بعض المخصصين الذين يضطرون لبحث بعض القضايا.

وقد اشتهر أن تفسير الرازي فيه كل شيء إلا التفسير وهي مقولة بحاجة إلى أن تصحح لتقال: إن تفسير الرازي فيه كل شيء مع التفسير.

المدرسة الفقهية:

ونعني بها تلك المدرسة التي تتحدث عن أحكام القرآن في المعاملات والعبادات وما يتصل بالزواج والإرث وغيره، والجنايات والحدود، والقضاء، والأيمان والنذور، وجذور هذه المدرسة تبدأ منذ عهد النبوة وعصر الصحابة رضوان الله عليهم، فلقد روي عن الصحابة رضوان الله عليهم كثير من المسائل والفتاوى، ويذكر ابن حزم أنه قد روي عنهم ما يزيد عن عشرين ألف مسألة، وكذلك التابعون ومن بعدهم.

ولقد كانت كتب أحكام القرآن التي تعددت بتعدد المذاهب، المثال الحي لهذا الاتجاه، فهناك أحكام القرآن للشافعي رحمه الله ومثله للكنيا الهراسي الشافعي، وهناك أحكام القرآن للجصاص الحنفي، ومن الكتب التي اشتهرت كثيراً بين أهل العلم: أحكام القرآن لابن العربي، وللدكتور مصطفى المشني دراسة لأحكام القرآن لابن العربي، وهو كتاب مطبوع، تحدث فيه عن الكتاب والكاتب، وهي دراسة طيبة.

ولكن الكتاب الذي ذاع صيته وبسط القول فيه في الحكماء، كان تفسير القرطبي - رحمه الله - الجامع لأحكام القرآن، وله من اسمه نصيب، ولقد كان القرطبي - الذي يذكرنا بقرطبة والأندلس - سهل العبارة، فعندما يورد تفسير الآية، يقسم الحديث عنها إلى مسائل، فيقول: وفيها عشرة مسائل أو عشرون مسألة، ثم يتكلم عن كل مسألة على حدة، وهي طريقة جيدة تيسر على الطالب جمع شتات الأمور، وهي الطريقة التي اتبعها الرازي قبل القرطبي، ويشكر للقرطبي صنيعة، ويعترف له أهل العلم بفضلته واعتداله في مواقفه، وخلوه عن التعصب المذهبي، ومع كونه مالكيًا، لكننا نجد أنه يبحث عن الحق أين كان، وهذا هو صنيع جلّ علمائنا جزاهم الله خيراً.

وأعيد القول هنا، بأننا إن تحدثنا عن المدرسة الفقهية، فليس معنى هذا أن التفاسير الأخرى خلت من القضايا الفقهية، لكن هذه المدرسة غلب عليها هذا الطابع، وكذلك المدارس الأخرى.

المدرسة النحوية:

لا يكاد يخلو تفسير من ذكر القضايا الإعرابية ابتداء من معاني القرآن للفراء، ومعاني القرآن للزجاج، ومعاني القرآن للأخفش، وابن جرير، والزنجشري، والرازي، ولكن هناك كتباً غلب عليها طابع النحو، ومن هذه الكتب، كتب إعراب القرآن: منها إعراب القرآن للنحاس، والبيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري. وإعراب القرآن للعكبري، وقد اشتهر، وأجل هذه الكتب وأجمعها: الدر المصون للسمين الحلبي وهو أوسع هذه الكتب وأشملها كما ذكرت ذلك من قبل. ولكن الكتاب الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأمور النحو والإعراب، تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي.

وقد غالى بعض الناس فظلم الكاتب والكتاب، حيث ادعى أن الكتاب مليء بفرعيات النحو، وهذا الذي غلب عليه، وليس الأمر كذلك، فالحق أحق أن يقال: إن تفسير البحر المحيط من أجل التفاسير نفعاً وأجمعها للفائدة، يجد فيه القارئ بغيته، تجنب صاحبه الفضول من القول، وهو إن كان يعنى بقضايا النحو، لكنه لم يشغله ذلك عن قضايا التفسير، وإن في مقدمته خير دليل على ما قلت. قال رحمه الله:

«وترتبي في هذا الكتاب أني ابتدئ أولاً بالكلام على مفردات الآية التي أفسرها لفظة لفظة فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب، وإذا كان للكلمة معنيان أو معان ذكرت ذلك في أول موضع فيه تلك الكلمة لينظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه، فيحمل عليه. ثم أشرع في تفسير الآية ذاكراً سبب نزولها إذا كان لها سبب نزول، ونسخها، ومناسبتها، وارتباطها بما قبلها، حاشداً فيها القراءات شاذها ومستعملها، ذاكراً توجيه ذلك في علم العربية، ناقلاً أقاويل السلف والخلف في فهم معانيها، متكلاً على جليها وخفيها، بحيث إني لا أغادر منها كلمة وإن اشتهرت حتى أتكلم عليها مبدئياً ما فيها من غوامض الإعراب ودقائق الآداب من بدیع وبيان، مجتهداً أني لا أكرر الكلام في لفظ سبق، ولا في جملة تقدم الكلام عليها، ولا في آية فسرت، بل أذكر في كثير منها الحوالة على الموضع الذي تكلم فيه على تلك اللفظة أو الجملة أو الآية، وإن عرض تكرير فبمزيده فائدة، ناقلاً أقاويل الفقهاء الأربعة وغيرهم في الأحكام الشرعية مما فيه تعلق باللفظ القرآني، محيلاً على الدلائل التي في كتب الفقه،

وكذلك ما نذكره من القواعد النحوية أحيل في تقريرها والاستدلال عليها على كتب النحو، وربما أذكر الدليل إذا كان الحكم غريباً، أو خلاف مشهور ما قال معظم الناس، بادئاً بمقتضى الدليل، وما دل عليه ظاهر اللفظ، مرجحاً له لذلك ما لم يصد عن الظاهر ما يجب إخراجه به عنه، منكباً في الإعراب عن الوجوه التي تنزه القرآن عنها، مبيناً أنها مما يجب أن يعدل عنه، وأنه ينبغي أن يحمل على أحسن إعراب وأحسن تركيب.

إذ كلام الله أفصح الكلام، لا يجوز فيه جميع ما يجوز النحاة في شعر الشماخ والطرماح وغيرهما من سلوك التقادير البعيدة، والتراكيب القلقة، والمجازات المعقدة، ثم أختتم الكلام في جملة من الآيات التي فسرتها أفراداً وتركيباً بما ذكروا فيها من علم البيان والبديع ملخصاً، ثم أتبع آخر الآيات بكلام منثور أشرح به مضمون تلك الآيات على ما أختاره من تلك المعاني ملخصاً جملها في أحسن تلخيص، وقد يكون معها ذكر معان لم تتقدم في التفسير، وصار ذلك أنموذجاً لمن يريد أن يسلك ذلك فيها بقي من سائر القرآن.

وستقف على هذا المنهج الذي سلكته إن شاء الله تعالى، وربما الممت بشيء من كلام الصوفية مما فيه بعض مناسبة مدلول اللفظ، وتجنب كثيراً من أقاويلهم ومعانيهم التي يحملونها الألفاظ، وتركت أقوال الملحنين الباطنية المخرجين الألفاظ القرينة عن مدلولاتها في اللغة إلى هذيان افتروه على الله تعالى، وعلى عليّ كرم الله وجهه، وعلى ذريته، ويسمون علم التأويل.. ومن أحاط بمعرفة مدلول الكلمة وأحكامها قبل التركيب، وعلم كيفية تركيبها في تلك اللغة، وارتقى إلى تمييز حسن تركيبها وقبحه، فلن يحتاج في فهم ما تركب من تلك الألفاظ إلى مفهوم ولا معلم، وإنما تفاوت الناس في إدراك هذا الذي ذكرناه، فلذلك اختلفت أفهامهم وتباينت أقوالهم.

وأبو حيان الأندلسي - رحمه الله - مع كونه من علماء النحو وعلماء اللغة، لكن الدارس يجد في تفسيره ما يشبع ويقنع في قضايا الأحكام الفقهية، ومسائل البلاغة، وما يتصل بالآيات من الآداب والإرشاد والزجر، مع تجنب للإسرائيليات، والأقوال الهابطة الساقطة.. رحم الله أبا حيان وجزاه خير الجزاء.

ومن التفاسير التي كانت لها عناية بالنحو حاشية الشيخ سليمان الجمل الشافعي من علماء القرن الثالث عشر، على تفسير الجلالين، لجلال الدين السيوطي وجلال الدين

المحلي، وهو تفسير مشتهر بين الناس موجز، وحاشية الشيخ الجمل مطبوعة بأربعة أجزاء كبيرة، وعنايته كثيرة بقضايا النحو. وهناك حاشية على هذا التفسير أعني الجلالين، للشيخ الصالح الصوفي الصاوي المالكي، وهي في أربعة أجزاء أيضاً لكنها أصغر كثيراً من حاشية الجمل.

المدرسة الوعظية:

ونعني بها تلك المدرسة التي تجنب أصحابها ذكر المصطلحات النحوية والبلاغية والعقدية، ولعل من أشهر كتب هذه المدرسة، تفسير الخازن، والخطيب الشربيني، وكلا الشيخين شافعي، أما الأول فيقع في أربعة مجلدات، سهل العبارة يذكر كثيراً من الأحاديث المعزوة إلى أصحابها غالباً، وبخاصة ما كان منها في الصحيحين أو أحدهما، وبعد ذكر الحديث يشرح من ألفاظه ما يحتاج إلى شرح، وقد يعقد فصولاً لبعض المسائل كالأحكام الشرعية وغيرها، مما يحتاج إلى بحث، ولكن مما يؤخذ على هذا التفسير كثرة الإسرائيليات، ولكنه والحق يقال: يرد هذا الإسرائيليات إذا كانت تتعارض مع العقيدة، وقد اختصره العلامة الفاضل الشيخ عبدالغني الدقر - رحمه الله - وطبع هذا المختصر في مجلدات ثلاثة، ولقد اطلعت على هذا المختصر الذي أرسله لي الأخ أبو حسان المجذوب - رحمه الله تعالى - وهو اختصار جيد مشكور.

وأما الثاني أعني تفسير الخطيب الشربيني توفي عام ٩٧٧هـ، السراج المنير في الإعانة على معرفة كلام ربنا الحكيم الخبير، فيقع في أربعة مجلدات، يذكر فيه الشيخ كثيراً من المواعظ والرفائق إلى جانب الأحكام الفقهية، ذلكم لأن الشيخ واسع الباع في قضايا الفقه، فهو صاحب مغني المحتاج، شرح منهاج الإمام النووي - رحمه الله - في حل ألفاظ أبي شجاع، وهو شرح متن الغاية والتقريب في الفقه الشافعي.

وليس غرضنا الاستقصاء في الحديث عن المفسرين، فكتب التفسير كثيرة، وهي بين مطول ووسيط ووجيز، وقد ذكرتني هذه العبارة بإمام من أئمة التفسير، ليس من الإنصاف أن تغفل الحديث عنه ذلكم هو الإمام الواحدي أبو الحسن علي بن أحمد (ت ٤٦٨هـ). - رحمه الله - صاحب أسباب النزول، وهو من المفسرين الذين ذاع صيتهم واشتهرت أقوالهم، وقل أن تجد كتاباً من كتب التفسير بعد الواحدي، إلا وينقل عنه.

والواحدى، له ثلاثة تفاسير: البسيط وهو تفسير واسع ولم يطبع، وقد حُقق في عدة رسائل في الرياض، والوسيط وقد حقق في عدة رسائل في الأزهر، وهو مطبوع متداول في أربعة مجلدات، والوجيز وهو مطبوع مع تفسير آخر (مراح لبيد) للشيخ محمد النواوي الجاوي، انتهى منه عام ١٣٠٥ للهجرة ويقع في مجلدين، وبهامشه الوجيز في تفسير كتاب العزيز للواحدى.

قال في مقدمة تفسيره الوسيط «وقد سبق لي قبل هذا الكتاب - بتوفيق من الله وحسن تيسيره - مجموعات ثلاث في هذا العلم: معاني التفسير، ومسند التفسير، ومختصر التفسير.

وقديماً كنت أطالب بإملاء كتاب في تفسير وسيط ينحط عن درجة البسيط الذي نجر فيه أذيال الأقوال، ويرتفع عن مرتبة الوجيز الذي اقتصر على الإقلال.

والأيام تدفع في صدر المطلوب بصروفها على اختلاف صنوفها، وسأخذ نفسي على فتورها وقريحتي على قصورها، لما أرى من جفاء الزمان وخول العلم وأهله، وعلو أمر الجاهل على جهله بتصنيف تفسير أعفيه من التطويل والإكثار، وأسلمه من خلل الوجازة والاختصار، وآتي به على النمط الأوسط والقصد الأقوم حسنة بين السيئتين، ومنزلة بين المنزلتين، لا إقلال ولا إملاء^(١). ولأخذ لكم أنموذجاً من هذا التفسير آية الكرسي:

عن عمر... قال: يا أيها الناس أيكم يخبرني بأعظم آية في القرآن؟ فسكت القوم، فقال: هل فيكم ابن أم عبد^(٢)؟ قالوا: نعم، وكان قد^(٣) جاء في أخريات الناس. فأومأ^(٤) إليه وقال: ها هنا يا أبا عبد الرحمن^(٥)، فدنا منه، قال: هل أنت نخبري بأعظم آية في القرآن؟ فقال: على الخبر سقطت^(٦)، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(١) تفسير الوسيط للواحدى، ص ٥٠.

(٢) عبدالله بن مسعود (حاشية أ).

(٣) في (أ، هـ): وكان جاء.

(٤) في (ج، هـ): فأومى.

(٥) في (د): ها هنا أبا، وفي المطبوعة: ها هنا يا عبد الرحمن.

(٦) على الخبر سقطت، أي: على العارف به وقعت، وهو مثل سائر للعرب. (اللسان/ سقط، وحاشية (أ)).

«إِنَّ أَكْبَرُ آيَةِ فِي الْقُرْآنِ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾» [البقرة: ٢٥٥] إلى آخرها»^(١).

أخبرنا إسماعيل بن إبراهيم النصر أبادي أخبرنا الإمام أبو بكر محمد بن علي القفال حدثنا الحسين بن موسى بن خلف^(٢)، حدثنا إسحاق بن رزيق^(٣) حدثنا إسماعيل بن يحيى ابن عبيد الله التيمي^(٤) حدثنا ابن جريج، عن أبي الزبير^(٥) عن جابر بن عبد الله قال:

قال رسول الله ﷺ: «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة خرفت»^(٦) سيع سموات فلم يلتئم خرقها حتى ينظر الله إلى قائلها فيغفر له، ثم يبعث الله^(٧) إليه ملكاً فيكتب حسناته ويمحو سيئاته إلى الغد من تلك الساعة»^(٨).

(١) الحديث: رواه الطبراني في الكبير (١٤٢/٩-١٤٣) عن ابن مسعود موقوفاً، والهيتمي في مجمع الزوائد - كتاب التفسير. رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (٣٢٣/٧)، والدر (٣٢٣/١) أخرجه سعيد ابن منصور وابن المنذر والطبراني وابن الضريس والبيهقي في الشعب والهروي في فضائله. تفسير ابن كثير (٣٥٧/١).

(٢) الحسين بن موسى بن ناصح بن يزيد الخفاف الرسعني أبو سعيد، قدم بغداد وحدث بها، روى عنه محمد بن خلف بن حبان ووكيع ويحيى بن صاعد ومحمد بن مخلد وأبو ذر القراطيسي (الأنساب ١١٩/٦).

(٣) إسحاق بن رزيق الرسعني من أهل رأس العين يروي عن أبي نعيم الملائي، وكان راوياً لإبراهيم بن خالد، توفي سنة ٢٥٩ هـ (الأنساب ١١٩/٦).

(٤) إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله أبو يحيى التيمي عن أبي سنان الشيباني وابن جريج وطائفة، قال ابن عدي: يحدث عن الثقات بالباطل، وقال غيره: كذاب (المغني في الضعفاء ٨٩/١).

(٥) محمد بن مسلم بن تدرس أبو الزبير المكي القرشي مولى حكيم بن حزام سمع جابر بن عبد الله وعنه ابن جريج مقروناً بعباء بن أبي رباح توفي سنة ١٢٨ هـ (كتاب الجمع ٤٤٩/٢).

(٦) في (هـ) فرقت.

(٧) في (ج، د): ثم يبعث الله ملكاً وفي (هـ): ثم يبعث إليه ملكاً.

(٨) الحديث: ذكره ابن الجوزي في الموضوعات وأعله بقوله: (قال ابن عدي: هذا حديث باطل لا يرويه عن ابن جريج إلا إسماعيل بن يحيى كان يحدث عن الثقات الأباطيل، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الثقات وما لا أصل له عن الأئمة لا تحمل الرواية عنه بحال، وقال المدارقي: كذاب متروك، وقال أبو الفتح الأزدي ركن من أركان الكذب). (أنظر الموضوعات ٢٤٣/١-٢٤٤). وانظر تنزيه الشريعة المرفوعة (٢٨٦/١)، والآل (٢٣٢/١) والفوائد (٢٩٩-٣٠٠).

وقوله: (الله): رفع بالابتداء، وما بعده خبره (لا إله إلا هو) نفي إله سواه تأكيد وتحقيق لإلهيته، لأن قولك: لا كريم إلا زيد أبلغ من قولك: زيد كريم.

و(الحي) من له الحياة، وهي صفة تخالف الموت وذا الجمادية، ومعنى^(١) (الحي) في صفة الله^(٢): الدائم البقاء^(٣). و(القيوم): مبالغة من القائم قال مجاهد^(٤): (القيوم): القائم على كل شيء، وتأويله: أنه قائم بتدبير أمر الخلق في إنشائهم، وأرزاقهم، وقال الضحاك^(٥): (القيوم) الدائم الوجود وقال أبو عبيدة^(٦): الذي لا يزول، الاستقامة وصف بالوجود حيث لا يجوز عليه التغير بوجه من الوجوه.

وقوله^(٧) (لا تأخذه سنة ولا نوم) «السنة»: ثقل النعاس، وهو مصدر، يقال^(٨): وسن يسن سنة ووسناً^(٩)، و(النوم): الغشمة الثقيلة التي تهجم على القلب فتقطعها عن معرفة الأمور.

وقال الفضل^(١٠) السنة في الرأس والنوم في القلب. والمعنى: أنه لا يغفل عن تدبير الخلق والعلم بالأشياء.

(١) في (هـ): ومنى.

(٢) في (د): الله تعالى.

(٣) انظر الزجاج (١/٣٣٣) والطبري (٥/٣٨٦-٣٨٧).

(٤) انظر تفسير مجاهد ص ١١١ والدر (١/٣٢٧) والزاهر (١/١٨٦) وفتح القدير (١/٢٧٣).

(٥) انظر تفسير ابن عباس ص ٣٦، والطبري (٥/٣٨٩) عن الضحاك.

(٦) انظر مجاز القرآن (١/٧٨) والدر (١/٣٢٧) وفتح القدير (١/٢٧٣) كلاهما عن الحسن.

(٧) في (د): قوله.

(٨) ساقطة من (د).

(٩) قال الضحاك: (السنة): الوسنة وهو دون النوم و(النوم): الاستقال (الطبري ٥/٣٩١) و(السنة): النعاس من غير نوم، نعاس يبدأ في الرأس فإذا صار إلى القلب فهو نوم، والسنة: ثقل النوم وقيل: النعاس، وهو أول النوم، (اللسان/وسنن).

(١٠) انظر فتح القدير (١/٢٧١) عن الفضل وزاد: (والنعاس في العين) وكذا في القرطبي ٣/٢٧٢ والدر ١/٣٢٧.

وقوله: «من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه» استفهام معناه: الإنكار والنفي، أي: لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه وأمره^(١)، وذلك: أن المشركين كانوا يزعمون أن الأصنام تشفع لهم^(٢)، فأخبر الله تعالى أنه لا شفاعاة عنده لأحد إلا بإذنه، يعني: شفاعاة النبي ﷺ وشفاعة بعض المؤمنين لبعض.

وقوله: «يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم» قال مجاهد وعطاء والسدي^(٣): (وما بين أيديهم) من أمر الدنيا (وما خلفهم) من أمر الآخرة. وقال الضحاك والكلبي^(٤): «وما بين أيديهم» يعني الآخرة لأنهم يقدمون عليها «وما خلفهم» الدنيا، لأنهم يخلفونها وراء ظهورهم.

وقوله^(٥): «ولا يحيطون بشيء من علمه» قال الليث^(٦): يقال لكل من أحرز شيئاً أو بلغ علمه أقصاه: قد أحاط به. «من علمه» أي: من معلومه، والمفعول يسمى^(٧) بالمصدر.

وقوله: «إلا بما شاء» إلا بما أنبأ به الأنبياء ليكون دليلاً على ثبوت نبوتهم، قال ابن عباس^(٨): يريد: ما^(٩) أطلعهم على علمه.

وقوله: «وسع كرسیه السموات والأرض» يقال: وسع فلان الشيء يسعه سعة إذا احتمله وأطاقه وأمكنه القيام به. ويقال: لا يسعك هذا، أي: لا تطيقه ولا تحتمله^(١٠).

(١) في (د): أي بأمره.

(٢) في (ج، هـ): أن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويزعمون أنها شفيع.. انظر هذا المعنى في معاني القرآن للزجاج (١/ ٣٣٤)، وغرائب النيسابوري (٣/ ١٧).

(٣) انظر الدر (١/ ٣٢٧) وفتح القدير (١/ ٢٧٣) كلاهما عن مجاهد، والطبري (٥/ ٣٩٦) عن مجاهد والسدي وابن جريج، وغرائب النيسابوري (٣/ ١٧) عن مجاهد والسدي والوجيز للواحدي (١/ ٧٣).

(٤) انظر تفسير ابن عباس ص ٣٦ وغرائب النيسابوري (٣/ ١٧-١٨) عن الضحاك والكلبي.

(٥) في (د): قوله.

(٦) انظر تفسير الرازي (٧/ ١١) عن الليث والطبري (٥/ ٣٩٦) واللسان/ حوط.

(٧) في (د): باسم المصدر.

(٨) انظر الدر (١/ ٣٢٩) عن ابن عباس وابن كثير (١/ ٣٠٩).

(٩) في (ج، د) عما أطلعهم وفي (هـ): بما أطلعهم.

(١٠) انظر غرائب النيسابوري (٣/ ١٨) واللسان/ وسع.

وأما «الكرسي» فقال ابن عباس في رواية عطاء والسدي^(١): إنه الكرسي بعينه وهو لؤلؤ، وما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس.

والمعنى: أن كرسيه مشتمل بعظمه على السموات والأرض.

قال أبو إسحاق الزجاج^(٢): وهذا القول بين لأن الذي نعرفه من الكرسي في اللغة هو^(٣) الشيء الذي يعتمد^(٤) عليه ويجلس عليه، وهذا^(٥) يدل على أن الكرسي عظيم عليه السماوات والأرضون^(٦). وقال بعضهم^(٧): كرسية: سلطانه وملكه، ويُكنى عن الملك بالكرسي^(٨).

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال^(٩): وسع علمه السماوات والأرض، وقال أبو إسحاق الزجاج^(١٠).

الله أعلم بحقيقة الكرسي إلا أن جملة: أنه^(١١): أمر عظيم من أمره. وقوله: «ولا يؤوده حفظهما» أي: لا يثقله ولا يجهد به يقال: آده يؤوده أوداً إذا أنقله^(١٢).

(١) انظر الدر (٣٢٨/١-٣٢٩) عن ابن عباس وعلي، والطبري (٣٩٩/٥) عن ابن زيد، وابن كثير (٣٠٩/١) عن ابن زيد.

(٢) انظر الزجاج (٣٣٤/١).

(٣) من (د).

(٤) في (د): يتعمد.

(٥) في (هـ): فهذا.

(٦) في (د): والأرض.

(٧) في (هـ): قال بعضهم.

(٨) انظر فتح القدير (٢٧٢/١).

(٩) انظر الدر (٣٢٧/١) وابن كثير (٣٠٩/١) وفتح القدير (٢٧٣/١) والرجيز للواحيدي

(٧٣/١) والطبري (٣٧/٥) كلها عن ابن عباس ورجحه الطبري. وانظر الزجاج (٣٣٥/١)

والثوري ص ٧١ وفتح الباري (١٦٠/٨).

(١٠) انظر الزجاج (٣٣٥/١).

(١١) في المطبوعة: جملة أمر.

(١٢) (ولا يؤوده) أي: لا يثقله، يقال: آده الشيء يؤوده، وآده يثيده والوآد. انقل (انظر غريب القرآن

ص ٩٣ والزاهر (٥٠٥/١) والأخفش (٣٧٩/٢)، ومجاز القرآن (٧٨/١، ١٢٢/٢).

وقوله: «وهو العلي العظيم» يقال: علا يعلو علواً فهو عال «وَعَلَى» مثل: عالم وعليه وسامع وسميع، فالله^(١) تعالى علي بالاعتقاد ونفوذ السلطان، وعلي عن الأشباه والأمثال^(٢)، يقال: علا فلان عن هذا، إذا كان أرفع محلاً عن الوصف به، فمعنى العلو في وصف الله تعالى: اقتداره وقهره واستحقاقه صفات المدح.

و«العظيم» معناه: أنه عظيم الشأن لا يعجزه شيء ولا نهاية لمقدوره ومعلومه.

المدرسة الصوفية:

وإلى جانب تلك المدارس ظهرت المدرسة الصوفية، فأخذوا يدلون بدولهم في التفسير، كما رأينا النحاة يشاركون مدارس التفسير الأخرى باتجاههم وتخصصهم، كما فعل أبو حيان في تفسير «البحر المحيط» هذا عدا تفسيرات الفرق المختلفة.

ثم بدأت محاولة جمع تلك المدارس كلها في جامعة واحدة. والذي أعلمه أن أول من حاول هذه المحاولة هو الإمام السيوطي. كما حدثنا هو نفسه عن ذلك. وجعل كتابه «الإتقان» مقدمة لهذا التفسير. لكن هذه الجامعة لم يهأ لها أن تفتح أبوابها للجماهير الدارسين. حتى جاء القرن الثاني عشر الهجري إذ قيض الله لهذه الأمة عالماً فذاً ذكياً محققاً، ذلك هو «شهاب الدين الألوسي البغدادى» - رحمه الله - فوضع تفسيره «روح المعاني» فجاء جامعة قرآنية. لم يهمل فيها مسائل المتكلم، ولا مشكلات النحوي، ولا روايات الأئري، ولا آراء الفقيه، ولا نكات البياني، ولا نفحات الصوفي أو شطحاته، فكان روح المعاني روح أقوال كل هؤلاء. يزين ذلك كله تحقيق الرجل لكل تلك المسائل، وإفاضته في ذلك كله.

وبهذا التفسير ختمت المرحلة الثانية لتبدأ مرحلة جديدة في التفسير في العصر الحديث. فرحم الله أبا الفضل شهاب الدين الألوسي وجزاه الله عن تحقيقه خير الجزاء. ومن الإنصاف أن نسجل هنا أن جامع البيان لابن جرير وكشاف الزمخشري ومفاتيح الغيب للرازي، هي الأفلاك التي تدور حولها جميع كتب التفسير في هذه المرحلة.

(١) في (د) والله.

(٢) انظر اللسان، علا.

وكتب التفسير كثيرة لا تحصى، فلا يمكن حصرها أو القليل منها في هذا الفصل، ومن أراد البسط في القول فهناك طبقات المفسرين للسيوطي، وطبقات المفسرين للدودي، والتفسير والمفسرون للشيخ الذهبي، والتفسير ورجاله لابن عاشور، واتجاهات التفسير ومناهج المفسرين في العصر الحديث للمؤلف.

على أن هناك جهوداً في التفسير منها تفسير سور من القرآن الكريم، كتفسير سورتي النساء والكهف للشيخ محمد المدني، وتفسير سور النور لشيخ الإسلام ابن تيمية، وآخر للشيخ أبي الأعلى المودودي، وتفسير بعض السور للدكتور محمد البهي، وهناك مقالات تفسيرية أشار إلى كثير منها «اتجاهات التجديد في التفسير في مصر» لمحمد إبراهيم الشريف.

وهناك تفاسير ليست مكتوبة، بل هي تفاسير مسموعة منها على سبيل المثال: تفسير المؤلف الذي سجله للإذاعة سنة ١٩٧١م، وقد سجلته فيما يقرب من أربعمئة حلقة تشتمل على التلاوة والتفسير، كنت أتلو بعض الآيات وأفسرها، وكانت مدة الحلقة خمسة عشرة دقيقة، وهو تفسير كامل - والله الحمد - من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، وقد كان يسمعه كثير، ولا يزال يذاع حتى اليوم، ولقد بدأت والحمد لله تسجيل القرآن الكريم تلاوة وتفسيراً لبعض الإذاعات المحلية في عمان، وسيكون أوسع كثيراً من سابقه، فمدة التسجيل الأول كانت خمساً وتسعين ساعة، وسيصل هذا إلى مئة وخمسين ساعة إن شاء الله ونسأل الله أن يمنّ عليّ بإتمامه إن ربي سميع الدعاء.

وهناك تفسير في مصر للدكتور محمد سعدي فرهود - رحمه الله - يتلو فيه أحد القراء وأظنه الشيخ عبدالباسط الآيات ويفسرها الشيخ، وقد أذيع مرة واحدة في إذاعة القرآن الكريم في القاهرة. ومع كثرة هذه التفاسير فالقرآن الكريم لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد، وفي كل مطلع شمس تبرز معاني جديدة تتلاءم مع أوضاع الناس على اختلاف أعصارهم وأمصارهم.

نعم السميع كتاب الله إن له حلاوة هي أحلى من جنى الضرب^(١)

(١) الضرب: هو العسل الحر الذي لا شائبة فيه.

به فنون المعاني قد جُمعن فما يَفْتَنُ من عجب إلا إلى عجب
أمر ونهي وأمثال وموعظة وحكمة أودعت في أفصح الكتب
لطائف يمتليها كُلُّ ذي بصر وروضة يمتنيها كُلُّ ذي أدب

التفسير في العصر الحديث:

كان الشيخ محمد عبده إمام المفسرين في العصر الحديث، حيث كتب جزء عم، ووصلنا من دروسه ما نقله عنه صاحب المنار من الدروس التي كان يلقيها في الأزهر، فلقد فسر الأجزاء الخمسة الأولى، وقام صاحب المنار - رحمه الله - الشيخ محمد رشيد بنقل تفسيرات الشيخ في تفسير المنار، فكان يقول عند نقل كلامه: ولقد ذكر أستاذنا الإمام ما مثاله، ثم ينقل أقوال الشيخ وآراءه.

وكان الشيخ - رحمه الله - غير متسرع في تفسيراته، بل غير مرتجل آراءه، كان يقرأ ما قاله المفسرون ما أمكنه ذلك، وقد يصل ما يقرؤه إلى خمسة وعشرين تفسيراً - كما يذكر - وكان للشيخ أسلوبه الجديد وآراؤه الجيدة، والجريئة أحياناً، ولكن لا يخلو جواد من عثرات، فلقد ناقشت بعض آرائه وكانت بين أخذ ورد وقبول ورفض، لكن من الإنصاف أن نعترف للشيخ بمنزلته وجهده، وحرصه على تجلية المعاني القرآنية، هدايته وإعجازه، فرحم الله الشيخ محمد عبده وجزاه خيراً بما قدّم^(١).

الشيخ محمد رشيد رضا:

ثم جاء صاحب المنار السيد محمد رشيد رضا، وبدأ تفسيره الذي سباه، تفسير القرآن الحكيم الشهير بالمنار، فكان بحق تفسير العصر في ذلك الحين، كانت فيه التحقيقات العلمية على تنوعها: لغوية، وعقدية، علمية، وحديثية، فلقد كان الشيخ ذا سعة في الاطلاع، وقد فسر - رحمه الله - اثني عشر جزءاً من القرآن الكريم، وكان الشيخ في تفسيره كثير الاستطرادات طویل النفس فحاول أن يختصر هذا التفسير، ولكن لم يتسن له كتابة أكثر من جزء أو جزأين.

(١) راجع كتابي التفسير أساسياته واتجاهاته.

ومن رجال هذه المدرسة بعد الشيخ محمد رشيد - رحمه الله - الشيخ عبدالقادر المغربي، الذي فسر جزء تبارك سنة (١٩٢٠م).

والشيخ محمد مصطفى المراغي، شيخ الأزهر، وأخيه أحمد مصطفى المراغي صاحب تفسير المراغي، وقد طبع في ثلاثين جزءاً، وأجزاؤه صغيرة الحجم، وكان متأثراً بتفسير المنار تأثيراً تاماً، وله في هذا التفسير وعليه.

ومن رجال هذه المدرسة الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق، فلقد فسر الأجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم، وله آراء في التفسير، وكان بعضها موضع نقاش عند العلماء، والرجل بحق فذ في أسلوبه، سيال قلمه جريئة آراؤه، جيداً سبكُهُ.

ومنهم الشيخ عبدالجليل عيسى صاحب «أيسر التفاسير». ومن كان لهم أثر في التفسير في العصر الحديث، الشيخ محمد الخضر حسين - رحمه الله - شيخ الأزهر الأسبق حيث كان يكتب مقالاته التفسيرية في مجلة لواء الإسلام.

ومن بعده الشيخ محمد أبو زهرة - رحمه الله - وقد طُبع تفسيره الذي وصل فيه إلى سورة النمل في عشرة أجزاء قامت بطباعته مشكورة ابنته الدكتور حياة النفوس، وكان للشيخ عبدالوهاب خلاّف، والشيخ إبراهيم الجبالي وغيرهم من علماء الأزهر جهود طيبة في تفسير ما شاء الله لهم أن يفسروه من سور القرآن الكريم.

ومن التفاسير التي اشتهرت في هذا العصر تفسير «الجواهر» للشيخ طنطاوي جوهرى - رحمه الله - وهو تفسير يمتلئ حيوية وحرقة وألماً وأملًا، فهو يهيب بالمسلمين أن ينهضوا من كبوتهم، ويستيقظوا من رقدهم، ولكنه مع كل أسف، خلط فيه كثيراً، وملاه بالصور والحكايات في تحضير الأرواح وغيرها مما كان حرياً أن يتجنب في تفسير القرآن الكريم.

ومن التفاسير التي سرت مسرى الشمس، وانتشرت في العالم الإسلامي «في ظلال القرآن» للشهيد الأستاذ سيد قطب - رحمه الله تعالى - فهو صيحة يقظة، ووجدان حي، وتربية شعورية أفرغ فيه سيد - رحمه الله - أشجانه وآماله، مبيناً عظمة البناء القرآني في تربيته وتوجيهاته، وسموّ مقاصده، وعظمة المدينة التي يشيّد أركانها قمماً سامقة عالية،

مع ضآلة ما ينتحله الكثيرون في هذا القرن العشرين. لقد كان الظلال بحق مدرسة شاحخة البيان وطيدة الأركان.

وإذا كان أهل المشرق كانت لهم هذه الجهود المشكورة، فإن من الإنصاف أن نذكر ما كان لأهل المغرب من جهود مشكورة، ومن هذه الجهود تفسير الشيخ ابن باديس - رحمه الله - وهو تفسير لبعض سور القرآن وآياته طبع في مجلد.

ومنها التحرير والتنوير للشيخ ابن عاشور - رحمه الله - وهو مطبوع في خمسة عشر مجلداً، وهو تفسير متسع الأطراف، بعيد الجنبات، قضى فيه مؤلفه ما يزيد على العشرين سنة، فيه كثير من التحقيقات اللغوية والعلمية، ولم تفته القضايا الحديثة، والفقهية، وقد كتب الدكتور جمال أبو حسان رسالة الماجستير، التي كان لي شرف الإشراف عليها عن هذا التفسير في مجلدين كبيرين.

وأخيراً لا آخراً، فإن هناك التفسير الوسيط صدرت منها الأجزاء الأولى لشيخنا الدكتور أحمد السيد الكومي - رحمه الله تعالى - وللدكتور محمد سيد طنطاوي، إلا أن هذا التفسير في خمسة عشر مجلداً باسم الدكتور الطنطاوي شيخ الأزهر، ولم يشر من قريب أو بعيد بكلمة واحدة حتى في مقدمة هذا التفسير للعلامة الذي تعترف الأجيال بفضله بعد الله، والذي كان له الفضل الأكبر بعد الله تعالى على الدكتور الطنطاوي، أقول: لم يشر بكلمة واحدة في مقدمة تفسيره وخاتمته إلى الشيخ الكومي، فلا حول ولا قوة إلا بالله. وجزى الله الأوفياء خير الجزاء.

وهذا التفسير ميسر العبارة، فيه اختيارات من أقوال المفسرين، ملائم لذوي الثقافات المختلفة، ليس فيه تعقيد، خالٍ من المصطلحات الصعبة، التي لا يفهمها إلا المتخصصون.

وستظل الحياة تنعم - كما تنعم بالشمس - ببيان الكتاب الكريم، الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يتخلق على كثرة الرد. جزى الله عن كتابه ذوي الغيرة خير الجزاء، ووفقنا ومنّ علينا بجهده وإن كان جهد المقل في هذه الدوحة الطيبة الأثر، الزكية الثمر، العذبة النهر، إنه خير مسؤول، وأكرم معطي، ونعم المولى ونعم النصير، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الْفَضِيلُ النَّاسِجُ عَشِينَ

الوجوه والنظائر

رَفَعُ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ (الْفَجْرِيُّ)
(سَلَّمَ) (الْفَرْجِيُّ)

من الموضوعات التي بحثها الكاتبون في علوم القرآن الكريم والمفسرون واللغويون؛ ولأهمية هذا الموضوع ارتأينا أن نضمه إلى هذا الكتاب، إتماماً للفائدة فمن الله العون وعليه التكلان.

عني العلماء بهذا العلم، فألفوا فيه مؤلفات كثيرة، ومن هذه الكتب:

١- كتاب الأشباه والنظائر، الذي نُسب إلى مقاتل بن سليمان البلخي (ت ١٥٠هـ) وذكر الدكتور حاتم الضامن أن هذا الكتاب لهارون بن موسى الفارسي (١٧٠هـ)، أما كتاب مقاتل فعنوانه (الوجوه والنظائر).

٢- وجوه القرآن الكريم لأبي عبد الرحمن إسماعيل بن أحمد الضرير النيسابوري (ت بعد ٤٣٠هـ).

٣- كتاب الوجوه والنظائر في القرآن الكريم لأبي عبد الله الحسين بن محمد (ت ٤٧٨هـ)، الذي حققه عبد العزيز سيد الأهل وتصرف في الكتاب فسمّاه بغير اسمه وتصرف كذلك في مادة الكتاب، ثم قام محمد حسن أبو العزم الزفيتي بتحقيق الكتاب، فأصلح ما تصرف فيه سيد الأهل.

٤- ومن هذه الكتب نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي عبد الرحمن بن علي أبو الفرج (ت ٥٩٧هـ).

٥- وقد عقد السيوطي في كتابه الإتقان فصلاً تحدث فيه عن هذا الموضوع.

هذه بعض الكتب التي كتبها الأقدمون في الوجوه والنظائر، أما المحدثون فقد اهتموا كذلك بهذا العلم ومن كتب فيها:

١- الدكتور سليمان بن صالح القرعاوي، الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، وهي رسالة دكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

٢- الدكتور عبدالعال سالم مكرم كتب المشترك اللفظي في ضوء غريب لقرآن الكريم.

٣- والباحثة سلوى محمد سليم العراء لها (الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) رسالة ماجستير، وهو كتاب قيم تحدثت فيه عن الموضوع عند المفسرين واللغويين. وهناك أبحاث منشورة تحمل هذا العنوان.

معنى الوجوه والنظائر:

الوجوه لغة جمع وجه، ووجه كل شيء مستقبله، ووجه الكلام، السبيل الذي تقصده به^(١).

والنظائر جمع نظير، وهو المثل، قال ابن منظور: والنظائر: جمع نظيرة، وهي المثل والشبه في الأشكال والأخلاق والأفعال والأقوال^(٢).

أما في الاصطلاح فقد ذكروا لهذا المصطلح تعريفات كثيرة منها ما ذكره ابن الجوزي: «أن تكون الكلمة واحدة ذكرت في مواضع من القرآن الكريم على لفظ واحدة وحركة واحدة، وأريد بكل مكان معنى غير الآخرين». فالنظائر هي كون الكلمة واحدة في مواضع متعددة، والوجوه اختلاف الكلمة في المعنى في كل موضع. فالنظائر اسم للألفاظ والوجوه اسم للمعاني.

(١) لسان العرب، ابن منظور مادة (وجه)، (١٣/٥٥٥).

(٢) لسان العرب (٥/٢١٩).

وضَعَفَ الزركشي هذا القول؛ «لأنه لو أُريدَ هذا لكان الجمع في الألفاظ المشتركة، وهم يذكرون في تلك الكتب اللفظ الذي معناه واحد في مواضع كثيرة فيجعلون الوجوه نوعاً لأقسام، والنظائر نوعاً آخر لأمثال».

أما التعريف الذي اختاره الزركشي فهو: «الوجوه: اللفظ الذي يستعمل في عدة معاني كلفظ (الأمة)^(١) والنظائر: كالألفاظ المتواطئة». وهذا التعريف مرتبط بالمعنى اللغوي، فالنظائر كما سبق: المثل والشبيه.

ومن هنا نقول إن علم الوجوه والنظائر هو علم دراسة لتعدد الدلالة في سياق القرآن الكريم.

ويقال إن هذا المصطلح قد ورد في كلام الصحابة رضوان الله عليهم فقد روي عن أبي الدرداء موقوفاً، لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة^(٢).

وقال السيوطي: أخرج ابن سعد من طريق عكرمة عن ابن عباس أن علي بن أبي طالب أرسله إلى الخوارج فقال: «أذهب إليهم فخاصمهم، ولا تحاجهم بالقرآن فإنه ذو وجوه ولكن خاصمهم بالسنة»^(٣).

وأخرج من وجه آخر أن ابن عباس قال: يا أمير المؤمنين، فإننا أعلم بكتاب الله منهم في بيوتنا نزل، قال: صدقت، ولكن القرآن حَال ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن حاجهم بالسنن، فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً، فخرج إليهم فخاصمهم بالسنن، فلم تبقَ بأيديهم حجة^(٤).

(١) حيث فسرت بمعنى العصبية، والملة، والأمم الخالية، والسنن المعدودة، والإمام الذي يقتدى به، وأمة محمد ﷺ وغير ذلك، الوجوه والنظائر للدماغاني، (١/ ١٢٠).

(٢) ذكره السيوطي في الإتيقان (١/ ٤١٠). وأخرجه ابن أبي شيبه في المصنف برقم (٣٠١٦٣ ج٦/ ١٤٢)، وذكره في عمدة القاري وقال: قال أبو عمر: لا يصح مرفوعاً وإنما الصحيح أنه من قول أبي الدرداء ورواه مرفوعاً مجمع على ضعفه (٢/ ٥٥).

(٣) ذكره السيوطي في الإتيقان (١/ ٤١٠).

(٤) ذكره السيوطي (١/ ٤١٠)، وأخرج عبدالرزاق في مصنفه (١١/ ٢٥٥)، وابن أبي شيبه في مصنفه (٦/ ١٤٢).

تحدث اللغويون عن تعدد دلالة اللفظ فكتبوا فيما اتفق لفظه، واختلف معناه، وبحثوا فيه الألفاظ من الناحية اللغوية، وأول ما وصلنا كتاب المبرد «ما اتفق لفظه واختلف معناه في كتاب الله». يقول المبرد في مقدمة كتابه: «هذه حروف ألفناها من كتاب الله عز وجل، متفقة الألفاظ مختلفة المعاني، متقاربة في القول مختلفة في الخبر على ما يوجد في كلام العرب، لأن من كلامهم اختلاف اللفظين واختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين»^(١).

ومما ذكره من الأمثلة «قوله تعالى: ﴿إِلَّا آمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨] هذا لمن شك، ثم قال: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوتُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] فهذا يقين لأنهم لو لم يكونوا مستيقنين، لكانوا ضلالاً شكاكاً في توحيد الله، ومثله اليقين قول المؤمن ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبِيَّ﴾ [الحاقة: ٢٠]، أي: أيقنت».

وبحثوا تحت تعدد الدلالة للفظ الواحد، قضية الأضداد، التي جعلوها من أنواع المشترك اللفظي. قال ابن الأنباري في مقدمة كتابه «الأضداد»: «ومجرى حروف الأضداد، مجرى الحروف التي تقع على المعاني المختلفة وإن لم تكن متضادة» فتلك التي تقع على المعاني المختلفة بعامة هي ما عرّفه اللغويون العرب بالمشارك اللفظي؛ لأن لفظة «الحرف الواحد» تشترك فيه عدة معانٍ.

فإن كانت هذه المعاني المختلفة متضادة عدّ اللفظ من الأضداد، وإن وقعت تلك الحروف أو الألفاظ في كتاب الله عرفت بالألفاظ الوجوه^(٢).

ما ذكره العلماء في الوجوه والنظائر:

قلنا من قبل إن المفسرين واللغويين قد بحثوا في هذه القضية، إلا أن المنهج الذي سار عليه كل منهم يختلف عن الآخر، ولنبدأ الحديث عن دراسة المفسرين.

(١) نزهة الأعين، ص ٣٦.

(٢) ص ٣.

أقدم الكتب التي وصلتنا في الوجوه والنظائر كتاب لمقاتل بن سليمان البلخي الذي جمع فيه ألفاظاً من القرآن الكريم فسرت بأكثر من معنى، فيذكر اللفظ متبعاً إياه بمعانيه المختلفة ويسوق بعض الشواهد عليها من كتاب الله تعالى.

ومن الأمثلة التي ذكرها كلمة (الروح): قال:

«تفسير الروح على خمسة وجوه: فوجه منها: روح يعني رحمة فذلك قوله في المجادلة ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

والوجه الثاني: الروح يعني ملكاً من الملائكة في السماء السابعة وجهه على صورة الإنسان وجسده على صورة الملائكة، فذلك في عم يتساءلون ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبا: ٣٨]. يعني ذلك الملك، وهو أعظم من كل مخلوق غير العرش، وهو حافظ على الملائكة يقوم على يمين العرش صفّاً واحداً والملائكة صفّاً^(١)... والوجه الثالث: الروح يعني به جبريل، فذلك قوله في النحل: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢].

ومن هذه الكتب كتاب التصاريف ليحيى بن سلام، حيث ذكر المؤلف الكلمة القرآنية، وذكر وجوهها - معانيها - التي وردت بها في القرآن، وقد رتب كتابه حسب ترتيب سور القرآن الكريم، وعلى ترتيب ورود الألفاظ في كل سورة قرآنية. ومنها كتاب الوجوه والنظائر للدماغاني.

ومن الأمثلة التي وردت عندهما كلمة هدى، حيث ذكرا أنها تأتي على سبعة عشر وجهاً منها:

الوجه الأول: هدى يعني بياناً كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥] يعني على بيان وتصديق ذلك في حم السجدة قوله ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ [فصلت: ١٧].

الوجه الثاني: هدى يعني دين الإسلام، وذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَّيْ هُدًى مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الحج: ٦٧] يعني على دين مستقيم، حق وهو الإسلام، ومثلها في البقرة: ﴿قُلْ إِيَّاكَ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدًى﴾ [البقرة: ١٢٠] يعني دين الله يعني الإسلام، هو الدين وهو الحق..

(١) هذا القول قول لا يصح، والروح في الآية كما يرى المحققون هو جبريل عليه السلام.

الوجه الثالث: الهدى يعني الإيمان. قال تعالى في سورة مريم ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَحْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]. أي يزيد الذين آمنوا إيماناً، وكقوله ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣] يعني إيماناً.

الوجه الرابع: الهدى يعني الداعي. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، يعني داعٍ.. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ﴾ [الأنبياء: ٧٣] أي: يدعون.

الوجه الخامس: الهدى يعني: المعرفة قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكُم بِلَاغِكُم هُم يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] يعني يعرفون السبيل.

الوجه السادس: الهدى يعني الرسل والكتب ﴿فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: ٣٨] يعني رسلي وكتبي ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨] يعني رسلاً وكتباً.

الوجه السابع: الهدى: الرشـد ﴿عَسَىٰ رَفِيتَ أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢] يعني أن يرشدني.

الوجه الثامن: الهدى: أمر محمد ﷺ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدًى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ﴾ [البقرة: ١٥٩] يعني أمر محمد ﷺ أنه نبي رسول وكقوله: ﴿وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدًى﴾ [حمد: ٣٢].

الوجه التاسع: الهدى يعني القرآن: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدًى﴾ [النجم: ٢٣]، ويعني القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدًى﴾ [الكهف: ٥٥].

الوجه العاشر: التوراة، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدًى﴾ [غافر: ٥٣].

الوجه الحادي عشر: الاسترجاع عند المصيبة، ﴿أَوَلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوَلَيْكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] يعني الاسترجاع، ﴿وَمَنْ يُؤْمَلْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] يعني عند المصيبة الاسترجاع.

الوجه الثاني عشر: الحجة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

الوجه الثالث عشر: الهدى التوحيد: ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ﴾ [القصص: ٥٧] يعني التوحيد.

الوجه الرابع عشر: السنة ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] مقتدون مستنون بسنتهم.

الوجه الخامس عشر: لا يهدي: لا يصلح ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوَّاسِينَ﴾ [يوسف: ٥٢] يعني لا يصلح عمل الزناة.

الوجه السادس عشر: الإلهام ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] يعني ألهمه كيف يأتي معيشته ومرعاه.

الوجه السابع عشر: هدنا يعني تبنا ﴿إِنَّا هَدَيْنَاكَ إِلَيْنِكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقد ذكر السيوطي في الإتيان أن كلمة الهدى تأتي على سبعة عشر وجهاً كذلك إلا أنه ذكر ثمانية عشر وجهاً، حيث زاد على ما ذكره يحيى بن سلام والدامغاني معنى الثبات كما في قوله تعالى: ﴿أَهْدَيْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

وذكر غيره أنها تأتي على أربعة وعشرين وجهاً، وهذا الاختلاف في المعاني بين الكتب تجده في كثير من الكلمات، فكلمة صلاة مثلاً ذكر السيوطي لها تسعة معاني «الصلوات الخمس، صلاة العصر، صلاة الجمعة، الجنازة، الدعاء، الدين، القراءة، الرحمة والاستغفار، مواضع الصلاة»، والدامغاني ذكر لها أربعة أوجه وهي: «الاستغفار، والمغفرة، والصلاة بعينها، وبيوت الصلاة»، وذكر لها ابن الجوزي عشرة أوجه، وغيره زادها إلى ثلاثة عشر وجهاً.

ومنها كلمة الرحمة التي ذكر لها السيوطي تسعة أوجه، والدامغاني زادها إلى أربعة عشر وجهاً وابن الجوزي إلى ستة عشر وجهاً.

ومن هذه الكتب التي وصلتنا كتاب «تحصيل نظائر القرآن» للحكيم الترمذي، الذي نحى فيه الكاتب منحى لغوياً، مخالفاً فيه ما سار عليه المفسرون، يقول:

«فإذا نظرنا في هذا الكتاب المؤلف في نظائر القرآن، فوجدنا الكلمة الواحدة مفسرة على وجوه، فتدبرنا ذلك، فإذا التفسير الذي فسرناه إنما اختلفت الألفاظ في تفسيره، ومرجع ذلك إلى كلمة واحدة، وإنما انشعبت حتى اختلفت ألفاظها الظاهرة الأحوال، التي إنما نطق الكتاب بتلك الألفاظ من أجل الحادث في ذلك الوقت».

الحكيم الترمذي كما نفهم من قوله ينفي ظاهرة تعدد المعاني؛ وذلك لوجود علاقة واضحة بينها جميعاً، وقد جاءنا بثمانية عشر لفظاً ليدل على ما ذكره ومن هذه الألفاظ لفظة الهدى التي ذكرناها قال:

«فقد جاءت على ثمانية عشر وجهاً، فالحاصل من هذه الكلمة: كلمة واحدة فقط، ذلك أن الهدى هو الميل، ويقال في اللغة: رأيت فلاناً يتهدى في مشيته، أي: يتهايل، ومنه قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاكَ إِلَيْنَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، أي: ملنا إليك، ومنه سميت الهدية هدية لأنها تميل بالقلب إلى مهديها، وإن القلب أمير على الجوارح، فإن هداه الله لنوره، أي: أماله إليه لنوره، اهتدى، أي: استمال، وقد قال في تنزيهه: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥] فهذا أصل الكلمة، ثم وجدنا تفسير الهدى:

البيان: فإنما صار الهدى بياناً في ذلك المكان؛ لأن البيان إذا وضح على القلب بنور العلم، مدّ ذلك النور القلب إلى ذلك الشيء وأماله إليه.

الإسلام: وإنما صار في المكان الآخر الإسلام؛ لأنه إذا مال القلب بذلك النور إلى ذلك الشيء الذي تبين له انقاد العبد وأسلم، ومدّ عنقاً إلى قبوله.

التوحيد: وإنما صار الهدى التوحيد في المكان الآخر؛ لأنه إذا مال القلب إلى ذلك النور سكن عن التردد واطمأن إلى ربه فوحد^(١).

هذه هي فكرة الحكيم الترمذي: «فمرجع هذه الأشياء التي صيرت وجوهاً ذات شعب إلى كلمة واحدة؛ لأن الهدى: هو ميل القلب إلى الله بذلك النور الذي أشرق به

(١) تحصيل نظائر القرآن، ص ٢٠.

الصدر، فانشرح وانفسح وهو قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]»^(١).

الحكيم الترمذي - إذن - يرى أن لا وجود للوجوه المتعددة في كتاب الله تعالى، بمعنى أن الكلمة الواحدة في كل استعمالاتها لها معنى واحداً؛ ولذا سمي كتابه «تحصيل نظائر القرآن».

أما الكتاب في علوم القرآن والتفسير، فكما - رأينا - اللفظة الواحدة لها وجوه متعددة، ولكن هذه الوجوه لا بد أن تربط بينها روابط، ولكن يبدو لنا مما كتبه أنهم لم يتوقفوا لبحث هذه العلاقة، كما فعل الحكيم الترمذي.

والذي يظهر لنا هنا:

أولاً: إن ما ذهب إليه اللغويون وهو رأي الحكيم الترمذي، هو الأسلم؛ وذلك أن الكلمة المستخدمة واحدة، فهي إذن لا بد أن يكون لها معنى واحد محدد في جميع المواضع، كما ذكر في كلمة (هدى)، إلا أننا نخالف الحكيم الترمذي في أن أصل هذه الكلمة الميل، فلو رجعنا إلى المعاجم اللغوية فإننا لا نجد لها تذكراً هذا المعنى. جاء في معجم مقاييس اللغة:

«الهاء والذال والحرف المعتل: أصلان أحدهما الإرشاد، الآخر بعثة لُطْف (تحفة وهدية).

فالأول قوله: هديته الطريق هداية أي تقدمته لأرشده، وكل متقدم لذلك هاد... وينشعب هذا فيقال الهدى: خلاف الضلالة، تقول، هديته هدى، ويقال: أقبلت هوادي الخيل، أي: أعناقها.

ومن الباب: نظر فلان هدي أمره أي جهته.. ويقولون: جاء فلان يهادي بين اثنين إذا كان يمشي بينهما معتمداً عليهما، والباب في هذا القياس كله واحد...»^(٢).

(١) ص ٢٤.

(٢) (٤٢/٦).

أصل كلمة الهدى الإرشاد، وليس الميل.

ثانياً: ينبغي أن لا نغفل السياق عند تفسير الكلمة القرآنية، فهو يرشد إلى تحديد مفهوم الكلمة ويرشد «إلى تبين المجمل وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق وتنوع الدلالة» كما يقول ابن القيم، فهو من أعظم القرائن الدالة، على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظره^(١).

ومما يدل على أهمية السياق ما ذكره ابن القيم في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]؛ فإن سياقها يدل على أن المقصود الدليل الحقيق وإن كنا نخالفه فيما ذهب إليه، فلم لا يكون العزيز الكريم على معناه ويكون في الجملة تهكم بهذا الذي تبجح في الدنيا وادعى لنفسه العزة، فيقال له هذا يوم القيامة بعد أن يُلقى في جهنم ويصب فوق رأسه من الحميم، تهكماً به وإذلالاً له.

ومن هنا إذا رجعنا إلى المعاني التي ذكروها لكلمة هدى، فإننا نجد السياق يتحكم في مفهوم الكلمة مع ملاحظة أنها - الكلمة - لم تخرج عن معناها الأصل. خذ قوله تعالى مثلاً: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ [البقرة: ١٢٠] حيث قالوا إن معنى الكلمة هنا الإسلام، ونقول إنها لم تخرج عن معناه فهي الإرشاد إلى هذا الدين العظيم وهو الإسلام.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦] يعني أولئك الذين أرشدهم الله تعالى إلى الإيمان يزيدهم الله تعالى رشاداً وصلاًحاً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] حيث فسروا الكلمة بالداعي، فهي تعني مرشد يرشدهم إلى الحق..

وخذ قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦] قالوا إن الهدى بمعنى الحجة ونقول إن الكلمة لم تخرج عن معناها، فإنه تعالى لا يرشدهم إلى أي حجة لما يذهبون إليه، فحججهم واهية لا تقف أمام الحق.

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٣٠١).

ومن الأمثلة على قضية السياق التي كان للمفسرين عناية بها أنهم فسروا هدى تارة بالقرآن، وتارة بالتوراة فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣]، يعني القرآن، وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ﴾ [غافر: ٥٣] وهذا يؤكد لنا أن الكلمة لا بد أن تحمل على معناها الأصلي، والمعنى أنه سبحانه قد أرشد الناس الذين بعث إليهم سيدنا محمداً ﷺ عن طريق القرآن، وأرشد من جاءهم سيدنا موسى ﷺ عن طريق التوراة التي أنزلت عليه. والواقع أن المفسرين ذكروا أن هذه الكلمة لها معنيان: الإرشاد والتوفيق.

ثالثاً: إذا رجعنا إلى تلك الكلمة التي وردت في أكثر من موضع في كتاب الله، والتي سموها (وجوها)؛ فإننا نجد لها لا تأتي في حالة واحدة من حيث كونها اسماً مثلاً، أو فعلاً، أو مصدرراً فقد وردت مثلاً (هدى) مصدرراً ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥] وفعلاً ماضياً ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ [فصلت: ١٧] وفعلاً مضارعاً ﴿وَعَلَّمْنَاهُ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الفصص: ٢٢] ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وأظن أننا نفهم من قولهم (الوجوه) أنه لا بد أن تأتي الكلمة على صورة واحدة، اسماً، أو فعلاً، أو مصدرراً، وهكذا، فلا بد أن تكون اللفظة متفقة في حروفها وحركاتها، بحيث يكون اللفظ الذي له معاني مختلفة، هو نفسه في كل مرة، فلا ندخل مشتقات الجذر الواحد، وتصاريفه المختلفة^(١).

رابعاً: أنهم قد تكلفوا لإيجاد معنى للكلمة الواحدة، انظر مثلاً قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] حيث فسروا الكلمة هنا بالاسترجاع، وفي هذا تكلف فالآية الكريمة بينت جزاء من أصابه مصيبة واسترجع بأنهم مهتدون إضافة إلى أمور أخرى. قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّادِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا

(١) وهذا ما فعله أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه الأجناس.

إِلَيْهِ رَجِعُونَ ﴿البقرة: ١٥٥-١٥٦﴾ فكيف يقال إن الذين استرجعوا فقالوا ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَجِعُونَ﴾ .

وكذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ [البقرة: ١٥٩] حيث فسروا الهدى بالنبي ﷺ، مع أنه ﷺ لم يرد له ذكر في الآية قبلها أو بعدها، فالهدى هو القرآن، فالله تعالى ذكر أن القرآن الكريم هدى وبيانات.

خامساً: إن الكلمة في كتاب الله - كما مر معنا سابقاً في مبحث الإعجاز - جاءت في مكانها لا يسد غيرها مسدها، فـ «فلو نزعنا لفظة من كتاب الله ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد»، إنه كتاب الله تعالى الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، ومن هنا يرون أن هذا العلم يعد وجهاً من وجوه الإعجاز اللغوي في كتاب الله تعالى.

ومن هنا ندرك أن بحث علوم القرآن في الوجوه والنظائر لا يخلو من تكلف وحبذا أن نرجع في هذا البحث إلى ما ذكره اللغويون.

ومما هو قريب من هذا الموضوع ما ذكره السيوطي في فصل منفرد بعد فصل الوجوه والنظائر، نقتطف منه بعضه، ونترك الكثير، وذلك لأننا لا نوافق السيوطي عليه. قال:

قال ابن فارس في كتاب «الأفراد»: كل ما في القرآن من الأسف فمعناه الحزن إلا ﴿فَلَمَّا أَصْفَوْكَا﴾ [الزخرف: ٥٥] فمعناه أغضبونا.

وكل ما فيه من ذكر البروج فهي الكواكب إلا ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] فهي القصور الطوال الحصينة.

وكل ما فيه من ذكر «البر والبحر» فالمراد بالبحر الماء، وبالبر التراب اليابس، إلا ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١] فالمراد به البرية والعمران.

وكل ما فيه من «بخس» فهو النقص إلا ﴿شَمْسٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠] أي: حرام.

- وكل ما فيه من «البعل» فهو الزوج إلا ﴿أَنْدَعُونَ بَعْلًا﴾ [الصافات: ١٢٥] فهو الصنم.
- وكل ما فيه من «البكم» فالخرس عن الكلام بالإيمان إلا ﴿عُمَيَّا وَبِكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] و﴿أَحْذَهُمَا أَنْبَكُمْ﴾ [النحل: ٧٦] فالمراد به عدم القدرة على الكلام مطلقاً.
- وكل ما فيه «جثيا» فمعناه جميعاً، إلا ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجنائنة: ٢٨] فمعنى تجثو على ركبها.
- وكل ما فيه من «حسبان» فهو العدد إلا ﴿حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الكهف: ٤٠] فهو العذاب.
- وكل ما فهي «حسرة» فالندامة إلا ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٦] فمعناه الحزن.
- وكل ما فيه من «الدحض» فالباطل إلا ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١] فمعناه من المقروعين.
- وكل ما فيه من «رجز» فالعذاب، إلا ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المذثر: ٥] فالمراد به الصنم.
- وكل ما فيه من «ريب» فالشك، إلا ﴿رَيْبَ الْمُنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] يعني حوادث الدهر.
- وكل ما فيه من «الرجم» فهو القتل إلا ﴿لَا رَجْمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦] فمعناه لأشتمنك و﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢] أي ظناً.
- وكل ما فيه من «الزور» فالكذب مع الشرك، إلا ﴿مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢] فإنه كذب غير شرك.
- وكلما فيه من «زكاة» فهو المال، إلا ﴿وَحَسَنَاتٍ لَدُنَّا وَزَكَاةً﴾ [مريم: ١٣] أي طهارة.
- وكل ما فيه من «الزيغ» فالميل، إلا ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ [الأحزاب: ١٠] أي شخصت.

وكل ما فيه من «سخر» فلاستهزاء إلا ﴿سُخِّرَ﴾ [الزخرف: ٣٢] فهو من التسخير والاستخدام.

وكل «سكينة» فيه طمأنينة إلا التي في قصة طالوت ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨] فهو شيء كراس الهرة له جناحان^(١).

وكل «سعير» فيه فهو النار والوقود إلا ﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧] فهو العناء.

وكل «شيطان» فيه إبليس وجنوده إلا ﴿وَإِذَا حُلُوا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤] فإنه يريد كهنتهم مثل كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وأبي ياسر أخيه^(٢).

وكل «شهيد» فيه غير القتلى فمن يشهد في أمور الناس إلا ﴿وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣] فهو شركاؤهم.

وكل ما فيه من «أصحاب النار» فأهلها، إلا ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ [المدثر: ٣١] فالمراد خزنتها.

وكل «صلاة» فيه عبادة ورحمة، إلا ﴿وَصَلَّوْاْ وَمَسْجِدُ﴾ [الحج: ٤٠] فهي الأماكن.

وكل «صمم» فيه ففي سماع الإيمان والقرآن خاصة، إلا الذي في الإسراء ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] معناه لا يسمعون شيئاً.

وكل «عذاب» فيه فالتعذيب إلا ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا﴾ [النور: ٢] فهو الضرب.

وكل «قنوت» فيه طاعة، إلا ﴿كُلُّ لَّهُ قَدِينُونَ﴾ [البقرة: ١١٦] فمعناه مقرون.

وكل «كنز» فيه مال، إلا ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]، فهو صحيفة علم.

(١) وهذا القول مرفوض.

(٢) وهؤلاء هم جنود إبليس من الإنس.

- وكل «مصباح» فيه كوكب، إلا ﴿الْمَصْبَاحُ فِي نُجُجَةٍ﴾ [النور: ٣٥]، فالسراج.
- وكل «نكاح» فيه تزوج، إلا ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ [النساء: ٦] فهو الحلم.
- وكل «نبأ» فيه خبر، إلا ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾ [القصص: ٦٦] فهي الحجج.
- وكل «ورود» فيه دخول، إلا ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣] يعني هجم عليه ولم يدخله.
- وكل ما فيه من ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فالمراد من العمل؛ إلا ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً تَنْهَا﴾ [الطلاق: ٧] فالمراد من النفعة.
- وكل «يأس» فيه قنوط إلا ﴿أَفَلَمْ يَأْنَيْسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الرعد: ٣١] فهو العلم.
- وكل «صبر» فيه محمود إلا ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٢] و﴿وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٦] ^(١).

(١) الإتيان (٢/ ١٩٩-٢٠٣).

الفصل العاشر مشكل القرآن الكريم

رفع
عبر (الرحمن) (النجدي)
(السلم) (النبي) (الزور)

المشكل لغة: اسم فاعل من أشكل، يقال: أشكل عليَّ الأمر، أي: اختلط بغيره.
وحرف مشكل: مشته ملتبس.

أما اصطلاحاً، فقد عرّفوه بأنه «الآيات القرآنية التي التبس معناها واشتبه على كثير من الناس فلم يعرفوا المراد منها». وعرفه السيوطي بأنه «ما يوهم التعارض بين الآيات»^(١).

موضوع المشكل من الموضوعات التي بحثها العلماء قديماً وحديثاً، وقد بالغ بعضهم فيه، ومنعه آخرون حيث رأوا أن لا مشكل ولا موهم في كتاب الله تعالى.

والذي نراه - والله أعلم - أنه ليس في القرآن مشكل، والذي نظنه أن ما ادعوه مشكلاً يحتاج إلى زيادة تدبر، وإرجاع نظر في الآيات الكريمة.

صحيح أن هناك أموراً أشكلت على الصحابة رضوان الله عليهم، والتابعين، حيث نقلوا لنا عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وابن عباس رضي الله عنهما، ومع ذلك فإن الذي نراه أن القرآن الكريم واضح كل الوضوح.

ما روي عن السيدة عائشة رضي الله عنها:

أخرج البخاري في صحيحه، أن عائشة - رضي الله عنها - كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا إذا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: من «حوسب عذّب»، قالت

(١) الإتيان (٣/ ٨١).

عائشة: فقلت: أو ليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَبِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨] قالت: فقال: «إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك»^(١).

وأخرج الترمذي عنها، قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم، ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]»^(٢).

وجاء عن عروة بن الزبير أنه قال: سألت عائشة - رضي الله عنها - فقلت لها: أرايت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفاء والمروة، قالت: بشئ ما قلت يا ابن أخي، إن هذه لو كانت كما أولتها عليه، كانت لا جناح عليه أن يطوف بهما، ولكنها أنزل في الأنصار، كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها بالمشلل^(٣)، فكان من أهل يتخرج أن يطوف بين الصفا والمروة، فلما اسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، قالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتخرج أن نطوف بين الصفا والمروة فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] الآية، قالت عائشة رضي الله عنها، «وقد سن رسول الله ﷺ الطواف بينهما فليس لأخذ أن يترك الطواف بينهما»^(٤).

ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما،

أخرج البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، قال: ﴿فَلَا أَفْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَلَا يَكْنُتُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فقد كنتموا في هذه الآية، وقال: ﴿أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ إلى قوله ﴿دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٣٠]. فذكر خلق

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه، رقم الحديث (١٠٣).

(٢) أخرجه الترمذي في الجامع برقم (٣١٧٥) وهو في مسند أحمد برقم (٢٥٧٤٦).

(٣) المشلل: جبل يهبط منه إلى قديد، وقديد: اسم موضع قرب مكة المكرمة.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب وجوب الصفا والمروة، حديث رقم ١٦٤٣.

السَّاءِ قَبْلَ خَلْقِ الْأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إِلَى طَائِعِينَ ﴿[فصلت: ٩-١١] فذكر في هذه خلق الأرض قبل السماء، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦] ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٨] فكأنه كان ثم مضى.

وزاد الحاكم في المستدرک: قال ابن عباس: أما قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فإنهم لما رأوا يوم القيامة، وأن الله يغفر لأهل الإسلام، ويغفر الذنوب ولا يغفر شركاً، ولا يتعاضمه ذنب أن يغفره، حمده المشركون رجاء أن يغفر لهم، فقالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فعند ذلك يؤذ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً.

وأما قوله: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] فإنه إذا نفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

وأما قوله ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] فإن الأرض خلقت قبل السماء، وكانت السماء دخاناً، فسواهن سبع سموات في يومين بعد خلق الأرض.

وأما قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] يقول: جعل فيها جبلاً، وجعل فيها نهراً، وجعل فيها شجراً، وجعل فيه بحوراً.

وأما قوله: ﴿كَانَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣] فإن الله كان ولم يزل كذلك، وهو كذلك عزيز حكيم عليم قدير لم يزل كذلك.

فما اختلف عليك من القرآن فهو يشبه ما ذكرت لك، وأن الله لم ينزل شيئاً إلا وقد أصاب الذي أراد، ولكن أكثر الناس لا يعملون^(١).

(١) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب التفسير، باب تفسير سورة حم السجدة فصلت رقم الباب ٣٠١. وأخرجه الحاكم في المستدرک (٢/٤٢٨)، وقال هذا حديث صحيح ووافقه الذهبي.

وروي أن رجلاً سأل ابن عباس عن ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] وقوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه، الله أعلم بهما^(١).

وروي عنه أن يوم الألف هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه، ويوم الألف في سورة الحج، هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض، ويوم الخمسين ألفاً هو يوم القيامة، فأخرج ابن أبي حاتم من طريق سبأ عن عكرمة عن ابن عباس: أن رجلاً قال له: حدثني ما هؤلاء الآيات ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥]، ﴿وَإِلَيْكَ يَوْمَئِذٍ كَالْفَسْحَةِ مِمَّا تَعْدُونَ﴾ [الحج: ٤٧] فقال: يوم القيامة خمسين ألف سنة وخلق السماوات والأرض في ستة أيام كل يوم يكون ألف سنة و﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] قال: ذلك مقدار المسير^(٢). قال السيوطي «وذهب بعضهم إلى أن المراد بهما يوم القيامة، وأنه باعتبار حال المؤمن والكافر بدليل قوله ﴿يَوْمَ غَيْرٌ ① عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩-١٠]»^(٣).

وقد نميل إلى تأييد الرواية الثانية، لأن آية المعارج ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ الظاهر أنه يوم القيامة بدليل السياق والسباق ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ① لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ② يَرْىَ اللَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ ③ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ④ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَبِيلًا ⑤ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ⑥ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ⑦ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ⑧ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ⑨ وَلَا يَنْتَلِ حِمِيمٌ حَمِيمًا ⑩ يُصْرَوْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ [المعارج: ١-١١].

(١) ذكره الطبري في جامع البيان (٢٢٨/١٢) (٣٤٨٦٨).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤١٦/٦) وعزاه لابن مردويه.

(٣) الإتيان (٩٠/٣).

فهذه الآيات الكرييات ترجح، بل تؤكد أنه يوم القيامة، أما آيتا سورة الحج وسورة السجدة، فليس فيهما هذا التصريح، ويظهر أنهما من أيام ربنا في هذه الدنيا.

وقد عرض السيوطي لهذا الموضوع، وذكر الآيات التي توهم التعارض في كتابه (الإتقان)، وسنمر إن شاء الله على ما ذكره السيوطي، نناقشه مناقشة تامة.

قال السيوطي رحمه الله^(١): «قال الزركشي في البرهان للاختلاف أسباب:

أحدها: وقوع المخبر به على أحوال مختلفة وتطويرات شتى كقوله في خلق آدم مرة ﴿وَمِنْ تَرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] ومرة ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] ومرة ﴿مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] ومرة ﴿وَمِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]، فهذه ألفاظ مختلفة ومعانيها في أحوال مختلفة؛ لأن الصلصال غير الحمأ، والحمأ غير التراب، إلا أن مرجعها كلها إلى جوهر، وهو التراب ومن التراب تدرجت هذه الأحوال».

ولا نظن أن هذا يعدّ من الموهم، فنحن نعلم نتيجة التدبر في كتاب الله تبارك وتعالى أن الآيات الكرييات التي تتحدث عن موضوع ما، يكمل بعضها بعضاً، ويظهر هذا جلياً في القصة القرآنية، والحديث عن يوم القيامة، كما يظهر جلياً في آيات الأحكام، فخلق الإنسان من تراب ومن طين، ومن حمأ مسنون، ومن صلصال كالْفَخَّارِ؛ نتيجتها أمر واحد، هو تراب، ثم خالطه الماء فصار طيناً وفي التنزيل ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥] والإنسان واحد منها، ثم هو من حمأ مسنون أي أسود متغير الرائحة، ثم إنه قد جفف فصار صلصالاً كالْفَخَّارِ، والفرق بين الصلصال والفخار، أن الفخار ما دخل النار فصار أكثر صلابة وأشدّ حالة، أما الصلصال فهو ما جففته الشمس، فسرعان ما يتفتت وتنتشر أجزاؤه وتلكم حكمه أرادها الله أن يخلق الإنسان من صلصال لتأتي الروح العنصر الرباني ليتماسك محافظاً على ما أراد الله له من خير، إن أراد ذلك لنفسه، فأين الإيهام.

(١) الإتقان (٣/ ٩٠-٩٦).

قال السيوطي: «وقوله ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾ [الشعراء: ٣٢] وفي موضع ﴿نَهْنَرُ كَأَنَّهُا جَانٌ﴾ [القصص: ٣١] والجان صغير الحيات، والثعبان الكبير منها؛ وذلك لأن خلقها خلق الثعبان العظيم واهتزازها وحركتها وخفتها كاهتزاز الجان وخفتها».

دُكِرَ لهذه العصا في كتاب الله أحوال ثلاثة:

أحد هذه الأحوال جاءت فيه أداة التشبيه، أما الحالان الآخران فليسا كذلك، ففي سورة طه ﴿فَالْقَنَاقِطُ إِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: ٢٠]، وفي سورتي النمل والقصص ﴿كَأَنَّهُا جَانٌ﴾ [النمل: ١٠ - القصص: ٣١] وفي سورة الشعراء ﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٠) قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتُ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٠-٣٢] فأية سورة طه أخرت عن العصا بأنها صارت حية تسعى، وسورتا النمل والقصص جاء فيها ﴿كَأَنَّهُا جَانٌ﴾، وقالوا إن الجان هنا الحية الصغيرة.

ونتساءل هناك كيف قال إنها حية في سورة طه، والحية تشمل الصغيرة والكبيرة؟ ثم شبهها بالحية في سورتي النمل والقصص؟ ذلك أمر يحتاج إلى تدبر وتفكير. فكيف يقال إنها حية، ثم يشبهها بالحية؟ ثم إن كلمة جان ذكرت كثيراً في كتاب الله ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥] ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]، ﴿لَوْ يَظَاهَرُكُمْ قَوْمٌ يَبْغُونَ قَتْلَكُمْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُخَنِّتُوكُمْ أُولَٰئِكَ لَشَرٌّ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٥٦] والجان لا يحتمل إلا تفسيراً واحداً، فلماذا فسر في آيتي النمل والقصص بأنه الحية الصغيرة؟

والذي يظهر لي - والله أعلم بما ينزل: أن الجان في هاتين الآيتين، لا يخرج عن المعنى الذي فُسر به في الآيات الأخر، فتكون العصا حية ولكنها في خفتها وسرعة حركتها تشبه بالجان.

بقي قوله سبحانه ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧] وهذا الوضع لهذه العصا، لم يذكر بهذا الوصف إلا في حال واحدة، كما بينت الآيات الكريمة حينما أراد سيدنا موسى ﷺ أن يري فرعون ما أكرمه الله به من معجزات، وهذا فيه ما فيه من الحكمة الربانية لإرهاب فرعون حتى لا يتماهى في غيه وإلحاده.

إذن لا إيهام أبداً في هذه الآيات الكريمة.

قال السيوطي: «الثاني: لاختلاف الموضوع، كقوله ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] وقوله ﴿قُلْنَا نَبَأَكُمُ الَّذِينَ أَزْجَلْنَا إِلَيْهِمْ وَلَكُنْتُمْ عَلَيْكُمْ أَعْمَىٰ﴾ [الأعراف: ٦] مع قوله: ﴿فَبِمَا نَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ إِنِشَاءً وَلَا جُنَاحَ﴾ [الرحمن: ٣٩].

قال الحلبي: فتحمل الآية الأولى على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل، الثانية على ما يستلزمه الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه.

وحمله غيره على اختلاف الأماكن؛ لأن في القيامة مواقف كثيرة، ففي موضع يُسألون، وفي آخر لا يسألون.

وقيل: إن التساؤل المثبت سؤال تبكيك وتوبيخ، والمنفي سؤال المعذرة وبيان الحجة.

والذي يظهر أننا لسنا مع القول الأول وهو قول الحلبي، ولا مع القول الثالث، وإنما الذي نرجحه هو القول الوسط، لأن المواقف يوم القيامة، هذا اليوم الشديد الطويل الذي نسأل الله أن يكرمنا فيه بالنجاة، تختلف فيه الأمور من وقت إلى وقت فلا إيهام في هذه الآيات الكريات.

قال: «وكقوله ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] مع قوله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] حل الشيخ أبو الحسن الشاذلي الآية الأولى على التوحيد بدليل قوله بعدها ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] والثانية على الأعمال، وقيل بل الثانية ناسخة للأولى».

ونحن على يقين أن لا نسخ في هاتين الآيتين الكريمتين وإنما هما يدوران على شيء واحد أن الله لا يكلف الإنسان فوق استطاعته، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، لكن كل آية جاءت ألفاظها الكريمة، يتناسب مع السياق الذي جاءت فيه، فآية آل عمران ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ جاءت في حث المسلمين على أن لا تفتتهم يهود، وذلك في الحادثة المعلومة حينها وجد شاس بن قيس وهو يهودي حاقد وقد وجد

المسلمين من أوس وخزرج قد تألفت قلوبهم، وشاع بينهم الأمن والمحبة، فأرسل إليهم من يذكرهم بما كان بينهم من حروب، ونزغ الشيطان بينهم فاجتمع عليهم شياطين الإنس وشياطين الجن، وجاءهم الرسول ﷺ وقال: «أبدعوى الجاهلية تدعون وأنا بين أظهركم دعوها فإنها فتنة» فبكى القوم، وهنا جاءت هذه الآية تقول: ﴿انْفِقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِلِهِ وَلَا تَمُونَنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] (١).

أما آية التغابن فقد جاءت في سياق الحديث عن أمور خاصة في شأن الأزواج والأولاد والأموال، وهي قضايا فطرية عاطفية ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَأَنْفِقُوا لِلَّهِ مَا أَسْطَغَعْتُمْ وَاسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٤-١٦].

فلا إيهام ولا إشكال والحمد لله.

قال السيوطي: «وكقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ٣]، مع قوله ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ الْإِنْسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩] فالأولى تفهم إمكان العدل والثانية تنفيه. والجواب: أن الأولى في توفية الحقوق، الثانية: في الميل القلبي، وليس في قدرة الإنسان». وإذن فلا إيهام؛ لأن الثانية جاءت على غير ما تحدثت عنها الآية الأولى، وهذا ما بيّنته السّنة المطهرة «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» (٢).

(١) أورده ابن جرير الطبري في التفسير (٥٦/٦) من غير ذكره لهذه الآية، وذكره ابن حجر في العجائب (٧٢١/٢) وما بعدها وسكت عنه ولم يذكر فيه هذه الآيات.

(٢) رواه أبو داود في السنن برقم (٢١٣٤)، والحاكم في المستدرک برقم (٢٧٦٢)، وصححه وقال الذهبي هو على شرط مسلم.

قال: «وكقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] مع قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتَرَفِّعِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] فالأولى في الأمر الشرعي، والثانية في الأمر الكوني، بمعنى القضاء والتقدير».

الحق في هاتين الآيتين أنها تردان على أمرين مختلفين، تكمل إحداهما الأخرى، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] رد على ما قالوه كما جاء في الآية ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨-٢٩].

أما آية الإسراء: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتَرَفِّعِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، فالمراد بالأمر الأمر بالطاعة والعدل والإحسان فلا إيهام أبته.

قال: «الثالث: لاختلافهما في جهتي الفعل كقوله ﴿قَلَمَ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأفال: ١٧] أضيف القتل إليهم، والرمي إليه ﷺ على جهة الكسب والمباشرة ونفاه عنه وعنهم باعتبار التأثير».

هذه الآية الكريمة بعيدة كل البعد عن الإيهام؛ لأنها تبين أن الفعل في مبدئه هو الله تبارك وتعالى، أما ما للإنسان فهو هذه الصورة وهذا مثل قوله تعالى: ﴿قَتَلُوهُمْ﴾ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤].

قال: «الرابع: لاختلافهما في الحقيقة والمجاز، كقوله: ﴿وَنَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ﴾ [الحج: ٢] أي: سكارى من الأهوال مجازاً، لا من الشراب حقيقة».

ولا أدري من أين جاء الإيهام في هذه الآية الكريم، فهم كأنهم سكارى من شدة الهول ولكن ليسوا كذلك، فليس هناك ما يسكر مما اعتاد عليه الناس في الدنيا.

قال: «الخامس: بوجهين واعتبارين، كقوله: ﴿فَبَصُرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] مع قوله: ﴿خَشِيعَتِكَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥] قال فطرب: (فبصرك) أي

علمك ومعرفتك بها قوية من قولهم بَصُرَ بكذا، أي: علم وليس المراد رؤية العين، قال الفارسي: ويدل على ذلك قوله ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ [ق: ٢٢].

ولست مع قطرب - رحمه الله - فيما ذهب إليه، ولكنها أحوال متعددة مختلفة في هذا اليوم. قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]، وقال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] أي ما أسمعهم وما أبصرهم فيها صيغتنا تعجب كما يقول النحويون فعل ماضي جاء على صيغة الأمر، ولا داعي لتأويل البصر بشيء آخر.

قال: «وكقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨] مع قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] فقد يُظن أن الوجل خلال الطمأنينة. وجوابه: أن الطمأنينة تكون بانسراح الصدر بمعرفة التوحيد، والوجل يكون عند خوف الزيف والذهاب عن الهدى فتوجل القلوب لذلك، وقد جمع بينهما في قوله ﴿نَفْسَعِرْ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

لا إيهام إذن؛ لأن هذه أحوال نفسية يعرفها المؤمنون من أنفسهم، بدليل الآية الكريمة ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] فانظر كيف جيء بـ (ثم) التي هي للتراخي وقد يكون تراخياً رتبياً أو زمنياً أو هما معاً.

قال السيوطي: «وما استشكلوه قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥] فإنه يدل على حصر المانع من الإيمان في أحد هذين الشئتين، وقال في آية أخرى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] فهذا حصر آخر في غيرهما.

وأجاب ابن عبدالسلام، بأن معنى الآية الأولى: ﴿أَوْيَأْلِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥] في الآخرة: فأخبر أنه أراد أن يصيبهم أحد الأمرين؛ ولا شك أن إرادة الله مانعة من وقوع ما يتنافى المراد، فهذا حصر في السبب الحقيقي، لأن الله هو المانع في الحقيقة.

ومعنى الآية الثانية ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ [الإسراء: ٩٤] إلا استغراب بعثه بشراً رسولاً؛ لأن قولهم ليس مانعاً من الإيمان؛ لأنه لا يصلح لذلك وهو يدل على الاستغراب بالالتزام، وهو المناسب للمناعية، واستغرابهم ليس مانعاً حقيقياً بل عادياً، لجواز وجود الإيمان معه، بخلاف إرادة الله تعالى، فهذا حصر في المانع العادي، والأول حصر في المانع الحقيقي فلا تنافي^(١).

ولا إيهام في هاتين الآيتين، إذ تحدثت كل آية عن سبب من الأسباب التي من أجلها لم يؤمن أولئك الناس، وقد نجد في القرآن الكريم كثيراً مما يشبه هاتين الآيتين.

قال السيوطي: «وما استشكل أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١] ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ [الزمر: ٣٢] مع قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلَنِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ [البقرة: ١١٤] إلى غير ذلك من الآيات».

ووجهه: أن المراد بالاستفهام هنا النفي، والمعنى لا أحد أظلم، فيكون خبراً وإذا كان خبراً وأخذت الآيات على ظواهرها أدى إلى التناقض وأجيب بأوجه:

منها: تخصيص كل موضع بمعنى صلته، أي: لا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله ولا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذباً، وكذا باقيها وإذا تخصصت بالصلاات زال التناقض.

(١) الإقناع، ص ٩٣، ٩٤.

ومنها: أن التخصيص بالنسبة إلى السبق: لما لم يسبق أحد إلى مثله حكم عليهم بأنهم أظلم ممن جاء بعدهم سالكاً طريقهم، وهذا يؤول معناه إلى ما قبله؛ لأن المراد السبق إلى الممانعة والافتراضية.

ومنها - وادعى أبو حيان أنه الصواب -: أن نفي الأظلمية لا يستدعي نفي الظالمية؛ لأن نفي المقيد لا يدل على نفي المطلق، وإذا لم يدل على نفي الظالمية لم يلزم التناقض؛ لأن فيها إثبات التسوية في الأظلمية، وإذا ثبتت التسوية فيها، لم يكن أحد ممن وصف بذلك يزيد على الآخر؛ لأنهم يتساوون في الظلمة، وصار المعنى: لا أحد أظلم ممن افترى ومن منع ونحوها، ولا إشكال في تساوي هؤلاء في الأظلمية، ولا يدل على أن أحد هؤلاء أظلم من الآخر، كما إذا قلت لا أحد أفقه منهم. اهـ. وحاصل الجواب أن نفي التفضيل لا يلزم منه نفي المساواة.

وقال بعض المتأخرين: «هذا استفهام مقصود به التهويل والتفطيع من غير قصد إثبات الأظلمية للمذكور حقيقة ولا نفيها عن غيره»^(١).

«وقال الخطابي: ابن أبي هريرة يحكي عن أبي العباس بن سريج، قال: سألت رجلاً بعض العلماء عن قوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البعد: ١] فأخبر أنه لا يقسم به، ثم أقسم به في قوله: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣] فقال: أيما أحب إليك؟ أجيبك ثم أقطعك، أو أقطعك ثم أجيبك؟ فقال: بل أقطعني ثم اجبني. فقال: اعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله ﷺ بحضرة رجال، وبين ظهري قوم، وكانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمراً وعليه مطعناً، لو كان هذا عندهم مناقضة لتعلقوا به، وأسرعوا بالرد عليه، ولكن القوم علموا وجهلت، فلم ينكروا منه ما أنكرت، ثم قال: إن العرب قد تدخل (لا) في أثناء كلامها وتلغي معناها، وأنشد فيه أبياتاً»^(٢).

(١) الإتيان (٣/٩٦).

(٢) الإتيان (٣/٩٦).

وقد تحدثت عن أمثال هاتين الآيتين وأمثالهما في كتابي لطائف المنان في دعوى الزيادة في القرآن.

وللشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي كتاب في هذا الموضوع، ذكر فيه الآيات التي يظن أنها فيها إيهام أو اضطراب، ورد هذا القول بما يسره الله له، نوافقه على بعض ما ذكره ونخالفه في بعضه الآخر سمي كتابه هو «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» وسأكتفي ببعض الأمثلة من الكتاب.

١ - قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧] يقول إن هذه الآية تدل على أن القرآن منه ما هو محكم ومنه ما هو متشابه، أما قوله تعالى: ﴿الرَّكَتَبُ أَكْبَرُ مِنْهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] فتدل على أن القرآن كله محكم، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًى﴾ [الزمر: ٢٣] يدل أن القرآن كله متشابه، وهذا مما يوهم السامع.

ويرد الشيخ هذا الوهم بأن معنى كون القرآن كله محكم، أنه في غاية الإتقان والإحكام في ألفاظه ومعانيه وإعجازه. ومعنى كونه متشابهاً، أن آياته يشبه بعضها بعضاً في النظم والحسن والصدق والإعجاز والسلامة من العيوب.

أما آية آل عمران التي ذكرت أن بعضه محكم وبعضه متشابه؛ فالمحكم فيها ما كان واضح المعنى لكل الناس كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] والمتشابه: ما خفي معناه على غير الراسخين في العلم، فاحتاج منهم إلى تدبر أو ما استأثر الله بعلمه وقد فصلنا القول في فصل المحكم والمتشابه ورجحنا القول الأول.

٢ - قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧] يقول الشنقيطي إن الآية تدل على أن إبراهيم عليه السلام لم يكن مشركاً يوماً ما، وجاء في موضع آخر ما يوهم خلاف ذلك وهو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٦٨﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ

الشَّمْسَ بِازْغَةِ قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُغَوِّرُ إِلَهِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿[الأنعام: ٧٦-٧٨].

وأجاب الشيخ رحمه الله عنه: بأن إبراهيم عليه السلام كان مناظراً لا ناظراً ومقصوده التسليم الجليلي، أي هذا ربي على زعمكم، والمناظر قد يسلم المقدمة الباطلة تسليماً «جدلياً» ليفحم بذلك خصمه، ومما يدل على كونه مناظراً لا ناظراً قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّجْهُ قَوْمَهُ﴾ [الأنعام: ٨٠] وهذا الوجه هو الأظهر عنده.

والقول الثاني: أن الكلام على حذف همزة الاستفهام، أي أهذا ربي؟ وذكر أمثلة من اللغة على جواز حذف الهمزة إذا دلّ المقام عليها، فقريئة الاستفهام المحذوفة تدل على علو مقام إبراهيم عليه السلام عن ظن ربوبية غير الله، وشهادة القرآن له بالبراءة من ذلك.

والأظهر عندي القول الثاني وليس الأول كما يرى الشيخ الشنقيطي، فالكلام فيه إنكار على قوم إبراهيم عليه السلام، وتقدير الكلام «أهذا ربي؟..» «أهذا أكبر؟...» وإذن فلا إيهام في الآيات هنا.

٣- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمْ الْحَقَّ لَا لَهُ لُحُكْمٌ وَهُوَ أَشْرَعُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وفي سورة سيدنا محمد ﷺ قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

وسبب الإشكال أن آية (محمد) تنفي ولاية الله تعالى للكافرين أما آية (الأنعام) فهي تثبت هذه الولاية لهم ﴿مَوْلَهُمْ الْحَقَّ﴾.

وقد رد الشيخ الشنقيطي هذا الإشكال قال: «إن معنى كونه مولى الكافرين أنه مالکهم المتصرف فيهم بما شاء، ومعنى كونه مولى المؤمنين دون الكافرين أي ولاية المحبة والتوفيق والنصر».

وإذن لا إيهام في الآيتين فسورة النعام تتحدث عنهم يوم القيامة، حيث يرد الخلق جميعهم إلى الله تعالى مالکهم والمتصرف بشؤونهم، وآية سورة محمد تتحدث عن ولاية الله للمؤمنين في الدنيا، فهو سبحانه المتولي أمرهم وهو ناصرهم.

قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وقال ﴿وَجُودٌ يُؤْمِرُ نَاصِرَةٌ ۖ﴾ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿[القيامة: ٢٢-٢٣] وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ١٦].

٤- جاء في قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وجاء في قوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِرُ نَاصِرَةٌ ۖ﴾ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿[القيامة: ٢٢-٢٣]. وكذلك قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ١٦] حيث فسرت الزيادة بأنها النظر إلى وجه ربنا الكريم يوم القيامة وقوله تعالى: ﴿لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] حيث فسر المزيّد بما فسرت به الزيادة وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُورُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

سبب الإشكال ما يراه الشيخ: أن آية (الأنعام) توهم أن الله تعالى لا يرى بالأبصار مع مخالفة الآيات الباقية لذلك^(١) سواء أكان تصريحاً أو إيهاماً أو إشارة. والتصريح في قوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِرُ نَاصِرَةٌ ۖ﴾ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿والإشارة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ حيث أشار قوله تعالى ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ إلى النظر إلى وجه الله الكريم في الآخر، كما عليه أكثر المفسرين وأفاد مفهوم المخالفة من قوله تعالى بحق الكافرين ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُورُونَ﴾ أن أهل الإيثار بخلافهم لربهم ناظرين.

(١) دفع إيهام الاضطراب، ١٠٥ بتصرف.

ويرى الشيخ الشنقيطي رحمه الله: أن هذا الإشكال يزال بوجوه^(١):

الوجه الأول: تخصيص عدم الإدراك بالدنيا قال رحمه الله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ أي في الدنيا فلا ينافي الرؤية في الآخرة. وهذا ما رواه ابن أبي حاتم عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها أنها قال: من زعم أن محمداً أبصر ربه فقد كذب وفي رواية على الله فإن الله تعالى قال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾^(٢).

وهو تفسير مشوب بخطأ عقدي إذ أننا إذا قلنا إن الحق تعالى يدرك بالأبصار يوم القيامة فمعنى ذلك إحاطة بصر المخلوق بذات الحق جل وعلا، والله سبحانه وتعالى حسب اعتقاد أهل السنة والجماعة هو الخالق الذي يحيط بالمخلوق، وأنى للمخلوق أن يحيط بالخالق جل وعلا.

الوجه الثاني: إن الإدراك بالبصر عام مخصوص برؤية المؤمنين لربهم في الآخرة، فهو ينفي رؤيتهم لربهم في الدنيا والآخرة جميعاً، وهذا الرأي قالته المعتزلة استناداً لقوله تعالى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ لَنْ تَرَنِي ﴿[الأعراف: ١٤٣]^(٣) ورأوا أن حرف لن هنا لنفي التأييد، وهذا مردود أيضاً؛ لأنه يتنافى مع الأحاديث الصحيحة الواجبة بحق رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة.

أما الوجه الثالث: فهو الحق وهو الذي تبناه الشيخ الشنقيطي رحمه الله، وتبيناه، ومردّه إلى معتقد أهل السنة والجماعة والذين تبين لهم أن المعنى في هذا الإدراك هو المشعر بالإحاطة إذ أنى للمخلوق أن يحيط بالخالق وليس النفي لمطلق الرؤية وقد ثبت بالدليل الصحيح القاطع ما يجيز ذلك ومنه ما رواه الإمام مسلم وابن خزيمة مرفوعاً عنه ﷺ قوله: «إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا»^(٤).

(١) دفع إيهام الاضطراب، ١٠٧ بتصرف.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢١٦).

(٣) ابن كثير (٢/ ٣٢٥).

(٤) ابن ماجه (٢/ ١٣٦٠).

وجاء في كتاب المعرفة في بيان عقيدة المسلم لعبدالكريم الرفاعي في بحث الجائزات^(١) ما نصه: «رؤية الله تعالى له في الدار الآخرة جائزة عقلاً، واجبة شرعاً، لورود الأدلة القطعية بها بكفوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٤﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣]».

وقوله تعالى حكاية عن سيدنا موسى ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِني أَنْظُرَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وقال: «ويستحيل أن يكون سيدنا موسى ﷺ الذي قال هذا القول أن يكون جاهلاً بأحكام الألوهية بل سأل ربه أمراً ممكناً، ولكن علق رؤيته سبحانه على شيء ممكن وهو استقرار الجبل والمعلق على الممكن ممكن فقال له: ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَوْنِي﴾»^(٢).

ومن هنا يتبين الحق من خلال الجمع بين الآيات، وهكذا يزول الإيهام والإشكال.

٥- قوله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَدْرَكْتُكَ لِيَعْضُ شَايِنَهُمْ فَأَذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [نور: ٦٢] ذكر المصنف رحمه الله بأن الآية تدل على أنه ﷺ له الإذن لمن شاء وقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ .. الآية [التوبة: ٤٣] يوهم خلاف ذلك، وأجاب رحمه الله: إنه ﷺ له الإذن لمن شاء من أصحابه الذين كانوا معه على أمر جامع كصلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو اجتماع في مشورة إلى غير ذلك، أما الأذن في خصوص التخلف عن الجهاد فهو الذي بين الله لرسوله أن الأولى فيه ألا يبادر بالإذن حتى يتبين له الصادق في عذره من الكاذب، فظهر أن لا منافاة بين الآيات.

٦- جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ عَلٰى ذٰلِكَ لَكَافِرُونَ﴾ [النعام: ١٥١].

(١) المعرفة في بيان عقيدة المسلم، عبدالكريم الرفاعي، ط ٣، بحث الجائزات، ص ٤٣.

(٢) المعرفة في بيان عقيدة المسلم، عبدالكريم الرفاعي، ط ٣، بحث الجائزات، ص ٤٣.

سبب الإشكال كما يراه الشيخ محمد أمين الشنقيطي أن الآية تدل على أن هذا الذي يتلوه الرسول ﷺ حرمه ربهم عليهم فيوهم أن معنى قوله ﴿أَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنُوا﴾ أن الإحسان بالوالدين وعدم الشرك حرام^(١).

والجواب عن هذا الإشكال من عدة وجوه ذكرها العلماء. نأخذ منها قوله: إن الكلام تم عند قوله حرم ربكم، وأن قوله عليكم ألا تشركوا: اسم فعل يتعلق بما بعده على أنه معموله^(٢) وهو وجه حسن، يقطع الإشكال الوارد في الآية.

ومنها أن قوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ جاء مضمناً معنى التوصية، أي ما وصاكم ربكم به، ومعلوم أن التوصية بالترك والفعل فقد ذكر ما ينبغي أن يكون عليه الترك ثم ضمن الفعل والأمر عند ختام الآية. فيكون المعنى: وصاكم ألا تشركوا وهو حرام ووصاكم بالوالدين إحساناً.

والذي يقف مؤيداً لها الاتجاه، أن الله تعالى لم يقل عن التحريم وحده بمجرد القول: قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم أن تشركوا به شيئاً، بل قال ألا تشركوا به شيئاً، مضمناً معنى التوصية التي ذهبوا إليها. وأما ما فسرهُ البعض بأن (ألا) هنا في الآية بمعنى (لئلا) فأراه بعيداً والله أعلم، لأنه لو كان التناوب هنا جائز في حروف الجر لأفاد الأمر معنى العلة وإن التحريم إنما جاء لأجل عدم الشرك والأصل أن تكون العلة مرتبطة بالنتيجة لا بالسبب، والله تعالى أعلم.

٧- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

مع قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا

(١) دفع إيهام الاضطراب، ١١٢.

(٢) دفع إيهام الاضطراب، ١٠٧ بتصرف.

ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَجَّ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبَتُّعُونَ
عَرَضَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَعَانِدُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَكَ اللَّهُ
عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿[النساء: ٩٤].

جاء الشيخ بهذه الآيات ليدفع ما قد يتوهمه البعض من تعارض ما جاء في الآية
الأولى من أن الخارج عن طاعة الله لا يهديه الله، بينما جاء في الآيتين الأخريين خلاف
ذلك.

وأجاب عن ذلك - رحمه الله - بقوله:

أن الآية من العام المخصوص؛ فهي في خصوص الأشقياء الذين أزاغ الله قلوبهم
عن الهدى لشقاوتهم الأزلية.

وقيل إن المعنى: لا يهديهم ما داموا على فسقهم فإن تابوا منه هداهم.

٨- قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ
لَمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

هذه الآية تدل على تعدد الأنهار مع تعدد أنواعها.

وقد جاءت آية أخرى يوهم ظاهرها أنه نهر واحد، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ
فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤].

والجواب: أنه لا خلاف بين أهل اللسان العربي في وقوع إطلاق المفرد وإرادة
الجمع، وهو كثير في كلام الله تعالى، كقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥] وقوله:
﴿أُولَئِكَ يُجْرَبُونَ الْعُرْفَةَ﴾ [الفرقان: ٧٥].

٩- قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ ﴿١﴾ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ١-٢].

قال الشيخ: لا يخفى ما يسبق إلى الذهن من تنافي هذه العلة ومعلولها، لأن فتح الله
لنبيه لا يظهر كونه علة لغفرانه له.

والجواب هنا من وجهين:

الوجه الأول: اختيار ابن جرير أن المعنى أن فتح الله يلزم منه شكر النبي ﷺ والغفران من مرتب على شكر النبي ﷺ .

الوجه الثاني: إن قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ يفهم منه بدلالة الالتزام الجهاد في سبيل الله؛ لأنه السبب الأعظم في الفتح، والجهاد سبب لغفران الذنوب. فلا يوجد إيهام في هذه الآية.

الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ وَالْعَشْرُونَ

رَفَعَ

ترجمة القرآن

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

من المفيد أن نعرف معنى هاتين الكلمتين، وقد عرفت من قبل معنى القرآن أما الترجمة، فقد جاء في الصحاح: «يقال: قد ترجم كلامه إذا فسرهُ بلسان آخر، ومنه الترجمات والجمع تراجم». وجاء في المصباح المنير: «ترجم فلان كلامه إذا بينه وأوضحه، وترجم كلام غيره إذ عبر عنه بلغة غير لغة المتكلم، واسم الفاعل ترجمان، فيه لغات أجودها فتح التاء وضم الجيم، والثانية ضمهما معاً بجعل التاء تابعة للجيم، والثالثة فتحهما معاً بجعل الجيم تابعة للتاء والجمع تراجم»^(١).

وحديثنا عن الترجمة يشمل ما يلي:

- ١- أقسام الترجمة.
- ٢- إشكالات الترجمة.
- ٣- ترجمة القرآن الكريم وآراء العلماء فيها.
- ٤- القول المختار.

أقسامها،

تنقسم الترجمة قسمين اثنين:

- ١- الترجمة الحرفية: هي نقل نص من لغة إلى لغة أخرى بكل خصائصها الأسلوبية، ومقوماتها اللغوية، وما فيها من مزايا النظم.
- ٢- الترجمة التفسيرية: وهي نقل المعنى العام لنص ما من لغة إلى أخرى.

(١) مختار الصحاح، (ترج)، (١/٤٣).

إشكالاتها:

إن أهم إشكالات الترجمة تنحصر وتتصل باللغة أولاً وبثقافة المترجم ثانياً، أما ما يتصل باللغة فإن اللغات ليست سواء من حيث الأفراد والتركيب، ومن حيث الأسلوب والنظم، فهناك لغة يقدم فيها الموصوف على الصفة، وأخرى تقدم فيها الصفة على الموصوف، وهناك لغة ثرية بمفرداتها، تظهر فيها الدقة والإحكام، وأخرى ليست كذلك، لذا فإن الترجمة الحرفية أمر غير ميسور؛ نقل عن العالم المسلم البيروني - رحمه الله - صاحبُ كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة» قوله: «إن الترجمة خيانة»؛ ذلك لأنه يستحيل علينا أن ننقل خصائص لغة إلى لغة أخرى.

ولقد ذكر ابن سنان الخفاجي - رحمه الله - «وقد خبرني أبو داود المطران - وهو عارف باللغتين العربية والسريانية - أنه إذا نقل الألفاظ الحسنة إلى السرياني، قبحت وخست، وإذا نقل الكلام المختار من السرياني إلى العربي ازداد طلاوة وحسناً. وهذا الذي ذكر صحيح، يخبر به أهل كل لغة عن لغتهم مع العربية.

وقد حكى أن بعض ملوك الروم - وأظنه نقفور - سأل عن شعر المتنبي فأنشد له: كأن العيس كانت فوق جفني مناخات فلما ثرن سالاً
فسر معناه بالرومية، فلم يعجبه، وقال كلاماً معناه: ما أكذب هذا الرجل كيف يمكن أن يناخ جمل فوق عين إنسان.

وما أحسب أن العلة فيما ذكرته عن النقل إلى اللغة العربية ومنها، وتباين ذلك، إلا لأن لغتنا فيها من الاستعارات والألفاظ الحسنة الموضوعية ما ليس مثله في غيرها من اللغات، فإذا نقلت لم يجد الناقل ما يتوصل به إلى نقل تلك الألفاظ المستعارة بعينها وعلى هيئتها، لتعذر مثلها في اللغة التي تنقل إليها.

والمعاني لا تتغير، فنقلها ممكن من غير تبديل، فكان ما ينتقل من اللغة العربية يتغير حسنه لهذه العلة، وما ينقل إليها يمكن الزيادة على طلاوته؛ لأن ناقله يجد ما يعبر به في العربية أفضل مما يريد، وأبلغ مما يحاول^(١).

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص ٤٥.

وأما شخصية المترجم، فإنها ذات شأن كذلك في دقة الترجمة، ذلك أن الناس يختلفون من حيث ثقافتهم، ومن حيث عواطفهم وأفكارهم كذلك، فقد نجد ترجمات متعددة لنص واحد يكثر بينها الاختلاف، وهذا الاختلاف بالطبع ليس ناشئاً عن النص المترجم.

وكما أن من الصعوبة أن يحيط إنسان بثقافات متعددة، فإن من الصعوبة كذلك أن يتخلص عند الترجمة من بيئته الاجتماعية، وأفكاره التي نشأ عليها، وعقائده الموروثة، وعواطفه وأحاسيسه، ومشاعره ووجداناته.

وإذا رجعنا إلى ما نقلناه عن ابن سنان، فإننا نستنتج منه أن الترجمة الحرفية عسيرة إن لم تكن مستحيلة، أما الترجمة التفسيرية، أعني ترجمة المعنى، فإنها ميسورة، لا نجد فيها هذه الإشكالات.

وقد آن لنا أن نتحدث عن ترجمة القرآن الكريم.

ترجمة القرآن الكريم:

والقرآن كتاب الله الذي أنزله على قلب نبيه ﷺ، وهو المعجزة الخالدة الباقية على مدى الدهر، وقد تحدى الخلق أن يأتوا بسورة مثله، ولكنهم عجزوا ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴿[البقرة: ٢٣-٢٤].

وهذا القرآن الذي تحدي به، ومجموع الألفاظ والمعاني، والإفراد والتراكيب، وإذا كانت الترجمة الحرفية لأي كلام تعسر أو تستحيل، فإن ذلك أظهر في كتاب الله تبارك وتعالى، فالمفردات القرآنية مفردات دقيقة يُظنُّ لأول وهلة أن كثيراً منها من قبيل المترادف، ولكن إذا أنعم المتأمل فيها النظر، يجد أن لكل لفظة معناها الخاص بها، فالفعل والعمل يُظنُّ أنهما مترادفان، كذلك الخوف والخشية، والوجل والإشفاق، ومثل هذه القيام والوقوف، والقعود والجلوس، والشك والريب، والضلال والإحباط، والحمد والشكر، وغير ذلك كثير.

وإن من الصعوبة القصوى أن تترجم هذه الألفاظ بدقتها وإحكامها إلى غير العربية من اللغات، وأن يكون لها مدلولها الخاص بها.

وإذا كان كذلك في الألفاظ المفردة، فإنه في التراكيب أكثر صعوبة وعسرة؛ ذلكم أن أسلوب القرآن أسلوبٌ بديع، متناه في البلاغة، ويظهر هذا مما فيه من تقديم وتأخير، وحذف وذكر، وفصل ووصل، وتعريف وتنكير، فقولنا: «الحمد لله» يختلف فيه المعنى كثيراً عن قولنا: «الله الحمد» وكلاهما في كتاب الله، وقوله سبحانه: «الله الأمر» يختلف عن قوله سبحانه من حيث المعنى الدقيق «والأمر يومئذ لله»، كذلك قوله سبحانه: «والله خير بما تعملون» يختلف من حيث المعنى الدقيق عن قوله: «والله بما تعملون خير»، وقوله: «أأنت فعلت هذا بألهتنا يا إبراهيم» يختلف من حيث المعنى الدقيق عن قولنا: «أفعلت هذا بألهتنا»، كذلك قوله سبحانه: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧] يختلف عن قوله: ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُفْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠]، كذلك قوله: «قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون» يختلف عن قوله: «لقوم يعلمون».

ثم إن في القرآن الكريم كذلك تعبيرات مجازية واستعارات بديعة، والكناية الموحية، وفيه اللفظ المشترك بين أكثر من معنى واحد؛ وفيه القصص الذي جاء بأساليب متعددة، وفيه التعابير الموجزة، وفيه الإيجاز الذي إذا أردنا أن نعبر عنه بالعربية احتاج ذلك إلى جهد.

هذه الأساليب القرآنية وغيرها لا يتصور أبداً أن تترجم إلى غير لغة القرآن، والعلماء مجمعون على أن أي ترجمة لأي جملة قرآنية لا يمكن أن تسمى قرآناً، حتى أولئك الذين نقل عنهم جواز القراءة في الصلاة بغير العربية، لا يدعون قرآنية هذه الترجمة، وهذا القول حكى عن أبي حنيفة - رحمه الله - وهو مخالف بذلك لجميع فقهاء الأمصار حتى لصاحبيه محمد وأبي يوسف، والرواية الصحيحة أنه - رحمه الله - رجع عن هذا القول^(١). علماء المسلمين مجمعون - إذن - على أن الترجمة لا تسمى قرآناً.

(١) انظر حاشية الطحاوي على مراقي الفلاح ص ١٥٠، وحاشية ابن عابدين (١/٤٨٨).

ذلكم أن القرآن الكريم يشتمل على المفردات والتراكيب، ومن أراد فهم القرآن والإفادة منه فلا بد له من العناية بهذين الجانبين.

فأما المفردات فمع ما فيها من دقة وإحكام ففيها كذلك ما هو مشترك يدل على أكثر من معنى، فكلمة (مسحر) في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] «إنما أنت من المسحورين» فسرها بعضهم بالمسحور وفسرها آخرون بذي الرئة الذي يأكل ويشرب.

وقد يتعين أحد المعنيين في آية دون الأخرى، وقد يستحيل على المترجم أن يعطي المعنى الدقيق لكل كلمة من كلمات القرآن بل سيخلط بين معاني الكلمات، فيفسر الرب بها يفسر فيه الشك، مع أن كلاً من الكلمتين وردت في سياق يختلف عن سياق الأخرى.

وأمر المفردات أسهل كثيراً من التراكيب، فللتراكيب القرآنية خصائص جاءت من دقة الوضع لهذه اللغة، وقد قرر العلماء أن للكلام معاني أولية، وهي تلك التي نجدها في المعجمات ومعاني ثانوية، وهي الناتجة من خصائص التراكيب اللغوية، وهذا ما أشار إليه الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز، وعبر عنه بالمعنى ومعنى المعنى.. وهذه المعاني الثانوية لا يمكن أن تترجم إلى لغة أخرى غير العربية..

وهذه بعض الأمثلة توضح ما قصدناه:

١- من حق المفعول به أن يؤخر، فإن قدم فلغرض بياني، قال تعالى: ﴿أَعْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠]، وقال: ﴿إِنَّا لَنَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، إن تقديم المفعول في الآيتين الكريمتين يدل على معاني ثانوية، أو على معنى المعنى، والترجمة لا يمكن أن يؤدي فيها الغرض البياني، الذي قدم من أجلها المفعول.

٢- قال تعالى: ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ صَيفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ① إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٥]. ذكرت كلمة (سلام) مرتين، منصوبة تارة حين كانت تحية من الملائكة، ومرفوعة وهي تحية إبراهيم عليه السلام، وهذا التباين إنما جاء لحكم بيانية لا يمكن أن تفي الترجمة بها.. لقد نصبت (سلام) الأولى بفعل محذوف «نسلم

سلاماً» فالجملة فعلية، ورفعت الثانية «عليكم سلام» فالجملة اسمية، والجملة الاسمية تدل على الثبوت والدوام وليست كذلك الفعلية، وهكذا رد الخليل عليه السلام على التحيّة بخير منها.

٣- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥] فكيف يمكن أن تترجم هذه الجملة الكريمة؟ إن الترجمة الحرفية تخل بالمعنى، فالمعنى الظاهر أن الشيطان يخوِّف أوليائه، فأوليائه يخافون منه، فالمقصود من الآية الكريمة «يخوفكم بأوليائه» بدليل ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

٤- قال تعالى: ﴿وَلَنَجْذِثَنَّهُمْ أَهْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوتِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٦] إن تنكير (حياة) جاء لهدف وحكمة، أي: يحرصون على حياة، أي حياة مهما بلغت من الذل والمهانة.. إن هذه المعاني الثانوية كلها في الآية الكريمة تستحيل ترجمتها، ولا يمكن أن تسمى هذه الترجمة قرآنيّاً، إذ القرآن عربي غير ذي عوج، وهذا ما فهمه ابن العربي من الآية الكريمة ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبِيَّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَبِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤].

وما قررناه لكم من عدم إمكان الترجمة الحرفية للقرآن الكريم، قد قرره كثير من العلماء من قبل.

أولاً: ما قاله ابن فارس:

يقول ابن فارس وهو من علماء الأمة وأئمة اللغة في كتابه الصحابي في فقه اللغة: وقد قال بعض علمائنا حين ذكر ما للعرب من الاستعارة والتشثيل والقلب، والتقديم والتأخير، وغيرها من سنن العرب في القرآن، فقال: ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية، وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله عز وجل بالعربية؛ لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب، ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله جل ثناؤه: ﴿وَلَمَّا تَخَافَتْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنذَرْتَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] لم تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ المؤدية عن المعنى

الذي أودعته حتى تبسط مجموعها، وتصل مقطوعها وتظهر مستورها فتقول: «إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد فخفت منهم خيانة ونقضاً فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطته لهم وأذنهم بالحرب - أي أعلمهم - لتكون أنت وهم في العلم بالنقض سواء، وكذلك قوله جل ثناؤه: ﴿ فَضَرَيْنَا عَلَىٰ ءَآذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف: ١١]»^(١)، أي: جعلنا على آذانهم حجاباً يمنعهم من سماع الأصوات، والمراد أنماهم نوماً لا تنبهم معه الأصوات.

ثانياً، الشاطبي؛

يقول الإمام أبو إسحاق الشاطبي في كتاب الموافقات: للغة العربية من حيث هي ألفاظ دالة على معانٍ - نظران:

أحدهما: من جهة كونها ألفاظاً وعبارات مطلقة، دالة على معانٍ مطلقة، وهي الدلالة الأصلية.

والثاني: من جهة كونها ألفاظاً وعبارات مقيدة، دالة على معانٍ خادمة، وهي الدلالة التابعة.

فالجهة الأولى هي التي يشترك فيها جميع الألسنة، وإليها تنتهي مقاصد المتكلمين، ولا تختص بأمة دون أخرى؛ فإنه إذا حصل في الوجود فعل لزيد مثلاً كالقيام، ثم أراد كل صاحب لسان الإخبار عن زيد بالقيام، تأتى له ما أراد من غير كلفة، ومن هذه الجهة يمكن في لسان العرب الإخبار عن أقوال الأولين ممن ليسوا من أهل اللغة العربية وحكاية كلامهم؛ ويتأتى في لسان العجم حكاية أقوال العرب والإخبار عنها، وهذا لا إشكال فيه.

وأما الجهة الثانية فهي التي يختص بها لسان العرب في تلك الحكاية وذلك الإخبار، فإن كل خبر يقتضي في هذه الجهة أموراً خادمة لذلك الإخبار، بحسب المخبر والمُخبر.

(١) الصاحبى في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، أبو الحسن أحمد بن فارس، ص ١٧.

عنه، ونفس الإخبار، في الحال والمساق، ونوع الأسلوب، من الإيضاح والإخفاء والإيجاز والإطناب وغير ذلك.

وذلك أنك تقول في ابتداء الإخبار: «قام زيد» إن لم تكن ثم عناية بالمخبر عنه، بل بالمخبر، فإن كانت العناية بالمخبر عنه قلت: «زيد قام» وفي جواب السؤال أو ما هو منزل تلك المترلة «إن زيدا قام» وفي جواب المنكر لقيامه «والله إن زيدا قام»، وفي إخبار من يتوقع قيامه أو الإخبار بقيامه «قام زيد» أو «زيد قد قام» وفي التنكيث على من ينكر «إنما قام زيد».

ثم يتنوع أيضاً بحسب تعظيمه أو تحقيره - أعني المخبر عنه - وبحسب الكناية عنه والتصریح به، وبحسب ما يقصد في مساق الأخبار، وما يعطيه مقتضى الحال إلى غير ذلك من الأمور التي لا يمكن حصرها، وجميع ذلك دائر حول الإخبار بالقيام عن زيد.

فمثل هذه التصرفات التي يختلف معنى الكلام الواحد بحسبها ليست هي المقصود الأصلي، ولكنها من مكملاته وتماماته، وبطول الباع في هذا النوع يحسن مساق الكلام إذا لم يكن فيه منكر، وبهذا النوع الثاني اختلفت العبارات وكثير من أقاصيص القرآن، لأنه يأتي مساق القصة في بعض السور على وجهه، وفي بعضها على وجه آخر، وفي ثالثة على وجه ثالث، وهكذا ما تقرر فيه من الإخبارات لا بحسب النوع الأول، إلا إذا سكنت عن بعض التفاصيل في بعض، ونص عليه في بعض، وذلك أيضاً لوجه اقتضاه الحال والوقت ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وإذا ثبت هذا فلا يمكن من اعتبار هذا الوجه الأخير أن يترجم كلاماً من الكلام العربي بكلام العجم على حال، فضلاً عن أن يترجم القرآن، وينقل إلى لسان غير عربي، إلا مع فرض استواء اللسانية في اعتباره عيناً، كما إذا استوى اللسانان في استعمال ما تقدم تمثيله ونحوه، فإذا ثبت ذلك في اللسان المنقول إليه مع لسان العرب، أمكن أن يترجم أحدهما إلى الآخر، وإثبات مثل هذا بوجه يبين عسر جداً، وربما أشار إلى شيء من ذلك أهل المنطق من القدماء، ومن حدا حذوهم من المتأخرين، ولكنه غير كافٍ ولا مغني في هذا المقام.

وقد نفى ابن قتيبة إمكان الترجمة في القرآن - يعني على هذا الوجه الثاني - فأما على الوجه الأول فهو ممكن، ومن جهته صح تفسير القرآن وبيان معناه للامة ومن ليس له فهم يقوى على تحصيل معانيه، وكان ذلك جائزاً باتفاق أهل الإسلام، فصار هذا الاتفاق حجة في صحة الترجمة على المعنى الأصلي^(١).

القول المختار:

وإذا تأملنا هذه الأقوال التي نقلناها عن أولئك الأئمة - رحمهم الله - فإنه يتبين لنا أنهم مجمعون على أن الترجمة الحرفية للقرآن أمر غير ممكن ولا متيسر، ولكنهم أشاروا إلى أن هناك نوعاً من الترجمة ممكن لا مانع منه ولا غبار عليه؛ ذلكم هو النوع الآخر من الترجمة الذي تحدثنا عنه من قبل، وهو ترجمة المعاني، وهو الذي يسمى ترجمة تفسيرية. ونحن ندرك بدهاءة أن هناك فرقاً كبيراً وبوناً شاسعاً بين القرآن والتفسير، فقد يكون التفسير مقبولاً متفقاً مع اللغة منسجماً مع السياق، لا يتناقض مع ما صح من المأثور عن سيدنا رسول الله ﷺ.

وقد يكون التفسير مجوجاً متكلفاً يأباه السياق، وترده اللغة، ولا يتفق مع المأثور، وإذا كان ذلك في التفسير أمراً لا ينكره أحد، فإن أمر الترجمة أخرى بالثبوت.

خلاصة القول: إن ترجمة القرآن إن أُريد بها الترجمة الحرفية فهي ممنوعة قطعاً، وعلى هذا الوجه يحمل كلام المانعين، وإن أُريد بها الترجمة التفسيرية، أي: ترجمة معاني القرآن الكريم فذلك أمر ممكن، بل هو مستحب ومرغب فيه، وعليه يحمل كلام من أجاز الترجمة من العلماء.

يقول الزمخشري - رحمه الله - عند قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤] قال: «أي: ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه فلا يكون لهم حجة على الله، ولا يقولوا: لم نفهم ما خطبنا به. كما قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا مَجْمُوعًا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [فصلت: ٤٤] فإن قلت: لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم، وإنما بعث إلى الناس

(١) الموافقات، للشاطبي (٢/٦٦).

جميعاً ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] بل إلى الثقلين، وهم على ألسنة مختلفة، فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة، وإن لم تكن لغيرهم حجة فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة أيضاً، قلت: لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة، لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل، فبقي أن ينزل بلسان واحد، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول ﷺ، لأنهم أقرب إليه، فإذا فهموا عنه وتبينوه، وتنوّل عنهم وانتشر، قامت التراجم ببيانه وتفهمه كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمة من أمم العجم، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة، والأقطار المتنازحة، والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد، واجتهادهم في تعليم لفظه وتعلم معانيه^(١).

ولا يظن بالزحشري - رحمه الله - وهو من أئمة البيان وفرسان البلاغة القرآنية، أنه يعني فيما قال الترجمة الحرفية للقرآن الكريم.

فوائد ترجمة القرآن الكريم:

إن ما تجده في هذا العصر من صراع بين الأفكار والمبادئ، ومن حملات ظالمة شعواء على هذا الدين بغير حق، يحاول فيها خصوم الإسلام وأعداؤه إلقاء الشبهات، وتشويه الوجه الناصع لهذا الدين، يحتم على المسلمين أن يبلغوا دعوة الله بأيسر الأساليب، وأفضل الطرق، وقد يتطلب هذا إيصال معاني القرآن الكريم وحقائقه إلى غير المسلمين، وبخاصة الذين لا يتكلمون العربية، وهذا الأمر يتحتم إذا عرفنا أن هناك ترجمات للقرآن الكريم، مليئة بالأخطاء والافتراءات والترهات والأكاذيب زورت فيها الحقائق، وكان ذلك أمراً متعمداً.

وهناك ترجمات قد تكون ناشئة عن جهل المترجم بمعرفة معاني القرآن، لجهله باللغة العربية وأسرارها وأساليبها.

يقول العلامة الشيخ محمد الخضر حسين، شيخ الأزهر الأسبق - رحمه الله - «والخلل الذي يشترك فيه الترجمات: الحرفية والمعنوية أن يكون اللفظ ذا معنيين أو معاني

(١) الكشف (٢/ ٥٣٩).

تحتملها الآية، فيضطر المترجم إلى أن يضع بدله من اللغة الأجنبية اللفظ الموضوع لما يختاره من المعنيين أو المعاني، حيث لا يجد لفظاً يشاكل اللفظ العربي في احتمال تلك المعاني المتعددة. ومثال هذا ما صنع ماكس هينج مترجم القرآن للسان الألماني، فإنه ترجم الإبل في قوله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧] باللفظ الموضوع في الألماني للسحاب، وهو أحد المعاني التي حملت عليها الآية، والجمهور يفسرون الإبل بالحيوان المعروف، وهو المتبادر، ولا داعي إلى صرف اللفظ عنه إلى ذلك المعنى المجازي وهو السحاب.

ومن الخلل الذي يدخل الترجمة الحرفية أن يستعمل القرآن اللفظ في معنى مجازي فيأتي المترجم بلفظ يرادف اللفظ العربي في معناه الحقيقي، وهذا ما صنع مارماديوك بكتهول مترجم القرآن إلى اللسان الإنجليزي في كثير من الآيات، وقد وقع من هذه الناحية في أخطاء لا تحصى، تجدونه مثلاً يترجم قوله: «فيدمغه» من آية ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء: ١٨] بمعناها الأصلي وهو (فيشج رأسه)، ويترجم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] بمدلولها الأصلي وهو جمع اليد إلى العنق وإطلاقها، والقارئ الإنجليزي لم يعتد أن يفهم من مثل شج الرأس معنى الغلب، ولا من جمع اليد إلى العنق وإطلاقها معنى البخل والإسراف.

ومن هذا القبيل أن يطلق القرآن لفظاً عاماً ويريد به خاصاً، كما أطلق الواقعة على يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١] فيأتي المترجم بما يرادف يوم القيامة، وكذلك فعل المترجم الألماني، إلا أنه كتب في أسفل الصحيفة منبهاً على أنه المراد يوم القيامة.

ومن هذا الباب أن يستعمل القرآن الكلمة ومعناها لا يظهر إلا بملاحظة بتعلق محذوف ويكون هذا المتعلق قريب المآخذ في النظم العربي دون لغة الترجمة كقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠-١١] فإن ترجمتها من غير ذكر متعلق بالسابقين الواردة أولاً وهو (في الدنيا) وتعلق السابقين الواردة ثانياً وهو (في الآخرة) لا تأتي للقارئ الألماني بفائدة^(١).

(١) بلاغة القرآن، محمد الخضر حسين، ص ١٧.

يقول السيد علوي بن السيد عباس المالكي: «ومن حقق النظر في آية الوصية وهي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ [البقرة: ١٨١] علم أنها تجر بذيلها على المتعرضين لترجمة القرآن جراً أولياً؛ لأن الوصية في المال دون الوصية في الدين وقوام أساسه المتين، وقد أوصانا الله بحفظ كتابه وصيانه من التغير والتبديل، وذم علماء الكتاب المحرفين فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧٨] فهذه الآية لا يبعد أن تسحب حكمها على لي الألسن بترجمة القرآن ترجمة حرفية، لأن ذلك مظنة لعبث الأيدي به والاستغناء عنه بغيره، وذريعة لتقلص ظلّه وانتهاك حرمة. فهي ضرب من التغير والتبديل فيما تولى الله ورسوله ﷺ حفظه وأمرنا بالمحافظة عليه، فلو وقع ذلك اشتغل الناس عنه وانكبوا على تراجمه..

على أن علماء تحليل اللغات اتفقوا على أن المقومات والعناصر التي في اللغة العربية أتم وأكمل من أي لغة أخرى، ذلك لأنها غنية بوفرة مفرداتها وتفوق أساليبها، وصلاحتها لكل ما يراد منها من دين ودنيا وأخلاق وأدب واجتماع، مع فصاحة في ألفاظه وتقنن في طرق تأدية المعنى الواحد؛ ولذا لم تتحمل أي لغة كانت من اللغات بلاغة القرآن المجيد إلا هذه اللغة الشريفة، فترجمة القرآن ترجمة حرفية لا تقع صحيحة وافية، ولا تكون على الأصل كافية، بل هي له عند التأمل منافية.

ولا يظن الجاهل أن الترجمة الحرفية ضرورية لتبليغ الدعوة الإسلامية؛ لأنها لو كانت كذلك لنص القرآن على طلبها، أو بينت بقية الأدلة الشرعية طلبها حتماً، أو قام بها العلماء في الصدر الأول حينما كان الإسلام غضاً طرياً، والدعوة إليه وإلى أحكامه نافذة في جميع الجهات، بل بلغ المسلمون من عصر النبوة إلى الآن، والإسلام ينمو ويتسع بدون حاجة إلى الترجمة المذكورة - الحرفية - كان المسلمون فيما سلف يقتحمون للسيادة كل وعمر، ويركبون لإظهار دين الله كل خطر، ويلبسون من برود البطولة والعدل وكرم الأخلاق ما يملأ عيون مخالفيهم مهابة وإكباراً، وكانت اللغة العربية تجر رداءها أينما رفعوا رايتهم، وتنتشر في كل واد وطئته أقدامهم، فلم يشعروا في دعوتهم إلى الإسلام

بالحاجة إلى نقل معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية، وربما كان عدم نقلها إلى غير العربية وهم في تلك العزة والسلطان من أسباب إقبال غير العرب على معرفة لسان العرب، حتى صارت أوطان أعجمية تفيض نطقاً بالعربية، ذلك الأمر الذي جعل اللغة العربية تتقلب في البلاد، والقرآن يدرس باللسان الذي نزل به في كل واد، قد سكنت منذ حين ريمه وتقطعت أسبابه، غشيت المسلمين فتن وناموا عن واجب الدعوة إلى سبيل ربهم، فخرسوا مظاهر عزهم، وفقدوا الوسائل التي كانت تسعد اللغة العربية فتنتقل بها ألسنة المخالفين، ويدخلون منها إلى الاطلاع على ما في القرآن من بلاغة وحكمة..

... أما الترجمة التفسيرية المعنوية لأحكامه فجائزة اتفاقاً بشرط الثبوت في النقل والتحري لأقوال الصحابة والتابعين وعلماء السنة، فيكون تفسيراً موجزاً صحيحاً كافياً على قدر المستطاع، ويعتبر بياناً لا قرآناً، وتبليغاً لأحكامه لا معجزاً وتبياناً، وينبغي أن يكون ذلك مقروناً ببيان حكم التشريع ومقاصده، حتى تتجلى للأعجمي محاسن الدين الحنيف، وأسرار الشرع المنيف، وبذلك تتم حاجته وتتمكن دعوته، فإذا عرف المحاسن سمت نفسه لتعلم لغة القرآن ليتعبد بتلاوته، هذا هو السبيل المشروع في الدعوى إلى الإسلام والصراط المستقيم لمن يبغى الوصول لدار السلام، وإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي سيدنا محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار^(١).

لذلك كله كان لا بد أن يهْب ذوو الغيرة على دين الله، وذوو المعرفة باللغات المختلفة أن يترجموا معاني القرآن ترجمة تظهر فيها عالمية هذا الدين، ويسر هذا الكتاب، وسماحة تشريعاته، وسهولة عقائده، ومواكبة حقائق هذا القرآن للتقدم العلمي، ومواخاتها بين الدين والعقل، تحقيقاً لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

(١) فيض الخير وخلاصة التقرير على نهج التيسير: شرح منظومة التفسير ص ٢٤-٢٦.

وبهذا وحده يبلغ المسلمون رسالة الله، حتى لا تلزمهم الحجة، ومن أجل أن يتحقق قول الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] فيكونوا ربانيين بما يعلمون الكتاب وبما يدرسون.

والله نسأل أن يوفق أئمة المسلمين وعلماءهم لذلك، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الْفَصْلُ الثَّانِي وَالْعِشْرُونَ

علم المناسبات

رَفَعُ

عبد الرحمن (الرحماني) القزويني
(أسكنه الله الفردوس)

معنى المناسبة :

النسب في اللغة القرابة، والمناسبة بمعنى المشكلة والمشابهة، يقال: بين هذين الشيئين مناسبة وتناسب، أي: مشابة وتشابه^(١).

يقول الزركشي: «اعلم أن المناسبة علم شريف، تحزر به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول. والمناسبة في اللغة المقاربة، وفلان يناسب فلاناً، أي: يقرب منه ويشاكله ومنه النسب الذي هو القريب المتصل كالأخوين وابن العم»^(٢).

وعلم المناسبة في الاصطلاح: علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه وهو سر البلاغة^(٣).

اختلف المفسرون في ذكرهم لهذه المناسبات بين الآيات القرآنية في السورة الواحدة، وبين السورة والسورة كذلك، فتجد بعضهم يذكر هذه المناسبات بإجمال، وبعضهم يفصل في ذكرها، وبعضهم يرى أن المفسر ينبغي أن لا يعرض لهذه المناسبات كما يرى ذلك ابن عاشور.

(١) انظر مختار الصحاح (نسب)، ص ٦٨٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/١٣١).

(٣) نظم الدرر للبقاعي (١/٦).

وقد تشعب العلماء في ذكر المناسبات، ومن أكثر من ذكرها من المفسرين الإمام الرازي في تفسيره فهو يقول: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»^(١) وتبعه في ذلك أبو حيان في البحر المحيط، وبعد ذلك الإمام الألوسي في تفسيره روح المعاني والسيد رشيد رضا في المنار وغيرهم.

هذا وقد وضعت المؤلفات في مناسبة الآيات والسور، ومن هذه المؤلفات كتاب «البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن» لأبي جعفر بن الزبير، وكتاب «نظم الدرر في تناسب الآي والسور» للشيخ برهان الدين البقاعي، وكتاب «تناسق الدرر في تناسب السور» للسيوطي، ومنها كتاب «جواهر البيان في تناسب سور القرآن» لأبي الفضل عبدالله محمد الصديق الغماري، وكتاب «إمعان النظر في نظام الآي والسور» للدكتور محمد عناية الله أسد سبحاني وغيرهما من الكتب.

ولقد كان لشيخنا الأستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز - رحمه الله - دروس في التفسير، سجلت للإذاعة، ومن يستمع إليها يدرك عمق فهمه لكتاب الله تعالى، بخاصة عند ربطه بين الآيات القرآنية في السورة، وترتيب السور بعضها مع بعضها الآخر، وكم أتمنى أن تُجمع هذه الأحاديث، وأن يرجع إليها ليفيد منها العلماء وغيرهم.

إن إيجاد الروابط بين الآيات من جهة، وبين السور بعضها مع بعض من جهة أخرى أمر اجتهداني يفتح الله ما يشاء على من يشاء، أذكر وقد كنت على مقاعد الدراسة سؤالاً طرح علينا، وهو مناسبة سورة المجادلة لسورة الحديد التي قبلها، وقد كتبت ما ذكره أئمة التفسير، ثم ألهمني الله تعالى أمراً آخر لم أقرأه في هذه الكتب، وهو أن سورة الحديد خُتِمت بقوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ فجاءت سورة المجادلة لتحدث عن الزوجية وتثبيت عرى هذه الزوجية، ولعل هذا الذي كتبت كان السبب في إعجاب شقيقي الأستاذ محمد محمد السباحي - رحمه الله - بي، والسبب في نجاحي ذلك العام.

وقد تحدث العلماء عن نوعين للمناسبة:

(١) التفسير الكبير، (١٠/١١٣).

الأول: مناسبة الآي بعضها لبعض بحيث يظهر ارتباطها وتناسقها كأنها جملة واحدة وهذا ما أشار إليه الرازي بقوله: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»، ويقول ابن العربي: «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم»^(١).

الثاني: مناسبة السور بعضها لبعض. وقبل أن أمثل لك ببعض الأمثلة، أذكر لك أن كثيراً من الآيات القرآنية مناسباتها لما قبلها من الآيات ولما بعدها ظاهرة، يسهل على القارئ إدراكها، ولكن هناك آيات لا تدرك مناسباتها لما قبلها وما بعدها بسهولة ويسر، بل لا بد من التدبر وإعادة النظر، لإدراك هذه المناسبات.

ومن أمثلة هذا النوع: المناسبات بين الآيات :

١ - بعد آيات الطلاق في سور البقرة يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ الزَّكَاجِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧] ويقول سبحانه وتعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] تحدث العلماء عن مناسبة هذه الآية لما قبلها، فالمناسبة غير ظاهرة، وهي تحتاج إلى تأمل وإعمال فكر. وما ذكروه في ذلك ما قاله الآلوسي: «ولعل الأمر بها عقب الخوض على العفو والنهي عن ترك الفضل، لأنها تهيب النفس لفواضل الملكات، لكونها الناهية عن الفحشاء والمنكر، أو ليجمع بين التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلقه، وقيل: أمر بها في خلال بيان ما تعلق بالأزواج والأولاد من الأحكام الشرعية المتشابهة إيذاناً بأنها حقيقة بكمال الاعتناء بشأنها، والمثابرة عليها من غير اشتغال عنها بشأن أولئك فكانه قيل: لا يشغلنكم التعلق بالنساء وأحوالهن وتوجهوا إلى مولاكم بالمحافظة على ما هو عماد الدين ومعراج المؤمنين»^(٢).

(١) سراج المريدين لابن العربي نقلاً عن الإتقان للسيوطي (١٨٣٧/٥) طبعة المجمع.

(٢) روح المعاني (١٥٥/٢).

ومعنى هذا أن هذه الآية الكريمة جاءت عقب آيات الطلاق ليتي الله الأزواج رجالاً ونساء؛ لأن أمر الطلاق يرسخ في النفوس غيظاً وغضباً وكرامية. ولكن الصلاة تمحو ذلك كله.

٢- يقول سبحانه وتعالى في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء: ٤٣]
وقد تحدث العلماء عن مناسبتها لما قبلها التي تتحدث عن أحوال يوم القيامة، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (١) يَوْمَئِذٍ يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ لِلَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤١-٤٢].

يقول البقاعي: لما وصف الوقوف بين يديه في يوم العرض والأحوال التي أدت فيه سطوة الكبرياء والجلال إلى تمني العدم، ومنعت فيه قوة يد القهر والخير أن يكتم حديثاً، وتضمن وصفه أنه لا ينجو فيه إلا من كان طاهر القلب والجوارح بالإيمان به، والطاعة لرسوله ﷺ، وصف الوقوف بين يديه في الدنيا في مقام الأنس وحضرة القدس، المنجي من هول الوقوف في ذلك اليوم، والذي خطرت معاني اللطف والجمال فيه الالتفات إلى غيره، وأمر بالطهارة في حال التزين به عن الخبائث (١).

ومن أمثلة النوع الثاني أي المناسبات بين السور:

١- صلة سورة المجادلة بسورة الحديد: فقد ذكر العلماء وجه مناسبتها لما قبلها أن سورة الحديد خُتمت بفضل الله تعالى، وافتتحت سورة المجادلة بما هو من ذلك. وقال بعضهم لما كان في مطلع سورة الحديد ذكر صفاته تعالى الجليلة ومنها الظاهر والباطن وقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] افتتح سورة المجادلة بذكر أنه جل وعلا سمع قول المجادلة التي اشتكت إليه.

(١) نظم الدرر (٥/٢٨٤).

وقد ذكرت لك أن معرفة المناسبات قضية اجتهادية، للفكر فيها رأي، حيث يفتح الله تعالى به ما شاء على من يشاء، ليقوله قوله، ولذا أقول: إن مناسبة سورة المجادلة لما قبلها أن سورة الحديد هي السورة الوحيدة التي أشارت إلى الرهبانية التي ابتدعها النصارى.. والرهبانية تمنع الزواج؛ ولذا جاءت سورة المجادلة لتحث على إقامة عرى الزوجية والمحافظة عليها.

٢- صلة سورة الإسراء بسورة النحل: سورة النحل هي سورة النعم - كما يسميها العلماء؛ وذلك لأننا إذا تدبرناها على طولها، فإننا نجد ما من أولها إلى آخرها تذكيراً للإنسان بهذه النعم، ابتداءً من نعمة الوحي، ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

ثم تذكيراً بالنعم التي لا حياة للإنسان إلا بها ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [النحل: ٣]، ثم الامتنان على هذا الإنسان ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤]، ثم ما خلق الله له ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلْقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]، وهكذا تذكر السورة الكريمة ما أكرم الله به هذا الإنسان من نعم لا تحصى، وفي السورة نفسها ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨] ونرجو من القارئ الكريم أن يشرف بالمصحف الشريف ليتدبر هذه السورة تدبراً واعياً حتى يدرك هذه الحقيقة.

إذا كانت سورة النحل سورة النعم، فمن اليسير أن ندرك لماذا جاءت بعدها سورة الإسراء؛ ففي هذا الترتيب البديع من الإشارات واللطائف ما تمتلئ به القلوب فرحة وطمأنينة، وخشوعاً وجلالاً؛ فإن الإسراء هو من أعظم نعم الله على هذه الأمة، وأعظم نعم الله على نبيها ﷺ، وإذا كانت سورة النحل تتحدث عن نعم عامة، لا تخص جانباً من الكون دون جانب، فإن سورة الإسراء جاءت تتحدث عن نعم خاصة، ولا تظن أن أسرار اللطائف تقف عند هذا الحد، بل إن لطائف الأسرار لتتفكك من بُعد إلى بُعد. تذوق معي - أسأل الله أن يذيقنا طعم الإيمان وحلاوته، وأسرار الكتاب وطلاوته، وأن لا يذيقنا طعم أنفسنا:

إن آخر آية في سورة النحل هي قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] ولا ريب أن هذين المقامين - أعني مقام التقوى والإحسان - هما من مقامات المقربين، أما التقوى فأن يطاع الله فلا يعصى ويذكر فلا ينسى، ويشكر ولا يكفر، وأما الإحسان فهو دوام المراقبة كما قال رسول الله ﷺ «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١)، ولا ريب أن أعظم الناس رفعة في هذين المقامين هو سيدنا رسول الله ﷺ، فهو القائل: «أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له»^(٢).

ولعلك تدرك السر الآن بين آخر سورة النحل وأول سورة الإسراء - ونعجب من الذين لم يتذوقوا هذه اللطيفة الربانية، فيزعمون أن لا صلة بين آخر سورة النحل وأول سورة الإسراء، ويعلم الله أنها مسفرة كالصبح في ظهورها ونورها، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾، هذه المعية خاصة من الله لعباده، تلك هي آخر آية في سورة النحل، ثم تأتي سورة الإسراء، لتكون برهاناً واضحاً على هذه المعية ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ، لِنُرِيَهُ، مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، فإذا كان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، فإن ذلك مما لا ينبغي أن يرتاب فيه مرتاب، وإليك الدليل على هذه المعية، فهي هو سبحانه يكرم سيد المتقين والمحسنين، بهذه المعية الخاصة حيث أسرى به ليلاً، ليريه من آياته.

وعلى هذا نستطيع أن ندرك أن الإسراء كان جزاءً يستحقه سيد المقربين، كما نفهم من الآيتين، آية النحل وآية الإسراء، إن قرب العبد من ربه إنما هو الأساس في قرب الرب من عبده، ولا ننسى ما جاء في آخر سورة النحل من ذكر إبراهيم عليه السلام، وما لإبراهيم من صلة بالمسجد الحرام والمسجد الأقصى على السواء، وما كان له من صلة بحديث المعراج

(١) أخرجه البخاري في الصحيح برقم ٤٤٩٩، ومسلم في كتاب الإيمان برقم ١٠٢.
(٢) رواه البخاري في كتاب النكاح باب التغريب في النكاح رقم الباب ١ رقم الحديث ٤٧٧٦.

كذلك، هذا عن صلة الإسراء بسورة النحل حسب ترتيب المصحف، بقي شيء آخر وهو
حكمة نزول سورة الإسراء بعد سورة القصص.

صلة سورة الإسراء بسورة القصص:

وما أكبر الشبه وأقرب الصلة، وما أحكم هذا الوضع أن تنزل سورة الإسراء بعد
سورة القصص، وإليك بيان ذلك:

١- سورة القصص كانت أكثر السور القرآنية حديثاً عن سيدنا موسى عليه السلام، فلقد
تحدثت عن أكثر من طور من أطوار كليم الله سلام الله عليه، فهي السورة الوحيدة التي
حدثتنا عن ميلاده وشبابه، وما حدث بينه وبين القبط حينما وكر أحدهم ففضى عليه،
وهي التي حدثتنا عن خروجه إلى مدين في فلسطين كذلك، ثم حدثتنا عن طور آخر؛
وهو طور الوحي حينما أنس من جانب الطور ناراً ﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ
الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْسُحَ إِبْرَاهِيمُ بِأُذُنِ اللَّهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، ثم
حدثت السورة عما كان بينه عليه السلام وبين فرعون - الملعون المقبوح.

٢- وبعد هذا التطواف مع قصة الكليم، رجعت السورة للحدث مع النبي الكريم
﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٤٤) ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا
فِرْعَوْنَ فَطَاطُولًا عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا
كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (٤٥) ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمْنَا مِنْ رَبِّكَ لِنُنْذِرَ
قَوْمًا مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٤-٤٦]، ثم قصت علينا
طرفاً مما كان بينه وبين قومه عليه السلام، وهي السورة الوحيدة التي جمعت بين القرآن والتوراة
في آية واحدة، حينما قال القوم: ﴿لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أُوفِيَٰ مُوسَىٰ أَوَّلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوفِيَٰ
مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ [القصص: ٤٨] أي بالذي أوتيته
موسى وأوتيته محمد عليهما الصلاة والسلام، وهو التوراة والقرآن، فرد الله عليهم وعلم
نبيه عليه السلام أن يقول لهم: ﴿قُلْ فَاتَّبِعُوا بِكُتَابِ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩].

٣- وبعد أن انتهت السورة من هذا الموضوع، وما فيه من مقارنات ومقابلات بين مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فقالوا حينما استمعوا القرآن: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣] وهؤلاء يؤتون أجورهم مرتين، وكان آخر هذا الموضوع هذه المقابلة بين ما لقيه موسى عليه السلام من بني إسرائيل وبين ما لقيه النبي صلى الله عليه وسلم من قومه ﴿وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أََرْضِنَا أَوْ لَمْ تُنْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

٤- ثم عرضت السورة الكريمة لسنة من سنن الله، وهي أن الله تبارك وتعالى عظمت حكمته وامت كلمته صدقاً وعدلاً، وجرت سنته أن لا يهلك قوماً إلا بعد أن يبعث إليهم رسولاً يتلو عليهم آياته، وأنه لا يهلك أهل القرى إلا وهم ظالمون. وبعد أن أتمت السورة هذا الموضوع وما يتصل به، حدثتنا عن قدرة الله، وعن إرادته وحكمته فيما يخلق ويختار ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٧٨) ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٩) ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخِزْيُ الْأَوَّلَىٰ وَالْآخِرَةُ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٦٨-٧٠] ونعم الله في هذا الكون على هذه المخلوقات، ورحمته بهم حري أن تدفع إلى شكره والإيمان به ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٨٠) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٢].

٥- حدثتنا السورة عن بغي هذا الإنسان وعدم شكره لهذه النعم، ومثلت لنا بقارون ﴿وَإِنْ قَرُّونَ كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦] وبعد أن ألت السورة الإمامة رائعة موجزة هادفة بنخبر قارون وما كان منه، وما لقيه جزاءً وفاقاً، عن موقف الناس واختلافهم أمام هذا الابتلاء، ختم هذا المشهد بقوله سبحانه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

٦- وكانت نهاية السورة نهاية عجيبة بديعة، فلقد كانت بدايتها كما عرفنا من قبل حديثاً عن الكتاب المبين، ما يتلى على النبي ﷺ ﴿طَسَّرَ ١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الفصل: ١-٣]، وكانت النهاية نهاية السورة الكريمة إرشادات وتوجيهات فيها السكينة والطمأنينة لسيدنا رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [الفصل: ٨٥].

بين سورة الإسراء وسورة القصص:

ونحن إذا نظرنا لسورة الإسراء وسورة القصص، فإن الذي يأسر القلوب ويأخذ بالآلِباب، وتخشع له الأفئدة أن نرى هذا الترتيب البديع الرائع بين السورتين من حيث الموضوعات المتشابهة في كلتا السورتين. وأستعين بالله وأستمد منه التوفيق في تجلية ذلك البيان القرآني السامي:

١- بدأت سورة الإسراء بذكر النعمة الكبرى على النبي ﷺ وعلى هذه الأمة كذلك، وهي أن الله أسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فإذا كان موسى عليه السلام خرج خائفاً يترقب من مصر وقد وصل إلى مدين في فلسطين كما جاء في سورة القصص، فإن الرسول ﷺ أسرى به ربُّه، ولكنه لم يقف عند حدود مدين، بل تجاوز ذلك إلى المسجد الأقصى.

٢- ولقد حدثتنا سورة الإسراء كذلك عما خص الله به موسى من هذا الكتاب الذي جعله هدى لبني إسرائيل، وأرجو أن تتذوق معي أيها القارئ الكريم هذا الاتساق، وذلك التطابق والتلاقي، بين آيات الخلاق، قلت: إن سورة القصص حدثتنا بعد المشهد الأول وبعد الطور الأول من أطوار موسى عما كان بينه وبين فرعون وملئه.

وسيدنا موسى عليه السلام ابتلي بفئتين من الناس، كانت الفئة الأولى متجبرة متغطسة وهم فرعون وملؤه، وكانت الفئة الثانية مستضعفة مهانة وهم بنو إسرائيل، ولقد لقي عليه السلام من الفئة الثانية ما لا يقل عنّا وصعوبة ومشقة عما لقيه من فرعون وملئه، وإذا كانت سورة القصص حدثتنا عما لقيه من فرعون، فلقد جاءت السورة التي بعدها وهي سورة الإسراء لتحدثنا عما لقيه بعد فرعون من بني إسرائيل، هكذا تحدثت السورة السابقة عما

لقيه من فرعون، وتحدثت السورة اللاحقة عما كان من بني إسرائيل وهذا إنما كان بعد غرق فرعون.

٣- وكما عرضت سورة القصص لهداية القرآن والتوراة ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ [القصص: ٤٩] فقد عرضت سورة الإسراء لهذا الموضوع ولكن بشيء من التفصيل والزيادة، فالتوراة هدى لبني إسرائيل، ولكن هداية القرآن هداية عامة شاملة لا تقتصر على أمة دون أمة ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

٤- وكما بينت سورة القصص سنة من سنن الله في الإهلاك - وهو ما أشرنا إليه من قبل - فلقد ركزت سورة الإسراء على هذا السنن الرباني في العذاب وما يتمثل به ﴿مَن أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِىٰ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا زُرُّ وَارِدُهُ وَزَرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. ولئن ذكرت سورة القصص سبب هذا الإهلاك وهو ذلكم البطر الذي يصاب به الناس ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨] فإن سورة الإسراء أكملت بيان هذا السنن الإلهي العادل فجاء فيها قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] والبطر والترف لا ينفصل أحدهما عن الآخر.

٥- وإذا كانت سورة القصص حدثتنا عن بغي الإنسان، فإن سورة الإسراء أرشدتنا إلى معارف جديدة في هذا الموضوع، حيث بينت لنا سبب هذا البغي والغرور، أو ركيزة من ركائزه وهي الشح والإمساك والخوف: ﴿قُلْ لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَنُ قَثُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠].

وكما بدئت سورة القصص بالحديث عن شأن موسى وختمت كذلك بالحديث عن قارون الذي كان من قومه، فلقد بدئت سورة الإسراء كذلك بالحديث عن موسى مع بني إسرائيل، وختمت بالحديث عنه ﷺ ولكن هذه المرة مع بني إسرائيل وفرعون كليهما، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَتَوَلَّىٰ ظَنَنَّا أَنَّ هُوَ إِسْرَءِيلُ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي

لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرَعَوْتُ مَجْجُورًا ﴿١٠٢﴾ [الإسراء: ١٠١-١٠٢].

٦- وكما ختمت سورة القصص بالتنويه بشأن سيدنا رسول الله ﷺ، وإكرام الله له بالقرآن وبشارته بأن الله سيستم له الأمر ﴿١٠١﴾ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴿١٠٢﴾ [القصص: ٨٥]، فلقد ختمت سورة الإسراء كذلك ﴿١٠١﴾ وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٢﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْتٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٠٣﴾ [الإسراء: ١٠٥-١٠٦].

أرأيت إلى دقة الإحكام، وعناصر التناسق، واتساق الموضوع بين السورتين الكريمتين، واعلم أخي القارئ أنه ليس من غرضي التفصيل في هذا الموضوع وإلا لكنت وقفت بك على ما يمكن أن يفتح الله به من عجب هذا القرآن، وبديع نظمه على ما هو أكثر من ذلك، ولكن غرضنا الإجمال؛ لأن هدفنا الحديث عن الإسراء والمعراج، وهذا يكفي لغرضنا الذي نريد التحدث عنه.

هذه سورة الإسراء من حيث الدراسة الخارجية، أعني من حيث ما يحيط بها؛ يعني أن دراستنا للسورة الكريمة لها جانبان اثنان: الجانب الأول: دراسة السورة من حيث ما يحيط بها، وقد تحدثنا أولاً عن صلتها بسورة النحل، والسورتان متجاورتان في المصحف - كما نعلم - ثم تحدثنا عن السورة التي نزلت قبلها وهي سورة القصص، ووجدنا أن لسورة الإسراء صلات بكل من السورتين، فصلتها بسورة النحل من حيث هي نعمة من نعم الله، وصلتها بسورة القصص من حيث الموضوعات المتشابهة المتكاملة. وبقي أن نتحدث إن شاء الله عن الجانب الآخر وهو:

الجانب الثاني: أي ما يتعلق بالسورة نفسها وسنجد من اللطائف والعجائب الكثير الكثير مما لا نستطيع به إحاطة، ولكنها نفحات من نور الله وقطرات من ماء الهداية، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

وللمناسبات بين الآيات الكريمات والصور المحكمات أسرار ولطائف يُكرم الله بها بفضله ومنته من يشاء من عباده، نسأل الله أن نكون من العباد المكرمين.

الْبَصِيرَاتِ الْغَائِبَاتِ وَالْإِشْرَافِ

أمثال القرآن الكريم

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

القرآن العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] عَظُمَ كل شيء فيه، مواعظه وقصصه، حكمه وتشريعاته، أمثاله ووصاياه:

نعم السميع كتاب الله إن له حلاوة هي أحلى من جنى الضرب
به فنون المعاني قد جمعن فما يُفَتَنَنَّ من عجب إلا إلى عجب
أمر ونهي وأمثال وموعظة وحكمة أودعت في أفصح الكتب
لطائف يجتليها كل ذي بصر وروضة يجتنيها كل ذي أدب^(١)

ولما كان القرآن الكريم عربياً غير غير عوج، وقد عرفت العرب الأمثال، فكان لها في حياتهم شأن وأثر، أكثر الله فيه من ضرب المثل. قال أبو عبيد: الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها لتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق بكناية غير تصريح، فيجتمع لها ثلاث خلال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وقد ضربها النبي ﷺ وتمثل بها هو ومن بعده من السلف^(٢).

قال الزخشي رحمه الله: ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر - شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق، حتى

(١) هذه الأبيات ذكرها أبو حيان في مقدمة تفسيره (١/١٠٢).

(٢) انظر فصل المقال في شرح كتاب الأمثال للبكري (١/٣)، والأمثال لأبي عبيد (١/١).

تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامع الأبي، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء^(١).

وفي بعض كتب السنّة، كتاب يسمى كتاب الأمثال، فكما أن الأمثال كثيرة في كتاب الله فهي كذلك في كلام النبي ﷺ، ولبعض العلماء الأفاضل كتب عن الأمثال في القرآن والسنّة، وقبل أن نتحدث عن أمثال القرآن الكريم، نرى لزماً أن نتحدث عن معنى المثل، ولماذا اختيرت كلمة الضرب دون غيرها.

معنى المثل:

المثل له اصطلاحان: الأول الاصطلاح العام، وهو الذي كثر في كتاب الله تبارك وتعالى فهو يطلق على كل أمر ذي شأن سواء كان هذا الأمر قصة أم خبراً أم صفة.

الثاني: اصطلاح الأدباء، والمثل عندهم هو القول الذي شبه مورده بمضربه^(٢)، تفسير هذا أن بعض الناس كان له خبر أو قصة، قال جملة من القول أو قيلت له، فجرت على ألسنة الناس لسهولة وسر نطقها، فصارت مثلاً، حيث شبهت الحالة التي ضربت لها بالحالة التي قيلت لها في أول مرة.

كان أحدهم يرد الماء ليملاً قريبة له، لكنه لم يحسن وكاءها - أي: ربطتها - فلما رفعها وقعت وانسكب الماء، فطلب معونة من أحد الحاضرين معه، فقال له: يداك أوكتا وفوك نفخ، أي: أنت الذي نفخت القربة بفوك وربطتها بيديك، فلم تحسن الربط، ولم تحسن النفخ، فصارت هذه الجملة (يداك أوكتا وفوك نفخ)^(٣) مثلاً يقال لكل من أشبه حاله حال صاحب القربة، أي: كل من لم يحسن عمله ويتقنه إتقاناً جيداً.

وكان شجار بين زوجين، وحاول الزوج لمّ الشمل، لكنها أبت، وبعد مدة من الزمن طلبت أن ترجع إليه، فقال لها: «الصيف ضيعت اللبن» فاستحسن الناس هذه الجملة،

(١) الكشف (١/ ٧٢).

(٢) انظر تفسير ابن عاشور (٢/ ٤٦٤).

(٣) انظر الأمثال لابن سلام (١/ ٦٣)، والأمثال للضيبي (١/ ٢٥)، والمستقصى (٢/ ٤١٠).

فصاروا يضربونها لكل من أشبهت حاله حال هذه المرأة، رجلاً كان أو امرأة أي كل من دُعي لشيء فأبى ثم صار يطلبه ويرجو أن يتحقق له.

ثم إن هذه الأمثال لا ينبغي تغييرها، فلو ضربنا هذا المثل لرجل، فينبغي أن نبقىه على حاله. (الصيف ضيعت اللبن) بكسر التاء.. ولنرجع إلى ما نحن بضدده وهو المعنى الأول للمثل، وهو أنه يطلق على ذي شأن سواء كان خيراً أم قصة أم صفة.

والمتدبر لأمثال القرآن الكريم، سيدرك ما قلته إدراكاً تاماً، بلا عسر ولا صعوبة هذا من حيث المثل.

أما لم اختيرت كلمة الضرب للمثل، فلذلك سر وحكمة ترجع إلى الهدف من المثل، فالضرب معناه إيقاع شيء على شيء، وقد عرف الناس الضرب لمن يريدون إيذاؤه أو تأديبه، ولكن هناك استعمالات للضرب قريبة لما تعارف عليه الناس، ومن هذا قولهم ضرب اللبن، أي: خلط بعضه ببعض، ومنه ضرب الدراهم، أي: صكها وصياغتها حتى تصلح ليتعامل بها الناس، وإنما يضرب الناس الدراهم ليظهر أثرها في غيرها، من أجل أن يتعاملوا بها لقضاء حوائجهم، ولعلك أدركت بعد هذا لماذا اختيرت كلمة الضرب للمثل دون غيرها، فالمثل لكونه كلاماً بليغاً، أو قصة ذات شأن أو صفة عجيبة ستترك أثراً كبيراً في نفوس مستمعيها.

اقرأ مثلاً قول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥] ألسنت ترى أن هذه الصفة للجنة من الأمور العجيبة الشأن التي لم يعهد الناس مثلها فالناس لا يعرفون اللبن والعسل إلا في قوارير، أما أن تكون أنهاراً، فذاك أمر آخر، وهكذا أمثال القرآن الكريم والحديث الشريف.

وما أكثر الآيات التي ذكر فيها ضرب المثل. نقرأ قوله تعالى في سورة سيدنا إبراهيم ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَكِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، ونقرأ في سورة الرعد التي قبل هذه السورة: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ

حَلِيَّةٍ أَوْ مَتَّعَ زَيْدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّيْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿[الرعد: ١٧].

فانظر إلى هذه الآية الكريمة التي ضربت فيها أمثال متعددة، فسيل الأودية بقدرها من الماء مثال للقلوب فيما تفيده من هدي السواء، والزبد مثال للباطل، وما ينفع الناس مثال للحق.

وتدبر قوله الله تبارك وتعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] تدبر وسل الله أن يفتح لك من فضله لتدرك أسرار هذا الكتاب الخالد، فتقف على طرف من الإعجاز... صدر الآيتين واحد (وتلك الأمثال نضربها للناس)، لكن ختمت كل منهما بما يخصها،... مكث ما شاء الله لي أن أمكث لأعرف الفرق بين الآيتين، ولم ختمت كل منهما بما أنزله الله، وأرجو أن أكون قد من الله عليّ، وله سبحانه المنن الكثيرة.

آية العنكبوت ذكر قبلها قوله سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخْتَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ يَنْتًا وَإِنَّ أَوْهَرَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] والعنكبوت من المخلوقات التي فيها من الخصائص والصفات ما لا يعرفه إلا العلماء المتخصصون بالحشرات وأمثالها، ولذلك قالوا: إن خيوط العنكبوت، من أشد الخيوط وأقواها، بل هي أقوى من خيط الحرير، لكن أمة العنكبوت أمة لا تستقيم على حال، فهي تحرب بيوتها، تأكل إنانها ذكورها، ولذلك قال القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّ أَوْهَرَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾. ولم يقل «الخيط» ثم قال: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ثم عقب على هذا المثل بقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] الأمر - إذن - يحتاج إلى العلم، وإلى علم خاص يدركه ذوو التخصص.

أما آية الحشر، فالأمر فيها ليس كذلك، إنها هو أمر تفكر وتدبر، وتدبر الآية مرة أخرى ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خُسْفًا مُّتَّصِدًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ

نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ ﴿[الحشر: ٢١]﴾ ليس هنا ما يحتاج إلى علم وتخصص، بل القضية قضية خشية وتدبر وتفكر حيناً يُتلى هذا القرآن، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُوا أَلْوَاءَ الْآيَاتِ﴾ [ص: ٢٩]، ويقول سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]. فقد ذكرت هذه الجملة الكريمة مرتين في سورة البقرة. فانظر إلى هذه الدقائق القرآنية، واللطائف في هذا الكتاب العظيم، وتدبر أمثال القرآن جميعها، لتستخلص منها هذه الدقائق واللطائف، وسل الله أن يمنحك من فضله، فهو سبحانه الأجود، وهو الرب الأكرم الذي يعلم الإنسان ما لم يعلم.

وأرجو أن تتدبر هذه الآية الكريمة وما فيها من أسرار، وما لها من أثر في النفوس والقلوب: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿[الحج: ٧٣-٧٤].

المثل - إذن - هو الكلام البليغ الشائع الحس المشتغل إما على تشبيه بلا شبيه أو استعارة رائعة تمثيلية أو غيرها، أو حكمة جامعة، أو موعظة نافعة، أو كناية بديعة، أو نظم من جوامع الكلم الموجز^(١).

فقد جعل الله ضرب الأمثال من منته الكبري ونعمه العظمى، وقد جاءت أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر أو إبطاله، ومنها تؤخذ الأحكام، وتتم الهداية ومكارم الأخلاق^(٢).

وقد ضرب الله الأمثال ترغيباً وترهيباً، وبشارة وإنذاراً، فهناك أمثال للمؤمنين وأخرى للكافرين، وأمثال للمنافقين، وهناك أمثال للأعمال الطيبة والأعمال الخبيثة، وسأحدثك عن بعض هذه الأعمال بإيجاز.

(١) منهج الفرقان في علوم القرآن، الشيخ محمد علي سلامة (١٦٢/٢).

(٢) منهج الفرقان في علوم القرآن، (١٦٣/٢).

نجد القرآن الكريم يرسم صوراً متعددة للمنافقين طبقاً لأحوالهم، فالمنافقون كانوا يظهرهم الإيثار - كما تعلم - وإظهارهم للإيمان كان يدفع عنهم الأذى، حيث كانت تجري عليهم أحكام الإسلام، ولكن هذه الحالة لا يمكن أن تدوم.

وللمنافقين حالة ثانية: وهو ما كانوا يشعرون به من الحرج والضيق، وذلك حينما تنزل الآيات تفضح أمرهم، فادعائهم الإيمان لا يجديهم، وتظاهرهم به لا ينفعهم، وهناك حالة ثالثة، لا من حيث ادعائهم الإيمان ولا من حيث الحرج الذي يجدونه إنها روعيت فيها هيئاتهم الظاهرة التي تعجب الذين يرونهم، وهناك حالة رابعة، وهي حالتهم عندما يبيحهم الخوف ويدعون إلى الجهاد، ونحن نعلم أن القرآن الكريم يشبه كل حالة من هذه بما يناسبها ويتلاءم معها.

ففي الحالة الأولى نقرأ قول الله تعالى: ﴿مِثْلَهُمْ كَمَلٍ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]، فهو تشبيه لخال المنافقين وقد ادعوا الإسلام وتظاهروا بالإيمان، فظنوا في أنفسهم أن هذا الخداع لن تكون له نهاية، ولكن هيهات، فمثلهم كمثل الذي استوفد ناراً فبددت الظلمات وأضاءت ما حوله، وبيننا هو كذلك في فرحه ومرحه وسروره، وبهجته، وإذ بهذه النار تخمد وتنطفئ فلا يبقى منها شيء.

أما في حالتهم الثانية وهي حالة الحرج والضيق فنقرأ قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبِقُحٍّ جَعَلُوهٖ أَمْسِينُمْ ۚ فَبِأَذَانِهِم مِّنَ الصُّورِ حَذَرُ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ بِحِيْطٍ بِالْكَافِرِينَ ۝﴾ [البقرة: ١٩].

يضرب القرآن مثلهم في هذا الضيق، وتلك القسوة، وذلك الحرج، يقوم يسيرون والمطر الكثير الشديد ينزل من السماء، وقد أظلم الجو، ومع هذا المطر رعد قاصف، وبرق شديد اللمعان، فهم يجعلون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعون أصوات الرعد، وهذا البرق الشديد يكاد يخطف أبصارهم، ولكن مع شدته يضيء لهم إذا مشوا فيه، فإذا ذهب وقفوا في أمكنتهم، فهم في شدة على كل حال. وكذلك كان المنافقون، فهم مع ادعائهم الإسلام كانوا يخشون دائماً أن تنزل آية تنبئ عن أحوالهم وتفضحهم، فهم مضطربون

دائماً، لا يستقر لهم قرار، يبين هذا قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِلَيَّ اللَّهُ مَخْرَجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].

أما حالتهم الثالثة فقد مثلهم القرآن بالخشب المسندة، فشان الخشب أن يستفاد منه في البناء والسفن، وغير ذلك، أما عندما يكون مسنداً فستنخره السوس دون الاستفادة منه، فهم وإن أعجبك مظهرهم، لكن مخبرهم وحقيقتهم ليست شيئاً، وفي هذا نقرأ قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مٌسْنَدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤]، وفي مثل هذا يقول الشاعر^(١):

لَا يَخْذَعَنَّكَ اللَّحَى وَلَا الصُّورُ تِسْعَةُ أَعْشَارٍ مَنْ تَرَى بَقَرُ
تَرَاهُمْ كَالسَّحَابِ مَتَشَرًّا وَلَيْسَ فِيهَا لَطَالِبٌ مَطَرُ
فِي شَجَرِ السَّرْوِ مِنْهُمْ شَبَّةٌ لَهُ رُوءٌ وَمَالُهُ ثَمَرُ

وأما حالتهم الرابعة: فقد مثل حالهم القرآن بحالة الذي يغشى عليه من الموت. قال تعالى: ﴿أَشْجَةً عَلَيْهِمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠].

أما الكافرون فنجد لهم في القرآن الكريم أمثالا كثيرة متعددة مع أن كل واحد يختلف عن الآخر، ذلك لأن الموضوعات التي تناولتها هذه التشبيهات ليست سواء، ومن هنا اختلفت صور التشبيه باختلاف الأغراض.

١- فمن حيث الإعراض عن الحق والتولي والابتعاد نجد هذه الصورة الدقيقة

ونحن نقرأ قول الله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ (٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿[المثدر: ٤٩-٥١]، فانظر إلى تلك الصورة لهؤلاء وهم يفرون من الداعي،

(١) روح المعاني للآلوسي (١١١/٢٨)، والرواء - بضم الراء، أي: منظر حسن.

ويعرضون عن الحق، ولكن هذا الإعراض لا يزيدهم إلا حيرةً وخوفاً؛ فما أشبههم بهذه الحمر الوحشية النافرة الشاردة، وهي تفر من أسد خشية أن يفترسها.

إن التشبيه هنا مع ما فيه من إبداع التصور وروعته، نجد فيه كذلك من دقة التعبير وموضوعيته، ذلك أنهم شَبَّهُوا بالحمر، والحمر مثال في البلادة، ثم هم قد فَرَّوْا من قسورة، وفي هذا إيجاء أن الداعي إلى الحق حريٌّ به أن يكون أسداً فتكون الشجاعة من أبرز صفاته، وشتان بين ما فر من أجله هؤلاء وبين ما تفر من أجله الحمر المستنفرة، أليسوا أضل من الحمر سبيلاً؟ وانظر إلى كلمة (مستنفرة) وما فيها من السين والتاء، وكلمة (فَرَّت) كل هذا وغيره من الخصائص التي حدثتك عنها في تشبيهات القرآن بما له عمله في النفس، وتأثيره في القلب.

٢- وقد يشبه الكافرون وهم يُدْعَوْنَ إلى الحق وقد أحاطت بهم الغفلة، فهم لا يسمعون من الداعي إلا حروفاً وأصواتاً لا يفقهون منها شيئاً، فما أشبههم بتلك الأنعام التي تسمع صوت داعيها وراعيها، ولكنها لا تميز ما يضر مما ينفع. نقرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ [البقرة: ١٧١]، المشبه هنا: الداعي إلى الإيمان وهو يدعو أولئك الغافلين، والمشبه به: الراعي الذي يصيح بهذه الأنعام التي لا تسمع إلا دعاءً ونداءً، ووجه الشبه صورة من لا يميز بين ما يضره أو ما ينفعه.

وقريب من هذا التشبيه قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، إلا أن الفرق بين هذا التشبيه وبين الذي قبله، أن التشبيه السابق نظر إلى حال الداعي لأولئك الكافرين، أما هذا التشبيه فليس كذلك، هذا من جهة.

ومن جهة ثانية فإن هذا التشبيه فيه تفصيل؛ فقد ذكر الاستعدادات التي مُكِّنَ منها أولئك، فقد هيأ الله لهم القلوب ليفقهوا بها الأمور وهذا ما لم يهيأ للأنعام، صحيح أنهم كانت لهم العيون والأذان التي يشتركون فيها مع الأنعام، ولذلك نجد القرآن حينها

شبههم بالأنعام يُضرب عن هذا التشبيه فيقول: «بل هم أضل»، وإنما كانوا أضل لأن الأنعام لم تملك هذه الوسائل التي يملكونها، وهكذا نجد أن التشبيهات في القرآن بعيدة كل البعد عن شبهة التكرار وشائبته.

وقد يشبهون بالأنعام ولكن من وجه آخر وصفة غير الصفات التي مرت معنا من قبل، فالأنعام لا تبغي إلا أن ترتع وتأكل من أجل أن تملأ بطونها وليس وراء ذلك شيء، فالأكل هو الغاية. وكذلك أولئك فهم يعيشون ليأكلوا، وشتان بينهم وبين من يأكل ليعيش، يقول الله تعالى وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ [محمد: ١٢]، وشتان بين هؤلاء وبين من يتقوى في أكله على عمل الخير والطاعة، ومن هنا جاء في الحديث: «المؤمن يأكل في معى واحد والكفار في سبعة أمعاء»^(١).

تلك تشبيهات ثلاث شبه الكافرون فيها بالأنعام، ولكن كان لكل واحد منها جهته وموضوعه كما رأيت.

وأكتفي بما ذكرت، ومن أراد المزيد فليراجع كتابنا «البلاغة فنونها وأفنانها»، علم البيان.

أنواع الأمثال،

يذكر العلماء أن أمثال القرآن الكريم نوعان:

الأول: الأمثال المصروفة.

الثاني: الأمثال الكامنة.

أما النوع الأول: وهو ما صرح فيه بلفظ المثل أو ما يدل على التشبيه والتنظير. فقد مثلت لك بأمثلة كثيرة له.

أما النوع الثاني فمع أنه لم يذكر فيه المثل صراحة، لكنها جعل قرآنية جرت مجرى الأمثال بحيث يرددها كثير من الناس في حالات مخصوصة تناسب هذه الجمل القرآنية، وإليك طائفة من هذه الجمل:

(١) أخرجه البخاري في الصحيح برقم (٥٠٧٨).

قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

قال تعالى: ﴿ أَفَلَنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ [يوسف: ٥١].

قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ [يس: ٧٨].

قوله تعالى: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قوله تعالى: ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ [التوبة: ٩١].

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر: ٤٣] ^(١).

تلكم كلمة موجزة عن الأمثال بالقرآن الكريم، وقد بسطتُ والله الحمد والمِنَّة في كتاب البلاغة فنونها وأفنانها - البيان والبدیع - القول في أمثال القرآن الكريم والأمثال في السنّة المشرفة، وهو موضوع شيق فيه خيرٌ كثير إن شاء الله، فليرجع إليه من شاء.

(١) راجع الإتيان للسيوطي (١٠٠/٤) النوع السادس والستون، فقد ذكر مجموعة كبيرة من الآيات.

الْقِسْمُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
(سكنه الله)

أقسام القرآن من الموضوعات التي يذكرها الكتاب في علوم القرآن، وقد وضع فيه العلامة ابن القيم كتاباً خاصاً سماه «التبيان في أقسام القرآن». ومن المتأخرين الشيخ عبد الحميد الفراهي الهندي وله كتاب إمعان في أقسام القرآن.

والأقسام جمع قسم، وهو بمعنى الحلف واليمين، وسمي الحلف يمينا؛ لأن العرب كان أحدهم يأخذ يمين صاحبه عند التحالف. والقسم هو تحقيق الخبر وتوكيده، فهو - إذن - من أساليب التوكيد التي يؤكد فيها الخبر بحسب أحوال المخاطبين، فإذا كان المخاطب شاكاً في الخبر، متردداً فيه، يحسن توكيد الخبر له، وإذا كان منكراً، وجب توكيد الخبر له بأدوات التوكيد، التي منها القسم.

والقرآن الكريم فيه الكثير من الأقسام، ولا يعني هنا ما ورد في القرآن الكريم من أقسام جاءت على لسان بعض الناس كالمنافقين واليهود وغيرهم كقوله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لَبِئْسَ صُكُومٌ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩]، لكن الذي يعني هنا ما أقسم الله تعالى به، سواء أقسم بذاته أم بشيء من مخلوقاته.

فمن القسم الأول قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] وقوله: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣] وقوله: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعِنَ﴾ [التغابن: ٧]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: ٦٨]، وقوله: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّي الشَّرِيقَ وَالْمَغْرِبَ﴾ [المعارج: ٤٠].

يقول الأستاذ أحمد بدوي: إن الله تعالى أقسم بلفظ الرب تارة مضافاً إلى السماء والأرض في قوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ﴾ [الذاريات: ٢٣] وتارة مضافاً إلى المشرق والمغرب، وتارة مضافاً إلى الرسول ﷺ لما في هذه الإضافة من فوائد، ففي إضافته إلى السماء والأرض إشارة إلى خضوع السماء والأرض لأمره، وفي ذلك تعظيم لشأنه عز وجل، وإيجاء بأن من كان هذا شأنه لا يُزَجَّ باسمه إلا فيما هو حق لا ريب فيه ولا مرية.

وإن في إضافة لفظ الرب في القسم إلى المشرق والمغرب ﴿وَلَا أَقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾. هذه الإضافة توحى إلى القدرة البالغة التي تسخر هذا الجرم العظيم وهو الشمس، فيشرق ويغرب بانتظام وفي دقة وإحكام، وفي إضافته إلى الرسول ﷺ في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ إشعار بأن أرباب المشركين ليست جديرة بأن نقسم بها أو تكون محل الإجلال والتقدير^(١).

وأما القسم بلفظ الرب مضافاً إلى سيدنا رسول الله ﷺ فهو بيان لعظمة رسوله الكريم، وما خصّه الله بفضل ومنزلة، وما أكرمه به من صلوات وعطايا ومعجزات، وما هياه له من خير في الدنيا والآخرة، ليعلمنا كيف نُعَظِّمُهُ، ونستجيبُ له، ونحافظُ على ما أمرنا به وما نهانا عنه ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنْكُمْ لَوْادًّا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

أما القسم بمخلوقات الله تعالى فأمثلته كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَخَهْهَا ① وَالْقَمَرُ إِذَا لِلَّهِ ② وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ③ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ⑤ وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا ⑥ وَفَقِيرٌ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَالْهَمَّهَا جُؤْرَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ⑨ وَفَدَّ حَابَ مَنْ دَسَّنَهَا ⑩﴾ [الشمس: ١-١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَالصُّحُفِ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ③﴾

(١) من بلاغة القرآن، أحمد أحد بدوي، ص ١٧٠.

﴿وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ١-٣]، وقوله تعالى: ﴿وَالنَّزْعَتِ غَرْقًا...﴾ [النازعات: ١]، وقوله: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ (١) وَلَيْلٍ عَشْرِ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) [الفجر: ١-٤] وغيرها من الآيات. وقد أقسم سبحانه بهذه المخلوقات تعظيماً لها - والله تعالى أن يقسم بما شاء - فهي آثار لعظيم قدرته تعالى، وللقسم بهذه المخلوقات حجكم عظيمة، يقول الشيخ محمد عبده رحمه الله:

إنك إذا رجعت إلى جميع ما أقسم الله به وجدته إما شيئاً أنكروه بعض الناس، أو احتقره لغفلته عن فائدته، أو ذهل عن موضع العبرة فيه، أو جهل حكمة الله في خلقه، أو انعكس عليه الرأي في أمره، فاعتقد فيه غير الحق الذي قرر الله شأنه عليه، فيقسم الله به إما لتقرير وجوده في عقل من ينكره، أو تعظيم لشأنه في نفس من يحقره، أو تنبيه الشعور إلى ما فيه عند من لا يذكره، فما أقسم الله به يوم القيامة، أو القرآن مثلاً، فذلك لتقرير أن الأول واقع لا مفر منه، وأن الثاني كلام الله الذي لا ريب فيه، ثم يكون في ذلك تعظيم كليها، الأول لما فيه من سعادة وشقاء، والثاني لما فيه من الهداية والشفاء^(١).

وقد كثر القسم في القرآن المكي، فهو يتناسب مع أسلوب القرآن المكي ومن نزل فيهم القرآن، ومع ذلك فقد ورد القسم كذلك في القرآن المدني.

بلاغة القسم في القرآن،

والقسم في القرآن الكريم له أسرار، وذلك أننا نجد تناسباً وصلة وشبيحة بين القسم وجوابه. اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ فقد أقسم سبحانه وتعالى بالضحى، وبالليل إذا سجد، وسبب نزول السورة تأخر نزول الوحي حتى قال بعض المشركين: «يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك»^(٢) فأنزل الله تعالى السورة الكريمة.

والضحى هو وقت ارتفاع الشمس وانتشارها في الأفق، وسجد الليل: سكن ويقصد به وقت. سكون الليل وهدوئه، فقد أقسم بهما سبحانه وتعالى ذلك أن الناس

(١) تفسير القرآن الكريم، جزء عم، الشيخ محمد عبده، ص ١٠٩.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح في تفسير سورة الضحى، حديث رقم (٤٦٦٧).

يشهدون تألق الضحى في ضحوة النهار، ثم يشهدون من بعده فتور الليل إذا سجدى وسكن، يشهدون الحالين معاً في اليوم الواحد، وكذلك الوحي الذي تجلى نوره على المصطفى ﷺ، ما المانع من أن تكون هناك فترة يفتر فيه الوحي على ما نشهد من الليل، ولكنها فترة قصيرة؛ لأن فترة سكون الليل وهدوئه كذلك فترة قصيرة ليست بالطويلة، أقسم سبحانه وتعالى بهذين على أنه ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣]. والتوديع هو الترك، ومنه توديع المسافر، والقلى البغض والكراهة، أي: ما تركك ربك وما أبغضك، كيف وأنت رسوله وخاتم أنبيائه وصفوته من خلقه.

واقراً كذلك قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ... ﴿[الفجر: ١-٢] وقد نزلت هذه السورة إبان احتدام المعركة بين الحق والباطل وفي وقت كانت قریش تحاول فيه استئصال شأفة المسلمين، فكان في تلك السورة الكريمة بشارة للمسلمين بنصر الله، وتهديد للمشركين بالعذاب والعقوبة، فأقسم سبحانه بالفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسر، والفجر هو ظهور الضوء عند انشقاق ظلمة الليل، وهو الوقت الذي ينتشر فيه النور، وفي ذلك من الأنس والراحة ما تطمئن به النفوس وتستريح له الأفئدة.

وأقسم بليال عشر: وقد اختلف فيها المفسرون فقال بعضهم: إنها العشر الأول من ذي الحجة، وقال بعضهم: إنها العشر الأول من المحرم، وقال آخرون: إنها العشر الأواخر من رمضان، ولكننا نرد هذه الأقوال؛ لأن السورة مكية، وفضل الليالي التي ذكرها المفسرون، إنما أخبر عنه النبي ﷺ بعد الهجرة، وثانياً: لأن اللفظ ورد نكرة، ولو قصد به شيء مما تقدم لقليل: الليالي العشر، بالتعريف، أي: الليالي المعهودة التي هي كذا وكذا، ولكن اللفظ جاء نكرة كما قلت؛ فالمختار أنها ليالٍ كاثنة في كل شهر، وهي الليالي التي يكون فيها القمر أكثر إشراقاً وأسطع نوراً، لتتناسب مع الفجر، والشفع يمكن أن يكون المخلوقات كلها، والوتر الله تبارك وتعالى «إن الله وتر يحب الوتر»، وذلك لأن الكون كله يقوم على مبدأ الزوجية، ولكن الله تعالى وحده وتر.

والليل إذا يسر، أي: يسري فيه الساري، وهذا القسم فيه كفاية وغناء للعقلاء الذين يتفكرون في هذا الكون كيف يتعاقب فيه الليل والنهار، والظلمة والنور، وكيف يطرد نور

الفجر ظلمة الليل، وكذلك شأن الحق مع الباطل. وجواب القسم محذوف دلت عليه هذه الآيات، أي: لينصرن الله نبيه ودينه والمؤمنين، وليظهرن الله هذا الدين مشرقاً كما شق الفجر ظلمة الليل وليهزم أعداء الله.

بقي أن نشير إلى صيغة وردت في كتاب الله تعالى وهي أن يسبق الفعل (أقسم) كلمة (لا) أي (لا أقسم) كما في قوله تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ﴾ [القيامة: ٢-١]، ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۖ﴾ [البعد: ١-٢].

للعلماء في هذا الأسلوب (لا أقسم) توجيهات متعددة: يرى بعضهم أن (لا) جاءت لتأكيد القسم، أي: أقسم قسماً مؤكداً وأصلها «لأقسم» ولكنها أشبعت بالمد ويستدلون لذلك بأنه قرئ في السبعة «لأقسم».

وقال آخرون: (لا) نافية كأنه قيل: لا ليس الأمر كما تظنون. ثم ابتداء فقال: أقسم بهذا البلد.

وقال آخرون: إنه نفي للقسم، كأنه قيل: إن تعظيم هذا البلد مثلاً من الأمور المستقرة الثابتة، لا حاجة للأقسام به. والذي نرجحه هو الرأي الأول. ونكتفي بهذا القدر في هذا الموضوع القسم في القرآن الكريم، والله الحمد والمنة.

الْفَضِيلُ الْخَامِسُ وَالْإِعْشِرُونَ

حجج القرآن الكريم

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

أثرت هذا العنوان على ما أثره مجلّ الكاتين في علوم القرآن الكريم (جدل القرآن الكريم) ذلكم أننا حينما نتدبر آي القرآن الحكيم نجد أن الجدل جاء في أكثر آياته منسوباً إلى أهل الباطل والزيف والضلّال ﴿مَا يُجَدِّلُ فِي ءَايَتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْإِلْدَادِ﴾ [غافر: ٤] ﴿الَّذِينَ يُجَدِّلُونَ فِي ءَايَتِ اللَّهِ يَغْيِرُ سُلْطَانُ أَتْنَهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْمَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَدِّلُونَ فِي ءَايَتِ اللَّهِ يَغْيِرُ سُلْطَانُ أَتْنَهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِغِيهِ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦] ﴿الَّذِينَ يُجَدِّلُونَ فِي ءَايَتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرِفُونَ﴾ [غافر: ٦٩].

وقد فرق علماء آداب البحث بين الجدل والمكابرة والمناظرة، ومجلّ الكتب التي تحدثت عن جدل القرآن سواء أكانت كتب علوم القرآن كالإتقان للسيوطي، أم كتب الفلاسفة كفصل المقال ومناهج الأدلة لابن رشد، والشفاء لابن سينا، استعارت هذه الكتب كثيراً من مصطلحات المناظرة وأقوالهم وتقسيماهم.

ولما كان المنطق قد نُحِّي عن مجلّ معاهدنا العلمية وكليّاتنا الجامعية، فإن من الصعوبة أن يستطيع طلاب هذه المعاهد والكليات فهم هذه الأقسام والمصطلحات؛ لذا فإنني سأسلك بك أيها الطالب - إن شاء الله - طريقاً لا حزنه فيه ولا وعورة، طريقاً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا غموض، فأقول ومن الله العون، مبتدئاً بهذه الآية الكريمة

﴿ اَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَخَدِّ لَهُمُ الْبَالِغَ مِنْ حَسَنَاتِ مَا لَمْ يَحْكَمْ عَلَيْكَ مِنْ شَيْءٍ ۚ وَكَذَلِكَ يَتَذَكَّرُ الْغَافِلُونَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

المتدبر هذه الآية الكريمة يجد فيها فعلي أمر، أولها: ادع، والثاني: جادلهم. والفعل الأول انتظم مجالين اثنين: الحكمة والموعظة الحسنة، ونستنتج من هذا أن الناس ليسوا سواء، بل هم مختلفون من حيثيات كثيرة، من حيث ثقافتهم، وعقائدهم وفطرهم، فهنا أصحاب العقائد والنحل المتعددة، والملل المتباينة. والقسم الثاني: هم المثقفون الذين يصفون أنفسهم بالعقلانيين ويقولون: إن الذي يقنعهم الحجج العقلية والبراهين القطعية.

والقسم الثالث: هم أكثر الناس وهم الذين لا ينتمون إلى إحدى الفئتين السابقتين، إنما هم أقرب إلى الفطرة، وقد بين القرآن الكريم أن لكل من هذه الفئات الثلاث، طريقاً ينبغي أن يسلكه، فلا نخلط الأوراق بعضها ببعض، بل نتعامل مع كل فئة بالأسلوب الذي يصلح لها.

فأما أصحاب العقائد والنحل، فهؤلاء لا بد من أن نبين لهم خطئ ما هم فيه وخطأ ما هم عليه، وذلك لا يكون إلا بالجدال، ولكن بالتي هي أحسن، وأما المثقفون العقلانيون فطريقنا إلى مخاطبتهم الحكمة ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

إذا كنت في حاجة مرسلًا فأرسل حكيمًا ولا توصه^(١) وأما الصنف الثالث فطريقتهم الموعظة الحسنة؛ ذلك لأن للموعظة الحسنة، أثرًا لا ينكره عاقل؛ ولذا استعملت هذه الكلمة في كتاب الله كثيرًا ﴿وَلِذَلِكَ قَالَ لُتَمَنُّ لَأَبْنَيْهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧]،

(١) أبيت للزبير بن عبدالمطلب كما في التذكرة الحمدونية (١/١٠٥)، وجمهرة الأمثال للعسكري (٩٨/١).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

والمتدبر أي الذكر الحكيم يجد هذه الطرق الثلاث مبثوثة في سور القرآن الكريم وآياته في كل ما أراد القرآن أن يشبته من حقائق، وحجج القرآن الكريم لا تجدها نمطاً واحداً، بل اتخذت أنماطاً متعددة، نجدها في قصص القرآن الكريم واضحة جلية، كما نجدها في أمثاله وأحاديثه مع المخالفين، في إثبات حقائقه من الرسالات والتوحيد والبعث، وتقرير أحكامه الخلقية والاجتماعية والتشريعية ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

خصائص الحجج في كتاب الله :

وخصائص الحجج القرآنية عامة ليست في حججه فحسب، بل في موضوعاته جميعها.

وأولها: أنه بعيد عن تعقيدات الفلاسفة والمتكلمين التي لا تخلو من الجفاف والجفوة، فهي بعيدة عن الوجدانيات والأحاسيس والمشاعر والعواطف. يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي: «فإن الفرق بين الطريقتين: أن طريقة المنطق، تأتي على أوضاع وأقيسة معروفة مكررة، تلزم المخاطب بالعقل لا بالشعور، وبالسباق لا بالمعنى، ولذلك تدخلها المكابرة وتتسع لها المغالطة. أما طريقة البلاغة فيراد بها تحقيق المعنى واستبراء غايته، ونزع الشبهة منه، فيستوفى الكلام، وتذهب النفس فيه أرقى مذهب، وهذا هو الإلزام البياني الذي توحيه طبيعة المعنى»^(١).

ثانياً: خطاب الناس جميعاً، فحجج القرآن تخاطب الناس على اختلاف أصنافهم وتباين أفهامهم، وتفاوت مداركهم، فيجد فيه الجميع الغذاء النفسي والاعتقادي والخلقي والإنساني.

(١) إعجاز القرآن، ص ٢١٥.

ثالثاً: الحذف والإيجاز: فالقرآن مبناه الحذف والإيجاز، اقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣١) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ [آل عمران: ٥٩-٦٠].

والحذف قد جعل في الكلام طلاوة، وأكسبه رونقاً، وجعل الجملة مثلاً مأثوراً، يعطي حجة الرد على النصارى، ويذكر الجميع بأن آدم والناس جميعاً ينتهون إليه، وإنما خلق من تراب فلا عزة إلا لله تعالى.

رابعاً: استخدام الحجة والبرهان قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨] فالبصيرة هي الحجة الواضحة غير العمياء.

خامساً: القول اللين والأسلوب الحكيم الذي يقنع الخصم ويشد السامع، ويستهوئ النفس.

سادساً: حجج القرآن لا يقصد منه الإفحام والإلزام فحسب، بل يقصد في الغالب إلى إرشاد القارئ والأخذ بأيديهم إلى الحق، وتوجيه أنظارهم إلى دلائل قدرته تعالى في الكون، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِحَيْثُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧﴾ تَبَصَّرُوا وَذِكْرُنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُّتَّبِعٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٦-٨]. فالآيات توجه النظر إلى الكون وعجائب الصنع ودلائل القدرة في السماء والأرض.

حجج القرآن في إثبات التوحداية:

وبعد هذا يجمل بنا أن نقف مع بعض حجج القرآن الكريم فيما أورده من حقائق، وسنجد الإقناع العقلي والإمتاع العاطفي في حجج القرآن الكريم، وسنختار بعض الآيات الكرييات في موضوعات متعددة لنذكر منها هذا اليسر وهذه المساهلة، فالقرآن الكريم لا يرغم الخصم بما يريد إثباته عن طريق الإكراه، بل يرخي له العنان، ويترك له الحرية فيما يريد قوله، بل يذهب إلى ما هو أبعد من هذا حيث يقرر أنه لا يدعي أحقيته دون برهان ساطع. ومن هنا نذكر ما ادّعاه (بابا) روما قبل أيام زوراً ومهتاناً من أن

الإسلام يضطهد العقل، وأحكامه منافية للحكمة ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]. استمع إليه سبحانه وتعالى وهو يقول في كتابه: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: ٢٦].

فانظر إلى هذه المساهلة التي لا تجد لها في غير القرآن الكريم ﴿وَإِنَّا أَوْيَاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبا: ٢٤] لا بد أن يكون أحدنا مهتدياً أو ضالاً، ثم استمع إليه ﴿لَا تُشْكِرُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنْكِرُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٢٥] حيث لم يقل: (لا نسأل عما عملنا ولا تسألون عما تجرمون).

واستمع إليه يلزم الذين يشككون في خلق الله ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) ﴿أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦] إنهم لا يستطيعون أن يدعوا أنهم خالقون، كما لا يستطيعون أن يدعوا أنهم خلقوا السماوات والأرض، بقي أن يكونوا خلقوا من غير شيء وهذه قضية تنكرها الفطرة السليمة فضلاً عن لا تستعمل إلا في سياق النفي العقل النير.

واستمع إليه في حديثه عما كان بين أبينا إبراهيم صلوات الله عليه وعلى نبينا وأنبياء الله جميعاً وبين قومه: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٨٠) ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨١) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٢]. ثم يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وقد دعا القرآن الكريم إلى التوحيد، ولكنه لم تكن دعوته مجردة، بل أقام الأدلة المتعددة على دعوته، وقد اتخذت هذه الحجج طرقاً متعددة، منها:

١- طريق الخلف: ومعناه أنه لو لم يكن هناك إله واحد، لكانت هناك مفاصد كثيرة يختل بها هذا الكون، نقرأ قوله الله تعالى في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿لَوْ كَانَ

فِيهِمَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ [الأنبياء: ٢٢] ونقرأ قول الله تبارك وتعالى في سورة المؤمنون: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ [المؤمنون: ٩١-٩٢].

٢- وقد يكون الدليل بضرب المثل: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ [الزمر: ٢٩] أي إذا كان هناك مملوك يملكه شركاء، ومملوك لا يملكه إلا رجل واحد، أيستويان؟ لا، لأن المملوك لأكثر من واحد لن يستقر له حال؛ لأن كلاً من مالكيه يريد منه شيئاً يتناقض مع ما يريده الآخر.

٣- وقد يكون الدليل على الوحدانية، بإثبات آثار نعم الله في هذا الكون، وهذا كثير في كتاب الله ﴿وَاللَّهُ كَرِيمٌ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالاختلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْجَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٣﴾ [البقرة: ١٦٣-١٦٤].

وقال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٨﴾ أَمَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسٍ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلُقَاءَ أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيْحَ بِشَرِّهَا يَتَّبِعْهُ أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَفِيهِ يَرْفَعُ رُفُكَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَسَتْ أَوَّلُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَكِيمِينَ ﴿٦٤﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَتَاءً يَنْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ [النمل: ٥٩-٦٥].

٤- وقد يكون بتقرير حقيقة علوية ثابتة كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

حجج القرآن في إثبات البعث:

وكما سلك القرآن الكريم في إثبات التوحيد، سلك ذلك كذلك في إثبات البعث، حيث يأتي بالأدلة والبراهين المنتزعة من حياة الناس، والتي هي في حقيقة الأمر نعم من نعم الله تعالى التي لا يستطيعون الحياة بدونها.

وقد تكون هذه الأدلة أدلة آفاقية، أي: مما هو حول الإنسان في الأرض والسماء وقد تكون أدلة أنفسية، أي: تتحدث عن نشأة الإنسان.

وقد اتخذ إثبات البعث في القرآن الكريم حججاً كثيرة، فمن الأدلة الأنفسية ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْا بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] وقوله سبحانه: ﴿مَا خَلَقْكُمْ وَلَا نَبْعَثْكُمْ إِلَّا كَنْفُسٍ وَاحِدَةً إِنْ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨] وقوله سبحانه ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَنَاتٍ لِّكَ بِمَقْبَلَتِنَا فَانزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقد يكون الدليل آفاقياً ولكن بأسلوب آخر، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِ الْعِظَمُ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْشَأْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴿ [يس: ٧٨-٨٠] فلماذا تنكرون البعث وتستبعدونه؟ هذا الشجر الأخضر، أليست الخضر من الماء، ثم أليس الماء مضاداً للنار؟ ومع ذلك فأنتم توقدون النار من هذا الشجر الأخضر؟ أليس في ذلك دليل على إنشاء الحياة من ضدها.

وقد تجمع الآية الواحدة بين هذين النوعين من الأدلة، أعني الأنفسية والآفاقية. ونقرأ في هذه الآيات الكريمة من سورة الحج التي هي بحق لا تدع ريبة لمرتاب، ولا منفذاً لمستغرب أو منكر والتي تحاطب العقل والعاطفة، فتقنع العقل وتمتع العاطفة، ولا ترقى إليها أدلة المناطقة والمتكلمين والفلاسفة، والتي لا يقرؤها متدبر إلا وتحدث أثراً في نفسه، تلکم هي ما جاء في أول سورة الحج ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّؤْتٍ وَيَمْسِكُمْ مِّن يُّرْدٍ إِلَى الْأَرْضِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَفِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٥-٧].

ثم يعقب الله على هذه الآيات بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الحج: ٨]. أما حجج القرآن مع أهل الكتاب ومع الوثنيين فلا تسل عما فيها من إلزام ومن إقناع. استمع إليه في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٨﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكْفُرْ مِنَ الْفُتُورِ﴾ ﴿٩﴾ [آل عمران: ٥٩-٦٠] وانظر إلى هذا الإيجاز المعجز، والإعجاز الموجز، فإذا كان عيسى عليه السلام يستحق الألوهية لأنه خلق من أم ولا أب، فإن آدم عليه السلام خلق من غيرهما.

ثم إن حجج القرآن حجج قاطعة، وها هو كما يرد على النصارى نجله يرد على اليهود في دعواهم أن ما حرّم عليهم كان شريعة التوراة فيرد الله عليهم بقوله: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالاً لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ فَمَن قَاتَلُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتَوْهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

ويقول لهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِذْهِمِمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥]. كذلك قوله سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى

ثم استمع إليه وهو يحاجّ المشركين في عقائدهم الفاسدة فيما حرموه وأباحوه في قوله سبحانه: ﴿تَمَيَّنْهُ أَزْوَاجٌ مِنَ الطَّيَّانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَدَّكَوْنِي حَرَمٌ أَمْ الْأَنْثَيْنِ أَمْ أَسْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَزْهَامُ الْأُنثَيْنِ يَفْعُو يِعْلِمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمَنِ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمَنِ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَدَّكَوْنِي حَرَمٌ أَمْ الْأُنثَيْنِ أَمْ أَسْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَزْهَامُ الْأُنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّلَكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤٣-١٤٤].

وهذا كثير في كتاب الله تعالى، وليس غرضنا الاستقصاء، فهذا أمر صعب، ولكن
الهدف أن نأتي بالمثال، واللبيب تكفيه الإشارة.

۳۱۶

رَفَعَ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ الرَّحْمَنِيِّ
السَّامِعُ الْبَصِيرُ

الْفَصْلُ الْإِسْلَامِيُّ وَالْإِسْلَامِيُّ

أنماط من الشبهات حول القرآن

تمهيد:

قد يكون لهذا الفصل شأن خاص، وفصول هذا الكتاب كلها ذات شأن، ولكن خطر هذا الفصل وعظم شأنه ناشئ عن كونه محاولة جادة لتتبع أنماط الشبهات التي أثاروها حول النص القرآني، أو في النص ذاته، وهو أحد الأهداف التي توخيت من هذا الكتاب، وقد حدثنا القرآن الكريم عما قاله الأقدمون في مواضع كثيرة منه، قال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقالوا كذلك: ﴿إِنِّي بَشَرٌ مِثْرُ الْآخَرِينَ هَذَا أَوْ يَدُلُّهُ﴾ [يونس: ١٥]، ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا آفَكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣].

ومهما بطرحوا من شبهات فإنها سرعان ما توأد عندما تولد، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُخَصِّمُ اللَّهُ إِلَيْنَا ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥١﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ٥٢ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٣ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥١-٥٥].

والقرآن منذ أنزله عالم الغيب والشهادة بوساطة الروح الأمين على قلب الرسول ﷺ، منذ ذلك الوقت وجه إليه مرضى القلوب التهم والمطاعن، وألقوا فيه الشبهات،

وحاول بعضهم أن يعارضه، ولكن ذلك كله لم يقو على الحياة والحركة، بل لم يلبث أن تلاشى كتلك الفقاعات التي تطفو فوق الماء، وهذا شأن الزبد يذهب جفاءً، وإذا كان كل هذا من هؤلاء العرب الأقحاح قد تحطم على صخرة القرآن الصلبة - والمفترون لم تفسد سليقتهم - فمن الطبيعي أن يكون أقرب إلى التحطم والزوال ما جاء به وافتراه غير هؤلاء ممن فسدت طبائعهم وأذواقهم، والقرآن - وقد تكفل الله بحفظه - لا يطمع أحد أن يغير فيه أو يبدل.

وها نحن نرى أنه قد جندت مواهب أفسدها التعصب، وعقول لعب بها الهوى، وأفندت ملامها الحقد، وأقلام أغرت أصحابها المطامع، جندت كل هذه لتنال من القرآن، فرأينا من يريد أن ينال من أسلوب القرآن، وعقائده وأحكامه، وفي هذا العصر الذي هجمت فيه ثقافة الغرب رأينا هذه الأقلام تُبعث لتنال من أحكام القرآن وتشريعاته، ومن لغة القرآن وأسلوبه وقصصه.

والقرآن دوحة علم وروضة معرفة مد طلاب العلم والباحثين عن المعرفة ببيغيتهم وحاجتهم، فإذا وقف رجل البيان أمامها يستجلي صورها التعبيرية وتراكيبها، وخصائص هذا التركيب، وجد معانيها تنساب كأنها هي جدول عذب يترقق، وألفاظها تتسق كأنها هي نغمات عذبة تتدفق حيوية وجمال إيقاع، وإذا وقف أمامها عالم الفقه والاجتماع ليستجلي ما فيها من حكم وأحكام، وجد النظام البديع والقيم الإنسانية الخالدة، والأحكام التي لا يصلح النوع الإنساني إلا حينما يعيش في ظلها، وإذا وقف أمامها الفيلسوف ورجل العقيدة، وعالم الأخلاق والباحث في أسرار الكون فإنها تمد هؤلاء جميعاً بقواعد مما يطلبون، أقصى مما تصل إليه نتائج أبحاثهم القائمة على أساس البحث العلمي والمنطق السوي، أما إذا أراد أن يعالجها من يتلمس فيها عوجاً ويتصيد مطعناً فإنه يرد خائباً مدحوراً، ويرجع بخفي حنين خاسئاً وهو حسير.

وستتطرق إلى هؤلاء الذين أرادوا أن ينحرفوا بالنص القرآني عن مداره، ويخرجوه عن مساره، فأبى عليهم واستعصى ما أرادوا، ولن يستقيم لهم ذلك أبداً، ذلك إن النص القرآني في فلكه العلوي يربأ عن التبديل في لفظه ومعناه، وماذا يكون حال الحياة إذا غير فلك من أفلاكها طريقه المستقيم؟ إنها الطامة الكبرى إذن، وكذلك شأن هذا القرآن.

شبهات الأقدمين، الروايات التي تثير الريب في تواتر القرآن الكريم:

وقد ذكرت هذه الروايات في بعض كتب التفسير والحديث وعلوم القرآن. ولقد مر بنا بعضها في موضوعات هذا الكتاب، رأينا بعضها في حديثنا عن جمع القرآن، وعن المكي والمدني، وعن النسخ، وعن الأحرف السبعة وغيرها من الموضوعات، وتحدثنا عنها هناك بما يغني عن إعادته هنا، وسنعرض إلى أبرز هذه الروايات وهي روايات كثيرة.

ولقد قام الدكتور جمال أبو حسان - جزاه الله خيراً - بجمع جلّ هذه الروايات، ودرسها دراسة علمية من حيث أسانيدها، وكانت النتائج - والحمد لله - طيبة، فهي روايات لم تثبت صحتها، وقد كفانا الدكتور جمال - مشكوراً - هذه الجهة من الدراسة، وسأكتفي بعرض هذه الروايات ودراستها، ومناقشتها من جوانب أخرى.

وأحب أن أبادركم القول إن هذه الروايات تحمل الحكم عليها بالرد سواء من حيث نصوصها، أم من حيث الذين رويت عنهم، فجلبها رويت عن أعلام من أعلام الصحابة، مثل ابن عباس وعائشة وعثمان رضي الله عنهم الذين كانوا أعلم الناس بكتاب الله تبارك وتعالى من حيث لغته، ومن حيث تنزله، أي: من حيث كونه كتاباً سماوياً، ومن حيث كونه كتاباً عربياً، وهذا النقض الإجمالي يكفي لرد هذه الروايات، ولكننا مع هذا سندرسها واحدة واحدة ونتكلم عن كل واحدة بما يقتضيه المقام، وبذلك نجتمع بين النقض الإجمالي والنقض التفصيلي.

أولاً: ما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - :

١- أخرج الطبري في تفسيره، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه كان يقرأ (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا) قال: وَإِنَّمَا تَسْتَأْذِنُوا وَهُمْ مِنَ الْكُتَّابِ^(١).

(١) الطبري (٨٧/١٨)، شعب الإيمان (٤٣٧/٦).

وقرأ الجمهور: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]

وقد ذكر الدكتور جمال روايات هذا الأثر معلقاً على كل واحدة منها على حدة. وأكد هنا أن الدافع لأصحاب هذا القول لتزوير هذه الرواية ما استقر في الأذهان وفي العرف، وأذنت به اللغة من أن لفظ الاستئذان هو المناسب المتسق مع هذا المعنى، أعني دخول الإنسان بيتاً غير بيته، ولقد فات القائلين ما امتاز به القرآن الكريم من دقة الكلمات، واختيار كل منها بما يتسق مع المقام، فاتهم أن هذا القرآن الكريم أحكمت آياته، ونسقت كلماته، فهو لا يعني ببهرج القول وزخرفته، إذا كان ذلك غللاً بالمعنى، ألا تراه يذكر الكلمة التي كان القارئ يحسبه سيذكر غيرها خذ مثلاً الحديث عن فرعون ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَ كُفٍّ﴾ [البقرة: ٤٩]، والذي يقابل الأبناء النبات، فكان يُظن أن القرآن سيقول: «يستحيون بناتكم» ولكن القرآن الكريم ترك هذه الكلمة إلى كلمة أخرى، فقال: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَ كُفٍّ﴾ ؛ لأن المعنى يتطلب هذه الكلمة، وهكذا القرآن الكريم في بنائه المحكم، ويعلم الله أن الآية التي معنا هي من أعظم روافد الإعجاز؛ لذلك فإني على يقين أن ما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - محال أن يصدر عنه وإليك بيان هذا:

ذكرت كلمة استئذان في أكثر من سورة في كتاب الله، ذكرت في سورة براءة ﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿[التوبة: ٤٤-٤٥]. وذكرت في سورة النور، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

والاستئذان في هذه الآيات لا يعني، الاستئذان لدخول البيوت، بل هو طلب الإذن من النبي ﷺ لبعض الشؤون، وكان المنافقون يطلبون هذا الإذن دائماً ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُلُ أَفْذَنَ لِي وَلَا نَفْعَ لِيَ﴾ [التوبة: ٤٩].

أما الاستئذان الذي نحن بصددده، فقد جاء فيه قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ...﴾ الآية [النور: ٥٨]، وقال في الآية التي تليها: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٩] وأرجو أن تكون - أخي القارئ - قد بدأت تدرك إحكام الآيات القرآنية.

كلمة الاستئذان - إذن - ذكرت في شأن من في البيت من الأولاد والخدم، وهم الذين لا يستغنون ولا يستغنى عنهم. أما أولئك الذين ليس لهم هذه الصلة، فليس من الحكمة البيانية ولا الحكمة الاجتماعية أن يسوي القرآن الكريم بينهم وبين من سبقهم في أمر الدخول، ولا في العبارة نفسها. ألا ترى أن الأوقات التي أباح لهم أن يستأذنوا فيها لا يليق بغيرهم أن تكون هذه الأوقات محل إذن لهم؟! هذه الحكمة الاجتماعية.

أما الحكمة البيانية؛ فإنها تحتم أن نفرق من حيث التعبير بين أولئك الذين هم من البيت وبين غيرهم من الأبعد، فإذا كان أمر الإذن كافياً لهؤلاء، فإنه لا ينبغي أن يكون كذلك لأولئك؛ لهذا كانت الكلمة القرآنية الكوكب في مساره ومداره، لا تغني عنها غيرها، وكم من مستأذن يجد فيه صاحب البيت سماجة وثقلاً، فإن أذن له فإنها يأذن على مضض، ولعلنا جميعاً نعرف هذه الحقيقة من أنفسنا، لذلك جاءت الكلمة القرآنية ﴿حَقَّ تَسْتَأْذِنُوا﴾، أي: تستشعروا الأنس من مزوركهم، وليس مجرد الاستئذان فحسب.

أعرفتم السر الذي جاءت به الكلمة القرآنية وضاء وضاحة، متألثة؟، أفصبح بعد هذا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما؟!

٢- الرواية الثانية: عن ابن عباس: روي عنه أنه كان يقرأ قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْنَيْسْ﴾ [الرعد: ٣١] «أفلم يتبين الذين آمنوا»، قال كتب الكاتب الأخرى وهو ناعس^(١).

(١) الطبري (١٣/ ١٠٤).

وقبل أن أفصل لك القول في هذه الفرية، أود أن أؤكد، وإن شئت أقسم بأن هذه نفثة خبيثة من شيطان مارق، وهي فرية ليس فيها مزية - كما يقول الزمخشري -^(١) وهي قولة زنديق ملحد - كما يقول أبو حيان -^(٢).

وبعد، فلقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن اليأس في الآية الكريمة بمعنى العلم، مستدلين لذلك بما يلي:

أولاً: أن هذه لغة بعض قبائل العرب، وأنشدوا في ذلك شعراً؛ ومنه قول سحيم ابن وثيل الرياحي:

أقول لهم بالشَّعْبِ إِذْ يَنْسِرُونَنِي أَلَمْ تَيَاسُوا أَنِي ابْنُ فَارِسٍ زَهْدَمٍ^(٣)
ثانياً: ما ورد من قراءات غير متواترة «أفلم يتبين» وهذه القراءة تقوي أن المقصود باليأس العلم، قالوا: وإنما أطلق اليأس على العلم لما بينهما من تلازم؛ لأن اليأس من الشيء عالم بعدم حصوله. وذهب كثيرون من المفسرين واللغويين إلى أن اليأس في الآية على حقيقته، وقالوا: إن سياق الآيات يؤيد هذا المعنى، فأول الآية ﴿وَلَوْ أَنَّا سِيرَتَ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ﴾ [الرعد: ٣١] والآيات قبلها حديث عن الكافرين وعنادهم، وكان المؤمنون يتمنون أن يؤمن أولئك الكافرون.

الموازنة بين هذين القولين،

وبادئ بدء أود إعلامك أنني لا أنكر أن يأتي اليأس بمعنى العلم، حقيقة أو مجازاً، لكن الذي أفهمه من الآية الكريمة هو أن اليأس فيها على حقيقته، ويرجح هذا المعنى على سابقه لما يلي:

١ - إنه المعنى المتبادر عند الإطلاق.

(١) الكشف (٢/ ٥٣١).

(٢) البحر (٥/ ٣٩٢).

(٣) زهدم: هي فرس سحيم بن وثيل. وقوله (ينسرونني) من أيسار الجزور، أي يجتزونني، ويقسمونني، قال ذلك الشاعر: لأنه كان قد أسر في صباه فضرب عليه الأسرون باليسر على قسمة فدائه.

٢- إنه الذي تنصره السياقات؛ في القرآن المكي: كان المستكبرون من أهل مكة يستضعفون المؤمنين، ويسومون كثيراً منهم سوء العذاب، لذلك كان المؤمنون يميلون كل الميل، ويحرصون كل الحرص على أن يؤمن أولئك المستكبرون، وكانوا يتمنون أن لو يعطى أولئك الآيات التي كانوا يقترحونها ويطلبونها، ولقد بين الله تبارك وتعالى لأولئك المؤمنين أن أولئك المعاندين مهما أعطوا من آيات فإنهم لن يؤمنوا، ولقد جاء ذلك صريحاً في كتاب الله تعالى، وفي القرآن المكي بخاصة، وسورة الرعد مكية - كما رجحنا من قبل - يقول الله تبارك وتعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَيْنَا ۖ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١] أي ولكن أكثر المؤمنين يجهلون أن أولئك الكافرين لن يؤمنوا مهما أعطوا من آيات، فالضمير في أكثرهم يعود إلى المؤمنين، وهو أحد التفسيرين للآية الكريمة.

إذا عرفتم هذا - ومن البدهي أن القرآن يفسر بعضه بعضاً - فإن هذه الآية خير ما يفسر آية سورة الرعد وقد ذكر هذا القول ابن عطية^(١)، وأبو حيان^(٢)، وأشار إليه الزمخشري^(٣)، قال أبو حيان:

وقال أبو العباس: أفلم يأسوا بعلمهم أن لا هداية إلا بالمشيئة؟ وإيضاح هذا المعنى أن يكون: أن لو يشاء الله متعلقاً بآمنوا، أي: أفلم يقنط عن إيمان هؤلاء الكفرة الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً، ولهداهم إلى الإيمان أو الجنة، وقال ابن عطية: ويحتمل أن يكون اليأس في هذه الآية على بابه، وذلك أنه لما أبعد إيمانهم في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا﴾ الآية، على التأويل في المحذوف المقدر، وقال في هذه: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِئِصِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ انتهى. وهذا قول الفراء الذي ذكرناه.

(١) المحرر الوجيز (٨/ ١٧٢).

(٢) البحر (٥/ ٣٩٢).

(٣) الكشف (٢/ ٥٣٠).

وقال الزخشي: ويجوز أن يتعلق أن لو يشاء الله بآمنوا على معنى أو لم يقنط عن إيمان هؤلاء الكفرة الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً. انتهى. وهذا قول ابن عباس.

ويحتمل عندي وجه آخر غير ما ذكره: وهو أن الكلام تام عند قوله: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِئِصَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إذ هو تقرير، أي: قد يشك المؤمنون من إيمان هؤلاء المعاندين، وأن لو يشاء جواب قسم محذوف، أي: وأقسموا لو شاء الله لهدى الناس جميعاً، ويدل على إضمار هذا القسم وجود أن مع لو، كقول الشاعر:

أما والله أن لو كنت حراً وما بالحر أنت ولا القمين^(١)
وسواء بقي اليأس على حقيقته - كما رجحت لك - ، أم فسر بالعلم؛ فإن الخبر - رضي الله عنها - مما نسب إليه براء، قال الزخشي - رحمه الله - :

«وقيل: إنما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوي السينات، وهذا ونحوه مما لا يصدق في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتاً بين دفتي الإمام، وكان متقلباً في أيدي أولئك الأعلام المحتاطين في دين الله، المهيمنين عليه، لا يغفلون عن جلائله ودقائقه، خصوصاً عن القانون الذي إليه المرجع، والقاعدة التي عليها البناء، وهذه والله فرية ما فيها مزية»^(٢).

ورحم الله ابن حجر^(٣)، فلقد عرف عنه تصحيحه لكثير مما لا يليق به أن يكون كذلك.

ثانياً، الرواية عن عائشة رضي الله عنها،

ما روي عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن الكتاب أخطؤوا، حيث روي أنها سئلت عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَّخِرَيْنِ﴾ [طه: ٦٣]، عن قوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾

(١) البحر (٣٩٢/٥).

(٢) الكشف (٥٣١/٢).

(٣) فتح الباري (٤٤٤/٩).

[النساء: ١٦٢]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقُونَ﴾ [المائدة: ٦٩] فقالت: هذا عمل الكتاب أخطؤوا في الكتاب.

وروي أن عبيد بن عمير سأل السيدة عائشة: كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا﴾ [المؤمنون: ٦٠] أو (والذين يَأْتُونَ مَا آتَوْا) فقالت: أيهما أحب إليك؟ قال: والله لإحداهما أحب إلي من كذا وكذا، قالت: أيتهما؟ قال: (والذين يَأْتُونَ) قالت: أشهد كذلك كان يقرأها، وكذلك أنزلت ولكن الهجاء حُرِّفَ.

وقد أخرج هاتين الروایتين كثيرون، فقد جاءت الرواية الأولى في كتاب فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام، وسنن سعيد بن منصور، وتفسير الطبري، وكتاب المصاحف وغيرها، والرواية الثانية جاءت في كتاب الأسامي والكني ومسند أحمد، والمستدرک وغيرها.

وهذه الآثار لم تجد أي عناية بشأنها عند علماء المسلمين، حتى أولئك الذين وثقوا بعض أسانيدھا. وهذا الإمام الباقلاني قد رد هذه الروایات ووهنها متوناً وأسانيد. وقد تتبع الدكتور جمال أبو حسان في بحث «الجواب عما خطأت به عائشة رضي الله عنها كُتَاب المصاحف»، أقول: تتبعها رواية رواية ودرس أسانيدھا، وبين أنها إما ضعيفة أو موضوعة^(١).

يقول الشيخ عبدالعظيم الزرقاني: «إن هذه الروایات مهما يكن سندھا صحيحاً فإنھا مخالفة للمتواتر القاطع، ومعارض القاطع ساقط مردود لا يُعمل به»^(٢).

وروي عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه عن عائشة «أنها سئلت عن قوله «المقيمين» وعن قوله: «والصابئون» وعن قوله «إن هذان» فقالت: يا ابن أخي هذا كان خطأ من الكاتب»^(٣).

(١) مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات، المجلد السابع، العدد الثاني، شوال ١٤٢٦هـ/ كانون أول ٢٠٠٥م.

(٢) مناهل العرفان (١/ ٣٨٦).

(٣) معاني القرآن للفراء (٢/ ١٨٣)، فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٦١، تفسير الطبري (٦/ ١٨).

وقبل الحديث عما يتصل بهذه الروايات، لا بد من تسجيل ما يلي:

١- لقد فات السائل، ولا أدري أنسي أم تناسى أن يسأل عن آية مماثلة لقوله سبحانه: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٦٢]، تلكم الآية هي قوله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧] فقد جاء فيها قوله سبحانه: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْوَعْدِ وَالصَّادِقِينَ فِي الْوَعْدِ وَالصَّادِقِينَ فِي الْوَعْدِ﴾ [البقرة: ١٧٧] وكان الظاهر أن يقال: والصابرون ولكن السائل لم يفتن إلى هذه الآية، وفي هذا إشارة إلى تزوير هذه الرواية، وكونها مكذوبة على عائشة.

٢- إن الآيات المسؤولة عنها بعضها مما اختلفت فيه القراءات، وبعضها الآخر اتحدت فيه قراءات القراء جميعاً. أما ما اختلف فيه القراء فهو قوله سبحانه: ﴿إِنْ هَذَا لَسِحْرٌ﴾ [طه: ٦٣]، فقرأها بعضهم (إن هذان لساحران)، وهي رواية حفص و(إن) هنا مخففة من الثقيلة غير عاملة.

والقراءة الثانية (إن هذين لساحران)، فهذين اسم (إن) مبني على الياء، أو منصوب بالياء على اختلاف بين النحويين. ولا إشكال في هاتين القراءتين.

والقراءة الثالثة: (إن هذان لساحران)، ولقد أجاب العلماء إجابات كثيرة عن هذه القراءة استوعب كثيراً منها ابن هشام - رحمه الله - في شذور الذهب، فنقل عن ابن تيمية - رحمه الله - وغيره أوجهاً، فارجع إليه إن شئت^(١). ولعله قد مرّ معك شيء من هذا في فصل القراءات القرآنية. لذا نكتفي بها ذكرناه هناك.

أما الآيات التي لم يختلف فيها القراء، فهي قوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٦٢]، ﴿وَالصَّابِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٢]، فقد أجمع القراء العشرة على قراءة هاتين الآيتين (والمقيمين) بالنصب، و(الصابئون) بالرفع.

(١) شذور الذهب: ٤٦ وما بعدها.

ولتحدث عن الآية الأولى أولاً: قال تعالى: ﴿لَكِنَّ الرَّاكِبِينَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢] وكان الظاهر أن يقال: (والمقيمون الصلاة) وهي تشبه تماماً آية سورة البقرة وهي قوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ومن التجني أن تنسب هذه الروايات إلى كبار الصحابة، كعائشة وابن عباس وقد كانوا أعرف الناس بأفانين العرب في القول، وأساليب العربية في التعبير.

واعلموا أن الإعراب فرع المعنى، وأن من شجاعة العربي الخروج عن المألوف إذا كان ذلك يسهم في زيادة المعنى، إن في العربية أسلوباً يسمى أسلوب القطع، وهو أن تقطع الكلمة عما قبلها، إذا كان ذلك يكسب المعنى زيادة، وإذا كان ذلك من شأنه أن يتغير به المعنى تغيراً مراداً، فقد تكون الصفة مجرورة، ولكنهم يقطعونها عن موصوفها المجرور فيرفعونها أو ينصبونها، أو تكون الصفة مرفوعة فينصبونها. مثال ذلك:

«أعجبت بالحاكم العادل والمرأة العفيفة، فالعادل والعفيفة صفتان، الظاهر أن تكونا مجرورتين، ولكن قد يقولون: أعجبت بالحاكم العادل أو العادل، والمرأة العفيفة أو العفيفة» برفع الصفتين أو نصبهما. وهم لا يسلكون هذا المسلك دائماً، إنها يسلكونه إذا كان في الأمر ما يستدعي التنبيه ولفت النظر، فإذا كان عدل هذا الحاكم مما يضرب به المثل، وكانت عفة تلك المرأة كذلك، ومثل هذا «ترحمت على عمر العادل» فإنه قد يقطعون هذه الصفة نصباً أو رفعاً، ليسينوا أن هذا العدل كان من الأمور النادرة، وهم كما يفعلون هذا بالصفة فيقطعونها عما قبلها إعراباً، فإنهم يفعلون هذا بالعطف كذلك، فالنعت والعطف من التوابع، وهذا كثير في كتاب الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ (٨) رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴿[المزمل: ٨] فرواية حفص برفع (رب) مع أنها حقها الجر. والمتبع لهذا في كتاب الله سيجد كثيراً منه. إذا عرفت هذا، فإنك تدرك السر الذي جاءت له كلمتا (الصابرين) و(المقيمين) منصوبتين وكان الظاهر رفعهما.

أما الآية الأولى: فلقد كان المراد منها تخصيص صفة الصبر، وتميزها عن غيرها من الصفات؛ ذلكم لأن صفة الصبر لا بد من أن تدخل كل عبادة، فالعبادات كلها محتاجة إلى صبر، ومن أجل هذا قطعت كلمة الصبر عن غيرها إعراباً لهذه الحكمة البليانية. كذلك (المقيمين) في الآية الثانية، فإنها قطعت عما قبلها لبيان منزلة الصلاة التي استهان بها كثير من أولئك اليهود، هذه الصلاة التي تصقل النفس، وتهذب القلب، وتطهر الفؤاد، حرية أن تلفت الأنظار إليها^(١)، تلكم هي العربية في أفانينها، وذلكم هو القرآن في رفعة أسلوبه، أيقال بعد ذلك: إن ذلك كان خطأ من الكاتيين؟! ثم يسند هذا القول إلى أساطين الأدب، وأعلم الناس بكلام العرب؟ إن هذا إلا اختلاق، يقول الألويسي:

و(الصابرين) نصب على المدح بتقدير - أخص أو أمدح - وغير سبكه عما قبله تنبيهاً على فضيلة الصبر، ومزيته على سائر الأعمال حتى كأنه ليس من جنس الأول، ومجيء القطع في العطف مما أثبتته الأئمة الأعلام، ووقع في الكتاب أيضاً واستحسنه الأجلة، وجعلوه أبلغ من الاتباع، وقد جاء في النكرة أيضاً كقول الهذلي:

ويأوي إلى نسوة عطّل وشعثاً مراضيع مثل السعالي^(٢)

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّيِّئُونَ وَالصَّهْرَىٰ مَن ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩].

اعلموا - أرشدكم الله - أن هناك آيات ثلاثاً تتشابه من حيث النظم: الآية الأولى في سورة الحج ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّيِّئِينَ وَالصَّهْرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

(١) أو يقال إنها قطعت عما قبلها إيداناً بأن المصلين في بني إسرائيل قلة. فلقلتهم مع كثرة أنبيائهم استحقوا أن يفردوا إفراداً بظهورها فيه، فكان ذلك بقطع صفتهم عن سبقهم على أنهم بالطبع لم يكونوا في موضوع الزكاة خيراً منهم في موضوع الصلاة. والله أعلم.

(٢) روح المعاني (٢/٤٧).

الآية الثانية: في سورة البقرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ
مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

الآية الثالثة: آية المائة التي ذكرناها.

أما آية الحج، فأول هذه الآيات نزولاً؛ لأننا نرجح مكية الآية؛ ولذلك ذكر فيها
فتتان لم تذكر في الآيتين التاليتين المدينتين، وهاتان الفتتان: المجوس والذين أشركوا، وهو
ذكر يتناسب مع تنزل الآية الكريمة، فالذين أشركوا هم عبدة الأوثان، والمجوس يشبهونهم،
وهدف هذه الآية هو بيان فصل الله بين أولئك الأصناف ليُجزى كل بما يستحق.

أما الآية الثانية: أعني آية البقرة؛ فقد قدم فيها النصارى على الصابئين، وهو ترتيب
طبيعي حيث بدأ بذكر المؤمنين واليهود والنصارى، وهم أصحاب الشرائع الثلاث، وذكر
الصابئون بعد ذلك، وقد قيل: إنهم فئة انفصلت عن النصرانية، وقيل: إنهم فئة مستقلة،
وليس هدفنا الآن تحقيق هويتهم. آية البقرة - إذن - جاءت ذات ترتيب طبيعي.

أما الآية الثالثة وهي آية المائة، فهي الآية التي أثرت حولها الفرية الظالمة، ذلك أن
لفظ الصابئين فيها جاء مرفوعاً، وكان حقه - حسب الظاهر - النصب، وقد تحدثت
كتب التفسير والقراءات وكتب إعراب القرآن عن توجيه الإعراب لهذه الآية، ومن خير
ما قيل في هذا التوجيه؛ أن (الصابئون) في هذه الآية الكريمة قطع عن العطف، فهو مبتدأ،
أو معطوف على محل (إن) واسمها، والقطع في العطف والنعت أمر مشتهر في العربية.
ولقد حدثتكم عنه عند حديثنا عن قوله سبحانه: ﴿وَالْمُفْسِدِينَ الصَّلَوةَ﴾. ولكن أمر
الإعراب يسير فلن يعدم الباحثون وجهاً من وجه الإعراب يحلّون به ما يعترضهم من
إشكالات، ولكن القرآن الكريم أجلّ من أن نكتفي بتقليب آياته على وجوه الإعراب، بل
إن وراء ذلك حكماً وأغراضاً تتصل بنظم الآية ومعناها، ولصاحب المنار - رحمه الله كلامٌ
جميل جيد، جدير بالمعرفة والتأمل.

قال الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله - :

«في هذه الآية بحث لفظي، وهو رفع كلمة الصابئين وتقديمها على كلمة النصارى،
فأما الرفع، ففي إعرابه وجوه، أشهرها أنه مبتدأ خبره محذوف والتقدير «والصابئون

كذلك» أو معطوف على محل اسم إن، وقد أجاز كوفيو النحويين هذا وعدّوه من الفصيح إذا كان اسم (إن) مبيناً كما هو هنا، وكقوله: إنك وزيد صديقان، والبصريون يمنعون، ومن هذا القبيل قول الشاعر:

وإلا فاعلموا أننا وأنتم بغاة ما بقينا في شقاق

والإعراب صناعة يستعان بها على ضبط كلام العرب وفهمه، والعمدة في إثبات اللغات كلها السماع من أهلها، وقد ثبت بالسماع أن هذا الاستعمال فصيح، ولكن ما نكتته؟ النكتة التي كان بها رفع الصابئين فصيحاً هنا على مخالفته نسق عطف المنصوب على المنصوب، هي تنبيه الذهن إلى أن الصابئين كانوا أهل كتاب، وإن كان حكمهم كحكم المسلمين واليهود والنصارى في تعليق نفي الخوف والحزن عنهم يوم القيامة بشرط الإيمان الصحيح والعمل الصالح، اللذين تتزكى بهما النفوس، وتستعد لإرث الفردوس. ولما كان هذا غير معروف عند المخاطبين بهذه الآية، وكان الصابئون غير مظنة لإشراكهم في الحكم مع أهل الكتب السأوية، حسن في شرع البلاغة أن ينبه إلى ذلك بتغيير نسق الإعراب، فمثل هذا التغيير لا يعد فصيحاً إلا في مثل هذا التعبير، وهو ما كان لما تغير إعرابه وأخرج عما يماثله، صفة خاصة نريد التنبيه عليها، فإذا قلت: «إن زيداً وعمراً» - وكذا بكرة - أو بكر كذلك قادرون على مناظرة خالد، لم يكن هذا القول بليغاً إلا إذا كان بكر مظنة العجز عن مناظرة خالد، وأردت أن أنبه على خطأ هذا الظن، وعلى كون بكر يقدر عليه كذلك زيد وعمرو.

وهنا قاعدة عامة في البلاغة، تدخل في بلاغة النطق والكتابة، وهي أن ما يراد تنبيه السمع أو اللحن إليه من المفردات أو الجمل يميز على غيره، إما بتغيير نسق الإعراب في مثل الكلام العربي مطلقاً، وإما برفع الصوت في الخطابة، وإما بكبر الحروف أو تغيير لون الحبر أو وضع الخطوط عليه في الكتابة، والمسلمون يكتبون القرآن في التفسير والمتون المشروحة بحبر أحمر، وفي الطبع يضعون الخطوط فوق الكلام الذي يميزونه، كآيات القرآن في بعض كتب التفسير، ثم صار الكثيرون منهم يقلدون الإفرنج في وضع هذه الخطوط تحت الكلام الذي يريدون التنبيه عليه بتمييزه.

وقد تجرأ بعض أعداء الإسلام على دعوى وجود الغلط النحوي في القرآن، وعدّ رفع الصابئين هنا من هذا الغلط!! وهذا جمع بين السخف والجهل، وإنما جاءت هذه الجرأة من الظاهر المتبادر من قواعد النحو مع جهل أو تجاهل أن النحو استنبط من اللغة، ولم تستنبط اللغة منه. وأن قواعده إذا قصرت عن الإحاطة ببعض ما ثبت عن العرب، فإنما ذلك لقصور فيها، وأن كل ما ثبت نقله عن العرب فهو عربي صحيح، ولا ينسب إلى العرب الغلط في الألفاظ ولكن قد يغلطون في المعاني، ولم توجد لغة من لغات البشر دفعة واحدة، وإنما تترقى اللغات وتتسع بالتدريج، ولم يكن التجديد في مفرداتها ومركباتها، والتصرف في أساليبها ومشتقاتها، بالتشاور والتواطؤ بين جميع أفراد الأمة ولا بين الجماعات منها - إلا ما يحصل في بعض الجامعات العلمية والأدبية عند بعض الإفرنج في هذا العصر - وإنما كان التصرف والتجديد من عمل الأفراد، ولا سيما من يشتهرون بالفصاحة كالخطباء والشعراء. فلو لم يكن ذلك المعارض ضعيف العقل أو قوي التعصب على الإسلام، لنهاه عن هذا الاعتراض بداية هذا اللفظ عن النبي ﷺ، وإن لم يؤمن بأنه منزل عليه من الله عز وجل. فكيف وقد تلقت العرب بالقبول والاستحسان، فكان إجماعاً عليه أقوى من إقرار الأندية الأدبية (الأكاديميات) الآن، بل يجب أن ينهاء مثل ذلك نقله عن أي بدوي من صعاليك العرب، ولو برواية الأحاد، وليت شعري هل يعد ذلك المتعصب الأعمى مبتكرات مثل شكسبير في الإنكليزية، وفيكتور هيغو في الفرنسية من اللحن والغلط منها؟!

وأما تقديم الصابئين هنا على النصارى، فمن قال: إن المراد بالذين آمنوا هنا المنافقون الذين ادعوا الإيمان بألستهم ولم تؤمن قلوبهم، يرى أن نكته الترتيب بين هذه الأصناف بالترقي من الجدير بقبول توبته إذا صح إيمانه، ودعم بالعمل الصالح إلى الأجدر بذلك، ويجعل النصارى أقربها إلى القبول، ويلهم عنده الصابئون فاليهود والمنافقون، وأنت تعلم أن العطف بالواو لا يفيد الترتيب، بل مطلق الجمع، فلا حاجة إلى تكليف النكته للتقديم والتأخير^(١).

(١) تفسير المنار (٦/٤٧٩-٤٨١).

وما ذكره صاحب المنار أصاب فيه المحز، وطبق المفصل، ولكن بقي هنا تساؤل يمكن فيه الحديث عن هذه الآية الكريمة، لماذا جاء هذا النظم في سورة المائدة، ولم يأت في سورتي الحج والبقرة؟!

والذي يظهر - والله أعلم - أن سورة المائدة هي المؤهلة لهذا النظم؛ لأنها هي السورة التي شرحت ماهية أهل الكتابين، وبخاصة النصارى، فقد تحدثت عنهم في أكثر من آية، وعن عقيدتهم، وما ابتدعوه من انحرافات، تقرأ هذا في قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْنَا﴾ [المائدة: ١٤]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

وإزاء هذا البيان عن اليهود والنصارى لم تذكر السورة الكريمة شيئاً عن الصابئين، من حيث الشرح والتفصيل، بل اكتفي فيها بلفت الأنظار وتوجيه الأفكار إلى الحديث عن الصابئين بتغيير نسق النظم، فقطع لفظ (الصابئين) عما قبله إعراباً، ورفع الظاهر أن ينصب، وفي هذا القطع لفظة وإثارة لحوافز الهمم للبحث عن هوية الصابئين، هذا الذي يظهر لي والله أعلم بمراده.

وأما الرواية التي وردت في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا﴾، فقد أخرج الترمذي عن سعيد بن وهب عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا﴾ قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا تقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون»^(١).

يقول ابن كثير في بيان الفرق بين القراءة المتواترة وبين القراءة الشاذة في هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا﴾ أي: يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصرُوا في القيام بشروط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط.

(١) تحفة الأحوذى، شرح صحيح الترمذي (١٩/٩).

وذكر رواية الترمذي.. ثم قال: وقد قرأ آخرون هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يَأْتُونَ مَا أُتُوا﴾ أي: يفعلون ما يفعلون وهم خائفون.. والمعنى على قراءة جمهور القراء أظهر، لأنه قال: (أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون)، فجعلهم من السابقين، ولو كان المعنى على القراءة الأخرى، لأوشك أن لا يكونوا من السابقين، بل من المقتصدين أو من المقصرين^(١).

ثالثاً، الرواية عن مجاهد،

ذكر الطبري في تفسيره عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٨١] قال: هي خطأ من الكاتب، وهي في قراءة ابن مسعود «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ»^(٢).

١- ومع ضعف الرواية وتهاافت الإسناد، نبين أن الذي روي عن ابن عباس غير هذا، ومجاهد - كما نعلم - من أخص تلاميذ ابن عباس.

٢- ورد في هذه السورة الكريمة - آل عمران - قول الله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِئَسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. أفصح أن يكون موضوع هذه الآية وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لما آتيتكم من كتاب...^(٣) الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ﴾ [آل عمران: ٨١] الآية، هو موضوع الآية التي معنا؟! إن الموضوعين مختلفان، ولا يصلح أن يوضع أحدهما مكان الآخر.

وفي الآية الكريمة توجيهان للعلماء:

«أحدهما: أن معناه الميثاق من النبيين، فالنبيون هم المأخوذ عليهم، وعلى هذا يكون حكمه سارياً على أتباعهم بالأولى.

(١) ابن كثير (٣/٢٤٨).

(٢) الطبري (٣/٢٣٦).

(٣) هذه قراءة ابن مسعود وهي قراءة شاذة، أما قراءة الجمهور فهي: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ﴾ الآية [آل عمران: ٨١].

ثانيهما: أن إضافة ميثاق إلى النبيين على أنهم أصحابه فهو مضاف إلى الموثق لا إلى الموثق عليه، كما تقول: عهد الله وميثاق الله، وحينئذ يكون المأخوذ عليه مسكوتاً عنه للعلم، وتقديره وإذا أخذ الله ميثاق النبيين على أهمهم، أو الخطاب لأهل الكتاب، والمعنى: إذا أخذ الله ميثاق النبيين الذين أرسلوا إلى قومكم، أو التقدير ميثاق أمم النبيين. كل من القولين مروى عن السلف^(١).

فالقول: إن هذا خطأ من الكاتب يحلّ عنه مجاهد رحمته الله ولقد أحسن الشهاب الألوسي، وغيره من الأئمة والمفسرين إذ بينوا أن تلك فرية، قمين بكل مسلم أن يردها. رابعاً: الرواية عن عثمان رحمته الله ،

١- روي عن عكرمة قال: لما كتبت المصاحف، عرضت على عثمان، فوجد فيها حروفاً من اللحن فقال: لا تغيروها، فإن العرب ستغيرها، أو قال: ستعربها بألستها، لو كان الكاتب من ثقيف والمملّي من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف^(٢).

وفي رواية عن هاني البربري مولى عثمان قال: كنت عند عثمان، وهم يعرضون المصاحف، فأرسلني بكتف شاة إلى أبي بن كعب فيها (لم يتسنّ) وفيها (لا تبديل للخلق) وفيها (فأمهل الكافرين) قال: فدعا بالدواة فمحا إحدى اللامين وكتب (لخلق الله) ومحا (فأمهل) وكتب (فمهل) وكتب (لم يتسنه) ألحق فيها الهاء.

ذكره أبو عبيد في فضائل القرآن^(٣).

وعند دراسة أسانيد هذه الروايات، تجد أن فيها من تكلم فيه وفيها من هو مجهول لا يعرف، وفي أسانيدنا انقطاع، بين ذلك الدكتور جمال أبو حسان في بحث (دراسة ما روي عن عثمان في شأن لحن القرآن)^(٤).

(١) تفسير المنار (٣/ ٣٥٠).

(٢) المصاحف لابن أبي داود، ص ٤٢، فضائل القرآن، ص ١٥٩.

(٣) ص ١٥٩.

(٤) مجلة الزرقاء للدراسات والبحوث، المجلد السابع، العدد الأول ربيع الثاني ١٤٢٦هـ/ حزيران ٢٠٠٥.

ولقد تصيد المستشرقون هذه الروايات للطعن في دين الله تعالى وكتابه العظيم، أمثال المستشرق الحاقد جولد زهير، وآرثر جفري، مع أن أئمتنا جزاهم الله خيراً ردوا هذه الروايات من حيث الإسناد والمتن، فها هو الباقلاني في كتاب الانتصار^(١) يبطل هذه الروايات، لأنها من روايات الضعفاء والمجهولين، ثم يقول:

«ثم إنا نقول بعد ذلك: فإن صحت هذه الرواية وكانت على ما يدعون ظاهرة معلومة في الصحابة مشتهرة فيهم، فقد بطل بذلك قولهم: إن الصحابة جهلت وحرقت وأثبتت في المصحف ما لا علم لها بصوابه من خطئه؛ لأجل أن عثمان وعائشة قد عرف اللحن والخطأ وذكرنا ذلك عن أنفسهما، ولو لم يعرفاه لما ذكراه ونبها عليه. وكذلك سائر الصحابة يجب أن تكون قد عرفت هذا اللحن والخطأ، إن كانت هذه الرواية عن عثمان وعائشة مشهورة فيهم عنهما؛ لأجل أنهم أهل الفصاحة واللسن والمعرفة بوجوه العربية وضروب الخطاب والتصوب في الكلام واللغة لغتهم، وإنما أنزل القرآن بلسانهم وفيهم، وليس يقصر الخلق الكثير والدهماء منهم في الفصاحة والمعرفة بلسان العرب، والجائز فيه وغير الجائز عن منزلة عثمان وعائشة، بل فيهم من قد قيل: إنه أفصح منهما، وأكثر انبساطاً وتصرفاً في معرفة اللسان والقدرة على التكلم به.

فإذا اشتهر فيهم قول عثمان وعائشة: إن في القرآن لحناً وإنه من خطأ الكاتب فلم يحفظ أن أحداً أنكر ذلك على عثمان وعائشة، أو عارض فيه، أو احتج فيه، أو رده، أو قدح فيه بوجه من وجوه الطعن، علم بذلك أنهم لم يمسكوا عن المعارضة في هذا الأمر العظيم إلا لعلمهم بصواب ما قاله عثمان وعائشة ومعرفتهم بذلك، ولولا هذا لأنكروا هذا القول وردوه، ولم يكن في موضع العادة أن لا يقدح قادح منهم في هذا القول مع اعتقادهم خطأ قائله وصحة ما نسبته إلى الخطأ واللحن. ولو رد هذا منهم راد وقدح فيه قادح لوجب في مستقر العادة ظهور رده وقدحه، وأن يعلم في الجملة أن ذلك أمر قد روي كما روي ما هو قدح فيه من قبل عثمان وعائشة. وإذا لم يكن ذلك كذلك ثبت أن هذا القول كان مسلماً في الصحابة وغير مردود إن كان قد ثبت صحة هذه الرواية وظهورها في

(١) (٢/٥٤١-٥٤٨).

الصحابة على ما يدعون. وإذا كان ذلك كذلك وجب علم سائر الصحابة والدهماء منهم بوقوع هذا اللحن والخطأ في المصحف، وبأن بذلك جهل من نسبهم إلى الجهل به والذهاب عن الصواب.

وكذلك هذه الرواية إن كانت صحيحة على ما يدعون فقد ناقضوا في قولهم: إن عثمان وعائشة وكثيراً من الصحابة قصدوا إلى تحريف المصحف وتبديله، والإلباس على الأمة فيه، والغش لها، والإدغال في دينها، بإثبات اللحن والخطأ فيه، لأنها لو قصدوا ذلك لكتبا ذكر اللحن وأعرضوا عنه وتغافلا عنه، ولم يناديا به وينبها عليه، وكذلك الباقيون منهم لو قصدوا أو بعضهم غش من بعدهم والإلباس في كتاب الله لناقضوا عائشة وعثمان وردوا عليهما واحتجوا باللحن والخطأ، وألبسوا بترتبه، ورد قول من نبه عليه حتى تصورا الباطل بصورة الحق. هذه سبيل من قصد الإلباس والتمويه وكتبان الصواب وطيه، ونشر الباطل وإذاعته والدعاء إليه.

فلما أظهرت عائشة وعثمان هذا القول ورضي به الباقيون، وأقروه وصوبوه، وعدلوا عن القدرح فيه والاعتراض عليه، ثبت أنهم جميعاً أنصار الحق وأهل الحياطة والحراسة لكتاب الله والتنبيه على الواجب له وفيه، وما يجب أن يعتقد في صحيح ما ثبت فيه، وغلط من أدخل فيه ما ليس منه، وكيف ينسب قوم هذه سبيلهم إلى التمويه وقصد الإلباس والإدغال للدين وأهله لولا الغباوة وجهل من يعتقد ذلك فيهم، ويروي مثل هذه الرواية عنهم بمواضع التخليط والمناقضة في كلامه واحتجاجه، ونحن الآن نبين وجه التأويل في هاتين الروايتين لو صحتا عن عثمان وعائشة، وما الذي قصده بذلك وأنها لم يعتقد أن في هذا القرآن لحناً لا يجوز في لغة بته وعلى كل وجه، فنقول وبالله التوفيق: إنه يمكن إن كانت هذه الرواية صحيحة أن يكون عثمان لما أراد بقوله: أرى فيه لحناً وستقيمه العرب بألسنتها: أن فيه لحناً في لغة بعض العرب وعلى مذهب قبيلة منهم لا يتكلمون بتلك الكلمات على الوجه الذي أثبت في المصحف، وأن من لم يألف الكلام بتلك الحروف على ذلك الوجه اعتقد أنه لحن، وأنه لا يقرأ به، وأن لسانه لا ينطق به، ولا يمكنه مفارقة نشئه وطبعه وعاداته في الكلام.

فأراد بقوله: إنه لحن عند من اعتقد ذلك، وصعب عليه التكلم به، واستكبره وخفي عليه، وظن لأجل ذلك أن الله لم يقله، ولم يقل ذلك على سبيل القطع بأنه لحن وأنه غير جائز، وأراد بقوله: «ولتقيمنه العرب بالسنتها» أنه ستقرأ تلك الكلمات وينطق بها كل ناطق منهم على الجائز في لغته؛ والمألوف في طبعه وعادته، فيتكلم به قوم على وجه ما ثبت في المصحف، إذا كان التكلم به على ذلك الوجه لسانهم، ويتكلم به آخرون على الوجه السائع الجائز المألوف في لغته؛ لأن الله سبحانه أطلق القرآن بتلك الأحرف على هذه الوجوه المختلفة، نظراً لعباده وتسهلاً عليهم وتخفيفاً لمحتهم في التكليف، ولم يرد بقوله: «ولتقيمنه العرب بالسنتها» أنه ليس فيها متكلم به على وجه ما ثبت في المصحف، وأن ذلك خطأ غير جائز، ويمكن أيضاً أن يكون إنما قصد بقوله: إن فيه لحناً عند من توهم ذلك وخفي عليه وجه الصواب في إعرابه على ما ثبت رسمه، ولم يعرف الوجه في جوازه، وأن يكون أراد بقوله: ولتقيمنه العرب بالسنتها، أي: لتحتجن العرب، ولتبين الوجه في صحة ذلك وصواب ما ثبت في المصحف، وليسخر الله تعالى منهم في كل عصر وأوان يظهر فيه دعوى وقوع اللحن فيما يتوهم ويظن أنه لحن من يعرب عن صوابه، ويحتج لجوازه، ويكشف عن وجه صحته، ويخطئ دعوى الخطأ فيه، وذلك إقامة له ممن صنعه من العرب، وإفصاح عن معناه وصوابه بلسانه.

فأما أن يكون أراد القطع على أن فيه لحناً لا يسوغ بوجه، وهو مع ذلك مقر له وغير مغیره، فذلك غير جائز، ولا بد من حمل كلامه على مثل هذا التأويل ونحوه، لأجل قيام الدليل القاطع على أنه لا لحن ولا خطأ في المصحف، وأن هذه الأحرف جائزة حسنة، وصواب على ما ثبت رسمها في المصحف بما سنوضحه ونكشفه فيما بعد، وأنه لا بد أن تكون عائشة وعثمان من أعرف الناس بجواز ذلك وصحته، وأنها أفصح وأعرف بهذا الباب من سائر من بعدهما من أهل الأمصار، وجميع من يظن أنه يستدرك عليهما.

ومما يعتمد عليه في تأويل قول عثمان: أرى فيه لحناً، هو أن المقصد به ما وجد فيه من حذف الكاتب واختصاره في مواضع وزيادة أحرف في مواضع أخرى، وأن الكاتب لو كان كتبه على مخرج اللفظ وصورته لكان أحق وأولى وأقطع للقاله وأنفى للشبهة عمن ليس الكلام باللسان طبعاً له.

وقوله: «ولتقيمنه العرب بألستها» معناه أنها لا تلتفت إلى المرسوم المكتوب الذي وضع للدلالة فقط، وإنما تتكلم به على مقتضى اللغة والوجه الذي أنزل عليه من مخرج اللفظ وصورته، فمن هذه الحروف والكلمات ما كتب في المصحف من (الصلوة والزكاة والحيوة) بالواو دون الألف، وكان الأولى أن يكتب (الصلوة والزكاة والحياء) على مخرج اللفظ ومطابقته، وكذلك (إبراهيم وإسماعيل وإسحق وصلاح والرحمن) وأمثال هذه الأسماء التي تسقط الألف منها وهي ثابتة في اللفظ والمخرج. ونحو إلحاقهم في آخر الكلمة من قالوا وقاموا وكانوا وأمثال ذلك ألفاً. والألف غير ثابتة ولا بينة في اللفظ، فرأى عثمان كتب هذه الكلمات والأسماء ورسمها على مطابقة اللفظ ومخرجه أولى وأحق، وأن المتكلم إن تكلم بها وتلاها على حد ما رسمت في المصحف كان مخطئاً لاحقاً خارجاً عن لغة العرب وعاداتها ومتكلماً بغير لسانها.

غير أنه عرف هو وكل أحد من كتَب المصحف وغيرهم من أهل العلم باللغة أن العرب لا تلفظ بالصلوة والزكاة والحيوة بالواو وتسقط الألف. ولا تحذف الألف في لفظها بالرحمن وسليمن وإسماعيل وإسحق وصلاح، ونحو ذلك ولا تأتي بألف في قاموا وقالوا وكانوا وأمثال ذلك، وأنها لا تتكلم بذلك إلا على مقتضى اللفظ ووضع اللغة لشهرة ذلك، وحصول العلم به وتعذر النطق به على ما رسم في المصحف، فلذلك قال: «ولتقيمنه العرب بألستها» أي: أنها تنطق به على واجبه ولا تشك في ذلك، لأجل أن الرسم في الخط بخلافه.. وإذا كان ذلك كذلك ثبت أن اللحن الذي أراده عثمان هو غلط الكاتب وتركه مراعاة مخرج اللفظ، وحذفه في موضع ما هو ثابت في اللفظ، وزيادته في مواضع ما ليس فيه.

ولم يقصد بذلك أن فيه لحناً لا يجوز التكلم به؛ لأنه كان والصحابة والكتبة للمصحف وزيد بن ثابت أجلّ قدرأ وأفصح لساناً وأثبت معرفة وفهماً باللغة من أن يكتبوا فيه لحناً ويذهب ذلك على الجماعة سوى عثمان وعائشة. ولو قصد عثمان بذكر اللحن هذه الحروف الأربعة التي يدعى أنها لحن لم يجوز أن يعدل عن تغييرها ومحوها وإثابتها على الواجب الصحيح مع قلتها ونزارتها، وأنه لا كلفة عليه ولا على الكتبة، وكل من عنده نسخة في تغييرها ورسمها على الصواب، فلا عذر لهم في ذلك، فوجب أنه إنما أراد بذكر اللحن الهجاء الذي رسم على غير مطابقة اللفظ ومنهاجه.

وأنه لما رأى ذلك قد اتسع وكثر في المصحف كثرة يطول تتبعها، ويحتاج معها إلى إبطال النسخة التي رفعت إليه واستئناف غيرها، وإلزام الكتبة في ذلك وسائر من عنده نسخة منه كلفة ومشقة شديدة، وعلم أن ذلك يصعب على أهل الذكاء والفطنة الذين نصبهم لكتبة المصحف وعرضه؛ لأنهم لم يعتادوا للكتابة إلا على ذلك الوجه، وأن أيديهم لا تجري إلا به، أو خاف نفورهم من ذلك، وتنكرهم له، ونسبتهم إلى ميل عليهم وقدح فيهم، وخشي حصول قالة وتفرق الكلمة، فأبقاه على ما رفع إليه من لحن الهجاء، وقال: «إن العرب ستقيمه بألستها» لموضع شهرة تلك الألفاظ، وعلمه وعلم الناس بأن العرب لا تتكلم بها أبداً على ما مثلت ورسمت في الخط، وإن كان ذلك كذلك بان صحة ما قلناه وبطلان ما قدروه.

فإن قالوا على هذا الجواب: فقد صرتم إلى أنه قد وقع في خط المصحف ورسمه خطأ وما ليس بصواب وما كان غيره أولى منه، وأن القوم أجازوا ذلك وأمضوه وسوغوه، وذلك إجماع منهم على خطأ وإقرار بما ليس بصواب. يقال لهم: لا يجب ما قلتم لأجل أن الله إنما أوجب على القراء والحفظة أن يقرؤوا القرآن ويؤدوه على منهاج محدود وسبيل ما أنزل عليه، وأن لا يجاوزوا ذلك، ولا يؤخروا منه مقدماً، ولا يقدموا مؤخراً، ولا يزيّدوا فيه حرفاً، ولا ينقصوا منه شيئاً، ولا يأتوا به على المعنى والتقريب دون لفظ التنزيل على ما بيناه فيها سلف، ولم يأخذ على كتبة القرآن وحفاظ المصاحف رسماً بعينه دون غيره أوجبه عليهم، وحظر ما عداه؛ لأن ذلك لا يجب لو كان واجباً إلا بالسمع والتوقيف، وليس في نص الكتاب ولا في مضمونه ولحنه أن رسم القرآن وخطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحد محدود ولا يجوز تجاوزه إلى غيره، ولا في نص السنة أيضاً ما يوجب ذلك ويدل عليه ولا هو مما أجمعت عليه الأمة ولا دلت عليه المقاييس الشرعية، بل السنة قد دلت على جواز كتبه بأي رسم سهل وسنح للكتاب؛ لأن رسول الله ﷺ كان يأمر برسمه وإثباته على ما بيناه سلفاً، ولا يأخذ أحداً بخط محدود ورسم محصور ولا يسألهم عن ذلك، ولا يحفظ عنه فيه حرف، ولأجل ذلك اختلفت خطوط المصاحف، وكان منهم من يكتب الكلمة على مطابقة نخرج اللفظ، ومنهم من يحذف أو يزيّد مما يعلم أنه أولى في القياس بمطابقته وسياقه ومخرجه، غير أنه يستجيز ذلك لعلمه بأنه اصطلاح،

وأن الناس لا يخفى عليهم، ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول، وأن تجعل اللام على صورة الكاف، وأن تعوج الألفات، وأن يكتب أيضاً على غير هذه الوجوه، وساغ أن يكتب الكاتب المصحف على الخط والهجاء القديمين، وجاز أن يكتبه بالهجاء والخطوط المحدثه، وجاز أن يكتب غير ذلك، وإذا علم وثبت أن خطوط المصاحف وكثيراً من حروفها مختلفة متغايرة الصورة، وأن الناس قد أجازوا ذلك أجمع، ولم ينكر أحد منهم على غيره مخالفة لرسمه وصورة خطه، بل أجازوا أن يكتب كل واحد بما هو عادته وأشهر عنده، وما هو أسهل وأولى من غير تأثم ولا تناكر لذلك، علم أنه لم يوجب على الناس في ذلك حد محدود محصور كما أخذ عليهم في القراءة والأداء، والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز، وكل شيء يدل على اللفظ وينبئ عنه، وإذا دلّ الرسم على الكلمة وطريقها والوجه الذي يجب التكلم عليه بها وجب صحته وصواب الكاتب على أي صورة كان وأي سبيل كتب، وإذا كان ذلك كذلك بطل ما توهموه.

وفي الجملة فإن كل من ادعى أنه قد ألزم الناس وأخذ عليهم في كتب المصحف، رسماً محصوراً وصورة محدودة لا يجوز العدول عنها إلى غيرهما، لزمه إقامة الحجة وإيراد السمع الدال على ذلك وأنى له به... اهـ^(١).

هذا هو رأي الإمام الباقلاني رحمه الله نقلته بطوله لما فيه من الفوائد.

وهذا أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ) يجيب عما روي عن عثمان وعائشة رضي الله عنهما بقوله: «فإن قال قائل: فما تقول في الخبر الذي رويتموه عن عثمان؟... قلت: هذا الخبر عندنا لا يقوم بمثله حجة ولا يصح به دليل من جهتين: إحداهما أنه مع تخليط في إسناده واضطراب في ألفاظه مرسل، لأن ابن يعمر وعكرمة لم يسمعا من عثمان شيئاً ولا رأياه. وأيضاً فإن ظاهر ألفاظه ينفي وروده عن عثمان رضي الله عنه لما فيه من الطعن عليه مع محله

(١) الباقلاني، الانتصار للقرآن، (٢/ ٥٤١-٥٤٩) ط. دار الفتح، و(٢/ ١٤٠-١٤٩) طبعة مؤسسة الرسالة، نقل حرفي مع تصرف يسير ويبدو واضحاً أن النفس العلمي في هذا الكلام قائم على احتمال صحة الرواية عن عثمان، والأمر ليس كذلك.

من الدين، ومكانه من الإسلام، وشدة اجتهاده في بذل النصيحة، واهتباله بما فيه الصلاح للأمة، فغير ممكن أن يتولى لهم جمع المصحف مع سائر الصحابة الأخيار الأتقياء الأبرار نظراً لهم، ليرتفع الاختلاف في القرآن بينهم، ثم يترك لهم فيه مع ذلك لحناً وخطاً يتولى تغييره من يأتي بعده، ممن لا شك أنه لا يدرك مداه، ولا يبلغ غايته ولا غاية من شاهده. هذا ما لا يجوز لقائل أن يقوله، ولا يحل لأحد أن يعتقده. فإن قال: فما وجه ذلك عندك لو صح عن عثمان رضي الله عنه؟ قلت: وجهه أن يكون عثمان رضي الله عنه أراد باللحن المذكور فيه التلاوة دون الرسم إذ كان كثير منه لو تلي على حال رسمه لانقلب بذلك معنى التلاوة وتغيرت ألفاظها، ألا ترى قوله: ﴿أَوْ لَا أَذْبَحَنَّهُ﴾ [النمل: ٢١] و﴿وَلَا أَوْضَعُوْا﴾ [التوبة: ٤٧] و﴿مِنْ نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤] و﴿سَأُزَيِّكُهُ﴾ [الأعراف: ١٤٥] و﴿الرَّبَّوْا﴾ [البقرة: ٢٧٥] وشبهه مما زيدت الألف والياء والواو في رسمه، لو تلاه تال لا معرفة له بحقيقة الرسم على حال صورته في الخط لصير الإيجاب نفياً، وازداد في اللفظ ما ليس فيه ولا من أصله، فأتى من اللحن بما لا خفاء به على من سمعه، مع كون رسم ذلك كذلك جائزاً مستعملاً، فأعلم عثمان رضي الله عنه إذ وقف على ذلك أن من فاته تمييز ذلك وعزيت معرفته عنه ممن يأتي بعده، سيأخذ ذلك عن العرب، إذ هم الذين نزل القرآن بلغتهم فيعرفونه بحقيقة تلاوته، ويدلون به على صواب رسمه، فهذا وجهه عندي، والله أعلم^(١).

خامساً: ما روي عن عبد الله بن مسعود:

روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه أنكر أن تكون المعوذتان من القرآن الكريم، وأن في القرآن من كلام أبي بكر وكلام عمر رضي الله عنهما.

وقد عرّض لهذه الشبهة الأستاذ عبدالعظيم الزرقاني - رحمه الله - وأجاب عنها بما

يلي:

«(أولاً): بأن ابن مسعود لم يصح عنه، هذا النقل الذي تمسكت به من إنكاره كون المعوذتين من القرآن. والمسألة المذكورة في كثير من كتب التفسير وعلوم القرآن مع تحصيلها والجواب عليها.

(١) المقنع في رسم مصاحف الأنصار، ١١٩-١٢٠.

و خلاصة ما قالوه: إن المسلمين أجمعوا على وجوب تواتر القرآن. ويشكل على هذا ما نقل من إنكار ابن مسعود قرآنية الفاتحة والمعوذتين. بل روي أنه حك من مصحفه المعوذتين، زعماً منه أنها ليستا من القرآن.

وقد أجابوا عن ذلك بمنع صحة النقل، قال النووي في شرح المهذب ما نصه: «أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن، وأن من جحد شيئاً منهما كفر. وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح» اهـ، وقال ابن حزم في كتاب القدح الملقى: (هذا كذبٌ على ابن مسعود وموضوع). بل صحَّ عن ابن مسعود نفسه قراءة عاصم، وفيها المعوذتان والفاتحة. وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قرأهما في الصلاة. زاد ابن حبان من وجه آخر عن عقبة بن عامر أيضاً: «فإن استطعت ألا تفوتك قراءتهما في صلاة فافعل»، وأخرج أحمد من طريق أبي العلاء بن الشخير عن رجل من الصحابة أن النبي صلى الله عليه وسلم أقرأنا المعوذتين وقال له: «إذ أنت صليت فاقرا بهما». وإسناده صحيح.

(ثانياً): يحتمل أن إنكار ابن مسعود لقرآنية المعوذتين والفاتحة على فرض صحته، كان قبل علمه بذلك، فلما تبين له قرآنيتهما بعد، وتم التواتر، وانعقد الإجماع على قرآنيتهما كان في مقدمة من آمن بأنهما من القرآن.

قال بعضهم: «يحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبي صلى الله عليه وسلم ولم تتواترا عنده، فتوقف في أمرهما. وإنما لم ينكر ذلك عليه؛ لأنه كان يصدد البحث والنظر، والواجب عليه التثبت في هذا الأمر» اهـ. ولعل هذا الجواب هو الذي تستريح إليه النفس، لأن قراءة عاصم عن زدر بن حُبَيْش عن ابن مسعود ثبت فيها المعوذتان والفاتحة وهي صحيحة، ونقلها عن ابن مسعود صحيح، وكذلك إنكار ابن مسعود للمعوذتين جاء عن طريق صححه ابن حجر. إذاً فليحمل هذا الإنكار على أولى حالات ابن مسعود، جمعاً بين الروایتين.

وما يقال في نقل إنكاره قرآنية المعوذتين يقال في نقل إنكاره قرآنية الفاتحة. بل نقل إنكاره قرآنية الفاتحة، أدخل في البطلان، وأغرق في الضلال، باعتبار أن الفاتحة أم القرآن وأنها السبع المثاني التي تُتلى وتكرر في كل ركعة من ركعات الصلاة، على لسان كل مسلم

ومسلمة. فحاش لابن مسعود أن يكون قد خفي عليه قرآنيتهما، أو إنكاره قرآنيتهما. وقصارى ما نقل فيها عنه أنه لم يكتبها في مصحفه، وهذا لا يدل على الإنكار. قال ابن قتيبة ما نصه: «وأما إسقاطه الفاتحة من مصحفه، فليس لظنه أنها ليست من القرآن - معاذ الله - ، ولكنه ذهب إلى أن القرآن إنما كتب وجمع بين اللوحين مخافة الشك والنسيان والزيادة والنقصان» اهـ. ومعنى هذا أن عدم كتابة ابن مسعود للفاتحة في مصحفه كان سببه وضوح أنها من القرآن، وعدم الخوف عليها من الشك والنسيان والزيادة والنقصان.

(ثالثاً) أننا إن سلمنا أن ابن مسعود أنكر المعوذتين وأنكر الفاتحة بل أنكر القرآن كله، فإن إنكاره هذا لا يضرنا في شيء، لأن هذا الإنكار لا ينقض تواتر القرآن ولا يرفع العلم القاطع بثبوته القائم على التواتر. ولم يقل أحد في الدنيا: إن من شرط التواتر والعلم اليقيني المبني عليه ألا يخالف فيه مخالف. وإلا لأمكن هدم كل تواتر، وإبطال كل علم قام عليه، بمجرد أن يخالف فيه مخالف، ولو لم يكن في العير ولا في النفير. قال ابن قتيبة في مشكل القرآن: «ظن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن؛ لأنه رأى النبي ﷺ يعوذ بهما الحسن والحسين فأقام على ظنه، ولا نقول: إنه أصاب في ذلك وأخطأ المهاجرون والأنصار» اهـ.

(رابعاً) أن ما زعموه من أن آية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ...﴾ الآية من كلام أبي بكر فهو زعمٌ باطل، لا يستند إلى دليل ولا شبه دليل. وقد جاء في الروايات الصحيحة أنها نزلت في واقعة أحد، لعتاب أصحاب رسول الله ﷺ على ما صدر منهم، وأنها ليست من كلام أبي بكر. وذلك أنه لما أصيب المسلمون في غزوة أحد بها أصيبوا به، وكسرت رباعية^(١) النبي ﷺ، وشجَّ^(٢) وجهه الشريف، وجحشت^(٣) ركبته، وشاع بين المقاتلة أن رسول الله ﷺ قد قتل. هنالك قال بعض المسلمين ليت لنا رسولاً إلى عبدالله ابن أبيّ فيأخذ لنا أماناً من أبي سفيان. وبعضهم جلسوا وألقوا بأيديهم. وقال أناس من المنافقين: إن كان محمد قد قتل، فالحقوا بدينكم الأول. فقال أنس بن

(١) الرباعية: هي السن التي بين الناب والثنية.

(٢) شجَّ الوجه: جرحه.

(٣) جحش الركبة: خدشها.

النضر عم أنس بن مالك: إن كان محمد قتل، فإن رب محمد لم يقتل. وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه. ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء، (يعني المسلمين) وأبرأ إليك مما قال هؤلاء (يعني المنافقين)، ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل ﷺ.

وروي أن أول من عرف رسول الله ﷺ كعب بن مالك، فقد ورد أنه قال: عرفت عينيه تحت المغفر تزيهران، فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين: أبشروا! هذا رسول الله ﷺ. فأنحاز إليه ثلاثون من أصحابه رضي الله عنهم ينافحون عنه. ثم لام النبي ﷺ أصحابه على الفرار. فقالوا: يا رسول الله فدينك بآبائنا وأبنائنا. أأنا الخبر أنك قتلت، فرُعبت قلوبنا، فولينا مدبرين، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ الآية [آل عمران: ١٤٤].

والظاهر أن هؤلاء الطاعنين بزيادة هذه الآية وأنها من كلام أبي بكر، يعتمدون فيما طعنوا على ما كان من عمر يوم وفاة رسول الله ﷺ، ومن ردّ أبي بكر عليه بهذه الآية، فزعموا أنها من كلام أبي بكر، وما هي من كلام أبي بكر. إنها هي من كلام رب العزة، أنزلها قبل وفاة الرسول ﷺ ببضع سنين، والمسلمون جميعاً - ومنهم أبو بكر وعمر - يحفظونها ويعرفونها. غير أن منهم من ذهل عنها كعمر، لهُول الحادث وشدة الصدمة، وتصدّع قلبه بموت رسول الرحمة وهادي الأمة ﷺ.

وكان من آثار ذلك أن عمر ﷺ غفل عن هذه الآية يوم تُوفي رسول الله ﷺ فقام يومئذ وقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفي. وإن رسول الله ﷺ ما مات. ولكنه ذهب إلى ربه، كما ذهب موسى بن عمران. فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل: مات. والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، زعموا أن رسول الله ﷺ مات.

هنالك نهض أبو بكر ينقذ الموقف فقال: «على رِسلك يا عمر، أنصت، فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: أيها الناس: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد

الله فإن الله حي لا يموت. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إلى آخرها. قال الراوي: فوالله، لكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ، فأخذها الناس من أبي بكر. وقال عمر: ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فَعَقِرْتُ^(١) حتى وقعت على الأرض، ما تحملني رجلاي. وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات اهـ.

وهذه الآية - كما ترى - لا يشم منها رائحة أنها من كلام أبي بكر، بل هي تحمل في طيها أدلة كونها من كلام الله، وأن الصحابة يعلمون أنها من كلام الله، نزلت قبل أن ينزل بهم هذا الخطب الفادح ببضع سنين. ولكن ما الحيلة فيمن أعماهم الهوى والتعصب؟ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

(خامساً): أن ما ادعوه من أن آية ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] من كلام عمر، مردود أيضاً بمثل ما رددنا به زعمهم السابق في آية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾. بل زعمهم هذا أظهر في البطلان، لأن الثابت عن عمر أنه قال للنبي ﷺ «لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى» فنزلت ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ في سورة البقرة. وهناك فرق بين كلمة عمر في تمنيه الذي هو سبب النزول، وبين كلمة القرآن النازلة بذلك السبب، فأنت ترى أن الآية جاء فيها الفعل بصيغة الأمر ولم يقرن بلفظ «لو». أما تمكي عمر فجاء الفعل فيه بصيغة الماضي وقرن بلفظ «لو». وتحقيق القرآن أمنية أو آمنيات لعمر، لا يدل على أن ما نزل تحقيقاً لهذه التمنيات يعتبر من كلام عمر. بل البعد بينهما شاسع، واليون بعيد^(٢).

وهناك روايات مرت معك من قبل، كان بعضها في فصل (جمع القرآن) وبعضها في ترتيب آي القرآن وسوره، وبعضها في الأحرف السبعة، ولعل أكثرها غرابة، وأكثرها

(١) قال في المختار: (والعقر بفتحين: أن تُسَلِّمَ الرجل قوائمه فلا يستطيع أن يقاتل من الفرق والدهش. وبابه طرب. ومنه قول عمر رضي الله عنه: فَعَقِرْتُ حتى خَرَزْتُ إلى الأرض) اهـ.

(٢) مناهل العرفان، (١/ ٢٦٨-٢٧٢).

شهرة كذلك ما مرّ معنا في موضوع النسخ، كآية الرّجم، وآيات بئر معونة، وكون سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة و«لو كان لابن آدم واديان من ذهب...» إلى آخر ما عرفت هناك، وقد بان لك أنها روايات لم يكتب منها شيء في القرآن الكريم. وهناك روايات أعرضت عن ذكرها لاشتهارها بين الناس، وكثرة المتحدثين عنها كزعمهم أن أبي بن كعب رضي الله عنه كان يثبت ما يسمى بسورة الخلع والحفد، وهما دعاء قنوت، وادعاء بعضهم وجود سورة تسمى سورة الولاية وغير ذلك من كل ما هو مستغرب ومنكر.

المسلمون على اختلاف طوائفهم مجمعون على سلامة القرآن من التحريف والزيادة والنقص،

إن تلك الروايات الضعيفة على كثرتها لم تحدث شراً في وحدة المسلمين، فهم على اختلاف طوائفهم مجمعون على سلامة القرآن الكريم من التحريف والزيادة والنقص، وكذلك المنصفون من غير المسلمين مجمعون على أن هذا القرآن الذي بين أيدينا، هو نفسه القرآن الذي نزل به الروح الأمين على سيدنا رسول الله ﷺ؛ فأهل السنّة بجميع طوائفهم وتعدد مذاهبهم، والإباضية، والشيعة الزيدية والإمامية لا يرتابون في هذا.

اللهم إلا ما ورد عن بعض الشيعة الإمامية من ادعائهم أن في القرآن الكريم نقصاً، وهو ادعاء لا تقوم به حجة، لأن القائلين قلة، وقد وجهت إليهم سهام النقد من علمائهم.

قال الطبرسي صاحب مجمع البيان: «فأما الزيادة فيه فمجمع على بطلانها، وأما النقصان منه، فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة أن في القرآن تغييراً ونقصاناً، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه، وهو الذي نصره المرتضى قدس الله روحه.. وذكر في مواضع أن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المشهورة وأشعار العرب المسطورة، فإن العناية اشتدت والدواعي توفرت على نقله، وحراسته وبلغت إلى حد لم يبلغه ما ذكرناه لأن القرآن معجزة النبوة ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته غاية...» ^(١).

(١) مجمع البيان (١/١٥).

هذا ما قاله الطبرسي صاحب مجمع البيان، ولكننا وجدنا طبرسياً آخر هو حسين بن محمد تقي النور الطبرسي وهو من متأخري الشيعة يكتب كتاباً عجيباً سماه «فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب ربّ الأرباب» ذكر فيه كثيراً من الروايات الساقطة الهالكة التي تذهب بقدسية القرآن، وكان من الطبيعي أن يستغل هذا الكتاب على أنه يمثل رأي الشيعة الإمامية، ولا زلت أذكر حينما كنت طالباً في الأزهر، وقد كنت أتردد على الأستاذ محب الدين الخطيب - رحمه الله - الحديث عن هذا الكتاب، وقد اشتهر عند كثير من الناس، وبخاصة أولئك الذين يتعاطون الجدل المذهبي، ولكن - والله الحمد - فإن الكاتب والكتاب لا يمثلان رأي الشيعة في القرآن الكريم، فلقد رد الكتاب، ووجهت له سهام النقد من الشيعة أنفسهم.

جاء في كتاب صيانة القرآن عن التحريف للأستاذ محمد هادي معرفة: «وقد جهد المحدث المعاصر في كتاب (فصل لخطاب) في جمع الروايات التي استدلت بها على النقيصة، وكثر أعداد مسانيدھا بأعداد المراسيل، مع أن المتتبع المحقق يجزم بأن هذه المراسيل مأخوذة من تلك المسانيد، قال: وفي جملة ما أورده من الروايات ما لا يتيسر احتمال صدقها، ومنها ما هو مختلف بما يؤول إلى التناقض والتعارض، مع أن القسم الوافر منها ترجع أسانيدھا إلى بضعة أنفار، وقد وصف علماء الرجال كلاً منهم إما بأنه ضعيف الحديث فاسد المذهب مجفو الرواية، وإما بأنه كذاب متهم لا أستحل أن أروي من تفسيره حديثاً واحداً... وإما بأنه فاسد الرواية يرمى بالغلو، ومن الواضح أن أمثال هؤلاء لا تجدي كثرتهم شيئاً»^(١).

ونقل عن شرف الدين العاملي خلاصة رأي الشيعة: «... وكل من نسب إليهم تحريف القرآن، فإنه مفتر عليهم ظالم لهم؛ لأن قداسة القرآن الحكيم من ضروريات دينهم الإسلامي ومذهبهم الإمامي، ومن شك فيه من المسلمين فهو مرتد بإجماع الإمامية، وظواهر القرآن - ونصوصه - من أبلغ حجج الله تعالى، وأقوى أدلة أهل الحق بحكم البداهة الأولية من مذهب الإمامية.

(١) بحث الدكتور جمال أبو حسان، ص ٧٨، نقلاً عن صيانة القرآن عن التحريف، ص ٥٤.

ولذا تراهم يضربون بظواهر الأحاديث المخالفة للقرآن عرض الجدار، ولا يابهون وإن كانت صحيحة، وتلك كتبهم في الحديث والفقه والأصول صريحة بما نقول. والقرآن الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنما هو بين الدفتين، وهو ما في أيدي الناس. لا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً، ولا تبديل فيه لكلمة بكلمة ولا لحرف بحرف، وكل حرف من حروفه متواتر في كل جيل تواتراً قطعياً إلى عهد الوحي والنبوة...».

«وقال: نعوذ بالله من هذا القول ونبرأ إلى الله تعالى من هذا الجهل، وكل من نسب هذا الرأي إلينا جاهل بمذهبنا أو مفتر علينا، فإن القرآن العظيم والذكر الحكيم متواتر من طرفنا بجميع آياته وكلمات وسائر حروفه وحركاته وسكناته، تواتراً قطعياً عن أئمة الهدى من أهل البيت عليه السلام»^(١).

(١) المرجع السابق.

الْبَصَائِلُ السَّائِجَةُ وَالْعِشْرُونَ

رَفَعُ

شبهات المحدثين

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

شبهات المستشرقين:

لعل التعامل مع هذا النمط أيسر من التعامل مع النمط الذي ذكرناه من قبل، ذلكم لأن شبهات المستشرقين غدت بيّنة الأهداف واضحة النتائج عند كثير من الناس، فالاستشراق والتبشير جناحان وركيزتان للاستعمار، وليس غريباً أن يكون للمستشرقين شبهات على القرآن الكريم، فهذا دأبهم، ولقد مر معنا ما أثاروه حول جمع القرآن وغيره من الموضوعات، ولقد كانت شبهات المستشرقين التي أثاروها حول القرآن الكريم تنتظم مجالات متعددة، منها ما أثاروه حول لغة القرآن، ومنها ما أثير حول أحكامه، ومنها ما أثير حول عقائده، وسأذكر لكم في هذا النمط بعض الشبهات لتلتمسوا بأنفسكم البون الشاسع بين ما يُدعى للمستشرقين من موضوعية في البحث، ونزاهة في الحكم، ودقة في النتائج، وبين الحقيقة والواقع^(١).

(١) ولا ينبغي لنا أن ننسى حقائق ناصعة في تحريف المستشرقين وتزييفهم للحقائق، فهم ينقلون عن الأئمة نصوصاً يترونها لتحقق مبتغاهم، فهذا جولد زيهر يزعم أن المسلمين أخطؤوا في موضع الآية (٧) من سورة الفتح حيث جعلوها الآية (٦١) من سورة النور، وأنها في مكانها قلقلة لا تناسب بينها وبين ما قبلها وما بعدها، ويحرف كلاماً للإمام البيضاوي في تفسير الآية... (وقيل نفى للحرج عنهم في القعود عن الجهاد وهو لا يلائم ما قبله ولا ما بعده) وظاهر أن الجملة الأخيرة في النص راجعة إلى تقديم هذا الرأي لا أنه يقصد أن الآية لا تلاؤم بينها وبين ما قبلها وما بعدها، فتأمل كيف كذب هذا المستشرق محرفاً الكلم عن مواضعه. انظر لمزيد بيان: فصل الخطاب في سلامة القرآن، ص ٥٤ وما بعدها.

أولاً: يقول ده بور: في كتابه تاريخ الفلسفة في الإسلام «جاء القرآن للمسلمين بدين ولم يجئهم بنظريات، وتلقوا فيه أحكاماً ولكنهم لم يتلقوا فيه عقائد».

وهذا القول منقول عنه بلا مقدمات، إنه عار عن الحقيقة، بعيد عن الواقع، وليت شعري إن لم تكن العقائد في القرآن، فأين توجد؟ إن التراث الإسلامي الذي ملأ مكتبات العالم، كان القرآن أساسه ومبدأه، ولا نود أن نصوغ ردوداً بأسلوب شعري عاطفي، ونود منك أيها القارئ أن ترجع إلى ما ذكرته لك في الفصل الأول عن موضوعات القرآن في مسرد خاص. ولا أدري ما الذي يعنيه (ده بور) بالنظريات؟

إن ما أبدعته أفكار المسلمين من قواعد في أصول الفقه ونظريات في البلاغة والتشريع وغير ذلك مما تزخر به المكتبات العالمية، ومما شهد به كثير من المنصفين من غير المسلمين، كان يرجع كله إلى هذا القرآن، فقد أمد القرآن الكريم الأفكار والأقلام، وسيظل يمدهم بأنواع شتى، وقضايا متعددة، وليس صحيحاً ما ادعاه جولد زهر من أن العلماء أعطوا القرآن أكثر مما أعطاهم. إن ما في الفقه الإسلامي من أنظمة تتصل بالإنسان والحياة والكون، وهي ما يعبر اليوم عن بعضها بالقوانين ترجع في أصولها إلى هذا القرآن، وصدق الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

ثانياً: ليس في القرآن تناقض:

زعم ده بور وجريم ومعهما جولد زهر أن في القرآن تناقضاً، وأن الرعيّل الأول من المسلمين قد قبلوا هذا التناقض وسكتوا عنه، ولحسن الحظ فإن القرآن الكريم نفسه يرد هذه الفرية، فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

ودعوى أولئك المستشرقين تذكرنا بما رددته ألداء العرب وكفار مكة، وقلة سجل القرآن الكريم قائلتهم، وردها رداً بليغاً محكماً. قال سبحانه: ﴿وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مَّكَاتٍ

ءَايَةٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكِّي قَالَُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿النحل: ١٠١-١٠٢﴾ وقد تحدثت عما يتصل بمعنى هذه الآية في موضوع النسخ فارجع إليه.

لكن ما ينبغي أن يقال هنا إن أولئك المستشرقين البعيدين عن تذوق الأسلوب العربي، وقفوا أمام بعض الآيات التي يوهم ظاهرها الجبر، أي: كون الإنسان مجبوراً على كل شيء، والآيات التي يوهم ظاهرها الحرية والاختيار^(١)،

وعند الآيات التي يوهم ظاهرها التشبيه، وعند أخرى يوهم ظاهرها التنزيه، فظنوا ذلك تناقضاً وإني على يقين من أن الحقد والتعامي من وراء تلك الأقوال أكثر من الجهل.

لقد ذهبوا في مغالطتهم إلى أن العهد المكي، كانت الآيات فيه تتحدث عن حرية الإنسان، حتى لا يحتج العرب بأنهم مجبرون على ما يعملون، وأن الآيات في المدينة كانت على غير هذا المنوال، والذي يتدبر الآيات مكيها ومدنيها يحكم على هذه الأقوال بالفساد والبطلان، فمن هذه الحشية ليس هناك فرق بين القرآن المكي والمدني، فقله سبحانه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] وهذه الآية - كما نرى - ترجع المشيئة إلى الله وحده هي آية مكية، وكذلك قوله: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٦]، وكذلك قوله: ﴿مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧] وقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥] وما يشبهها من آيات، كلها آيات مكية، لا يباري في ذلك عاقل، أفيجوز بعد ذلك أن يقال: إن الآيات المكية تحدثت عن حرية الاختيار، حتى لا يتعلل العرب بأنهم مجبورون، وقد رأينا أن الآيات التي تعلل بها العرب بالجبر ذكرت في أكثر من سورة في القرآن المكي: في سورة النحل ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النحل: ٣٥] وفي سورة الأنعام ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

(١) راجع كتاب (أبو الحسن الأشعري) للدكتور حمودة غرابية رحمه الله.

والحق أن معنى هذه الآيات ليس له صلة من قريب أو بعيد بالمكان، وكونه مكياً أو مدنياً، كما أنه ليس فيها أي شيء من التناقض، بل هي تتحدث عن دائرتين: إحداهما تتحدث عن حرية الإنسان؛ لأنه هو المخلوق الذي يختلف عن غيره، من حيث العقل الذي وهبه الله له، والأخرى تتحدث عن قضية أعم وهي هيمنة الله على كل شيء، وحل هذه القضية ليس هذا الكتاب، كذلك يقال: عن الآيات التي تتصل بذات الله تعالى، مثل قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] فإنه ليس في ذلك تناقض كذلك، والأسلوب العربي يتسع لأكثر من هذا عند ذوي الذوق، ومن ذاق عرف، ولبعض الأفاضل كتب تحدثوا فيها عما يوهم التناقض أو التعارض في كتاب الله، من ذلك كتاب الشيخ الشنقيطي، ومسائل الرازي وغيرهما.

ثالثاً: دوزي:

من نافلة القول أن نذكر أن القرآن الكريم نزل في أمة أمية كان الكلام بضاعتها المفضلة وتجارتها الرائجة، فإذا كانت الأمم تقيم أسواقاً للسلع والمنتجات بيعاً وشراء، فلقد كانت هذه الأمة العربية تقيم أسواقاً ولكن ليس لهذا، إنما هي أسواق يتبارى فيها الخطباء والشعراء.

ومن نافلة القول كذلك أن الكلام كان عندهم من أكثر الأجناس التي يقع فيها التفاضل، وهم يدركون هذا بأذواقهم ويحسونه بفطرتهم قبل فطنتهم.

ومن نافلة القول ثالثاً أنهم مع كفرهم بهذا القرآن، وعدم إيمانهم برسالة النبي ﷺ، إلا أن القرآن كان له على نفوسهم تأثير وهيمنة وسلطان، وتلك قضية بدئية سجلها القرآن نفسه، وهي من الأمور التي لا يتأتى فيها ريبة أو مرية، وما ذلك التأثير والسلطان إلا لأنهم وجدوا فطرتهم اللغوية وطبيعتهم الأدبية في هذا القرآن، وجدوا فيه - مع أنه لم يجر على أوزان الشعر - إقناعاً وهيبة وإمتاعاً، وهذه لم يجدوها في الشعر، وجدوه خالياً من خشانة البداوة، ومن طراوة أهل الحضر، ولما خشوا منه التأثير عليهم قال بعضهم لبعض: ﴿لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْقَوَافِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

ومع ذلك كله نجد من يباري في هذه البدئية. يقول المستشرق دوزي عن القرآن الكريم: «إنه كتاب ذو ذوق رديء للغاية، ولا جديد فيه إلا القليل، وفيه إطناب بالغ

ومل إلى حد بعيد» فأين ما يقوله هؤلاء مع ما قاله الوليد، مع أنهم يلتقون في الكفر بهذا القرآن، ولا يشك أحد أن الوليد كان أرفع منهم ذوقاً، وأرهف منهم حساً، بل لا مجال للمقارنة بينهم.

أما الإطناب فمع أن العربية لغة الإيجاز، وهذا يجعلها ذات تمييز عن اللغات الأوروبية، فلقد كان القرآن الكريم آية في الإيجاز يعطي أكبر قسط من المعنى بأقل قدر من اللفظ.

وأما الادعاء بأن القرآن ممل، فمع أن قضية الملالة والسامة، أو الرغبة والإقبال أمور نسبية، إلا أننا نرى أننا لسنا بحاجة إلى إقامة دليل واحد على بعد هذا القول عن الحقيقة، فالقرآن هو الكتاب الذي لا تملّه الأسماع ولا تعافه النفوس؛ لأنها تجد فيه أنسها. وإذا كان هذا شأن المؤمنين بالقرآن فإن كثيرين من غيرهم سواء أكان هؤلاء من التواقين للمعرفة، أم من المحبين للجمال، يجدون في هذا القرآن متعة وحلاوة.

ونساءل هنا، ترى ومع البون الشاسع والفرق البعيد لو أن عسكرياً من الفئة الحاكمة في الأرجنتين طلع على الناس بموضوع عرض فيه لكتابة (شكسبير) وإنتاجه ووصفه بالسخف والركاكة والسذاجة وضعف الأسلوب؟ وماذا لو أن أحد اليوغسلاف أو الهنجايرين ادعى أن (جوتّه) ليس عنده إلا هزل من القول؟ وماذا لو أن أحداً من ساحل العاج اتهم ديكارت بالخرافة والجنون؟ ما هو موقف الإنجليز والألمان والفرنسيين، بل ما موقف الأدباء والشعراء والفلاسفة كذلك من غير هذه الشعوب؟ لا شك أن ذلك سيثير السخرية والضحك !!

أقول هذا ومع الفرق الكبير والبون الشاسع - كما قلت - وأين ذلك كله من كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. لو أن أولئك أردوا المراء في أحكام القرآن التشريعية وقيمه الخلقية، وعقائده وقواعده، لأمكن لبعضهم أن يجد لهم عذراً، لأن تلك أمور مشتركة بين الناس جميعاً، ولكن جديراً بهم أن يناقشوا فيما يقولون، وأن يبين لهم وجه لحق إن كانوا من ذوي الحق... لكن ما يتنافى مع النزاهة والروح العلمية أن يعرض أولئك للغة القرآن وأسلوبه وبيانه، وروعة إيجازه ودلائل إعجازه. يقول أستاذنا الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله:

«أما ما يبدو أنه فوق طاقة البشر حقاً في الأسلوب القرآني فهو أنه لا يخضع للقوانين النفسية التي بمقتضاها نرى العقل والعاطفة لا يعملان إلا بالتبادل وينسب عكسية، بحيث يؤدي ظهور إحدى القوتين إلى اختفاء الأخرى، ففي القرآن لا نرى إلا تعاوناً دائماً في جميع الموضوعات التي يتناولها بين هاتين النزعتين المتنافرتين. وبالإضافة إلى الموسيقى الخالدة التي تملأ الأسلوب المتنوع. نرى أن الكلمات ذاتها بمعناها المجازي سواء أكانت وصفاً أم استدلالاً، أو سنّ قاعدة في القانون أو في الأخلاق - تسعى بقوة وتجمع في الوقت نفسه بين التعليم والإقناع والتأثير، وتمنح القلب والعقل نصيبه المنشود، وعلاوة على ذلك فإن هذا الكلام الرباني وهو يؤثر على هذا النحو في قوانا المختلفة - يحتفظ دائماً وفي أي موضع بهيبة مذهشة وبجلالة قوية لا تتأرجح ولا تضطرب.

وربما لا يكون هناك ما يدعو للوقوف طويلاً أمام هذا الوصف التجريدي الذي ليس له معنى ولا قيمة إلا بمراجعة مضمونه على النص القرآني. وهو العمل الذي قمنا به في كتاب آخر - وهو كتاب النبأ العظيم - ولا ينبغي أن نكرره هنا. فالعربي الأصل الذي تسري في دمه غريزة اللغة، ليس في حاجة إلى هذا التحليل لكي يقدر بنفسه طابع النص القرآني الفريد، وما يستفاد من هذه الدراسة البطيئة المنطقية، يدركه هو بفطنته وفطرته فهو يشعر بالقرآن وكأنه آت من السماء، ينفذ إلى القلوب، ويبهر الأبصار ولقد أدرك الكفار هذا التأثير في عهد الرسول ﷺ، واختلّفوا في التماس التفسير والتعليل له، إذ وجدوه ظاهرة غريبة إلى درجة أن أطلقوا عليه سحراً حتى في عصرنا الحاضر. ومع بُعد الزمن واختلاط الأجناس، وانحراف فطرة اللغة. نجد العرب على اختلاف دياناتهم يعترفون بالسمو والجلال والهيبة التي ينفرد بها النص القرآني، لا بالنسبة للأدب العربي بوجه عام، ولكن حتى بالنسبة لأحاديث الرسول ﷺ - ذاته المعروفة ببلاغتها الرفيعة^(١).

رابعاً: وهذه دعوى من مستشرق آخر تحمل ردها في طياتها، فلقد ادعى المستشرق (فنسك) أن رسالة النبي ﷺ كانت للعرب وحدهم، واستدل ببعض الآيات التي تصف القرآن بأنه عربي وبيعض الآيات التي تخص الإنذار بعشيرته وبلده، وقال: إن ما في

(١) المدخل إلى القرآن الكريم، ص ١١٧. وارجع إلى كتاب قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية نقد مطاعن ورد الشبهات ص ٧٦-٧٨.

القرآن من آيات تبين عموم الرسالة، ترد إلى الآيات التي تبين خصوصية الدعوة، وزعم أن ما جاء في السنة من إرسال النبي ﷺ الكتب إلى كسرى وقيصر وغيرهما، ليس صحيحاً، بل هو من وضع الخلفاء ليسوغوا فتوحاتهم لهذه البلاد وغيرها.

ونقول لهذا المستشرق، إن الآيات التي بينت عموم رسالته عليه وآله الصلاة والسلام آيات كثيرة، وأن الآيات التي كان الإنذار فيها خاصاً مثل قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وقوله: ﴿وَلْيُنْذِرْ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢] كانت في بداية الدعوة، وهذا أمر طبيعي، وأن الآيات التي وصفت القرآن بأنه عربي لا تدل على أنه كان للعرب وحدهم. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

ولقد جاء في السنة المطهرة أحاديث كثيرة، تبين عموم دعوته عليه وآله الصلاة والسلام، روى الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أمة وأُسود»^(١).. والآيات والأحاديث التي تثبت عموم رسالته عليه وآله الصلاة والسلام كثيرة.

ونقول له ثانية: إذا كنت تقر برسالة النبي ﷺ، وتقر بنبوته، فإن ذلك يوجب تصديقه؛ لأنه إذا كان نبياً فيجب أن يكون صادقاً، لأن النبوة والكذب لا يجتمعان.

وبعد، فأكتفي بما ذكرته من أوهام المستشرقين، ونفثاتهم، وفصول هذا الكتاب لا يكاد يخلو فصل منها من هذه الأحكام والأباطيل، ولكنها كلها - كما رأيت - لا تقوى أن تقف أمام حقائق القرآن الساطعة، وبراهينه الواضحة.. إنه كانت الله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَقَدْ يَجْعَلُ اللَّهُ عِوَجًا ۖ ۝ فَيَسْمَا ۖ﴾ [الكهف: ١-٢]، فلا تك في مرية مما يقول هؤلاء، ما يقولون إلا كما قال أسلافهم من قبل، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ونختم هذين الفصلين بما ذكره ابن حزم عن صفة وجوه النقل لكتاب الله. يقول: «ونحن إن شاء الله نذكر صفة وجوه النقل الذي عند المسلمين لكتابهم ودينهم، ثم لما

(١) رواه مسلم في كتاب المساجد حديث رقم ٣ انظر شرح النووي على مسلم ٣/٥.

نقلوه عن أئمتهم حتى يقف عليه المؤمن والكافر والعالم والجاهل عياناً إن شاء الله فيعرفون أين نقل سائر الأديان من نقلهم، فنقول وبالله التوفيق: إن نقل المسلمين لكل ما ذكرنا ينقسم أقساماً ستة:

أولها: شيء ينقله أهل المشرق والمغرب عن أمثالهم جيلاً جило لا يختلف فيه مؤمن ولا كافر، منصف غير معاند للمشاهدة وهو القرآن المكتوب في المصاحف في شرق الأرض وغربها، لا يشكون ولا يختلفون في أن محمداً بن عبدالله بن عبدالمطلب أتى به وأخبر أن الله عز وجل أوحى به إليه، وأن من اتبعه أخذه عنه كذلك، ثم أخذ من أولئك حتى بلغ إلينا، ومن ذلك الصلوات الخمس؛ فإنه لا يختلف مؤمن ولا كافر ولا يشك أحد أنه صلاها بأصحابه كل يوم وليلة في أوقاتها المعهودة، وصلاها كذلك كل من اتبعه على دينه حيث كانوا كل يوم هكذا إلى اليوم، لا يشك أحد في أن أهل السند يصلونها كما يصلوها أهل الأندلس، وأن أهل أرمينية يصلونها كما يصلوها أهل اليمن، وكصيام شهر رمضان فإنه لا يختلف كافر ولا مؤمن، ولا يشك أحد في أنه صامه رسول الله ﷺ، وصامه معه كل من اتبعه في كل بلد كل عام، ثم كذلك جيلاً جيلًا إلى يومنا هذا...

والثاني: شيء نقلته الكافة عن مثلها حتى يبلغ الأمر كذلك إلى رسول الله ﷺ ككثير من آياته ومعجزاته التي ظهرت يوم الخندق، وفي تبوك بحضرة الجيش، وككثير من مناسك الحج، وكزكاة التمر والبر والشعير والورق، والإبل والذهب، والبقر والغنم، ومعاملته أهل خيبر وغير ذلك كثير مما يخفى على العامة وإنها يعرفه كواف أهل العلم فقط، وليس عند اليهود والنصارى من هذا النقل شيء أصلاً؛ لأنه يقطع بهم دونه ما قطع بهم دون النقل الذي ذكرنا قبل من إطباقهم على الكفر الدهور الطوال، وعدم إيصال الكافة إلى عيسى عليه السلام.

والثالث: ما نقله الثقة عن الثقة كذلك حتى يبلغ إلى النبي ﷺ يخبر كل واحد منهم باسم الذي أخبره ونسبه، وكلهم معروف الحال والعين والعدالة والزمان المكان، على أن أكثر ما جاء هذا المجيء فإنه منقول نقل الكواف، إما إلى رسول الله ﷺ من طريق جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، وإما إلى صاحب، وإما التابع، وإما إلى إمام أخذ عن التابع يعرف ذلك من كان من أهل المعرفة بهذا الشأن، والحمد لله رب العالمين.

وهذا نقل خص الله تعالى به المسلمين دون سائر أهل الملل كلها، وأبقاه عندهم غصاً جديداً على قديم الدهور منذ أربعمئة عام وخمسين عاماً^(١) في المشرق والمغرب والجنوب والشمال، يرحل في طلبه من لا يحصى عددهم إلا خالقهم إلى الآفاق البعيدة، ويواظب على تقييده من كان الناقد قريباً منه، قد تولى الله تعالى حفظه عليهم، والحمد لله رب العالمين، فلا تفوتهم زلة في كلمة فما فوقها في شيء من النقل إن وقعت لأحدهم، ولا يمكن فاسقاً أن يقحم فيه كلمة موضوعة، والله تعالى الشكر.

وهذه الأقسام الثلاثة التي نأخذ ديننا منها ولا نتعدها إلى غيرها والحمد لله رب العالمين^(٢).

(١) وهذا الزمن الذي كان يعيش فيه ابن حزم.
(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ٨١-٨٣).

رَفَعُ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ الرَّحْمَنِي
أَسْكَنَ اللَّهُ رَوْسَهُ

الْقَضَائِي الثَّامِنُ وَالْبَعِثُونَ

الحداثيون والعلمانيون أمام النص القرآني

إن هذا الفصل من الدراسة هو أكثر الفصول الثلاثة تعقيداً وحساسية، وأشدّها غموضاً، وقد يكون أكثرها خطورة كذلك - وقد هنا نعني بها التأكيد كما استعملها القرآن الكريم - لا لأن له أسساً وأصولاً وجذوراً، ولكن لكثرة ما فيه من مغالطات، ولكونه مغلفاً بأغلفة متعددة وأقنعة متناقضة؛ ذلكم أن الفصل الرابع والعشرين كان - كما عرفتم - دراسة لبعض الروايات، وهذه الدراسة إنما تحتاج منا أن نعي سند الرواية ومتنها، ليسهل حكمنا عليها.

ولقد كان الفصل الخامس والعشرين دراسة لبعض شبهات المستشرقين، ولقد مر معنا كثير من هذا النمط في فصول هذا الكتاب.

أما أصحاب هذا النمط في هذا الفصل، فإنهم يتقمصون أكثر من شخصية؛ فهم يتظاهرون بأنهم مسلمون، متباكون على هذا الإسلام، يريدون أن يقدموه للناس بما يتفق مع متطلبات العصر وحاجات الناس، وسلاحهم - كما يدعون - سلامة المنطق، وحرية البحث، وقوانين العلم.

وسأعرض لكم نماذج متعددة من هذه الدراسات التي يرى أصحابها أنهم أحقّاء بكل ما تعنيه الموضوعية والحداثة والنصفية، وسنجد أن أولئك أكثر من غيرهم ممن مر معنا بعداً عن ذلك كله؛ لذا فإنني أدعو وأهيب، أدعو ذوي الغيرة على هذا الدين، وأهيب بذوي الأفكار السليمة، والأقلام النزيهة، أن يوجهوا كل ما يملكونه من طاقات لبيان بهرج أولئك المموه بالزور، وباطلهم المزخرف بالبهتان.

أيها العلماء إن خطر أولئك الحداثيين، لا ينبع من كونهم يقفون على صخرة صلبة، بل لأنهم يتظاهرون بادعائهم الحرص على الإسلام، وهذا هو الفرق بينهم وبين المستشرقين والمبشرين !! .. يا ذوي الغيرة على دين الله، إن أولئك القوم ليسوا على شيء من البحث الرصين، ولا جلاله الصدق، بل إنك تجدهم تتقلب صفحات ما يكتبون بين الغرور تارة، والحق تارة، والكذب تارة ثالثة !! يغلف ذلك كله كراهية لهذا الدين، وأهله، إنه انسلاخ من كل ما يمت إلى العروبة والإسلام بصلة، وإنك واجد كلاً من أولئك غريب القلب واليد واللسان، عما يمت إلى هذه الأمة بصلة. وسأقص عليك من نبئهم ما يتسع له هذا الفصل في هذا الكتاب، وذلك لا يكفي، ولا بد أن يتوجه ذوو الغيرة من أساتذة الجامعات، وذوي الفكر السوي، وطلاب الدراسات العليا، لبيان خطر أولئك، فليس عندهم والله ما يخيف، بل كل ما عندهم زبد، والزبد يذهب جفاء !! .

لقد حدثتكم في الجزء الأول من هذا الكتاب في فُصل (أسباب النزول)، عن آراء أولئك، ومغالطاتهم. وخطر أولئك؛ لأنهم يحاولون أن يقتنعوا أنفسهم بأنهم مدافعون عن الإسلام، فالمستشرقون والمبشرون والملاحدة لا يندعون غيرهم، بل تجدهم يصرحون بأرائهم في النيل من دين الله، وليس هؤلاء كذلك.

كنت أقلب مفتاح المذيع قبل أيام، فوقفني عبارة، قررت أن أتابع الحديث دون أن أعرف المتحدث أو الإذاعة التي تتحدث منها، وعرفت الإذاعة فكانت إذاعة مونت كارلو التبشيرية، وكانت المتحدثة الدكتورة منى فياض، أستاذ علم النفس في الجامعة اللبنانية، وخلاصة الحديث كانت حملة ظالمة على الذين يعملون للإسلام، وكانت الدكتور منى تكيل لهم الاتهامات بعدم الصدق في الحديث، وعدم السلامة في الفكر والمنطق، وعدم الصحة في المنهج، ويعلم الله أن كل الذي قالته ليس إلا زوراً !! ثم عرجت على أحكام الدين، وعرضت لقضيتين اثنتين: قضية الحضانة، وقضية الميراث، وهنا تكمن خطورة أولئك القوم، إنهم لا ينقدون القرآن الكريم نقداً مباشراً، بل يتظاهرون بأن هذا القرآن هو كتاب الله، لا كما يقول المستشرقون والمبشرون، وهذا الذي أشار إليه كبيرهم الذي علمهم السحر أركون، حينما قال: إن الحوار بين المسلمين وبين المستشرقين، حوار الطرشان؛ لأن المسلمين لا يمكن أن يقتنعوا بأن كتابهم خاطئ، لذلك يرى أنه لا بد من طريقة أخرى، لا يكون فيها النقد مباشراً كما يفعل المستشرقون.

تقول الدكتورة منى: إن القرآن الكريم قرر حقائق لا ننكرها، تصلح للزمن الذي جاء فيه، وكانت لا تذكر القرآن إلا بقولها (القرآن الكريم) تزويراً ولعباً بعقول المستمعين أما قضية الحضانة فقالت: إن الإسلام أعطى الأم حق الحضانة لأولادها لسن معين، وهذا أمر كان مناسباً للزمن الذي نزل فيه القرآن الكريم، أما اليوم فقد تغير الحال، فنحن نرى أن الإنسان قد يكون عمره ثلاثين سنة، ومع ذلك لا يكون ناضجاً، وعلى هذا فما قرره الفقه الإسلامي من جعل سنٍّ معينٍ للحضانة، وإن كان يصلح للزمن الذي نزل القرآن الكريم فيه، ولكنه لا يصلح لهذا اليوم، إنها تؤمن بقدسية القرآن، لكن... أسمعتم قد يكون عمر الإنسان ثلاثين سنة في أيامنا هذه لكنه غير ناضج، يا ذوي الضمائر أنى كانت اتجاهاتكم ومعتقداتكم، أهذا منطق؟!

وأما قضية الميراث، فتقول الدكتورة منى: إن إعطاء القرآن الكريم المرأة نصف نصيب الرجل في الميراث، كان أمراً يتناسب مع وقت نزول القرآن الكريم، أما اليوم فالمرأة عاملة، وإذا كانت تعمل فلا بد أن تأخذ مثل الرجل، أسمعتم.. أعمل المرأة هو الذي يوجب أن يكون نصيبها مثل نصيب الرجل؟! أين المنطق؟!

ونحن نتساءل هنا: لماذا هذا الدين وحده - الإسلام - هو الذي توجه إليه الحملات الظالمة؟ قبل سنين عندما كانت قضية نصر أبي زيد تشغل حيزاً في مصر وفي غيرها، لإساءته إلى دين الله، دعت رابطة الكتّاب الأردنيين نصر أبا زيد من أجل تكريمه، ونصر أبو زيد ليس من الأدباء ولا من الكتّاب الأدبيين، ولا ندري ما الذي حمل رابطة الكتّاب الأردنيين على دعوة نصر أبي زيد لتكريمه، وعلام؟ أكرم على تشويهه حقائق الإسلام؟! وهل هذا ما تتوق إليه رابطة الكتّاب الأردنيين؟ إن الشيخ الغزالي - رحمه الله - لا يرتاب أحد بأنه كان أديباً، وكاتباً أديباً، ولقد جاء إلى الأردن مرات كثيرة، وإذا كانت القضية قضية أدب فكان حرياً برابطة الكتّاب أن تدعو الشيخ الغزالي - رحمه الله - ولو إلى محاضرة، لكنها لم تفعل، بل لم يكتب عنه كلمة واحدة... القضية - إذن - ليست قضية أدب، أو أسلوب أدبي، أو كاتب، إنما هي قضية بعيدة الأغوار، فيا ترى: هلى أقض الإسلام مضاجع رابطة الكتّاب الأردنيين، والإسلام سلم كله؟! لماذا يعتدى علينا وعلى ديننا.

قبل سنين نشر أحد الكُتّاب في بعض الصحف هنا نقداً لا ذعاً للأستاذ مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله - وعجبنا من هذا، والأستاذ الرافعي غنيّ بما كتبه شعراً ونثراً. إن الحداثين، لا يأتي خطرهم من أنهم ذوو فكر أو منطق أو موضوعية، لكن لما يتوارون وراءه من عبارات مزخرفة خادعة.

أمامي كتاب عنوانه (أسباب النزول) لكاتب من بلاد المغرب الإسلامي وأظنه تونسياً، ولقد كتب في فصل أسباب النزول في الجزء الأول، أن هؤلاء الحداثين يركزون كثيراً على هذا الموضوع، أعني أسباب النزول، وهذا الكتاب: أقول بحق إن كل جملة فيه، هي قذيفة لضرب هذا الدين وأهله^(١)، لكنها قذيفة ليس فيها ما يؤدي، وأذكر هنا جملة للأستاذ الرافعي - رحمه الله - حينما كما السجال بينه وبين أدباء عصره - رحمهم الله - يخاطب العقاد بقوله: «تبارك الذي جعل منك مدفع لحم لإطلاق الكلام الفارغ».

كتاب أسباب النزول لبسام الجمل يذكر مشرفه كلمة يثني على الكاتب والكتاب، ويبين جرأة الكاتب فيما كتب، حيث هجم على الموضوع بكل صراحة، كما أثني بسام الجمل على مشرفه؛ لأنه تعلم منه الجرأة فيما يكتب، وهذا المشرف لا يعجبه شيء في دين الله، فهو ينكر مثلاً تحريم الخمر، أما بسام الجمل فإنه يعرض للعلماء، فهم إما مستنير، وإما جامد، ويذكر من المستنيرين محمد أركون، ونصر أبا زيد، والشلة المعروفة، أما الجامدون فهم التقليديون الذي يفهمون الإسلام فهماً غير صحيح، ويذكر من أولئك الشيخ ابن عاشور - رحمه الله - صاحب التحرير والتنوير، والكتب المفيدة، ولم يشفع له كونه تونسياً، ويذكر كذلك من أولئك الجامدين: الشهيد الدكتور صبحي الصالح رحمه الله، ولم يشفع له كونه متخرجاً من السوربون.

ويستمر بسام الجمل في تهويلاته وتشويهاته، تلمح الغرور تارة والتزوير أخرى، وتارة ثالثة الكذب الذي لا يصدقه عاقل.. ويعلم الله أنني صادق فيما أقول: كل جملة في هذا الكتاب تحتاج إلى نقاش ونقد، ولا يتسع الظرف في هذا الكتاب، لأكثر مما كتبه ومثله كتب كثيرة تحتاج من ذوي الغيرة على الحق، أن يتصدوا لها ليبينوا ما فيها من عوار.

(١) قلت قذيفة، وكثيرون يستعملون كلمة قنبلة، وهو خطأ لغوي ليت كُتابنا يتجنبونه.

إن مواقف الحداثيين من التراث ومناهجه، تتباين حسب الزاوية التي ينظر منها الواحد منهم، فهناك من يرى بأننا ينبغي أن نتجاوز المناهج القديمة التقليدية غير الدقيقة، وهناك من يدعو إلى الالتفاف على هذا التراث ووضعه في زنزانة الاستنطاق الحداثي.. ومع ذلك فهم كلهم متفقون على تهميش التراث الذي يحتمي خلفه التيار الديني في صراعه مع الحداثيين.

إن القرآن الكريم من وجهة نظر الحداثيين لم يعد ذا مصدر إلهي؛ لأن ذلك يتعارض مع منهج البحث العلمي، بل هو نتاج تاريخي تعاونت على تأسيسه مجموعة عوامل سياسية واجتماعية، فهو نتاج تجربة فردية قام بها محمد في إطار زمن ومكان محددين، أدى التاريخ فيه دوراً مهماً في توجيه فكر الفرد - يعني النبي ﷺ - واللغة المعبر بها عن ذلك التاريخ، ثم إن هذا القرآن يعد نصاً كأي نص أدبي، يخضع للنقد والدراسة، على أساس أنه منتج ثقافي، وليس القرآن وحده كذلك، بل السنة النبوية ما هي إلا اجتهاد مثل أي اجتهاد بشري آخر محكوم بالواقع الموضوعي المادي الذي ظهر فيه زمانياً ومكانياً، والمتمثل في الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للجزيرة العربية.. وهم يرون أن السنة النبوية غير صالحة لعصرنا^(١).

ويرى بعض الحداثيين أن النسخ يعد حجة قاطعة على تاريخية القرآن وإيضاعه إلى الواقع فهو «أكبر دليل على جدلية العلاقة بين الوحي والواقع»^(٢).

أما اللغة العربية، والتي هي لغة القرآن الكريم، فهي لغة عقيمة، راكدة عائمة، وقاصرة عن حمل المعاني المستجدة، والفكر الذي تورثه هذه اللغة فكر يتصف بعدم الترابط المنطقي، وهذا يرجع إلى البنية التي ظهرت فيها هذه اللغة فهي بيئة الأعرابي الجغرافية والاجتماعية والفكرية^(٣).

(١) هذا ما يقول به محمد شحرور، ومحمد أبو القاسم حاج حمد في كتابه العالمية الإسلامية الثانية وغيرهم.

(٢) مفهوم النص، نصر حامد أبو زيد، ص ١١٧.

(٣) بنية العقل العربي، د. محمد الجابري، ص ٢٤١-٢٤٣.

إن اللغة العربية لغة دينية عاجزة عن أداء وظيفتها في عصرنا الحاضر؛ لأنها لغة يغلب عليها الموضوعات الدينية الخالصة، وهي لغة تاريخية تعبر عن حوادث تاريخية أكثر مما تعبر عن أفكار، أي: أن ألفاظها تدل على الأشخاص والأحداث والأماكن الجغرافية، وهي بعد ذلك لغة ما ورائية وليس لها ما يقابلها في الحس والواقع والتجربة؛ ولذا لا يمكن ضبط معانيها عند التعارض والتضارب^(١).

ومع كل هذا الذي ذكرناه تجدهم يدعون الموضوعية والشمولية في كتاباتهم، وهذا ما يميزهم عن التراثيين، فهم - حسب زعمهم - يتعاملون مع الظاهرة موضوع الدراسة بتجرد من أي فكر مسبق، خاصة إذا كان الموضوع موضوعاً دينياً.. ولكنهم والله أبعد ما يكونون عن هذه المنهجية، وسيظهر لك - أخي القارئ - ذلك واضحاً جلياً فيما سنذكره.

أما أهم المناهج التي يرددها أولئك فهي الألسنية المعاصرة، فهي مع غيرها من المناهج الحديثة البديل الحقيقي للمناهج التفسيرية القديمة التي فقدت قدرتها على الخلق والإبداع ومواكبة روح العصر، ومن هنا فهم:

١- يستيحيون حرمة النص؛ لأنه - أي النص - لا منجاة له إلا بإغراقه في الخيال وبعد عن الحقيقة، وبناءً على ذلك فإن الإسلام ليس له وجود خارجي عن أذهاننا وتصوراتنا، وليس له حقيقة نهائية، بل هو مجرد أنماط وتصورات وصور وكلمات ينبغي تحليلها وتفكيكها بغية تحرير الإنسان العربي من سجنها.

٢- يهتمون بنصوص القرآن بحجب الحقيقة، ويتعامل معها بمنطق بوليسي.

٣- منهم من يدعو إلى الرمزية، والنظر من خلالها إلى القرآن، على أساس أنه مجرد علامات ورموز، تدل على مفاهيم نظرية وفلسفية غايتها السيطرة على الواقع، وإخضاع أهله والهيمنة عليهم^(٢).

(١) التراث والتجديد، موقف من التراث القديم، حسن حنفي ص ٩٦.

(٢) النص السلطة الحقيقة، نصر حامد أبو زيد، ص ٢٢٣. انظر الخدائون العرب في العقود الثلاثة الأخيرة، د. الجيلاني مفتاح للرد على مثل هذه الأقوال.

وأكتفي بما ذكرت، فلن نستطيع التوسع أكثر هنا؛ لأن مثل هذه القضايا التي ذكرها أولئك تحتاج إلى مؤلف خاص بها، ونحيل القارئ إلى رسالة دكتوراه كتبها د. الجيلاني مفتاح، بعنوان الحداثيون العرب في العقود الثلاثة الأخيرة، وقد طبعت في كتاب، وكتاب أزمة النص في مفهوم النص عند نصر حامد أبي زيد للدكتورة فريدة زمرد.

ولنشرع الآن ببيان النماذج التي وعدتكم بالحديث عنها.

أما الأنموذج الأول: فهو كتاب نصر حامد أبو زيد، الذي عرف كثير من القراء طرفاً من أخباره فيما نشرته الصحافة، وذكرته بعض الإذاعات، وهو أستاذ جامعي، تسلق الدراسات القرآنية ليث من خلال دراسته وتدريسه أفكاره ولينشر آراءه ومبادئه.

وأما الثاني: فهو محمد أركون: وهو عربي متفرنس يدّعي أنه أبو العلمانية الحديثة ورائد الحداثيين، وهو أستاذ في إحدى الجامعات الفرنسية - جامعة السوربون - وقد حاول بعض تلاميذه أن يحيطوه بهالات، فادّعوا له وادّعوا عنه.

أما الثالث فهو محمد شحرور، وقد نشأ نشأة سوفيتية، وكانت دراسته بعيدة عن القرآن، وما يتصل به، فهو مهندس.

وعلى ما بين أولئك من تباين في النشأة والثقافة والاتجاه - كما ستعلم ذلك فيما بعد إن شاء الله - لكن قضايا كثيرة اجتمع عليها أولئك وهي قضايا كبرى منها:

١- اختراق جدار القدسية للقرآن والسنة بخاصة وللدين بعامة؛ وهي قضية حاول كل منهم أن يلجها من باب.

٢- حملة التشويه التي اتفق عليها أولئك، على أئمة الدين وعلمائه، ومفكره ومجتهديه ابتداءً من عصر الصحابة رضوان الله عليهم إلى عصرنا هذا. وإليكم جملة من الأوصاف الغريبة الظالمة، فهؤلاء الأئمة والعلماء لا يصلحون للقيام على شأن الدين؛ لأنهم:

١- لم تتوافر لهم الأمانة العلمية؛ فهم يفسرون النصوص تفسيراً يخدم أغراضهم، ويتفق مع أهوائهم، ويتناسب مع أهواء المسؤولين من سياسيين وغيرهم.

٢- ثم هم على درجة من الجهل لا يقدرّون على أن يتفاعلوا مع النصوص؛ لأنهم لا يحسنون فهمها؛ ولذا فإنهم يابون أي نقد من المتنورين الحدائين العلمائين؛ لأنهم لا يفهمونه من جهة، ولخوفهم على مراكزهم ومكتسباتهم من جهة أخرى، وينتج عن عدم الأمانة والجهل تغيير بعض النصوص، وقد يصل ذلك إلى تغيير بعض الآيات والأحاديث، ولا تنس جرأتهم على الله ورسوله.

وهؤلاء الأئمة يهرطقون، وهم غوغائيون. وقد يمر معنا بعض التفصيل لما أجملته لك هنا، والغاية من هذا كله أن قواعد الدين التي قررت واستقرت في العقول، واطمأنت لها النفوس، يجب أن يعاد فيها النظر، وأن يغير أكثرها تغييراً جذرياً، وهم من أجل التأثير على القارئ يكثرّون من المصطلحات الغريبة عن اللغة العربية، محاولين اختلاق بعض الأحداث، محاولين تغيير القواعد اللغوية، وقد يحاول بعضهم أن يتنصل من أنه تأثر بالمستشرقين، وبكلمة موجزة:

إنهم يريدون إنزال القرآن الكريم والسنة النبوية على كل ما وصل إليه الغرب وأعني بالغرب الدول الكبرى التي تشمل ما كان معروفاً بالشرقية والغربية، فكل همهم وجلّ اهتمامهم أن يكون الأساس الذي يجب على المسلمين أن يعتنقوه ويعتقدوه، ما هو معمول به في هذه الدول، فكل الأنظمة التي قررها القرآن، وثبتتها السنة، واستنبطها العلماء ما يتصل منها بالنظم الاجتماعية، أو الاقتصادية أو الأخلاقية يجب أن يغير، إما لأن العلماء الذين قرروه كانوا على غير هدى، وإما لأن ما استدلوأ به لم يكن صحيحاً، وإما لأن الظروف قد تغيرت، والقرآن قد جاء لبيئة خاصة .. وإما.. وإما..

وهذه خلاصة موجزة لما اتفق عليه أولئك.. وهكذا نجدهم يريدون أن يأتوا على بنیان هذه الأمة من أساسه، لا ليحدثوا فيه ثغرة فحسب، بل لينقضوه ظانين أن باستطاعتهم أن يحدثوا فيه انهماكاً، ولكن - والله الحمد والفضل والمنة - إنه بنیان ليس مؤسساً على جرف هارٍ، بل هو ثابت الأصل، شامخ الفرع، أصله ثابت وفرعه في السماء، بل أصله من السماء كذلك.

لذلك كان هذا النمط - كما نبهت عليه من قبل - أشدّ الثلاثة خطورة، وأنكأها معولاً. وأذكر قول الله هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحْكِمُونَ فِي عَمَلِهِمْ سُلْطَانًا عَلَيْهِمْ﴾

إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْبِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ [غافر: ٥٦]. وإنما كان هذا النمط كذلك؛ لأنه يأتي القارئ من حيث منطلق الغيرة على الدين، وسد الثغرات، وتصحيح الاعوجاج، ومن هنا يكمن الخطر. ولقد حذرنا رب العالمين ونبيه الكريم ﷺ من هذا اللون وهذا الصنف. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا...﴾ الآية [التوبة: ١٠٧].

وهذا سيدنا رسول الله ﷺ يبين لنا خطر العدو المغلف في مواضع كثيرة من السنة، نكتفي بواحد منها وهو ما جاء في الصحيح «إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلق السماء...»^(١).

وهذه حكمة نبوية عظيمة، يبين فيها النبي ﷺ للمسلمين، ما ينبغي أن يكونوا عليه من حكمة وحيطة وحذر، وليت شعري!! أي جرأة هذه على أئمتنا الأعلام في شتى أعصارهم وأمصارهم؟ هؤلاء الذين شهدت لهم الدنيا علماً وورعاً وأمانة، وحرصاً على دين الله، وجرأة في دحض الباطل، وصلابة في الثبات على الحق، كيف توصف هذه الصفوة باتباع الأهواء والجهل وعدم الأمانة وعدم الدقة^(٢) وعدم المعرفة باللغة؟ وكيف يلبسون هذه التهم كلها ثوب العلم؟.. عجيب هذا القلب للحقائق، ولكنه ليس جديداً على بغي بعض الناس وغرورهم وتجنّبهم، وقديماً صور لنا شاعر الفلاسفة، وفيلسوف الشعراء أبو العلاء المعري هذا الانقلاب العجيب الذي يراد منه سلب ذوي العقول عقولهم، وتزوير الحقيقة وتشويهها، استمع إليه وهو يقول:

إذا وصف الطائي بالبخل ما درّ وعير قُسمًا بالفهاهة باقل
وقال السُّها للشمس أنت خفيّة وقال الدُّجى يا صبح لو نك حائل
وطاولت الأرض السماء سفاهة وفاخرت الشُّهب الحصى والجنادل

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب بيان الوسوسة في الإيمان حديث رقم ٢١٣ انظر شرح النووي (١٥٣/٢).

(٢) راجع كتابنا البلاغة المقترى عليها.

فِيَا مَوْتُ زُرْ إِن الْحَيَاةَ ذَمِيمَةٌ وَيَا نَفْسُ جِدِّي إِنْ دَهْرَكَ هَازِلٌ^(١)

وإنما اقتصرنا على هذه الأنماط الثلاثة؛ لأنها تمثل مجموعات متشابهة، وهناك بعض المؤلفات لا تقل خطورة وافتراءً عن هذه، ولكنها تبقى في نطاقٍ فرديٍّ، ونمثلُ لذلك بكتاب الفرقان لمحمد محمد عبداللطيف المعروف بابن الخطيب، وقد شحن هذا الكتاب بكلِّ غثٍّ ليس فيه سمين، سواء أكان هذا مما نقله عن غيره، أم مما سولته له نفسه، وأنا لا أرتاب بأن هذا الكاتب كان مصاباً بلوثة عقل، وزيف قلب، واضطراب نفس، مع غرور مجنون، كما كتب تفسيراً على حاشية المصحف، فسّر فيه بعض كلمات القرآن يشبه قاموس الجيب، يقول في مقدمته: إن هذا التفسير يغني عن جميع التفاسير، ولا يغني عنه تفسير آخر «قل لي بالله عليك: أيقولها سوي؟!!»

وقد آن لنا أن نفصل بعض ما أجهلناه عن هذا النمط الثالث، ولنبدأ بالحديث عن أركون.

(١) سقط الزند، ج ٢ ص ٥٣٣. والطائي يعني به حاتماً الطائي، وما در رجل من بني هلال يضرب به المثل في البخل، وقساً هو قس بن ساعدة كان من حكماء العرب وبلغائهم، وباقل رجل ضرب به المثل في العي والفهامة العي وعدم القدرة على الكلام. والسها: كوكب خفي والناس يمتحنون به أبصارهم، والشهب: أجرام تسبح في الفضاء فإذا دخلت في جو الأرض اشتعلت، والجنادل: الحجارة الكبار واحدها جندلة.

النموذج الأول محمد أركون

وهو أحد الثلاثة الذين سأحدث عنهم إن شاء الله، وإنما بدأت الحديث عن أركون لخطورة القضايا التي عَرَضَ لها من جهة، وغموضها من جهة أخرى، ومن جهة ثالثة الادعاء بأنه أبو العلمانية والحداثة والعقلانية، وبأن له منهجاً خالف به المستشرقين - كما يدعي هو وبعض تلامذته.

محمد أركون، جزائري المولد، درس في فرنسا وتأثر بأستاذه بلاشير وسواه من المستشرقين، ويجد القارئ وراء عبارات أركون الملتوية آراء خطيرة أريد لها أن تكون معاولاً لهدم الإسلام، بحجة ضرورة إعادة قراءة الفكر الإسلامي، والتاريخ الإسلامي بمنهجية تناسب العصر، بل تسبقه، وسنحاول بكل موضوعية وجدية وأمانة أن ننقل للقارئ شيئاً من تصورات وانطباعاته، مما سطره هو، أو كتبه أحد تلامذته، و مترجم كتبه هاشم صالح، وسنقتصر على ما يمس موضوعنا مسيئاً مباشراً، ذلكم لأن ما كتبه مما يحتاج إلى رد ونقض بحاجة إلى كتاب خاص.

ونعذر للقارئ الكريم فإننا سننقل عباراته كما هي، وهو ومترجمه يُكثران عن عمد ذكر المصطلحات الغربية عن لغتنا، تفخيماً لشأن هذه المصطلحات. وكانت قواعد البحث العلمي وأسس اللياقة والذوق تلزمانها ذكر العبارات العربية، ولكنها إشارات واضحة إلى ما يُضمّره أولئك وأمثالهم للعربية - لغة القرآن - لا لشيء إلا لأنها العربية التي جعلها الله قوالب لكتابه المبين. كأنهم يوهمون القارئ أن العربية لا تتسع لمثل هذه المصطلحات المتقدمة.

يقول أركون: إن التعامل مع التراث يمشي في مسارين:

أولهما: يعطي الأولوية للدينمو الروحي الخاص بالتراث ويرفض المعطيات التاريخية وهذا يحمل التضاد بين الموقف التراثي والموقف العلمي، وهذا تمثله الحركات الإسلامية.

ثانيهما: يترك التراث مفتوحاً خاضعاً للتغيير المستمر حسبما يقتضيه التاريخ، وهذا الاتجاه يمكن أن يدمج الدينمو الروحي للتراث وتاريخيته ضمن التحليل، وهذا هو الذي يمثله أركون.

يتعرض أركون للتراث بالتقد وبإدأ بالقرآن والسنة ففي مقالته «الإسلام والحدائثة»^(١) يقول: إن الصواب تحديث الإسلام في مقابل جهود أسلمة الحدائثة، لأن الإسلام لا يتم لنا إلا من خلال أدوات معرفية ومصطلحات يوفرها لنا علم الاجتماع. انتهى.

تحديث الإسلام إذن وليس أسلمة الحدائثة، وما أعظم الفرق بينهما إن أسلمة الحدائثة الابتعاد بها عن كل مظاهر الطغيان والفساد المنتشرة في هذا العالم نتيجة القوة الغاشمة، فأين هذا من تحديث الإسلام الذي يريده أركون. هذا التحديث الذي سيأخذ أشكالاً متعددة هدفها كلها محو ما بقي لهذا الإنسان من عناصر تزكو بها الروح وتظهر بها النفس وتهذب بها المادة ويُنتقى بها الفكر.

وفي دراسته علوم القرآن يبين هدفه من هذه الدراسة فيقول في كتابه «الفكر الإسلامي قراءة علمية»: نحن نريد للقرآن المتوسل إليه من كل جهة والمقروء والمشروح من قبل كل الفاعلين الاجتماعيين (المسلمين) مهما يكن مستواهم الثقافي وكفاءتهم العقائدية أن يصبح موضوعاً للتساؤلات النقدية والتحديات الجديدة المتعلقة بمكانته اللغوية والتاريخية والأنثروبولوجية والشيولوجية والفلسفة. انتهى.

ما يقوله أركون، دعا إليه من قبل أحد متخرجي جامعة السوربون المتأثرين بأعمدة الاستشراق الفرنسيين. فلقد دعا الدكتور طه حسين أيام وجوده في الجامعة المصرية إلى إخضاع القرآن للنقد كأى كتاب آخر. فكرة أركون إذن ليست جديدة والمصدر واحد كما رأينا - فرنسا - .

ويختار للتحليل كتاب الإتيقان للسيوطي في مقابل دراسة المستشرق أ. ث ويلش لعلوم القرآن في (انسكيلوبيديا الإسلام)^(٢).

(١) ص ٣٥٤.

(٢) هذه الموسوعات التي يُدعى أنها صروح علمية مليئة بالأخطاء والمغالطات، ويؤسفني أن أقول: والأكاذيب. ارجع إن شئت لكتابنا (قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية).

ومن ملحوظاته - أي أركون - التي سجلها على منهجية الإلتقان:

أولاً: إنه يمثل المنهج المدرسي على الرغم من موسوعيته، فالمعرفة فيه مبعثرة والتقسيمات بلا جدوى، ويقدم أركون تقسيماً مقترحاً من عنده.

ثانياً: إن عقلية السيوطي في هذا الكتاب عقلية دينية، وتفرض اليقينيّات المسبقة على البحث، ولا تتساءل عن الفرضيات المسبقة، وتهمل البُعد التاريخي وتُحوّل الحديث عن نزول الوحي وجمع القرآن إلى ملحوظات مشتتة^(١).

كما عاب على السيوطي استشهاده بأحاديث مزورة، وإغفاله عدداً من الانقطاعات كالانقطاع التاريخي واللغوي والثقافي والعقلي والعلمي وكلها اتهام للسيوطي بالقصور^(٢).

ويتهم المنهج الإسلامي بنزع الصفة التاريخية عن القرآن وكيفية تشكله، أما المنهج الاشتراقي فيُشغَل بالسياق اللغوي والتاريخي للآيات، وهما موقفان متناقضان لا يمكن الجمع بينهما.

أما منهجه هو فيجمع بين البُعد الثيولوجي والفيلسوفي، وعلى هذا فهو يستعيد أدبيات أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والأحاديث التي استشهد بها دعماً للتفسير المختلفة من أجل إعادة كتابة تاريخ حقيقي للنص القرآني، كما ينبغي الاهتمام بالوحدة النصية في كل سورة واستخدام معايير شكلية وتاريخية وموضوعية للكشف عن الوحدات النصية الأخرى في السور المكية. تلکم بعض مغالطاته: التظاهر بأن له منهجاً غير منهج المستشرقين، واتهامه المنهج الإسلامي بنزع الصفة التاريخية عن القرآن. ويعني بالصفة التاريخية ما قرره المستشرقون من أن تاريخ القرآن الكريم منقطع الحلقات، ممزق الصلات، وقد مرّ معنا في فصل جمع القرآن الكريم ما يكفي لدحض هذه المزاعم.

(١) لا أدري ما الذي يريده أركون من السيوطي، أيريد أن يعرض لقضايا القرآن بمثل عقلية وعقلية أشياخه المستشرقين.

(٢) مغالطات ستعرف قريباً أيها القارئ أن أركون يعتمد أحاديث لا صحة لها/ ويرد الأحاديث الصحيحة، وما أجل ما قيل: رمتني بدائها وانسلت.

وعرض لجمع القرآن فقرّر أن جمع القرآن قد ابتدأ بعد وفاة الرسول ﷺ ، في عهد عثمان ؓ أي: بعد وفاته ﷺ بخمسة وعشرين عاماً. وهو متأثر بأستاذه بلاشير الذي نفى وجود قرآن مكتوب في مكة قبل الهجرة، وأن ما كُتب بعد الهجرة رقايع متفرقة لم يفرضها النبي ﷺ على المسلمين مما فسح المجال لسقوط آيات كثيرة.

ويقول أركون: إن الصحابة قد دونوا في حياة الرسول ﷺ الآيات، وإن الذي دونوه يشكل نسخاً جزئية غير مرضية.

هذه فكرة أشياخه المستشرقين وبخاصة اليهود منهم. فهذا هو ادعاء شاخت وجولد زهر وجون وانزبرا وكلهم يهود. فلا أدري كيف يدعي الموضوعية، وأرجو أن يكون ما ذكرت في فصل جمع القرآن الكريم خير رد على هذه الافتراءات الظالمة.

ويتهم أركون علماء الإسلام بأنهم رفضوا إخضاع قضية جمع القرآن للدرس التاريخي الحديث الذي طُبّق على التوراة والإنجيل لأسباب سياسية أو نفسية، أما السياسية فلأن القرآن يمثل ذروة المشروعية للدول الناشئة.

ما أشنعها من مغالطات وما أجزأها من قيلة. إن أركون وأشياخه وتلاميذه يدركون موقف هذه الحكومات الناشئة من دين الله.

وأما النفسية فتتعلق بقراءة النص المكتوب بين الدفتين للاعتقاد بأن ما بين الدفتين هو كلام الله بالذات، وهم بذلك يطابقون بين القرآن المكتوب والخطاب القرآني الشفهي أو المقروء تلاوة، وهذا الأخير هو وحده الذي يُشكل انبثاقاً مباشراً عن أم الكتاب.

هذا هو اعتقاد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وغيرهم من المنصفين ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

ويتعامل أركون مع الوحي بوصفه ظاهرة لغوية قبل أن يكون عبارة عن تركيبات ثيولوجية أو لاهوتية.

وما ذكره أركون في تعريف المفسرين المسلمين للوحي كلام غير دقيق فيه خلط بين الوحي والإلهام. مع أن الإلهام عند علماء المسلمين ليس من أسباب المعرفة. فشتان ما بينه وبين الوحي.

ويقول أركون بمجازية التعبير عن الوحي بالتنزيل ثم يُعرف الوحي بأنه حدوث معنى جديد في الفضاء الداخلي للإنسان بما أنه تجربة، ويرى اتساع مفهومه بحيث يشمل غير الديانات.

وبعد مناقشات لمسألة العقل والأسطورة يخلص أركون إلى القول بوجود الأسطورة في القصة القرآنية، والأسطورة عنده (المجاز الرائع أو الخيال المُجَنِّح أو القصة الحسنة التي لها نواة في الواقع وإن لم تكن واقعية أو تاريخية بالمعنى الحرفي للكلمة).

ليس هذا القول جديداً، فلقد قاله من قبل صاحب الفن القصصي محمد أحمد خلف الله، وقد رُدَّ هذا القول في حينه^(١).

ويظهر أن أركون ليس على علم بشيء من خصائص العربية وأساليبها مع أنه يزعم - كما يزعم مترجم كتابه - بأن الذي يريد أن ينقد الفكر الإسلامي لا بد أن يكون على معرفة تامة بالتراث ولغته.

ويُبين أركون موقفه من التفاسير القرآنية عامة، فيؤكد على عدم توصلها حتى الآن إلى تاريخ شامل للتفسير القرآني يحقق تحديد منشأ أو أدبيات التفسير وتطوراتها أو يبين دراسة شروط ممارسة العقل الإسلامي لنفسه من خلال التفاسير، فالمسلمات اللاهوتية واللغوية والتاريخية أدت إلى الخلط بين مستويات الدلالة والمعنى الخاص بالنص القرآني.

سيأتي رد محكم لهذه الدعوة، والمفسرون كغيرهم من علماء المسلمين عُرضة لتلكم السهام التي ترتد في نحور أصحابها.

والتفاسير عند أركون هي أعمال فكرية ومنتوجات ثقافية مرتبطة بال لحظة الثقافية التي أنتجتها وبالبيئة الاجتماعية أو المدرسة الشيولوجية التي تنتمي إليها أكثر مما هي مرتبطة بلحظة القرآن.

هذا غير صحيح هي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالنص القرآني، لكن للنص القرآني اتجاهات كثيرة فكلُّ عرض له من جهة.

(١) القصص القرآني، د. فضل عباس.

وبناءً عليه فالتفسير عنده تقف حائلاً أو حجاباً بين النص والقارئ إذ يتعامل مع النص من خلالها رغماً.

يتهم التفاسير بالموقف الثابت العاجز المتمثل في رفضها فكرة وجود الأسطورة ونفيها عن القرآن، كما أن التفسير يُشكّل وجهة المفسر أكثر من الدلالة الحقيقية للنص، ويتهم أركان الإمام الطبري بأنه يتلاعب بالروايات والوقائع حتى يتوصل إلى ما يريد. كان يعيب أركان على التفسير الكلاسيكي جهله بالدراسات الألسنية الحديثة التحليلية للنص.

وهذا قول مردود ففي الآية القرآنية قيم كثيرة بيانية وعقدية واجتماعية.. إلخ وكل مفسر أخذ ما يسره الله له.

ويرى أركان أن اعتقاد المسلمين بإمكانية تحويل تعبيراته إلى قانون وشريعة هو وهم كبير.

أرأيتم إلى هذا الادعاء الظالم، إذا لم تكن في القرآن شريعة وعقيدة وفكر فأين يوجد هذا كله. ولقد رُدَّ على هذا القول عند حديثنا عن النمط الثاني من هذا الفصل. والفكرة هنا ترمي إلى أهداف بعيدة وهي تجريد القرآن من كل حقائقه ليفهم فهماً رمزياً. إنها محاولات ذكية لكنها خبيثة تلزم المسلمين أن يكونوا على حذر وحيلة متسلحين بالعلم والحكمة لمجابهة هذه الفري.

ثم يقول: ذلك أن القرآن خطاب مجازي يُغذي التأمل والخيال والفكر والرغبة في التصعيد والتجاوز. والمجتمعات لا تستطيع أن تعيش طيلة حياتها على لغة المجاز.

إذن ليس للقرآن محتوى ولا مضمون عند أركان، ومن استلَّ أفكاره منه، وعلى هذا فالقرآن لا يُلبّي حاجات المؤمنين به.

ثم يقول: لكن البشر لكونهم يحتاجون إلى القانون لتنظيم حياتهم قام الفقهاء بإنجازه ونسبوه إلى القرآن ليكسبوه الشرعية.

سنذكر فيما بعد أن هذه فكرة المستشرقين والباحثين اليهود التي أخذها أركان عنهم وهو أن الفقه الإسلامي في التشريعات الربانية والأحكام وضعها الفقهاء أولاً ثم وضعوا

لها ما يؤيدها من القرآن والسنة، فالأحاديث النبوية إنما هي من وضع أولئك الفقهاء تأييداً للأحكام التي شرعوها أو ألزموا بتشريعيها. وكذلك أي القرآن أسقطت فيما بعد على التشريعات.

ويعقد أركون فصلاً للإعجاز القرآني فيرد قوة الظاهرة القرآنية إلى أمرين:
الأول: جهود بعض الشخصيات الدينية المثقفة.

الثاني: قوة الدولة التي قامت بعملها حسب المنعطفات التاريخية ويشير إلى دراسات الإعجاز فيتهمها بالتأثر بمنطق وبلاغة أرسطو مُثَلِّلاً برسالة الباقلاني. كما يؤكد الضعف في نظرية الإعجاز الناتج عن الخلط بين المستوى اللغوي والثنولوجي والنفسي والتاريخي ويرى أن دراسة الإعجاز جاءت استجابة لموقفين:
الأول: موقف يدرس القرآن بوصفه قضاءً تسقط فيه العقائد والهلوسات والإمكانات التي حلم بها الوعي الإسلامي الخاضع لضغوط نفسية ثقافية.

الثاني: موقف الرسائل المتخصصة بالإعجاز حيث لاحظ أصحاب هذا الموقف أن في النص القرآني وأساليبه نقضاً للعادة على الرغم من خضوع وعيهم للحاجة إلى البرهنة على صفة الإعجاز.

ويتساءل هنا ما هو مرجع التأثير للقرآن الكريم عند نزوله حين سمعه العرب حتى غير المؤمنين به ولا زال هذا السرُّ إلى يومنا هذا، فقد كان تأثير القرآن في النفوس قبل أن تكون له دولة وقبل أن تكون هناك شخصيات مثقفة تؤمن بهذا القرآن، حتى لقد ذهب بعض الكاتبيين ومنهم محمد فريد وجدي رحمه الله إلى أن هذا التأثير في النفوس هو وجه إعجاز القرآن.

ورحم الله الإمام الخطابي حيث يذكر: وجهاً آخر من وجوه إعجاز القرآن غفل عنه كثير من الناس ولا يكاد يعرفه إلا الشاذ منهم، وذلك هو صنيعة في القلوب وتأثيره في النفوس.

ويرى أركون أنه لا يجوز التعامل مع المفردة القرآنية بمعزل عن سياقها القريب والبعيد، بل ينبغي التعامل مع النص القرآني بوصفه وحدة متكاملة. ولإجراء مقارنة أدبية

لتبين سر الإعجاز يؤكد انتشار المجاز في النص القرآني، فيستعرض تحليل بلاشير لسورة النور ويشير إلى وجود الحكاية الأسطورية ذات الدلالة الدينية، ويشير إلى وجود التعبير عن الوعي الأخروي الذي يهدف من خلال الأمور المحسوسة إلى تقديم مفهوم شامل للكون والزمن^(١).

تجريحه الفقهاء والعلماء:

تجريحه الفقهاء والعلماء بما يتناقض مع أيسر قواعد العلم واللياقة والذوق، عجيب أن أولئك القوم يُيبحون لأنفسهم ما يُجرّمونه على غيرهم، وهذه قضية تعاني منها هذه الأمة في مجالاتها كلها، ويظهر أن السيطرة على الإعلام العالمي كان السبب المباشر والأساس الذي ترجع إليه هذه المغالطات، ولكن الإعلام أحد سببين.

أما السبب الآخر فهو ضعف هذه الأمة، وانشغال بعضها ببعض وشعورها بالهزيمة ووقوعها تحت تأثيرات الإغراءات والتهديدات، فلهم أن يقولوا كل شيء وأن يصفوا أئمتنا وأعلامنا بالصفات الظالمة المفتراة وأن يُزوّروا الحقائق. أما نحن فيجب أن نُحرم من أية حقوق وهو حق الدفاع عن النفس، ولهم الحق أن يفعلوا كل شيء من قتل واغتيال وهدم للمنازل ومعاملات لا تقرّها القوانين والأعراف والأخلاق، وليعتدوا على الحقوق ويشردوا الناس الآمنين. أما نحن فتلتصق بنا صفات أقلها الإرهاب، ويظهر أن الأساس واحد ليس في ذلك فرق بين الأمور الثقافية والسياسية والعسكرية، ذلكم هو منطق القوة الغاشمة القوة التي أرادت أن تُقوّض البنية الثقافية والحضارية والمادية والدينية لهذه الأمة. يحضرني تصريح وزيرة خارجية أمريكا حيث قالت: ينبغي أن نفرق بين المنازل والقنابل. ولو أنصفت لتحَدّثت عما بينهما من تلازم.

ذكرت هذه الأسطر التي تختلج في النفس حسرةً وألمًا وعتاباً، وأنا أود أن أقدم للقارئ ما يقوله أبو العلمانيين والحداثيين والعقلانيين من كلمات سوقية، وسأُنقل لك طرفاً منها.

(١) فصلت الرد على هذه الأقوال في كتاب البلاغة المفترى عليها.

- ... ولكن طريقة فهمها واستيعابها أصبحت تختلف عما كان عليه الحال لدى المؤمنين التقليديين المسجونين داخل السياج الدوغمائي المغلق.

- ... وعندئذ نفهم أن التركيبات الثيولوجية الإسلامية بكل أنواعها من تفسير وفقه وحديث وعلم كلام.. إلخ ليست إلا من صنع البشر بالتالي فمن حقنا أن نخضعه للبحث التاريخي.

- إن مسألة الاجتهاد معتبرة داخل تراث الفكر الإسلامي بصفته امتيازاً يحتكره الفقهاء نقصد بذلك الأئمة المجتهدين.

- الشيء الذي ينبغي أن يحظى باهتمامنا هنا وينبغي التركيز عليه هو ذلك الزعم المفرط والغرور المتبجح الذي يدّعيه الفقهاء بأنهم قادرون على التماس المباشر بكلام الله.

- سوف نرى فيما بعد أن انتهازية المشرّعين تصبح أكثر وضوحاً وجلالة عندما ينتطحون لتعيين الآيات الناسخة والمنسوخة.

- فالوهم الكبير الذي يسيطر على الوعي الإسلامي كله يقول بأن تفسير الفقهاء لكلام الله هو في نهاية المطاف جزء من كلام الله.

- ... فهو يقول «بورز» ومعه الحق بأن الطبري يتلاعب بالمعطيات أي «الأخبار».

- ثم يقول عن الروايات التي أوردها الطبري: نستخلص من ذلك محاولته المستبسلة والضارية لإبقاء كلمة الكلالة دون معنى، أي: العجز عن تحديد معناها.

ثم يقول.. راح الفقهاء والمفسرون يحالون عليه وعلى آياته لكي يُبقوا على النظام السابق كما هو تقريباً، والسبب أن الرهان كبير وضخم ولا يمكن السماح بمسه بسهولة، وإلا كيف نفسر سبب هذا الغموض واللف والبرم حول معنى كلمة الكلالة التي حرصوا على عدم تحديد معناها بأي شكل، فالواقع أن معناها هو الكنة.. ولا يمكن للفقهاء أن يسمحوا بحصول ذلك حتى ولو عارضوا القرآن أو تحايّلوا على تفسيره.

ثم يقول: ... وهكذا نجد أنفسنا أمام إرادة صريحة ومتعمدة تهدف إلى حصر حرية التورث... فإن المشرّعين من البشر (أي الفقهاء) قد سمحوا لأنفسهم بالتلاعب بالآيات القرآنية من أجل تشكيل علم التورث.. إلخ.

المقصود بالإرادة الصريحة هنا إرادة الفقهاء الذين فسروا القرآن بالطريقة التي تناسبهم، بل واحتالوا عليه من أجل المحافظة على نظام الإرث العربي... الخ.

ثم يقول: ... وأما المعنى الثالث لكلمة النسخ والذي يعني استبدال نص بنص أو نص لاحق بنص سابق، فهو ناتج عن مناقشات الأصوليين الذين وجدوا أنفسهم في مواجهة نصوص متناقضة، وبالتالي فقد اضطروا لاختيار النص الذي يتناسب أكثر مع التوفيق وتحقيق الانسجام بين الأحكام الشرعية التي كانت قد حظيت بتثبيت الفقهاء الأوائل.

ثم يقول: ... وهذا أكبر دليل على كيفية احتيال الفقهاء على الآيات القرآنية التي لا تتناسب مع مقاصدهم فيقومون بتحييدها.

... لم يعد بإمكان الفقهاء حذف هذه الآيات بعد أن أصبحت متضمنة في المصحف الرسمي الذي سُكِّل أيام عثمان، وبالتالي فقد راحوا يشجعون على تأسيس علم أسباب النزول من أجل القول بأن الآية المنسوخة قد نزلت قبل الآية الناسخة، وبالتالي فمن المشروع إبطال العمل بها.

ويقول عن الإجماع: إنه ناتج عن صيرورة اجتماعية وثقافية وعن جملة المناقشات والصراعات والتحضيرات التي أدت إلى انتقاء بعض العناصر وحذف بعضها الآخر تحت ضغط الإكراهات الإيديولوجية والضغط السياسية.. الخ.

ويقول: فكل التراث الفقهي والتفسيري والأحكام الشرعية هي من صنع البشر، لكننا نسينا ذلك بسبب مرور الزمن فأصبحنا نعتقد أن كل شيء مقدس في التراث الديني.

وأكتفي بهذه العبارات. ولقد ناقشت بعضها فيما مضى وأظن أن كثيراً منها لسقوطها لا يحتاج إلى مناقشة، وقد يمر بنا فيما يلي إن شاء الله تفصيل لرد الكذب والافتراء الذي يقوم فيما يقوم على الحقد والجهل، ولكنني أرى أن قيامه على الحقد أكثر من قيامه على الجهل، ثم مما يُثْلَج الصدر هذا الكذب المُتعمَّد حيث يُدَّعى بأن أئمتنا لم يصلوا إلى رأي حاسم في الكلاله، وفي مقدّماتهم الطبري رحمه الله وهذه كذبة مفضوحة سافرة يدركها أولئك الذين لم يتضلعوا من العلوم.

المخاض الصعب:

بعد هذه الجولة المثيرة مع محمد أركون ومترجم كتابه هاشم صالح لا يسعنا إلا أن نستأذن القارئ الكريم أن نعبر العبارات التي يستحقها، مثل أولئك، فلقد سمعتم ما يندى له الجبين، ويتوارى منه كل حيي، ولا يتفق مع المنطقية والعلم والمناظرة المؤدبة التي رَسَخ قواعدها أئمتنا رحمهم الله، فكان لها علم خاص يُدرّسونه طلابهم علم آداب البحث والمناظرة، وأذكر أنني درسته في السنة الأولى في كلية أصول الدين، وهو علم يقوم على أسس من المنطق والذوق والموضوعية. ولقد حاول أركون أن يُعطي نفسه ومنهجَه ما هو أبعد من الحد الذي يجب أن يقف عنده، وتلكم صفة العلماء، إن الذي يقصده أركون - ولعل هذا من الغرور الذي أصابه والحقد الذي هيمن عليه - أن يعصف بهذا الدين، وقد وجد أن مما يساعده على ما يُريد - الإساءة إلى حملة هذا الدين، ابتداءً من الصحابة رضوان الله عليهم - أن يأتي بتفاسير جديدة خاضعة للمنهجية الحديثة التي تقوم على العقلانية والنقد - كما يدّعي - فهو يدّعي أن اللغة والأخبار المعروفة في عهد الصحابة ومن بعدهم ينبغي أن تُزال ولا يُعوّل عليها. هكذا بكل هرطقة وغوغائية كما يقول. وماذا سيبقى من التاريخ وحقائق الكون إذا كنا نرتاب في اللغة والأخبار المؤكدة الموثوقة.

إن أركون لا يدع فرصة يمكنه أن ينال فيها من دين الله وأئمة هذا الدين إلا ويسط فيها القول وها هو يدافع عن هذه المرأة^(١) التي خرجت عن حدود اللياقة والأدب والمنطق والأخلاق باختلاقها كثيراً من الأخبار واعتمادها على أقوال لا أساس لها في واقع التاريخ، بل تجنيها على سيدنا رسول الله ﷺ ونسائه الطاهرات أمهات المؤمنين بكل فجور وقبح، وكل إناء بالذي فيه ينضح. ويظن المرء بما فيه، وإني والله لأستحي أن أنقل تلك العبارات التي ذكرتها في كتابها - الحريم السياسي - ولكن أركون يقف معها مُدافعاً مُعَنِّفاً علماء الحق. فما هي هذه المنطقية والعلمانية أن تفرض ما تريد على غيرك، وأن تحرمه حق المناظرة والمحاورة، مع أن أركون يدّعي مخالفة المستشرقين في منهجيتهم فإنه في حقيقة

(١) المرأة هي فاطمة المرنيسي تكتب بالفرنسية لترضي أخلاءها - ومعدرة - فهي تعد الحج خرافة وتصف النبي ونسائه أوصافاً يجل اللسان عن ذكرها، لكن اللسان دليل على ما في القلب، يدافع عنها أركون وينال من علماء المسلمين الذين يُدافعون عن الحق.

الأمر ليس إلا أحد تلامذتهم - كما سنعرف ذلك قريباً إن شاء الله - وها هو يوازن بينهم وبين علماء المسلمين، فيرى أن المستشرقين هم أصح منهجاً وأسدُّ طريقاً وأسلم نتائج.

وهذا يُذكرني بالآية الكريمة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَالْفُتُوحِ وَيَقُولُونَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١] والآية كما نعلم نزلت حينما سأل كفار مكة الوثنيون أحد زعماء يهود أئنا أهدي وأصح ديناً نحن أم محمد؟ فقال: بل أنتم.

وإن تعجب أيها القارئ، فعجباً هذا الادعاء من أركون حينما يشبهه بآبن رشد - الإمام العظيم الذي نافح عن دين الله وكان إماماً في المعقول والمنقول - .

ولقد بانث لنا منهجية أركون وهو يعرض لبعض الآيات من كتاب الله فيرى أن ما قيل في تفسير هذه الآيات منذ نزولها حتى الآن كان بعيداً عن الحق مجازياً للصواب غير متفق مع المنهجية الصحيحة، وهو يعتمد في ذلك على بعض تلامذة المستشرقين الذين لا يعرفون شيئاً من العربية وأسرارها، وإنما يأخذون ما يأخذون ويتلقون ما يتلقون عن قوم ناصبوا الإسلام العداء وهم بعيدون كل البعد عن مُسلّماته اللغوية والتشريعية. أليس هذا يستحق العجب كلّ العجب أن يُفسّر أركون القرآن تفسيراً يدّعي أنه الحق، وأن ما سواه باطل. وسترون أن ما ذهب إليه - وهو ما أفاده من المستشرقين - لا يقوم على ذوق لغوي أو صحة في الاستنتاج أو سلامة في المعنى. ولكي يتم له ما يريد يبدأ حديثه بهجمة شرسة على الأئمة وبشيء من الافتراءات.

القضية التي عرض لها أركون هي قضية الكلالة التي ذُكرت في سورة النساء في قوله سبحانه في آية الموارث: ﴿وَإِن كَانَتْ رَجُلٌ يُّورَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّسُ﴾ [النساء: ١٢]، وذكرت مرة أخرى في السورة نفسها ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]، وقبل أن نفصل القول في الكلالة وأقوال العلماء فيها نستمع إلى ما يقوله أركون: «... وفي الوقت ذاته وعلى غفلة مني كان هناك باحث أمريكي شاب يدعى دافيدس بورز يحضّر في جامعة برنستون أطروحة دكتوراه نشرت مؤخراً تحت عنوان دراسات في القرآن والحديث، تشكل القانون

الإسلامي الخاص بالإرث ١٩٨٦م. وقبل أن ينشر أطروحته عرض عليّ هذا الباحث فصلاً منها لكي أنشره في مجلة أرابيكا، وهذا ما فعلته على الفور، ولكن ليس دون الشعور بحزن عميق. شعرت بالحزن لأن صاحب هذا البحث الممتاز هو غربي وليس عربياً أو مسلماً. لقد قسّ عندئذ حجم ذلك التفاوت الواضح بين الباحثين المسلمين والمستشرقين والذي يجعل الاستشراق مستمراً حتى الآن في الافتخار بأنه هو وحده الذي يؤدي إلى تقدم الدراسات في مجال الثقافة الإسلامية والفكر العربي كما كان عليه الحال أيام غولد زيهر وجوزيف شاخت... إن دراسة دافديس بورز قد جاءت في وقتها لكي تقدم لي المناسبة الملائمة من أجل تبيان الفرق بين منهجيتي في دراسة التراث العربي الإسلامي ومنهجية المستشرقين. فالعلم الاستشراقي بعد أن يقوم بعمله يُخلف وراءه حقلاً من الانقراض، أي في ذلك المكان الذي تنتعش فيه «القيم المتعالية» وتمارس دورها كاملاً بالنسبة لمجتمعات بشرية بأسرها.

وأما الفكر النقدي فهو بناء ومتضامن فعلياً مع كافة أنواع الصعوبات والحالات الجديدة التي أثارها البحث العلمي وولدها.

ثم يقول عن الآية الثانية عشرة من سورة النساء: سوف نبتدئ بتحليل الجزء الثاني من الآية الثانية عشرة لسورة النساء لأننا نجد فيها المشاكل الأكثر صحة وملاءمة لتوضيح ضرورة الانتقال من مرحلة الاجتهاد إلى مرحلة نقد العقل الإسلامي.

ومن المهم بهذا الصدد أن نسجل هنا تلك الآية بالحرف العربي ولكن دون إعراب أو حركات: «وإن كان رجل يُورثُ كلاً أو امرأة. وله أخ أو أخت، فلكل واحد منهما السدس. فإن كانوا أكثر من ذلك، فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصي بها أو دين غير مضار، وصية من الله والله عليم حليم»، وقد فعلت كما فعل بورز من جهته، بعرض هذه الآية غير المشكّلة على الناطقين بالعربية كلغة أم، فاكشفت الشيء المدهش والممتع التالي: إن أولئك الذين حفظوا القرآن عن ظهر قلب يتلون الآية كما هي واردة في القرآن، وبفس الإعراب والحركات. ومن المعروف أن هذه القراءة هي التي كانت قد اعتُمِدَت بعد طول نقاش من قبل التفسير الكلاسيكي، ثم قُرِضَت في المصحف الرسمي منذ الطبري على الأقل. ولكن أولئك الذين لا يحفظون القرآن عن ظهر قلب ويخضعون فقط

للكفاءة القواعدية واللغوية العربية يختارون دائماً القراءات الأخرى التي استبعدوا التفسير الأرثوذكسي.

إن الخلافات المذكورة بالطبع من قبل الطبري بحسب منهجيته المعروفة في التفسير المرتكزة على الأخبار المدعومة بالإسناد أقول: إن هذه الخلافات تخص فعلين أساسيين هما: يورث ويوصي فهما مقروءان بشكل مبني للمجهول أو للمعلوم بحسب التفسير المعتمد. وعندئذ تصبح كلمة امرأة مفعولاً به مباشراً تماماً مثل كلمة كلاله (اللهم إذا ما اعتمدنا قراءة الفعلين وهما مبنيان للمعلوم) وعندئذ تصبح القراءة معاكسة تماماً للقراءة الواردة في القرآن.

أي تصبح: وإن كان رجلٌ يورثُ كلاله أو امرأة، وهي القراءة الطبيعية المناسبة للفظرة العربية والذوق العربي السليم والملكة اللغوية أو الكفاءة اللغوية للناطقين بالعربية (بحسب المعنى الألسني لكلمة الكفاءة اللغوية).

أما القراءة التي فُرِضَتْ في القرآن من قِبَل الفقهاء فهي صعبة جداً وملتوية وعسرة على الذوق اللغوي العربي، وقد احتاجت إلى الكثير من الشروحات والتخريجات القواعدية واللغوية. واضطرت الفقهاء والمفسرين إلى اللجوء لمحاجات وتأويلات معقدة وملتبسة (أحيل القارئ هنا إلى تفسير الطبري للاطلاع على شيء من ذلك). تقول القراءة التي اعتمدت في المصحف الرسمي: وإن كان رجل يورثُ كلاله أو امرأة... (أي قراءة الفعل وهو مبني للمجهول).

ونلاحظ صعوبة القراءة على الذوق العربي السليم ونستغرب ما السبب؟ ليس من الضروري أن نذكر هنا كل التفسيرات المفصلة التي يوردها الطبري عن معنى كلمة الكلاله ومكانتها النحوية أو القواعدية في الآية. وإنما سنكتفي بذكر المعطيات التالية من أجل الاستفادة منها في تحليلاتنا اللاحقة:

١- الطبري يخصص مكانة ما للقراءة التي يُبجلها البعض ويعتمدونها ولكن دون أن يذكر النتائج والانعكاسات السلبية المترتبة على حذفها لمصلحة تلك القراءة الشائعة التي اعتمدت رسمياً والتي يفضلها العدد الأكبر من القراء الذين يعتنقون الإسلام (أي بحسب لغته: أمة قرأه أهل الإسلام).

وهذا المثال الذي يقدمه لنا الطبري مهم جداً بالنسبة لنا، لأنه يضيء لنا تلك الطريقة التي فُرضت الأرثوذكسية بواسطتها ضمن مجال القراءات والتفسير. فالإجماع هنا هو إجماع الأغلبية العددية فقط، هذا الإجماع الذي لا يُكلف نفسه عناء تقييم الرهانات الثيولوجية والقانونية والاجتماعية.. الخ.

٢- إن السيرة التاريخية التي أدت إلى تشكل الأغلبية وصلابة مواقع السادات أو السلطات التي تدعمها، بالقياس إلى تشكل الأقلية المُسَفَّهة وضعف مواقعها لم تتعرض لأية دراسة نقدية ترتفع إلى مستوى الرهان الأولي لكل مشكلة قراءة أو تفسير. نقصد بالرهان الأولي هنا: إعادة تركيب الصيغة اللغوية الصحيحة لكلام الله.

ثم يقول: ... إن دافيدس بورز لا يتخلى أبداً عن هذه القواعد، ولا يتجاوز أبداً حرفية هذه المنهجية وهو يستنفر بذلك عن وعي كل المصادر اللغوية التي تقدمها اللغات السامية الأساسية (العبرية، والآكادية والآرامية والسريانية) وكل ذلك من أجل أن يتوصل إلى المعنى الحقيقي للجذر اللغوي: (كلل) لكي يتمكن بعدئذ من فهم معنى كلمة كلاله في الآيتين... هكذا نجد مثلاً أن معنى كلمة الكلاله لم يُجسَّم حتى بعد كل تحريات بورز الفلولوجية وفرضياته. وفي مثل هذه الحالة نجد أن التعبير الفلولوجي قد صدم الوعي الإيماني بشكل مجاني وذلك عن طريق حلوله التي تظل هشة جداً. ولهذا السبب فهو يقوم برد فعل عنيف كما سيفعل حتماً ضد هذه التحريات الفلولوجية، وذلك لكي يحمي نفسه ضد هذه الاعتداءات الخارجية على سياجه العقائدي والدوغماتي المغلق، وفي مثل هذه الظروف ينبغي علينا فوراً أن ندل هذا الوعي الإيماني على مجال آخر من مجالات حقيقته الخاصة. أقصد بذلك ينبغي أن نبين له كيفية المرور في التفسير من مرحلة الكلام الحق لله (الوحي) إلى مرحلة الكلام الحق للفقهاء العالم بأصول الدين وأصول الفقه من أجل ضمان الإيمان الحق لكل المؤمنين... إن طريقة استغلال الباحث دافيد بورز للأخبار السبعة والعشرين التي يوردها الطبري، وذلك من أجل التوصل إلى معنى كلمة الكلاله، تكشف لنا عن محدودية المنهجية الفلولوجية التي تتفوق على ميزاتها وإمكاناتها، فهو يقول ومعه الحق بأن الطبري يتلاعب بالمعطيات (الأخبار)^(١).

(١) من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي: محمد أركون، ص ٢٩-٤٥.

وقبل أن نردّ هذه الفري الظالمة التي جمعت إلى الحقد سوء الأدب والخيانة العلمية والجهل حيناً والتجاهل حيناً آخر. أعرفك أيها القارئ بمحمد أركون: فقد عرفنا أنه وُلِدَ في الجزائر، لكن كيف وصل إلى فرنسا ووصل إلى ما هو عليه الآن. إني لأعترف بالفضل لأهله.

فلقد ذكر لي الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة - رئيس مجمع اللغة العربية الأردني - فقال حفظه الله: حينما كنت في إحدى المنتديات الفكرية في الجزائر جاء محمد أركون ولكن المجتمعين هناك أنكروا مجيئه حيث لم توجه إليه دعوة وحدّثه الإخوة الجزائريون أن محمد أركون تبناه أحد المسؤولين الفرنسيين في الجزائر في عهد الاستعمار الفرنسي.

وفي فرنسا التقطته جماعة تبشيرية وغيّروا اسمه وخلعوا عليه اسماً فرنسياً نصرانياً، وبقي يُعرف بهذا الاسم البعيد عن الإسلام والعربية إلى عهد الاستقلال وبعد الاستقلال سمّوه محمداً، أرادوا من تلك التسمية إلى هذا الدور الذي يقوم به الآن ثم قال الأستاذ الدكتور عبد الكريم: وحدثني الدكتور موريس بوكاي الكاتب المعروف.

يقول الأستاذ: حدّثني موريس بوكاي أنه بعد أن صدرت له بعض الكتب التي يُدافع فيها عن الحق قامت عليه حملة في فرنسا تزعمتها الكنيسة الكاثوليكية وقُدِّرَ عقد مناظرة في جامعة باريس (السوربون)، واختارت الكنيسة محمد أركون ليناظر موريس بوكاي ويرد عليه، واتهمه بأنه كتب ما كتب نفاقاً للعرب والمسلمين. ذلك هو محمد أركون الذي يتسرّ وراء العلمانية والحداثة والمنهجية العقلانية وعدم التأثير بالمستشرقين وتبنيّ طريقاً وسطاً بين المنهجية الإسلامية ومنهجية الاستشراق. إنه شر من أدونيس؛ لأن أدونيس لم يحاول إخفاء حقيقته والتستر وراء كومات من الخداع والمراوغة.

لقد عَرَضَ أركون للحديث عن الكلالة وهو معترف بأن الفضل يرجع إلى دافيد بورز. وأتصور القضية على أنها كانت رهاناً بين الاثنين - أركون وبورز - أيهما يسبق صاحبه بالافتراء والتزوير، وقبل أن نعرض لأباطيلهما يُجْمَلُ بنا أن نعرف وجه الحق في شأن الكلالة، وما هي مذاهب علماء المسلمين وأقوالهم، وهل هناك خلاف بين الفرق الإسلامية في تحديدها، وهل كان أمرها مستعصياً على الصحابة فمن بعدهم، وهل كان

الطبري وغيره من الأئمة يتلاعبون في الروايات وتركوها بلا تحديد لهويتها؟ إن ذلك كُله غير صحيح، وإليكم خلاصة تجمع ما قيل منذ عهد النبوة إلى عهدنا هذا فأقول وبالله التوفيق:

أولاً: أجمع علماء المسلمين - مفسرون وفقهاء - من أهل السنة والشيعة والإباضية على كلمة سواء في الكلالة ليس في ذلك خلاف لأحد وهذه كتبهم قديمها وحديثها مهية لكل باحث وطالب علم.

ثانياً: كان موقف الصحابة - رضوان الله عليهم - موقفاً موحداً في أمر الكلالة.

ثالثاً: لقد بين العلماء الصلة بين المعنى اللغوي للكلالة وبين المعنى الشرعي.

رابعاً: إن الإمام الطبري كغيره من المفسرين - رحمهم الله - لم يترك القارئ في حيرة وشروء في تعريف الكلالة.

خامساً: إن حرص سيدنا عمر رضي الله عنه على سؤال النبي ﷺ وإجابة النبي ﷺ له: تكفيك آية الصيف يدل على نباهة عمر وقدرته على الاستنباط.

سادساً: إن الذي ندم عليه عمر رضي الله عنه عدم سؤاله النبي ﷺ عن تحديد معناها^(١).

سابعاً: اتفقت كلمة العلماء على أن الكلالة إما من الإكليل الذي يحيط بالرأس، وإما من الكلال الذي هو الإعياء، وهذا المعنى اللغوي ذو صلة بالمعنى الشرعي للكلالة، وهو أنه من مات وليس له ولد أو والد إنما يرثه غيرهما من ذوي القربات^(٢).

ثامناً: ذكرت الكلالة في كتاب الله في موضعين كلاهما في سورة النساء، الأول وقد جاء في الآية الثانية من آيات الموارث في أول السورة ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُبِ﴾ [النساء: ١٢] وقد أجمع العلماء على أن الإخوة في هذه الآية هم

(١) عمدة التفاسير ج ٤، ص ٥٥-٦١.

(٢) تفسير القرطبي، ج ٥ ص ٧٦-٧٩.

الإخوة لأم. والموضع الثاني قوله سبحانه: ﴿سَتَقْتُلُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمَرْتُكُمْ هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧٦]، وقد أجمعوا على أن الإخوة في هذه الآية هم الإخوة الأشقاء أو الإخوة لأب.

وتدبر الآيتين يُطلع القارئ على ما قدره العلماء من معنى الكلاله.

تاسعاً: إن القراءة المتواترة التي أجمع عليها القراء العشرة هي المكتوبة في المصحف وهي بناء الفعل يورث لما لم يسمَّ (المجهول) أما قراءة الفعل مبنياً للمعلوم يورث أو يُورث فهي شاذة.

عاشراً: إن اختلاف المفسرين في معنى الآية وهو ما المقصود بالكلالة أهو الميت الذي لا والد له ولا ولد، أم المال المورث أو القرابة الوارثون، ليس اختلافاً في الجوهر؛ لأن مؤدى هذه الأقوال جميعها واحد، لكن سعة العربية ومرونة اللفظ القرآني جعلت العلماء يتوسعون في معاني الكلمات، وسواء أكانت الكلاله بهذا المعنى أم ذاك فخاتمة المطاف ترجع إلى أنه من ولا ولد له ولا والد، وسأتحفكم الآن بكلام طيب للإمام المجمع على إمامته حافظ المغرب ابن عبد البر - رحمه الله ورضي الله عنه - في موسوعته القيمة (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد).

قال أبو عمر - رحمه الله - : طعن قوم من الملحدین على عمر رضي الله عنه في هذه القصة، ونسبوه إلى قلة الفهم، فأوضحوا جهلهم وكشفوا قلة فهمهم وسرحوا عن بدعتهم، وقد عرف المسلمون موضع فطنة عمر وفهمه وذكائه، حتى لقد كان يسبق التنزيل بفطنته فينزل القرآن على ظنه ومراده، وهذا محفوظ معلوم عنه في غير ما قصة، منها نزول آي الحجاب وآية فداء الأسرى. ولا يجهل فضائله وموضعه من العلم إلا من سفه نفسه، ولعمري إن في هذا الخبر عنه في الكلاله، ما يزيد في فضله ويوضح عن فهمه ومنزلته عند رسول الله ﷺ؛ لأنه لو لم يكن عند رسول الله ﷺ من يقوم باستخراج التأويل واستنباط المعاني من التنزيل لما رد رسول الله ﷺ هذا ومثله إلى نظره واستنباطه، وإلى بصره واستخراجه، ولما قال له: يكفيك آية الصيف، ولو كان عنده من لا يُدرك استخراج

التأويل من ظاهر التنزيل لما كفته عنده الآية، ولين له ما يحتاج من ذلك إليه، وأوضح له ما أشكل عليه، إذ كان بيانه واجباً لازماً له ﷺ^(١) كأني بالشيخ رحمه الله يرد على افتراءات أولئك الخراصين ومنهج أركون وبورز.

ثم إن هنا قضية خطيرة ينبغي أن يتنبه لها المسلمون وهي أن الحملة الشنيعة على دين الله حملة قديمة من قبل ابن عبد البر، كان الزنادقة واليهود يتولون كبرها ويحملون رايتها السوداء، وإن مفتريات اليوم هي مفتريات الأمس ألبسوها جديداً، فهي مختلفة من حيث الأسلوب، لكنها واحدة من حيث المضمون. ثم يقول ابن عبد البر - رحمه الله - وذكر يحيى بن آدم عن شريك وزهير وأبي الأحوص، عن أبي إسحاق عن سليمان بن عبد، قال: ما رأيتهم إلا وقد تواطؤوا وأجمعوا على أن الكلالة من مات وليس له ولد ولا والد^(٢).

وأرجو أن يكون فيما أحلت وذكرت الغنية في هذه المسألة، ولقد آن لنا أن نردّ المزاعم والاختلافات التي أثارها أركون وبورز، وإن من أولها أحقية بالرد تنزيه ساحة أئمتنا بما رُموا به من التلاعب والكذب والهوى. ويعلم الله - والتاريخ شاهد - أن أولئك المطهرين كانوا أمثلة حية لا زال التاريخ يُطَيَّبُ بعَبَقِ أنفاسهم الطاهرة، وصدق الله ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْآثِرُ﴾ [القمر: ٢٦].

أولاً: يزعم بورز - وقد لاقى هذا قبلاً ورضاً عند أركون - أن الكلالة بعيدة عن كل ما ذكره المفسرون والفقهاء، ويقول: إنه بعد رجوعه إلى أصول اللغات الأكاديمية والعبرية وغيرهما اكتشف أن معنى الكلالة الكنة، والحق أن هذا القول كان حرياً أن يُهمل ولكن بعض من حسن نياتهم وأحسنوا الظن بأولئك وخُذِعُوا ببهرج العلم قد يستمعون لمثل هذا، ولقد رأى أركون في ما وصل إليه بورز وجوب إعادة الصياغة اللغوية لكتابة القرآن الكريم، وسيأتيك الرد على هذا عند حديثه عن القراءات.

إن إجماع علماء اللغات المنصفين، على أن العربية هي سيدة اللغات السامية وأوسعها انتشاراً وأكثرها تهذيباً مرت بأطوار متعددة إصلاحاً وتهذيباً، ولقد ذكرت في كتابي

(١) التمهيد، ج ٥، ص ١٩٣.

(٢) التمهيد ج ٥ ص ١٩٧، ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتاب التمهيد ج ٥ من ص ١٨٢ إلى ص ٢٠٢.

(البلاغة المفترى عليها) ما نقله ابن الأثير في المثل السائر عن بعض علماء اليهود وأدبائهم من أن ما تهبأ للغة العربية من أسباب الصحة والسلامة والتصفية من الشوائب والتنقية من الأكدار لم يتسنّ لغيرها من اللغات السامية وذكر بعض الأمثلة^(١).

وهذا المعنى ذكره ابن حزم وغيره من العلماء. هذه هي الحقيقة، ولم لا تكون العربية هي التي يجب أن نرجع إليها في الفرق بين الكلالة والكنة؟ إن علماء العربية وبخاصة علماء فقه اللغة يبينون الجذور لكل كلمة من الكلمات، قال ابن فارس: أجمع أهل اللغة إلا من شذ منهم أن للغة العرب قياساً، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض، وأن اسم الجن مشتق من الاجتنان^(٢).

إن هذا القول يدل دلالة واضحة على جهل قائله بقضايا اللغات بعامة وباللغة العربية بخاصة كما يدل على سقم في المنهجية كذلك.

أما دلالاته على سقم المنهجية فلأن أي عاقل منصف ذي معرفة ولو قليلة في أصول العلوم ومناهج البحث لا يقبل أن يرّد معنى كلمة أجمع عليها أعلام اللغة منذ أن كانت اللغة لم يُخالَف أحد منهم، ذلك أمر والله لا يقوله إلا أحق، وأما جهلهم بأصول اللغات فلأنه لم يقل أحد من الباحثين بأن اللغات يجب أن تتلاقى في أصول كل كلمة، وهذا أمر ما أظن أحداً يرتاب فيه من أهل العلم. وأما جهلهم باللغة العربية بخاصة فلأن الكنة التي فسروا بها الكلالة ليس هناك إجماع لغوي بأنها امرأة الابن. قال ابن فارس: فأما الكنة فشاذة عن هذا الأصل^(٣) ويقال: إنها امرأة الابن^(٤). وفي المعجم الوسيط: الكنة: امرأة الابن أو الأخ.

أرأيت إلى هذا الجهل الواضح كيف يفسرون الأمر المتفق عليه بها هو مُتخَلَف فيه؟

(١) المرجع (البلاغة المفترى عليها) د. فضل عباس. ص ٥٩.

(٢) الصاحبي، ص ٣٣.

(٣) أي أصل الكاف والنون.

(٤) معجم مقاييس اللغة.

ثانياً: إن الكذب فيما زعمه هذان ليس بأقل من الجهل الذي رأيت، فلقد ادعى أن الطبري وغيره قد تركوا الكلاله غامضة، وقد سمعت ما نقلناه من قبل عن ابن عبد البر، ويذكر ابن عبد البر قول الطبري في معنى الكلاله، ولم يخرج عما أجمع عليه الأئمة من أن الكلاله من لا ولد له ولا والد. وتفسير الطبري خير شاهد على أنها يقولان منكراً من القول وزوراً.

إن أركون الذي عرفنا هويته من قبل يُقدّم لنا الدليل تلو الدليل على جملة من الصفات التي أبان عنها كلامه، أبرزها القول بلا علم وفساد الذوق واختفاء الأمانة، ويعلم الله أنه ليس من دأبي ولا من طبعي في كتبي مثل هذه الأقوال ولكنهم معتدون وصدق الله ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

ولقد قلت من قبل: إن الوقاحة أُمست خُلُقاً لأولئك القوم، ولنقف وقفة متأنية موجزة مع عبارات أركون. يوازن أركون بين قراءتين يُورث وهي القراءة المتواترة للقراء العشرة - كما قلنا من قبل - وبين قراءة اخترعها له بورز. ويربط هذه الموازنة بقوله سبحانه: ﴿يُوصِي بِهَا﴾ ببناء الفعل لما لم يسم فاعله (مجهول) ويُوصي ببناء الفعل للمعلوم، وفي هذا كل العجب؛ لأنه ليس هناك صلة من حيث المعنى بين الفعلين يُورث ويُوصي.

يقول أركون: إن القراءة المكتوبة في المصحف هي القراءة التي اعتمدت بعد طول نقاش، وعلى الأقل من عهد الطبري، ولا أدري أبصل المستشرقون إلى هذه الهرطقة. إن القاضي والداني من المسلمين وغيرهم يعرف أن الطبري - رحمه الله - قد عاش في القرنين الثالث والرابع، وأن القراءات نقلها الطبري عن شيوخه وهم عن شيوخهم، وأن القراءات إنما كانت منذ عهد النبوة، وإن ما كتب منها لم يكن محل نقاش وأخذ ورد كما يزعم أركون. ولم يقف أركون عند هذا الحد بل ذهب إلى ما هو أبعد وأبعد حيث ادّعى أن القراءة المقبولة ليست هي القراءة المكتوبة في المصحف (يُورث) بل القراءة الصحيحة التي تُركت عن عمد (يُورث) لما في القراءة الأولى من تكلف وخروج عن الذوق العربي، وإن الذين يقرؤون القرآن دون أن يحفظوه إنما يقرؤونه على قواعد العربية ارتضوا هذه القراءة يُورث - بكسر الراء - .

وأما الذين يحفظون القرآن عن ظهر قلب فهم الذين يقرؤون القراءة المكتوبة في المصحف. وأظنك أيها القارئ تدرك المغمز الخبيث من كلام أركون، إنه يريد أن يقول: إن الذي يحفظون القرآن عن ظهر قلب فسدت سلاقتهم؛ لأنهم تُسُّثوا على أمر قهري أما غيرهم فهم الذين يملكون ناصية الحرية، ونحن نعلم - وأركون يعلم - أن كثيرين من غير المسلمين الذين كانوا يودون تقويم ألسنتهم وتثقيفها كانوا يحفظون القرآن الكريم ويوصون غيرهم بحفظه، وهذا أمر معروف في بيئة الأدباء والعلماء.

ثم إن ادعاء أركون بأن القراءة المكتوبة في المصحف مخالفة للذوق، لا نملك في الرد عليه إلا أن نقول ما قاله المتنبي من قبل:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وأفته من الفهم السقيم
وقوله:

ومن يك ذا فم مُرّ مريض يجد مُرّاً به الماء الزلالا
أريد أركون أن يلغي من العربية بناء الفعل للمجهول؟ ثم أصدق أحد منحه الله شيئاً من العقل أن مئات الملايين من البشر ومنهم الأئمة والعلماء لم يدركوا ما أدركه أركون بذوقه؟ ثم إن من التلاعب والخداع أن يوهم أركون غيره بأن القراءة التي اختارها كانت معلومة من قبل. إن القراءة الشاذة التي أشرنا إليها من قبل «وإن كان رجلٌ يُورَثُ كلالَةً أو امرأة»^(١) برفع امرأة عطفاً على رجل. أما القراءة التي اختارها أركون وصاحبه وهي التي لم تعرف من قبل فهي «وإن كان رجلٌ يُورَثُ كلالَةً أو امرأة» بنصب امرأة عطفاً على كلالَةٍ. وقراءة أركون وصاحبه فاسدة من حيث المعنى يُجَلُّ عنها النظم القرآني ولكن أين من يعقل؟! وإنا ذهب أركون وصاحبه هذا المذهب؛ لأنها يفسران الكلالَةَ بامرأة الابن؟!!

والمعنى على ما ذهبنا إليه «وإن كان رجلٌ يُورَثُ كنةً أو امرأة» ونسائل هنا أي فائدة لذكر الكنة مقرونة مع لفظ امرأة، ومن هي المرأة المعنية على ما ذهب إليه أركون وبورز.

(١) انظر البحر المحيط في هذا المحل.

إن لفظ امرأة لفظ عام يشمل: الزوجة والبنت والأخت وامرأة الابن وامرأة الأخ وغيرهن، فأَي امرأة من أولئك المقصودة عند أركون؟ لقد خفي على أركون وصاحبه فساد ما ذهبوا إليه، فلماذا تُذكر الكُتَّة هنا؟ ثم نتساءل هل زوجها وهو الابن حي؟ فإن كان حياً فهو الذي يرث أباه، ولا شأن لزوجته ألبتة، وإن لم يكن حياً فلا شأن لها بهذا المتوفى، فقد تكون زوجة لرجل آخر، ثم إن عطف المرأة على الكُتَّة كلام لا معنى له حيث يصير المعنى «وإن كان رجلٌ يُورث كُتَّة أو يُورث امرأة» والتذكير يدل على العموم، فلفظ امرأة في الآية الكريمة جاء مُتكرراً ويشمل جميع النساء، فأَيمن المقصودة في الآية؟ وعلى ما ذهبوا إليه يصير قوله سبحانه: «وله أخ أو أخت» منقطعاً عما قبله لا معنى لها.

إن ما ذهب إليه أركون لظلم فاسد؛ لأن معناه فاسد. ولقد غرَّ أركون ما ذهب إليه بورز فهو يدعو إلى إعادة صياغة القرآن الكريم صياغة لغوية جديدة. إنها والله الطامة. بقيت قضية يجب أن ننبه عليها مع كونها إفكاً مبيناً وهي ادعاء بورز أن ما جاء في الحديث الشريف «إن الله أعطى كل ذي حق حقه، ألا لا وصية لوارث» لم يُعرف إلا في القرن الثامن الهجري وهي حكمة اخترعها الفقهاء. ونحن نحيل أي قارئ من غير المسلمين بالطبع - لأن المسلمين ليسوا بحاجة إلى هذه الإحالة - إلى الكتب التي كتبت في القرن الثاني الهجري.

قال الإمام مالك: السنة الثابتة عندنا التي لا اختلاف فيها أن لا تجوز وصية لوارث إلا أن يجيز له ذلك ورثة الميت^(١).

وقال الإمام الشافعي - رحمه الله - : وجدنا أهل الفتيا ومن حفظنا عنهم من أهل العلم بالمغازي من قریش وغيرهم، لا يختلفون في أن النبي ﷺ قال عام الفتح: «لا وصية لوارث» يوثرون عمن حفظوه عنه، ممن لقوه من أهل العلم، فكان نقل كافة عن كافة^(٢).

ليطلع على أن رواية هذا الحديث جاءت مسندةً إسناداً صحيحاً إلى رسول الله، لكن هؤلاء اليهود الذين استطاعوا بحبل من الناس أن تكون لهم الغلبة في المجال العسكري

(١) موطأ مالك (٢/٧٦٥).

(٢) الأم، ج ٤، ص ٣٦ مطبعة دار الشعب.

ومضمار السياسة، ظنوا أن الغلبة ستكون لهم كذلك في محاولة تشكيك المسلمين في مقدساتهم، لقد قلت من قبل: إن مما يؤلم ويُحزن غفلة المسلمين عما يخططه أولئك، وإن كل الذين يثيرون هذه الزوابع الكريهة حول القرآن والسنة النبوية يهود جندوا أنفسهم - عمداً - لهذه الغاية ومما يزيد في الألم كذلك أننا كما وجدنا من يقف معهم في مضمار السياسة وجدنا من يؤيدهم كذلك في الهجمة الشرسة على الدين والتراث والحضارة تلکم هي بعض المفتریات التي أمکننا أن نسجلها في هذا الكتاب عن أركون ومفترياته الذي يحتاج إلى كتاب خاص، ولتحدث الآن عن أنموذج آخر ذلکم هو نصر حامد أبو زيد الذي تناقلت الصحافة والإذاعات خبره، وأذكر هنا أنه مر الحديث عنه في فصل «أسباب النزول» حيث ادعى أن أكثر آي القرآن الكريم نزلت على سبب، وأن الذي نزل بسبب كان قليلاً جداً، وقد بينت هناك هدفه من هذه القالة العجيبة.

وسأحاول هنا أن أعرض لبعض الأفكار التي تضمنها كتابه «مفهوم النص».

الأنموذج الثاني نصر حامد أبو زيد

مصر بلد الأزهر كانت - ونرجو أن تبقى - بلد العلم ترفع لواء الدفاع عن دين الله في وجه كل جاهل أو متجاهل، ولقد كان للأزهر مواقف المشهودة في تفنيد الشبهات وردّ الافتراءات.. وبين الحين والحين والفينة والفينة يراد لأصوات أن ترتفع لتسمع نغماتٍ نشازاً، ولكن أعمدة الأزهر الشاخنة تحول بين أصحاب هذه الأصوات وبين ما يشتهون.

لقد كان للأزهر وقفاته المشكورة المشتهرة - وجدنا ذلك - في الرد على صاحب كتاب «الهداية والعرفان» وكتاب «الفن القصصي في القرآن» ورواية «أولاد حارتنا»، وغير أولئك كثير.

وفي السنوات الأخيرة خرج على الناس كاتب آخر من تلك الزمرة، نصر حامد أبو زيد. وهو كغيره اشتغل بغير فنه، وتدخل فيما لا يعنيه، وهجم على غير تخصصه، بحجة أن الشريعة مشاع لا يجوز احتكاره لأحد، فكل تخصص من التخصصات يحرم على غير أصحابه أن يهجموا عليه، إلا علوم الشريعة؛ لأن الشرع لجميع الناس، فليتكلم فيه كل من شاء بما شاء، وهذه مغالطة عجيبة، ظالمة جاهلة؛ ذلكم أن علوم الشريعة على كثرتها علوم متخصصة لا تتم لأحد إلا بعد أن يضني نفسه، سهر ليل وشغل نهار، وهي أكثر ما تكون حاجة إلى تمحيص نقل، واستدلال عقل - إن كنت ناقلًا فالصحة، أو مدعيًا فالدليل - ولقد حدثني من لا أتهمه، وقد كان مشتركاً في لجنة وضع المناهج بكلية الشريعة في إحدى الجامعات، أن رئيس الجامعة قال له: لماذا تصرون على تدريس علمي الفقه وأصول الفقه، أليس يكفي واحد منهما؟

إن النظرة إلى علوم الشريعة على أنها مشاع كان لها آثارها السيئة، وشغلت كثيراً من العلماء من أجل أن يكونوا لها بالمرصاد، وكان من الأولى أن يشتغلوا بها هو أولى من هذا، وهو تعزيف الناس بدين الله، في مشارق الأرض ومغاربها.

إن هذا الأنموذج يختلف عن سابقه من حيث الوسائل، وإن كان يتفق معه من حيث الغايات، فغايتها النبل من الطائفة القائمة على أمر هذا الدين ابتداءً من الصحابة

رضوان الله عليهم فالتابعين لهم بإحسان، أولئك الذين أثنى عليهم الله تعالى في كتابه الكريم، وأثنى عليهم النبي ﷺ في سنته المطهرة، وهناك غاية ثابتة ناتجة عن الأولى وهي إلقاء الشبهات في كثير من قضايا الشرع البدئية.

والغاية الثالثة ولعلها أكثر ما يسعى أولئك إليه، وهي التحلل من كثير من أوامر هذا الدين ونواهيه، ترك الواجبات وفعل المحرمات.

لقد أثرت قضية نصر أبي زيد على أعمدة الصحافة، وفي ردهات المحاكم، بل على شاشات التلفاز، وكان آخرها تلك المحاورة التي كانت بينه وبين الدكتور عمارة التي تركت أثراً في نفوس المشاهدين لضحالة فكر ذلكم المتعالم، حيث لا يقوى أن يقف أمام حجة الحق، وبرهانه الساطع.

والإسلام موطنٌ نفسه، وعلماؤه كذلك على أن الباطل يحاول استغلال أي فرصة سانحة تسنح له ليظهر بملمسٍ سام ناعم تارة، وبأنياب مفترسة تارة أخرى، ولكنها كلها أمام أمواج البحر الزخار، أمواج هذه المياه البيضاء النقية، تتحطم على تلك الرمال الساخنة المحرقة، وعلى تلك الصخرة الصلبة القوية.

تلك هي الغايات التي تجمع أولئك وغيرهم، وهذين الأنموذجين وغيرهما، وهو الذي نتحدث عنه فيما بعد إن شاء الله.

أما اختلاف الوسائل، فلقد رأينا حين تحدثنا من قبل عن المستشرقين وتلامذتهم ممن يعترفون بهذا التلمذ أو لا يعترفون أنهم يحاولون اتخاذ العلم ستاراً، وهم يكتبون حين يكتبون ليحولوا بين ذوي العقول المتحررة من الغربيين، وبين الإسلاميين، ويحاولون التسليح بأسلحة فاسدة، كتلك التي عرفت بحرب سنة ١٩٤٨، والتي استوردتها بعض الدول لحرب اليهود، لكن غيرهم من النماذج الأخرى يكتبون للتشويش على بعض السذج من ذوي الثقافات المحدودة؛ لذلك لن نطوف في الحديث عن نصر أبي زيد، كما رأيت في الأنموذج السابق.

فما هي الأفكار الواردة في كتابه؟

أولاً: في هذا الكتاب هجمة بل هجمات شرسة على التراث الثقافي والديني والحضاري للأمة، بل إنه يطعن في كتاب الله تعالى وفي شخص النبي ﷺ. ولنستعرض

أهم القضايا والأفكار الخطيرة التي تضمنها هذا الكتاب. ويظهر وجود تصورات مسبقة للكاتب قبل البدء بكتابه، وليس أدل على ذلك من أنه يكتب متصوراً أمامه خصوماً يسميهم أصحاب الفكر الرجعي (ص ١٠، ١٢) ومن أبرز النتائج التي توصل إليها التعامل مع القرآن على أنه نص عادي لا على أنه وحي.

يبدأ الكاتب في مقدمة كتابه^(١) (مفهوم النص) بالقول: إن هذه الدراسة جاءت ثمرة تفاعل مع طلابه في جامعتي القاهرة والخرطوم على مدى سنوات^(٢)، ثم يبدأ الفصل التمهيدي بفرضية غير منضبطة علمياً هي أن «القرآن نص لغوي يمكن أن نصفه بأنه يمثل في تاريخ الثقافة العربية نصاً محورياً»^(٣)، ثم يقول: إن الحضارة العربية الإسلامية بكافة فروعها قامت على النص، لكن النص بمفرده لا ينشئ حضارة وعلوم وثقافة، بل إن الذي أنشأها «هو جدل الإنسان مع الواقع من جهة وحواره مع النص من جهة أخرى»^(٤)، والكاتب في موضع آخر من كتابه يصف النص القرآني بالجمود، فهو بوصفه الحضارة العربية الإسلامية هنا بأنها حضارة النص يصفها بالجمود.

ثم يبدأ الكاتب بالم هجوم على تراث الأمة وعلمائها، إذ يتهم الكاتب تراث الأمة الذي حفظه لنا العلماء بالرجعية^(٥) ويقول: إن الاتجاهات الرجعية مسيطرة على مجمل التراث^(٦) ومن العلماء الذين طالتهم تهمة الرجعية محمد عبده ومحمد رشيد رضا^(٧)، كما يعمم حكمه القاسي على علماء الإسلام متهماً إياهم بمباركة الصلح مع اليهود وتأيد أشد الأنظمة رجعية وتحالفاً مع أعداء الإسلام والمسلمين^(٨)، وهو والله افتراء يدركه اليهود

(١) ص ٥ وما بعدها.

(٢) ص ٩.

(٣) ص ٩.

(٤) ص ١٤.

(٥) ص ١٠٠.

(٦) ص ١٧.

(٧) ص ٢٠.

(٨) ص ١١٠.

أنفسهم فالفكر الديني بعمامة - كما يقول - يخضع لأهواء الحكام^(١)، والمفكر القديم كان عاجزاً عن ربط النص بالواقع والثقافة بصفة عامة^(٢) كما يتهم الفكر الديني بسيطرة الاتجاهات الغيبية التبريرية (كذا) عليه، وهذا ما أثر في تطور الفكر الديني^(٣) وقد اتهم الكاتب المذهب الأشعري في مواضع كثيرة بأنه مذهب تلفيقي وتبريري (كذا)^(٤) ويهجم على أهل السنة زاعماً أن قصارى التفسير عندهم هو المأثور، وهذا بزعمه يحول الدين إلى خزعبلات وخرافات ويصف أهل السنة أنهم يساندون التخلف^(٥).

ولا يكفي الكاتب بالنبيل من العلماء، بل يغمز في الصحابة، إذ نجده يطعن في أقوال ابن مسعود، فهو يشكك بقوله: إنه يعرف فيمن نزلت الآيات وأين نزلت، ويرى الكاتب ضرورة التوقف عن التسليم بمثل هذه الأقوال^(٦) فهو يرى أن روايات أسباب النزول نشأت في عصر التابعين^(٧)، ويدعي أن أبي بن كعب الذي كان أقرأ الصحابة أنه يهودي^(٨).

أما ثانياً: يحاول الكاتب المساس بقدسية النص القرآني والتشكيك في مصدره، ويرى أن العلاقة بين النبوة والكهانة في التصور العربي تكمن في أن كليهما وحي يوحى^(٩)، ومحاولة الكاتب الربط بين ظاهرة النبوة وما عرف عند العرب من خرافات حول الجن والكهانة، وهو يرى أن نزع هذه الخرافات يؤثر في إثبات ظاهرة النبوة^(١٠) فهو

(١) ص ٢٤١.

(٢) ص ٨١.

(٣) ص ٨١.

(٤) انظر ص ٢٩٧.

(٥) انظر: ص ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٣.

(٦) ص ١١٠.

(٧) ص ١٣٤.

(٨) مفهوم النص.

(٩) ص ٣٨.

(١٠) ص ٣٨ وما بعده، ٥٢، ١٤٤.

هنا يشكك في ظاهرة النبوة إذ هي مرتبطة بظاهرة الكهانة وجوداً وعدمًا على ما يفهم من كلامه.

ويظهر أنه يطعن في القرآن من جهة وجود السجع فيه حيث يقول: إن نبوءات الكهان والعرافين تعتمد السجع، فالسجع دل على أن الكلام ليس من كلام البشر الناطقين به^(١).

كما نجده في موضع آخر يؤيد القول بالعرفاة كما يحاول الطعن في القرآن من داخله حيث يقول: إن القرآن المدني يغلب عليه الخروج عن نسق الفاصلة وهو يدل على مخالفة النص^(٢).

ولكي يثبت مفترياته يقول كلاماً فحواه التشكيك في أمية الرسول ﷺ إذ يرى تناقضاً بين كونه ﷺ يحتاج إلى من يكتب ويقرأ له الرسائل، وكونه يتلقى عن الوحي كلاماً مقروءاً^(٣)، وهو يورد خبر بدء الوحي متلاعباً بسياقه حيث يرى وهو يسوق الخبر عند قوله ﷺ: «ما أنا بقارئ» أن هذه العبارة لا تعني الإقرار بالعجز عن القراءة، فالمعنى عنده هو «لن أقرأ» وهذا تجسيد لحالة الخوف التي انتابت النبي ﷺ حين فاجأه الملك^(٤) ولا أدري ما وجه إبداء رأيه في هذا الخبر، وهو الذي يربط النص القرآني بالكهانة حيناً ويرى أنه «تَشَكُّل» في الواقع وخضع للتطور، وهذه من المقولات المهمة التي قام عليها الكاتب وحاول دسها، فالكاتب يتحدث في كتابه عن الله دون مراعاة للقداسة، وحين يذكر القرآن يتحاشى أن يذكره بأنه كلام الله تعالى، ويصرّ على تسميته بالنص وحسبك عنوان الكتاب دليلاً.

وخذ مثلاً حيث قال: «كما تبين من سياق النص التالي» وقوله في صفحة (٢٦٧) «عصر تشكل النص وتكوّنه» فهو يرى أن القرآن تابع للبيئة ومتشكل فيها - كما أنه يرسم

(١) ص ٨٠.

(٢) ص ١٤٥.

(٣) ص ٦٦.

(٤) ص ٦٦.

المعاني حسب فهمه بصور جدولية بيانية كما في ص (٣٠٩) حيث يرسم ويسميه «منحنى سورة الإخلاص في علاقتها بمعرفة الذات».

ويذكر النبي ﷺ باسم محمد دون أن يصلي عليه في مواضع كثيرة إلا أن يكون النص منقولاً، كما يقول: إن النص القرآني تشكل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على عشرين عاماً.

وعليه فهو نص لغوي ينتمي إلى ثقافة خاصة^(١) وبناءً على ذلك فقد خضع هذا النص للتطور الطبيعي، فهو رأي الكاتب لم يكن متطوراً في عهده المكي، وإنما تطور في عهده المدني^(٢) والكاتب يكثر من تكرار عبارة (تشكل النص) و(تكون النص) في كتابه كله^(٣) كما يصف تشريعات الله بالجمود حين يقول: إن الأحكام الشرعية خاصة بالبشر في حركاتهم داخل المجتمع، ولا يصح إخضاع الواقع المتغير لأحكام وتشريعات جامدة لا تتحرك ولا تتطور^(٤).

ومن مغالطاته قوله: إن المطالبة بتحكيم الشريعة الإسلامية اليوم إنما هو تنكر لمقاصد الوحي^(٥). وفي مختتم كتابه بعد أن ينهي حديثه عن فكر الإمام الغزالي ويتحدث عن استخدامه مفردات الجواهر والدرر واليواقيت للدلالة على أقسام القرآن الكريم يقول طاعناً في الغزالي وفي المسلمين عموماً بل طاعناً في القرآن نفسه:

«ولا شك أن هذا كان مقدمةً للتعامل مع النص المكتوب - المصحف - بوصفه شيئاً ثميناً في ذاته بصرف النظر عن القدرة على قراءته ناهيك عن فهمه. هكذا تحول النص تدريجياً إلى «شيء» ثمين في ذاته وتم «تشيينه» في الثقافة فصار حلية للنساء ورقية للأطفال وزينة تعلق في الحوائط وتعرض إلى جانب الفضيّات والذهبيّات»^(٦).

(١) ص ١٩.

(٢) ص ١٥.

(٣) انظر: ص ٢٦٧.

(٤) ص ١٢١.

(٥) ص ١٥.

(٦) ص ٢٩٧.

ويذهب الكاتب إلى أن وجود القرآن في اللوح المحفوظ هو تصور أسطوري معتمداً بعض التفسيرات المتأثرة بالإسرائيليات وبعض الأخبار الضعيفة والموضوعة من مثل أن النص كان مدوناً في اللوح المحفوظ بالحروف العربية قطعاً كل حرف منها بحجم جبل قاف الأسطوري الذي يحيط بالأرض من جميع أطرافها، كما يقول: إن هذا التصور أدى إلى نتيجتين:

الأولى: المبالغة في قداسة النص وتحويله من نص لغوي إلى دالّ قابل للفهم إلى نص تصويري.

الثانية: الإيمان بعمق دلالاته وتعدد مستوياتها مما أدى إلى استغلاق معنى النص على الفهم نتيجة استحالة النفاذ إلى مستويات معانيه في نهاية الأمر^(١) كما يصف القرآن بأن فيه غموضاً^(٢).

كما ذكر الكاتب الرأي الذي يقول: إن جبريل ألقي عليه المعنى، وأنه عبر بهذه الألفاظ بلغة العرب، وأن أهل السماء يقرؤونه بلغة العرب^(٣) وهذا الرأي مردود عند جميع العلماء، ثم استنتج منه ما زعمه من أن للملائكة نظاماً لغوياً، وأنه اللغة العربية، وأن النص في الأصل ليس عربياً، ولكن تحول إلى عربي بفضل جبريل، ثم يقول: إن هذا يتناقض مع القرآن في محاولة منه لإظهار الدفاع عن القرآن، مع أن الرأي الذي ذكره ساقط مردود.

ويخصص الكاتب الفصل الأخير من كتابه «تحويل مفهوم النص ووظيفته» لدراسة فكر الغزالي والإشارة إلى بعض مقولات ابن عربي، وهذا مخالف للمنهجية العلمية في البحث، إذ ما وجه تخصيص هذا الباب لدراسة فكر الغزالي بالذات؟ غير أننا ستقف على مقولاته في هذا الباب لما فيها من دسّ وطعن لا في الإمام الغزالي على وجه الخصوص بل في القرآن والفكر الإسلامي وعلماء الإسلام جميعاً من خلال فكر الغزالي.

(١) ص ٤٢-٤٣، ٦٦، ١٣٤.

(٢) ص ١٨٣.

(٣) ص ٤٥.

فالكاتب يحمل المذهب الأشعري كل ما يقوله ابن عربي والغزالي، ويتقل أقوالهما من خلال وجهة نظره هو، فيقول: إن تصور الغزالي للنص وأهدافه وغاياته تنطلق من منطلقين هما:

الفكر الأشعري الذي يرى أن النص من صفات الذات الإلهية والفكر الصوفي الغنوصي الذي يرى أن غاية الوجود الإنساني على الأرض تنحصر في تحقيق الفوز والفلاح في الآخرة^(١) ولا أدري ما ضرورة إسناد هذه المقولة إلى الفكر الغنوصي مع أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ويضرب الكاتب في كتابه هذا في غير بابيه ويجول في غير ميدانه، فيقتحم باب التاريخ، وعلوم القرآن، وأصول الفقه وغيرها، حيث نجده مثلاً ينكر وجود وأد البنات لدى العرب وصنعهن آلهة من التمر في الجاهلية^(٢) كما يرى أن اليهودية دين عنصري مغلق في موضع ثم ناقض نفسه في موضع آخر فيقول: إن قبائل (حَمِير) من العرب كانوا يهوداً^(٣).

ويقحم نفسه في مباحث قرآنية وأصولية وبينني عليها نتائج غير صحيحة كقوله: إن من أخطر نتائج التمسك بعموم اللفظ مع إهدار خصوصية السبب أنه يؤدي إلى إهدار حكمة التدرج في التشريع في قضايا الحلال والحرام^(٤) كما زعم أن فهم معنى النسخ بأنه الإزالة التامة للنص يتناقض مع حكمة التيسير والتدرج في التشريع^(٥) كما زعم أن العلماء لم يناقشوا ظاهرة نسخ التلاوة^(٦).

كما يزعم أنه يفهم من حديث الأحرف السبعة أن القرآن الكريم نزل سبع مرات.

(١) ص ٢٤١.

(٢) ص ٦٠.

(٣) ص ٦٤، ص ٨٤.

(٤) ص ١٠٤.

(٥) ص ١٣١.

(٦) انظر: ص ١٣٩ من الكتاب، وانظر الإتيان، ١/ ٥٩.

ويظهر في الكتاب انعدام المنهجية ووجود التلفيق وانعدام الأمانة العلمية وبروز الضعف العلمي لدى الكاتب ومما يدل على ذلك:

- نقله عن السيوطي أن الصحابة اختلفوا في تسمية القرآن ثم سموه المصحف كما هو عند الحبشة، وبتر كلام السيوطي الذي حكم فيه بضعف هذه الرواية وانقطاع سندها^(١).

- كثرة اعتماد الكاتب على الروايات الضعيفة والطعن من خلالها^(٢) وبناء استنتاجات خاطئة عليها.

- نقله نقولاً كثيرة عن الباقلاني لم يحسن فهمها ولا توظيفها توظيفاً صحيحاً^(٣).

- الإغراب فيما ساقه في الدلالة اللغوية بين التفسير والتأويل^(٤).

- زعمه أن الحارث المحاسبي قد خرج من تحت جبه الأشعري مع أن الحارث المحاسبي توفي سنة ٢٤٢هـ والأشعري توفي سنة ٣٢٤هـ^(٥).

- يطعن الكاتب على الغزالي حين ينتزه الذات الإلهية ويرفض التشبيه فيفسر الإصبع تفسيراً مجازياً، فالكاتب يعترض على الغزالي حين يقول رحمه الله: إن معرفة الدلالة اللغوية وحدها لا تكفي لفهم النص، فيقول الكاتب: إن النص بهذا يتحول إلى رموز لا يدركها إلا القلة مع أن الوحي استهدف هداية البشر جميعاً^(٦) ويتهم الغزالي بأنه يعتقد أنه يدرك ما لا يدركه سواه^(٧) ويتهمه بأنه يتعامل مع اللغة بوصفها رموزاً لا نظاماً رمزياً^(٨) ولم يوضح الكاتب الفرق بين الأمرين الأخيرين.

(١) المرجع السابق.

(٢) كما في ص ٧١.

(٣) انظر ص ١٤٢-١٥٦.

(٤) ص ٢٢٣.

(٥) انظر: ص ٢٤٥.

(٦) ص ٢٧٢.

(٧) ص ٢٧٢-٢٧٣.

(٨) ص ٢٨١.

ويظهر أن هم الكاتب هو الاعتراض وتخطئة الآخرين فقط، فلو أن الغزالي فسر الإصبع تفسيراً حقيقياً لما سَلِمَ من طعن الكاتب بل لاتهم بقصر النظر وضيق الأفق وقصر الباع في اللغة، ولا أدري ما الذي يرضي الكاتب.

- كما يتهم الكاتب الإمام الغزالي بأنه يرى وجود ثنائية الخاصة والعامة بناءً على ثنائية الظاهر والباطن في النص، ويقول: إن هذا التقديم ذو دلالة خطيرة اجتماعياً^(١).

ويلوح لي هنا أن الكاتب يريد الهبوط بقداصة النص بحيث يجوز لكل إنسان مهما تدنت معرفته ولغته أن يفسر القرآن ويفهمه كيف شاء، وأنه يريد المساس بهيبة العلماء إذ لا يعود لهم الدور المتميز مع أن هذا مخالف لقوله تعالى: ﴿فَتَتَلَوَا هَٰؤُلَاءِ الذِّكْرَ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] وآيات كريمة أخرى.

- كما يتهم الإمام الغزالي بتصنيف العلوم إلى علوم الدين وعلوم الدنيا ضمن ثنائية حادة بناءً على الإيمان بثنائية حادة بين الدنيا والآخرة^(٢).

وهو في موضع آخر يتهم الغزالي والفكر الإسلامي عموماً بالتهوين من شأن الدنيا، والنظر إليها على أنها مجرد سفر ومعبر إلى الآخرة^(٣).

- كما يحتمل كلام الغزالي ما لا يحتمل فيقول: «ولا غرابة بعد ذلك أن يكون في القرآن آيات في الطبقة العليا من اللبّ وأخرى في الطبقة السفلى، ولا غرابة أن تكون الآيات الدالة على معرفة الله هي الآيات التي تقع في القسم الأول من الطبقة العليا من لباب القرآن»^(٤) وهو كلام باطل.

(١) ص ٢٨٢، ص ٢٦١.

(٢) ص ٢٤٦-٢٤٧.

(٣) ص ٢٦٣.

(٤) ص ٢٥١.

- والكاتب يتهم العلماء عموماً بالخطأ في فهم الآيات كما في (ص ٢٩٧) كما يرى أن دراسات السابقين ولغة الخطاب الديني المعاصر تشكل ما سماه (الديالكتيك الهابط) أما دراسته هو فهي (ديالكتيك صاعد) ^(١).

ونجده في موضع من كتابه يفسر الآيات الأول من سورة العلق حسب رأيه، ويتهم القرآن بمجاوزة الواقع، لأن التعليم في الواقع شفاهي لا يكاد يستخدم فيه القلم، ثم يقول:

«إذا صح هذا الفهم من جانبنا» مستخدماً ضمير التفخيم ^(٢)، ومفسراً الآيات برأيه وإن خالف إجماع المفسرين وحقائق التاريخ والمنطق.

وهذا يُظهر أن الكاتب لا يريد الطعن في معتقدات الأمة والغض من شأن علمائها فحسب، بل يريد كذلك التسلق على فكرهم لصنع هالة شخصية لنفسه يصعد من خلالها، وآتى له ذلك.

مناقشة:

وهذه الأقوال كثير منها لا يحتاج إلى الرد عليه، وقد عرضنا إلى الرد على بعضها الآخر في الفصول السابقة من هذا الكتاب، عندما تحدثنا عن فرية نزول القرآن بالمعنى، وعن أسباب النزول، وعند الحديث عن الأحرف السبعة.

والقارئ يدرك أن الكاتب يخفي كثيراً من الأهداف من وراء كلماته، مع كثرة المثالب والمنزقات التي تظهر للقارئ بدون عناء، ومن أول ما يلحظه ما يرمي إليه الكاتب من النيل من العلماء والأئمة ابتداءً من عهد الصحابة رضوان الله عليهم، واتهامهم بعدم القدرة على فهم الآيات الكريمة، وذلك ليحول بين الناس وبين أهل العلم فيتخذوا رؤوساً جهالاً يفتون بغير علم، فيضلون ويضلون.

إن ربط الكاتب بين الوحي وبين الكهانة، يُستشف منه موقف الكاتب من القرآن الكريم، ما ذكره بعيد عن الحقيقة كل البعد؛ ذلكم لأن العرب، أو كثيراً منهم وقفوا من

(١) ص ٢٥١.

(٢) ص ٦٧.

الوحي ومن دعوة الرسول ﷺ موقف العداء والتكذيب والمهاكمة، ورد القرآن الكريم على موقفهم بقوله: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِنَاتِحِيْرُونَ﴾ (٢٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٢٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٣٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ (٣١) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ (٣٢) نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الحاقة: ٣٨-٤٣].

ثم إن موقف الكاتب من القرآن المكي والمدني ليس بدءاً مما قاله من قبله من المستشرقين وأتباعهم، وقد تحدثنا عن هذا في فصل المكي والمدني.

ثم إن الكاتب يعتمد روايات ضعيفة أو موضوعة ليبنى عليها أموراً باطلة مزيفة، وذلك مثل ما ذكره من أن القرآن الكريم كان مكتوباً في اللوح المحفوظ بحروف، وكل حرف منها مثل جبل قاف، وهي روايات كما قلت باطلة، مثل بطلان وجود جبل قاف، ومثل تفسيره للعدد، بأنه صوت ملك، وهذا ديدنه دائماً، حيث يجعل هذه الروايات، أساساً للطعن في العلماء، والأمانة العلمية تقتضي من كل كاتب أن يميز بين ما هو صحيح وما هو غير صحيح.

ولقد كشف الكاتب عن هويته، وتأثره بالمستشرقين، حينما عرض لأمية الرسول ﷺ وفسر قوله سبحانه: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] تفسيراً غريباً بعيداً عن الحقيقة من حيث السياق وصحيح المأثور واللغة، وهذه الثلاثة هي العمدة في الحكم على التفسير من حيث الصحة أو الفساد.

ثم إن ادعاء الكاتب أن روايات التفسير حالت بين المسلمين وبين فهمهم للقرآن، يكذبه الواقع، فمن أين جاءت هذه الثروة التفسيرية العظيمة، لو كان صحيحاً ما يقول. لقد بين العلماء أن التفسير منه بالمأثور الذي روي عن النبي ﷺ، ومنه التفسير بالرأي، وهو ما يمكن أن يستنبطه العلماء من كتاب الله، والأصل في هذا قوله سبحانه: ﴿كَتَبْنَا أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَرَكًا لِّدَّبَرُواْ ءَايَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩] ودعاء النبي ﷺ لابن عباس وغيره من الصحابة - رضي الله عنهم - أن يعلمه الله التأويل^(١).

(١) أخرجه أحمد في المسند برقم (٢٣٩٧) ومواضع أخرى. والطبراني في الكبير (١٠٤٣٥)، والحاكم في المستدرک (٢٧٦/٥) وصححه الحاكم، وقال الهيثمي (٢٣٤/٩) له طريقان رجالهما رجال الصحيح. وقال الشيخ شعيب إسناده على شرط مسلم.

ولكن الكاتب يريد أن يسيء إلى العلماء والسلف الصالح؛ ولذا نجده ينكر الروايات الصحيحة التي جاءت عن الرسول ﷺ في تفسير القرآن الكريم وعن الصحابة كذلك، وهذا أمر يستدعي العجب حقاً، فعلى حين ينكر الروايات الصحيحة، نجده يعتمد الروايات الموضوعة، هذا وذاك من أجل التجريح والتشكيك، تجريح العلماء والأئمة، وتشكيك الناس فيمن حملوا بأمانة لواء هذا الدين.

ثم إن تفريق الكاتب بين المعتزلة والأشاعرة من حيث النظرة إلى القرآن الكريم تفريق غير صحيح، بل لا ينم عن فهم صحيح لهذه القضية، فالقرآن خطاب رباني للإنسان، ليس في ذلك خلاف بين المعتزلة والأشاعرة وغيرهم، برهان ذلك:

إن التفاسير المشتهرة بين المسلمين لا تفرق بين ما هو للأشاعرة أو للمعتزلة، وإنما الخلاف بينهم في قضية كلامية يكاد يكون خلافاً لفظياً ومحاولة الكاتب النيل من العلماء للتفريق بينهم ما هو إلا تصيد في الماء العكر - كما يقولون - .

خلاصة القول: إن الكاتب يرمي من محاولاته كلها إلى نزع الثقة بالأئمة الذين حملوا هذا القرآن بكل أمانة، واقتحام أسوار قدسية القرآن الكريم، والسنة النبوية، وإلغاء القواعد والأسس التي قررها العلماء، لتكون أصلاً لفهم كتاب الله تعالى وتفسيره.

ويذكرني صنيع الكاتب بتلك المحاولات التي قام بها نفر بإلقاء الريب في كتاب الله الذي لا ريب فيه، سواء أكان ذلك الإلقاء من حيث قصص قرآني أم من حيث أحكامه، ومن ذلك ما ذهب إليه محمد خلف الله من إنكار كثير من القضايا البديهية للقرآن الكريم، حيث ينكر أن الإسلام دين ودولة، ويصف الصحابة - رضوان الله عليهم - بالجهل، ويدعي في كتابه «الفن القصصي في القرآن» أن في القرآن أساطير، وأن القصص القرآني لا ينبغي أن نفهمه على أنه حقائق ثابتة، قصد القرآن إلى تقريرها، وإنما هي أنماط من الخيال الخصب والفن والمديح، لما تعارف عليه الناس في عصر نزول القرآن، أو جاءت تحكي ما عرفه السابقون، وهذا من أخطر ما قيل وما يمكن أن يقال عن هذا القرآن الذي نزل بالحق، وقصّ أنباء الحق.

وهذه الرسالة التي ثار عليها العلماء ردّت أكثر من مرة، ولكنها ظهرت إلى الوجود بعد ذلك، لا يكاد يخلو موضوع من موضوعاتها من سقطات وانحرافات، وقد استفتي

علماء الأزهر بشأن مؤلف هذه الرسالة، والمشرف عليها المقر بما جاء فيها فأفتوا بتكفيرهما، وأهم ما جاء في ذلك الاستفتاء ما يلي:

١- إن الحرية الفنية تقتضي عدم التقيد بالصدق العقلي، ولا بتصوير الحقائق تصويراً صادقاً، بل قد يقول القرآن ما لم ولن يحصل.

٢- إن تاريخ الأنبياء الوارد في القرآن، لا ينبغي أن يؤخذ على أنه حقائق.

٣- إن القصص القرآني قد يكون لتصوير واقع نفسي، لا لحوادث حصلت، وأنه حرب أعصاب لا أقل ولا أكثر.

٤- إن القرآن يشتمل على الأساطير، وما فيها من حوادث ملفقة أو مكذوبة.

٥- إن مصادر القصص القرآني هي كتب الأديان الأخرى والحكايات الشعبية، والأفراد العاديين من الناس، والخلط والمزج بين عناصر القصص الشائعة في عدة أُمم.

ولقد رد عليه الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت - رحمه الله - في الكتاب الذي وجهه إلى وزير المعارف.

هؤلاء نفر ممن يعلنون إسلامهم أرادوا أن ينالوا من القرآن الكريم في أسلوبه وقصصه ومعجزاته، ولكن ما هدفوا إليه ذهب أدراج الرياح هباء، وبقيت قدسية القرآن الكريم في أسلوبه وأنبائه وقصصه.

وإذا تركنا هؤلاء إلى غيرهم وجدنا فئة أخرى أرادت أن تنال من القرآن الكريم في نظمه وتشريعاته وأحكام، وهؤلاء ليسوا أقل تأثراً ممن سبقهم بالمستشرقين والمبشرين، بل كانوا أسرع إجابة، وأكثر تهافتاً، لقد زعم هؤلاء أن أحكام القرآن يمكن أن تترك لولي الأمر، ينفذ ما شاء، ويترك ما شاء، وأن مثل قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨] وقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] إنما يدل على تكرار العمل، فمن سرق أو زنى مرة واحدة لا يقام عليه الحد.

ومن هؤلاء من يزعم حل الربا إذا لم يكن أضعافاً مضاعفة، ويجوز الفدية لمن كان قادراً على الصوم، ولا يريد أن يصوم، كل هذا وغيره يذهب أدراج الرياح. وستبقى أحكام القرآن وتشريعاته منار الإنسانية كلها، والمنهل العذر الذي لن يجد الناس غيره، مُروياً لظمئهم الفكري والروحي والسياسي والاجتماعي.

الأنموذج الثالث

سموك شحروراً فما أنصفوا يساليتهم سموك لينينا
الكتاب والقرآن دراسة معاصرة لمحمد شحور:

هذا الأنموذج الثالث، وإذا كانت القالة المشتهرة: «حنانيك بعض الشر أهون من بعض» صحيحة، فإن هذا الأنموذج شرٌّ من سابقه، مع كثرة ما عرفت من شرٍّ فيهما، ولعل هذا يرجع إلى أن صاحب هذا الأنموذج ماركسي الباطن والظاهر، شيوعي المخبر، يساري المظهر. والشيوعية - كما يعلم العالمون - تقوم على التهويش والتهويل، والتهريج، والكفر بكل مقدسات الأديان، فالحياة مادة أولها وآخرها سواء، ولقد حاولت الشيوعية أن تنتزع عقيدة الناس بكل مقررات الأديان، فالجدلية الثنائية في الكون والأشياء كلها، والمادية ينبغي أن تفسر بها الأشياء كلها.

لقد دعت الشيوعية الناس إلى الكفر بالجنة؛ لأنها منتهم بجنة في الدنيا فحالت بين معتقبيها وبين الجنتين، منعتهم جنة الآخرة، ولم تصل بهم إلى جنة في الدنيا، ولم تحل بينهم وبين نار الدنيا والآخرة.

إن نظرة أهل الكتاب يظل فيها شيء من التقديس لكثير من قضايا الأديان، ومن هنا فرق الإسلام في قضايا كثيرة بين أهل الكتاب، وبين الوثنيين^(١). ولقد انهار هذا البناء - الاتحاد السوفيتي - الذي كان قائماً على غير أساس، ولكن بقي ثمالة من حثالة أفكاره يتستر خلفها بعض الناس، ومنهم صاحب كتاب «الكتاب والقرآن».

ولقد كانت ردود كثيرة على هذا الكتاب منها ما جاء في شكل مقال، ومنها ما كان كتاباً تاماً، وسنذكر أسماء هذه الكتب والمقالات فيما بعد، ليطلع عليها من شاء.

على أنني لا أجد داعياً ليشغل القارئ نفسه، ويضيع وقته بالرد على هذا الكتاب، ومع أن الكتاب يقرب من التسعمائة صفحة، إلا أنه ضحل في منهجه ومضمونه وأسلوبه،

(١) راجع مقدمة كتابنا (قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية): نقد ورد.

فقارئه يشعر بالسامة من الملل لكثرة ما فيه من تكرار وعدم ترابط بين الموضوعات، وتكلف، وخروج عن الجادة في قضايا اللغة والدين والعلم، ولما فيه من تشويه للحقائق الثابتة، واقتراء في النقل عن الكتب والأئمة، وتحريف للنصوص.

إن الكاتب يدعي معرفة كل شيء، بخاصة علوم الشريعة، من فقه وأصول ولغة وتفسير وحديث، ويعلم الله، وسيعلم كل قارئ لكتابه أنه لا يعرف من هذه إلا أساءها فحسب، ولن أشغلك أيها القارئ كثيراً بالرد على هذا الكتاب؛ ذلك لأن الكاتب كفانا مؤونة الرد عليه، إنه لم يخف هويته، أو على الأقل لم يستطع أن يخفيها، ولماذا نشغل أنفسنا ونشغل القراء كثيراً بالرد على من كان وقحاً مع الله وأنبيائه وكتبه.

ولأقدم لك أيها القارئ بعض عباراته التي تمجها النفوس، وتنكرها العقول والطباع، ولكنني لا أعجب، فلقد عرفنا الشيوعيين واليساريين، وعرفنا سوء أدهم مع الله تبارك وتعالى، ومع رسوله ﷺ، ومع هذا القرآن الكريم، ومع من آمن به ابتداء من الصحابة رضوان الله عليهم.

يقول: «إن الله ليس ديمقراطياً، لأنه لم يحاور إبليس وأخرج آدم من الجنة». أسمعت هذه القالة الفاسدة السيئة؟ ولا أدري ما الديمقراطية وأين هي؟ وهل كان ستالين وخرتشف وبريجينيف وغيرهم ديمقراطيين؟! وهل الذين يدين لهم الكاتب بالولاء كذلك؟!

وهناك مقالات سوء عن الله تبارك وتعالى، فهو لا يعلم الأشياء - تعالى الله عن ذلك - إلى غير ما هنالك من قضايا كافرة لا يمكن أن تصدر عن قلب فيه ذرة إيمان.

أما موقفه من سيدنا رسول الله ﷺ، فهو يزعم أن الرسول ليس قدوتنا، وله قالات سوء كثيرة. أما أحكام الإسلام، فلا ينبغي أن نقبل منها شيئاً، فالخمر ليس حراماً، والربا كذلك، ويلحق بهما الزنا كذلك، فما جاء في التشريع مما يتصل بالمرأة أمر غير مقبول، وليس للمرأة عورة.

وإذا كان هذا موقفه من الله ورسوله وشرع الله، فموقفه من الصحابة والأئمة أمر سيئ كذلك. لقد جهد الكاتب نفسه ليطبق النظام الماركسي على الدين، ولذلك فالمادة هي

الأساس ثم إن مما يعجب له القارئ أن الكاتب يقول: إنه قد استعان بالقضايا اللغوية بأحد المتخصصين، ومع ذلك لا تجد أثراً لذلك، فهو يتلاعب باللغة تلاعب المستهتر الذي يريد أن يتلاعب بعقول الناس، فالشهر في قوله: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣] ليس الشهر المعروف عند الناس، وإنما هو الشهرة. والنساء في قوله: ﴿وَلَا يَذُرْنَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] ليس المقصود من النساء المعروف عند الناس وهو جمع امرأة، وإنما هي من النسبئة بمعنى التأخير.

إن الذي أعتقده أن هذا الكتاب ليس جهد الكاتب وحده، بل هو وضع مجموع من أولئك الذين يحملون فكراً معادياً لدين الله؛ ولذا رُوج لهذا الكتاب عند أولئك.

ويدعي الكاتب - ذرأاً للرماد في العيون - أنه مؤمن يغار على دين الله، وإليك خلاصة بعض الأفكار المريضة في هذا الكتاب.

العرض الإجمالي:

محمد شحرور كاتب سوري مختص بالهندسة التي درسها في روسيا الشيوعية، وهو مشبع بالفكر الماركسي، ويحاول في كتابه مزج هذا الفكر بالإسلام وأتى للنقيضين أن يمتزجا أو يتقاربا.

يحدد الكاتب هدفه من كتابه، فيبين أنه ليس بكتاب تفسير أو فقه أو توحيد ويصفه بأنه قراءة معاصرة للقرآن وهذا هدفه الأول، وهدفه الثاني حسب قوله تقديم كتاب إسلامي بعيد عن التعصب المذهبي والطائفي، وهدفه الثالث تقديم كتاب يمثل عالمية الدين الإسلامي بحيث يجد فيه كل قارئ معاصر أيّاً كانت معتقداته شيئاً يدخل ضمن قناعاته.

ويظهر لقارئ الكتاب مدى الضعف العلمي والتهاوت في الكتاب، ومع ادعاء الكاتب الاطلاع على علوم الشريعة كلها ودرّس علوم العربية يجد القارئ ضحالة في ذلك كله، وسيظهر لنا الدليل هذا من خلال عرض أهم ما جاء في كتابه من قضايا.

فمن حديث المنهجية التي سار عليها الكاتب فهي تقوم على ادعاء الاحتجاج بالقرآن الكريم، وعدم الاحتجاج بالسنة، وادعاء اعتماد المنهج اللغوي في درس القرآن الكريم واعتماد الفرضيات العلمية وادعاء اعتماد العقل.

فأما اعتماد القرآن فلم يسر فيه الكاتب وفق المنهجية العلمية الصحيحة، فهو يقرر ما يشاء سلفاً، ثم يأتي بالآيات الكريمة شواهد على ما قال ويحملها ما لا تحمل، وأما الأحاديث الشريفة فالكاتب لا يجعلها من مصادره، بل هو لا يعدّها وحياً من عند الله، وإنما يعدّها منهجاً خاصاً بالرسول ﷺ في تطبيق الشرع وفهم القرآن، فمن الجائز والطبعي أن تتعدد مناهج فهم القرآن في كل عصر حسب المستجدات، وأما ادعاؤه اعتماد المنهج اللغوي في التفسير فدعائه إنكار الترادف في اللغة، وعدم وجود عطف إلا بين المتغايرات أو من باب عطف الخاص على العام، ووجود خاصيتي الاشتراك والتضاد في اللغة، وجعل المعجمات والشعر الجاهلي هي مصادر اللغة. وقد عرض الكاتب لقضايا لغوية ونحوية خرج فيها عن المألوف والمعروف عند أئمة اللغة، بل عند العقلاء جميعاً.

أ- ما يتصل بالقرآن الكريم:

١- يرى الكاتب أن (القرآن) عَلِمَ على قسم من القرآن مستدلاً لهذا بعطف القرآن على الكتاب في قوله تعالى: ﴿الرُّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ١] والعطف هنا للتغاير، كما يرى أن (القرآن) مشتق من الفعلين (قرن) و(قرأ)^(١)، وكلاهما يعينان الجمع والمقارنة.

٢- يدّعي الكاتب أن القرآن لا يحتوي أمراً ولا نهياً وإنما هو أخبار، ولكون اسمه مشتقاً من الفعل (قَرَن) فهو يقرن قوانين الطبيعة وأحداث التاريخ، ولكون اسمه مشتقاً من الفعل (قرأ) فهو استقراء لهذه الأحداث.

٣- يقسم القرآن إلى كتاب وقرآن وفرقان وذكر، ويجعل كل اسم منها علماً على قسم من القرآن ويقول: إن كلمة (الكتاب) إن جاءت معروفة بأل فهي تعني المصحف

(١) تقدم في الجزء الأول عند تعريف القرآن الكريم أقوال العلماء أمه مهموز أو غير مهموز وعلى هذا فهو إما من قرأ وإما من قرن ولكن جهل هذا الكاتب جعله يخلط ويخبط بخط عشوائي.

كله، وإلا عاد المعنى إلى السياق، ويرى أن أي المصحف أتت على أقسام ثلاثة: آيات محكمة، وآيات متشابهة، وآيات لا محكمة ولا متشابهة.

أ- القسم الأول آيات الأحكام والأخلاق وهي (أم الكتاب) ويسمي الكاتب هذا القسم (كتاب الرسالة).

ب- والقسم الثاني يقسمه بدوره قسمين أولهما: القرآن العظيم الذي يسميه الحديث كذلك، وهو يشمل آيات الطبيعة والوجود والقصص والتاريخ، وهذا القرآن هو الحق وله وجود مسبق بخلاف غيره من أقسام الكتاب، فالقوانين التي تنظم الوجود هي التي تسمى (القرآن المجيد) وهي موجودة في (لوح محفوظ) وقوانين الطبيعة التي تسمى (الكتاب المبين) موجودة في (إمام مبين).

وثانيهما (أي ثاني القسمين المتفرعين عن القسم الثاني) هو (السبع المثاني) وهي عندها الحروف المقطعة في أوائل السور والتي يسميها (أحسن الحديث).

ج- والقسم الثالث: هو الآيات اللاحكمات واللامتشابهات وهي تسمى عنده (تفصيل الكتاب) وهذا القسم كما يرى هو آيات شارحة لمحتويات الكتاب كله ويستدل بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧].

والقسمان الثاني والثالث يشكلان معاً كتاب النبوة على حد قوله.

أما الصيغة اللغوية التي نزل بها الكتاب فيسميها (الذكر).

ويرى أن كلمة (كتاب) تعني لغةً جمع أشياء بعضها إلى بعض لإخراج معنى مفيد، ويقول: إن هذا المعنى موضوع ويستدل بالآيات الكريمة ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ [البينة: ٣] ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [الأنبياء: ٢٩] على أن أعمال الإنسان وأحداث الكون موجودة في كتب، ويقول: إن كلمة (كتاب) إذا لم تأت معرفة بال فهي لا تعني المصحف كله، بل لا بد من أن تضاف ليُعرف معناها.

ويُقسم الكتاب إلى قسمين: كتاب نبوة وكتاب رسالة: الأول يتضمن الآيات المتشابهات والآيات اللاحكمات، والثاني يتضمن الآيات المحكمات، كما

يدعي أن قوله تعالى: ﴿الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يونس: ٣٧] هو عبارة عن مصطلح يدل على آيات الأحكام لذا فسر قوله تعالى: ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يونس: ٣٧] بأن القرآن كان مصداقاً لما هو أمامه أي: آيات الأحكام والأخلاق، ويرد أن يكون المعنى بالذي بين يديه الكتب السماوية السابقة؛ يدعوى أنها نزلت قبل القرآن وعلى هذا فهي خلفه وليست بين يديه.

٤- يرى الكاتب أن الإعجاز يكمن في السبع المثاني التي هي بمفهوم الآيات الكونية والعلوم والخلق والنشأة، أما الرسالة والتشريع والعبادات فلا يرى فيها إعجازاً، إذ هي قابلة للتطوير ويمكن إلغاؤها وتعديلها فهي أمور مرحلية. وهو يرى من زاوية أخرى أن التشابه هو ثبات النص وحركة المحتوى.

٥- يطرح فكرة خطيرة هي أن الآيات المحكمات قابلة للتزوير والحذف والزيادة، وقد حاول تغطية فكرته الخبيثة هذه بقوله: إن آيات المتشابه قد توزعت بين آيات المحكم لتكون حافظاً ورقياً عليها من التزوير.

أما قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكُتُبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩] فهي عنده آية تحذير من تحريف ما يقبل التحريف.

وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ...﴾ [الإسراء: ٨٨] فيرى أنها آية تحدد تخص الآيات المعجزة التي لا يمكن تزويرها وهي آيات المتشابه فيما يعتقد.

٦- في موضوع النسخ يرى أنه لا يكون في القرآن (حسب مفهومه الجزئي للقرآن) بل يكون في أم الكتاب فقط مستدلاً بقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩] كما جعل الكاتب نسخ آية الرجم من النساء، وقال: إن الرسائل السماوية السابقة لم يكن فيها نسخ.

ويرى كذلك أن تنزيل القرآن لا علاقة له بأسباب النزول، فالقرآن كان سينزل في كل حال.

٧- يرى أن قصص الأنبياء والرسل التي جاءت في كتاب الله هي من القرآن (حسب مفهومه للقرآن) ويرى أنها هي الجزء المتغير حسب حدوثها على الصعيد الإنساني، وقد أوحى بها من إمام مبين وليس من لوح محفوظ.

كما يقول الكاتب: إن هوداً وصالحاً وشعياً عليهم السلام ليسوا من ذرية نوح ولا من ذرية آدم حيث لم يرد ذكرهم في ذرية نوح أو آدم، لذا فهم من ذرية البشر الذين تأنسوا مع آدم عليه السلام، ومنهم ذو الكفل كذلك.

٨- عند الحديث عن الأحرف المقطعة في أوائل السور يدعي الكاتب أن هذه الأحرف هي السبع المثاني الواردة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]. كما يتهم العلماء بأنهم عجزوا عن تفسير معنى الحروف المقطعة فقالوا الله أعلم بمراده.

٩- يفسر الكاتب بعض الآيات تفسيراً علمياً مفتعلاً خارجاً بها عن معناها الصحيح. ومن أمثلة ذلك في كتابه:

تفسيره قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١] على أنه إشارة إلى تلوث البيئة.

قوله: إن المغضوب عليهم ليسوا هم اليهود بل هم الذين لم يلتزموا الوصايا من أصحاب الديانات كلها.

استشهاده بقوله تعالى: ﴿وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] في سياق وفاة الأنفس ويعثها.

قوله: إن الشهر في قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣] جاء من الشُّهْرَة.

ثم يتحدث الكاتب عما يسميه (الفرقان الخاص) وهو صفات عباد الرحمن في ختام سورة الفرقان ويستدل بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْزَبُكُ ءَامِنُونَ إِنْ تَنَقَّوْا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ

فُرقَانًا ﴿[الأنفال: ٢٩]﴾ حيث وضعت التقوى شرطاً للفرقان فجعل الناس فرقاناً خاصاً بالمتقين بمعنى أنه غير ملزم لكل الناس كالفرقان العام. ومن يتبع هذا الفرقان يكن من أئمة المتقين. ويقول الكاتب بعد سرد الآيات: إن قوله تعالى: ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الزخرف: ١٩] يؤكد على الجانب المادي لدى أئمة المتقين، أما اسم الرحمن فهو «اسم الربوبية لهذا الكون المادي الثنائي، وذلك لكي يؤكد أن زياد التقوى ليس لها علاقة بالشطحات الصوفية وكرامات الأولياء»^(١).

عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] يقول الكاتب: إن هذا الأمر الثاني، والقرآن الكريم ذكر أن آيات الربوبية هي ظواهر طبيعية، ويستنتج الكاتب من هذا أن «صفة أئمة المتقين هي الإيمان بالمادة وبالعلم والعقل وأن فهم ظواهر الطبيعة هي من أساس منهجهم في الحياة، وهي لا تقل أبداً عن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤] لذا فإن أئمة المتقين في فرقان، فمحمّد ﷺ هو من أئمة العلم المادي وأئمة الناس الذين يؤمنون بالبيانات المادية وذوي التفكير العلمي البعيد عن الخرافة»^(٢).

ب- ما يتصل بالفقه:

أقحم الكاتب نفسه في مجال الفقه فجاء بفتاوى وأقوال عجيبة مخالفة للشرع وخارقة للإجماع. ومن القضايا الفقهية التي وردت في كتابه، ما ذكرناه لك من إباحته للزنا وشرب الخمر، والربا، وأن عورة المرأة هي الفرج والثديين والإبطين، وتباح رؤيتها للمحارم.

ومن ذلك قضية تعدد الزوجات فيدّعي فيها الكاتب أن الإسلام أباح التعدد على أن تكون الزوجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة من الأرامل ولا يجوز أن تكون بكرة، ويستدل لذلك بالربط بين الشرط وجوابه في الآية ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنْبَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ

(١) نفسه ٥٢٥.

(٢) نفسه ٥٢٥-٥٢٦.

لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ... ﴿[النساء: ٣]﴾ يقول الكاتب: «ولكي نربط جواب الشرط (فانكحوا) بالشرط وهو الإقسط إلى اليتامى فينتج لدينا بالضرورة أنه يتكلم عن أمهات الأرمال وهنا نرى أنه أطلق الكمّ حتى الأربعة وقيد كيف بأن تكون الزوجة الثانية حتى الرابعة من الأرمال»^(١) كما ادعى أن الله أعطى تسهيلات للراغبين بالزواج من الأرمال وذلك بإعفائهم من الصداق مستدلاً بالآية: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ...﴾ [النساء: ١٢٧].

وأما القوامة فيرى الكاتب أنها حق مكتسب للرجل نتيجة لأمرين: القوة الجسدية والإنفاق، لذا فإن كان الرجل مريضاً أو أعمى أو مشلولاً وزوجه تخدمه فلها القوامة أي الأمر والنهي، وكذلك إذا كان عاطلاً عن العمل وامرأته تعمل وتنفق على البيت، أما إن تساوى في هذه الأمور فهما متساويان في القوامة. ويدّعي الكاتب أن قوامة الرجل مذكورة في أول الآية، وأن قوامة المرأة مذكورة في آخرها، وذلك في قوله تعالى في آخر الآية: ﴿فَالصَّدَاقُ حَتَّىٰ تَمُوتَ حَتَّىٰ تَمُوتَ حَتَّىٰ تَمُوتَ﴾ [النساء: ٣٤] فهذه الصفات توضح كيفية العلاقة الاجتماعية بين الرجل والمرأة إن كانت هي في الوضع الأقوى.

وفي مجال العبادات يرى أنها خضعت للتطور من دين لآخر بدليل قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] ويقصر العبادات في الإسلام على أربع هي: الصلاة، والزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت.

ج- فيما يتصل بالعقيدة:

للكاتب مقولات خطيرة في مجال العقيدة أستعرض هنا أهمها:

إنه لا يتأدّب في جنب الله تعالى فهو ينزله منزلة البشر - سبحانه - إذ يصفه بالعبث والهوى وعدم الحكمة والتخبط^(٢) ثم يقول: «علم الله رياضي لأنه أرقى العلوم» ويقول: إن «علم الله احتمالي والاحتمالات متعددة» ويقول كذلك: «إن الله لا يعلم الجزئيات

(١) ص ٥٩٧.

(٢) ص ٣٨٩.

والتفاصيل»^(١) تعالى الله عن ذلك. ويقول: كذلك: إن الله غير ديمقراطي؛ لأنه لم يحاور إبليس ولأنه أنزل آدم من الجنة.

يتعرض الكاتب لليوم الآخر ونشأة الكون فيدعي أن الكون لم يُخلق من العدم بل من مادة ذات طبيعة أخرى، كما ادعى أن عالم الآخرة ما هو إلا عالم مادي جديد ينشأ نتيجة الصراع المستمر في المادة، مما يؤدي إلى فناء هذا الكون فيحل محله العالم المادي الآخر، وهذا ينشأ بعد النفخة الثانية في الصور كما يقول، وهو يفتر نفخة الصور بأنها التسارع في الصيرورة، أي: حدوث الطفرة، كما يرى أن الطفرة الأولى هي الساعة؛ لأن الساعة تعني المضي والاستمرار. فهو يعد النشأة الكونية طفرة والآخره طفرة. لأن الكون قائم على الثنائية والجدل الداخلي وتغير الأشكال. ويقول: إن الإنسان ظهر في هذا الكون بعد ظهور الكون والشمس والكواكب وقوانين الطبيعة التي يدخلها كلها في علم المحسوس (علم الحقيقة) فالحق في القرآن يقسم إلى قسمين:

الأول: هو الله لقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠].

الثاني: هو الموجودات أي العالم المادي الموضوعي لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥].

بصور الربوبية بأنها القوانين الموضوعية العاملة في هذا الكون، ويقول: إن الناس يخضعون لها بشكل جبري، أما الألوهية فهي علاقة تقوم على خضوع العبد تجاه ربه وخالقه، لذا فالله رب العالمين والخلق أجمعين، وليس هو إلههم؛ لأن من الناس من لا يخضع لله تعالى بل يتوجه إلى غيره. ويستدل لقوله بالمعنى اللغوي لكلمة (رب) فهي مأخوذة عنده من الملك والسيطرة كقولنا: (رب الأسرة) ويقول: إن معنى الألوهية اعتراف العاقل فقط بالله تعالى وبتوحيده وبأوامره، كما يقول: إن الربوبية تسبق الألوهية، فقبل وجود العاقل في الكون لم توجد الألوهية.

(١) ص ٣٩١-٣٩٢.

ويستشهد لقوله هذا بادعاء فرعون الربوبية بمعنى الملكية والسيادة، إذ ادعى أنه هو المالك المتصرف في مصر وأراضيها وما فيها، كما يستدل الكاتب باستخلاف الإنسان في الأرض، إذ هو من مقام الربوبية.

كما يستشهد بالآية الكريمة: ﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠] فالخطاب هنا موجه للعاقل، ويقول تعالى: ﴿أَزْيَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ حَيِّراً أَمَرَ اللَّهُ أَلَوْحِداً أَلْفَهَاراً﴾ [يوسف: ٣٩] فالآية هنا تدل على أن الربوبية سيطرة وملك وقهر.

ولا يلتزم الكاتب الأدب مع الرسول ﷺ، ففضلاً على رفضه السنة وردّه كثيراً من الأحاديث الصحيحة نزولاً عند هواه، يقول: إن الرسول ليس قدوتنا وعلينا أن نعيد النظر في حبه^(١)، حاشاه.

كما يهاجم الكاتب الصحابة ويقول: إنهم ليسوا قدوة لنا، كما يشكك ويطعن في مسألة الإسناد^(٢) كما يقول: إن النبوة عبارة عن علوم كونية وطبيعية وتاريخ، وإن الرسالة عبارة عن تشريعات وأحكام، فالنبوة علوم من الله، والرسالة تشريع وقاعدة سلوك وهي الفارق بين النبوة والرسالة، كما يدّعي أن صيغة «يا أيها النبي» تفيد أن التعليقات خاصة بالنبي وليست تشريعاً.

وحين يناقش مفهوم التقوى يراه مفهوماً فردياً لا اجتماعياً ولا علاقة له بالدولة ولا بالناحية الاجتماعية والاقتصادية^(٣)، وهذا شبيه بالرهبانية.

ويتحدث عن المساواة بين أهل الأديان بل بين المسلمين والشيوعيين وسواهم فيقول: إنه لا يوجد إنسان في الأرض إلا وله في الإسلام نصيب علم ذلك أم لم يعلم؛ لأن الإسلام ينسجم مع الفطرة الإنسانية.

(١) ص ٥٧٢.

(٢) ص ٥٦٦-٥٦٧.

(٣) ص ٥٧٠-٥٩٦.

وأما دخول المؤمنين الجنة فينطبق على المسلمين وغيرهم ويستشهد الكاتب بالآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّاتِ﴾ [البقرة: ٦٢] ثم يفسر (الصابئين) بأنهم كل من صبا عن الأديان السماوية الثلاثة ولكنه يؤمن بالله واليوم الآخر. أما الآجال والأعمار فيرى الكاتب أنها غير محددة سلفاً عند الله، كما يرى أن الأعمار غير ثابتة وأن الأجل ليس بيد الله^(١) فالإنسان إذا اجتمعت له الشروط الموضوعية للموت يموت وعندها يكتب كم عمره، ويستشهد بآيات منها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبَ مُّوَجَّلَاتٍ﴾ [آل عمران: ١٤٥] وهنا يقول الكاتب: «الموت كتاب مؤجل أي إن كتاب الموت هو مجموعة الشروط الموضوعية التي تؤدي إلى الموت وأن الموت مؤجل حتى تتحقق شروط هذا الكتاب»^(٢).

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْمرُّ مِنْ مُّعمرٍ وَلَا يَنْقصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١]. فيقول الكاتب:

«لاحظ في هذه الآية كيف صرح أن نقصان العمر أو زيادته لا تكون إلا في كتاب أي: هناك مجموعة من الشروط الموضوعية تؤدي إلى نقصان الأعمار وأخرى تؤدي إلى زيادتها. وما جاء من اللف والدوران في بعض كتب التفسير بأن الضمير (ينقص من عمره) يعود على شخص آخر فهذا ما لا تحتمله اللغة. لقد آن لنا نحن المسلمين أن نفهم أن الأعمار غير ثابتة»^(٣).

ويستشهد بالحديث الشريف: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة...»^(٤) الحديث.

(١) ص ٤١٢.

(٢) ص ٤١٢.

(٣) ص ٤١٥.

(٤) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة حديث رقم ٣٢٠٨ انظر فتح الباري ٦/ ٣٠٣.

فيقول الكاتب هنا: إن هذا الحديث يبين أن الروح لا علاقة لها بالحياة، لأن الملك عندما ينفخ الروح في الجنين يكون الجنين كائناً حياً، وبعد أن يتحول الكائن البشري في الرحم إلى كائن إنسان يبدأ التسجيل عليه في ثلاثة فروع: تسجيل الحياة العضوية في أثناء الحياة، وتسجيل الأعمال حين وقوعها، وتسجيل الأرزاق حين وقوعها، وبعد أن يموت يمكن عمل كشف بأعماله فيظهر نتيجة ذلك الكشف أنه شقي أو سعيد^(١).

وقوله في الأرزاق كقوله في الآجال، فهو يرى أن الأرزاق غير محددة سلفاً عند الله تعالى ويرى أن القول بعكس هذا هو ظن خاطئ وقع فيه كثير من المسلمين^(٢).

ولا أرتاب في أن هذه الأقوال التي تجمع بين الخلط والخطب والتي لا تجمعها صيغة علم يدرك القارئ لأول وهلة أنها من وضع زمرة عابثة، أرادت أن تعبث بعقول الناس، لتحول بينهم وبين حقائق الكون الثابتة، كما عمدت أن تزور حوادث التاريخ.

وإن تعجب فعجب قوله: إنه استعان بأحد المتخصصين باللغة. والمطلع على أقواله لا يجد لهذا القول نصيباً، وقد تقدم لنا في أول الكتاب قول أستاذنا الدكتور محمد عبدالله دراز - رحمه الله - في سبب تسمية كلام الله قرآناً وكتاباً، فارجع إليه. لتجد كلاماً يأخذ باللب ويملك القلب.

ثم إن هذه التقسيمات التي طلع بها الكاتب ومن معه، والتي لم يسبق بها ليس فيها إلا الجعجعة.

والقرآن الذي أنزله الله على نبيه ﷺ، يتبدى من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، فيه القصص، وفيه الهدى من أمر ونهي، وفيه الخبر، فيقول الكاتب: إن القرآن ليس فيه أمر ولا نهي، وليس مرجعه إلا الهوى، كيف والله تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وهل الهدى إلا الأمر والنهي. ويقول: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ

(١) ص ٤١٤-٤١٥.

(٢) ص ٤١٦-٤١٧.

مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿[الإسراء: ٨٢] ويقول عن القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

ومحاولة استدلال الكاتب ببعض الآيات، مثل قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ١] يتم عن عدم تذوقه للغة، بل عدم معرفة؛ ذلكم أن العطف، قد يكون عطف ذات على ذات، وقد يكون عطف صفات لذات واحدة، والتغاير الذي يدل عليه العطف، الذي تحدث عنه اللغويون ليس بالضرورة أن يكون هو التباين، فالكتاب والقرآن ليسا متباينين كالإنسان والفرس، أو زيد وعمر، كما أنها ليسا مترادفين كذلك، فإن كلا منهما لوحظ فيه ما لم يلاحظ في الآخر، كما قال أستاذنا الدكتور عبدالله دراز، والذي ذكرناه في أول الكتاب عن تعريف القرآن. وهذه من الأمور البديهية في اللغة.

ثم إن من إفك الحديث التفرقة بين لفظ الكتاب في حال التعريف والتكثير وأن وروده معرّفاً يشمل الكتاب كله، وليس كذلك وروده منكرأً، وتلكم قاعدة غريبة ابتدعتها عبقرية الكاتب، فابتعد بها عن مواطن الحق.

ثم لا أدري أين قرينه اللغوي، كيف غاب عنه وهو يفسر قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدَيِّهِ﴾ [البقرة: ٩٧] تفسيراً ليس له أساس يستند إليه، ولا قاعدة يركز عليها، ويرد التفسير المجمع عليه بأن المقصود بقوله: «بين يديه» الكتب السماوية، قال: لأنها خلف القرآن وليست أمامه، ولا أدري أهي ضحالة أم تضاحل!!؟

ونتسائل مرة أخرى أين المتخصص باللغة الذي اعتمد عليه الكاتب، أتعني كلمة (بين يديه) الأمام أم الخلف؟! إن هذه استعارة - كما يقول علماء البيان - قال تعالى: ﴿كِتَابُهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوا لَا نُفْصِدُ مَوْءَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١] فما هو بين يدي المرء يكون أمامه، وعلى هذا فما بين يدي القرآن الكريم الكتب السماوية التي كانت قبل القرآن ونزلت قبله.

إن الكتاب كله على كثرة صفحاته لا يخرج عن هذه الترهات، وعن هذا النهج المنحرف، وقد تصدى كثيرون للكاتب والكتاب - كما قلنا من قبل - ومما كتب في هذا المجال:

١ - مقالة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: كانت المقالة في مجلة نهج الإسلام - وزارة الأوقاف السورية العدد ٤٢، ١٤١١، ١٩٩٠، وخلاصتها يدل عليها عنوانها: «الخلقية اليهودية لشعار قراءة معاصرة»، وفيها شن الدكتور على الكاتب هجوماً دون أن يصرح بشكل مباشر أنه يقصد الكتاب. وقد ناقشت المقالة مفهوم القراءة المعاصرة وأهدافه، وبينت المفهوم السديد لصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان.

٢ - مقالة للأستاذ ماهر المنجد: كتبت في مجلة عالم الفكر - وزارة الإعلام - الكويت، المجلد ١١ العدد الرابع ١٩٩٣ ص ١٣٧ تحت عنوان «الإشكالية المنهجية في كتاب الكتاب والقرآن، دراسة نقدية» وكانت هذه المقالة دراسة نقدية جادة، حيث استعرض الكاتب كتاب شحور وناقش منهجه، وبعض مقولاته الخطيرة، ووصل إلى نتيجة ضحالة الكاتب العلمية، واضطرابه الفكري، وعدم جدارته، في التصدي لدراسة كتاب الله.

٣ - كتاب: بيضة الديك «نقد لغوي لكتاب الكتاب والقرآن»: وهو دراسة لغوية جادة لعشرين صفحة من كتاب القراءة المعاصرة وبعض الموضوعات الأخرى الواردة فيه، كتبه الأستاذ يوسف الصيدأوي.

٤ - تهافت القراءة المعاصرة: وهو كتاب للدكتور منير محمد الشواف وهو مجلد كبير عرض فيه كاتبه لموضوعات القراءة المعاصرة، لكنه لم يناقش الكتاب بشكل مباشر، إذ إنه قد استعرض مقولاته في أول كتابه ثم أتى بمجموعة من النقول عن بعض كتب اللغة والعقيدة وأصول الفقه مما حوته القراءة المعاصرة.

٥ - كتاب جواد عفانة.

ولعل هناك كتباً أو مقالات غير هذه، يفوتني هنا أن أذكر أنني قد رغبت إلى طلاب الدراسات العليا، أن يكون الرد على هذا الكتاب موضوعاً لرسالة الماجستير، ووقع الاختيار على الطالب (ناصر يونس حسن صبره) وقد وفقه الله لكتابة الرسالة، ونيل درجة الماجستير (الكتاب والقرآن دراسة ونقد). ونرجو أن تطبع قريباً ليفيد الناس منها.

شبهات الخوئي^(١) حول القراءات القرآنية

الشبهة الأولى،

أ- قال الخوئي: «ذهب جماعة إلى حجية هذه القراءات، فأجازوا أن يُستدل بها على الحكم الشرعي، كما استُدل على حرمة وطء الحائض بعد نقائها من الحيض، وقبل أن تغتسل، بقراءة الكوفيين - غير حفص - بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] بالتشديد»^(٢).

أجاب الخوئي بعدها على ذلك بقوله: «الجواب: ولكن الحق عدم حجية هذه القراءات، فلا يستدل بها على الحكم الشرعي، والدليل على ذلك أن كل واحد من هؤلاء القراء يحتل فيه الغلط والاشتباه، ولم يرد دليل من العقل، ولا من الشرع على وجوب اتباع قارئ منهم بالخصوص، وقد استقل العقل، وحكم الشرع بالمنع عن اتباع غير العلم»^(٣).

وقد عرفت من قبل أن القارئ الذي تلقى القرآن مشافهة عن الأئمة قبله ما كانت تلك القراءة التي تلقاها قراءته وحده، بل كانت قراءة جماهير كثيرة من المسلمين، ولا يعقل أن تكون هذه القراءة التي تلقاها آحاداً، لأن معنى ذلك أنه كان يقرأ قراءة، وكان أهل البلد الذي هو فيه يقرؤون قراءة أخرى، وهذا أمر لا يصح في العقول، لأنه يؤدي إلى نتيجة سلبية، وهو عدم قبول قراءته عند أهل البلد الذي هو فيه.

(١) هو السيد أبو القاسم آية الله السيد علي أكبر الخوئي من مشيخة الشيعة، له في الحديث إجازات من مشايخه للرواية عن طريق أهل البيت، عالم بالرجال والتفسير والفقه وأصوله، قلّدت له الحوزة العلمية زعامتها والمرجعية العليا للطائفة الشيعية في العالم قيادتها عام ١٩٧٠. له كتاب «البيان في تفسير القرآن» تكلم فيه عن فضائل القرآن وإعجازه، وتراجم القراء العشرة ورواتهم، والأحرف السبعة، وجمع القرآن، والنسخ، وغير ذلك.

(٢) الخوئي: ١٨٠.

(٣) الخوئي: ١٨٠.

وعرفت أن إضافة القراءة إلى من أضيفت إليه من الصحابة وغيرهم، إنما هو من حيث إنه كان أضبط لها، وأكثر قراءة وإقراء بها، وميلاً إليه، وكذلك إضافة الحروف والقراءات إلى أئمة القراء ورواتهم المراد بها أن ذلك القارئ وذلك الإمام اختار القراءة بذلك الوجه من اللغة حسبما قرأ به فأثره على غيره، وداوم عليه ولزمه حتى اشتهر به وعرف به، وقُصِدَ فيه وأُخِذَ عنه، فلذلك أضيف إليه دونما غيره من القراء، وهذه الإضافة إضافة اختيار ولزوم لا إضافة رأي واجتهاد واختراع^(١).

الشبهة الثانية:

يفترض الخوئي اعتراضاً ويرد عليه فيقول: «ولعل أحداً يحاول أن يقول: إن القراءات وإن لم تكن متواترة، إلا أنها منقولة عن النبي ﷺ، فتشملها الأدلة القطعية التي أثبتت حجية خبر الواحد، وإذا شملتها الأدلة القطعية خرج الاستناد إليها عن العمل بالظن بالورود، أو الحكومة أو التخصيص»^(٢).

ويقول: «إن القراءات لم يتضح كونها رواية، لتشمله هذه الأدلة، فلعلها اجتهادات من القراء، ويؤيد هذا الاحتمال ما تقدم من تصريح بعض الأعلام بذلك، بل إذا لاحظنا السبب الذي من أجله اختلف القراء في قراءاتهم - وهو خلو المصاحف المرسلة إلى الجهات من النقط والشكل - يقوى هذا الاحتمال جداً»^(٣).

وقد عرضنا لهذه القضية وعرفنا أن القراءات قد نقلت من طريق الرواية والمشافهة، والاجتهاد في قراءة القرآن أمر غير مقبول أبداً، فالقراءة سنة متبعة، والإجماع منعقد على أن من زاد حركة أو حرفاً في القرآن، أو نقص من تلقاء نفسه مصرّاً على ذلك يكفر^(٤).

(١) النشر (١/٥٢).

(٢) الخوئي: ١٨٠.

(٣) الخوئي: ١٨٠-١٨١.

(٤) منجد المقرئين، لابن الجزري، ص ٩٧.

الشبهة الثالثة:

قوله: «إن رواية كل قراءة من هذه القراءات، لم تثبت وثاقتهم أجمع، فلا تشمل أدلة حجية خبر الثقة روايتهم، ويظهر ذلك مما قدمنا في ترجمة أحوال القراء وروايتهم»^(١).

وهذه النتيجة التي خرج بها السيد الخوئي جاءت بناءً على استعراضه تراجم القراء العشرة وروايتهم، فقد نقل أقوال طائفة من أئمة الجرح والتعديل في الحكم على بعض القراء وتلامذتهم بالضعف في رواية الحديث، مما حمله على جعل القراءات المتواترة دون مرتبة رواية خبر الأحاد الصحيح.

ونحن لا نختلف معه في تضعيف بعض هؤلاء القراء، أو روايتهم من قبل أئمة الجرح والتعديل، لكن هذا حاصل في رواية الحديث لا في القراءات، فهؤلاء الأئمة لا مطعن عليهم في عدالتهم وضبطهم في علم القراءات، ولولا ذلك لما أجمع الناس على الأخذ بقراءاتهم، وليس من الإنصاف أن نجعل ضعفهم في الحديث سبباً للحكم على ضعفهم في القراءات، لأن المعروف عند أهل العلم أن ضعف العالم في جانب من جوانب العلم، لا يعني ضعفه في الجوانب الأخرى، لأنه قد يكون ضعيفاً في علم وماهراً في علم آخر، وللتدليل على بطلان استدلال السيد الخوئي، ننقل هنا قول الحافظ الذهبي (ت ٧٤٨هـ) رحمه الله في تعليقه على قول الدارقطني في عاصم بن أبي النجود (في حفظه شيء) فعقب الذهبي على ذلك بقوله: «يعني للحديث لا للحروف، وما زال في كل وقت يكون العالم إماماً في فن مقصراً في فنون»^(٢).

وقال في موضع آخر وهو يذكر تضعيفهم حفص بن سليمان، راوي عاصم في الحديث: «قلت: أما في القراءة فتقة ثبت ضابط لها، بخلاف حاله في الحديث»^(٣).

وبذلك يتضح رد هذه الشبهة التي ذكرها الخوئي، للأسباب التي قدمناها^(٤).

(١) الخوئي: ١٨١.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء: ٥/ ٢٦٠.

(٣) الذهبي معرفة القراء: ١٩٩٧م: ٨٥.

(٤) بحث بعنوان (شبهات الخوئي حول حجية القراءات في الأحكام)، د. فرمان إسماعيل إبراهيم، مجلس البحث العلمي، جامعة اليرموك.

الشبهة الرابعة :

يقول الخوئي: «إنا لو سلمنا أن القراءات كلها تستند إلى الرواية، وأن جميع رواياتها ثقات، إلا أننا نعلم علماً إجمالياً أن بعض القراءات لم تصدر عن النبي ﷺ قطعاً، ومن الواضح أن مثل هذا العلم يوجب التعارض بين تلك الروايات، وتكون كل واحدة منها مكذبة للأخرى، فتسقط جميعها عن الحجية، فإن تخصيص بعضها بالاعتبار ترجيح بلا مرجح، فلا بد من الرجوع إلى مرجحات باب المعارضة، وبدونه لا يجوز الاحتجاج على الحكم الشرعي بواحدة من تلك القراءات، وهذه النتيجة حاصلة أيضاً إذا قلنا بتواتر القراءات، فإن تواتر القراءتين المختلفتين عن النبي ﷺ، يورث القطع بأن كلا من القراءتين قرآن منزل من الله، فلا يكون بينهما تعارض بحسب السند، بل يكون التعارض بينهما بحسب الدلالة، فإذا علمنا إجمالاً أن أحد الظاهرين غير مراد في الواقع فلا بد من القول بتساقطهما، والرجوع إلى الأصل اللفظي أو العملي، لأن أدلة الترجيح أو التخير تختص بالأدلة التي يكون سندها ظنياً، فلا تعم ما يكون صدوره قطعياً، وتفصيل ذلك كله في بحث (التعارض والترجيح)»^(١).

وما ذكره الخوئي لم يقله أحد من العلماء، لأن القراءات القرآنية لا يوجد بينها اختلاف في أمر ونهي أو حلال وحرام، ومعنى ذلك أنه لا توجد قراءة تُحرّم شيئاً، وأخرى تُحلّه أو قراءة تأمر بشيء، وأخرى تنهى عنه، فمثل هذا غير موجود بحمد الله، لكن القراءتين قد تتحدان في المعنى، وقد تختلفان (وكل واحدة من هذه القراءات ذات معنى، فكأنها كل قراءة آية، وإذا نحن تدبرنا الفروق بين هذه القراءات نجد ما يثلج الصدر وتطمئن النفس، ولن نجد تناقضاً ولا تضاداً).

قال ابن الجزري: «وكل ما صحّ عن النبي ﷺ من ذلك فقد وجب قبوله، ولم يسع أحداً من الأمة رده، ولزم الإيذان به، وأن كله منزل من عند الله، إذ كل قراءة منها مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية، يجب الإيذان بها كلها، واتباع ما تضمنته من المعنى علماً وعملاً، ولا يجوز ترك موجب إحداها لأجل الأخرى ظناً أن ذلك تعارض»^(٢).

(١) الخوئي: ١٨١-١٨٢.

(٢) النشر: ابن الجزري (١/٥١).

خاتمة الفصل

وبعد فهذا هو الفصل السادس والعشرون، وهو الفصل الأخير في الكتاب طوفنا فيه، شرقاً وغرباً، ولولا الإطالة لذكرت أشياء كثيرة من حقها أن تُذكر، وقد استدرك ما فات هنا - إن شاء الله - في كتاب: «اتجاهات التفسير ومناهج المفسرين».

ولقد ذكرت في هذا الفصل أنماطاً متعددة، كانت أمنيته أن أجدها في بعض كتب علوم القرآن، ولقد حقق الله لي ذلك - وله الحمد والمنة والشكر والفضل - «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، لا أحصي ربي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، وجزى الله عبدك ونبيك محمداً ﷺ خير الجزاء وآل سيدنا محمد وصحبه، الذين حفظوا لنا هذا الدين، وبذلوا في حفظه الأنفس والمهج، فجزاهم الله ومن تبعهم بإحسان من فضله وكرمه».

كان النمط الأول مناقشة الروايات التي ذكرت في بعض الكتب، ذكرها مؤلفوها بحسن نية من حيث المعنى، ولقد كفانا الأخ الدكتور جمال أبو حسان مؤنة مناقشتها من حيث صحة الرواية وعدمها.

وكان النمط الثاني شبهات المستشرقين وهي كثيرة، اخترت بعضها في هذا الفصل، وكثير منها في الفصول السابقة.

وكان النمط الثالث يتصل بما أثاره الحداثيون والعلمانيون ممن تأثروا بالاستعمار الغربي تبشيراً واستشراقاً، أو ممن صهرهم المذهب الماركسي، واخترت نماذج ثلاثة، كان أكثرها خطورة المنهج الذي يمثلها محمد أركون ومن معه، وكم كنت أتمنى أن تكون هناك مؤسسة في الغرب تقوم برصد الآراء الحاقدة والأفكار المنحرفة، تحاور وتناقش، وترد الشبهات والانحرافات على أصحابها بمثل أسلحتهم، وبمنطقهم نفسه، ولقد كان هذا المطلب الغاية من إنشاء معهد الفكر - كما حدثني أخي الأستاذ عمر الصوباني واختير الأستاذ الفاروقي - رحمه الله - لرئاسة هذا المعهد، ولكن استشهد على أيدي أعداء الإسلام، وما نظن إلا أن اليهود كانوا وراء اغتياله - رحمه الله - وكنا نتمنى أن تكون هذه رسالة معهد الفكر بدلاً من الاتجاه الذي سار فيه، فالمسلمون تكفيهم جراحاتهم، وما كان أغناهم عن زياد هذه الجراحات وتعميقها، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

أما النموذج الذي يمثل نصر أبو زيد، فإن آثاره السيئة قد وجدت - والحمد لله - من يقف لها بالمرصاد، ولعل أكثر النماذج ضلالة، صاحب «الكتاب والقرآن دراسة معاصرة» لمحمد شحرور؛ ذلك لأنه لم يترك مجالاً لمن يتقبل منه قولاً، ولم يترك حقيقة إلا وحاول أن يصيبها بشيء من المس، فاللغة والمقدسات، والحقائق الثابتة حاول أن يهتك لها كل ستار وأن يثير حولها نفع غبار، وعلى نفسها جنت براقش فلا تعجب أن يفسر كلمة الروح بأنها من الرواح، وأن يقول: إنها فعل أمر، كما تقول لأحدهم: (روح من عندي) وأن يفسر كلمة مريم، بأنها جزءان «مرّ» و«يمّ» ويقول لك: إنها موج البحر وأن يفسر كلمة كريم في قولنا فلان كريم، بأنها من كلمتين كاف التشبيه، والمشبّه به وهو «ريم» أي غزال.

إن الذي يفسر الشهر بأنه من الشهرة، والنساء بأنها من التأخير، ويفسر قوله سبحانه: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ بوفاة الأنفس وبعثها، مع أن الآية الكريمة جاءت في سياق الإصلاح بين الزوجين، ومعناها أن الشح من لوازم النفوس، فهي تحذير من الشح والبخل، ولفظ «الشح» منصوب لأنه مفعول ثانٍ لأحضرت، والمفعول الأول هو الأنفس وهو هنا نائب فاعل، إن الذي يجرؤ على هذا القول فيتلاعب باللغة والآيات كلها، ظاناً أنه يستطيع أن يتلاعب بعقول الناس. إن مثل هذا لا يستغرب أن يصدر عنه أي شيء، ولكن - والله الحمد - إن الناس لا زالوا بخير، ولا يزالون يميزون الخبيث من الطيب، والغث من السمين، والبخس من الثمين.

وأرجو أن يكون للمسلمين مؤسسة فكرية، وأخرى إعلامية في بلاد الغرب لتقوم بواجب يأثم بتركه المسلمون جميعاً، وهم لا تنقصهم وسائل تحقيق هذا الواجب، فالمال كثير - والحمد لله - وذوو الغيرة على دين الله من ذوي العقول الراجحة كثيرون، أرجو أن يكون ذلك قريباً، ويقولون متى هو، قل عسى أن يكون قريباً.

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الحمد لله أولاً وآخراً،
والصلاة والسلام التامان الأكملان على صفوة الله من خلقه وخيرته من عباده خاتم
أنبيائه ورسله سيدنا محمد، الرحمة المهداة والنعمة المسداة، اللهم صلّ على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه والتابعين إليهم بإحسان.

أما بعد:

فهذا آخر ما قدر الله سبحانه وتعالى أن يوفقني بكتابته، ولقد كنت ويعلم الله تَوَاقاً
شديد الحرص على وجود كتاب في علوم القرآن الكريم يخلو مما شحنت به كثير من
الكتب، ويشتمل على كثير مما خلت به كثيرٌ من الكتب كذلك، وكان توجهي عندما
بدأت الكتابة أن يشتمل على عشرين فصلاً أجعل فصلاً للحديث عن لغة القرآن وما تمتاز
به مفرداته، وأتحدث فيه عن قضايا الترادف والاشتراك وما يتصل بهما، وأن يكون الفصل
الآخر عن بعض أساليب القرآن والفروق الدقيقة بين هذه الأساليب، لكنني وجدت أن
الكتاب سيتسع بهذين الفصلين فيكبر حجمه. فنصح بعض الإخوة المشكورين أن يكون
هذان الفصلان في كتاب آخر، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأرجو الله أن يكون
هذا العمل خالصاً لوجهه سبحانه، وأن يعمّ به النفع، وأن يغفر لي ما كان من زلة غير
متعمدة، وأن يهيئ لي من يبصرني بخطئي. وأن يهيئ لهذا الدين من يرفع رايته ويحقق
غايته. علماء أقوياء بالحق يدفعون الباطل، يملكون نواصي العلوم، نحارير جهابذة الله
غايتهم، لا يأخذون عرض هذا الأدنى.

والله أسأل أن يتقبل وأن يجزي كل من ساعد بجهد قلّ أو كثر في إخراج هذا
الكتاب، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولوالديهم ولمشايخنا ولذوي الحقوق علينا. ربي زدني علماً
فيه خير الدنيا وخير الآخرة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين وسلم
تسليماً كثيراً.

رَفَعَ

عبد الرحمن النجدي
السلك (الزهد) المراجع

مرتبة ترتيباً ألف بائياً:

- ١ - الإبانة عن معاني القراءات، لمكي بن أبي طالب.
- ٢ - إبراز المعاني من حرز الأمان، لعبدالرحمن بن إسماعيل «أبو شامة المقدسي».
- ٣ - الإبريز من كلام سيدي عبدالعزيز، لأحمد بن المبارك.
- ٤ - أبو الحسن الأشعري، للدكتور حمودة غرايبة.
- ٥ - إتخاف فضلاء البشر في القراءات الأربع، لأحمد بن محمد الدمياطي.
- ٦ - الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي بتحقيق الدكتور مصطفى البغا.
- ٧ - الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها، للدكتور مناع القطان.
- ٨ - أحكام القرآن، للإمام الشافعي.
- ٩ - إحياء علوم الدين، لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي.
- ١٠ - أسباب النزول، للإمام الواحدي.
- ١١ - أسباب نزول القرآن، لعبدالرحيم أبي علبة.
- ١٢ - الإصابة في تمييز الصحابة، للإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني.
- ١٣ - إعجاز القرآن الكريم، للدكتور فضل حسن عباس.
- ١٤ - أعلام الحديث شرح صحيح البخاري، للإمام أبي سليمان الخطابي، تحقيق: الدكتور محمد بن سعد بن عبدالرحمن.
- ١٥ - الانتصار، للإمام الباقلاني.
- ١٦ - الأم، للإمام الشافعي، مطبعة دار الشعب.
- ١٧ - الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، للشيخ أحمد محمد شاكر.
- ١٨ - البحر المحيط في أصول الفقه، للإمام محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي.
- ١٩ - البرهان في أصول الفقه، للإمام أبي المعالي عبدالملك بن عبدالله الجويني.

- ٢٠- البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين الزركشي.
- ٢١- البداية والنهاية، للإمام الحافظ عماد الدين ابن كثير.
- ٢٢- البلاغة تطور وتاريخ، للدكتور شوقي ضيف.
- ٢٣- بلاغتنا المفترى عليها بين الأصالة والتبعية، للدكتور فضل حسن عباس.
- ٢٤- بلاغة القرآن، للشيخ محمد الخضر حسين.
- ٢٥- البيان والتبيين، للإمام أبي عمرو الجاحظ.
- ٢٦- البيان في تفسير القرآن، للإمام أبي القاسم الموسوي الخوئي.
- ٢٧- البيان في مباحث من علوم القرآن، للأستاذ عبد الوهاب عبد المجيد غزلان.
- ٢٨- تاريخ القرآن، للزنجاني.
- ٢٩- تاريخ القرآن، للدكتور عبد الصبور شاهين.
- ٣٠- تأويل مُشكِـل القرآن، للإمام ابن قتبية الدينوري.
- ٣١- التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن، للشيخ طاهر الجزائري، طبع المنار بالقاهرة سنة ١٩٣٤.
- ٣٢- تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي، لمحمد عبد الرحمن المباركفوري.
- ٣٣- تحفة الفقهاء، لعلاء الدين السمرقندي.
- ٣٤- التريـب والترهيب، للحافظ عبد العظيم المنذري.
- ٣٥- تفسير الآلوسي (روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني) للإمام شهاب الدين الآلوسي.
- ٣٦- تفسير ابن عاشور (التحرير والتنوير) للشيخ محمد الطاهر بن عاشور.
- ٣٧- تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) للإمام عبد الحق بن غالب بن عطية.
- ٣٨- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) للحافظ عماد الدين بن كثير.
- ٣٩- تفسير أبي حيان (البحر المحيط) للإمام أثير الدين أبي عبد الله محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي.
- ٤٠- تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) للإمام محمد بن محمد أبي السعود العمادي.
- ٤١- تفسير البقاعي (نظم الدرر في تناسب الآي والسور) للإمام برهان الدين بن عمر البقاعي.

- ٤٢- تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) للإمام ناصر الدين عبدالله بن عمر البيضاوي.
- ٤٣- تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) للإمام فخر الدين الرازي.
- ٤٤- تفسير رشيد (تفسير القرآن الحكيم - المنار) للشيخ محمد رشيد رضا.
- ٤٥- تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل) للإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري.
- ٤٦- تفسير شلتوت، للشيخ محمود شلتوت.
- ٤٧- تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن) تحقيق الشيخ أحمد شاکر والشيخ محمود شاکر.
- ٤٨- تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن) طبع دار الحديث سنة ١٩٨٧ بالقاهرة.
- ٤٩- تفسير القاسمي (محاسن التأويل) للإمام جمال الدين القاسمي.
- ٥٠- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) للإمام أبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي.
- ٥١- تفسير النسفي (تفسير النسفي) للإمام عبدالله بن أحمد النسفي.
- ٥٢- تفسير النيسابوري (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) للإمام الحسن بن محمد النيسابوري، على هامش الطبري طبع بولاق الطبعة الثالثة ١٣٢٣هـ.
- ٥٣- تفسير الواحدي (التفسير الوجيز) للإمام أبي الحسن الواحدي.
- ٥٤- التفسير القرآني، للدكتور محمد رجب البيومي.
- ٥٥- التفسير ورجاله، لمحمد الفاضل بن عاشور.
- ٥٦- التفسير والمفسرون، للشيخ محمد حسين الذهبي.
- ٥٧- تقريب التهذيب، للحافظ ابن حجر العسقلاني.
- ٥٨- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، للحافظ أبي عمر بن عبد البر.
- ٥٩- تهذيب التهذيب، للحافظ ابن حجر العسقلاني.
- ٦٠- جامع الأصول من أحاديث الرسول، للإمام ابن الأثير، مطبعة الملاح، دمشق، ط ١، ١٩٦٩.
- ٦١- جريدة السبيل عدد ٨٤ السنة الثانية، الثلاثاء ٢٠-٢٦ حزيران ١٩٩٥.
- ٦٢- الجمع الصوتي الأول، المصحف المرتل بواعثه ومخططاته، للدكتور لييب السعيد.
- ٦٣- الجواب عما خطأت به عائشة، كتاب المصاحف، د. جمال أبو حسان

- ٦٤- حاشية الجمل على شرح المنهج، للشيخ زكريا بن سليمان الجمل.
- ٦٥- حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي، للشيخ محيي الدين شيخ زاده.
- ٦٦- الحجة في القراءات السبع، للإمام ابن خالويه تحقيق الدكتور عبدالعال سالم مكرم.
- ٦٧- الحجة في القراءات السبع، للإمام أبي علي الفارسي.
- ٦٨- حلية الأولياء، للحافظ أبي نعيم الأصبهاني.
- ٦٩- الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني.
- ٧٠- دراسة في الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، لموريس بوكاي.
- ٧١- دراسة ماروي عن عثمان في شأن لحن القرآن، د. جمال أبو حسان.
- ٧٢- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للإمام أحمد بن يوسف السمين الحلبي.
- ٧٣- دلائل النبوة، للإمام الحافظ أبي عبدالله البيهقي.
- ٧٤- دلالة الألفاظ.
- ٧٥- الدفاع عن القرآن، أحمد مكّي الأنصاري.
- ٧٦- الرسالة، للإمام الشافعي.
- ٧٧- رسم المصحف العثماني، للدكتور عبدالفتاح شلبي.
- ٧٨- الرفع والتكميل، للإمام عبدالحكي اللكنوي الطبعة الثانية سنة ١٩٦٨ مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب.
- ٧٩- الروض الأنف، للإمام أبي القاسم السهيلي طبع دار الفكر.
- ٨٠- زهرة التفاسير للشيخ محمد أبي زهرة.
- ٨١- سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي.
- ٨٢- سنن أبي داود، للحافظ سليمان بن أشعث السجستاني.
- ٨٣- سنن الترمذي، للإمام محمد بن عيسى الترمذي.
- ٨٤- سنن الدارمي، للإمام عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي.
- ٨٥- سنن النسائي الكبرى، للإمام أحمد بن علي النسائي.
- ٨٦- السنة ومكاتها في التشريع، للدكتور مصطفى السباعي.
- ٨٧- سير أعلام النبلاء، للحافظ الذهبي تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون.
- ٨٨- سيرة ابن هشام، للإمام عبدالملك بن هشام.

- ٨٩- شبهات حول القراءات القرآنية، للدكتور فضل عباس بحث منشور في مجلة دراسات الجامعة الأردنية، م١٥، ع٣، سنة ١٩٨٨.
- ٩٠- شذور الذهب، للإمام أحمد بن عبد الرحمن ابن هشام الأنصاري.
- ٩١- شرح السنة، للإمام حسين بن مسعود البغوي.
- ٩٢- شرح فتح القدير، للإمام الكمال بن الهمام.
- ٩٣- شرح النووي على مسلم (المنهاج شرح مسلم بن الحجاج) للإمام شيخ الإسلام يحيى بن شرف النووي.
- ٩٤- شروح سقط الزند مجموعة شروح، طبعة الهيئة العامة المصرية.
- ٩٥- شعب الإيمان، للإمام الحافظ أبي عبد الله البيهقي.
- ٩٦- الصاحبي في فقه اللغة، للإمام أبي الحسين بن فارس.
- ٩٧- الصحاح، للإمام إسماعيل بن حماد الجوهري.
- ٩٨- صحيح الإمام البخاري، طبع دار الفكر سنة ١٩٨١.
- ٩٩- صحيح الإمام البخاري، طبع المطبعة المنيرية بمصر.
- ١٠٠- صحيح ابن حبان، للإمام محمد بن حبان.
- ١٠١- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري.
- ١٠٢- الطبقات الكبرى، للإمام محمد بن سعد الزهري.
- ١٠٣- طبقات المفسرين، للإمام محمد بن علي الداوودي.
- ١٠٤- طبية النشر وشرحها في القراءات العشر، للإمام محمد بن محمد بن الجزري والإمام النويري.
- ١٠٥- الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي.
- ١٠٦- العجائب في بيان الأسباب، للحافظ ابن حجر العسقلاني تحقيق عبد الحكيم الأنيس.
- ١٠٧- العدة على أحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد.
- ١٠٨- علوم القرآن، للدكتور عدنان زرزور.
- ١٠٩- عمدة التفاسير، أحمد محمد شاكر.
- ١١٠- عون المعبود شرح سنن أبي داود، للمحدث شمس الحق العظيم آبادي طبع الهند.
- ١١١- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، السمين الحلبي.
- ١١٢- غاية النهاية في طبقات القراء، للإمام ابن الجزري.

- ١١٣- غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام.
- ١١٤- غيث النفع، لعلي النوري الصفاقسي.
- ١١٥- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مطبعة الحلبي، القاهرة.
- ١١٦- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، طبع دار الفكر، بيروت.
- ١١٧- الفتح الرباني بشرح مسند الإمام أحمد الشيباني، للشيخ أحمد بن عبدالرحمن البنا.
- ١١٨- فجر الإسلام، لأحمد أمين، الطبعة الثانية عشرة سنة ١٩٧٨ بمكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- ١١٩- الفرقان، لابن الخطيب.
- ١٢٠- فصل الخطاب في سلامة القرآن، للدكتور أحمد السيد الكومي والدكتور محمد يوسف القاسم.
- ١٢١- الفصل في الملل والأهواء والنحل للإمام علي بن حزم.
- ١٢٢- فضائل القرآن، للحافظ عماد الدين بن كثير.
- ١٢٣- فضائل القرآن، لابن الضريس تحقيق غزوة بدير.
- ١٢٤- فضائل القرآن، لأبي عبيد القاسم بن سلام تحقيق وهبي غاوجي الألباني.
- ١٢٥- فقه اللغة، للدكتور علي عبدالواحد وافي.
- ١٢٦- في الأدب الجاهلي، للدكتور طه حسين.
- ١٢٧- فيض الخبير وخلاصة التقرير على نهج التيسير شرح منظومة التفسير، للسيد علوي بن عباس المالكي.
- ١٢٨- فيض القدير شرح الجامع الصغير، لعبدالرؤوف المناوي.
- ١٢٩- القاموس المحيط، للفيروز أبادي.
- ١٣٠- القراءات القرآنية أحكامها ومصدرها، للدكتور شعبان محمد إسماعيل.
- ١٣١- القراءات الشاذة، للدكتور مصطفى مندور.
- ١٣٢- القراءات القرآنية تاريخ وتعريف، للدكتور عبدالهادي الفضلي.
- ١٣٣- القراءات واللهجات، للشيخ عبدالوهاب حمودة.
- ١٣٤- القرآن العظيم هدايته وإعجازه، محمد الصادق عرجون.
- ١٣٥- القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، للدكتور عبدالعال سالم مكرم.
- ١٣٦- القرآن والمبشرون، لمحمد عزت دروزة.

- ١٣٧- القرآن نزوله وتدويعه، ترجمته، تأثيره، لبلاشير.
- ١٣٨- القصص القرآني إجماعه ونفحاته، للدكتور فضل حسن عباس.
- ١٣٩- قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، للدكتور فضل حسن عباس.
- ١٤٠- القول السديد في علم التوحيد، للشيخ محمود أبي دققة.
- ١٤١- الكتاب والقرآن للدكتور محمد شحرور.
- ١٤٢- كشف الأستار زوائد البزار، للحافظ نور الدين الهيثمي.
- ١٤٣- لسان العرب، للإمام جمال الدين ابن منظور.
- ١٤٤- لطائف الإشارات في فنون القراءات، لأبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني.
- ١٤٥- لطائف المنان في دعوى الزوائد في القرآن، للدكتور فضل حسن عباس.
- ١٤٦- اللغة والنحو، للدكتور عباس حسن.
- ١٤٧- اللهجات العربية في القراءات القرآنية، للدكتور عبده الراجحي.
- ١٤٨- مباحث في علوم القرآن، للشيخ مناع القطان.
- ١٤٩- المجروحين، للإمام محمد بن حبان البستي.
- ١٥٠- مجلة العربي العدد ١٢١ كانون أول سنة ١٩٦٨.
- ١٥١- مجلة المسلمون العدد الأول السنة الأولى.
- ١٥٢- مجمع البيان في تفسير القرآن، للشيخ أبي علي محمد بن الفضل الطبرسي.
- ١٥٣- مجموع فتاوى الإمام ابن تيمية، للإمام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية.
- ١٥٤- المحكم في نقط المصحف، للإمام أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني.
- ١٥٥- محمد رسول الله ﷺ، لمحمد الصادق عرجون.
- ١٥٦- مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي، الخوري حداد.
- ١٥٧- المدخل إلى القرآن، لبلاشير.
- ١٥٨- المدخل إلى القرآن، للدكتور محمد عبدالله دراز.
- ١٥٩- المدخل لدراسة القرآن، للدكتور محمد محمد أبي شهية.
- ١٦٠- المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، للإمام عبدالرحمن بن إسماعيل، أبو شامة.
- ١٦١- مذاهب التفسير الإسلامي، لجولد زيه، تحقيق الدكتور عبدالحليم النجار.
- ١٦٢- المستدرک، للإمام أبي عبدالله الحاكم النيسابوري.

- ١٦٣- المستصفى من علوم أصول الفقه، للإمام أبي حامد الغزالي.
- ١٦٤- المسند، للإمام أحمد بن حنبل تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون.
- ١٦٥- المسند، للإمام أحمد طبع دار الفكر، بيروت.
- ١٦٦- المصاحف، لابن أبي داود.
- ١٦٧- المصنف، للإمام عبدالرزاق بن همام الصنعاني.
- ١٦٨- معاني القرآن، للإمام يحيى بن زياد الفراء.
- ١٦٩- معترك القرآن في إعجاز القرآن، للإمام جلال الدين السيوطي.
- ١٧٠- المعجزة الكبرى، للشيخ محمد أبي زهرة.
- ١٧١- معجم القراءات القرآنية، للدكتور عبدالعال سالم مكرم.
- ١٧٢- المعجم الكبير، للإمام سليمان بن أحمد الطبراني.
- ١٧٣- معجم مقاييس اللغة، للإمام أحمد بن فارس.
- ١٧٤- معرفة القراء الكبار، للإمام شمس الدين الذهبي.
- ١٧٥- المعيار العرب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، لأحمد بن يحيى الونشريسي.
- ١٧٦- المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة، للدكتور محمد سالم محيسن.
- ١٧٧- المفردات في غريب القرآن، للإمام الراغب الأصفهاني.
- ١٧٨- مفهوم النص، للدكتور نصر حامد أبو زيد.
- ١٧٩- مقدمتان في علوم القرآن، مقدمة كتاب المباني، ومقدمة كتاب ابن عطية.
- ١٨٠- مقدمة في أصول التفسير، للإمام ابن تيمية.
- ١٨١- المقنع في رسوم مصاحف أهل الأمصار، لأبي عمرو الداني.
- ١٨٢- مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ عبدالعظيم الزرقاني.
- ١٨٣- من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي، لمحمد أركون.
- ١٨٤- منجد المقرئين ومرشد الطالبين، للإمام ابن الجزري.
- ١٨٥- موارد الظمآن في زوائد ابن حبان، لنور الدين الهيثمي.
- ١٨٦- الموافقات في أصول الفقه، للإمام أبي إسحاق الشاطبي.
- ١٨٧- الموسوعة القرآنية، لمصطفى الأبياري.
- ١٨٨- الموطأ، للإمام مالك بن أنس.
- ١٨٩- منهج الفرقان في علوم القرآن، للشيخ سلامة العزامي.

- ١٩٠ - المذهب في القراءات العشر، للدكتور محمد سالم محيسن.
- ١٩١ - النبأ العظيم، للدكتور محمد عبدالله دراز.
- ١٩٢ - نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، ابن حجر العسقلاني.
- ١٩٣ - نزول القرآن على سبعة أحرف، للشيخ مناع القطان.
- ١٩٤ - نشأة التفسير، للدكتور سيد أحمد خليل.
- ١٩٥ - النشر في القراءات العشر، للإمام محمد بن محمد بن الجزري.
- ١٩٦ - النهاية في غريب الحديث، للإمام المبارك بن محمد بن الأثير.
- ١٩٧ - الوحي المحمدي، للشيخ محمد رشيد رضا.
- ١٩٨ - وفيات الأعيان، للإمام أحمد بن محمد بن خلكان.

رَفَعُ

فَهْرَسْت

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

٥	مقدمة الجزء الثاني
٩	الفصل الخامس عشر: الناسخ والمنسوخ
١٠	أولاً: تعريف النسخ
١١	النسخ في الاصطلاح
١٣	ثانياً: الطريق إلى معرفة النسخ
١٤	ثالثاً: الفرق بين النسخ والتخصيص
١٨	رابعاً: النسخ بين المقرين والمنكرين
١٨	جواز النسخ ووقوعه
٢٤	خامساً: النسخ بين المكثرين والمقلين
٣٤	سادساً: نسخ القرآن بالسنة
٣٦	سابعاً: أقسام النسخ
٤١	روايات الرجم
٤٦	أقوال أخر ادّعى أنها قرآن
٤٩	هل يُنسى القرآن بعد نزوله
٥٣	الفصل السادس عشر: الأحرف السبعة
٥٤	أولاً: الروايات في الأحرف السبعة
٥٨	ثانياً: فوائد تؤخذ من الأحاديث السابقة
٦٠	متى كان بدء نزول الأحرف السبعة
٦٧	السبب في جمع مصحف أمير المؤمنين عثمان ؓ
٧٠	هل نزول القرآن على سبعة أحرف يلزم منه تكرار النزول
٧٢	مناقشة بعض الروايات في الأحرف السبعة

٧٨ ثالثاً: آراء العلماء في معنى الأحرف السبعة
٧٨ هل مفهوم العدد مقصود
٨٠ هل الحديث مشكل
٨١ الأقوال في الأحرف السبعة
٨٦ أولاً: ابن فتيبة
٨٨ ثانياً: محمد بن الهيصم
٨٩ ثالثاً: الباقلاني
٩٠ رابعاً: الرازي
٩١ خامساً: ابن الجزري
٩٧ الرأي المختار
١٠٠ هل المصحف العثماني مشتمل على الأحرف السبعة
١٠٠ الرأي الأول: مذهب الإمام الطبري ومن وافقه
١٠٤ الرأي الثاني: أن المصحف العثماني مشتمل على الأحرف السبعة جميعها ..
 الرأي الثالث: أن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من
١٠٥ الأحرف السبعة

١٠٩ الفصل السابع عشر: القراءات القرآنية
١١٠ أولاً: تعريف القراءات
١١١ ثانياً: العلاقة بين القراءات والقرآن
١١٢ ثالثاً: العلاقة بين الأحرف السبعة والقراءات
١١٣ رابعاً: تعدد القراءات وأسبابه
١١٧ خامساً: الأئمة العشرة ورواتهم
١١٧ ١- نافع المدني
١١٩ ٢- ابن كثير الملكني
١٢٠ ٣- أبو عمرو البصري
١٢١ ٤- عبدالله بن عامر الشامي
١٢٢ ٥- عاصم الكوفي
١٢٣ ٦- حمزة الكوفي

١٢٣	٧- الكسائي الكوفي
١٢٤	٨- أبو جعفر المدني
١٢٥	٩- يعقوب البصري
١٢٦	١٠- خلف العاشر
١٢٧	سادساً: الفرق بين القراءة والرواية والطريق
١٢٧	سابعاً: أقسام القراءات
١٣٠	ثامناً: أركان القراءة المقبولة
١٣٢	تاسعاً: تواتر القراءات
١٣٤	نظرة في هذه الأقوال
١٣٥	عاشراً: الاختلاف بين القراءات اختلاف تنوع لا تضاد
١٣٩	حادي عشر: القراءات الشاذة وأسباب الشذوذ
١٣٩	أنواع القراءات الشاذة
١٤١	ثاني عشر: الاختيار في القراءات
١٤٢	قيود الاختيار
١٤٢	ثالث عشر: توجيه القراءات
١٤٥	رابع عشر: القراءات والنحاة
١٥٣	هل القراءات المتواترة وحدها حجة في العربية
١٥٤	العرضة الأخيرة والقراءة والشاذة
١٦٢	القراءات الشاذة
١٦٣	حكم الاحتجاج بالقراءة الشاذة
١٦٥	خمس عشر: شبهات حول القراءات القرآنية
١٦٥	الشبهة الأولى
١٦٨	الشبهة الثانية
١٧٠	الشبهة الثالثة
١٧٢	الشبهة الرابعة
١٧٣	الشبهة الخامسة
١٧٥	الشبهة السادسة
١٧٨	الشبهة السابعة

١٨١	الفصل الثامن عشر: التفسير والمفسرون
١٨١	نشأة التفسير والحاجة إليه
١٨١	المرحلة الأولى: عصر ما قبل التدوين
١٨٣	التفسير والتأويل
١٨٥	ما روي عن ابن عباس في أقسام التفسير
١٨٥	التفسير في عهد الصحابة
١٨٧	أسباب قلة الروايات في عهد الصحابة
١٨٨	التعويل في التفسير على سبب النزول
١٨٨	أخبار أهل الكتاب ليست من مصادر التفسير عند الصحابة
١٩٠	التفسير في عهد التابعين
١٩١	مميزات التفسير في عهد التابعين
١٩٢	أشهر المفسرين في عهد التابعين
١٩٣	أسباب ضعف التفسير بعد التابعين
١٩٤	أقسام التفسير
١٩٤	١- التفسير بالمأثور
١٩٤	دائره عدم تآثره بالمخلفات الدينية السابقة
١٩٥	دفع بعض الشبه عن الصحابة رضوان الله عليهم
١٩٦	منكرو التفسير الأثري
١٩٧	معنى عبارة الإمام أحمد
١٩٨	٢- التفسير بالرأى
٢٠٠	شروط التفسير بالرأى
٢٠٠	شروط المفسر
٢٠١	المرحلة الثانية: مرحلة التدوين
٢٠٤	ابن جرير الطبري
٢٠٥	أهم مدارس التفسير في تلك المرحلة
٢٠٨	تفاسير الشيعة
٢٠٩	تفاسير الإباضية
٢١٣	الإمام النسفي

٢١٥	شيخ الإسلام مفتي الديار الرومية، أبو السعود العمادي
٢١٨	المدرسة العلمية العقدية
٢١٩	المدرسة الفقهية
٢٢٠	المدرسة النحوية
٢٢٢	المدرسة الوعظية
٢٢٨	المدرسة الصوفية
٢٣٠	التفسير في العصر الحديث
٢٣٠	الشيخ محمد رشيد رضا
٢٣٣	الفصل التاسع عشر: الوجوه والنظائر
٢٣٤	معنى الوجوه والنظائر
٢٣٦	ما ذكره العلماء في الوجوه والنظائر
٢٤٨	الفصل العشرون: مشكل القرآن الكريم
٢٤٨	ما روي عن السيدة عائشة رضي الله عنها
٢٤٩	ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما
٢٦٨	الفصل الحادي والعشرون: ترجمة القرآن
٢٦٨	أقسامها
٢٦٩	إشكالاتها
٢٧٠	ترجمة القرآن الكريم
٢٧٣	أولاً: ما قاله ابن فارس
٢٧٤	ثانياً: الشاطبي
٢٧٦	القول المختار
٢٧٧	فوائد ترجمة القرآن الكريم
٢٨٢	الفصل الثاني والعشرون: علم المناسبات
٢٨٢	معنى المناسبة
٢٨٨	صلة سورة الإسراء بسورة القصص
٢٩٠	بين سورة الإسراء وسورة القصص

٢٩٣	الفصل الثالث والعشرون: أمثال القرآن الكريم
٢٩٤	معنى المثل
٣٠١	أنواع الأمثال
٣٠٣	الفصل الرابع والعشرون: القسم في القرآن الكريم
٣٠٥	بلاغة القسم في القرآن
٣٠٨	الفصل الخامس والعشرون: حجج القرآن الكريم
٣١٠	خصائص الحجج في كتاب الله
٣١١	حجج القرآن في إثبات الوحدانية
٣١٤	حجج القرآن في إثبات البعث
٣١٧	الفصل السادس والعشرون: أنماط من الشبهات حول القرآن
٣١٧	تمهيد
٣١٩	شبهات الأقدمين: الروايات التي تثير الريب في تواتر القرآن الكريم
٣٢٢	الموازنة بين هذين القولين
٣٢٤	الرواية عن عائشة رضي الله عنها
٣٣٣	الرواية عن مجاهد
٣٣٤	الرواية عن عثمان ؓ
٣٤١	ماروي عن عبدالله بن مسعود
٣٤٦	المسلمون على اختلاف طوائفهم مجمعون على سلامة القرآن من التحريف والزيادة والنقص
٣٤٩	الفصل السابع والعشرون: شبهات المحدثين
٣٤٩	شبهات المستشرقين
٣٥٨	الفصل الثامن والعشرون: الحداثيون والعلمانيون أمام النص القرآني
٣٦٨	النموذج الأول: محمد أركون
٣٧٥	تجريحه الفقهاء والعلماء
٣٧٨	المخاض الصعب

٣٩٢	النموذج الثاني: نصر حامد أبو زيد
٤٠٢	مناقشة
٤٠٧	النموذج الثالث
٤٠٧	الكتاب والقرآن دراسة معاصرة لمحمد شحرور
٤٠٩	العرض الإجمالي
٤١٠	أ- ما يتصل بالقرآن الكريم
٤١٤	ما يتصل بالفقه
٤١٥	فيما يتصل بالعقيدة
٤٢٢	شبهات الخوئي حول القراءات القرآنية
٤٢٢	الشبهة الأولى
٤٢٣	الشبهة الثانية
٤٢٤	الشبهة الثالثة
٤٢٥	الشبهة الرابعة
٤٢٦	خاتمة الفصل
٤٢٩	الخاتمة
٤٣١	المصادر والمراجع
٤٤١	الفهرس

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس